

Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES





39141

v. 2

٢٧٨٥ - ٢٠% Remission
13/3/45
١٥٥
تَاجِ الْإِسْلَامِ

السِّيَاسِيّ وَالِدِينِيّ وَالْثَقَافِي وَالْاجْتِمَاعِيّ

أجزء الثاني

العصر العباسي الأول

١٣٢ - ٢٣٢ هـ (٧٥٠ - ٨٤٧ م)

تأليف

حسن إبراهيم حسن

عميد كلية الآداب وأستاذ التاريخ الإسلامي

بجامعة فؤاد الأول

D. Litt. (Cairo), Ph. D, D. Lit. (London).

دار النشر

مكتبة النهضة المصرية

٩ شارع عدلي باشا بالقاهرة - تليفون ٥١٣٩٤

45-38141

893.791

H27

v. 2

COLUMBIA
UNIVERSITY
LIBRARY

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الكتاب

يسرني أن أقدم إلى قراء العربية الجزء الثاني من كتابي « تاريخ الإسلام : السياسي والديني والثقافي والاجتماعي » ، بعد الجزء الأول منه ، الذي نشرته في سنة ١٩٣٥ ، والذي يتناول الكلام على تاريخ العرب في الجاهلية ، وتاريخ البعثة النبوية ، وعصر الخلفاء الراشدين والأمويين .

وهذا الجزء الثاني يتناول تاريخ العصر العباسي الأول (١٣٢ - ٢٣٢ هـ) ، الذي يسميه بعض المؤرخين العصر الذهبي للإسلام . وقد قسمته ثمانية أبواب : بحثت في الباب الأول منها حالة الأحزاب في آخر العصر الأموي وما كان لها من أثر في قيام الدولة العباسية ، وترجمت في الباب الثاني لخلفاء العصر العباسي الأول ، مبيّنا أهم الأحداث التاريخية التي وقعت في عهد كل منهم ، وعالجت في الباب الثالث الحركات السياسية والدينية واتجاهاتها وما كان لها من أثر في السياسة والدين والأدب والاجتماع وغير ذلك . وبحثت في الباب الرابع العلاقات الخارجية للدولة العباسية مع بلاد المغرب التي كانت في حروب مستمرة مع الدولة العباسية ، ومع بلاد الأندلس والفرنجة ، ومع البيزنطيين والهند . وتكلمت في الباب الخامس على نظم الحكم السياسية والإدارية والمالية والحربية والقضائية ، لأبين كيف كانت تدار الحكومة الإسلامية في ذلك العصر . وعرضت في الباب السادس للحالة الاقتصادية وما بلغه العباسيون من تقدم ورقى في مضمار الزراعة والصناعة والتجارة ، ثم ألممت في الباب السابع بحالة الثقافة والفن ، فبحثت أنواع العلوم العقلية ، كعلم القراءات والتفسير والحديث والفقه وعلم الكلام والنحو والشعر والأدب ، وأنواع العلوم العقلية ، وما كان لتشجيع الخلفاء والأمراء ورجال الدولة من أثر في ترجمة الكتب الأجنبية إلى العربية ، كما تكلمت على معاهد الدرس والثقافة ، واهتمام المسلمين بالتاريخ والجغرافيا وعلم النجوم والرياضيات والكيمياء والطب ، وألممت بتاريخ الفنون وخاصة فن العمارة ، الذي يعتبر بحق مقياساً لحضارة الأمم ونهضتها في كل عصر . ثم تناولت في الباب الثامن الحالة الاجتماعية ، فبحثت في طبقات المجتمع العباسي ، ومجالس الغناء والطرب ،

وقصور الخلفاء والأمراء والوزراء وغيرهم ، وألوان الطعام واللباس ، والأعياد والمواسم والحفلات وأنواع التسلية ، وما كان للبرأة من أثر في هذا المجتمع .

وقد نهجت في هذا الجزء نهجا جديدا ، فلم أقصر على سرد الحوادث التاريخية مجردة . إذ كان بعض المشتغلين بعلم التاريخ لا يتعدون ذكر الحوادث والحروب ، مما جعل قراءته تبعث السآمة والملل في نفس القارىء . لذلك بحثت هذا العصر من نواحيه المتعددة ، سياسية ودينية وثقافية واجتماعية ، مما يسهل على القارىء الإحاطة بتاريخ ذلك العصر إحاطة شاملة . كما يجد فيه القارىء مرشدا للصادر الأصلية إذا أراد التوسع في مسألة من المسائل .

ولكى تتم الفائدة من قراءة هذا الكتاب والانتفاع به ، ذيلته بفهارس شاملة لأسماء الأعلام والأماكن والحوادث التاريخية الهامة .

ولا يفوتنى أن أقدم في هذا المقام جزيل شكرى وعاطر ثنائى لكل من حضرات الأساتذة مصطفى السقا ، وزكى محمد حسن ، وطه احمد شرف ، وعلى ابراهيم حسن ، ومحمد جمال الدين سرور ، ومصطفى طه بدر ، وكال الصيرفى افندى الطالب بقسم الماجستير بكلية الآداب على جميل مساعدتهم لى .

حسن ابراهيم حسن

٦ فبراير سنة ١٩٤٥

محتويات الكتاب

صفحة	
ج	مقدمة الكتاب
هـ	محتويات الكتاب
م	جدول الخلفاء الأمويين
ن	جدول الخلفاء العباسيين
س	جدول طائفتي الإمامية الاثنا عشرية والاسماعيلية أو السبعية

الباب الأول

حالة الأحزاب في آخر العصر الأموي

١	١ — الجماعة والشيعة والخوارج والمرجئة والمعتزلة
١	(أ) الجماعة
١	(ب) الشيعة
٢	(ج) الخوارج
٤	(د) المرجئة
٦	(هـ) المعتزلة
	٢ — حزب بني أمية وانقسامه على نفسه
٧	أولا : بتأثير المنافسة بين أفراد البيت الأموي
٩	ثانيا : بالعصية في الأمصار والجيش
	٣ — حزب بني هاشم واتحاد كلمته للقضاء على بني أمية
١١	(أ) إنتقال حق الإمامة من العلويين إلى العباسيين
١٢	(ب) تنظيم الدعوة العباسية
	٤ — قيام الدولة العباسية
١٣	(أ) ميل الموالي إلى بني هاشم
١٥	(ب) زوال الدولة الأموية

الباب الثاني

خلفاء العصر العباسي الأول

صفحة	
١٩	أبو العباس السفاح
٢٣	أخلاق السفاح وصفاته
٢٦	أبو جعفر المنصور
٣٠	أخلاق المنصور وصفاته
٣٦	وفاة المنصور
٣٨	المهدي
٣٩	إصلاحات المهدي
٤٠	الفتن والثورات
٤١	وفاة المهدي
٤١	الهادي
٤٢	تنكيله بالخوارج والزنادقة - عزمه على خلع أخيه هارون
٤٤	أخلاقه وصفاته
٤٥	وفاة الهادي
٤٦	هارون الرشيد
٤٧	الفتن والثورات
٤٩	البرامكة
٥٤	صفات الرشيد وأخلاقه
٥٧	وفاة الرشيد
٥٨	الأمين
٦٢	المأمون
٦٣	الأحوال الداخلية
٦٧	صفات المأمون
٦٩	المعتصم
٧٠	الفتن والثورات
٧٢	صفات المعتصم

الوائق	٧٣
صفات الواثق	٧٦

الباب الثالث

الحركات السياسية والدينية

١ — حالة الأحزاب السياسية عقب قيام الدولة العباسية

(أ) إشراف العباسيين في التمثيل ببنى أمية	٧٨
(ب) ميل العباسيين إلى الفرس وإبشارهم بالمناصب المدنية والعسكرية —	
طمع الفرس في السلطان واستثناهم الدعوة لآل علي	٨٢
(ج) حرج مركز العباسيين أيام المنصور بين الساخطين من العرب وعلى	
رأسهم عم المنصور عبد الله بن علي ، والساخطين من الفرس وعلى	
رأسهم أبو مسلم الخراساني	٨٦
(د) حركات الموالي : الراوندية — المقنعية — الخرمية — الزنادقة :	

١ — الراوندية	٩٣
٢ — المقنعية	٩٥
٣ — الخرمية :	

(أ) بابك الخرمي	٩٦
مبادئ الخرمية	٩٩
(ب) الأفشين والمازيار	١٠٠
٤ — الزنادقة	١٠٥

٢ — ظهور الحزب العلوي في ميدان السياسة واعتماده على السيف

(أ) ثورة محمد وإبراهيم في الحجاز والعراق	١١٠
البيت العلوي	١١١
ظهور إبراهيم بن عبد الله بالعراق	١١٦
(ب) إخفاق هذه الثورة وأسبابه — تأثير مصر في ذلك	١٢١
(ج) موقف الحزب العلوي بعد ثورة محمد وإبراهيم	

(ج)

- ١ - ثورة الحسين بن علي ١٢٥
٢ - ثورة يحيى وإدريس ابني عبد الله ١٢٧
٣ - خروج محمد بن جعفر والقاسم بن إبراهيم ١٢٨
٣ - الجهاد النظري بين الحزبين العلوي والعباسي

(١) في الشعر

- ١ - الشعراء العلويون ١٣٠
٢ - الشعراء العباسيون ١٣٥

(ب) في العلم والكتلام بنوع خاص

- ١ - الشيعة ١٣٦
طائفتا الإمامية ١٣٨
٢ - المعتزلة ١٤٠
٣ - أهل السنة ١٤٤

(ج) في السياسة : أثر الوزراء العباسيين والبرامكة خاصة

- في هذا النزاع ١٤٧
نكبة البرامكة ١٤٩

٤ - تطور موقف الحزبين العلوي والعباسي بعد نكبة البرامكة
قوة الحزب العباسي بعد نكبة البرامكة

- ١ - تولية الرشيد أولاده العهد وتقويتها للحزب العلوي ١٥٧
٢ - الفتنة بين الأمين والمأمون : كيف كانت هذه الفتنة
جهاد احزبي بين الفرس أنصار المأمون من ناحية ،
وبين العرب أنصار الأمين من ناحية أخرى . ١٦٠
٣ - تولية المأمون عليا الرضا عمده ١٦٤
٥ - ظهور العنصر التركي ١٧١

الباب الرابع

العلاقات الخارجية

- ١ - مع بلاد المغرب ١٧٥
٢ - مع بلاد الأندلس والفرنجية ١٨٠

صفحة	
١٨٥	٣ - مع البيزنطيين
١٩١	٤ - مع بلاد الهند

الباب الخامس

نظم الحكم

	١ - النظام السياسى
١٩٤	(أ) مظاهر الخلافة :
١٩٦	(ب) الوزارة .
٢٠١	(ج) الكتابة .
٢٠٢	(د) الحجابة .
	٢ - النظام الإدارى
٢٠٢	(أ) الإمارة على البلدان .
٢٠٤	(ب) الدواوين .
٢٠٥	(ج) البريد .
٢٠٧	(د) الشرطة .
٢٠٨	٣ - النظام الحربى .
٢١٠	٤ - النظام المالى :
٢١٨	طساسبج السواد فى الجانب الغربى .
٢١٩	طساسبج السواد فى الجانب الشرقى .
٢٢٠	موارد الجباية من سائر أقاليم المشرق والمغرب مع السواد .
٢٢١	٥ - نظام القضاء .
٢٢٢	النظر فى المظالم .

الباب السادس

الحالة الاقتصادية

٢٢٦	١ - الزراعة
٢٣٠	٢ - الصناعة
	٣ - التجارة
٢٣١	مراكز التجارة
٢٣٤	وصول تجارة العرب إلى بلاد الصين

الباب السابع

الثقافة والفن

١ - الثقافة :

٢٣٩	اشتغال الموالي بالعلم
٢٤١	تقسيم العلوم
	(١) العلوم العقلية
٢٤١	١ - علم القراءات
٢٤٢	٢ - التفسير
٢٤٥	٣ - الحديث
٢٤٦	٤ - الفقه
٢٤٨	٥ - علم الكلام
٢٥٠	٦ - النحو
	٧ - الشعر والأدب
٢٥١	(١) الشعر
٢٥٥	(ب) الأدب
	(ب) العلوم العقلية :
٢٥٦	١ - الترجمة
٢٥٨	٢ - معاهد الدرس والثقافة
٢٥٩	٣ - التاريخ
٢٦٠	٤ - الجغرافيا

(ك)

صفحة	
٢٦١	٥ — علم النجوم والرياضيات والكيمياء
٢٦٢	٦ — الطب
٢٦٤	٢ — الفن
	(١) بغداد

٢٦٨	١ — العواصم الإسلامية التي سبقت بغداد
٢٧٠	٢ — اختيار موقع بغداد
٢٧٢	٣ — بغداد قبل تمصيرها
٢٧٣	٤ — اشتقاق لفظ بغداد
٢٧٤	٥ — تخطيط بغداد
٢٧٦	٦ — إتمام البناء
٢٨٠	٧ — القطائع والأرباض
٢٨١	٨ — الرصافة
٢٨٢	٩ — الكرخ
٢٨٣	١٠ — نفقات بناء بغداد
٢٨٤	١١ — ما قيل في وصف بغداد
٢٨٥	(ب) سامرا

الباب الثامن

الحالة الاجتماعية

٢٨٩	١ — طبقات الشعب
	٢ — مجالس الغناء والطرب
٢٩٢	(١) مراتب الندماء
٢٩٤	(ب) مجلس الغناء في عهد الرشيد
٣٠١	(ج) مجلس الغناء في عهد الأمين
٣٠٢	(د) مجالس الغناء في عهد المأمون والمعتصم والواثق
٣٠٥	٣ — قصور الخلفاء والأمراء والوزراء

صفحة	
٤ - الطعام	٣٠٩
٥ - الملابس	٣١٠
٦ - المرأة	٣١٢
٧ - الأعياد والمواسم والخفلات	
(أ) الاحتفال بالعيدين	٣١٥
(ب) الاحتفال بالثوروز والمهرجان والرام	٣١٦
(ج) مواكب الخلفاء : صلاة الجمعة ، موكب الحج	٣١٨
(د) حفلات الزواج	٣٢٢
٨ - أنواع التسلية	٣٢٢

فهارس الكتاب

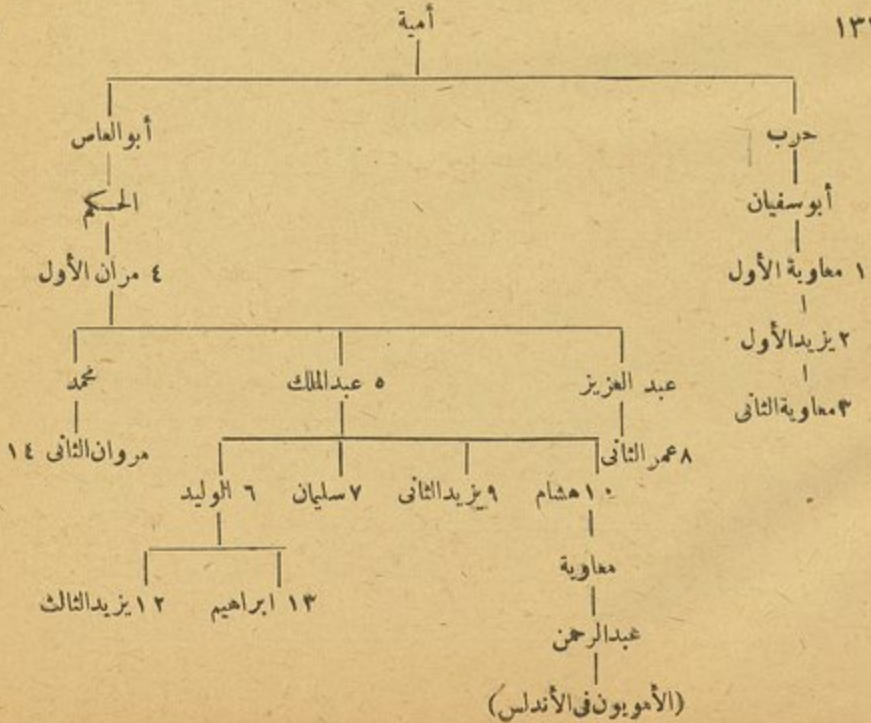
١ - الأعلام	
(أ) أسماء الرجال	٣٢٤
(ب) أسماء النساء	٣٥١
٢ - الأماكن	٣٥٣
٣ - الكلمات التي تدل على حوادث تاريخية هامة	٣٦١
٤ - الخرائط التاريخية والصور	
الخلفاء الأمويون	م
الخلفاء العباسيون	ن
خريطة اتساع الدولة العباسية	أمام ص ١٩
بغداد بين سنتي ١٥٠ ، ٣٠٠ هـ	٢٧١
المدينة المدورة في عهد أبي جعفر المنصور	٢٧٩

(م)

الخلفاء الأمويون

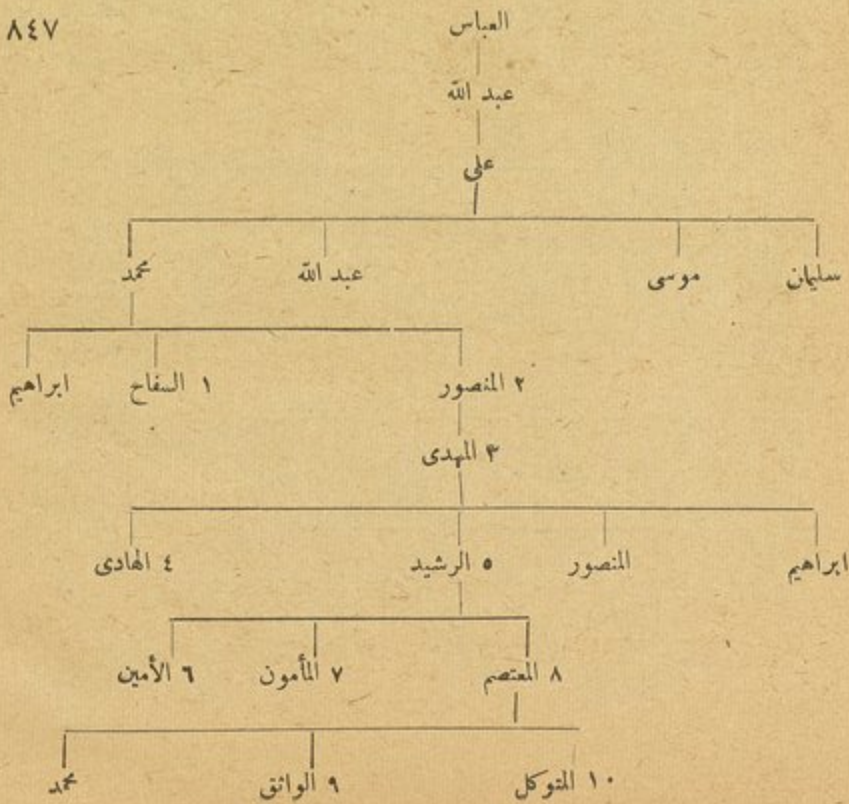
(٤١ - ١٣٢ = ٦٦١ - ٧٥٠ م)

هجري	معاوية	ميلادية
٤١	معاوية	٦٦١
٦٠	يزيد الأول	٦٨٠
٦٤	معاوية الثاني	٦٨٣
٦٤	مروان	٦٨٣
٦٥	عبد الملك	٦٨٥
٨٦	الوليد	٧٠٥
٩٦	سليمان	٧١٥
٩٩	عمر بن عبد العزيز	٧١٧
١٠١	يزيد الثاني	٧٢٠
١٠٥	هشام	٧٢٤
١٢٥	الوليد الثاني	٧٤٣
١٢٦	يزيد الثالث	٧٤٤
١٢٦	ابراهيم	٧٤٤
١٢٧	مروان الثاني	٧٤٤
١٣٢	أمة	٧٥٠



خلفاء العصر العباسي الأول

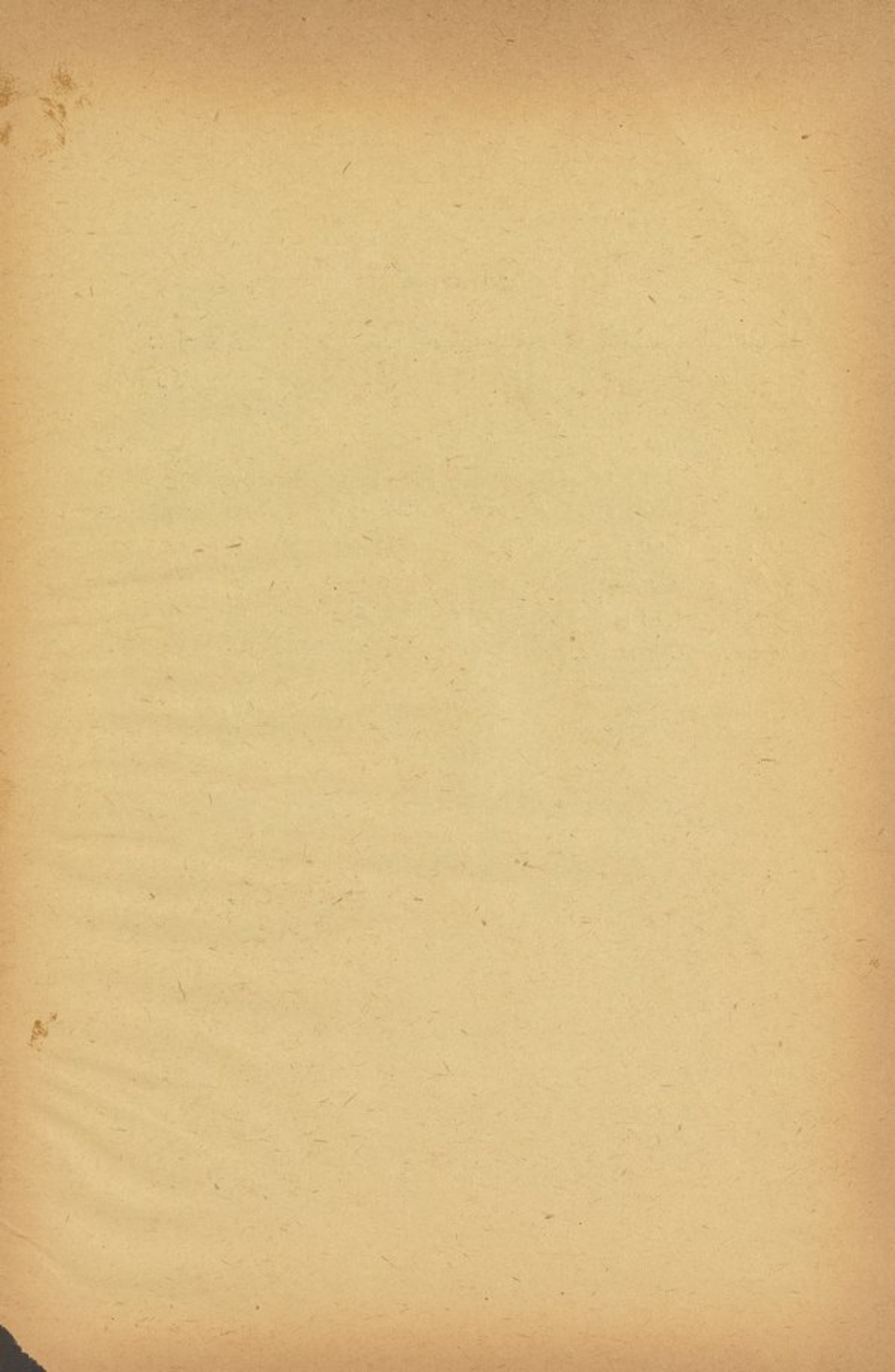
هجري	ميلادي
١٣٢	٧٥٠
١٣٦	٧٥٤
١٥٨	٧٧٥
١٦٩	٧٨٥
١٧٠	٧٨٦
١٩٣	٨٠٩
١٩٨	٨١٣
٢١٨	٨٣٣
٢٢٧	٨٤٢
٢٣٢	٨٤٧



تصحیحات

نعتذر للقارئ عن وقوع بعض أخطاء مطبعية راجين أن يتفضل بأصلاحها قبل
قراءة الكتاب

صفحة	سطر	خطأ	صواب	صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٦	٣٠	Nicholson	Nicholson	١٢٨	١٣	خطأ	صواب
٣٧	٨	ومولا	ومولا	١٣٩	٧	١٩٨	١٤٨
٣٨	٢٤	أبو دلالة	أبو دلالة	١٤٣	١٨	براوین	براون
٥٨	٢٣	التبديير	التبديير	١٤٦	١٦	الشورى	الثورى
٨٣	٢٧	فشر	نشر	١٥٧	١٦	(١)	تخذف
١٠٢	٢٦	للبازيان	للبازيار	٢٠٤	٢٧	Calphs	Caliphs



الباب الأول

حالة الأحزاب في آخر العصر الأموي

١ - الجماعة والشيعة والخوارج والمرجئة والمعتزلة

(١) الجماعة :

لما انتقل الرسول إلى جوار ربه ، وترك الأمر شورى للعرب ليختاروا من بينهم من يلي أمورهم ، اختلف المهاجرون والأنصار فيمن يولونه الخلافة ، وانتهى الأمر بتولية أبي بكر . ولكن كثيرا من العرب ، كالعباس عم النبي وطلحة والزبير ، انضموا إلى علي ، وأدى ذلك بعد إلى انقسام الأمة العربية إلى فريقين : جماعة وشيعة .

فاما الجماعة فهم الجبهة الكبرى من أهل الإسلام ، وهم الذين رضوا خلافة الشيخين أبي بكر وعمر ، وعثمان من بعدهما . ولما استقر الأمر لبني أمية دخلوا في طاعتهم . ومن تاريخ هذه الجماعة الكبيرة يتألف تاريخ الدولة الإسلامية على الحقيقة ، فاما من عداها فاحزاب متأثرة أو طوائف خارجة لم تجتمع على واحدة منها كلمة المسلمين ، ولا كانت لها دولة جامعة ، وإن ملك بعضها ملكا واسعا في حقب من التاريخ .

(ب) الشيعة :

وأما الشيعة فهم الذين يرون أن الخلافة يجب أن تكون في بيت النبي ؛ وقد قرروا أنها حق لعلي بن أبي طالب ثم لأولاده بالوراثة من بعده ، وقال الغلاة منهم إن الأئمة معصومون ، وأن صفات الله سبحانه قد حلت فيهم وتقمصت أجسامهم ، وأن من قال بغير ذلك من الفرق الإسلامية - حتى بعض فرق الشيعة - خارجون على الدين . ودلوا على صحة هذا الرأي بأن عليا كان أول من اعتنق الإسلام من الرجال ، وأن ما قام به في سبيل رفع منار هذا الدين لا يستطيع أن يبذه فيه أحد من المسلمين بعد النبي (١) . ونسب الغلاة أيضا إلى النبي أحاديث تشهد بما لآل علي من حرمة ، وبما لعلي من حق في الإمامة بعد الرسول عليه السلام .

ونشر ابن سبأ مذهب الوصاية الذي أخذه عن اليهودية دينه القديم ، بمعنى أن عليا وصي محمد ، وأنه خاتم الأنبياء بعد محمد خاتم النبيين ؛ واتهم من ناوموا عليا وتعدوا على حقه في

الإمامة ، كما أخذ عن الفرس — الذين كانوا يحتلون في صدر الإسلام بلاد التي موطنه الأصلي — نظرية الحق الإلهي ، بمعنى أن عليا هو الخليفة بعد النبي ، وأنه يستمد الحكم من الله . وبذلك هيا العقول إلى الاعتقاد بأن عثمان أخذ الخلافة بغير حق من عليّ وصيّ رسول الله (١) .

وإن الباحث في تاريخ الشيعة في العصر الأموي ليرى أن موقعة كربلاء (سنة ٦١ هـ) قد وحدت صفوف الشيعة ، وأثارت في نفوسهم الحماسة ، للاخذ بثأر الحسين بن علي ، كما أذكت مأساة كربلاء روح التشيع بعد أن كان رأيا سياسيا نظريا لم يصل إلى قلوب الشيعة . ولكن التشيع امتزج بعدمقتل الحسين بدمائهم ، وأصبح عقيدة راسخة في نفوسهم . وانتشر التشيع بين الفرس الذين تربطهم بالحسين رابطة المصاهرة ، إذ كانوا يرونه أحق بالخلافة هو وأولاده من بعده ، لأنهم يجمعون بين أشرف دم عربي وأنقى دم فارسي .

وقد وجد عبد الله بن الزبير في موقعة كربلاء فرصة سانحة لتحقيق أغراضه السياسية تحت ستار الأخذ بثأر الحسين بن علي ، كما تهيأت الفرصة للخنثار بن أبي عبيد الثقفي الذي ادعى إمامة محمد بن الحنفية بن علي بن أبي طالب . وكان من أثر ذلك أن انضم إليه التوابعون الذين ندموا على ما فرطوا في حق الحسين ، وعدم إغايتهم له ، حتى قتل بينهم ، وتابوا مما فعلوا ، ثم تحالفوا على بذل نفوسهم وأموالهم في الأخذ بثأره ، وانضموا إلى الخنثار بن أبي عبيد ، وحاربوا عبيد الله بن زياد وإلى العراق ، الذي قتل الحسين بن علي ، وقتلوه .

وأتاح هذه الحروب التي دارت بين جنود الأمويين وبين جيوش الخنثار ، الفرصة لعبد الله ابن الزبير وأخيه مصعب للقضاء على الخنثار والاستيلاء على بلاد العراق والحجاز ومصر .

ومع أن الأمويين قد تغلبوا على ابن الزبير ، فقد فتّ في عضدهم وجعلهم يعرضون بشار الندم ، قتل الحسين في موقعة كربلاء . وفي ذلك يقول نيكلسون في كتابه تاريخ العرب الأدبي (٢) : « لقد جعل بنو أمية بعد يوم كربلاء يندمون على سوء صنيعهم ، إذ أن هذا اليوم وحد صفوف الشيعة ، فصاحوا صيحة واحدة : يا لثارات الحسين ، هذا النداء الذي دَوَّى في كل مكان ، وبخاصة عند الموالي من الفرس الذين تاقوا إلى الخلاص من نير العرب » .

(ح) الخوارج :

من الأحزاب التي خرجت على الأمويين حزب الخوارج الذين كانوا بالأمس من أشياع عليّ بن أبي طالب ثم خرجوا عليه بعد التحكيم ؛ وكانوا يقولون بصحة خلافة أبي بكر وعمر وعثمان في سنيه الأولى ، وعليّ إلى أن حكم الحكمين . ويمثل هؤلاء الخوارج أوجه الديمقراطيون ، كما يسميهم فان فلوتن في كتابه « السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات في عهد بني أمية » (٣) :

(١) نفس المصدر ص ٢١ — ٢٧ .

(٢) Nicholson : Lit. History of the Arabs, p. 197-8. (٢)

(٣) أنظر ص ٦٩ من الترجمة العربية للدكتور حسن إبراهيم حسن ومحمد زكي إبراهيم .

« المبادئ الديمقراطية المتطرفة » ، ويعتقدون أن الخلافة حق لكل عربي حر . على أن منهم من أدخل على نظريتهم بعض التعديل ، فشرطوا الإسلام والعدل بدل العروبة والحرية ، ولا سيما حين انضم إلى صفوفهم كثير من المسلمين من غير العرب ، حيث جعلوا حق الخلافة شامعا بين جميع المسلمين الأحرار والأرقاء على السواء ، وخالفوا بذلك نظرية الشيعة التي تقول بحصر الخلافة في آل بيت النبي .

وكان لسياسة المسلمين على سوء تصرف بعض الخلفاء الأمويين أثر كبير في إثارة الشيعة والخوارج والموالي من الفرس ، وأتيحت الفرصة للخوارج لنصب أنفسهم لحماية هؤلاء من نير الأمويين . وكانت صبغة الخوارج منذ نشأتهم صبغة سياسية محضة ، على عكس ما ذهب إليه نيكلسون في كتابه تاريخ العرب الأدبي (١) إذ يقول : « وقد ظلت كذلك حتى خلافة عبد الملك بن مروان ، حيث مزجوا تعاليمهم السياسية بالأبحاث الدينية ، فقالوا إن العمل بأوامر الدين من صلاة وصيام وصدق وعدل جزء من الإيمان ، وليس الإيمان الاعتقاد بالله ورسالة محمد فحسب ؛ فمن اعتقد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، ثم لم يعمل بما يفرضه الدين ، وارتكب الكبائر فهو كافر . وهكذا كانت أفكار الخوارج في الدين لا تقل شدة عن أفكارهم في السياسة . فقد صبغت روح تعصبهم السياسي وجهات نظرهم الدينية أيضاً ، فكانوا أشداء في الدين غير متسامحين لا تعرف المرونة ولا اليسر إلى نفوسهم سبيلا (٢) » .

ويقول فان فلوتن (٣) : « وفي بلاد العراق والجزيرة نصب الخوارج أنفسهم منذ خلافة عمر ابن عبد العزيز حُماة للضعفاء والمضطهدين وحربا على المستبدين والطاغين ؛ وفي إفريقية أمد هؤلاء الخوارج البربر المتدمرين من حكم الأمويين بالأسلحة التي استعانوا بها على قتال ولائهم في تلك البلاد . كذلك ثار ببلاد اليمن عبد الله بن يحيى الخارجي الملقب بطالب الحق ، احتجاجا على ذلك الاستبداد الظاهر وتلك المعاملة القاسية التي كان يُعامل بها ولادة بني أمية أهل تلك البلاد . وكان الخوارج في ذلك الوقت غير الخوارج الذين حاربهم الأمويون وانتصروا عليهم من قبل ، فقد كانوا يحاربونهم بسيف الدين ويقارعونهم بحجج الإسلام . وقد وضع الخوارج تلك القاعدة ، وهي أن مرتكب الكبيرة كافر — حين تطور النزاع بينهم وبين أعدائهم من الأمويين وانحصر بين الرضا أو عدم الرضا عن كل حكومة جائرة أيما كانت تلك الحكومة ، بعد أن كان نزاعا شخيصيا محضا ينحصر في شرعية خلافة فلان أو فلان .

(١) Nicholson : Literary History of the Arabs, p. 210 نقلا عن :

Wellhausen : Die Religios — politischen Oppositionsparteien im alten Islam, p. 8 sqq.

(٢) السيادة العربية ترجمة المؤلف ص ٧٢ — ٧٣ .

وهكذا ظلت تلك القاعدة القديمة التي وضعها الخوارج — وهي تكفير المؤمن العاصي — على رغم تغير موضوعها واختلافه باختلاف الأحوال التي كانوا يطبقونها عليها . وقد اشتد الخوارج في معاملة المخالفين لهم . وإن الناظر إلى مبادئهم ليجد أنهم قد اشتطوا جميعا في الحكم على مخالفهم ، حتى ساءوا بينهم وبين الكفار عبدة الأوثان . فلا عجب إذا اشتطوا في حربهم وبذلوا نفوسهم في سبيل الذود عن مبادئهم . وقد ضربوا المثل في الشجاعة النادرة والبطولة الفذة ، وشغلوا ، كما رأينا ، الحزب الأموي وغيره مدة غير قليلة من الزمن ، حتى كلفوا الأمة الإسلامية ثمنا غالبا من الأموال والأرواح ^(١) . وقد تفانوا في آرائهم الدينية تفانيهم في حروبهم ، حتى قيل إن أربعين رجلا من الخوارج استطاعوا أن يهزموا جيش عبيد الله بن زياد وكانت عدته ألنى رجل فقال أحد شعراء الخوارج :

أَلْفَا مُؤْمِنٍ فِيمَا زَعَمْتُمْ وَيَقْتُلُهُمْ بَأْسُكَ أَرْبَعُونَ
كَذَبْتُمْ لَيْسَ ذَلِكَ كَمَا زَعَمْتُمْ وَلَكِنَّ الْخَوَارِجَ مُؤْمِنُونَ
هِيَ الْفِتْنَةُ الْقَلِيلَةُ قَدْ عَلِمْتُمْ عَلَى الْفِتْنَةِ الْكَثِيرَةِ يُنْصَرُّونَا ^(٢)

ويرى نيكلسون ^(٣) أن الخوارج كانوا المثل الأعلى في الدفاع عن العقيدة والاستماتة في سبيل الانتصار للبدأ ، على رغم ما كان من اعتسافهم في ذلك المبدأ واشتطاطهم في تلك العقيدة ، مما أدى إلى إخفاقهم . وقد لانت قناتهم قليلا وابتدأ الاعتدال والتسامح يصل إلى نفوسهم ويسود أفكارهم ، حين وجدوا أنفسهم أمام خطر داهم كاد ينتهي بإبادةهم واستئصال شأقتهم . وفي عهد مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية (١٢٧ — ١٣٢ هـ) تفاقم خطر الخوارج الذين انتهزوا فرصة انقسام حزب بني أمية على نفسه ، وثاروا بزعامة الضحَّاك بن قيس الشَّيباني وهددوا العراق . ولكن قتل الضحَّاك لم يضع حدا لثورات الخوارج في بلاد العراق ، فقد ظهر فيهم زعيم جديد ، هو أبو حمزة الخارجي ، الذي ثار في الحجاز وحضر موت ؛ ولكن مروان بن محمد هزمه وقتله . وكانت ثورة أبي حمزة آخر ثورات الخوارج في عهد بني أمية . وقد استفاد الأمويون قواهم في إخماد الثورات التي أثارها عليهم الأحزاب المختلفة وبخاصة الخوارج ، مما شغلهم عن التفرغ لشئون الدولة وأدى إلى انحلالها .

(د) المرجئة :

ونستطرد الآن إلى الكلام على طائفة من الطوائف الإسلامية ، لا يقلل أثرها خطرا في اتجاه السياسة الإسلامية عن الشيعة أو المالكين والخوارج أو الجمهوريين ، وهو حزب المرجئة

(١) تاريخ الإسلام السياسي للمؤلف ج ١ ص ٤٧١ .

(٢) إشارة إلى سورة البقرة آية ٢٤٩ (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين) .

(٣) Lit. Hist. of the Arabs, p. 211.

الذى ظهر في دمشق بتأثير بعض العوامل المسيحية خلال النصف الثاني من القرن الأول الهجري. تخالف المرجئة الخوارج في تكفيرهم الخلفاء الثلاثة : عثمان وعلياً ومعاوية وأنصارهم ، ذاهبين إلى القول بأن كل من آمن بوحداية الله لا يمكن الحكم عليه بالكفر ، وأن ذلك موكول إلى الله وحده يوم القيامة ، مهما كانت الذنوب التي اقترفها والمبادئ السياسية التي يدين بها . فهم يرجنون الحكم على إخوانهم في الدين إلى الله وحده الذي (يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور) (سورة غافر رقم ٤٠ آية ١٩) .

وكانت مسألة المسائل في ذلك الحين هي موقف حديثي العهد بالإسلام . وقد قامت المرجئة بدور هام في التوفيق بين المصالح المتعارضة بين العرب وغيرهم من المسلمين ، حين تطور النزاع بين الأحزاب والطوائف ، وحلت تلك المشكلة الاجتماعية الجديدة محل الخلاف على الإمامة . وقد ذهبت المرجئة إلى القول بأنه لا يحل للحكومة أن تعامل هؤلاء كما لو كانوا لايزالون على كفرهم ، بعد أن أصبحوا مسلمين لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم . وعلى هذا كانوا لا يخرجون عن قتال أية حكومة تُقرر مثل تلك المظالم . ومن ثم لاندesh بعد أن وقفنا على حوادث الشدة والعسف في بلاد ما وراء النهر أن نرى هؤلاء يحرمون سفك الدماء البريئة ويجهرون بأن جميع المسلمين أخوة في الدين . وصفوة القول أن كل ما كان ينشده هؤلاء إنما هو العودة إلى مبدأ المساواة بين الشعوب الذي أقره الإسلام ، وأنه لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى (١) .

وكان ذلك بلارب شعور الجمهور الأعظم من أتباع الحارث بن سُرَيج الذي قام على رأس المرجئة بثورة على الأمويين في بلاد ما وراء النهر ، وطالما حارب الحكومة الأموية لاشتطائها في جمع الضرائب من الأهليين . وكان يزعم أنه المهدي الذي بعشه الله لتخليص المضطهدين والأخذ بناصر المظلومين ، لذلك أشعل نار الثورة على بني أمية . وكل ما كان يرمى إليه الحارث الرجوع إلى القرآن والسنة وانتخاب حكومة ترضى عنها الأغلبية . وسرعان ما استولى على المدن الواقعة على شواطئ نهر سيحون ، ثم اضطر أمام ضغط جيوش أسد بن عبد الله القسري الذي ولى خراسان إلى التخلي عما فتحه من البلاد والانسحاب إلى بلاد ما وراء النهر (١١٨ هـ) ، ثم عفا عنه الخليفة الوليد الثاني بتدخل نصر بن سيار وإلى خراسان . ولكن الحارث عاد إلى التمرد ، فانضم إلى اليمانية وطرده نصر بن سيار من مرو وحاضرة خراسان ، ثم دب بينه وبين اليمانية ذلك الشقاق الذي لم ينته إلا بموته سنة ١٢٨ هـ .

(١) راجع كتاب : السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات في عهد بني أمية ، ترجمة المؤلف

وبما هو جدير بالملاحظة أن ثورة الحارث لم تكن إلا نتيجة لتدمير الموالي وعلى رأسهم المرجئة (١).

(هـ) المعتزلة :

أما القدرية أو المعتزلة (٢) فإنها لا تقل أثراً عن تلك الطوائف الثلاث في اتجاه السياسة الإسلامية . ويظهر أن نشأة المعتزلة كانت في بلاد العراق التي كانت مهداً للحضارتين الفارسية والسامية ، والتي أصبحت كعبة العلم ومقر الحكومة في عهد العباسيين ، على الرغم مما ذهب إليه فون كرم Streifzuge, pp. 7-9 من أن الاعتزال نما وانتشر في دمشق بتأثير رجال الدين من البزنطيين . وقد سما القدرية أيضاً لأنهم يقولون بحرية إرادة الإنسان . وتكون عقيدة القدرية من خمسة أصول : التوحيد ، والعدل ، والوعيد ، والقول بالمنزلة بين المنزلتين ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وقد ابتدأت المعتزلة منذ نشأتها طائفة دينية لا دخل لها في السياسة ، على عكس ما كان عليه الخوارج والشيعة والمرجئة . إلا أنها لم تلبث أن خاضت غمار السياسة فتكلمت في الإمامة وشرط الإمام ، وفي ذلك يقول المسعودي (٣) : ويذهب المعتزلة إلى أن الإمامة اختيار من الأمة ، وذلك أن الله عز وجل لم ينص على رجل بعينه ، وأن اختيار ذلك مفوض إلى الأمة تختار رجلاً منها ينفذ فيها أحكامه ، سواء كان قرشياً أو غيره من أهل ملة الإسلام وأهل العدالة والإيمان . ولم يراعوا في ذلك النسب ولا غيره . وواجب على أهل كل عصر أن يفعلوا ذلك . والذي ذهب إلى أن الإمامة قد تجوز في قرشي وغيرهم من الناس هو المعتزلة بأسرها وجماعة من الزيدية مثل الحسن بن صالح بن جنى . ويوافق من ذكرنا على هذا القول جميع الخوارج من الإباضية وغيرهم ، إلا النجدات من فرق الخوارج ، فزعموا أن الإمامة غير واجب نصبها . ووافقهم على هذا القول أناس من المعتزلة ممن تقدم وتأخر ، إلا أنهم قالوا إن عدلت الأمة ولم يكن فيها فاسق لم يستحق إلى إمام . وذهب من قال بهذا القول إلى دلائل ذكروها ، منها قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه : لو أن سالماً حتى ما داخلني فيه الظنون ، وذلك حين فوض الأمر إلى أهل الشورى . فلو لم يعلم عمر أن الإمامة جائزة في سائر المؤمنين ، لم يطلق هذا القول ، ولم يتأسف على موت سالم مولى أبي حذيفة . وقد صح بذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم أخبار كثيرة منها قوله : « اسمعوا وأطيعوا ولو لعبد أجدع » ، وقد قال عز وجل (إن أكرمكم عند الله اتقاكم) (سورة الحجرات ٤ : آية ١٣) .

(١) وقد سميت المرجئة بهذا الاسم من الإرجاء أو التأجيل ، لأنهم يرجئون الحكم على العصاة من المسلمين إلى يوم البعث ، كما يتخرجون عن إدانة أى مسلم مهما كانت الذنوب التي اقترفها . على أن فان فلو تن يرى أن تسمية المرجئة إنما ترجع إلى بعض آى القرآن ، وأنها مأخوذة من قوله تعالى :

(وآخرون مرجون لأمر الله ، إما يعذبهم وإما يتوب عليهم والله عليم حكيم) سورة ٨ آية ١٠٦ .

(٢) تاريخ الاسلام السياسي المؤلف ج ١ ص ٥١١ . (٣) مروج الذهب ج ٢ ص ١٩١ .

وقد تأثرت المعتزلة بالشيعة في قولهم بحرية الإرادة ، تلك العقيدة التي وضع أساسها الأئمة من بيت علي ، كما يطلق المعتزلة على فقهاءهم لقب الأئمة الذي كانت تطلقه الشيعة على فقهاءهم .
ويبين لنا بشكل أوضح الرابطة بين عقيدة الشيعة الرئيسية ومذهب الاعتزال ، ما نلاحظه من تأثر الشيعة بمبادئ المعتزلة في عقيدتهم : إن الامام المنتظر سوف يظهر لنشر العدل والتوحيد . وهذا هو بعينه عقيدة المعتزلة . والزيدية أكثر شبها بالمعتزلة في ذلك من الإمامية إذ تتفق مع المعتزلة فضلا عن ذلك في كثير من النقط والتفاصيل . كما تتفق المعتزلة مع الخوارج في القول بأن الإمامة تجوز في قريش وفي غيرهم من الناس ، كما تتفق معهم أيضا في القول بعدم ضرورة نصب إمام للمسلمين . كما يفهم ذلك من قول الخوارج « لا حكم إلا الله » . ولا غرو فطالما اتخذ الخوارج مبادئ الاعتزال ذريعة للخروج على بني أمية وإثارة الفتن والاضطرابات ، ولا سيما في إفريقية وبلاد المغرب ، تلك المبادئ التي كانت تتفق في كثير من المسائل — وبخاصة فيما كان يتعلق منها بالعقيدة الأساسية — مع ميول الخوارج .^(١)
من ذلك نرى أن هذه الأحزاب كان لها أثر كبير في زوال الدولة الأموية ، وأنهم كانوا يعتقدون أن جهاد الأمويين جهاد ديني ، وكانوا يستندون في ذلك إلى سوء سيرة يزيد الأول ويزيد الثاني والوليد الثاني من الخلفاء الأمويين ، ولا سيما ما كان من هتك حرمة المدينة المنورة في عهد يزيد واتخاذهم المقاصير لتحجج الخليفة عن الناس .

٢ — حزب بني أمية وانقسامه على نفسه

أولا : بتأثير المنافسة بين أفراد البيت الأموي .
يقول فان فلوتن في كتابه السيادة العربية (٢) : « وما هو جدير بالملاحظة أن هذه الطوائف التي نشأت بين العرب في البلاد التي فتحوها ، إنما كانت ترمى بأذى ذي بدء إلى غرض سياسي محض برغم ظهورها بهذا المظهر الديني » .
وكانت الإمامة (وهي القيادة العليا للمسلمين) أولى المسائل التي فرقت المسلمين ، ومزقتهم شيعة وأحزابا . أما بنو أمية (ومقرهم بلاد الشام) فهم أهل الدولة الإسلامية لذلك الحين ، لاجتماع أكثر المسلمين عليهم وخاصة بعد نزول الحسن عن الخلافة لمعاوية ، وكانوا يزعمون أنهم أحق الناس بالخلافة بعد الخلفاء الراشدين (أنى بكر وعمر وعثمان) ، وأنهم أصحاب الحق في الأخذ بثأر عثمان والمطالبة بدمه ، لما كان يربطهم به من أواصر القرابة . وكان يناوئ حكومة الأمويين :

١ — أهل المدينة وهم أنصار النبي ، الذين كانوا لارتباطهم باليمانيين من العرب في نسبهم ،

يكرهون بنى أمية ويعتبرونهم مغتصبين للحكم ، وخاصة بعد موقعة الحرة التى وقعت فى أيام يزيد بن معاوية .

٢ — حزب الشيعة وهم أنصار أهل البيت المتحمسون للدفاع عن حقوقهم فى الخلافة ، ولا سيما حق على .

٣ — حزب الخوارج ، وهم الجمهوريون الذين كانوا يقولون باختيار الخلفاء من بين الأكفاء ، أنسى كانت الطبقة التى ينتمون إليها ، كما كانوا يرون أيضا عزل الخليفة منذ اللحظة التى يفقد فيها ثقة الأغلبية .

وقد أثارت السياسة التى جرى عليها الأمويون فى تولية العهد اثنين ، إلى أحدهما الآخر ، عوامل المنافسة ، وبذرت بذور الشقاق بين أفراد البيت الأموى ، حتى قيل إن الخلافة فى عهد بنى أمية استحالَت إلى ملك استبدادى يعتمد على نظام التوريث . وبذلك خرج الأمويون فى حكم الدولة الإسلامية عن نظام الشورى الذى ساد فى عهد الخلفاء الراشدين .

وكان لهذه السياسة أثرها فى ضعف الأمويين ، فانه لم يكذب الأمر لأحد أبناء الخليفة المتوفى ، حتى يعمل على إقصاء الآخر من ولاية العهد وإحلال أحد أولاده مكانه . وبما زاد هذه الحالة سوءا أن هذا النزاع لم يقتصر على أفراد البيت الأموى ، بل تعداهم إلى القواد والعمال ، حتى إذا ولى الثانى الخلافة انتقم من أنصار الخليفة الذى قبله ، وأقصاهم عن مناصب الدولة .

وكان معاوية أول من سن سنة التوريث من الخلفاء الأمويين ، كما كان مروان بن الحكم أول من عمل على أخذ البيعة لاثنيين من أولاده . واتبع عبد الملك بن مروان سنة أبيه ، فعمل على خلع أخيه عبد العزيز عن ولاية العهد ، وتولية ابنه الوليد وسليمان ، لولا أن حالت وفاة عبد العزيز دون تحقيق هذه السياسة . وسار الوليد سيرة أبيه فى هذه السياسة التى أثارت الحقد والمنافسة بين أفراد هذا البيت ، فقد عمل على خلع أخيه سليمان والبيعة بولاية العهد لابنه عبد العزيز . فلما ولى سليمان الخلافة انتقم ممن ساعدوا الوليد على خلعه : فانتقم من محمد بن القاسم الذى يرجع إليه الفضل فى فتح بلاد السند ، وكذلك فعل مع قتيبة بن مسلم الذى فتح بلاد ما وراء النهر ، ومات الحجاج بن يوسف قبل أن يلى الخلافة ، فانتقم من آل الحجاج شر انتقام .

ويصور لنا عباس بن الوليد حرج مركز الأمويين وانقسام أفراد البيت الأموى على أنفسهم فى هذه الآيات :

إِنِّى أَعِيزُكُمْ بِاللّهِ مِنْ فِتْنٍ مِثْلِ الْجِبَالِ تَسَامَى ثُمَّ تَنْدَفِعُ
إِنَّ الْبَرِيَّةَ قَدْ مَكَتْ سِيَاسَتَكُمْ فَاسْتَمْسِكُوا بِعَمُودِ الدِّينِ وَارْتَدِعُوا

لَا تُلْعَمُونَ^(١) ذُنُوبَ النَّاسِ أَنْفُسَكُمْ
لَا تَبْقَرُونَ بَأْيْدِكُمْ بِطُؤُنِكُمْ
إِنَّ الذُّنُوبَ إِذَا مَا أُلْحِمَتْ رَتَعُوا
فَتُمْ لَا حَسْرَةَ تَفْنِي وَلَا جَزَعَ^(٢)
ثانيا : بالعصية في الأمصار والجيش .

وقد عمل الرسول على إزالة العصية والشعور القبلي ، وإحلال الوحدة الدينية والقومية الإسلامية محلها . وقد سهل ذلك على القبائل العربية المختلفة أن تنضوى تحت لوائه وتدين له بالزعامة . فلما انتقل الرسول إلى جوار ربه تسابقت القبائل والبطون العربية على أن يكون هذا الأمر لها دون غيرها ، وبذلك تجلست النفس العربية والطبيعية القبلية ، مما أدى إلى ارتداد أكثر القبائل العربية وتمردّها على حكومة قريش ، حتى توزع مركز الاسلام ، لولا ما أوتيّه أبو بكر الصديق من صدق العزيمة ، وما عُرِف عنه من حزم وغيره على الدين ، فكانت الغلبة للجيش الإسلامي ، وعلت كلمة الاسلام من جديد .

وإن روح العصية التي حاول الإسلام أن يقضى عليها قد بُعثت بين القبائل العربية على أنروفاة يزيد بن معاوية . غير أنها لم تكن من القوة والشدة بحيث تؤثر في انحلال دولة الأمويين ، الذين ظلوا حافظين لسكبانهم كفريق سياسي يناضل خصومه من الأحزاب الأخرى ، إلى أن كانت خلافة عمر بن عبد العزيز التي تعتبر فترة انتقال بين حالة القوة والتماسك ، وحالة الضعف والتفكك الذي اعتري بني أمية ؛ فقد كان عمر صالحا عادلا قضى فترة خلافته في إصلاح ما أفسده من سبقه من خلفاء بني أمية حتى نال رضا جميع العناصر الثورية ، فلم يتعصب لقبيلة دون أخرى ، ولم يول والياً إلا لسكبايته وعدالته سواء كان من كلب أو من قيس ، فسكنت في عهده العواصف التي كانت تنتاب الدولة وتسكاد تذهب بريحها^(٣) .

ولما مات معاوية بن أبي سفيان تفككت الوحدة العربية في بلاد الشام ، قال الكلبيون إلى بني أمية ، وانضم القيسيون بزعامة الضحاك بن قيس إلى عبد الله بن الزبير الذي عمل على سلب الخلافة من الأمويين . وتعتبر موقعة مرج راهط (سنة ٦٥ هـ) صراعا بين عرب الشمال المضربين وبين عرب الجنوب اليمينيين . وكان لهذه الموقعة أثرها في إذكاء نار العصية بين المضربة واليمينية في سائر البلاد العربية ، وخاصة في خراسان .

ولما توفي عمر بن عبد العزيز وولى الخلافة يزيد بن عبد الملك (١٠١ - ١٠٥ هـ) ، اشتعلت نيران العصية من جديد بين عرب الشمال وعرب الجنوب أو بين مضر واليمن . ولم يتورّع هذا الخليفة عن خوض غمار هذه الفتنة بانحيازهِ إلى المضربين على اليمينيين ، ذلك الصراع الذي انتهى بقتل يزيد بن المهلب بن أبي صفرة ، وقتل أهل بيته اليمينيين الذين كانوا غرة في

(٢) الطبري (طبعة دى غوبة) ١٧٨٨ : ٢ .

(١) لا تطعموا .

(٣) كتاب تاريخ الاسلام السياسي للمؤلف ج ١ ص ٥٢٤ - ٥٢٥ .

جبين الدولة الأموية ، كما كان البرامكة بعد غرة في الدولة العباسية . وقد أشعل قتل آل المهلب نار العصية في قلوب ذلك العنصر وأثار حقدّه على البيت الأموي ، وصار العنصر البني منذ ذلك الحين خطراً يهدّد كيان بني أمية (١) .

كذلك أثار مقتل خالد بن عبد الله القسري وإلى العراق في عهد هشام بن عبد الملك كراهة اليمنيين ، حتى لقد عد المؤرخون ذلك من أقوى الأسباب التي عجلت بسقوط الدولة الأموية . ذلك أن اليمنيين الذين لم ينسوا قتل آل المهلب ، والذين فوجئوا بقتل زعيمهم خالد بن عبد الله القسري انضوا تحت لواء ابنه يزيد بن خالد القسري ، وأشعلوا نيران الثورة في دمشق ، وتبعهم اليمنيون في فلسطين ، فتأروا في وجه الحكم الأموي ، ثم انضموا إلى سليمان بن هشام ابن عبد الملك ونادوا بخلع مروان بن محمد .

هذه هي حال العصية في الشام . وقد ساعد على قيام الثورة فيها ، أن أكثر أهلها كانوا من العنصر البني . وربما كان ذلك هو السبب في أن مروان لم يتخذها مقر ملكه ، وانتقل إلى الجزيرة لأن أكثر من فيها كانوا من القيسية عماد دولته .

وهكذا أضعفت العصية في الأمصار والجليل بني أمية وأذنت بزوال سلطانهم . ولا غرو فقد كان ذلك العصر عصراً حزيناً ملأ قلوب النفاة من المسلمين تشاؤماً بالمستقبل . وقد وصف لنا هذه الحالة السيئة الحارث بن عبد الله الجعفي الشاعر في هذه الأبيات :

أَبَيْتُ أَرْعَى النُّجُومَ مَرْتَفِقًا (٢) إِذَا اسْتَقَلَّتْ تَجْرِي أَوَائِلُهَا
مِنْ فِتْنَةٍ أَصْبَحَتْ مُجَلَّةً (٣) قَدْ عَمَّ أَهْلَ الصَّلَاةِ شَامِلُهَا
مَنْ بَخْرَاسَانَ وَالْعِرَاقَ وَمَنْ بِالشَّامِ كُلِّ شَجَاهٍ (٤) شَاغِلُهَا
فَالنَّاسُ مِنْهُمْ فِي أَوْنٍ مُظْلِمَةٍ دَهْمَاءَ مُلْتَجَةٍ (٥) غَيَاطِلُهَا (٦)
يُمْنِي السَّيِّئُ الَّذِي يُعَنَّفُ بِالْجَهْلِ سَوَاءٌ فِيهَا وَعَاقِلُهَا
وَالنَّاسُ فِي كَرْبَةٍ يَكَادُ لَهَا تَذْبُذُّ أَوْلَادَهَا حَوَامِلُهَا
يَعْدُونَ مِنْهَا فِي كُلِّ مُبْهَمَةٍ عَمِيَاءَ تُمْنَى (٧) لَهَا غَوَائِلُهَا
لَا يَنْظُرُ النَّاسُ فِي عَوَاقِبِهَا إِلَّا الَّتِي لَا يَبِينُ قَائِلُهَا
كَرْغَةِ الْبَكْرِ (٨) أَوْ كَصِيحَةِ جَدٍّ لِي طَرَقَتْ حَوْلَهَا قَوَائِلُهَا

(١) نفس المصدر ج ١ ص ٥٢٦ - ٥٢٧ .

(٢) المرتفق : الواقف الثابت ، والمراد منها السهر . (٣) مجلّة : شاملة وما بعدها يفسرها .

(٤) شجاه : حزنه وطربه . (٥) الملّجة : من العيون الشديدة السواد ، والغيطة (بفتح

الفين والطاء) الظلمة المتراكمة . (٧) تمنى بمعنى تقدّر . (٨) البكر ولد الناقة ،

فجاء فينا أزرى^(١) بوجهتها فيها خُطوبٌ حُمُرٌ زَلَّازِلُها^(٢)

٣ — حزب بنى هاشم واتحاد كلمته للقضاء على بنى أمية

(١) انتقال حق الإمامة من العلويين إلى العباسيين :

أثار قتل الحسين — كما تقدم — حماسة المسلمين ، فتوحّدت صفوف الشيعة ، وزادت الدعوة لآل على قوة ، واشتد العداوة بين الأمويين والعلويين الذين أثاروا الفتن والثورات في الولايات الإسلامية . ثم حدثت هذه الحادثة الهامة في تاريخ الشيعة ، وهى انتقال حق الإمامة من بيت على إلى بيت العباس ، على يد أبى هاشم بن محمد بن الحنفية زعيم الشيعة الكيسانية ، وهو ما يمكن أن يطلق عليه ميراث الكيسانية .

ذلك أنه في سنة ٩٨ للهجرة استدعى الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك أباه هاشم وأكرم وفادته ، وأظهر التودد له ، ولكنه دبّر أمر قتله تخشياً أن يدعو إلى نفسه ، فذس له من سمه وهو في طريقه إلى الحيمة^(٣) حيث كان يقيم محمد بن على بن عبد الله بن العباس . وقد قيل إن أباه هاشم لما شعر بدنو أجله ، قصد محمداً هذا ، وأفضى إليه بأسرار الدعوة الهاشمية ، ونزل له عن حقه في الإمامة ، وأمدّه بأسماء داعى دعائه في الكوفة ، ومن يليه من الدعاة ، كما سلّبه رسائل يقدمها اليهم^(٤) .

بذلك تحول حق الإمامة من العلويين إلى العباسيين . وهنا يحسن بنا أن نسأل : لماذا عدل أبو هاشم عن أهل بيته من العلويين ، وحوّل حقه إلى بنى عمه من العباسيين ؟ ولكي نجيب عن هذا السؤال نرجع قليلاً إلى الوراثة فنقول ، إنه منذ وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام لم يرشح المسلمون للخلافة أحداً من بنى هاشم إلا على بن أبى طالب وأولاده ، ولم تتجه الأنظار إلى العباس عم النبي بعد وفاته ، لأنه لم يكن من السابقين إلى الاسلام . ومن ثم لم يرشح للخلافة هو ولا أولاده من بعده . وقد قيل إن أباسفيان جاء العباس بعدبيعة أبى بكر فقال له : أبسط يدك أبايعك ، فأبى العباس .

وكانت العلاقة بين بنى هاشم ، علويين وعباسيين ، تقوم على الود والصفاء . وكان البيتان متّحدين على العدو المشترك وهو بنو أمية ، إلى أن انتقل حق الإمامة من العلويين إلى العباسيين بنزول أبى هاشم بن محمد بن الحنفية .

ويظهر أن العباسيين كانوا في أواخر القرن الأول الهجرى ، أكثر كفاية ونشاطاً في الناحية السياسية من العلويين ، وأكثر تطلعاً إلى النفوذ والسلطان منهم . وقد قيل إن أباه هاشم

(١) بمعنى غلب . (٢) الطبرى (طبعة دى غويه) ٢ : ١٨٥٧

(٣) وهى قرية صغيرة فى أرض الشراة بين الشام والحجاز .

(٤) الفاطميون فى مصر المؤلف ص ٣٨ — ٣٩ .

إنما فعل ذلك لأنه لم يجد بين أفراد البيت العلوى من يستطيع النهوض بأعباء إمامة المسلمين . أضف إلى ذلك اختلاف اعتقاد الشيعة الكيسانية أنصار أبي هاشم عن اعتقاد الشيعة الامامية أنصار أولاد فاطمة . على أن هناك مسألة جديرة بالملاحظة ، وهى أن نزول أبي هاشم بن محمد ابن الحنفية لا يمكن أن يعتبر نزولا من العلويين جميعاً ، لأن فريقاً كبيراً منهم ظل متمسكاً بعقائد الشيعة الامامية ، وقاموا فى وجه العباسيين بعد قيام دولتهم .

وقد صور المسعودى (١) الأسباب التى ساعدت على زوال ملك بنى أمية فى هذه العبارة فقال : « سئل بعض شيوخ بنى أمية ومخلصيها (٢) عقب زوال الملك عنهم إلى بنى العباس : ما كان سبب زوال ملككم ؟ قال : إننا شغلنا بلداننا عن تفقد ما كان تفقده يلزمنا ، فظلمنا رعيتنا فينسوا من إنصافنا وتسمنوا الراحة منا ، وتحومل على أهل خراجنا فتسخلوا عنا ، وآخر بست ضياعنا غفلت بيوت أموالنا ، ووثقنا بوزرائنا فأثروا مرافقهم على منافعنا ، وأمضوا أموراً دوننا أخفوا عليها عنا ، وتأخر عطاء جندنا فزال طاعتهم لنا ، واستدعاهم أعادينا فظاهروا معهم على حربنا ، وطلبنا أعدائنا فعجزنا عنهم لقلة أنصارنا ، وكان استتار الأخبار عنا من أوكد أسباب زوال ملكنا . »

(ب) تنظيم الدعوة العباسية :

وقد رأى الامام محمد بن على العباسى أن نقل السلطان من بيت إلى بيت لا بد أن يسبقه إعداد الأفكار وتهيئة النفوس لهذا التغيير ، وأن كل محاولة فجائية قد تكون عاقبتها الإخفاق ؛ فرأى ببعد نظره أن الأمر يحتاج إلى شدة الحيلة ، فطلب من شيعته أن يدعوا الناس إلى ولاية آل البيت دون تسمية أحد ، خوفاً عليه من بنى أمية . ووجد أن كلا من الكوفة وخراسان يصح أن يكون مركزاً لنشر الدعوة ، لأن الكوفة مهد التشيع لآل البيت منذ زمن طويل ، ولأن أهل خراسان يفهمون فكرة التشيع بسهولة ، ويعتقدون فى نظرية الحق الملكى المقدس التى كانت سائدة فى بلاد الفرس منذ أيام آل ساسان . هذا إلى ما كان يقاسيه الفرس تحت نير الأمويين ، مما سهل على العباسيين نشر دعوتهم . وقد وصف الامام محمد بن على العباسى الأهواء والميول التى كانت سائدة بين أهالى الولايات الاسلامية فى هذه العبارة : « أما الكوفة وسوادها فشيعة على » ، وأما البصرة فغشامية تدين بالكف ، وأما الجزيرة فحرورية (٣) صادقة ، وأعراب كأعلاج (٤) ، ومسلمون فى أخلاق النصارى ، وأما أهل الشام فلا يعرفون غير معاوية وطاعة بنى أمية ، وعداوة راسخة وجعل متراكم ، وأما مكة والمدينة فقد غلب عليهم أبو بكر وعمر . ولكن عليكم بخراسان ، فإن هناك العدد الكثير والجلد الظاهر . وهناك صدور سليمة وقلوب

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ١٩٤ . (٢) أى العارفين بتاريخ هذه الدولة وأخبارها .

(٣) هذا اللفظ مشتق من حروراء ، وهى قرية بظاهر الكوفة تبعد عنها ميلين ، نزل بها الخوارج الذين اعتزلوا على بن أبى طالب ، فنسبوا إليها وسموا حرورية . (٤) العليج حمار الوحش الغليظ .

فارغة ، لم تنقسمها الأهواء ، ولم تنوزعها النحل ، ولم يقدح فيها فساد ، وهم جند لهم أبدان وأجسام ومناكب وكواهل ، وهامات ولحى وشوارب وأصوات هائلة ، ولغات ضخمة تخرج من أجسام منكورة . وبعد فاني أتفائل إلى المشرق ، وإلى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق (١) .

نهض محمد بن علي العباسي بالدعوة نهضة قوية ، وعين النقباء والدعاة وأوصاهم ببث الدعوة سراً ، كما أوصاهم أن يتظاهروا بنشرها لآل البيت عامة تسكيناً للعلويين .

وقد بدأت هذه الدعوة السرية في أوائل القرن الثاني للهجرة من الحيمة ، التي اتخذها العباسيون مركزاً لنشر دعوتهم ، وذلك في عهد عمر بن عبدالعزيز . ووجه محمد بن علي العباسي الدعاة إلى الولايات الإسلامية ، فوجه ميسرة إلى العراق ، كما وجه ثلاثة من الدعاة ، أحدهم أبو عكرمة السراج ، وعهد إليهم في نشر الدعوة في خراسان ، وهناك أخذ هؤلاء الدعاة ينشرون الدعوة للعباسيين في الخفاء ، وظاهر أمرهم التجارة أو الحج إلى مكة . واختار أبو عكرمة من الدعاة سبعين داعية من بينهم اثنا عشر نقيباً . وشمر الكل عن ساعد الجذ في بث الدعوة لبني العباس ، ولم يبالوا بما لاقوه من ضرب وصلب وقتل وتشريد . وكتب إليهم محمد بن علي دستوراً يسيرون عليه في نشر الدعوة ، على أن تكون « للرضا من آل محمد » ، ذلك اللفظ الذي يشمل أبناء علي وأبناء العباس ، إذ أن تعيين شخص المدعو إليه يثير الأمويين كما يثير العلويين على الدعوة العباسية (٢) .

ويمكن تقسيم الدعوة العباسية قسمين : الأول ، ويبدأ في مستهل القرن الأول للهجرة ، وينتهي بانضمام أبي مسلم الخراساني ، وكانت الدعوة في هذا الدور خالية من أساليب العنف والشدة ، إذ كان الدعاة يجوبون البلاد الإسلامية ، متظاهرين بالتجارة أو أداء فريضة الحج كما تقدم . ويبدأ الدور الثاني بانضمام أبي مسلم الخراساني إلى الدعوة العباسية ، وهنا يدخل النزاع بين الأمويين والعباسيين في دور العمل ، وهو دور الحروب التي انتهت بزوال الدولة الأموية .

٤ - قيام الدولة العباسية

(١) ميل الموالي إلى بني هاشم :

ناقت نفوس الموالي من الفرس إلى التخلص من حكم الأمويين ، لما ارتكبوه من وسائل العنف في قمع ثورات العلويين ، ومالوا إلى نصرة بني هاشم ، ولا سيما بعد مقتل زيد بن علي وابنه يحيى . فإن هؤلاء الموالي — إذا استثنينا طبقة الدهاقين ، وهم ملاك الأراضي من الفرس

(١) المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (طبعة دي غويه) ج ٣ من ٢٩٣ — ٢٩٤ .

(٢) Necholson : Lit. Hist. of the Arabs, p. 250 .

الذين أسند الأمويون إليهم المناصب الادارية الهامة ، واستأثروا بحماية الخراج فتمتعوا بنفوذ كبير — الذين أطلق عليهم العرب اسم العلوج ، اعتقدوا أن اعتناقهم الاسلام لم يسو بينهم وبين العرب . ولا غرو فان المسلمين من غير العرب قد ألحقوا بعد اعتناقهم الاسلام ببعض القبائل العربية ليكونوا موالى لتلك القبائل . وقد نظر العرب الذين كانوا لا يحترمون سوى مهنة الحرب إلى هؤلاء الموالى نظرة الاحتقار ، لامتهانهم طبقات العمال الذين نشأ منهم هؤلاء الموالى .

وهذا يفسر لنا أسباب تعلق الفرس بالعلويين وميلهم إليهم . وقد أوضح لنا براون^(١) السبب الذي استألمهم إلى ذلك ، معتمداً على ما ذكره جويندو في هذا الصدد حيث يقول : « إنني أعتقد أن جويندو قد أصاب فيما قاله ، إن نظرية الحق الالهى وخصرها في البيت الساساني ، كان لها تأثير عظيم في تاريخ الفرس في العصور التي تلتها . ولقد جاءت فكرة انتخاب الخليفة متمشية بطبيعتها مع ديمقراطية العرب ؛ غير أنها لا يمكن أن تظهر في نظر الفرس إلا بمظهر ثورى غير مطابق لطبائع الأشياء . أضف إلى ذلك ما كان من نزعة السخط والكراهة التي أضمرها هؤلاء الفرس لعمر ، ثاني الخلفاء الراشدين ومقوض دعائم الامبراطورية الفارسية . وإن هذه النزعة ، وإن تسترت بستار الدين ، فلن يفوت الباحث تفهم سرها ومراميها . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن الحسين ، وهو أصغر ولد فاطمة بنت النبي وعلى ابن عمه ، قد قالوا إنه تزوج من شهر بانوه ابنة يزدرج الثالث آخر ملوك آل ساسان . ومن هنا أصبح الأئمة من حزب الشيعة بقسميه (طائفة الاثنا عشرية الشائعة الآن في بلاد فارس ، وطائفة السبعية أو الإسماعيلية) لا يمثلون حق النبوة فقط ، بل يمثلون الملك أيضاً ، لأنهم من سلالة النبي محمد وآل ساسان معاً »^(٢) .

من ذلك تولدت هذه النظرية السياسية التي يشير إليها جويندو في العبارة الآتية حيث يقول : « كانت هذه النظرية عقيدة سياسية غير متنازع فيها عند الفرس ، وهي أن العلويين وحدهم يملكون حق حمل التاج ، وذلك بصفته المزدوجة ، لكونهم وارثي آل ساسان من جهة أمهم يبي شهر بانوه ابنة يزدرج وآخر ملوك الفرس ، والأئمة رؤساء هذا الدين حقاً »^(٣) . وذلك بعزل كثرة الثورات والفتن التي أثارها هؤلاء الموالى من الفرس الذين ساعدوا آل البيت ضد الأمويين . ومن أحسن الأمثلة التي تؤيد هذا الرأي تلك الثورة التي أشعل نيرانها الحارث بن سريج الذي انضوى تحت لوائه الموالى في خراسان وبلاد ماوراء النهر . ولم تحمد حركة الموالى بموت الحارث بن سريج سنة ١٢٨ هـ ، فلم يكذب يمضي على وفاته سنة واحدة حتى

E. G. Browne : Lit Hist. of Persia, vol. I. p. 130 (١)

Dozy : Histoire des Musulmans d' Espagne, vol 1 p. 8 seq. (٢)

Cobineau : Religion et Philosophie dans l' Asie Centrale, p. 275. (٣)

أشعل أبو مسلم الثورة من جديد على بنى أمية ، تلك الثورة التي قلبت عرشهم وانتهت بزوال دولتهم .

(ب) زوال الدولة الأموية

في أثناء وقوع هذه الحوادث مات الإمام محمد بن علي العباسي سنة ١٢٥ هـ (٧٤٢ م) ، وكانت الدعوة العباسية قد قطعت شوطا بعيداً . وقد أوصى محمد بالإمامة من بعده لابنه إبراهيم . وفي عهده دخل النزاع بين الأمويين والعباسيين في طور جديد هو طور العمل ، كما تقدم ، وهو ما يمكن أن نطلق عليه العصر الثاني للدعوة العباسية ، ويبتدىء من سنة ١٢٧ هـ .

وقد اتصل بإبراهيم الإمام شاب اتصف بالشجاعة والاقدام ، واضطلع بأعباء الدعوة العباسية في خراسان ، وقضى علي سلطان الأمويين فيها ، وإليه يرجع الفضل في قيام الدولة العباسية . ذلك الشاب هو أبو مسلم الخراساني . ولا بأس أن نذكر طرفاً من سيرته قبل أن ينضم إلى الدعوة العباسية .

اختلف المؤرخون في نسب أبي مسلم ، فقليل إنه كان حراً يسمى إبراهيم بن عثمان ، ويكنى أبا إسحق ، وإنه ينتسب إلى بزرجمهر . وقد ولد بأصبهان ، ثم رحل إلى الكوفة وهو في السابعة من عمره . ولما اتصل بإبراهيم الإمام أمره بتغيير اسمه وقال له : « لا يتم الأمر إلا بذلك كما وجدته في الكتب » ، فسماه عبد الرحمن بن مسلم وكناه أبا مسلم وزوجه امرأة من طيء . كانت تقيم مع أبيها بخراسان .

وقيل في سبب اتصال أبي مسلم بإبراهيم الإمام ، أن سليمان بن كثير أحد النقباء وغيره من النقباء تركوا خراسان في سنة ١٢٤ هـ متظاهرين بالحج إلى مكة ، فلما دخلوا الكوفة أتوا إلى عاصم بن يونس العجلي ، وكان قد اتهم بالدعوة للعباسيين ، فحبسوه هو وعيسى وادريس ابني معقل العجلي . وكان يوسف بن عمر والي العراق قد حبسهم مع من حبس من عمال خالد القسري . وكان أبو مسلم يقوم بخدمة ابني العجلي ، ولما رأى سليمان بن كثير ومن معه أبا مسلم توسموا فيه مخاليل الذكاء ، ودعوه إلى الانضمام إلى الدعوة العباسية .

وقد قيل إن أبا مسلم لما قوى أمره ادعى أنه من ولد سليط بن عبد الله بن العباس . وكانت سليط هذا جارية ادعى ابنها أنه من ولد عبد الله بن العباس . ولما مات سليط نازع ورثته في ميراثه ، فسر بنو أمية ، ليتخذوا من ذلك سبباً للحط من شأن علي بن عبد الله بن العباس ، فأعانوه ، وقضى له القاضي في دمشق بالميراث ، فادعى أبو مسلم حين قويت شوكته أنه من ولد سليط . وقيل إن أبا مسلم كان من الرقيق ، وإن اتصاله ببني العباس يرجع إلى بكير بن ماهان داعي العباسيين الذي قدم الكوفة حيث حبس . فدعا أبا مسلم إلى الانضمام للدعوة واشتراه

من ابني معقل العجلي بأربعائة درهم . ولما خرجوا من السجن بعث بكير بن ماهان بأبي مسلم إلى إبراهيم الإمام ، فأنفذه إلى أبي موسى السراج .

في سنة ١٢٨ هـ تسلم أبو مسلم الخراساني مقاليد الأمور في خراسان . وكان من أسباب سقوط الأمويين شوب نار العصية بين المضرية واليمانية في خراسان ، وضعف قوة أمير هذه البلاد ، وخروج الخوارج في اليمن وحضر موت (١) .

وقد ظل أبو مسلم في خراسان إلى أن كتب إبراهيم الإمام إلى أبي سلمة الخلال داعية العباسيين في الكوفة ، يعلمه أنه أرسل أبا مسلم إلى خراسان ، وأنه أمر أهلها بالسمع والطاعة له ، وكتب الإمام إلى أبي مسلم كتاباً يقول فيه : « إنك رجلٌ منا أهل البيت احفظ وصيتي . أنظر إلى هذا الحى من اليمن ، فالزمهم واسكن بين أظهرهم ، فإن الله لا يتم هذا الأمر إلا بهم . واتهم ربيعة في أمرهم ، وأما مضر فانهم العدو القريب الدار . واقتل من شككت فيه ؛ وإن استطعت ألا تبقى بخراسان من يتكلم بالعربية فافعل ؛ وأما غلام بلغ خمسة أشبار تهمه فاقتله . ولا تخالف هذا الشيخ (يعنى سليمان بن كثير) ، ولا تعصه ، وإذا أشكل عليك أمر فاكتف به مني ، . وقد ساعدت الاضطرابات التي انتشرت في خراسان في ذلك الحين ، أبا مسلم الخراساني على تحقيق سياسته .

وفي عهد هشام بن عبد الملك اشتعلت نيران العصية بين القبائل العربية في خراسان ، في عهد ولاية أسد بن عبد الله القسري ، وكان يمانياً ضلعه مع اليمانيين ، الذين آثرهم على غيرهم من العرب وأسند إليهم مناصب الدولة . ثم ولى هذه البلاد نصر بن سيار ، وكان مضرباً ، فأقصى اليمانيين ، وأثار بذلك عوامل الشقاق بين هذين العنصرين . وقامت الحرب بين نصر ابن سيار والى خراسان ، وسجديع بن شبيب المعروف بالكروماني زعيم اليمانية الذين تمت الغلبة لهم ، وطردوا والى خراسان وناووا الحكومة الأموية ، وناصروا الدعوة العباسية بعد انضمام أبي مسلم إليها . واستطاع أبو مسلم بحسن دهائه أن يضرب كل فريق بالآخر ، وتم له النصر على العرب جميعاً .

وقد عرف أبو مسلم ، بما أوتيته من الحذق والمهارة الحربية ، كيف يستفيد من ذلك الانقسام الذى فرق كلمة العرب في خراسان ، كما استطاع أن يربط بحجده سبعة أشهر في ظاهر مدينة مرو قاعدة خراسان ، استمال خلالها اليمانيين وضمهم إلى صفوفه ، وبذلك تمكن من الاستيلاء على تلك البلاد دون أن يعرض جيشه الصغير للهزيمة . ولم يكد يتم له النفوذ هناك حتى عمد إلى التخلص من شيوخ القبائل الذين كانوا ينازعونه السيادة فقتلهم عن آخرهم .

وقد أدرك نصر بن سيار والى خراسان مدى خطر دعاة العباسيين في هذه البلاد ، فأرسل إلى مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية كتاباً يكشف له فيه عن قوة أبي مسلم وضعف الجند الأموى في خراسان ، وختم كتابه بهذه الآيات :

أَرَى بَيْنَ الرَّمَادِ وَمَيْضِ جَمْرٍ فَأَخْبَجُ بَأْنَ يَكُونُ لَهُ ضِرَامُ
فَإِنَّ النَّارَ بِالْعُودَيْنِ تَذْكِي وَإِنَّ الْحَرْبَ أَوَّلُهَا السَّكَّامُ
فَقُلْتُ مِنَ التَّعَجُّبِ لَيْتَ شِعْرِي أَبْقَاظُ أُمِيَّةٌ أَمْ نِيَامُ ؟

عندئذ عمت الثورة التي انتهت بزوال الدولة الأموية . وإلى القارىء ما ذكره أبو حنيفة الدينورى (١) ، لعله يتبين حال الأمة العربية في ذلك الحين ، قال : « وانجفل الناس على أبي مسلم : من هراة وجوشنج ومرو الروذ والطالسقان ومرو و نسا وأبيورد وطوس وسرخس وبلخ والصغانيان وطخارستان وختلان وكش ونسف ، فستوافوا جميعاً مسوّدى الثياب (٢) . وقد سودوا أنصاف الخشب التي كانت معهم ، وسمّوها « كافر كوبات » ، وأقبلوا فرساناً وحماراً يسوقون حميرهم ويزجرونها « هر مروان » ، يسمونها لمروان بن محمد ؛ وكانوا زهاء مائة ألف رجل » .

ظل أمر العباسيين سراً لا يعلمه إلا النقيباء من شيعتهم ، حتى وقع في يد مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، كتاب إبراهيم الإمام إلى أبي مسلم يأمره فيه بقتل كل من يتكلم العربية بخراسان ، فأدى هذا الحادث إلى القبض على إبراهيم وسجنه في حران وقتله ، فتولى الدعوة العباسية أبو سلمة الخلال . ولما علم إبراهيم الإمام أنه لا نجاة له ، ولى عهده أخاه أبا العباس عبد الله بن محمد ، وأوصاه بمواصلة الدعوة والمسير إلى الكوفة . ولما قتل إبراهيم الإمام سار رسوله إلى الحشيمة وسلم وصيته إلى أبي العباس ، فتوجه هذا إلى الكوفة ، ومعه كبار بني هاشم من ولد العباس ، وفيهم أخوه أبو جعفر المنصور ، وابن أخيه عيسى بن موسى ابن محمد ، وعمه عبد الله بن علي .

بعد ذلك حلت الهزيمة بابن هبيرة قائد الأمويين بظاهر الكوفة ، وأرغم على السير إلى واسط ، فجاء أبو سلمة ونزل بجندته بمدينة الكوفة في أوائل سنة ١٣٢ هـ من غير أن يلقي مقاومة تذكر .

وفي أواخر هذه السنة خفق العلم الأسود شعار العباسيين فوق حصون دمشق بعد أن دالت فيها دولة الأمويين . ولما آلت الخلافة إلى أبي العباس عهد إلى عمه عبد الله بن علي بمقاتلة مروان بن محمد ، فتبعه إلى نهر الزاب الأصغر بالعراق ، وقتل وأغرق كثيراً من أصحابه ، من بينهم نحو ثلثمائة من بني أمية ، منهم إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك المخولع أخو يزيد الناقص (١١ جمادى الآخرة سنة ١٣٢ هـ) ، ثم مضى مروان إلى الموصل حيث هزم ، وفر

(١) الأخبار الطوال ص ٣٦٠ .

(٢) راجع ما ذكره فان فلوتن (السيادة العربية ص ١٢٤ - ١٢٦) عن اتخاذ الخلفاء

العباسيين السواد شعاراً لهم ، كما سيأتى في البابين الثالث والثامن .

إلى حرّان واتخذها داراً لأقامته ، ثم عبر الفرات ، فنزل عبد الله بن عليّ على بابها ، واستولى على خزائن مروان ، وكان قد رحل إلى فلسطين والأردن ، فأحل به عبد الله الهزيمة ، ثم سار إلى دمشق فحاصرها ، وهزم الوليد بن معاوية بن عبد الملك في خمسين ألفاً ، وقتل بدمشق عدداً كبيراً من بني أمية وأنصارهم .

بعد ذلك لحق مروان بن محمد بمصر ونزل عبد الله بن عليّ على نهر أبي فطرس بفلسطين (١٥ ذو القعدة سنة ١٣٢ هـ) . ثم رحل مروان إلى القسطنطينية ، فكتب أبو العباس إلى عمه عبد الله بن عليّ ليولي صالح بن عليّ العباسي قتال مروان ، فصار حتى لحق به في قرية بوصير من أعمال الفيوم ، وهجم جند العباسيين على عسكره ، وضربوا الطبول وكبروا ونادوا : يا لشكارات إبراهيم ، يعمنون إبراهيم الإمام الذي سمى الأمويون في حرّان . وقتل مروان ليلة الأحد ثلاث بقين من ذي الحجة سنة ١٣٢ هـ ، وأخذ رأسه وأرسل إلى السفاح في الكوفة ، وانتهت بذلك الدولة الأموية ، وقامت الدولة العباسية على يد أبي العباس السفاح .

الباب الثاني

خلفاء العصر العباسي الأول

تسكلم في هذا الباب على خلفاء العصر العباسي الأول (١٣٢ - ٢٣٢ هـ) ، فتمتصير كلامنا على ترجمة كل من هؤلاء الخلفاء ، وعلى أهم الأحداث التي وقعت في عهده .
حكمت الدولة العباسية زهاء خمسة قرون ، من سنة ١٣٢ هـ ، وهي السنة التي ولى فيها أبو العباس السفاح الخلافة ، إلى أن زالت هذه الدولة من بغداد على أيدي التتار سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) . وفي ذلك يقول صاحب الفخرى (١) : « واعلم — علمت الخير — أن هذه الدولة من كبار الدول ، ساست العالم سياسة مزوجة بالدين والملك ؛ فكان اختيار الناس وصلحاؤهم يطيعونها تديناً ، والباقون يطيعونها رهبة أو رغبة ، ثم مكشئت فيها الخلافة والملك حدود ستمائة سنة » .

وقال في موضع آخر (٢) : « إلا أنها كانت دولة كثيرة المحاسن جملة المسكارم ، أسواق العلوم فيها قائمة ، وبضائع الآداب فيها نافقة ، وشعائر الدين فيها مَعْظَمَةٌ ، والخيرات فيها دارّة ، والدنيا عامرة ، والحرّمات مَرعية ، والثغور محصنة . وما زالت على ذلك حتى كانت أواخرها ، فانتشر الجبر ، واضطرب الأمر ، وانتقلت الدولة » .

أبو العباس السفاح

١٣٢ - ١٣٦ هـ = ٧٥٠ - ٧٥٤ م

كان أول من جلس على عرش الدولة العباسية أبو العباس عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله ابن العباس بن عبد المطلب بن هاشم . وكان أبوه محمد أول من اضطلع بنشر الدعوة العباسية في أواخر العصر الأموي حتى مات سنة ١٢٥ هـ ، وكان قد أوصى بالإمامة من بعده لابنه إبراهيم . وفي عهد إبراهيم دخل النزاع بين بني أمية وبني العباس في طور جديد هو دور العمل (١٢٧ هـ) .

ولما قبض على إبراهيم الإمام وحبس في حران ثم قتل ، انتقلت أسرته إلى الكوفة (صفر سنة ١٣٢ هـ) ، واستتروا بضعة أسابيع ، حتى أخرجهم أتباعهم ، وسلّوا على أبي العباس بالخلافة ، لأن أمه كانت عربية ، وعدلوا عن أخيه أبي جعفر مع أنه أكبر منه ، لأن أمه

كانت أم ولد ، وكان ذلك في اليوم الثالث من شهر ربيع الأول سنة اثنتين وثلاثين ومائة .
وفي يوم الجمعة أقام السفاح الخطبة ، فخطب على المنبر قائماً ، وكان بنو أمية يخطبون قعوداً ،
فحياء الناس وقالوا : أَحْيَيْتَ السُّنَّةَ يَا بَنَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وقد نوّه أبو العباس في خطبته بفضل آل محمد ، وندد بالأمويين لاغتصابهم الخلافة ، ولما
اقترفوه من آثام وذنوب ضد أهل البيت ، وأنحى باللائمة على جند الشام ، وأطنب في مدح
أهل الكوفة ، وزاد في أعطياتهم لإخلاصهم وولائهم لبית العباس ، وأفاض في مدح أهل
خراسان الذين ساعدوه على إقامة دولته . وختم خطبته بقوله : أنا السفّاح (١) المبيح والنائر
المبهر ، مما يشعر في بادىء الرأى أنه عول على سفك دماء كل من يقف في سبيله .

وهاك خطبة أبي العباس في مسجد الكوفة ننقلها عن الطبري (٢) : لما صعد (أبو العباس)
المنبر حين بويع له بالخلافة قام في أعلاه ، وصعد داود بن علي فقام دونه ، فتكلم أبو العباس
فقال : الحمد لله الذي اصطفى الإسلام لنفسه تكريماً ، وشرّفه وعظمه ، واختاره لنا ، وأيده
بنا ، وجعلنا أهله ، وكفه وحصنه ، والقوام به ، والذايين عنه ، والناصرين له ، وألزمنا
كلمة التقوى ، وجعلنا أحقّ بها وأهلها ، وخصّتنا برحم رسول الله وقرابته وأنشأنا من
آبائه ، وأنبتنا من شجرته واشتقنا من نبعته ، جعله من أنفسنا ، عزيزاً عليه ما عتقنا (٣) ،
حريصاً علينا ، بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً ، ووضعنا من الإسلام وأهله بالموضع الرفيع ، وأنزل
بذلك على أهل الإسلام كتاباً يتلى عليهم ، فقال عز من قائل ، فيما أنزل من محكم القرآن :
(إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ (٤) أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَ كُمْ تَطْهِيراً) . وقال :
(قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى) . وقال : (وأنذر عشيرتلك الأقربين) .

(١) ناقش الأستاذ نيكلسون Nicholson : Lit. Hist. of the Arabs, p. 253, note 1.

لفظ السفاح فقال : لقد ذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن السفاح معناه الرجل الكثير العطايا أو
المناح . ومع كل فانه مما يهمناملاحظته أن هذا الاسم قد أطلق على بعض شيوخ القبائل في الجاهلية . ويقال إن
سامة بن خالد الذي قادى بنى تغلب في موقعة يوم السكلاب الأولى سمي السفاح ، لأنه أفرغ مزاد جيشه قبيل الموقعة .
والذى أميل إليه أنه إنما سمي بهذا الاسم لقوله في أول خطاب له : « فأنا السفاح المبيح والنائر المبهر »
ونحن نميل إلى الأخذ بأن لفظ السفاح إنما أطلق وشاع عن أبي العباس بعد هذه الخطبة ، لما قام
به من سفك دماء الأمويين وغيرهم من الخارجين على الدولة . ولا يبعد أن يكون قصده من عبارة
السفاح المناح ، أن يتوعد أهل الكوفة لما أظهره في ماضى أيامهم من تغير في الأهواء والميول وأن يتوعد
غيرهم من أعدائه ، ولا سيما الأمويين ، الذين صمم على التنكيل بهم لما اقترفوه من الآثام والذنوب ،
وتبشيرهم من يقوم بنصرته بادرار العطايا والأموال لهم . وقد ذكر السيوطي (تاريخ الخلفاء أمراء
المؤمنين ص ١٧٠) أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : يخرج رجل من أهل بيتي عند انقطاع من
الزمان وظهور من الفتن يقال له السفاح ، فيكون إعطاؤه المال حثياً .

(٢) ج ٩ ص ١٢٥ — ١٢٦ . (٣) يعنى يعز عليه أن تقع في أمر شاق .

(٤) القدر أو العقاب أو الغضب .

وقال : (ما أفاه ^(١) الله على رسوله من أهل القرى فله وللرسول ولذی القربى والیتامى) ، وقال : (واعلموا أنما غنمتم من شئ فأن الله خمسة وللرسول ولذی القربى والیتامى) ، فأعلمهم جل ثناؤه فضلنا ، وأوجب عليهم حقنا ومودتنا ، وأجزل من الفیء والغنیمة نصیبنا ، تکرمة لنا ، وفضلا علينا ، والله ذو الفضل العظیم . وزعمت السبئية الضلال ، أن غیرنا أحق بالریاسة والسیاسة والخلافة منا ، فشاهت ^(٢) وجوههم ، بم ولم أیها الناس ؟ وبنا هدی الله الناس بعد ضلالتهم ، وبصرهم بعد جهالتهم ، وأنقذهم بعد هلکتهم ، وأظهر بنا الحق ، ودحض بنا الباطل ، وأصلح بنا منهم ما کان فاسداً ، ورفع بنا الخسیسة ^(٣) ، وتم بنا النقیصة ، وجمع الفرقة ، حتى عاد الناس بعد العداوة أهل تعاطف وبر ومواساة ، فی دینهم ودنیاهم ، وإخواناً علی سرر متقابلین فی آخرتهم ، فتح الله ذلك منةً ومنحةً لمحمد صلی الله علیه وسلم . فلما قبضه الله إلیه ، قام بذلك الأمر من بعده أصحابه ، وأمرهم شوری بینهم ، فحووا موارث الأمم ، فعدلوا فیها ووضعوها مواضعها ، وأعطوها أهلها . وخرجوا خماصاً ^(٤) منها ؛ ثم وثب بنو حرب ومروان فابترؤوها ، وتداولوها بینهم ، فجاروا فیها ، واستأثروا بها ، وظلبوا أهلها ، فأملی الله لهم حيناً حتى آسفوه ^(٥) ، فلما آسفوه انتقم منهم بأیدینا ، ورد علينا حقنا ، وتدارك بنا أمتنا ، وولی نصرنا ، والقیام بأمرنا ، لیمن بنا علی الذین استضعفوا فی الأرض ، وختم بنا ، كما افتتح بنا . وإنی لأرجو أن لا یأتیکم الجور من حیث أتاکم الخیر ، ولا الفساد من حیث جاءکم الصلاح . وما توفیقنا أهل البیت إلا بالله . یأهل الکوفة ! أنتم محل محبتنا ، ومنزل مودتنا ، أنتم الذین لم تغیروا عن ذلك ، ولم یثکنم عن ذلك تحامل أهل الجور علیکم ، حتی أدركتم زماننا ، وأناکم الله بدولتنا ، فأنتم اسعد الناس بنا ، وأکرمتهم علينا ، وقد زدتکم فی أعطیاتکم مائة درهم ، فاستعدوا ، فأنا السفاح المبیح ، والثائر المبیر .

وكان موعوكا ، فاشتد به الوعك ، فجلس على المنبر .
ويقول الطبري ^(٦) : وصعد داود بن علي ، فقام دونه على مراقي المنبر ، فقال : الحمد لله شكراً شكراً ، الذي أهلك عدونا ، وأصار إلينا ميراثنا ، من نبيتنا محمد صلي الله عليه وسلم . أيها الناس ! الآن أقشعت ^(٧) حنادس ^(٨) الدنيا ، وانكشف غطاؤها ، وأشرقت أرضها وسماؤها ، وطلعت الشمس من مطلعها ، وبزغ القمر من مبرغه ، وأخذ القوس باريها ، وعاد السهم إلى منزعه ، ورجع الحق إلى نصابه ، في أهل بيت نبيكم ، أهل الرأفة والرحمة بكم ، والعطف عليكم . أيها الناس ! إنا والله ما خرجنا في

(١) من الفیء وهو کل ما غنمه المسلمون من المشرکین عفواً من غیر قتال .
(٢) شاهت بمعنى قبحت . (٣) الدنیئة . (٤) أي جباة من الغنصمة وهي الجوع .
(٥) آسف بمعنى أغضب . (٦) ج ٩ ص ١٢٦ - ١٢٧ . (٧) اقشع بمعنى اذهب .
(٨) جمع حندس وهو اللیل المظلم والظلمة .

طلب هذا الأمر لنكسر لجيئنا (١) ولا عقيئنا (٢) ، ولا نحفِرَ نهراً ، ولا نبني قصرأ ، وإنما أخرِجنا الأنفة من ابتزازهم حقنا ، والغضب لبني عمننا ، وما كرئنا (٣) من أموركم ، وبهظنا (٤) من شئونكم . ولقد كانت أموركم ترُ مَضُنَّا ، ونحن على فُرُشنا ، ويشد علينا سوء سيرة بني أمية فيكم ، وخرقهم بكم ، واستدلالهم لكم ، واستنثارهم بفيضكم وصدقائكم ومغانمكم عليكم ، لكم ذمة الله تبارك وتعالى ، وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وذمة العباس رحمه الله ، أن نحكم فيكم بما أنزل الله ، ونعمل فيكم بكتاب الله ، ونسير في العامة والخاصة منكم بسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم . تبا لبني حرب : بن أمية وبني مروان ، آثروا في مدتهم وعصرهم العاجلة على الآجلة ، والدارُ الفانية على الدار الباقية ، فركبوا الآثامَ ، وظلموا الآثامَ ، وانتكوا المحارم ، وغشوا الجرائم ، وجاروا في سيرتهم في العباد ، وسفهم في البلاد ، التي بها استلذوا تسربل الأوزار ، وتجلبب الآصار (٥) ، ومرحوا في أعنة المعاصي ، وركضوا في ميادين الغنى ، جهلا باستدراج الله ، وأمنأ لمسكر الله ، فأتاهم بأس الله نياتاً وهم نائمون ، فأصبحوا أحاديث ومزقوا كل ممزق ، فبعداً للقوم الظالمين . وأدالنا الله من مروان وقد غره بالله الغرور ، أرسل لعدو الله في عنانه ، حتى عثرَ في فضل خطامه (٦) ، فظن عدو الله أن لنْ نَقْدِرَ عليه ، فنادى حزبه ، وجمع مكابده ، ورمى بكتائبه ، فوجد أمامه ووراءه ، وعن يمينه وشماله ، من مكر الله وبأسه ونقمته ، ما أمات باطله ، ومحق ضلالته ، وجعل دائرة السوء به ، وأحيا شرفنا وعزنا ، ورد إيانا حقننا وإرئنا . أيها الناس ! إن أمير المؤمنين نصره الله نصرأ عزيزأ ، إنما غاد إلى المنبر بعد الصلاة ، إنه كره أن يخلط بكلام الجمعة غيره ، وإنما قطعه عن استتمام الكلام بعد أن اسحنفر (٧) فيه ، شدة الوعك ، وادعو الله لأمير المؤمنين بالعافية ، فقد أبدلكم الله بمروان عدو الرحمن وخليفة الشيطان ، المُتَّبِعِ للسفيلة ، الذين أفسدوا في الأرض بعد صلاحها ، بإبدال الدين وانتهاك حريم المسلمين ، الشاب المتكحل المسمهل ، المقتدى بسلفه الأبرار والأخيار ، الذين أصلحوا الأرض بعد فسادها ، بمعالم الهدى ، ومناهج التقوى . ففعج (٨) الناس له بالدعاء .

ثم قال : يا أهل الكوفة ! إننا والله ما زلنا مظلومين مقهورين على حقنا ، حتى أتاح الله لنا شيعتنا أهل خراسان . فأحنيا بهم حقنا ، وأفلج بهم حجتنا ، وأظهر بهم دولتنا ، وأراكم الله ما كنتم به تنتظرون ، وإليه تستشوفون ، فأظهر فيكم الخليفة من هاشم ، ويبيض به وجوهكم ، وأدالكم على أهل الشام ، ونقل إليكم السلطان وعز الإسلام ،

(١) اللجين الفضة . (٢) والعقيان الذهب . (٣) اشتد علينا . (٤) غلبنا وتغل علينا .

(٥) من الأصر ومعناه الذنب . (٦) الخطام الزمام . (٧) اسحنفر الخطب اتسع في كلامه .

(٨) أي رفع صوته بالدعاء .

وَمَنْ عَلَيْكُمْ بِإِمَامٍ مِنْهُ الْعَدَالَةُ ، وَأَعْطَاهُ حَسَنَ الْإِيَالَةِ . نَحْنُذُوا مَا آتَاكُمْ اللَّهُ بِشُكْرِ ،
وَالزَّمُوا طَاعَتَنَا ، وَلَا تَخْدَعُوا عَنْ أَنْفُسِكُمْ ، فَإِنَّ الْأَمْرَ أَمْرُكُمْ ، فَإِنْ لَكُمْ أَهْلٌ يَدِ مَصْرًا ،
وَأَنْكُمْ مَصْرُنَا . أَلَا وَإِنَّهُ مَا صَعِدَ مِنْكُمْ هَذَا خَلِيفَةً بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ ، إِلَّا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ ، وَأَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مُحَمَّدٍ ، وَأَشَارَ يَدَهُ
إِلَى أَبِي الْعَبَّاسِ ؛ فَأَعْلَبُوا أَنْ هَذَا الْأَمْرَ فِينَا لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنَّا ، حَتَّى تُسَلِّمَ لَهُ إِلَى عِيسَى بْنِ
مَرْيَمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ عَلَى مَا أَبْلَانَا وَأَوْلَانَا .

ثم نزل أبو العباس ، ودَاوُدُ بْنُ عَلِيٍّ أَمَامَهُ ، حَتَّى دَخَلَ الْقَصْرَ ، وَأَجْلَسَ أَبَا جَعْفَرٍ لِيَأْخُذَ
الْبَيْعَةَ عَلَى النَّاسِ فِي الْمَسْجِدِ . فَلَمْ يَزَلْ يَأْخُذُهَا عَلَيْهِمْ حَتَّى صَلَّى بِهِمُ الْعَصْرَ ، ثُمَّ صَلَّى بِهِمُ الْمَغْرِبَ
وَجَنَّهُمُ اللَّيْلَ ، فَدَخَلَ .

ولما تمت البيعة لأبي العباس السفاح ، تحوّل إلى الأنبار ، غربيّ نهر الفرات ، وبينها
وبين بغداد عشرة فراسخ ؛ وقد أسسها سابق بن هرmez أحد ملوك الفرس ، فجاء السفاح
لجذّها ، وأقام بها القصور ، ثم بنى المنصور في جوارها قصرًا نفخًا ، اتخذ دار ملكه ،
فسميت هذه المدينة الهاشمية ، نسبة إلى هاشم جدّ هذه الأسرة .

وقد قضى السفاح معظم عهده في محاربة قواد العرب ، الذين ناصرُوا بني أمية ، وقضى
على أعقاب الأمويين ، حتى إنه لم يفلت منهم أحد إلا عبد الرحمن الداخل ، الذي أسس
الدولة الأموية ببلاد الأندلس . وكذلك وجه السفاح همه إلى الفتك بمن والوه وساعدوه
على تأسيس دولته ، فقتل أبا سبلة الخلال . وهم بقتل أبي مسلم ، لولا أن عاجلته منيته . كما
قتل ابن هبيرة أحد قواد مروان بن محمد الأموي ، بعد أن أعطاه الأمان .

أخلاق السفاح وصفاته :

يقول المسعودي ^(١) عن أبي العباس السفاح : إنه كان جميلًا وسيما ، ويقول صاحب
كتاب الفخرى ^(٢) : إنه كان كريمًا حليما وقورا ، عاقلا كاملا ، كثير الحياء ، حسن الأخلاق .
ويقول السيوطي ^(٣) : وكان السفاح أسخى الناس ، ما وعد عدة فاخرها عن وقتها ، ولا
قام من مجلسه حتى يقضيها ، وقال عبد الله بن الحسن العلوي مرة : سمعت بألف ألف درهم
وما رأيته قط ، فأمر بها فأحضرت ، وأمر بحملها معه إلى منزله ، وكان نقش خاتمه : « الله
ثقة عبد الله وبه يؤمن » . ويؤثر عنه قوله : إن من أدنياء الناس ووضعائهم من عد البخل
حزما والحلم ذلا ، وقوله : إذا كان الحلم مفسدة كان العفو معجزة ، والصبر حسن ، إلا على
ما أوقع الدين وأوهن السلطان ، والأناة محمودة إلا عند إمكان الفرصة .

ويقول الطبري ^(٤) : كان السفاح مجعد الشعر ، طويلا أبيض ، أفتى الأنف ، حسن الوجه

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٢١٥ . (٢) ص ١٣٤ . (٣) تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين ص ١٧١

(٤) ج ٩ ص ٤ ص ١٥٤ .

واللحية . وقال المسعودي (١) ولم يكن أحد من الخلفاء يحب مسامرة الرجال مثل أبي العباس السفاح . وكان كثيراً ما يقول : إنما العجب من يترك أن يزداد علماً ، ويختار أن يزداد جهلاً ، فقال له أبو بكر الهذلي : ما تأويل هذا الكلام يا أمير المؤمنين ؟ قال : يترك مجالسة مثلك وأمثال أصحابك ، ويدخل إلى امرأة أو جارية ، فلا يزال يسمع سخفاً ويروى نقصاً . فقال له الهذلي : لذلك فضلكم الله على العالمين ، وجعل منكم خاتم النبيين .

كان السفاح يشجع الأدب والغناء ، وكان يحزل العطاء على الشعراء والمغنين ، فقد دخل عليه أبو بجيلة الشاعر ، فسلم عليه وقال : عبدك يا أمير المؤمنين وشاعرك ، أفتأذن لي في إنشادك ؟ فقال له السفاح : لعنك الله ، ألسنت القائل في مسألة بن عبد الملك بن مروان :

أمسلم إني يا بن كلِّ خليفة ويا فارس الهيجا ويا جبل الأرض
شكرتك إنَّ الشكر جبلٌ من الشقى وما كلُّ من أوليته نعمة يقضى
وأحييت لي ذكري وما كان خاملاً ولكنَّ بعض الذكر أنبه من بعض ؟
فقال الشاعر : أنا يا أمير المؤمنين الذي أقول :

لمسا رأينا استمسكت يداكا كننا أنا ما نهرب المسلاكا
ونركبُ الأعجاز والأوراكا من كلِّ شيء ما خلا الإشرাকা
فكلما قد قلتُ في سواكا زورته وقد كُفِرَ هذا ذاكا
إنا انتظرنا قبلها أباكا ثم انتظرنا بعدها أخاكا
ثم انتظرناك لها إياكا فكنت أنت للرجاء ذاكا
فرضى السفاح عنه ، وأجزل له العطاء .

وكان السفاح يطرب من وراء الستر ، ويصيح بالمطرب له من المغنين : أحسنت والله ، فأعد هذا الصوت . وكان لا ينصرف عنه أحد من ندمائه ولا مطربيه ، إلا بصلة من مال أو كسوة ويقول : لا يكون سرورنا مُسبجلاً ، ومكافأة من سرنا وأطربنا مُسوّجلاً ؛ على أنه سرعان ما احتجب عن ندمائه .

وكان السفاح إذا حضر طعامه أبسط ما يكون وجهاً ؛ فكان إبراهيم بن مخزومة الكندي إذا أراد أن يسأله حاجةً آخرها ، حتى يحضر طعامه ، ثم يسأله ؛ فقال له السفاح يوماً : يا إبراهيم ! مادعاك إلى أن تشغلني عن طعامي بجوانحك ؟ قال : يدعوني إلى ذلك القماس النجس لما أسأل . قال أبو العباس : إنك لحقيقٌ بالسودد ، لحسن هذه الفطنة (٢) .

ويحدثنا المسعودي في كتابه مروج الذهب (٣) عن زواج السفاح قبل توليته الخلافة من أم سلبية ، وكانت قد تزوجت من عبد الله بن الوليد بن المغيرة المخزومي ، فمات وتزوجت بعده

(٢) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٢١٨ .

(١) ج ٢ ص ٢١٧ .

(٣) ج ٢ ص ٢١٥ — ٢١٧ .

من عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك الأموي ، فأتت . فبينما هي ذات يوم ، إذ مر بها أبو العباس السفاح ، وكان جميلاً وسيماً ، فسألت عنه ، وأرسلت له مولاة لها ، تعرض عليه أن يتزوجها ، وقالت لمولاتها : قولي له : هذه سبعائة دينار أوجه بها إليك ، وكانت تمتلك كثيراً من المال والخشم والجواهر ، فأنته المولاة ، وعرضت عليه ذلك ، فقال السفاح : أنا مملوك لا مال عندي ، فدفعته إليه المال ، وأقبل إلى أخيها وطلب إليه أن يزوجه منها ، فزوجه إياها ، فأصدقها خمسمائة دينار ، وأهدى من يلودها مائتي دينار ، وزفت إليه في ثياب موشاة بالجواهر ، وحظيت عنده ، حتى أصبح لا يقطع أمراً إلا بمشورتها ، حتى أفضت الخلافة إليه .

فلما كان ذات يوم في خلافته ، خلا به خالد بن صفوان ، فقال له : يا أمير المؤمنين ! إنني فكرت في أمرك وسعة ملكك ، وقد ملكك نفسك امرأة واحدة ، فإن مرضت مرضت ، وإن غابت غابت ، وحرمت نفسك التلذذ باستطراف الجوارى ، ومعرفة أخبار حاليتهن ، والتمتع بما تشتهي منهن . فإن منهن يا أمير المؤمنين الطويلة الغيداء ، وإن منهن البضة البيضاء . . . والدقيقة السمراء ، والبربرية العجاء من مولدات المدينة تفتن بمحادثتها . وجعل خالد يجيد في الوصف ويجد في الإطناب بحلاوة لفظه وجودة وصفه . فلما فرغ كلامه ، قال أبو العباس ، ويحك يا خالد ، ماصك مسامعي والله كلام أحسن مما سمعته منك . فأعد على كلامك ، فقد وقع مني موقعاً . فأعاد عليه خالد أحسن مما ابتدأه ، ثم انصرف ، وبقي السفاح مفكراً فيما سمع منه ، فدخلت عليه زوجته أم سلة ، فلما رأته مفكراً مغموماً قالت : إنني لأنكرك يا أمير المؤمنين ، فهل حدث أمر تكرهه ، أو أنك خبر فارتعت له ؟ قال : لم يكن من ذلك شيء . قالت فما قصتك ؟ فجعل ينزوي عنها ، فلم تنزل به حتى أخبرها بحديث خالد ، فقالت : فما قلت لابن الفاعلة ؟ قال لها : سبحان الله ينصحنني وتشتمينه ؟ وخرجت من عنده مغضبه ، وأرسلت إلى خالد جماعة من النجارية وأمرتهم ألا يتركوا منه عضواً صحيحاً . قال خالد : فانصرفت إلى منزلي وأنا على السرور بما رأيته من أمير المؤمنين ، وإعجابه بما ألقىته إليه ، ولم أشك أن صلته ستأتيني ؛ فلم ألبث حتى سار إلى أولئك النجارية وأنا قاعد على باب داري ، فلما رأيتهم قد أقبلوا نحوي ، أيقنت بالجائزة واصله ، حتى وقفوا علي ، فسألوا عني . فقلت ها أنذا خالد ، فسبق إلي أحدهم بهراوة كانت معه ، فلما أهوى بها علي وثبتت فدخلت منزلي ، وأغلقت الباب علي واستترت ، ومكثت أياماً على تلك الحال ، لا أخرج من منزلي ، ووقع في خلدي أني أتيت من قبيل أم سلة ، وطلبتني السفاح طلباً شديداً ، فلم أشعر ذات يوم إلا بقوم هجموا علي وقالوا : أجب أمير المؤمنين ، فأيقنت بالموت ، فركبت وليس علي لحم ولا دم . فلما وصلت إلى الدار أومأ إلي بالجلوس ، ونظرت فإذا خلف ظهري باب عليه ستور قد أرخيت ، وحركة خلفها ، فقال : يا خالد ألم أرك منذ ثلاث ، قلت كنت عليلًا يا أمير المؤمنين ، قال : ويحك ، إنك وصفت لي في آخر دخلة من أمر

النساء والجواري ، ما لم يتخبر ق مسامعي قط كلام أحسن منه ، فأعده عليّ ، قلت : نعم يا أمير المؤمنين ، أعلمتُك أنّ العرب اشتقت اسم الضرة من الضر ، وأنّ أحدهم مات زوج من النساء أكثر من واحدة الا كان في جهد ، فقال : ويحك ! لم يكن هذا في الحديث . قلت : بلى والله يا أمير المؤمنين ، وأخبرتك أنّ الثلاث من النساء كانهن القيدُ يغلي عليهن . قال أبو العباس برئت من قرابتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم إن كنت سمعتُ هذا منك في حديثك . قال : وأخبرتك أنّ الأربع من النساء شرُّ صحيح لصاحبهن ، يشينه ويهرمه ويسقمه . قال ويلك ! ما سمعت هذا الكلام منك ولا من غيرك قبل هذا الوقت .

قال خالد : بلى والله ، قال : ويلك ! وتكذبن ، قال : وتريد أن تقتلني يا أمير المؤمنين ؟ قال : مر في حديثك قال : وأخبرتك أنّ أبكار الجواري رجال ، ولكن لا خصى لهن ، قال خالد ، فسمعت الضحك من وراء الستر ، فقلت ، نعم ، وأخبرتك أيضاً ، أنّ بني مخزوم ربحانة قريش ، وأنت عندك ربحانة من الرياحين ، وأنت تطمح بعينك إلى حرائر النساء وغيرها من الإماء . قال خالد : فقيل لي من وراء الستر : صدقت والله يا عمها وبررت ! بهذا حدثت أمير المؤمنين ، ولكنه بدل وغير ، ونطق عن لسانك ، فقال له أبو العباس : مالك قاتلك الله وأخزأك ، وفعل بك وفعل ! فتركته وخرجت وقد أيقنت بالحياة . فما شعرت إلا برسل أم سلمة قد ساروا إلى ومعهم عشرة آلاف درهم وتحت وبرذون وغلाम .

بقي السفاح في الخلافة أربع سنين وتسعة أشهر . ومات بالجدرى في مدينة الأنبار التي اتخذها قاعدة لخلافته ، وذلك يوم الأحد لاثني عشرة ليلة خلت من شهر ذي الحجة سنة ١٣٦ هـ وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ، وقيل ابن تسع وعشرين .

أبو جعفر المنصور

(١٣٦ — ١٥٨ هـ = ٧٥٤ — ٧٧٥ م)

ولد أبو جعفر عبد الله بن محمد بن علي العباسي سنة ١٠١ هـ في الحيمة من أرض الشسرة على مقربة من العقبة ، وذلك في أواخر خلافة عمر بن عبد العزيز . وأمه سلامة البربرية (١) ، وقد تربى وسط كبار الرجال من جلة بني هاشم ، وصحب أباه وجده ، فنشأ أدبياً فصيحاً ، ملأ بسير الملوك والأمراء (٢) . واستعان السفاح بأبي جعفر في التخلص من أبي سلمة الخلال ، لأنه كان يعمل على تحويل الخلافة إلى العلويين ، وأرسله إلى خراسان لاستطلاع رأى أبي مسلم

(١) تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٤٣٦ ، وقيل إن أمه سلامة بنت بشير من مولدات البصرة (المسعودي : التنبيه والإشراف ص ٣٤٠) ، وقيل أيضاً ربيطة الحارثية أم السفاح ، وهذا غير صحيح .
(٢) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ١٨١ .

في قتل أبي سلمة ، فتم له ما أراد . ثم وجه أبو العباس أخاه أبا جعفر إلى خراسان ، لأخذ البيعة له ، وتوليته العهد من بعده ؛ ولكن قتل أبي مسلم سليمان بن كثير ، على الرغم من وجود أبي جعفر بخراسان ، قد أثار حفيظته وحنقه ، حتى إنه أشار على الخليفة بقتل أبي مسلم ، قبل أن يستفحل خطره في الدولة ، ولكن أبا العباس خاف أن يؤدي هذا القتل إلى إثارة غضب الخراسانيين ، فيعملون على الأخذ بثأره .

وكذلك استعان أبو العباس السفاح بأخيه أبي جعفر في مقاتلة يزيد بن عمر بن هبيرة ، قائد مروان بن محمد ، آخر خلفاء بني أمية ، وزعيم العرب في ذلك الوقت . وعلى الرغم من إعطاء أبي العباس الأمان له ، قتله قبل أن يحف مداد ذلك الأمان ، وقد قيل إن أبا مسلم الخراساني أرسل إلى السفاح كتاباً يشير فيه بقتل ابن هبيرة ، وختم كلامه بقوله : « إن الطريق السهل إذا أُلقيت فيه الحجارة فسد . لا والله لا يصلح أمر فيه ابن هبيرة » . وكان أبو جعفر يرى عدم قتله . وفي سنة ١٣٢ هـ ولي السفاح أبا جعفر الجزيرة وأذربيجان وإرمينية (١) ، وفي سنة ١٣٦ هـ ولاء السفاح إمارة الحج . ثم توفي السفاح في ١٣ ذي الحجة سنة ١٣٦ هـ كما تقدم ، وكان قد عهد بالخلافة من بعده إلى أخيه أبي جعفر ، ثم إلى عيسى بن موسى بن محمد ابن علي ، وكتب بذلك العهد ، وختم عليه بخاتمه ، وشهد بذلك أهل بيته ، وسلبه إلى عيسى بن موسى بن محمد العباسي (٢) .

وقد أرسل عيسى بن موسى إلى أبي جعفر يعلمه بموت أبي العباس السفاح ، وأخذ البيعة له ، فلقبه الرسول بمكان يقال له زكية ، فلما جاءه الكتاب دعا الناس فبايعوه ، وبايعه أبو مسلم . وقال أبو جعفر : « أين موضعنا هذا ؟ قالوا زكية ، فقال أمرهم يركب لنا إن شاء الله تعالى (٣) » .

وقد قامت في أيام المنصور أحداث خطيرة : من ذلك حرج مركز العباسيين بين الساخطين من العرب ، وعلى رأسهم عمه عبد الله بن علي ، والساخطين من الفرس ، وعلى رأسهم أبو مسلم الخراساني مؤسس الدولة العباسية نفسه . ولكن المنصور استطاع بحزمه وكيدته أن يقهر العرب ويأسر عمه ثم يقتله ، وأن يقهر الفرس ويقتل أبا مسلم ، كما استطاع المنصور أن يقهر العلويين ويقتل محمداً (النفس الزكية) بن عبد الله بن الحسن في الحجاز ، وأخاه إبراهيم في العراق .

خلع عيسى بن موسى من ولاية العهد والبيعة للبهدي :

ومن الأحداث الخطيرة التي وقعت في عهد أبي جعفر المنصور ، خلع عيسى بن موسى بن محمد العباسي من ولاية العهد ، وأخذ البيعة للبهدي بن المنصور . وقد ذكر صاحب الفخرى (٤)

(١) الطبري ج ٩ ص ١٤٧ . (٢) المصدر نفسه ص ١٥٤ .

(٣) المصدر نفسه ص ١٥٥ . وذكر الطبري في رواية أخرى أنه قد وردت على أبي جعفر البيعة له بعد الحج ، في منزل من منازل طريق مكة يقال له « صفية » ، فتنازل باسمه ، وقال صفت لنا إن شاء الله تعالى . (٤) ص ١٥٥ — ١٥٦ .

كيفيه خلق عيسى فقال : « اختلف أرباب السير في كيفية خلقه ، ف قيل إن المنصور التمس منه ذلك ، وكان يكرمه ويجلسه عن يمينه ، ويجلس المهدي عن يساره ، فلما فاوضه المنصور في خلق نفسه قال : يا أمير المؤمنين ، كيف أصنع بالآيمان التي في رقبتي وفي رقاب الناس ، بالعناق والطلاق والحج والصدقة ؟ ليس إلى الخلع سبيل . فتغير المنصور عليه ، وباعده بعض المباعدة ، وصار يأذن للمهدي قبله . ويجلسه دون المهدي ، وصار يتقصد أذاه ، فكان يكون عيسى بن موسى جالسا ، فيحفر الحائط الذي يليه ، وينثر التراب على رأسه ، فيقول لبنيه : تنحوا ، ثم يقوم هو فيصلي ، والتراب ينثر عليه ، ثم يؤذن له ، فيدخل على المنصور والتراب عليه لا ينفضه ، فيقول له المنصور يا عيسى ، ما يدخل على أحد بمثل ما تدخل أنت به من الغبار والتراب ، أفكل هذا من الشارع ؟ فيقول عيسى : أحسب ذلك يا أمير المؤمنين ولا يشكو . وقيل إنه سقاها بعض ما يتلفه ، فرض مدة ، ثم أفاق منه ، فلم يزل هذا الأذى يتكرر عليه ، حتى خلق نفسه وباع .

وقيل بل وضع المنصور الجند فصاروا يشتمون عيسى بن موسى إذا رأوه ، ويتألون منه ؛ فلما شكوا ذلك إلى المنصور ، قال له : يابن أخى إني والله أخافهم عليك وعلى نفسى ، فأنهم قد أشربت قلوبهم حب ذلك الفتى يعنى المهدي ، فلو قدمته بين يديك ، تخلق عيسى نفسه ، وباع المهدي . ولما رآه بعض أهل الكوفة ، وقد جعل المهدي قدامه في الخلافة ، وصار هو بعده ، قال هذا الذى كان غداً فصار بعد غد . وقيل بل اشتراها المنصور منه بمال ، مبالغه أحد عشر ألف ألف درهم . وقيل بل أرسل إليه خالد بن برمك ، فأخذه معه جماعة من أهل المنصور ، نحو ثلاثين رجلا ، ومضى إلى عيسى ، فخاطبه في أن يخلق نفسه ، فأبى ؛ فلما أبى قال خالد للجماعة : نشهد عليه في أنه قد خلق نفسه ، ونحقق بذلك دمه ، ونسكن هذه الفتنة ، فشهدوا عليه بذلك ، فقامت البيئة به ، وأنكر عيسى ، فلم يلتفت إليه ، وتم خلقه ، وبويع للمهدي .

وبعد أن أخذت البيعة للمهدي ، أوصاه أبوه المنصور وصية ، تكشف عن السياسة التي وضعها لإبنه ، ليسير عليها في سياسة رعيته ، مسلمهم وذمهم ، فحثه على الرأفة بهم ، والسهر على راحتهم ، وبسط العدل بينهم ، والتقرُّب إلى الله بحسن السيرة ، وإجلال أهل العلم والدين ، وعمارة الأرض لتخفيف الخراج ، ونشر الاسلام ، والجهاد في سبيل إعلاء كلمته . ولا بأس أن نقطف جزءاً من هذه الوصية عن اليعقوبى ، (١) قال : « هذا ما عهد به عبد الله أمير المؤمنين ، إلى المهدي محمد ابن أمير المؤمنين ، ولى عهد المسلمين ، حين أسند وصيته إليه بعده ، واستخلفه على الرعية ، من المسلمين وأهل الذمة ، وحُرِّمَ الله وخزائنه وأرضه التي يورثها من يشاء من عبادته ، والعاقبة للمتقين . إن أمير المؤمنين يوصيك بتقوى الله في البلاد ، والعمل بطاعته

في العباد ، ويحذرك الحسرة والندامة ، والفضيحة في القيامة ، قبل حلول الموت ، وعاقبة الفوت حين تقول : رب لولا أخرتني إلى أجل قريب . هبأت أين منك المهمل ، وقد انقضى عنك الأجل . . . وتقول رب ارجمني لعلى أعمل صالحاً ، فيومئذ ينقطع أهلك ، ويحل بك عملك فترى ما قدمته يداك وسعت فيه قدماك ، ونطق به لسانك ، واستر كبت عليه جوارحك ، ولحظت له عينك ، وانطوى عليه غيبك ، فتجزى عليه الجزاء الآوفي ، إن شراً فشرأ ، وإن خيراً فغيراً . فليكن تقوى الله من شأنك ، وطاعته من بالك ، استعن بالله على دينك ، وتقرب به إلى ربك ونفسك ، نخذ منها ، ولا تجعلها للهوى ، ولن تعمل الشر قامعاً ؛ فليس أحد أكثر وزراً ، ولا أعظم مصيبة ، ولا أجل رزية منك ، لتكاثف ذنوبك ، وتضاعف أعمالك . إذا فلك الله الرعية تحكم فيهم بمثل الذرة ، فيقتضون منك أجمعون وتكافي على أفعال ولاتك الظالمين ، فإن الله يقول (إنك ميت وإنهم ميتون ، ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون ، فكاثي بك وقد أوثقت بين يدي الجبار ، وحذلك الأنصار ، وأسلبك الأعوان ، وطوَّقت الخطايا ، وقرنت بك الذنوب ، وحل بك الوجل ، وقعد بك الفشل ، وكلت حجتك ، وقلت حيلتك وأخذت منك الحقوق ، واقتاد منك المخلوق في يوم شديد هوله ، عظيم كربه ، تشخص فيه الأبصار لدى الحناجر كاظمين ، مالم الظالمين من حميم ، ولا شفيع يطاع ، فما عسيست أن يكون حالك يومئذ إذا خاصمك الخلق ، واستقضى عليك الحق ، إذ لا خاصة تنجيك ، ولا قرابة تحميك . تطلب فيه التباعة ،^(١) ولا تقبل فيه الشفاعة ، ويعمل فيه بالعدل ويقضى فيه بالفصل . قال الله : (لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب) . فعليك بالتشمير لدينك ، والاجتهاد لنفسك ، فافسك عنقك ، وبادر يومك ، واحذر غدك ، واتق دنياك فاتها دنيا غادرة موبقة ، ولتصدق لله نيتك ، وتعظم إليه فاقتك . . .

« وارغب إلى الله عز وجل في الجهاد والمحاماة عن دينه ، وإهلاك عدوه ، بما يفتح الله على المسلمين ويمكن لهم في الدين . وابذل في ذلك مهجتك ونجدتك ومالك ، وتفقد جيوشك ليلك ونهارك . واعرف مراكن خيلك ، ومواطن رحلك . وبالله فليكن عصمتك وحولك وقوتك ، وعليه فليكن ثقتك ، واقتدارك وتوكلك ، فانه يكفيك ويغنيك وينصرك ، وكفى به مؤيداً ونصيراً . »

وقد ذكر المسعودي^(٢) أن عمرو بن عبيد دخل على المنصور بعد أن بايع لابنه المهدي فقال له : يا أبا عثمان ، هذا ابن أمير المؤمنين ، وولي عهد المسلمين . قال له عمرو : يا أمير المؤمنين . أراك قد وطدت له الأمور ، وهي تصير إليه ، وأنت عنه مسئول ؛ فاستعبر المنصور ، وقال له : عظمي يا عمرو ، قال : يا أمير المؤمنين ، إن الله أعطاك الدنيا بأسرها ، فاشتر نفسك منها ببعضها .

(١) يقال : لي قبل فلان تبعة وتباعة ، وهي الظلامة (أساس البلاغة) .

(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٤٣ .

وإن هذا الذى فى يدىك ، لو بقى فى يد غيرك لم يصل إليك ، فاحذر ليلة تمخض بيوم لاليلة بعده وأنشد :

يأتهذا الذى قد غره الأمل ودون ما يأمل التخيص والأجل
ألا ترى أنما الدنيا وزينتها كنزل الركب حلوا ثم ارتحلوا
حتوفها رصد وعيشها نكد وصفوها كدره وملكها دول
تظل تفرع بالروعات ساكنها فاسوغ له لين ولا جدل
كأنه للنسايا والردى غرض تظل فيه بنات الدهر تنفضل
والنفس هاربة والموت يرصدها وكل عثرة رجل عندها زلل
والمرء يسعى لما يبقى لوارثه والقبر وارث ما يسعى له الرجل

أخلاق المنصور وصفاته :

ذهب بعض المؤرخين إلى القول ، إن المنصور كان أعظم الخلفاء العباسيين شدة وبأساً ، ويقظة وحزماً وصلاحاً ، واهتماماً بمصالح الرعية ، وجدأً فى بلاطه . وهو يعتبر بحق المؤسس الثانى للدولة العباسية ، كما كان عبد الملك بن مروان بالنسبة للدولة الأموية . ولا غرو ، فإن كلا الرجلين استطاع بما أوتيته من حزم وعزم ، أن ينتشل بلاده من عبث العاصيين ، وخطر الخوارج ، وأن يوطد دعائم ملكه على أسس قوية من النظام .

قال الطبرى (١) : « كان المنصور أسمر طويلاً نحيفاً ، خفيف العارضين ، وكان ميالاً بطبيعته إلى النظام ، الذى هو أساس نجاح الأعمال . فكان ينظر فى صدر النهار فى أمور الدولة ، وما يعود على الرعية من خير ، فإذا صلى العصر جلس مع أهل بيته ، فإذا صلى العشاء نظر فيما يرد عليه من كتب الولايات والثغور ، وشاور وزيره ومن حضر من رجاله دولته فيما أراد من ذلك ، فإذا مضى ثلث الليل انصرف سماره ، وقام إلى فراشه ، فنام الثلث الثانى ، ثم يقوم من فراشه ، فيتوضأ ، ويجلس فى محرابه ، حتى مطلع الفجر ، ثم يخرج فيصل بالناس ، ثم يدخل فيجلس فى إيوانه ، ويبدأ عمله كعادته فى كل يوم .

اشتهر المنصور بالجد فى بلاطه ، فلم يعرف عنه ميل إلى اللهو والعبث . روى الطبرى عن حماد التركى ، أن المنصور سمع يوماً فى داره جلبة ، فقال : ما هذا يا حماد ؟ أنظر ، فذهب فإذا خادم له قد جلس بين الجوارى ، وهو يضرب لمن بالآلة الموسيقية المعروفة بالطنبور ، وهن يضحكن ، فمشى رويداً رويداً حتى أشرف عليهن . فلما رأينه تفرقن ، فأمر المنصور مولاه حماد بأن يضرب رأس الخادم بالطنبور ، فلم يزل يضرب به رأسه حتى كسره ، ثم أخرجه المنصور من قصره .

ويحدثنا المسعودي (١) أن المنصور بينما كان جالساً في مجلسه ، سقط بين يديه سهم ،
فدَّعَر دَعْرًا شديداً ، ثم أخذه فجعل يقلبه ، فإذا مكتوب عليه بين الريشتين .

أَتَطْمَعُ فِي الْحَيَاةِ إِلَى التَّنَادِ (٢) وَتَحْسَبُ أَنَّ مَالِكَ مِنْ نَفَادِ
سَتَسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِكَ وَالْخَطَايَا وَتَسْأَلُ بَعْدَ ذَلِكَ عَنِ الْعَمِيصَادِ
ثُمَّ قَرَأَ عِنْدَ الرِّيشَةِ الْآخَرَى :

أَحْسَنْتَ ظَنِّكَ بِالْأَيَّامِ إِذْ حَسَنْتَ وَلَمْ تَخَفْ سَوْءَ مَا يَأْتِي بِهِ الْقَدَرُ
وَسَاعَقْتَكِ اللَّيَالِي فَاعْتَرَّتْ بِهَا وَعِنْدَ صَفْوِ اللَّيَالِي يَحْدُثُ الْكَدَرُ
ثُمَّ قَرَأَ عِنْدَ الرِّيشَةِ الْآخَرَى :

هِيَ الْمَقَادِيرُ تَجْرِي فِي أَعْتَهَا فَاصْبِرْ فَلَيْسَ لَهَا صَبْرٌ عَلَى حَالِ
يَوْمَا تَرِيكَ خَسِيسَ الْقَوْمِ تَرْفَعُهُ إِلَى السَّمَاءِ وَيَوْمَا تَخْفُضُ الْعَالِي

وإذا على جانب السهم مكتوب : همدان فيها رجل مظلوم في حبسك ، فبعث المنصور
من فوره بعض خاصته ليفتشوا السجون ، فوجدوا شيخاً موثقاً بالحديد ، متوجّهاً نحو القبلة
يردد هذه الآية : (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون) ، فسأله عن بلده . فقال :
همدان ، فحمل ووضع بين يدي المنصور ، فسأله عن قصته ، فأخبره أنه من أبناء مدينة
همدان ، ومن أهل اليسار فيها ، وأن الوالي أراد أن يأخذ منه ضيعته التي تقوّم بألف ألف
درهم . فامتنع عن القبول ، فكبّله بالحديد ، وحمله ، وكتب إليه أنه عاص ، فكان من أمره
ما كان ، وظل على ذلك أربع سنين ؛ فأمر المنصور ففك الحديد عن هذا الرجل ، وأطلق من
حبسه ، وردت إليه ضيعته ، وولاه همدان ، فشكره الرجل ، وقال . يا أمير المؤمنين ، أما
الضيعة ، فقد قبلتها ، وأما الولاية فلا أصلح لها ، وأما واليك فقد عفوت عنه ، وعاد هذا
الرجل معزراً مكرماً ، وصرف المنصور الوالي عن ولايته ، وعاقبه على فعلته .

وكان المنصور يكره سفك الدماء إلا بالحق . فقد بلغه أن عيسى بن موسى قتل رجلاً من
ولد نصر بن سيار ، وإلى مروان بن محمد الأموي ، كان مستخفياً في الكوفة ، فأنكر ذلك
على عيسى ، وهم بقتله ثم عدل عن هذا العمل ، بعد أن بلغه أنه لم يقم بذلك عن سوء نية ،
أو عن مودة لهذا الرجل ، فكتب إليه أبو جعفر هذا الكتاب يؤنبه فيه عن فعلته ، ويأمره
ألا يعاقب أحداً عن ريبة أو ظنة ، وإنما لثبوت التهمة عليه ، وتوافر الأدلة على جرمه .
وهاك هذا الكتاب بنصه عن الطبري (٣) :

« أما بعد ، فإنه لولا نظر أمير المؤمنين واستبقاؤه ، لم يؤخر كقتل ابن نصر بن سيار ،
واستبدادك به فيما يقطع أطاع العمال في مثله . فأمسك عن ولاك أمير المؤمنين أمره من عربي

(١) مروج الذهب ص ٣٣٢ — ٣٣٣ ، والطبري ج ٩ ص ٣١٤ .

(٢) يريد يوم التناد ، وهو يوم القيامة . (٣) ج ٩ ص ٢٩٤ .

وأعجبى، وأحمر وأسود ، ولا تستبدن على أمير المؤمنين بامضاء عقوبة في أحد قبله تباعة^(١) ، فانه لا يرى أن يأخذ أحداً بظنة قد وضعها الله عنه بالتوبة ، ولا يحدث كان منه في حرب أعقبه الله منها سلباً ، ستر به عن ذى غلة ، وحجز به عن محنة ما في الصدور ، وليس ييأس أمير المؤمنين لأحد ولا لنفسه من الله من إقبال مدبر ، كما أنه لا يأمن من إدبار مقبل إن شاء الله والسلام .

وقد عرف المنصور بالثبات عند الشدائد . ولا شك أن هذه الصفة كانت من أبرز الصفات التي كفلت له النجاح ، إذا صادفته إحدى الصعوبات ، وكانت كثيرة في عهده كما نعلم . ومما يسجل للمنصور بالفخر والاعجاب ، قيامه في وجه من خرجوا عليه من أهل بيته ، ويدتأبناء عمه العلويين ، فقد تغلب عليهم بفضل هذا الثبات ، ووطد دعائم ملكه بعد أن أصبح قاب قوسين أو أدنى من الوهن والانحلال .

كذلك عرف المنصور بميله إلى الاقتصاد في النفقات ، كما اشتهر عنه ميله إلى الاعتدال في العطاء : فقد روى الطبري^(٢) عن الخوارزمي أنه قدم على المهدي في الري وهو ولي عهد ، فأمر له بعشرين ألف درهم ، لأبيات امتدحه بها ، فكتب بذلك صاحب البريد إلى المنصور وهو بمدينة السلام ، يخبره أن المهدي أمر لشاعر بعشرين ألف درهم ، فكتب إليه المنصور يعذله ويلومه ، ويقول له : إنما كان ينبغي لك أن تعطى الشاعر بعد أن يقيم ببابك سنة أربعة آلاف درهم ، قال أبو قدامة ، فكتب إلى كاتب المهدي أن يوجه إليه بالشاعر ، فطلب ، فلم يقدر عليه ، فكتب إليه أنه قد توجه إلى مدينة السلام . فوجه المنصور قائداً من قواده ، فأجلسه على جسر النهران ، وأمره أن يتصفح الناس رجلاً رجلاً ، ممن يمر به ، حتى يظفر بالمؤمل ؛ فلما رآه قال له : من أنت ؟ قال أنا المؤمل بن أميل ، من زوار الأمير المهدي ، قال إياك طلبت ، قال المؤمل : كاد قلبي يتصدع خوفاً من أبي جعفر ، فقبض عليّ ، ثم أتى بي باب المقصورة ، وأسكنني إلى الربيع ، فدخل إليه الربيع ، فقال : هذا الشاعر قد ظفرنا به ، فقال أدخلوه عليّ ، فأدخلت عليه ، فسلمت ، فردّ عليّ السلام ، فقلت : ليس ههنا إلا خير ، قال أنت المؤمل بن أميل ، قلت نعم أصلح الله أمير المؤمنين ، قال هيه ! أتيت غلاماً غراً نخدعته ، قال فكأن ذلك أعجبه ، فقال أنشدني ما قلت فيه ، فأنشدته :

هو المهديّ إلا أن فيه	مشابه صورة القمر المنير
تشابه ذا وذا فهما إذا ما	أنارا مشكلان على البصير
فهذا في الظلام سراج ليل	وهذا في النهار سراج نور
ولكن فضل الرحمن هذا	على ذا بالمنابر والسرير
وبالملك العزيز فذا أمير	وما ذا بالأمير ولا الوزير

ونقص الشهر يخذل هذا ومنير عند نقصان الشهور
 فيابن خليفة الله المصفى به تعلو مفاخرة الفخور
 لأن فت الملوك وقد توافوا إليك من السهولة والوعور
 لقد سبق الملوك أبوك حتى بقوا من بين كاب أو حسير
 وجئت وراه تجرى حيثما وما بك حين تجرى من فتور
 فقال الناس ماهذان إلا بمنزلة الخلق من الجدير
 لأن سبق الكبير فأهل سبق له فضل الكبير على الصغير
 وإن بلغ الصغير مدى كبير لقد خلق الصغير من الكبير

فقال والله لقد أحسنت ! واسكن هذا لايساوى عشرين ألف درهم ، وقال لى أين المال ؟
 قلت هاهوذا ، قال ياربيع ، انزل معه ، فأعطه أربعة آلاف درهم ، وخذ منه الباقي . فخرج
 الربيع ، فخط نقلى ، ووزن لى أربعة آلاف درهم ، وأخذ الباقي . فلما صارت الخلافة إلى
 المهدي ، ولى ابن ثوبان المظالم ، فكان يجلس للناس بالارضاقة ، فاذا ملا كسامة رقاعا ، رفعها
 إلى المهدي ، فرفعت إليه يوما رقعة أذكره قصتي ، فلما دخل بها ابن ثوبان ، جعل المهدي
 ينظر في الرقاع ، حتى إذا نظر في رقعتي ضحكك . فقال له ابن ثوبان : أصاح الله أمير المؤمنين ،
 مارأيتك ضحكك من شيء من هذه الرقاع إلا من هذه الرقعة ، قال هذه رقعة أعرف سبها ،
 ردوا إليه العشرين الألف درهم ، فردت إلى وانصرفت .

وروى الطبري (١) عن الوضين بن عطاء قال :

« استزارني أبو جعفر ، وكانت بيني وبينه خلافة قبل الخلافة ، فصرت إلى مدينة السلام ،
 فخلونا يوما ، فقال لى : يا أبا عبد الله : ما مالك ؟ قلت الخبر الذى يعرفه أمير المؤمنين . قال :
 وما عيالك ؟ قلت : ثلاث بنات والمرأة وخادم لهن ، فقال لى : أربع فى بيتك ؟ قلت نعم ،
 قال : فوالله لردد ذلك على حتى ظننت أنه سيمولنى ، ثم رفع رأسه إلى ، فقال : أنت أيسر
 العرب ، أربع مغازل يدبرن فى بيتك ! »

ومما يدل على حرص المنصور فى النفقات ما رواه الطبري (٢) عن الفضل بن الربيع ، قال :
 وذاكر عن على بن محمد بن الفضل بن الربيع ، حدثه أن المنصور لما فرغ من بناء قصره بالمدينة
 دخله ، فطاف فيه ، واستحسنه واستنظفه ، وأعجبه ما رأى فيه ، غير أنه استكشر ما أنفق
 عليه ، ونظر إلى موضع فيه استحسنه جداً ، فقال لى أخرج إلى الربيع ، فقل له : أخرج إلى
 المسيب ، فقل له يحضرنى الساعة ببناء فارها ، فخرجت إلى المسيب ، فأخبرته ، فبعث إلى رئيس
 البنائين ، فدعاه ، فأدخله على أبى جعفر ، فلما وقف بين يديه قال له : كيف عملت لأصحابنا فى

هذا القصر؟ ولم أخذت من الأجرة لكل ألف آجرة ولبنة؟ فبقى البناء لا يقدر على أن يرد عليه شيئا، فخافه المسيب، فقال له المنصور: مالك لا تكلم فقال: لا علم لي بأمر المؤمنين. قال: ويحك! قل وأنت آمن من كل ما تخافه، قال: يا أمير المؤمنين: لا والله ما أقف عليه ولا أعلمه، فأخذ بيده، وقال له: تعال لا عليك الله خيرا، وأدخله الحجرة التي استحسناها، فأراه مجلسا كان فيها، فقال له: انظر إلى هذا المجلس، وابن لي بإزائه طاقا يكون شبيها بالبيت، لا تدخل فيه خشبا. قال: نعم يا أمير المؤمنين، فأقبل البناء، وكل من معه يتعجبون من فهمه بالبناء والهندسة، فقال له البناء ما أحسن أن أجىء به على هذا، ولا أقوم به على الذي تريد، فقال له: فأنا أعينك عليه، قال: فأمر بالآجر والجص، فجئ به، ثم أقبل يحصى جميع ما دخل في بناء الطاق من الآجر والجص، ولم يزل كذلك حتى فرغ منه في يومه وبعض اليوم الثاني، فدعا المسيب فقال له: ادفع إليه آجرة على حسب ما عمل معك، فحاسبه المسيب فأصابه خمسة دراهم، فاستكثر ذلك المنصور، وقال: لا أرضى بذلك، فلم يزل به حتى نقصه درهما، ثم أخذ المقادير، ونظر مقدار الطاق من الحجرة حتى عرفه، ثم أخذ الكلاء والمسيب بحملان المنفقات، وأخذ معه الأمناء من البنائين والمهندسين حتى عرفوه قيمة ذلك، فلم يزل يحسبه شيئا شيئا، وحملهم على ما رفع في آجرة بناء الطاق، فخرج على المسيب بما في يده ستة آلاف درهم ونيف، فأخذه بها واعتقله، فما برح من القصر حتى أداها إليه.

وكان المنصور حريصا على جمع المال، كما كان أحرص منه على إنفاقه، وكان يغلب عليه الشح، حتى ضرب المثل بشحه وحرصه، فسمى أبا الدوانيق، والمنصور الدوانيق، لتشدده في محاسبة العمال والصناع على الحبة والدانق، وهو مقدار لا يزيد على سدس درهم، فإنه لما بنى مدينة بغداد كان ينظر في العبارة بنفسه، فيحاسب الصناع والأجراء، فيقول لهذا: أنت نمت القائلة، ولهذا: أنت لم تبكر إلى عملك، ولغيره أنت انصرفت ولم تكمل اليوم، فيعطى كل واحد منهم بحسب ما عمل في يومه، فلا يكاد يعطى آجرة يوم واحد.

وقال المسعودي (١): وكان من الحزم، وصواب الرأي، وحسن السياسة، على ما تجاوز كل وصف. وكان يعطى الجزيل والخطير ما كان إعطاؤه حزما، ويمنع الحقير اليسير ما كان إعطاؤه تضييعا، وكان كما قال زياد: لو أن عندى ألف بعير، وعندى بعير أجرب، لقمتم عليه قيام من لا يملك غيره. وخلف ستائة ألف ألف درهم، وأربعة عشر ألف ألف دينار. وكان مع هذا يرضن بماله، وينظر فيما لا ينظر فيه العوام: ووافق صاحب مطبخه على أن له الروس والأكارع والجلود، وعليه الخطب والتوابل.

وقد وصف صاحب الفخرى المنصور في هذه العبارة فقال (٢): كان المنصور من عظام الملوك وحزماتهم، وعقلاهم وعلماهم، وذوى الآراء الصائبة منهم، والتدبيرات السديدة؛

وقورا شديد الوقار ، حسن الخلق في الخلوة ، من أشد الناس احتمالا لما يكون من عبث أو مزاح ؛ فاذا لبس ثيابه وخرج إلى المجلس العام ، تغير لونه ، واحمرت عيناه ، وانقلبت جميع أوصافه . قال يوماً لبنيه : يا بني إذا رأيتموني قد لبست ثيابي ، وخرجت إلى المجلس ، فلا يدنوَن أحد مني ، مخافة أن أعزّه بشيء . قالوا : وكان المنصور يلبس الخشن ، وربما رقع قيصه ، وقيل ذلك لجمعفر بن محمد الصادق عليهما السلام ، فقال : الحمد لله الذي ابتلاه بفقر نفسه في ملكه ، قالوا : ولم يكن يرى في دار المنصور لهوً ولعب ، أو ما يشبه اللهو واللعب .

وذكر الطبري (١) أن المنصور ولي رجلاً من العرب حضرموت ، فكتب إليه والى البريد : إنه يكثر الخروج في طلب الصيد ، ببزاة وكلاب قد أعدها ، فعزله . وكتب إليه : ثكلتك أمك ، وعدمتك عشيرتك ، ما هذه العدة التي أعددتها للنكاي في الوحش ؟ إنا إنما استكفيناك أمور المسلمين ، ولم نستكفك أمور الوحش ، سلم ما كنت تلي من عملنا إلى فلان بن فلان ، والحق بأهلك ملوماً مدحوراً .

وقد عرف المنصور بالفصاحة في القول ، والإبانة عن مقصده ، فقد روى الطبري (٢) في حوادث سنة ١٥٠ هـ ، أنه خطب ببغداد في يوم عرفات ، فقال : أيها الناس ! إنا أنا سلطان الله في أرضه ، أسوسكم بتوفيقه وتسديده ، وأنا خازنه على فيه ، أعمل بمشيئته ، وأقسمه بإرادته ، وأعطيه بإذنه ، قد جعلني الله عليه قفلاً ، إذا شاء أن يفتحنى لأعطياتكم ، وقسم فيسكنكم وأرزاقكم فتحنى ، وإذا شاء أن يقفلني أقفلني ، فارغبوا إلى الله أيها الناس ، وسلوه في هذا اليوم الشريف ، الذي وهب لكم فيه من فضله ، ما أعلمكم به في كتابه إذ يقول تبارك وتعالى : اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الإسلام ديناً — أن يوفقني للصواب ، ويسدّدني للرشد ، ويلهمني الرأفة بكم ، والإحسان إليكم ، ويفتحنى لأعطياتكم وقسم أرزاقكم بالعدل عليكم ، إنه سميع قريب .

كذلك روى المسعودي (٣) أن المنصور خطب الناس بعد قتل أبي مسلم ، فقال : أيها الناس ، لا تخرجوا عن أنس الطاعة ، إلى وحشة المعصية ، ولا تسيروا غش الأئمة ؛ فإن من أسر غش إمامه ، أظهر الله سريره في فلتات لسانه ، وسقطات أفعاله ، وأبداها الله لإمامه ، الذي بادر بإعزاز دينه به ، وإعلاء حقه بفلسجيه . إنا لم ننهب خسسكم حقوقكم ، ولم نهبس الدين حقه عليكم . إنه من نازعنا هذا القميص ، أو طأناه ما في هذا الغنم ، وإن أبا مسلم بايعنا وبايع لنا ، على أنه من نكث بيعتنا ، فقد أباح دمه لنا ، ثم نكث بنا هو ، فحكمنا عليه لأنفسنا حكمته على غيره لنا ، ولم تمنعنا رعاية الحق ، من إقامة الحق عليه .

إلا أنه يؤخذ على المنصور ميله لسفك الدماء ، وإن لم يكن قد بلغ في ذلك ما بلغه أخوه أبو العباس من قبله . وما يؤخذ عليه أيضاً غدره بمن آمن به ، الأمر الذي يحط شأنه في نظر التاريخ .

فقد غدر غدرات ثلاثاً: غدر بآبِ هُبَيْرَة وقد أعطاه الأمان ، ولم يبد منه ما يدعو إلى الفتك به ؛ وغدر بعمه عبد الله بن عليّ بعد أن آمنه ؛ وغدر بأبي مسلم بعد أن طمأنه .

وما يدل على ميله إلى انتهاك حرمة العهود معاملته لزوجه ، وكان قد تعهد لها ألا يتزوج عليها ، وشهد الشهود بذلك ، فلما ولي الخلافة ، أخذ يستفتى الفقهاء والقضاة في الأمصار الإسلامية ، في فسخ ذلك العقد ، لولا أن وافاها الأجل بعد عشرين سنة من خلافته ، ولا يخفى ما ينطوى تحت هذا العمل من محاولة تعريض فقهاه لمخالفة ضمائرهم ، وعدم رعاية ذمهم (١) .

وفاة المنصور :

ذكر الطبري (٢) في سبب وفاة المنصور ، أنه خرج سنة ١٥٨ هـ مشيعاً لابنه المهدي ، حين وجهه إلى الرقة ، فشجّ فيما بين حاجبيه ، وصُرع من يومه . وأضاف الطبري إلى ذلك أن المنصور كان يكثر من الطعام ، ولا يعمل بنصيحة الأطباء ، حتى أدى ذلك إلى اشتداد علته ، وأودى بحياته . وقد روى علي بن محمد بن سليمان النوفلي عن أبيه قال : كان المنصور لا يستمرى طعامه ، ويشكو ذلك إلى المتطببين ، ويسألهم أن يتخذوا له الجوارشنة ، فكانوا يكرهون ذلك ، ويأمرونه أن يقلل من الطعام ، ويخبرونه أن الجوارشنة تهضم في الحال ، وتحدث من العلة ما هو أشد منه عليه ؛ حتى قدم عليه طبيب من أطباء الهند ، فقال له كما قال له غيره ، فكان يتخذ له سفوفاً جوارشنا يابساً ، فيه الأفاوية والأدوية الحارة ، فكان يأخذه ، فيضم طعامه . قال النوفلي : قال لي كثير من متطبي العراق : لا يموت والله أبو جعفر أبداً إلا بالبطن . قال : قلت له وما عليك ؟ قال : هو يأخذ الجوارشن ، فيضم طعامه ، ويخلق من زجر معدته كل يوم شيئاً وشحم مصارينه ، فيموت ببطنه . وقال لي : أضربُ لذلك مثلاً : أرايت لو أنك وضعت سَجراً على مَرْفَع ، ووضعت تحتها آجرة جديدة فقفزت ، أما كان قطرُها يثقبُ الآجرة على طول الدهر ؟ أو ما علمت أن لكل قطرة حداً ؟ قال كثير : فأت الله أبو جعفر كما قال (يعني النوفلي) بالبطن .

وروى الطبري (٣) في سبب موته أيضاً قال : قال بعضهم : كان به وجعه الذي مات فيه ، حرّ أصابه من ركوبه في الهواجر ، وكان رجلاً محروراً على سنه ، يغلب عليه المارار الأحمر ؛ ثم هاض بطنه ، فلم يزل كذلك حتى نزل بستان ابن عامر ، فاشتد به (أي وجعه) فرحل عنه ، فقصر عن مكة ، ونزل بئر ابن المرتفع ، فأقام بها يوماً وليلة ، ثم صار منها إلى بئر ميمون ، وهي على بعد ستة أميال من مكة ، وهو يسأل عن دخول الحرم ، ويوصي الربيع بما يريد أن يوصيه به ؛ وتوفي به في السحر أو مع طلوع الفجر ، ليلة السبت لست خلون من ذي الحجة ، سنة ثمان وخمسين ومائة . واختلف المؤرخون في مبلغ سنه حين توفي : فقال بعضهم إنه كان

(١) الطبري ج ٩ ص ٣٠٩ . (٢) ج ٩ ص ٣٩٠ - ٣٩١ . (٣) ج ٩ ص ٢٩٢ .

في الثالثة والستين ، وقال بعض لأنه كان في الرابعة والستين ، وقال بعض آخر إنه بلغ الخامسة والستين ، وذهب بعض إلى أنه بلغ الثامنة والستين (١) .
وقد ذكر صاحب مختصر تاريخ الخلفاء (٢) (ورقة ٣٠ ب) أن المنصور لما قرئ من مكة ، رأى على جدار حائط هذين البيتين وهما :

أبا جعفر حانت وفاتك وانقضت سنوك وأمر الله لا بدَّ واقع
أبا جعفر هل كاهنٌ أو منجمٌ لك اليوم من ريبِ المنيةِ دافع (٣)

ولما قرأ المنصور هذين البيتين أيقن بانقضاء أجله ، فمات بعد ثلاثة أيام .
ولم يحضر عند وفاة المنصور إلا خدمه ، ومولا الربيع بن يونس ، فكنتم الربيع موته ، ومنع النساء وغيرهنَّ من البكاء والصراخ عليه ، ولما أصبح الصباح ، وشاع نبأ موته ، حضر أهل بيته ، وجلسوا مجالسهم ، وجاء بعض العلويين وغيرهم ، وملئوا السرادق الذي ضرب له ، ثم خرج الربيع إليهم ، وفي يده قرطاس ، ففضَّه وقرأ ما فيه ، فاذا به : بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله المنصور أمير المؤمنين ، إلى من خلف من بني هاشم ، وشيعته من أهل خراسان ، وعامة المسلمين ، ثم روى القرطاس من يده وبكى ، فأبكى الناس ثم تناول القرطاس ، وقال : قد أمسكتكم البكاء ، ولكن هذا عهد عهده أمير المؤمنين ، لا بد من أن نقرأ عليكم ، فأنصتوا رحمكم الله ، فسكت الناس ، ثم قرأ : أما بعد ، فإني كتبت كتابي هذا وأنا حي في آخر يوم من الدنيا ، وأول يوم من الآخرة ، وأنا أقرأ عليكم السلام ، وأسأل الله أن لا يفتننكم بعدى ، ولا يلبسكم شيعاً ، ولا يذيق بعضكم بأس بعض . يا بني هاشم ، ويأهل خراسان ، ثم أخذ في وصيتهم بالمهدى ، وإذكارهم البيعة له ، وحضهم على القيام بدولته ، والوفاء له إلى آخر الكتاب (٤) . عند ذلك أذن للأكابر وذوى الأسنان من أهل البيت ، ثم لعامتهم . فأخذ الربيع يبعثهم لأمير المؤمنين المهدى بن المنصور ، ولعيسى بن موسى من بعده . ثم دعا بالقواد ، فبايعوا ، وخرج موسى بن المهدى إلى مجلس العامة ، فبايع من بقى من القواد والوجوه ، وتوجه العباس بن محمد ، ومحمد بن سليمان إلى مكة ، فبايع الناس للمهدى بين الركن والمقام ، وكانوا كثيرين من أهل مكة والمدينة ، ممن حضروا موسم الحج .

من ذلك نرى أن المهدى قد بوع البيعة الخاصة بمكة ، ثم بايعه البيعة العامة ببغداد أفراد البيت العباسي ، وقواد الجيش وغيرهم من رجال الدولة ، وذلك في ١٨ ذى الحجة سنة ١٥٨ هـ .

(١) الطبرى ج ٩ ص ٢٩٢ — ٢٩٣ .

(٢) ألف هذا الكتاب حول أواخر القرن الثامن الهجرى ، ولا يعرف مؤلفه إلى الآن .

(٣) ورد الشطر الثاني من هذا البيت في مروج الذهب للسعوى (ج ٢ ص ٢٤٥) :

يرد قضاء الله أم أنت جاهل . (٤) الطبرى ج ٩ ص ٣٢٣ — ٣٢٤ .

المهـدى

١٥٨ - ١٦٩ هـ = ٧٧٥ - ٧٨٥ م

هو محمد بن عبد الله المنصور، وأمه أروى بنت منصور بن عبد الله الحميري، من حمير التي ملكت النين زمنا طويلا.

ولد محمد المهدي سنة ١٢٦ هـ بالحيمة، ونشأ في بيت الخلافة، وعنى أبوه المنصور بتثقيفه، وعهد به إلى المفضل الضبي، فعلمه تعلما عربيا، وجمع له أمثال العرب ومختار شعرهم، قال إلى العلم والآداب، وعكف على حفظ أيام العرب ومكارم الأخلاق، ودراسة الأخبار والأشعار، فنشأ فصيحاً، يقول الشعر ويجيده، ويحفظ كثيرا منه ومن أمثال العرب (١). وكان المهدي — على ما وصفه صاحب الفخرى (٢) شهما فطنا كريما، شديدا على أهل الإلحاد والزندقة، لا تأخذه في إهلاكمهم لومة لائم. وكانت أيامه شديدة بأيام أبيه في الحوادث، وكان يجلس في كل وقت المظالم، كما كان ذكيا فصيحاً بعيد الهمة سديد الرأي، ثاقب الفكر، قوى البيان، فصيح اللسان. عالما بضروب السياسة وفنونها، بما أهله لأن يولي أمور المسلمين. وكان أبوه المنصور يعرف فيه هذه السجايا، فكان إذا دخل عليه في مجلسه أتبعه ببصره، لحبه له، وإعجابه به، وزوده نصائحه.

كان المهدي في العاشرة من عمره حين آلت الخلافة إلى أبيه المنصور. ولما بلغ الخامسة عشرة من عمره، أرسله أبوه على رأس جيش كبير للقضاء على فتنة عبد الرحمن بن عبد الجبار الأزدي وإلى خراسان، وجعل في مقدمة الجيش قائدا من أمهر قواده هو خازم بن خزيمة. ثم أرسل المهدي خازم بن خزيمة على رأس جيش من أهل خراسان، ففضى على ثورة الأصمعيين إلى طبرستان، وأسرا بنته. كما استعان أبو جعفر المنصور بابنه المهدي في القضاء على فتنة أستاذ سيس، الذي ادعى النبوة بخراسان، وحاصره خازم بن خزيمة في عشرين ألف مقاتل، وأسره وقتل سبعين ألفا من رجاله (٣).

وفي سنة ١٥٣ هـ ولي المنصور ابنه المهدي إمارة الحج (٤). ولما بويع المهدي البيعة العامة وتقبل عزاء الناس بوفاء أبيه، وتهنئتهم له باعتلائه العرش، كان أبودلالة الشاعر أول من هنأه بالخلافة، وعزاه بوفاء أبيه في قصيدة رائعة. وكان لسان حاله يقول: مات الخليفة، يحيا الخليفة، كما يقولون الآن، مات الملك يحيا الملك، وإليك

(١) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ٥ ص ٣٩١، المسعودي: مروج الذهب ج ٢ ص ٢٥٢.

(٢) ص ٦١. (٣) الطبري ج ٩ ص ٢٧٦ — ٢٧٨.

(٤) الطبري ج ٩ ص ٢٨٤.

بعض أبيات من هذه القصيدة نقلنا عن الخطيب البغدادي (١).

عيناى واحدة ترمى مسرورة بأمرها جدلى ، وأخرى تذرف
تبكي وتضحك تارة ، ويسوءها ما أنكرت ويسرّها ما تعترف
فيسوءها موت الخليفة مُحجّرما ويسرّها أن قام هذا الأرأف
ما إن رأيت كما رأيت ولا أرى شِعْراً أَرَجَلَه وآخر ينتف
هلك الخليفة يال أمة أحمد وأناكم من بعده من يخلف
أهْدَى لهذا الله فضل خلافة ولذاك جنسات النعيم تزخرف
ولما تمت البيعة العامة نادى المنادى : الصلاة جامعة ! وخطب المهدي خطبة ، عبّر فيها
عن عظم المسئولية التي ألغاهها موت أبيه على عاتقه ، ونعى أباه في هذه الكلمات القصيرة ، فقال :
« إن أمير المؤمنين عبد الله دعى فأجاب ، وأمر فأطاع . واغرو رقت عيناه فقال : إن رسول
الله صلى عليه وسلم قد بكى عند فراق الأحبة . ولقد فارقت عظيما . وقلدت جسما ، وعند الله
أحتسب أمير المؤمنين ، وبه عز وجل أستعين على خلافة المسلمين ، (٢) ثم ترقق الدمع
في عين المهدي ، ولم يتمكن من إطالة الخطبة ؛ لما كان يشعر به من شدة الحزن على وفاة أبيه .
إصلاحات المهدي :

قضى المهدي في الخلافة زهاء عشرين سنين ، تعتبر فترة انتقال بين عهد الشدة والقمع ، الذي
ساده عهد من سبقه من خلفاء بني العباس ، وعهد الاعتدال واللين ، الذي امتازت به أيامه
وأيام من أتى بعده . وقد ذكر المؤرخون أنه رد الأموال التي صادرها أبوه إلى أهلها ، وأطلق
العلويين الذين حبسهم أبوه ، وعفا عنهم ، وأدر عليهم الأرزاق (٣) ، وبادر إلى رد نسب
أبي بكر (٤) وآل زياد (بن أبيه) .

وقد بدأ المهدي عهده بسلسلة من ضروب الإصلاح ، واستعان في ذلك بما تركه له أبوه من
بيت مال عامر ، يكفي الدولة عشر سنين كاملة ، كما وفق إلى القضاء على الزنادقة وغيرهم ، من
الخوارج عليه وعلى الدين .

فمن أعماله أنه أمر بالافراج عن المسجونين ، إلا أكثرهم شراً وفساداً ، وبني الأبنية في

(١) تاريخ بغداد ج ٥ ص ٣٩٢ .

(٢) الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ج ٥ ص ٣٩٢ . (٣) تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٤٧٥ .

(٤) وهو أخو زياد بن أبيه لأمه . وكفى أبا بكر لأنه كان ممن نزل يوم الطائف إلى الرسول من
حصن الطائف في بكرة ، فأسلم وكفى أبا بكر ، وأعتقه الرسول ، واتخذ مولى له . وكان أبو بكر
يقول : أنا من إخوانكم في الدين ، وأنا مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وإن أبي الناس أن
ينسبوني فأنا نفع بن مسروح : (أسد الغابة في معرفة الصحابة ، لابن الأثير ج ٥ ص ١٥١ . انظر
أيضاً نسخة كتاب المهدي إلى والي البصرة في رد آل زياد إلى نسبهم في الطبري ج ٩ ص ٣٣٥ — ٣٣٦)

طريق مكة ، وزاد على ما كان قد بناه أبوه في الجهات الأخرى ، كما بنى الأحواض التي تملأ من الآبار لسقاية القوافل ، وأجرى على أهل السجون وعلى المجذمين ، حتى يتمتعوا عن السؤال ، ويحول دون انتشار الأمراض . وزاد في المسجد الحرام ، غير أنه محاسن الوليد بن عبد الملك من حائط الحرم ، وكتب اسمه بدله . وجدد الأعمال ، وأقام البريد بين مكة والمدينة واليمن ، وأدخل عليها ضروبا من التحسين ، وعين الأمناء في الولايات ، ليوافوه بأخبار الولاة ، فساد العدل ، وعم الرخاء جميع أرجاء الدولة .

وقد حصن المهدي المدن ، وخاصة مدينة الرصافة ، وصارت بغداد في عهده مركزاً لتجارة العالم ، وغدت الموسيقى والشعر والحكمة والأدب من مميزات هذا العصر . وسن المهدي سنة كسو السكة بكسوة جديدة في كل عام ، بعد أن كانت توضع الكسوات بعضها فوق بعض ، وسار على ذلك من جاء بعده من الخلفاء . وكان المهدي يميل إلى السنة ، فنزع المقاصير في صلاة الجماعة ، وصيّر المنبر على القدر الذي كان عليه منبر الرسول .

الفتن والثورات :

وفي عهد المهدي خرج عبد الله بن مروان بن محمد الأموي ببلاد الشام سنة ١٦١ هـ ، وحلت به الهزيمة وحبس ، ثم عفا المهدي عنه ، ووسع عليه الأرزاق . ثم خرج في السنة التالية عبد السلام ابن هشام الشكري في الجزيرة ، واشتدت شوكته ، وكثر أتباعه ، وعاث في الأرض فسادا ، ولكنه هزم وقتل في قنسرين (١) ، كما خرج بالموصل رجل من بني تميم يدعى يسن ، واستولى على أكثر ديار ربيعة ومضر ، غلبت به الهزيمة . كذلك ثار أهل الحويف في مصر (بالقرب من بلبيس) سنة ١٥٨ هـ ، وقتلوا عامل المهدي ، الذي ندب لقتالهم الفضل بن صالح بن علي العباسي ، ولكنه وصل إلى مصر بعد وفاة المهدي ، وأحل بهم الهزيمة .

وكانت أشد الثورات بأسا وأكثرها خطرا ، هذه الثورات التي أذكي نيرانها الزنادقة ، الذين تبعد تعاليمهم عن الإسلام وعقائده ، وتقوم على نوع من الديمقراطية الفاسدة ، التي تبيح المحرمات ، وتعبث بالآداب الاجتماعية والزوجية المرعية ، وتعرض الحياة السياسية والدينية للخطر .

صفات المهدي :

قال المسعودي في كتابه « مروج الذهب » (٢) : « وكان المهدي محببا إلى الخاص والعام ، لأنه افتتح أمره بالنظر إلى المظالم ، والكف عن القتل ، وأمن الخائف ، وإنصاف المظلوم ،

(١) الطبري ج ٩ ص ٣٤١ .

(٢) ج ٢ ص ٢٤٨ — ٢٤٩ .

وَبَسَطَ يده في الإعطاء ، فأَذْهَبَ جميع ما خَلَفَهُ المنصور ، وهو ستائة ألف ألف درهم وأربعة عشر ألف دينار ، سوى ما جباه في أيامه .

وكان من خلق المهدي الحياء والعفو والجود والحلم ، ولم يكن يشرب النبيذ ، وإنما أجاز له جلسائه وسمّاه . وكان يتأثر بالقرآن ، كما اتصف بالعدل ، وجلس للظالم بنفسه ، وبين يديه القضاة . وقد بلغ من حبه للعدل ، وميله إلى رد المظالم لأصحابها ، أنه كان يقول إذا جلس : « أدخلوا على القضاة ؛ فلو لم يكن ردى المظالم إلا للحياء منهم لكفى » .

وبما يدل على عدله ما قاله مسعود بن مساور ، وقد ظلمه وكيل المهدي وغصصه ضيعته ، فأتى صاحب المظالم ، وأعطاه رقة أوصلها إلى المهدي وعنده القاضي ، فأمر المهدي بإدخاله ، وسأله عن مظلمته ، فأخبره ، فقال للقاضي ، إن هذا ظلمني في ضيعتي ، مشيراً إلى المهدي ، فقال القاضي : ما تقول يا أمير المؤمنين ؟ قال ضيعتي في يدي . فقال ابن مساور : « أصلح الله القاضي سله صارت إليه الضيعة قبل الخلافة أو بعدها ؟ فقال المهدي : بعد الخلافة ، فقضى القاضي للدعي ، تخضع المهدي لحكم القضاء (١) .

وفاة المهدي :

قال صاحب الفخرى (٢) : « فقيل إنه طرد ظبياً في بعض متصيّداته ، فدخل الظبي إلى باب خربة ، فدخل فرس المهدي خلفه ، فدقّه باب الخربة فقطع ظهره ، فمات من ساعته . وقيل إن بعض جواريه جعلت سماً في بعض المأكّل لجارية أخرى ، فأكل المهدي منه ، وهو لا يعلم ، فمات . وذلك في سنة تسع وستين ومائة . وقال أبو العتاهية يصف جواريه وقد برزن بعد موته وعليهن المسوح :

رُحْنَ في الوَشَى وأقبلنَ عَليهن المسوح
كلُّ نَطَاحٍ من الدَّهْرِ له يَوْمٌ نَطوح
لستَ بالباقي ولو عُمِّرتَ ما عُمِّرتَ نوح
فعلى نفسك نَحْ إن كنت لا بد تنوح

الهادي

(١٦٩ - ١٧٠ هـ = ٧٨٥ - ٧٨٦ م)

كان موسى الهادي أكبر من أخيه هارون ، وقد ولاه أبوه عهده ، وعهد لهارون بالخلافة من بعده ، ثم فكر في تقديمه عليه ، بسبب إشارته إياه ، ومشاركته أمه الخيزران له في محبته ،

لولا أن عاجلته المنية . وكان هارون من العقل بحيث لم يتردد في البيعة لأخيه ، حين سمع بوفاة أبيه . وقد قضى الهادي قبل أن يعتلي عرش الخلافة أكثر أيامه في بلاد المشرق ، وأتته البيعة وهو يحارب في طبرستان وجرجان .

وقد وصفه المسعودي^(١) فقال : « كان موسى قاسم القلب ، شرس الأخلاق ، صعب المرام ، كثير الأدب محبا له . وكان شديدا شجاعا جوادا سخيا . » ولسنا نشك في أن تربيته العربية ، وقضائه أكثر أيامه في الحرب والغزو ، كان له أثر كبير في أخلاقه وآدابه . وما يؤخذ عليه تنكيله بالعلويين ، وتمثيله بالأمويين والخوارج والزنادقة ، وأخذه أكثرهم على الظنة والريبة ، وعزمه على خلع أخيه هارون من ولاية العهد ، وإسرافه في العطاء .

تنكيله بالخوارج والزنادقة :

وقد ورث الهادي عن أبيه كراهيته للزنادقة ، وعمله على استئصال شأقتهم . وقد قام بوصية أبيه له بالألا يفتر عن التنكيل بهذه الطائفة ، وتطهير البلاد من رجسهم وفسادهم ؛ فلم يأل جهدا في الضرب على أيدي الزنادقة ، والخوارج ، الذين ثاروا في بلاد الجزيرة ، وقتل من ظفر به منهم .

ويحدثنا المسعودي^(٢) أن الهادي كان في بستانه يوما راكبا حمارا ، وقد بلغه أن رجاله ظفروا برجل من الخوارج ، فأمر بإدخاله ، فلما قرب الخارجي منه ، أخذ من أحد حراسه سيفا ، وأقبل عليه يريد قتله ، وتمحى عنه من كان معه من رجاله . بيد أن الهادي ظل في مكانه رابط الجأش ثابت الجنان ، حتى قرب منه الرجل فصاح : « اضرب عنقه » ، ولم يكن خلف هذا الخارجي أحد ، وإنما أوهمه الهادي ليشتغله عنه ؛ فالتفت الخارجي وراه ليدرا عن نفسه الخطر ، فانقض عليه الهادي ، ورمى به إلى الأرض ، وأخذ السيف من يده ، وضرب به عنقه ، ويقول المسعودي إن الهادي لم يركب بعد ذلك حمارا ، ولم يفارق حسامه .

ولم تكن كراهة الهادي للزنادقة والخوارج بأقل منها للأمويين ، ولم يكن يهدأ له بال لاعتقاده بأن أهل بيته لم يثأروا من الأمويين بما يشفي غليلهم ، ويبلغ صدورهم^(٣) .

عزمه على خلع أخيه هارون :

اقتدى الهادي بما فعله أبوه مع عيسى بن موسى ، وعزم على خلع أخيه هارون والبيعة لابنه جعفر ، وشجعه على ذلك رجال بلاطه . بيد أن يحيى بن خالد بن برمك نصح له بأن يعدل عن هذا الأمر ، لصغر سن ابنه جعفر ، واحتراما للعهد الذي أخذه على نفسه حين ولاه أبوه عهده ، ودرأ لما عسى أن يقوم به أهل بيته من انتزاع الخلافة من ابنه إذا آلت إليه قبل بلوغه

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٥٥ . (٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٥٥ — ٢٥٦ .

(٣) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٥٨ .

سن الرشد ، وأشار عليه بأن يترىث في هذا الأمر ، حتى يكبر ابنه ويطلب من أخيه هارون النزول له عن الولاية . فاستمع إلى ما قاله يحيى البرمكي للخليفة الهادي : يا أمير المؤمنين ، إن فعلت حملت الناس على نكث الأيمان ، ونقض العهود ، وتجرا الناس على مثل ذلك ، ولو تركت أخاك هارون على ولاية العهد ، ثم بايعت لجعفر بعده ، كان ذلك أوكد في بيعته . وكان من أثر هذه النصيحة أن عدل الهادي عن رأيه مدة ، ثم غلب عليه حبه لولده ، وإيثاره على أخيه ، فأحضر يحيى وفاوضه في خلع أخيه ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، لو حدث بك حادث الموت ، وقد خلعت أخاك ، وبايعت لابنك جعفر وهو صغير دون البلوغ ، أفترى كانت خلافته تصح ؟ وكان مشايخ بني هاشم يرضون ذلك ، ويسلمون الخلافة إليه ؟ قال لا ، فقال يحيى : فدع هذا الأمر حتى تأتية عفواً ، ولو لم يكن المهدي بايع لهارون ، لوجب أن تباع أنت له لثلاث تخرج الخلافة من بني أيبك ^(١) . إلا أن الهادي لم يحفل بهذه النصيحة ، وزج بالبرمكي في غيابة السجن ردحا من الزمن وهم بقتله .

أما هارون فكان يميل إلى إجابة أخيه بعد أن ضيق عليه واضطهده ، وحطّ رجال بلاطه من شأنه ، فأشار عليه يحيى البرمكي أن يستأذن أخاه في السفر ، طلباً للصيد ، فأذن له ؛ وطال غيابه حتى أخذ الهادي يلح عليه في العودة ، ويبالغ في تحقيره وإهانته ، وهو ينتحل من الأعذار ما يطيل بقاءه ، حتى أتاه نعيه والبيعة له . ولقد ذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن عزم الهادي على إخراج هارون من ولاية العهد ، دفع بامه الخيزران إلى السعى في موته ، وإن كشا نكث في ذلك .

على أن بما يسترعى النظر ، أن العداء كان مستحكما بين الهادي وأمه ، وأن هذا العداء قد ظل على شدته إلى يوم وفاته ، حتى ذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن أمه دست بعض جواربها لقتله . ذلك أن الخيزران كانت لها الكلمة النافذة في عهد المهدي ، فكانت تأمر وتنهى حتى كان الناس يتوافدون على دارها ، ويلجئون إليها لقضاء حاجاتهم .

فلما ولي الهادي الخلافة ، وكان شديد الغيرة على النساء ، كره ذلك ، ونهى أمه عن فعله . هذا ما ذكره لنا صاحب الفخري ^(٢) . ويزيد المسعودي ^(٣) هذه المسألة بياناً فيقول ، إن الهادي كان كثير الطاعة لأمه ، وكان يجيئها إلى ما تسأله من قضاء الحاجات ، فسألته يوماً قضاء مسألة رجل لم يجد إلى قضائها سبيلاً ، فألحت في الطلب ، وقامت مُغضبة ، فقال لها متهدداً متوعداً : « لئن بلغتني أنه وفد بيا بك أحدث من قوادى أو من خاصتى أو من خدمى ، لأضربن عنقه ، ولأقبضن ماله ، فمن شاء فليلزم ذلك . ما هذه المواكب التي تغدو وتروح إلى بابك كل يوم ؟ أما لك مغزل يشغلك ، أو مصحف يذكرك ، أو بيت يصونك ؟ إياك أن

تفتحي فاك في حاجة لمسلم ولا ذمي (١) . ثم قال لأصحابه : أيما خير أنا وأمي أم أنتم وأمهاتكم ؟ قالوا : بل أنت وأمك ، قال : فأياكم يحب أن يتحدث الرجال بخبر أمه ، فيقال فعلت أم فلان ، وصنعت أم فلان ؟ قالوا لا نحب ذلك . قال : فما بالكم تأتون أمي فتحدثوا بخبرها ؟ فلما سمعوا ذلك انقطعوا عنها (٢) .

لهذا لا نعجب إذا أثار هذا القول حفيظة الخيزران ، وكرهتها لابنها الهادي ، فأضمرت له السوء ، وكان لهذه الإهانة نتائجها ، فانقطع الناس عن سؤالها ، والتردد على دارها ، بما حدا بعض المؤرخين على القول إن الهادي بعث لأمه بطعام مسموم ، فلم تأكل منه ، وأطعمته هرة فماتت . وإن صح ذلك ، جاز أن نأخذ بما ذهب إليه المؤرخون من أن موت الهادي كان بتدبير أمه ، وإن كنا نشك في ذلك كما تقدم .

وفي رأينا أن الهادي قد أحسن فيما فعل ، صيانة لأمه ، وحفظا لكرامتها وحسن سمعتها ، وهذا بين من قوله لها حين حضرته الوفاة ، وقد بعث في طلبها لما اشتد عليه المرض : « وقد كنتُ أمرتكُ بأشياء ، ونهيتك عن أخرى ، فما أوجبته سياسةُ الملك ، لا موجباتُ الشرع من يركك ، ولم أكن بك عاقا ، بل كنت لك صائنا ، وبارا واصلًا » (٣) . أخلاقه وصفاته :

اشتهر الهادي بالإسراف في العطاء . فقد ذكر المسعودي (٤) أنه قال يوما : كأنني بك قد تحدث نفسك بتمام الرؤيا (٥) وتؤمل ما أنت عنه بعيد ، ومن دون ذلك خُطرت القتاد . فقال له هارون : يا أمير المؤمنين ، من تكبر وضع ، ومن تواضع رُفِع ، ومن ظلم خُذِل ، وإن وصل الأمر إلى وصلت من قطعت ، وبررت من حرمت ، وصيرت أولادك أعلى من أولادي ، وزوجتُهم بناتي ، وقضيت بذلك حقَّ الإمام المهدي . وقد أثر هذا الكلام العذب في نفس الهادي وأطفأ نائرة غضبه فبرقت أسارير وجهه سرورا ، وقال لأخيه : « ذلك الظن بك يا أبا جعفر ، أدن مني » . فقام هارون فقبل يده ، ثم ذهب ليعود إلى مجلسه ، فقال الهادي : والشيخ الجليل ، والملك النبيل ، لأجلستَ إلّا معي في صدر المجلس ؛ ثم أمر خازن بيت المال أن يحمل إلى هارون ألف ألف دينار وخمسمائة ألف إذا وفي زمن الخراج . ولما أراد هارون الخروج قدّمت دابته حتى وصلت إلى بساط الخليفة .

(١) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٥٧ — ٢٥٨ والطبري ج ١٠ ص ٣٣ .

(٢) الفخرى ص ١٧٣ . (٣) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٦١ .

(٤) ج ٢ ص ٢٦١ — ٢٦٢ .

(٥) قيل إن المهدي رأى في منامه ، كأنه دفع إلى الهادي قضيبا وإلى الرشيد قضيبا : فأما قضيب الهادي فأورق أعلاه قليلا ؛ وأما قضيب الرشيد فأورق من أوله إلى آخره . فلما قص الرؤيا قيل له لئلهما يملكان ، فأما الهادي فنقل أيامه ، وأما الرشيد فتطول ، وتكون أحسن الأيام ، ودمره أزهر الدهور .

ومما يدل على إسراف الهادى فى العطاء هذه الحكاية التى يقصها علينا المسعودى ، وهى أنه أمر بسيف عمرو بن معد يكرب الصمصامة ، فوضع بين يديه ، وأتى بمكسّل (١) ، وأمر حاجبه أن يأذن للشعراء فى الدخول عليه ، فلما دخلوا ، أمرهم أن يقولوا فى هذا السيف شعراً ، فبدأ ابن يامين البصرى وقال أبياتاً منها :

حازَ صمصامةَ الزبيدَى عمرو من جميع الأنام موسى الأمين
سيف عمرو وكان فيما سمعنا تحير ما أغمدت عليه الجفون
أوقدت فوقه الصواعق نارا ثم شابت فيها الزعاف المثنون (٢)
وإذا ماشه رته تهرُ الشمس — س ضياء فلم تكسد تستبين
وكان الفرند والجوهر الجا رى فى صفحته ماء معين
مايلى إذا الضريبة خانت أشمال نيطت به أم يمين
فقال له الهادى : لك السيف والمكسل ، فأخذهما ، وفرق المكسل على الشعراء . ثم بعث إليه الهادى واشترى منه السيف بخمسين ألفاً .

وفاة الهادى :

ولم تطل خلافة الهادى ، فقد توفى ببغداد لاثنتى عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول سنة ١٧٠ هـ بعد أن ظل فى الخلافة سنة وشهراً واثنين وعشرين يوماً . ويقول صاحب الفخرى (٣) : « والليلة التى مات فيها ، هى ليلة مات فيها خليفة » ، وجلس خليفة ، وولد خليفة : وقد كانوا يتحدثون أنه سيكون ليلة كذلك . فالخليفة الذى مات هو الهادى ، والذى جلس فيها على سرير الخلافة هو الرشيد ، والذى ولد هو المأمون .

وقد ذكر المسعودى (٤) فى موت الهادى : وسمح للهادى الخروج نحو بلاد الحديث (٥) ، ففرض هناك وانصرف ، وقد نقل فى العلة ، فلم يجسر أحدهم الناس من الدخول عليه إلا صغار الخدم . ويقال إنه أوقف بين يديه رجلاً من أولياء الدولة ذا أجرام كثيرة ، فجعل الهادى يذكره ذنوبه ، فقال له الرجل : يا أمير المؤمنين اعتذارى بما تقرر عني به رد عليك ، وإقرارى بما ذكرت يوجب ذنباً ، ولكنى أقول :

فإن كنت ترجو فى العقوبة راحة فلا تزهدن عند المعافاة فى الأجور

(١) المكسل شبه الزنبيل خمسة عشر صاعاً ، والذراع أربعة أمماد والمسد يكبال ، وهو رطل وثلاث عند أهل الحجاز ، ورطلان عند أهل العراق . (٢) الزعاف الشديد .

(٣) من ١٧٤ . (٤) ج ٢ ص ٢٦١ .

(٥) ذكر ياقوت فى معجمه أنها سميت بذلك لما أحدث بناؤها ، وهى فى عدة مواضع . فنها حديثة الموصل ، وحديثة الفرات . والحديثة أيضاً من قرى غوطة دمشق ، ويقال لها حديثة جرش .

هارون الرشيد

١٧٠ - ١٩٣ هـ = ٧٨٦ - ٨٠٩ م

يعتبر هارون الرشيد أشهر خلفاء بني العباس؛ فقد بلغت بغداد في عهده درجة لم تصل إليها من قبل، فأصبحت مركز التجارة، وكعبة رجال العلم والأدب. واشتهر اسم الرشيد في بلاد الغرب، لما كان بينه وبين شلمان ملك الفرنجة من العلاقات السياسية، وأواصر الود والصفاء. وبما زاد في ذبوع شهرته بين أمم الغرب كتاب «ألف ليلة وليلة» الذي ترجم إلى معظم اللغات الأوروبية، حتى إنه لا تكاد تخلو منه مكتبة من مكتبات الأفراد في أوروبا وأمريكا.

ولد هارون بالري لثلاث بقين من شهر ذي الحجة سنة ١٤٥ هـ، وأمه أم ولد يمانية جرشية يقال لها الخيزران (١)، وهى أم الهادي، وفيها يقول مروان بن أبي حفصة:

يا خيزران ههناك ثم ههناك أمسى يسوس العالمين ابنك (٢)

وقد ولد الفضل بن يحيى البرمكي قبله بسبعة أيام، فأرضعت أم الفضل الرشيد، وأرضعت الخيزران الفضل بلبان الرشيد.

وقد ولاه أبوه المهدي العهد بعد أخيه الهادي، وكان يعرف فيه الذكاء والكفاية، ففكر في العدول عن عهده السابق، وهم أن يرشحه للخلافة بعده مباشرة، وساعدته على ذلك أمه الخيزران، لأنها كانت تحبه وتؤثره على أخيه الهادي، لولا أن حالت منية المهدي دون ذلك. وقد ولاه أبوه الصائفة في سنتي ١٦٣ و ١٦٥ هـ، فأرغم أيرني - وكانت وصية على ابنها قسطنطين السابع - على طلب الصلح، الذي انتهى بعقد هدنة بين العباسيين والبيزنطيين، أمدها ثلاث سنين، وولاه أبوه بلاد المغرب سنة ١٦٤ هـ.

ولى هارون الرشيد الخلافة في الليلة التي توفي فيها أخوه الهادي وهى ليلة الجمعة لأربع عشرة ليلة بقين من شهر ربيع الأول سنة سبعين ومائة (٣). «والليلة التي مات فيها هى ليلة مات فيها خليفة وجلس فيها خليفة، وولد خليفة. وقد كانوا يتحدثون أن ستكون ليلة كذلك: فالخليفة الذى مات فيها هو الهادي، والذى جلس فيها على سرير الخلافة هو الرشيد، والذى ولد فيها هو المأمون (٤)».

ومن المسائل التي يجب دراستها في عهد الرشيد قيام الفتن الداخلية، وخاصة في الموصل وإفريقية وإرمينية، وأثر البرامكة في الدولة، ونسبتهم على يد الرشيد، على الرغم من عمامهم على تقدم الحضارة الإسلامية.

(٢) السيوطي تاريخ الخلفاء ص ١٨٨.

(١) الطبري ج ١٠ ص ٤٨.

(٣) الطبري ج ١٠ ص ٤٧ - ٤٨. (٤) الفخري ص ١٧٤.

١ — الفتن والثورات :

خرج الوليد بن طريف الشاري الشيباني على هارون الرشيد في سنة ١٧٨ هـ ، وانتصر على جيوشه أكثر من مرة ، فقتل والى نصيبين ، ثم مضى إلى إرمينية وأذربيجان ، وعاث فيهما فساداً ، ثم عاد إلى الجزيرة (١٧٩ هـ) ، وعبر نهر دجلة حتى وصل إلى حلوان ، واشتدت شوكته ، وكثر أتباعه ، فبعث الرشيد يزيد بن يزيد الشيباني ، ابن أخى معن بن زائدة الشيباني بطل موقعة الرّاوندبة ، كما سيأتى فى الباب الثالث . وقد رمى الوليد هارون الرشيد بالجور والظلم ، وعول على التخلص من هذا الجور والظلم حين برز لقتال يزيد بن يزيد الشيباني وارتجز :
أنا الوليد بن طريف الشاري قسورة لا يصطلى بنسارى

جوركم أخرجنى من دارى

وسرعان ما حلت الهزيمة بجند الوليد بن طريف الشيباني وقتل ، فرثته أخته الفارعة بقولها :

أيا شَجَرَ الخابورِ مالك موريقا كأنك لم تجزَعْ على ابن طريف
فَنَ لا يُسحب الزاد إلا من التقى ولا المال إلا من قَتناً وسُيوف
كأنك لم تشهدْ هناك ولم تقسُ مقاماً على الأعداء غيرَ خفيف
حليفُ الندى ما عاش يرضى به الندى فان مات لا يرضى الندى بحليف
فقدناك فقدان الشهاب وليتنا فدَيْنُناك من قَتاننا بألوف
عليه سلامُ الله وقفاً فإتنى أرى الموتَ وقفاً بكل شريف (١)

وفى إفريقية استمرت قبائل البربر تنازع العباسيين بين سنتي ١٧٨ و ١٨١ هـ ، كما أخذت فى التقلص عن الحكم الإسلامى ، وغدت كفة النصر ترجح فى جانبهم حيناً ، وفى جانب العباسيين حيناً آخر ، حتى بعث إليهم الرشيد هرثمة بن أعين على رأس جيش كشيف ، استطاع أن يقضى عليهم ، ويطفيء جذوة ثورتهم . على أن هرثمة رأى بشاقب نظره وطول خبرته أن فوز العباسيين على البربر لا سبيل إلى تحقيقه ، لتفاقم نار العداء التى أضرمها هؤلاء البربر ، فعول على النزول عن القيادة ، وعاد إلى المشرق ، حيث البدخ والرفاهية . ثم قامت فى هذه البلاد دولة الأغالبة على يد إبراهيم بن الأغلب ، الذى ولى هذه البلاد من قبل هارون الرشيد ، لتأديب البربر ، والوقوف فى وجه الإدارة ، إذا أرادوا الإغارة على أراضى الدولة العباسية . ولكن هذه الدولة ما لبثت أن استقلت عن الخلافة العباسية فى بغداد ، وزال عنها سلطان العباسيين ، اللهم إلا فى الإسم فقط ، واتخذت مدينة القيروان ، الواقعة فى الجنوب الغربى من مدينة تونس الحالية ، حاضرة لها ، وظلت على ذلك إلى أن استولى عليها الفاطميون سنة ٢٩٧ هـ (٢) .

(١) الطبرى ج ١٠ ص ٦٣ . تاريخ الدولة العباسية للخضرى ص ١٤٢ — ١٤٣ .

(٢) Muir : The Caliphate, Its Rise, Decline & Fall, pp. 478 — 9. (٢)

وفي سنة ١٧٦ هـ تحولت المنازعات القديمة بين اليمانيين والعدنانيين في سورية إلى حرب مستعرة ، وبقيت دمشق زهاء سنتين مسرحاً للانقسامات والحروب الداخلية ، ولكن هذه الحالة لم تكن مما يهتم له الخليفة ، بل نرى على العكس من ذلك أنه قد أفاد منها ، لأنها أضعفت قوة أهالي هذه البلاد ، الذين ثبت عنده عدم إخلاصهم وولائهم للعباسيين^(١). على أن الحروب التي دارت بين الفريقين قد أشعلت نارها من جديد بعد عشرة أعوام ، فرأى الرشيد ضرورة التدخل بينهم وقضى عليهم .

ويقول الطبري^(٢) إن الرشيد ولي موسى بن يحيى بن خالد البرمكي بلاد الشام ، فأصلح بين أهلها ، وسكنت هذه الفتنة الجائحة التي وصفها أحد الشعراء بهذه الآيات :

قد هاجت الشام هيجاً	يشيب رأس وليده
فصُيبَ موسى عليها	بخيل له وجنوده
فدانت الشام لما	أتى بسنح وحيده
ونال موسى ذرا المحج	سد وهو حشو مهوده
خصصته بمديحي	منشوره وقصيده
من البرامك عودٌ	له فأكرم بموده
حووا على الشعر طراً	خفيفه ومديده

وكانت بلاد خراسان التي وليها علي بن عيسى بن ماهان ، مصدر الفتن والقلق في عهد هارون الرشيد . فقد سار هذا الوالي على سياسة تنطوي على الظلم والعسف ، واغتصاب الأموال من الأهالي ، فكان يرسل إلى الخليفة كثيراً من الهدايا والطرّف التي بهرته ، واستفز بعمله هذا كبراء خراسان ، فكتبوا إلى الرشيد يستغيثون به ، فعزم الرشيد على الخروج لمحاربة علي بن عيسى ، وعسكر في الرّسى .

فلما بلغ ذلك علياً قابل الرشيد بهدايا أنفس من الهدايا الأولى ، ووزع مثلها على رجال بلاطه ، فاطمأن الرشيد من جانبته ، ثم عاد هذا الوالي سيرته الأولى في ظلمه واستبداده ، وغلا في نكايته بمن استغاثوا بالخليفة .

واتفق أن حدث في ذلك الوقت أن رجلاً من أهالي سمرقند ، يدعى رافع بن ليث بن نصر ابن سيار ، قاد امرأة من ذوى اليسار إلى الكفر ، تخلصاً من زوجها الذي طالت غيبته ، ورغبة في التزوج بها . فلما بلغ الرشيد ذلك ، أرسل من فوره إلى علي بن عيسى ، يأمره بأن يفرق بين رافع وزوجته ، وأن يعاقبه على فعلته ، فقام كل من والى خراسان وعامل سمرقند بتنفيذ أوامر الرشيد . وحبس رافع ، ولكسبه فر من سجنه ، واستغاث بولد علي بن موسى ، فتوسط له عند أبيه ، فأمنه وردّه إلى بلده ، فثار لنفسه من عامل هذه المدينة وقتله ، واتبعه كثير من أهالي

سمرقند وبلاد ما وراء النهر ، فأرسل إليه على بن عيسى ابنه عيسى ، فقتله رافع في بلخ .
وقد قيل إن على بن عيسى جمع في قصره أموالاً ضخمة ، وأن الناس هجموا على هذا القصر ،
واستولوا على ما فيه . فلما بلغ ذلك الرشيد تحقق من استبداد على وأتسبه ، لما كان من استفزازة
شعور الأهلىن ، فقرر عزله ، وأرسل هرثمة بن أعين يعمل إليه كتاباً بخطه ، وهاك نصه عن
الطبرى (١) : « يا بن الزانية ، رفعت من قدرك ، ونوهت باسمك ، وأوطأت سادة العرب
عقبك ، وجعلت أبناء ملوك العجم خولك وأتباعك ، فكان جزائى أن خالفت عهدى ،
ونبتت وراء ظهرك أمرى ، حتى عثت فى الأرض وظلمت الرعية ، وأسخطت الله وخليفته
بسوء سيرتك ، ورداءة طعمتك ، وظاهر خيانتك . وقد وليت هرثمة بن أعين مولائى نغر
خراسان ، وأمرته أن يشد وطأته عليك ، وعلى ولدك وكتائبك وعمالك ، ولا يترك وراء
ظهوركم درهما ولا حقاً لمسلم ولا معاهد ، إلا أخذكم به ، حتى تردّه إلى أهله . فإن أبيت ذلك
وأباه ولدك وعمالك ، فله أن يبسط عليكم العذاب ، ويصب عليكم السياط ، ويحل بكم ما يحل
بمن نكث وغيره وبدل ، وخالف وظلم ، وتعدى وغشم ، انتقاماً لله عز وجل ، بادئاً ، وخليفته
ثانياً ، وللمسلمين والمعاهدين ثالثاً ، فلا تعرض نفسك للتي لا شوى لها ، وأخرج مما يلزمك طائفاً أو
مكرهاً فقبض هرثمة على على بن عيسى وأتباعه ، وصادر أموالهم ، وبعث بهم إلى الرشيد ،
وأخذ الفرج من الناس كل ما أخذ بلقائهم هرثمة ، وتخليصهم من عسف هذا الوالى وظلمه ؛
غير أن رافعاً لم يكن قد هدأ أمره ، فخرج الرشيد بنفسه لحربه ، إلا أن المنية أدركته وهو فى
طريقه ، وظل رافع على حاله حتى أيام المأمون (٢) .

البرامكة :

كان برمك جد الأميرة البرمكية سادن بيت النار ببلخ ، فكان يقوم بالإشراف على هذا
البيت ، كما كان يقوم قصى وأولاده من بعده بسدانة الكعبة فى الجاهلية . وكان برمك وأسرته
يدينون بالمجوسية دين الفرس القديم . ولما ظهر الإسلام ، أسلم بعضهم ، وظهر منهم فى أوائل
الدولة العباسية خالد بن برمك ، الذى تقلد الوزارة فى عهد السفاح والمنصور ، واتخذ هارون
الرشيد يحيى بن خالد قبل أن يلى الخلافة كاتباً له ، يرجع إلى رأيه وتدييره ، كما يرجع الخليفة إلى
رأى الوزير وتدييره . ولما ولى الخلافة استوزر يحيى ، فعلا شأنه ، وبعده صيته ، وأصبح
هو وأولاده كعبة الآمال ، وغدت تشدد إليهم الرجال . وفى ذلك يقول صاحب كتاب
الفخرى فى الآداب السلطانية (٣) : « اعلم أن هذه الدولة كانت غرة فى سجة الدهر ، وتاجا على
ميفرق العصر ، ضربت بمكارمها الأمثال ، وشدت إليها الرجال ، ونيطت بها الآمال ،

(١) ج ١٠ ص ١٠٢ .

(٢) راجع ما كتبه الطبرى عن على بن عيسى ج ١٠ ص ١٠٠ — ١٠٨ . (٣) ص ١٧٩ .

وبذلت لها الدنيا أفلاذ أكبادهما ، ومنحتها أوفر إسماعيلها . فكان يحيى وبنوه كالنجوم زاهرة ، والبحور زاخرة ، والسيول دافعة ، والغيوث ماطرة ؛ أسواق الآداب عندهم نافقة ، ومراتب ذوى الحرّ مات عندهم عالية ، والدنيا فى أيامهم عامرة ، وأبنة المملكة ظاهرة ، وهم ملجأ اللهيّ ، ومُسْتَصِم الطريد ، ولهم يقول أبو نواس :

سلامٌ على الدنيا إذا ما قُصِدتم
بني بَرَمَك من راتحين وغادٍ
كان خالد بن بَرَمَك فاضلاً جليلاً كريماً ، حازماً يقظاً ، قرّبه السفاح إليه ، وأولاه ثقته ، وأحله من نفسه محل التعظيم والتكريم ، ولكسبه لم يفتّر بهذا التعظيم والتكريم ، وأبى إلا أن يظهر أمام مولاة بمظهر الإخلاص والتواضع ، وتجنب أن يسمى وزيراً ، على رغم أنه كان يعمل عمل الوزراء ، خشية أن يحلّ به ما حلّ بأبى سلمة الخلال وزير آل محمد ، الذى قتله أبو العباس السفاح ، وقد قيل إن كل من استوزر بعد أبى سلمة ، كان يتجنب أن يسمى وزيراً ، تطيراً بما جرى على أبى سلمة ، حتى قال أحد الشعراء :

إن الوزيرَ وزير آل محمد
أودى فمن يشنّك كان وزيراً

نعم كان خالد عظيم المنزلة ، جليل القدر عند الخلفاء . قيل إن السفاح قال له يوماً : يا خالد ، ما رَضِيتَ حتى استخدمتنى ؛ ففزع خالد ، وقال : كيف يا أمير المؤمنين ، وأنا عبدك وخادمك ؟ فضحك السفاح وقال : إن رَيْطَةَ ابنتى تنام مع ابنتك فى مكان واحد ، فأقوم بالليل ، فأجدهما قد سَرَحَ النطاء عنهما ، فأرده عليهما . فقَبِلَ خالد يده ، وقال : مولى يكتسب الأجر فى عبده وأمه .

وقد اشتهر خالد بن بَرَمَك برجاحة العقل ، وبعد النظر ؛ يدلنا على صحة هذا الرأى أن المنصور لما شرع فى بناء مدينة بغداد ، ورأى أن مواد البناء تكلفه كثيراً من النفقات ، أشار عليه بعضهم ، بهدم إيوان كسرى ، واستعمال أنقاضه ، فاستشار المنصور خالد بن بَرَمَك فى ذلك ، فقال : لا تفعل يا أمير المؤمنين ، فإنّه آية الإسلام ، فإذا رآه الناس ، علموا أن مثل هذا البناء لا يزيله إلا أمرٌ سماوى ، وهو مع ذلك مصلّى علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، والمثونة فى نقضه أكثر من نفعه . فقال له المنصور : أريدت يا خالد إلا ميلاً إلى العجمية ، ثم أمر بهدمه ، فهدمت منه ثلثة ، فبلغت النفقة عليها أكثر مما حصل منها ، فأمسك المنصور عن هدمه ، وقال : يا خالد ، قد صرنا إلى رأيك ، وتركنا هدم الإيوان . فقال يا أمير المؤمنين : أنا الآن أشير بهدمه ، لئلا يتحدث الناس أنك عجزتَ عن هدم ما بناه غيرك .

وكان يحيى بن خالد البرمكى أشهر رجال عصره ، علماً وأدباً وفضلاً ، وجوداً ونبلاً . وكان فى الثانية عشرة من عمره ، لما قامت الدولة العباسية ، فتربى فى كنفها ، وشمله الخليفة المنصور بعطفه ، فولاه أذربيجان سنة ١٥٨ هـ ، واختاره المهدي كاتباً ونائباً لابنه هارون ، فخرج معه فى الصائفة لغزو البيزنطيين . ولما تولى هارون بلاد المغرب ، ساعده يحيى على النهوض بأعبائها ،

وأخلص له الإخلاص كله ، ولما أراد الهادي أن يخلع أخاه هارون من ولاية العهد ، نصح له يحيى بالعدول عن هذا الرأي ، كما تقدم .

ولهذا قلد هارون كاتبه الوفي المخلص ، الوزارة بعد اعتلائه العرش ، وفوض إليه أمور دولته ، واستعان بأولاده الأربعة وهم : جعفر والفضل ومحمد وموسى ، ونهض يحيى — كما يقول صاحب الفخرى (١) — بأعباء الدولة أتم نهوض ، وسيد الثغور ، وتدارك الخلل ، وجبى الأموال ، وعمّر الأطراف ، وأظهر رونق الخلافة ، وتصدّى لمهمات المملكة ، وكان كاتباً بليغاً لبيناً ، أديباً سديداً ، صائب الآراء ، حسن التدبير ، ضابطاً لما تحت يده ، قويا على الأمور ، جواداً يبارى الريح كرماً وجوداً ، ممدحاً بكل لسان ، حليماً عفيفاً ، وقوراً مهيباً ، وله يقول القائل :

لا ترانى مصافحاً كَفَّ يحيى لئنْ لِنُ فعلت ضيّعت مالى
لو يَمَسُّ البخیل راحة يحيى لَسَخَّتْ نَفْسُهُ بِمَذَلِ النِّوَالِ

وكان الفضل أكبر أولاد يحيى من كرام أهل عصره ، وكان عضد أبيه ينوب عنه في جلائل أعماله . وقد أرضعته أم الرشيد ، كما أرضعت أم يحيى الرشيد . وفي ذلك يقول مروان ابن أبى حفصة :

كفى لك فخراً أن أكرم حرة غَدَتَكَ بِشَدَى والخليفة واحد
لقد زينت يحيى في المشاهد كلها كما زان يحيى خالداً في المشاهد

ولما ولد الأمين عهد الرشيد إلى الفضل بتربته . وفي سنة ١٧٦ هـ ، ندبه لحرب يحيى بن عبد الله ابن الحسن بن الحسن بن علي ، الذى ثار في بلاد الديلم . وفي سنة ١٧٨ هـ ولاء هارون الرشيد بلاد خراسان ، ففضى على الفتنة التى قامت بها ، وأحسن معاملة أهلها ، وبني بها المساجد ، ثم عاد إلى بغداد بعد سنة .

قيل أن محمد بن إبراهيم الإمام (بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس) ، حضر يوماً عند الفضل بن يحيى ، ومعه سَفْطٌ فيه جوهر ، وقال له : إنَّ حاصلى قد قصّر بما أحتاج إليه ، وقد علانى دَيْنٌ مبلغه ألف ألف درهم ، وإنى أستحي أن أعلم أحداً بذلك ، وأنف أن أسأل أحداً من التجار أن يقرضنى ذلك ، وإن كان معى رهن ينى بالقيمة . وأنت أبقاك الله لك تجار يعاملونك ، وأنا أسألك أن تقترض لى من أحدهم هذا المبلغ ، وتعطيه هذا الرهن ، فقال له الفضل : السمع والطاعة ، ولكن نرح هذه الحاجة أن تقيم عندى هذا اليوم ، فأقام عنده ، ثم إن الفضل أخذ السفط منه وهو محتوم بختمه ، وأرسل معه ألف ألف درهم ، وأنفذ الدراهم والسفط إلى منزله ، وأخذ خط وكيله بقبضه . وأقام محمد فى دار الفضل إلى آخر النهار ، ثم انصرف إلى داره ، فوجد السفط ومعه ألف ألف درهم ، فسر بذلك سروراً عظيماً . فلما

كان من الغد بكر إلى الفضل ليشكره على ذلك فوجده قد بكر إلى دار الرشيد ، فضى محمد إلى دار الرشيد ، فلما علم الفضل به خرج من باب آخر ومضى إلى دار أبيه ، فضى محمد إليه ، فحين علم به ، خرج بباب آخر ، ومضى إلى منزله ، فضى محمد إليه واجتمع به ، وشكره على فعله ، وقال له : إني بكرت إليك لأشكرك على إحسانك ، فقال له الفضل : إني فكرت في أمرك ، فرأيت أن هذه الألف ألف التي حملتها أمس إليك ، تقضى بها دينك ، ثم تحتاج فتقترض ، فبعد قليل يعلوك مثلها ، فبكرت اليوم إلى أمير المؤمنين ، وعرضت عليه حالك ، وأخذت لك مائة ألف ألف درهم أخرى . ولما حضرت إلى أمير المؤمنين ، خرجت أنا بباب آخر ، وكذلك فعلت لما حضرت إلى باب أبي لأنى ما كنت أؤثر أن ألقاك ، حتى يحمل المال إلى منزلك ، وقد حمل ، فقال له محمد : بأى شيء أجازيك على هذا الإحسان ؟ ما عندى شيء أجازيك به ، إلا أنى ألتزم بالآيمان المؤكدة وبالطلاق والعتاق ، أنى ما أقف على باب غيرك ولا أسأل سواك . فلما ذهبت دولة البرامكة ، وتولى الفضل بن الربيع الوزارة بعدهم ، احتاج محمد ، فقالوا له : لو ركبنا إلى الفضل بن الربيع ، فلم يقبل ، والزم باليمين ، فلم يركب إلى أحد ، ولم يقف على باب أحد حتى مات (١) .

أما جعفر بن يحيى فقد اشتهر بالفصاحة والفطنة والحلم والكرم . وكان الرشيد يأنس به لسهولة أخلاقه ، ويؤثره على أخيه الفضل لشراسة أخلاقه ، ولذلك عمل على التخلص منه . يقول صاحب الفخرى (٢) : إن الرشيد قال يوما ليحيى : يا أبا ، ما بال الناس يسمون الفضل الوزير الصغير ، ولا يسمون جعفرا بذلك ؟ فقال يحيى : لأن الفضل يخلفنى . قال : فضم إلى جعفر أعمالا كإعمال الفضل ، فقال يحيى : إن خدمتك ومناذمتك يشغلانه عن ذلك ، فجعل إليه أمر دار الرشيد ، فسمى بالوزير الصغير أيضاً .

ولكن الرشيد كان يؤثر جعفرا على أخيه الفضل ، لعلو منزلته عنده ومحبة إياه ، وأنى إلا أن ينقل ديوان الخاتم من الفضل إلى جعفر . وطلب من يحيى أن يكتب إلى ابنه الفضل بذلك ، فكتب إليه : قد أمر أمير المؤمنين ، أعلى الله أمره ، أن تحوّل الخاتم من يمينك إلى شمالك ، فأجابه الفضل : قد سمعت لما أمر به أمير المؤمنين فى أخى ، وما انتقلت منى نعمة صارت إليه ، ولا غرّبت عنى رتبة طلعت عليه ، فقال جعفر : والله در أخى ، ما أكيس نفسه وأظهر دلائل الفضل عليه وأقوى منة العقل عنده ، وأوسع فى البلاغة ذرعه ! .

ولم يقتصر إثارة الرشيد وحبه جعفر بن يحيى على ما ذكرنا ، فقد ولاه مصر فى سنة ١٧٦ . وفى سنة ١٨٦ أرسله إلى بلاد الشام ، حين أثار أهلها الفتن والقتل والقلق ، فأزال أسباب التذمر واطمأنن خواطر الأهلى ، فعلت منزلته ، وارتفع قدره عند الرشيد ، فأسند إليه فى هذه السنة ولاية خراسان ، ثم ولاه حراسة الجيش .

وما يدل على علو مكانة جعفر عند الرشيد ، وخطر مركزه فى الدولة العباسية ، هذه الحكاية

التي نقلها عن كتاب الفخرى في الآداب السلطانية (١) « قيل إن جعفر بن يحيى البرمكي جلس يوماً للشرب ، وأحب الخلوة ، فأحضر دماؤه الذين يأنس بهم ، وجلس معهم ، وقد هيء المجلس ، ولبسوا الثياب المصبغة ، وكانوا إذا جلسوا في مجلس الشراب واللبو ، لبسوا الثياب الحمر والصفر والخضر . ثم إن جعفر بن يحيى تقدم إلى الحاجب ألا يأذن لأحد من خلق الله تعالى ، سوى رجل من الندماء كان قد تأخر عنهم ، اسمه عبد الملك بن صالح . ثم جلسوا يشربون ، ودارت الكاسات ، وخفقت العيدان ، وكان رجل من أقارب الخليفة يقال له عبد الملك بن صالح ابن علي بن عبد الله بن العباس ، وكان شديد الوقار والدين والحشمة ، وكان الرشيد قد التمس منه أن يتأدبه ، ويشرب معه ، وبذل له على ذلك أموالاً جلية ، فلم يفعل ؛ فاتفق أن هذا عبد الملك بن صالح حضر إلى باب جعفر بن يحيى ليخاطبه في حوائج له ، فظن الحاجب أنه عبد الملك بن صالح ، الذي تقدم جعفر بن يحيى بالأذن له ، وألا يدخل غيره ، فأذن الحاجب له ، فدخل عبد الملك بن صالح على جعفر بن يحيى ، فلما رآه جعفر كاد عقله يذهب من الحياء ، وفطن أن القضية اشتبهت على الحاجب بطريق اشتباه الاسم ، وفطن عبد الملك بن صالح أيضاً للقصة ، وظهر له الخجل في وجه جعفر بن يحيى ، فانبسط عبد الملك ، وقال : لا بأس عليكم ، أحضروا لنا من هذه الثياب المصبغة شيئاً ، فأحضر له قميص مصبوغ فلبسه ، وجلس يباسط جعفر بن يحيى ويمارحه ، وقال اسقونا من شرابكم ، فسقوه رطلا ، وقال : ارفقوا بنا فليس لنا عادة بهذا ؛ ثم باسطهم ومارحهم ، وما زال حتى انبسط جعفر بن يحيى ، وزال انقباضه وحيأؤه ، ففرح جعفر بذلك فرحاً شديداً وقال له ما حاجتك ؟ قال : جئت (أصلحك الله) في ثلاث حوائج ، أريد أن يخاطب الخليفة فيها ؛ أولها أن على ديننا مبلغه ألف ألف درهم ، أريد قضاءه ، وثانيها أريد ولاية لابني يشرف بها قدره ، وثالثها أريد أن تزوج ولدي بابنة الخليفة ، فإنها بنت عمه ، وهو كفء لها . فقال له جعفر بن يحيى ، قد قضى الله هذه الحوائج الثلاث : أما المال ففي هذه الساعة يحمل إلى منزلك ، وأما الولاية فقد وليت ابنك مصر ، وأما الزواج فقد زوجته فلانة ابنة مولانا أمير المؤمنين ، على صداق مبلغه كذا وكذا ، فأنصرف في أمان الله .

ولما فعل جعفر ما فعل ، لشدة ثقته بنفسه عند الرشيد ، فإن عبد الملك لما عاد إلى منزله ، وجد أن المال قد سبقه . ولما كان من الغد حضر جعفر عند الرشيد ، وأعلمه بما جرى . فأقره على تصرفه ، ولم يخرج جعفر حتى كتب لابن عبد الملك تقليد ولاية مصر ، وعقد عقده على ابنة الرشيد .

(١) ص ١٨٧ — ١٨٨ ، وانظر أيضاً كتاب الوزراء والكتاب للجهشياري ، (طبعة الحلبي

سنة ١٩٣٨) ص ٢١٢ وما بعدها .

أما موسى فكان أشد أبناء يحيى البرمكى بأسا ، كما كان كاملا سريا ، وقائدا محنكا . ولاء الرشيد بلاد الشام سنة ١٧٦ هـ ، فأصلح أمورها ، وهدأت على يديه أحوالها . وقد أوقع به على بن عيسى والى خراسان عند الرشيد ، ورماه بتهمة إثارة الاضطرابات فيها ، والخروج على الخلافة . واتفق أن اختفى موسى بسبب دين عليه ، فازداد الرشيد اعتقادا بصحة هذه الوشايات ، وأمر به فحبس في الكوفة ، ولم يطلق سراحه إلا بوساطة أمه ، وقبول الرشيد رجاءها ، وضمان أبيه له ، ثم عفا عنه وخلع عليه . أما محمد بن يحيى فكان سريا بعيد الهمة ، ولم يكن له من الشهرة ما كان لإخوته .

من ذلك نستطيع أن نقف على مبلغ خطر مركز الأسرة البرمكية في أيام هارون الرشيد ، الذى وثق بهم ، وفوض إليهم أمور دولته . ولا نعجب إذا انصرف الناس إليهم ، ونظموا القصائد الرائعة في مدحهم ، والتغنى بكرمهم وجودهم . الذى كان مضرب الأمثال .

وقد قيل إن الرشيد حج ، ومعه يحيى بن خالد بن برمك ، وابناه الفضل وجعفر . فلما وصلوا إلى المدينة المنورة ، جلس الرشيد ومعه يحيى ، فأعطيا الناس ، وجلس الأمين ومعه الفضل بن يحيى فأعطيا الناس ، وجلس المأمون ومعه جعفر فأعطيا الناس . وقد ضربت الأمثال بكثرة هذه الأعطيات الثلاث ، حتى كانوا يسمون هذا العام عام الأعطيات الثلاث ، وفى ذلك يقول الشاعر :

أتانا بنو الآمال من آل برمك	فيأطيب أخبار ويا حسن منظر
لهم رحلة في كل عام إلى العدا	وأخرى إلى البيت العتيق المستر (١)
إذا نزلوا بطحاء مكة أشرفت	يحيى وبالفضل بن يحيى وجعفر
فتظلم بغداد وتجلو لنا الدجى	بمكة ما تمحو ثلاثة أقر
فما خلقت إلا لجود أكرمهم	وأقدامهم إلا لأعواد منبر
إذا راض يحيى الأمر ذلت صعا به	وناهيك من راع له ومدبر

وقد بلغ من جود يحيى وكرمه ، أنه كان إذا ركب أعد صررا في كل منها مائتا درهم ، يدفعها إلى الذين يقفون في طريقه ويلتمسون معونته . ولهذا لا نعجب إذا تلبس الوشاة وعمال السوء أسباب الإيقاع بالبرامكة ، الذين بلغوا أوج عظمتهم وذروة عزهم ، وقصدهم الرائح والغادى والحقير والنبيل .

صفات الرشيد وأخلاقه :

قال الخطيب البغدادي (٢) : « وكان هارون أبيض طويلا مسمنا جميلا ، »

(٢) كتاب تاريخ بغداد ج ١٤ ص ٥ .

(١) يعني السكة ذات السطور .

وقال صاحب كتاب الفخرى في الآداب السلطانية^(١) : وكانت دولة الرشيد من أحسن الدول ، وأكثرها وقارا ورونقا وخيرا ، وأوسعها رقعة مملكة ، جبي الرشيد معظم الدنيا ... ولم يجتمع على باب خليفة من العلماء ، والشعراء ، والفقهاء ، والقراء والقضاة ، والكتاب والندماء ، والمغنين ، ما اجتمع على باب الرشيد . وكان يصل كل واحد منهم أجزل صلة ، ويرفعه إلى أعلى درجة ، وكان فاضلا شاعرا ، راوية للأخبار والآثار والأشعار ، صحيح الذوق والتمييز ، مهييا عند الخاصة والعامة .

وقال صاحب الفخرى^(٢) أيضا : كان الرشيد من أفاضل الخلفاء فصحاءهم وعلمائهم وكرمائمهم ، كان يحج سنة ، ويفزو وكذلك سنة ، مدة خلافته لإسنتين قليلة . قالوا : وكان يصلي كل يوم مائة ركعة ، وحج ماشيا . ولم يحج خليفة ماشيا غيره . وكان إذا حج ، حج معه مائة من الفقهاء وأبناؤهم ، وإذا لم يحج ، أحج ثلاثمائة رجل ، بالنفقة السابعة ، والكسوة الظاهرة . وكان يتشبه في أفعاله بالمنصور ، إلا في بذل المال ، فإنه لم ير خليفة أسمح منه بالمال ، وكان لا يضع عندة إحسان محسن ، ولا يؤخر . وكان يحب الشعر والشعراء ، ويميل إلى أهل الأدب والفقه ، ويكره المراء في الدين . وكان يحب المدح ، لا سيما من شاعر فصيح ، ويجزل العطاء عليه .

قال أبو الشغلي^(٣) .

فمن يطلب لقاءك أو يُرَدّه فبالحرمين أو أقصى الثغور

ففي أرض العدو على طمرّ وفي أرض البنية فوق طور^(٤)

وما جازَ الثغورَ سواك خلّقَ من المستخلفين على الأمور

قال الأصمعي : صنع الرشيد طعاما ، وزخرف مجلسه ، وأحضر أبا العتاهية وقال له :

صف لنا ما نحن فيه من نعم هذه الدنيا ، فقال أبو العتاهية :

عش ما بدا لك سالما في ظل شاهقة القصور

فقال الرشيد : أحسنت ، ثم ماذا ، فقال :

فاذا النفوس تقعقت في ظل حشجة الصدور

فهنالك تعلم موقنا ما كنت إلا في غرور

فبكى الرشيد ، فقال الفضل بن يحيى : بعث إليك أمير المؤمنين لتسره خزانته . فقال الرشيد : دعه ، فانه رأى في عمى فكره أن يزيدنا منه . واشتهر الرشيد بحسن معاملة العلماء . قال أبو معاوية الضري ، أحد علماء عصره : أكلت مع الرشيد يوما ، فصب على يدي الماء رجل ، فقال لي يا أبا معاوية ، أتدرى من صب الماء على يدك ؟ فقلت : لا يا أمير المؤمنين ، فقال :

(١) ص ١٧٧ — ١٧٨ . (٢) نفس المصدر ص ٧٥ .

(٣) كذا في تاريخ بغداد ج ١٤ ص ٦ ، وفي الطبري أبو العالى الكلابي .

(٤) كذا في تاريخ بغداد ؛ وفي الطبري : « وفي أرض الترفه فوق كور » .

أنا . فقلت : يا أمير المؤمنين ، أنت تفعل هذا لإجلال العلم ؟ قال نعم (١) .
قال الخطيب البغدادي : « اجتمع للرشيدي ما لم يجتمع لأحد من جد وهزل . وزراؤه
البرامكة ، لم ير مثلهم سخاء وسرورا ، وقاضيه أبو يوسف ، وشاعره مروان بن أبي حفصة ،
كان في عصره كجبر في عصره ، ونديمه عم أبيه العباس بن محمد صاحب العباسية ، وحاجبه
الفضل بن الربيع ، أتميه الناس وأشدهم تعاظما ، ومغنيه إبراهيم الموصلی ، واحد عصره في
صناعته ، وضاربه زلزل ، وزامره برصوما . وزوجته أم جعفر ، أرغب الناس في خير ،
وأسرعهم إلى كل بر ، وهي أسرع الناس في معروف . أدخلت الماء الحرم بعد امتناعه من
ذلك ، إلى أشياء من المعروف (٢) . »
وكان الرشيد مضرب الأمثال في الجود والكرم . وقف في طريقه رجل من الأمويين ،
وأنشده هذه الأبيات الأربعة ، وهي :

يا أمين الله إني قائمٌ قول ذي لبٍ وصدق وحسبٌ
لكم الفضل علينا ولنا بكم الفضل على كلِّ العرب
عبد شمس كان يتلو هاشما وهم ————— بعد لامٍ ولاب
فصيل الأرحام منا إنا عبد شمس عمُّ عبد المطلب
ويحدثنا المسعودي (٣) أن الرشيد أعطى هذا الرجل عن كل بيت ألف دينار ، ثم قال له :
لو زدتنا لزدناك .

وقد روى الخطيب البغدادي (٤) عن إسحق بن إبراهيم الموصلی قال : دخلت على أمير
المؤمنين الرشيد يوما فقال : أنشدني من شعرك ، فأنشده :

وأمره بالبخل قلت لها اقصرى فذلك شيءٌ ماله سبيل
أرى الناس خلان الجواد ولا أرى بخيلا له في العالمين خليل
ومن خير حالات الفتي - لو علمته - إذا نال خيرا أن يكون ينيل
عطائي عطاء المكثرين تكروما ومالي - كما قد تعلين - قليل
وإني رأيت البخل يزرى بأهله ويحقر يوما أن يقال بخيل
وكيف أخاف الفقر أو أحرم الغنى ورأى أمير المؤمنين جميل ؟
قال : لا ، كيف إن شاء الله ، يا فضل ، أعطه مائة ألف درهم ، لله درُّ أبيات تأتينا بها ،
ما أحسن فصولها ، وأثبت أصولها ! قلت : يا أمير المؤمنين ، كلامك أجود من شعري ، قال :
أحسننت يا فضل ، أعطه مائة ألف أخرى .

(١) الفخرى ص ١٧٥ — ١٧٦ . (٢) تاريخ بغداد ج ١٤ ص ١١ .
(٣) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٨٠ . (٤) تاريخ بغداد ج ١٤ ص ١٠ — ١١ .

وكان الرشيد يقول الشعر ، ومن شعره يرثى جاريته هيلانة :

قاسيت أوجاعا وأحزانا لما استخص الموت هيلانا
فأرقت عيشي حين فارقتها فما أبالي كيفما كانا
كانت هي الدنيا فلما ثوت في قبرها فأرقت دنيانا
قد كثر الناس ولسكني لست أرى بعدك إنسانا
والله ما أنساك ما حركت ريح بأعلى نجد أغصانا

وقد بلغت بغداد في عهد الرشيد ، درجة عالية من الحضارة والعمران ، فبنيت فيها القصور الشاهقة ، وزادت موارد ثروتها ، وكانت تصل إليها التجارة من أقصى البلدان . وقد ذكر السيوطي (١) أن الرشيد أراد أن يوصل البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأحمر مما يلي الغرما ، فقال له يحيى بن خالد البرمكي : كان يختطف الروم الناس من المسجد الحرام ، وتدخل مراكزهم إلى الحجاز ، فعدل عن هذا الرأي .

وكانت خزائن الرشيد تفيض بالأموال التي كانت تجي من الضرائب ، حتى بلغت في عهده ما يقرب من اثنين وسبعين مليون دينار ، عدا الضريبة العينية التي كانت تؤخذ مما تنتجه الأرض من الحبوب ، حتى إن الرشيد كان يستلق على ظهره ، وينظر إلى السحابة المارة ويقول : « اذهبي حيث شئت يأتي خراجك » (٢) .

وصفة القول أن « أيام الرشيد كانت — كما يقول السيوطي (٣) — كلها أيام خير ، كأنها في حسن أعراس »

وفاة الرشيد

اشتدت علة الرشيد وهو بطوس في ضيعة تعرف بسناباذ ، فدعا من كان بعسكره من بني هاشم ، وأوصاهم بثلاث : الحفظ لإمامتكم ، والنصيحة لأئمتكم ، واجتماع كلمتكم ، وانظروا محمداً وعبد الله ، فن بنى منهما على صاحبه ، فردوه عن بغيه ، وقبحوا له بغيه ونكسته .

يقول المسعودي (٤) : لما اشتدت علته . . . هون عليه الأطباء علته ، فأرسل إلى طبيب فارسي كان هناك ، فأراه ماله مع قوارير شتى . فلما انتهى إلى قارورته قال : عرفوا صاحب هذا الماء أنه هالك ، فليوص : فانه لا براء له من هذه العلة ، فبكي الرشيد وجعل يردد هذين البيتين :

إنَّ الطبيب بطبه ودَوائه لا يستطيعُ دفاعُ محذور أتى
ماللطبيب يموتُ بالدَّاء الذي قد كان يبرىء نفسه فيما مضى
وكان قد عهد بالخلافة للأمين ، ثم المأمون . ثم القاسم ، وكتب بذلك صحيفة أشهد فيها

(١) تاريخ الخلفاء ص ١٨٩ . (٢) صبح الأعشى ج ٢ ص ٢٧٠ ، والنظم الإسلامية ص ٢٩٠ .

(٣) تاريخ الخلفاء ص ١٨٩ . (٤) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٨١ .

القضاة والفقهاء وأكابر بني هاشم ، وعلقت في الكعبة . ثم مات يوم السبت لأربع ليال خلون من شهر جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين ومائة ، فكانت ولايته ثلاثا وعشرين سنة وستة أشهر ، ومات وهو ابن أربع وأربعين سنة وأربعة أشهر^(١) .

وقال أبو نواس^(٢) يرثي الرشيد ويهني الأمين بالخلافة :

جرت جوار بالسعد والنحس فنحن في مأتم وفي عرس
القلب يبكى والعين ضاحكة فنحن في وحشة وفي أنس
يضحكنا القائم الأمين ويبيـكنا وفاة الإمام بالأمس
بدران : بدر أضحي ببغداد في الـ خلد وبدر بطوس في الرمس

الأمين

١٩٣ - ١٩٨ هـ = ٨٠٨ - ٨١٣ م

ولد أبو عبد الله محمد الأمين سنة ١٧٠ هـ ، وهي السنة التي ولى فيها أبوه هارون الرشيد الخلافة ، وذلك بعد مولد أخيه عبد الله المأمون بستة أشهر ، وأمه أم جعفر ، زُبَيْدَة ابنة جعفر بن المنصور ؛ وليس في خلفاء بني العباس من أبوه وأمه هاشميان سواه . ولما مات الرشيد بطوس في الثالث من شهر جمادى الآخرة سنة ١٩٣ هـ ، أحضر إليه وهو ببغداد رجاء الخادم بالبصرة والقاضي والضيق والخاتم ، وهي شارات الخلافة ، فرث أبو الشيبان الشاعر هارون الرشيد بقوله :

غَرَبَتْ في الشَّرْقِ شمسٌ فلها عيني تدمع
ما رأينا قط شمساً غربت من حيث تطلع^(٣)

وقد وصف الطبري^(٤) محمد الأمين في هذه العبارة فقال : « وكان سبطاً أنزع أبيض ، صغير العينين ، أفتى جميلاً عظيم السكراديس ، بعيد ما بين المنكبين ، ووصفه السيوطي^(٥) فقال : وكان من أحسن الشباب صورةً ، أبيض طويلاً ، ذا قوة مفرطة ، وبطش وشجاعة معروفة ؛ يقال إنه قتل مرة أسداً بيديه . وله فصاحة وبلاغة وأدب وفضيلة ، لكن كان سيئ التمييز كثير التبذير ضعيف الرأي أرعن ، لا يصلح للامارة » .

(١) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٦٣ ، وثمانية عشر يوماً كما يقول الطبري ج ٩ ص ١١٢ .

(٢) الطبري ج ١٠ ص ١٢٤ — ١٢٥ .

(٣) السيوطي : تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين ص ١٩٧ . (٤) ج ٢٠ ص ٢٠٩ .

(٥) تاريخ الخلفاء ص ١٩٧ .

كان عهد الأمين مليئا بالفتن والاضطرابات ؛ وفي الوقت الذي قامت هذه الفتنة بينه وبين أخيه المأمون ، اشتعلت نار الثورة في بلاد الشام ، على يد علي بن عبد الله بن خالد بن يزيد ابن معاوية ، المعروف بالسفنياني ، الذي دعا الى نفسه ، واحتل دمشق وما يليها ، بعد أن طرد عامل الأمين ؛ وكاد يتم له الاستقلال بهذه البلاد ، لولا أن قام بين اليمينيين والمضريين نزاع خطير ، حال دون تحقيق أمانيه . وقد أرسل الأمين الجيوش لقمع هذه الفتنة ، بقيادة الحسين ابن علي بن عيسى بن ماهان ، ثم عبد الله بن صالح بن علي العباس ؛ ولكن سوء الحالة في بغداد قد حال دون القيام بعمل جدّي ضد هذا السفنياني . وهكذا أصبحت بلاد الشام مسرحا للفوضى سنتين أو أكثر . هذا إلى أن الحسين بن علي بن عيسى ، قد أثار عداء جنوده الشّامين بتعيزه لجنده الخراسانيين . ومن ثم عاد هذا القائد فجأة إلى بغداد (١) .

وقد روى السيوطي (٢) عن إسحق الموصلي قال : « اجتمعت في الأمين خصائل لم تكن في غيره . كان أحسن الناس وجها وأسخاهم ، وأشرف الخلفاء أبا وأما ، حسن الأدب ، عالما بالشعر ؛ لكن غلب عليه الهوى واللعب . وكان مع سخائه بالمال بخيلا بالطعام جدا ، وقال أبو الحسن الأحمر : كنت ربما أنسيت البيت الذي يستشهد به في النحو ، فينشدني الأمين ، وما رأيت في أولاد الملوك أذكى منه ومن المأمون » .

وكان الأمين يحيد الشعر ، فمن شعره يفخر على أخيه المأمون (٣) .

لا تفخرنّ عليك بعد بقيّة	والفخر يكمل للفتى المتكامل
وإذا تطاولت الرجال بفضلها	فاربّع فانك ليس بالمتطاول
أعطاك ربك ما هويت وإنما	تلقى خلاف هواك عند مراحل
تعلو المنابر كلّ يوم آملا	ما لست من بعدى إليه بواصل
فتعيب من يعلو عليك بفضلها	وتعيد في حقّ مقال الباطل

ومن شعره لما يثس من النصر على أخيه المأمون :

يانفس قد حقّ الحذر	أين المفرّ من القدر
كل امرئ مما يخاف	ف ويرتجيه على خطر
من يرتشف صفو الزّما	ن يغصّ يوما بالكدر

وكان الأمين يميل إلى اللهو واللعب والتبذير ، وبني مجالس للتزّه ، وفي ذلك يقول الطبري (٤) :

(١) الطبري ج ١٠ ص ١٥٥ .

(٢) تاريخ الخلفاء ص ٢٠٢ . Muir: The Caliphate, p. 490 .

(٣) نفس المصدر . (٤) ج ١٠ ص ٢١٥ — ٢١٦ .

« ولما ملك محمد ، وجّه إلى جميع البلدان في طلب المهملين ، وضمهم إليه ، وأجرى لهم الأرزاق ، ونافس في ابتياع فرسه الدواب ، وأخذ الوحوش والسباع والطيور ، وغير ذلك ؛ واحتجب عن أخوته وأهل بيته وقواده ، واستخف بهم ، وقسم مافي بيوت الأموال وما بحضرته من الجوهر في خصيانته وجلسائه ومحدثيه . وحمل إليه ما كان في الرقة من الجوهر والخزائن والسلاح ، وأمر ببناء مجالس لمتنزهاته ، وهواضع خلوته ولهو لهعبه ، بقصر الخلد والخيزرانية وبستان موسى وقصر عبدويه وقصر المعلى ورقة كلواذى وباب الأنبار ونبارى والهوب ، وأمر بعمل خمس حراقات في دجلة على خلقة الأسد والفيل والعقاب والحية والفرس ، وأنفق في عملها مالا عظيما ، فقال أبو نواس :

سخر الله للأمين مطايا	لم تسخر لصاحب المحراب
فاذا ماركا به سرن برا	سار في الماء راكبا ليث غاب
أسدا باسطا ذراعية يهوى	أهرت (١) الشدق كالح الأنيا
لا يعانیه بالبحام ولا السو	ط ولا غمز رجله في الر كاب
عجب الناس إذ رأوك على صو	رة ليث تمر مر السحاب
سبحوا إذ رأوك سرت عليه	كيف لو أبصروك فرق العقاب
ذات زور ومنسر وجناحي	ن تشق العباب بعد العباب
تسبق الطير في السماء إذا	استعجلوها بجيئة وذهاب
بارك الله للأمير وأبقا	ه وأبقى له ردام الشباب
ملك تقصر المدائح عنه	هاشمي موفق للصواب

ولم يعمر الأمين طويلا ، حيث قتل بعد أن جلس على عرش الخلافة أربع سنين وثمانية أشهر وخمسة أيام ، وذلك في شهر ربيع الأول سنة ١٩٨ هـ ، وكان في الثامنة والعشرين من عمره . وقد ذهب الأمين ضحية هذه الفتنة التي قامت بينه وبين أخيه المأمون ، بسبب خلعه أخاه ، وتوليته ابنه العهد من بعده ، ونسكت العهد والميثاق الذي أخذه عليه أبوه الرشيد ، وعلقه في السكبة . وقد ساد عهده هذه الفتنة الهوجاء التي فرقت المسلمين وأضعفت قوتهم ، وقوضت كثيرا من معالم مدينة بغداد ، حاضرة العباسيين ، وكعبة العلوم والآداب ، ومركز التجارة ، وحاضرة الاسلام .

وقد رثى الأمين كثير من الشعراء الذين كانوا يناصرون العرب على الفرس ، ومن هؤلاء الحسين بن الضحاك الشاعر ، وكان من ندماء الأمين ، وقد جزع على قتله ، واشتد حزنه ، حتى إنه لم يصدق موته ، بل كان يطمع في رجوعه ، وقد عبر عن حزنه في هذه القصيدة الطويلة (٢) :

يا خير أسرته وإن زعموا
الله يعلم أن لي كبدا
ولئن شجيت بما رزئت به
هلاً بقيت لسد فاقتنا
فلقد خلفت خلائفا سلفوا
لا بات رهطك بعد هفوتهم
هتكوا بحرمتك التي هتكت
وثبت أقاربك التي خذلت
لم يفعلوا بالشط إذ حضروا
تركوا حريم أبيهم نفلاً
أبدت مخلصها على دهش
سابت معاجرهن واجتلبت
فكأنهن خلال منهب
ملك تخون ملكه قدره
هيات بعدك أن يدوم لنا
أبعد عهد الله تقتله
فستعرفون غداً بعاقبة
يا من يخون نومه أرق
قد كنت لي أملاً غنيت به
مرج النظام وعاد منكراً
فالشمل منتشر لفقدك والد

إني عليك لمثبت أسف
حرى عليك ومقلة تكف
إني لأضمر فوق ما أصف
أبدأ وكان لغيرك التلف
ولسوف يعوز بعدك الخلف
إني لرهطك بعدها شنف
حرم الرسول ودونها السيف
وجميعها بالذل معترف
ما تفعل الغيرة الأنف
والمحصنات صوارخ هتف
أبكارهن ورئت النصف
ذات النقاب ونوزع الشنف
در تكشفت دونه الصدق
فو هي وصرف الدهر مختلف
عز وأن يبقى لنا شرف
والقتل بعد أمانة سرف
عز الإله فأوردوا وقفوا
هدت الشجون وقلبه لطف
ففضى وحل محله الأسف
عرفا وأنكر بعدك العرف
نيا سدى والبال منكسف

وقال خزيمه بن الحسن يرثي الأمين على لسان أمه أم جعفر زبيدة زوجة هارون الرشيد :

لخير إمام قام من خير عنصر
لوارث علم الأولين وفهمهم
كسبت وعيني مستهل دموعها
وقد مسني ضر وذل كآبة
وهمت لما لاقيت بعد مصابه
سأشكو الذي لاقيته بعد فقدته
وأرجو لما قد مرني مذ فقدته
أني طاهر لا طهر الله طاهراً

وأفضل سام فوق أعواد منبر
ولملك المأمون من أم جعفر
إليك ابن عمي من جفوني ومحجري
وأرق عيني يابن عمي نفسك ري
فأمرى عظيم منكراً جده منكراً
إليك شكاة المستهام المقهر
فأنت ابني خير رب مغير
فا طاهر فيما أني بمطهر

فأخرجني مكشوفة الوجه حاسراً وأنهب أموالى وأحرق آدرى
يعزُّ على هارون ما قد لقيته وما مرَّني من ناقص الخلق أعور
فإن كان ما أسدى بأمر أمرته صبرت لأمر من قدير مقدّر
تذكر أمير المؤمنين قرايتي فديتك من ذى حرمة متذكر (١)

ولما قتل الأمين أرسل عبد الله بن طاهر رأسه إلى المأمون، الذى صفاه له الجوى، واستقرت
له الأمور، وكتب إلى الأمصار الإسلامية كتاباً جاء فيه (٢) :

« أما بعد فإن المخلوع كان قسيم أمير المؤمنين فى النسب والاشحمه، وقد فرق الله بينه
وبينه فى الولاية والحرمة، بمفارقة عصم الدين، وخروجه من الأمر الجامع للمسلمين، يقول
الله عز وجل حين اقتص علينا نبأ ابن نوح (إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح) فلا
طاعة لأحد فى معصية الله، ولا قطيعة إذا كانت القطيعة فى جنب الله. وكتانى إلى أمير المؤمنين
وقد قتل الله المخلوع ورداه رداء نكسه وأحصد لأمر المؤمنين أمره، وأنجز له وعده، وما
ينتظر من صادق وعده حين ردَّ به الألفة بعد فرقتها، وجمع الأمة بعد شتاتها، وأحيا به
أعلام الإسلام بعد دروسها.

وفد أصاب ابن الأثير فى وصف الأمين بقوله : « لم نجد للأمين من سيرته ما نستحسنه
فندكره »، ووصف ميور عهده بقوله « إنه كان عهداً مشيناً ».

المأمون

١٩٨ - ٢١٨ هـ = ٨١٣ - ٨٣٣ م

ولد عبد الله أبو العباس المأمون بن الرشيد سنة ١٧٠ هـ فى الليلة التى مات فيها عمه الخليفة
الهادى، وأمه أم ولد تسمى مراجل. وقد ولده أبوه العهد وهو فى الثالثة عشرة من عمره بعد أخيه
الأمين، وأسند إليه ولاية خراسان وما يتصل بها إلى همدان. ولما توفى أبوه لم يف له أخوه
الأمين بعهد، كما تقدم، بل عول على أن يقدم عليه فى ولاية العهد ابنه موسى، فأبى المأمون
ذلك ونشبت بينهما تلك الحروب التى انتهت بقتل الأمين فى ٢٥ المحرم من سنة ١٩٨ هـ.

وقد بويغ المأمون بالخلافة يوم قتل أخوه وكان المأمون إذ ذاك فى الرى. وظل مقبلاً بخراسان
حتى قدم بغداد فى منتصف شهر صفر سنة ٢٠٤ هـ. وقد وصفه صاحب الفخرى (٣) فقال :
« واعلم أن المأمون كان من عظماء الخلفاء، ومن عقلاء الرجال، وله اختراعات كثيرة فى
ملكته، منها أنه أول من خص منهم عن علوم الحكمة، وحصل كتبها، وأمر بنقلها إلى
العربية وشهرها، وحلَّ إقليدس، ونظر فى علوم الأوائل، وتكلم فى الطب، وقرب أهل

(١) الطبرى ج ١٠ ص ٢١٣ - ٢١٤. (٢) نفس المصدر ج ١٠ ص ٢١٤ - ٢١٥.

(٣) ص ١٩٧ - ١٩٨.

الحكمة . ومن اختراعاته مقاسمة أهل السواد بالخمسين ، وكانت المقاسمة المعهودة النصف . ومن اختراعاته إلزام الناس أن يقولوا بخلق القرآن . وفي أيامه نشأت هذه المقالة ، ونوظر فيها أحمد بن حنبل وغيره . ولما مات المأمون أوصى أخاه المعتصم بها ، فلما ولي المعتصم تكلم فيها ، وضرب أحمد بن حنبل . ومن اختراعاته أيضا نقل الدولة من بني العباس إلى بني علي عليه السلام ، وتغيير الناس السواد بلباس الخضر ، وقالوا هو لباس أهل الجنة .

الأحوال الداخلية :

مال المأمون أول الأمر إلى العلويين ، واتخذ الخضر شعارهم ، وصاهر عليا الرضا ، وولاه عهده ، وأنزل العلويين منازل العز والكرم ، وظل على ذلك حتى عزم على المسير إلى بغداد ، ومات علي الرضا وهو في طريقه إليها ، على مأساوى . ومع ذلك لم يغير المأمون سياسته نحو العلويين بعد أن رجع إلى السواد شعار العباسيين ، إلى أن قام باليمن عبد الرحمن بن عبد الله العلوى سنة ٢٠٧ هـ ، فبعث إليه المأمون أحد رجاله ، فأمنه ، وألبسه السواد .

وفي سنة ٢٠٣ هـ ولي المأمون محمدا الزبائدي بلاد تهامة ، ليقضى على المتشيعين فيها ، فاخطف مدينة زبيد ، وأصبح أشبه بملك مستقل ؛ إلا أنه كان يخاطب للعباسيين ويؤدى لهم الخراج ، وظل الملك في أعقابه إلى سنة ٥٥٣ هـ . وبذلك انسلخت هذه البلاد عن الدولة العباسية . وكانت الدولة الزيدية أول دولة استقلت باليمن ، كما كانت الحال بالنسبة إلى دولة الأغالبة التي أسسها الرشيد في سنة ١٨٤ هـ ، لتكون حاجزا بين بلاده وبلاد الأدارسة ، فاعتز ملكهم ، وقويت شوكتهم ، إلى أن أزال الفاطميون دولتهم . وقد انسلخت هاتان الدولتان عن الدولة العباسية ، وكان السبب في تكوينها خوف الخلفاء العباسيين من أن يمتد نفوذ العلويين إلى بلادهم .

وقد ثار أهل بغداد وولوا إبراهيم بن المهدي الخلافة حين كان المأمون بمرو ، فلما أحس الناس بقدوم المأمون خلعوا إبراهيم ، فاخفى ، ثم قبض عليه ، فغفا عنه المأمون ، وقرّبه إليه (١) وقد قبض على إبراهيم في سنة ٢١٠ هـ عقب اكتشاف مؤامرة بزعامة إبراهيم بن محمد ابن عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام المعروف بابن عائشة ، ترمى إلى اغتيال المأمون وتولية إبراهيم بن المهدي الخلافة . أما ابن عائشة فقد أمر المأمون بأن يقام ثلاثة أيام في الشمس ، ثم ضرب بالسياط وحبس ، ثم قتل وصلب (٢) . وأعقب ذلك القبض على إبراهيم بن المهدي وهو متزى بزي امرأة . ويقول الطبرى (٣) أخذ إبراهيم . . . وهو منتقب مع امرأتين في زي امرأة ، أخذه حارس أسود ليلا ، فقال : من أنتين ؟ وأين تردن في هذا الوقت ؟ فأعطاه إبراهيم فيما ذكر خاتم ياقوت كان في يده ، له قدر عظيم ليخلفهن ولا يسألهن ، فلما نظر

(١) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٠٥ . (٢) الطبرى ج ١٠ ص ٢٦٩ — ٢٧٠ .

(٣) نفس المصدر ج ١ ص ٢٧٠ — ٢٧١ .

الحارس إلى الخاتم استراب بهن وقال ، هذا خاتم رجل له شأن ، فرفعهن إلى صاحب المسلحة ، فأهرهن أن يسفرن ، فتمنع إبراهيم . فغذبه صاحب المسلحة ، فبذت لحيته ، فرفعه إلى صاحب الجسر ، فعرفه ، فذهب به إلى باب المأمون ، فأعلم به ، فأمر بالاحتفاظ به في الدار . فلما كان غداة الأحد ، أقعد في دار المأمون ، لينظر إليه بنو هاشم والقواد والجند ، وصيروا المقنعة التي كان متنقبا بها في عنقه ، والملحفة التي كان ملتجفا بها في صدره ، ليراه الناس ، ويعلموا كيف أخذ . فلما كان يوم الخميس حوَّله المأمون إلى منزل أحمد بن أبي خالد ، فحبسه عنده ثم أخرجه المأمون معه ، حيث خرج إلى الحسن بن سهل بواسطة ، فقال للناس إن الحسن كلمه فيه ، فرضى عنه ، وخلي سبيله ، وسيره عند أحمد بن أبي خالد ، وسير معه خالد بن يحيى بن معاذ ، وخالد بن يزيد بن مزيد يحفظانه . إلا أنه موسع عليه ، عنده أمه وعياله ، ويركب إلى دار المأمون وهؤلاء معه يحفظونه ، فلما أدخل على المأمون قال له : هيه يا إبراهيم ، فقال يا أمير المؤمنين وليُّ الثأر يحكم في القصاص والعفو أقرب للتقوى ومن تناوله الاغترار بما مدَّ له من أسباب الشقاء ، أمكن عاذية الدهر من نفسه ، وقد جعلك الله فوق كل ذي ذنب ، كما جعل كل ذي ذنب دونك ، فان تعاقب فيحقلك ، وإن تعف فبفضلك ، قال : بل أعفويا إبراهيم ، فكبر ثم خر ساجدا . (وقيل) إن إبراهيم كتب بهذا الكلام إلى المأمون وهو مختف ، فوقع المأمون في حاشية رقعته : القدرة تذهب الحفيظة ، والندم توبة ، وبينهما عفواً ، وهو أكبر ما نسأله ، فقال إبراهيم يمدح المأمون :

يا خير من ذملت يمانية به	بعد الرسول لآيس ولطامع
وأبر من عبد الإله على التقي	عيننا وأقوله بحق صادق
ملئت قلوب الناس منك مخافة	وتبيت تكوهم بقلب خاشع
بأبي وأمي فدية وبنيهم —	من كل معضلة وريب واقع
للسالحات أخا جعلت وللتقي	وأبا رؤوفا للفقير القانع
نفسى فداؤك إذ تفضل معاذري	وألوذ منك بفضل حلم واسع
فبذلت أفضل ما يليق ببذله	وسع النفوس من الفعال البارع
وعفوت عن من لم يكن عن مثله	عفو ولم يشفع إليك بشافع
إلا العلو عن العقوبة بعد ما	ظفرت يداك بمستكين خاضع
فرحمت أطفالا كأفراخ القطا	وعويل عانسة كقوس النازع
ما إن عصيتك والعفوة تقودني	أسبابها إلا بنية طائع
لم أدر أن لمثل جرmy غافرا	فوقفت أنظر أي حثف صارعي
رد الحياة على بعد ذهابها	ورع الإمام القادر المتواضع
إن أنت جدت بها على تكن لها	أهلا وإن تمنع فأعدل مانع

إن الذي قسم الخلافة حازها في صلب آدم للإمام السابع
جمع القلوب عليك جامع أمرها وحوى رداؤك كل خير جامع

وفي عهد المأمون شق نصر بن شيبث عصا الطاعة ، وكان عريياً يتعصب للأمين ، لأنه يمثل العنصر العربي ، وينقم على المأمون ، لاتخاذ الخراسانيين دون العرب أنصاراً له . وقد تغلب نصر على ما جاوره من البلاد ، وشايعه كثير من العرب . ولما انتصر طاهر بن الحسين على الأمين ، واستولى على العراق ، نذبه المأمون لمحاربة نصر ، وولى الحسن بن سهل العراق ، وطلب من طاهر بن الحسين أن يسير لمحاربة نصر ، وأن يتخذ الرقعة مركزاً لأعماله الحربية . ولكن طاهراً لم يجد في حرب نصر ، لأنه كان يحقد على المأمون ووزيره الفضل بن سهل ، لانتزاعه بلاد العراق منه ، وأحرزت جيوش نصر بن شيبث النصر على جيوش طاهر بن الحسين . وأراد بعض العلويين أن يقيموا خليفة منهم ، فأبى نصر ذلك عليهم ، وقال : إنما هوأى في بني العباس ، وإنما حاربتهم محاماة عن العرب ، لأنهم يقدمون عليهم العجم . ولما قدم المأمون بغداد استدعى طاهراً وولى ابنه عبد الله بن طاهر خراسان ، وكتب له كتاباً مشهوراً يوصيه فيه بمحاربة نصر ، فجذ في حربه وحاصره حتى طلب الأمان . وكان المأمون قد نذب إليه من يؤمنه ، فأجاب على ألا يسطأ بساط المأمون ، فأبى الخليفة ، واستمرت الحرب سجالاتاً بين الفريقين ، حتى أرغم نصرته على طلب الأمان ، وسبق إلى بغداد في شهر صفر سنة ٢١٠ هـ ، بعد أن حارب جيوش المأمون نحواً من خمس سنين (١) .

كذلك عكر الزط صفو المأمون . وقد ذكر ابن خلدون أنهم قوم من أخلاط الناس غلبوا على طريق البصرة وعاثوا فيها ، وأفسدوا البلاد ، وهم المعروفون بالتشور ، وأصلهم من هندوآسيا ، وكانوا يقيمون على سواحل الخليج الفارسي ، وانتزوا قيام الفتنة بين الأمين والمأمون ، فاستولوا على طريق البصرة . ولما عاد المأمون إلى بغداد نذب عيسى بن يزيد الجلودى لمحاربتهم (سنة ٢٠٥ هـ) . وفي سنة ٢٠٦ هـ ولى المأمون داود بن ماسجور البصرة وكوردجلة والتمامة والبحرين ، ونذبه لمحاربة الزط ، فلم يكن لحربه هو ومن سبقه من القواد أثر ظاهر ، بدليل قول نصر بن شيبث عن المأمون حين ألح في أن يسطأ نصر بساطه : « إنه لم يقنوا على أربعائة ضفدع تحت جناحه » . واستمر الزط يقاتلون العباسيين إلى أيام المعتصم ، حيث قضى عليهم في سنة ٢١٩ هـ .

ولكن نصر بن شيبث لم يقدر قوة الزط حق قدرها ، وليس أدل على هذا من أنهم أفلقوا العباسيين نحو خمس عشرة سنة . وقد روى الطبرى (٢) عن أحد شعراء الزط قصيدة طويلة ننقل منها هذه الأبيات :

(١) الخضرى : تاريخ الدولة العباسية ص ٢٦٥ — ٨٦٧ . راجع الطبرى (ج ١٠ ص ٢٥٨ وما بعدها) في حوادث سنة ٢٠٥ هـ إلى سنة ٢١٠ هـ .

(٢) (ج ١ ص ٣٠٧) .

يَا أَهْلَ بَغْدَادِ مُوتُوا دَامَ غَيْظُكُمْ
تَحْنُ الَّذِينَ ضَرَبْنَاكُمْ مُجَاهِرَةً
مَتَى تَرُومُوا لَنَا فِي غَمَرِ لَجْنِنَا
شَوْقًا إِلَى تَمَرِ بَرْقِيٍّ وَسُهِرِيٍّ
قَسْرًا وَسَقَمًا كَمِ سَوْقِ الْمَعَايِرِ
حَذَرًا نَصِيدُكُمْ كَصَيْدِ النِّقَاقِرِ

وفي عهد المأمون ثار المصريون في سنة ٢١٠ هـ، فبعث عبدالله بن طاهر لإخماد هذه الثورة، فاستولى على القسطنطين وأقر الأمن، ثم تفرغ لإصلاح البلاد، وزاد في جامع عمرو بن العاص. ولكن ولايته لم يطل أمدها، فعاد إلى العراق، وعادت الثورات في مصر سيرتها الأولى، وانتفض القيسية، وخرج فريق من عرب مصر الذين كانوا يناصرون الأمين، فندب المأمون قائده الأفشين، ثم جاء إلى هذه البلاد بنفسه، وأعاد الأمن إلى نصابه (١).

على أن الحسن بن سهل لم يتمكن من سياسة أهل العراق بالحزم، كما شاع في تلك البلاد بعد خروج طاهر بن الحسين منها، أن الفضل بن سهل قد استبد بالأمور دون المأمون، وأنه أنزله قصرًا حجب فيه عن أهل بيته وقواده، مما أثار استياء بني هاشم ووجوه الناس في بلاد العراق، وثار القلاقل في الأمصار، فقامت بضواحي الكوفة سنة ١٩٩ هـ فتنة بزعامة أبي السرايا، الذي كان يدعو لأحد العلويين، وأوقع الهزيمة بجيوش الحسن بن سهل، مما اضطر أخاه الفضل - برغم شدة حقه على هرثمة - إلى أن يرسله على رأس جيش كبير لقمع حركة أبي السرايا الذي حلت به الهزيمة.

ولما قضى هرثمة على ثورة أبي السرايا، ولأه الخليفة بلاد الشام والحجاز، لكنه اعتذر عن قبول هذا المنصب، قبل أن يطلع المأمون بنفسه على حقيقة الحال في العراق وما يليه غربا، ويوجه نظره إلى الخطر المحدق به. فلما بلغ هرثمة مرو حاضرة خراسان، خشى أن يخفى الفضل بن سهل خبر قدومه عن الخليفة، فضرب الطبول، وما لبث أن مثل بين يديه، وأفضى إليه بحقيقة الحال في الدولة الإسلامية، فجازه على عمله هذا بحبسه، ولم يزل في سجنه حتى قتل. على أن قتل هرثمة أثار غضب رجال الجيش في بغداد، وانتشرت الفوضى من جديد، فتألب أهلها على الحسن بن سهل، وأقاموا المنصور بن المهدي أميرا عليهم، بعد أن تمتحنى عن قبول الخلافة.

وقد أثار مبايعة علي الرضا بولاية العهد غضب العباسيين، فنادوا بخلع المأمون وبايعوا إبراهيم بن المهدي بالخلافة كما تقدم، ولفَّ به المبسرك. فتصدى لهم الحسن بن سهل واليه على العراق؛ غير أنه عجز عن إخماد هذه الفتنة. وظل إبراهيم بن المهدي خليفة ببغداد مدة سنتين.

ولما علم المأمون بما وصلت إليه الحال في بغداد من الاضطراب، عوّل على الرحيل إليها.

وبينا كان في طريقه إلى تلك المدينة دس لوزير الفضل بن سهل من قتله ، ففترق عنه أنصاره . ولما وصل إلى طوس حدثت حادثة أخرى ، هي وفاة عليّ الرضا . وقد اتهم المأمون بأنه سمه تقرباً إلى العباسيين .

قدم المأمون بغداد فازدحمت جموع أهلها في الطرقات ، وتهللت وجوههم فرحاً واستبشاداً بعودة الخليفة إلى حاضرة ملكه ، وولى إبراهيم بن المهدي هارباً .

وبعد أن استقر الأمر للمأمون في بغداد ، أسند الوزارة إلى الحسن بن سهل ، وطلب الزواج من ابنته بوران ، فرحب الوزير بهذه المصاهرة . وبذل على زفافها كثيراً من الأموال ، حتى لقد قدر بعض المؤرخين نفقات الزواج بخمسين مليون درهم .

ولما عرضت للحسن بن سهل علته التي أودت بحياته ، انقطع بداره ، واحتجب عن الناس ؛ فاستوزر المأمون أحمد بن أبي خالد ، وكان على جانب كبير من رجاحة العقل ، كما كان كاتباً فصيحاً ، بصيراً بعواقب الأمور . وقد استشاره المأمون في تولية طاهر بن الحسين على خراسان ، فصوب هذا الرأي . على أن طاهراً لم يلبث أن قطع الخطبة للخليفة ، ووضع نواة الدولة الطاهرية ، فهدد المأمون وزيره ، وصمم على قتله إذا لم يعمل على التخلص من هذا الخارج ، فأرسل الوزير إلى طاهر هدية فيها كوامخ مسمومة ، فأكل منها ومات لساعته .

استشار المأمون الحسن بن سهل فيمن يوليه الوزارة بعد أحمد بن أبي خالد ، فأشار عليه بتولية أحمد بن يوسف وأبي عباد بن يحيى وقال : هما أعرف الناس بطبع أمير المؤمنين ، فقال له : اختر لي أحدهما ، فاختر له أحمد بن يوسف فاستوزره .

وكان أحمد بن يوسف كاتباً ، أدبياً ، وشاعراً ، عالماً بأمور الدولة وآداب الملوك ؛ استشاره المأمون في رجل كان يكرهه أحمد ، فوصفه وذكر محاسنه فقال له المأمون : يا أحمد ، لقد مدحته على سوء رأيك فيه ، ومعاداته لك ، فقال : لأنى لك كما قال الشاعر :

كفى ثمتنا بما أسديت أنى صدقتك في الصديق وفي عِدائى
وأنى حين تنسدينى لأمر يكون هداك أغلب من هوائى (١)

صفات المأمون :

كان المأمون يتحلى بكثير من الصفات ، التي امتاز بها عن سائر الخلفاء العباسيين ؛ من ذلك ميله إلى العفو ، وكرامته للانتقام . وليس أدل على ظهور هذه الصفة فيه من عفوهِ عن إبراهيم بن المهدي الذي تربع في كرسي الخلافة نحواً من سنتين ، وعن الفضل بن الربيع الذي حرّمه من السلاح والعسّاد ، الذي كان أبوه الرشيد قد أوصى بتسليمه إليه بعد وفاته ، فانه مع ذلك لم يعمل على التخلص منه ، وقال : « أما القتل فلا أقتله ، ولكن أجعله بحيث إذا

قال لم يطاع ، وإذا دعا لم يحجب ، وهذا أقل ما كان ينتظر من المأمون ، ولا سيما بعد أن بلغه ما كان من تنازع الفضل بن الربيع مع علي بن عيسى ، وتوجيهه معه قيداً من الفضة ، بعد أن تنازعا في الفضة والحديد ليقبضه بها .

وقد تحلى المأمون بكثير من الصفات التي ترجح كفة الحكم له في نظر المؤرخ ، على الرغم مما ظهر به من القسوة في إخماد الثورة التي قامت في مصر في سبقي ٢١٢ و ٢١٦ هـ ، وكذلك في معاملة يحيى بن أكرم وأبي دلف حين غضب عليهما .

وقد فاق المأمون الخلفاء العباسيين قاطبة في كرمه . يدل على ذلك ما أنفقه على زواجه من بوران بنت الحسن بن سهل ؛ فقد أمر عند انصراف الحسن من قم الصلح (١) بعشرة آلاف ألف درهم ، كما أقطعه قم الصلح ، وأطلق له خراج فارس وكور الأهواز مدة سنة . ويحدثنا صاحب الفخرى (٢) أنه لما وصل إلى دمشق قل المال عنده ، فشكا ذلك إلى أخيه المعتصم (وكان يلي بعض أعمال الدولة) ، فلم يمض أسبوع واحد حتى وافاه من المال ثلاثون ألف ألف درهم (الآلاف مكررة ثلاث مرات) ، فقال المأمون لقاضيه يحيى بن أكرم : « أخرج بنا للنظر إلى هذا المال ، نخرج وخرج الناس معه . وقد زين الحمل وزخرف فقال المأمون : إن انصرفنا إلى منازلنا بهذا المال ، وانصراف الناس خائبين لؤم ، ثم أمر كاتبه أن يعطى لبعض خاصته ألف ألف ، وللبعض الآخر أكثر من ذلك ، حتى فرق أربعة وعشرين ألف ألف ألف ، ثم أمر فحول الباقي على الجيش ومصالحه .

وكان المأمون حاضراً بالديمة ، سريع الجواب ، روى أن امرأة جاءت به وهو في مجلس من العلماء وقالت له : يا أمير المؤمنين ، مات أخي وخلف ستائة دينار ، أعطوني ديناراً . فأخذ المأمون يحسب ثم قال لها : هذا نصيبك ، فقال له العلماء : كيف علمت يا أمير المؤمنين ؟ فقال هذا الرجل خلف ابنتين ، قالت نعم ، قال فلهن الثلثان أربعمائة ، وخلف والدته ، فلها السدس مائة ، وخلف زوجة فلها الثلث خمسة وسبعون ، وبالله ألك اثنا عشر أختاً ؟ قالت نعم ، قال : أصابهم ديناران ديناران ، وأصابك دينار .

وقد أثر عن المأمون كثير من الأحاديث التي أصبحت أقرب إلى الحكم ، من ذلك قوله : الناس ثلاثة : فمنهم مثل الغداز لا بد منه على كل حال ، ومنهم كالدواء يحتاج إليه في حال المرض ، ومنهم كالداء مكروه على كل حال .

وكان المأمون يقرّب منه الشعراء ، كما حذق هو نفسه الشعر ، حتى نفقت سوقه ، وكثر الشعراء والمغنون وعلماء الكلام في عهده ، فن شعره :

(١) هو إقليم على قناة كبيرة تعرف بهذا الاسم ، تأخذ من دجلة فوق واسط وتقع بين هذه المدينة وتل تقع عليه عدة مدن صغيرة ، زوج في أحدها الوزير الحسن بن سهل ابنته بوران المأمون — أنظر لفظ قم الصلح في معجم البلدان لياقوت . (٢) ص ١٩٧ .

لساني كسوتهم لأسراركم ودمعي نهم لسرى مذيع
فلولا دموعي كسنت الهوى ولولا الهوى لم يكن لي دموع
وللأماون في الشَّطرنج شعر ننقل منه هذه الأبيات :

أرضه مربعة حراء من أدم ما بين إلفين معروفين بالكرم
تذاكرا الحرب فاحتالا لها حيلاً من غير أن يأثما فيها بسفك دم
هذا يُغَيِّر على هذا وذاك على هذا يغير وعين الحزم لم تنم
فانظر إلى فطن جالت بمعرفة في عسكريين بلا طبل ولا علم
وكان المأمون يميل إلى الإقناع في الجدل والمناقشة ، واحتمال آراء المناظرين إذا لم تتفق
مع آرائه وميوله ، والعمل على قطع دابر الرياء والنفاق ، وغيرهما من الرذائل التي كانت
متفشية بين قواده وجنده .

وتوفي المأمون في آخر غزواته ببلاد الدولة البيزنطية ؛ فقد أصابته الحمى وهو في شمال
مدينة طوس ، وتوفي في الثامنة والأربعين من عمره ، وكان قد عهد بالخلافة من بعده إلى أخيه
أبي إسحق بن الرشيد ، وأحسن بذلك إلى أسرته وإلى نفسه .

المعتصم

٢١٨ - ٢٣٢ هـ = ٧٢٣ - ٨٤٢ م

ولد أبو إسحق محمد المعتصم سنة ١٧٨ هـ ، وأمه أم ولد تسمى ماردة^(١) ، وأبوه هارون
الرشيد . وكان يلي في عهد أخيه المأمون بلاد الشام ومصر . ولما مرض المأمون عهد إليه
بالخلافة ، وعدل عن تولية ابنه العباس الذي كان يتمتع بشهرة واسعة بين جند العرب . ولعل
السبب الذي حمله على ذلك ، هو أنه رأى في شدة شكيمة المعتصم ومثانة خلقه ما يضمن له
تنفيذ السياسة التي رسمها لدولته .

وقد أوصى المأمون أخاه المعتصم وصية جاء فيها^(٢) : « يا أبا إسحق! أدن مني ، واتعظ
بما ترى ، وخذ بسيرة أخيك في القرآن ، واعمل في الخلافة إذا طوقكها الله عمل المرید لله ،
الخائف من عقابه وعذابه ، ولا تغتر بالله ومُهلته ، فكأن قد نزل بك الموت ، ولا تشغل
أمر الرعية ، الرعية الرعية ، العوام العوام ، فإن الملك بهم ؛ وبتعهدك المسلمين والمنفعة لهم ،
الله الله فيهم وفي غيرهم من المسلمين ، ولا يمتسبن إليك أمر فيه صلاح للمسلمين ومنفعة لهم
إلا قدمته وآثرته على غيره من هوائك ، وخذ من أقويانهم لضعفائهم ، ولا تحمل عليهم في

(١) ذكرها المسعودي (مروج الذهب ج ٢ ص ٣٤٥) مارية وذكرها الطبري ج ١١ ص ٩
والسيوطي ص ٢٢٢ ماردة . (٢) الطبري ج ١٠ ص ٢٩٤ .

شيء ، وأنصف بعضهم من بعض بالحق بينهم ، وقرَّبهم وتأمَّنهم (١) ، وعجَّل الرحلة عنى والقدوم إلى دار ملكك بالعراق ، وانظر هؤلاء القوم الذين أنت بساحتهم ، فلا تغفل عنهم في كل وقت . والخرمية فاغزهم ذا حزيمة وصرامة ، واكتشفه بالأموال والسلاح والجنود ، من الفرسان والرَّجالة ، فإن طالبت مدتهم ، فتجرد لهم بمن معك من أنصارك وأوليائك ، واعمل في ذلك مقدِّم النية فيه ، راجياً ثواب الله عليه .

وقد بويع المعتصم يوم وفاة أخيه المأمون في التاسع عشر من شهر رجب سنة ٢١٨ هـ ، ورفض الجند أن يدخلوا في طاعته في مبدأ الأمر ، وأرادوا تولية العباس بن المأمون ، ولكنّه أسرع إلى مبايعة عمه بالخلافة ، احتراماً لوصية أبيه ، لحذا الجيش حذوه (٢) .

وقد وصف صاحب كتاب الفخرى (٣) المعتصم في هذه العبارة : « كان المعتصم سديداً الرأي ، شديد المُنّة ، يحمل ألف رطل ويمشي بها خُطُوات ، وكان موصوفاً بالشجاعة ، وسمى المُستَمَن من أحد عشر وجهاً : هو الثامن من ولد العباس ، والثامن من الخلفاء ، وتولّى الخلافة وعمره ثمانى عشرة سنة ، وكانت خلافته ثمانى سنين وثمانية أشهر ، وتوفى وله ثمان وأربعون سنة ، وولد في شعبان ، وهو الشهر الثامن ، وخلف ثمانية ذكور وثمانى بنات ، وغزا ثمانى غزوات ، وخلف ثمانية ألف ألف درهم . »

الفتن والثورات :

اتبع المعتصم وصية أخيه المأمون في حمل الناس على القول بخلق القرآن ، مع أنه لم يكن له حظ من العلم يجعله ذا رأى في مثل هذه المسألة ، وإنما كان ينفذ وصية المأمون ، وزاد عليه في إلحاق الأذى بكل من يعترف بذلك من العلماء وأهل الرأي : فأهان أحمد بن حنبل أهانةً بالغة وسجنه ، وأصبح كل عالم أو قاض هدفاً لخطر الضرب بالسياط والتعذيب ، إذا لم يأخذ برأى المعتزلة في القول بخلق القرآن (٤) .

ولم تكن سياسة المعتصم نحو العلويين أقل شدة من سياسة الخلفاء العباسيين قبله ، إلا إذا استثنينا المأمون . فقد ذكر المسعودى أن المعتصم تخلص من محمد الجواد بن على الرضا ، الذى كان المأمون قد زوجه ابنته أم الفضل ، ولكنّه مات بعد وصوله إلى بغداد في سنة ٢١٩ هـ ، فاتهمت زوجته بدس السم له . وقد يكون ذلك بإيعاز المعتصم نفسه ، خشية أن تحدّثه نفسه بالمطالبة بالخلافة ، لأن أولاده من سلالة المأمون ، ولأن أباه علياً الرضا قد ولاه المأمون العهد قبل وفاته ، وبذلك تتول الخلافة إلى أبيه ، ثم إليه من بعده (٥) .

كذلك خرج على المعتصم محمد بن القاسم بن على بن عمر بن على بن الحسين بن على ،

(١) وردت في الطبرى ج ١٠ ص ٢٩٤ ، وتأفهم .

(٢) الطبرى ج ١٠ ص ٣٠٤ . (٣) ص ٢٠٩ — ٢١٠ .

(٤) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٣٤٩ . (٥) نفس المصدر ج ٢ ص ٣٤٨ .

فقد أثار في نفس المعتصم المخاوف التي أثارها محمد بن علي الرضا من قبل . ولكنه رحل عن الكوفة إلى خراسان فرارا من بطش المعتصم به ، وانضم إليه كثير من أهلها ، وحارب جيوش الخليفة العباسي في كثير من المواقع ، حتى حمله عبد الله بن طاهر إلى المعتصم ، فحبسه بسامرا . وقد اختلف الناس في وفاته : فهم من قال إنه مات مسموما ، ومنهم من قال إن بعض شيعته أخرجوه من مكانه وذهبوا به إلى مكان ما ، ومنهم من زعم أنه حتى لم يميت ، وأنه المهدي المنتظر ، وأكثرت بناحية الكوفة وبلاد طبرستان وجبال الديلم ^(١) .

ومن المصاعب التي واجهت المعتصم في خلافته وهددت مرافق دولته ، فتنة الهنود المعروفين بالزط ، الذين استولوا على طريق البصرة ، وفرضوا المكوس الجائرة على السفن ، ثم حالوا دون وصول المنون والاقوات إلى بغداد .

وقد ندب المعتصم عجيف بن عَنَسْبَسَة — أحد القواد من العرب — فعسكر بالقرب من واسط ، وسد الأنهار عليهم ، وأحاط بهم من كل جانب ، وقتلهم تسعة أشهر ، ثم أرغمهم على طلب الأمان . وكان عددهم سبعة وعشرين ألفا ، بين رجال ونساء وأطفال ، فحملهم عجيف في السفن ، ودخل بهم بغداد يوم عاشوراء من سنة ٢٢٠ هـ ، فشاهدهم المعتصم ورجال دولته ، ثم أمر بهم فنقوا إلى آسيا الصغرى ، وظلوا هناك إلى أن أسرهم البيزنطيون سنة ٢٤١ هـ . ومن ثم وجدوا طريقا إلى أوربا ، وعرفوا هناك باسم Gypsies أو النُّور ، ويقيمون عادة في خارج المدن ^(٢) .

وكان من أثر السياسة التي سار عليها المعتصم في الاستعانة بالأتراك ، وإجزاله الهبات والعطايا لهم دون غيرهم ، أن دبَّ في نفوس العرب ديب الغيرة والحسد لهؤلاء الأتراك ، وقام عجيف ، ذلك القائد العربي الذي أبلى بلاء حسنا في محاربة الزط ، بثورة على قواد الترك الذين أساموا معاملة العرب ، بل عزم على التخلص من المعتصم نفسه ، فأغرى العباس بن المأمون بالخروج على عمه والمطالبة بعرشه . ودخل قواد العرب في حلبة هذه المؤامرة ، وانفقوا على قتل المعتصم والأفشين وأشناس إذا تم توزيع الغنائم التي استولى عليها المسلمون من البيزنطيين في موقعة عمشورية المشهورة .

على أن خبر هذه المؤامرة قد تسرب إلى المعتصم ؛ فقد لعبت الخريوما بلب العباس ولب بعض المتآمرين ، فأفضوا بسر المؤامرة إلى المعتصم ، فنع الماء عن العباس حتى مات ولحق به عجيف ^(٣) .

وبذلك قضى المعتصم على هذه المحاولة في مهدها ، ولكنه لم يتخلص من سوء أثرها ، فقد

(١) الطبري ج ١٠ ص ٣٠٥ ، والمسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٣٤٨ — ٣٤٩ .

(٢) الطبري ج ١٠ ص ٣٥٦ ، Muir: The Caliphate, p. 514 .

(٣) الطبري ج ١٠ ص ٣٤٤ .

أوقعته في أيدي قواده الأتراك ، وأدت إلى إقصاء قواد العرب والفرس تدريجياً وإسقاطهم من ديوان العطاء . يقول ميور في كتابه The Caliphate (١) « وما زاد هذه الحالة سوءاً أن الأتراك أنفسهم لم يكونوا جادين في إخلاصهم للخليفة ، فقد تغلبت على نفوسهم عوامل الرغبة في انتزاع السلطة ، وغدا الخلفاء في أثناء وجود البلاط العباسي في سامرا الأعياب في أيدي قواد الأتراك » .

ومن الحوادث الهامة التي وقعت في عهد المعتصم فتح عبورية وهدمها ، والثورات التي أشعلها بآبك الخُرَّمي ومازيار والأفشين ، على ما سيأتي مفصلاً في الباب الثالث ، وتأسيس مدينة سامرا التي اتخذها حاضرة لدولته (الباب السابع) .

وكان لاعتماد المعتصم على الأتراك أثر سيئ في نفوس العرب كما رأينا ، فثاروا في بلاد الشام تحت زعامة أبي حرب المبرقع اليماني ، الذي أشعل نار الفتنة في فلسطين قبل موت المعتصم بقليل ، بسبب دخول أحد الجنود في داره وهو غائب . فلما عاد وعلم بالخبر قتل هذا الجندي ، وخاف على نفسه فلبس برقعاً وهرب إلى بلاد الأردن ، حيث أخذ يحرض الناس على الخليفة المعتصم . « وكان يزعم أنه أموي ، فقال الذين استجابوا له : هذا هو الشفيعاني . فالتف حوله كثير من أهالي هذه البلاد ، وخاصة اليمانية ، فأرسل إليه المعتصم قائده رجاء بن أيوب الحضاري في زهاء ألف رجل من الجنود . فلما سار رجاء إليه وجده في عالم من الناس ، فذكر الذي أخبرني بقصته أنه كان في زهاء مائة ألف ، فكره رجاء مواقعه وعسكر بجذاته ، وطاوله حتى كان أول عمارة الناس الأرضين وحرائثهم ، وانصرف من كان من الحرائث مع أبي حرب إلى الحرائث ، وأرباب الأرضين إلى أرضهم » ، وبقي أبو حرب في نفر قليل ، فأحل به قائد المعتصم الهزيمة ، وأمره ، وجاء به إلى سامرا (٢) .

كذلك أثار الأكراد الفتنة في بلاد الموصل على يد جعفر الكردى ، فبعث إليهم المعتصم إيتاخ أحد قواد الأتراك فقاتله (في المحرم سنة ٢٢٧ هـ) ، ثم وثب أحد أصحاب جعفر به فقتله ، وذلك في أوائل خلافة الواثق (٣) .

صفات المعتصم :

حكم المعتصم الدولة العباسية حكماً استبدادياً مقروناً بشيء من العطف وحسن التدبير ، حتى وصفه المسعودي بحسن السيرة واستقامة الطريقة (٤) .

وكان المعتصم شقيقاً بالفقراء والضعفاء ، محباً للبذل : رأى شيخاً ضعيفاً في يوم مطير قد غاص حماره في الوحل ، وسقط ما عليه من الشوك الذي يستعمله أهل العراق في التدفئة ، فأخرج الحمار من الطين ، وحمل الشوك فوضعه عليه ، ثم غسل يديه في غدير ، واستوى على

(١) p. 517. (٢) الطبري ج ١١ ص ٥ — ٦ .

(٣) الطبري ج ١١ ص ٦ . (٤) مروج الذهب ج ٢ ص ٣٥٦ .

دأبته ، ولحق به حرسه بخيولهم ، بعد أن أمر بعض خاصته أن يعطى هذا الشيخ أربعة آلاف درهم .

وقد علق ميور^(١) على هذه الحكاية موازنا بين ما فعله المعتصم في هذه الحادثة ، وما فعله في مدينة عمورية التي انتصر فيها على البيزنطيين ، فقال : « ولقد رأى المعتصم من الشرف أن يضحي بمدينة زاهرة يبلغ سكانها مائتي ألف نسمة ، وتقدر ثروتها بالملايين . ومع ذلك فقد نزل هذا الخليفة عن صهوة جواده ، ولوث رداه ، ليخلص شيئا ضعيفا قد وقع حماره في حفرة من الطين . وأى هذه الأفعال قد ذكرها بالسرور والغبطة حين ناداه ملك الموت ؟ » . وقد أصيب المعتصم في آخر أيامه بمرض قضى عليه لإحدى عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول سنة ٢٢٧ هـ ، فرثاه وزيره محمد بن عبد الملك الزيات بقوله :

قد قلت : إذ غيبوك واصطفقت عليك أيد بالترب والطين
أذهب فنعم الحفيظ كنت على الدنيا . ونهـم الظهير للدين
ما يحـب الله أمة فقدت مثلك إلا بمثل هارون^(٢)

الوائق

٢٢٧ — ٢٣٢ هـ = ٨٤٢ — ٨٤٧ م

ولد هارون الواثق بالله بن المعتصم في شهر شعبان سنة ١٨٦ هـ ، وأمه أم ولد رومية يقال لها قراطيس . وكان الواثق منذ حداثة راجع العقل ، بصيراً بتصرف الأمور سياسياً ماهراً ، موصوفاً بكثير من الخلال التي جعلت أباه يعتمد عليه في أثناء غيابه عن مقر خلافته ، فتركه في بغداد سنة ٢٢٠ هـ حين سار لبناء مدينة سامرا التي اتخذها قاعدة لخلافته ، كما أنابه عنه سنة ٢٢٣ هـ في استقبال الأفشين بعد رجوعه منتصراً في حرب بابك الخرمي ، وعهد إليه بفتح عمورية .

ولى المعتصم ابنه الواثق عهده ، وولى الخلافة في شهر ربيع الأول سنة ٢٢٧ هـ ، واقتدى بأبيه في الاعتماد على الأتراك الذين كثر عددهم وشغلوا المناصب العالية في الدولة ، فولى أشناس التركي السلطة ، وتوجه بتاج مرصع بالجواهر . وقد علق السيوطي^(١) على ذلك بقوله : « وأظن أنه أول خليفة استخلف سلطاناً ، فإن الترك إنما كثروا في عهد أبيه » .

الأحوال الداخلية :

وفي أوائل عهد الواثق ثارت القيسية بدمشق وحاصروا واليها ، فأرسل إليهم جيشاً

(٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٢٥ .

(١) The Caliphate, p. 519.

(٣) تاريخ الخلفاء ص ٢٢٦ .

بقيادة رجاء بن أيوب ، فانتصر عليهم في مرج راهط ، وقتل منهم نحو ألف وخمسمائة ، وانهزم الباقون وعاد الأمن إلى نصابه ^(١) .

ذكر الطبري أن بني سليم وغيرهم من البدو عاثوا فساداً في بلاد الحجاز ، فنهبوا الأسواق ، وامتد أذاهم إلى كثير من الناس ، وقطعوا الطرق ، وأوقعوا بجند والى المدينة المنورة ، فأرسل إليهم الوراق في شهر شعبان سنة ٢٣٠ هـ جيشاً بقيادة بُغَا الكبير أحد قواد الأتراك ، فقتل منهم نحو خمسين رجلاً ، وأسر مثلهم ، وقبض على نحو ألف رجل منهم ممن عرفوا بالشر والفساد وحبسهم بالمدينة . ثم سار لإخضاع بني مُرَّة بعدن ، فحاول هؤلاء الخروج من حبسهم وثاروا في المدينة ، فأحاط بهم أهلها وقتلوهم عن آخرهم . ثم عاد بغا إلى سامرا بعد أن أقر الأمن في جزيرة العرب الشمالية ، واشتبك على غير جدوى في عدة حروب مع القبائل المناوئة للخلافة في أواسط هذه البلاد وجنوبها .

وقد سار الوراق على سياسة أبيه المعتصم في الانتصار للبعثية ، وتشدد في فرض آرائه الدينية على الناس . مما أدى إلى إثارة خواطر أهل بغداد ، فتآمروا عليه . وكان أحمد بن نصر رأس هؤلاء الساخطين الذين أنكروا القول بخلق القرآن ، وحملوا على الوراق حملة شعواء ، ودعوا إلى عزله ، فالتف حوله كثير من أنصاره ، وعينوا يوماً ينفذون فيه مؤامرتهم ، على أن يضربوا الطبول في الليلة السابقة لذلك اليوم . بيد أن الرجلين اللذين عهد إليهما تنفيذ ذلك الأمر أكثر من شرب الخمر في تلك الليلة ، وأخذ الفريق الذي رابط على الجانب الشرقي يدق الطبول ، فلم يجهم أصحابهم الذين رابطوا في الجانب الغربي . وكشفت المؤامرة قبل أن يستفحل خطرهما ، وقبض على أحمد بن نصر وأعوانه ، وسيقوا إلى الخليفة الوراق بسامرا قاعدة خلافته ، فعقد لهم مجلساً للمناظرة . وطرح مسألة الشغب والخروج على الخلافة جانباً ، وناظر الخليفة أحمد بن نصر في مسألة خلق القرآن فقال له : يا أحمد ! ما تقول في القرآن ؟ قال : كلام الله ، قال : أم مخلوق هو ؟ قال : هو كلام الله ، قال : فما تقول في ربك أترام يوم القيامة ؟ قال : يا أمير المؤمنين جاءت الآثار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر لا تضامون في رؤيته ، فنحن على الخبر » فقال الوراق لمن حوله : ما تقولون فيه ؟ فقال القاضي عبد الرحمن بن اسحق : هو حلال الدم ، وقال غيره . اسقني دمه يا أمير المؤمنين ، ووافقه الحاضرون إلا ابن أبي دؤاد قاضي القضاة فإنه قال : يا أمير المؤمنين ، كافر يستتاب لعل به عاهة أو تغير عقل ، فقال الوراق : إذا رأيتموني قد دقت إليه ، فلا يقوم أحد معي ، فاني أحسب خطاي إليه ؛ ودعا بالصمصامة ، سيف عمرو بن معد يكرب الزبيدي ، ذلك الفارس العربي الذي ذاع صيت سيفه ، وكان قد أهدى إلى الخليفة الهادي العباسي وورثه خلفاؤه ، وضربه على عنقه ورأسه ، وضربه أحد خاصته فقطع عنقه ، وحز رأسه ، وحمل إلى

بغداد ، و صلب في الجانب الغربي أياما ، وفي الشرق أخرى ، ووضعت في أذنه رقعة فيها :
« هذا رأس الكافر المشرك الضال احمد بن نصر بن مالك من قتلته الله تعالى على يدي عبد الله
هارون الإمام الوائق بالله أمير المؤمنين ، بعد أن أقام عليه الحجة في خلق القرآن ونفى التشبيه
وعرض عليه التوبة ، ومكث من الرجوع إلى الحق ، فأبى إلا المعاندة والتصريح والحمد لله الذي
عجل به إلى ناره وأليم عقابه » (١) .

وقد تمتع ولاية الأقاليم في عهد الوائق بنفوذ كبير ؛ فكان عبد الله بن طاهر بن الحسين
يدبر شئون ولاية خراسان وطبرستان وكرمان ، وأسند هذا الخليفة لأشناس التركي أعمال الجزيرة
والشام ومصر والمغرب ، فولى عليها ولاية من قبله ، وهو مقيم بسامرا مركز الخلافة .
وكان الضعف والتحكم يشوب لإدارة الوائق . فقد سأل أحد جلسائه ليلة أن يقص عليه
قصة نكبة البرامكة على يد جده الرشيد ؛ فلما سمع القصة ، وعرف كيف انتزع الرشيد منهم
الأموال قال : صدق والله جدى ، إنما العاجز من لا يستبد . ولم يمض أسبوع واحد حتى أوقع
بكتابه وأخذ من كل منهم مبلغا يتراوح بين أربعة عشر ألفا وألف ألف دينار . ومن هنا
نقف على مبلغ تفشى الرشوة والفساد بين رجال الدولة في ذلك العهد (٢) .

وقد ذكر المسعودى (٣) أن أحمد بن أبي دؤاد المعتزلى ومحمد بن عبد الملك الزيات الوزير
قد غلبا على الوائق ، فكان لا يصدر إلا عن رأيهما ، وقلدهما الأمر وفوض إليهما ملكه .

وقد ذكر المسعودى (٤) أيضا وصف أحد الأعراب رجال الدولة في عهد الوائق فقال :
« ذكر أبو تمام حبيب بن أوس الطائى الجاسمى (نسبة إلى جاسم وهي قرية من أعمال دمشق بين
بلاد الأردن ودمشق بموضع يعرف بجاسم على أميال من الجابية) قال : خرجت في أيام
الوائق إلى سُرَّ من رأى ، فلما قربت منها لقينى أعرابى ، فأردت أن أعلم خبر العسكر منه
فقلت : يا أعرابى ، من أنت ؟ قال من بنى عامر ، قلت : كيف علمك بعسكر أمير المؤمنين ؟ قال
قتل أرضا عالمها ، قلت : ما تقول فى أمير المؤمنين ؟ قال وثق بالله فكفاه ، أشجى القاصية
وقسم العادية ، ورغب عن كل ذى جنابة . فقلت : فما تقول فى أحمد بن أبي دؤاد قال : هضبة
لا ترام ، وجبل لا يضام ، تُشجِّد له المئدى ، وتُنصب له الجبائل ، حتى إذا أقبل كان قد
وثب وثبة الذئب ، وختل ختلة الضب . قلت : فما تقول فى محمد بن عبد الملك الزيات ؟ قال :
وسع الدانى شره ، ووصل إلى البعيد ضره ، له فى كل يوم صريع لا يرى فيه أثر ناب ولا
مخلَّسب . قلت : فما تقول فى عمرو بن فرج ؟ قال ضخم نهم ، استعذب الدم ، بنصبه اللوم

(١) الطبرى ج ١١ ص ١٠ — ١٢ .

(٢) ج ٢ ص ٣٥٦ — ٣٥٧ .

(٣) الطبرى ج ١١ ص ١٧ — ١٨ .

(٤) مروج الذهب ج ٢ ص ٣٥٦ .

ترسا للدعاء . قلت : فما تقول في الفضل بن مروان ؟ قال رجل نُبش بعد ما قُبر ، ليس تعد له حياة في الأحياء ، وعليه خفة الموتى . قلت : فما تقول في الوزير ؟ قال تخاله كبش الزنادقة ، أما تراه إذا أخله الخليفة سمين ورثع ؟ وإذا هزّه أمطر فأمرع ؟ قلت : فما تقول في أحمد ابن الحنبل ؟ قال : ذاك أكمل أكلة سنهم ، فزرق زرقه بشم . قلت : فما تقول في إبراهيم أخيه ؟ قال : أموات غير أحياء ، وما يشعرون أياهم يشبعون . قلت : فما تقول في أحمد بن إسرائيل ؟ قال : لله دره ، أى فاعل هو ؟ وأى صابر هو ؟ أعد الصبر دثارا أو الجود شعارا ، وأهون عليه بهم . قلت : فما تقول في المصطفى بن أيوب ؟ قال : ذاك رجل خير ، نصيح السلطان ، عفيف اللسان ، سلم من القوم وسلبوا منه . قلت : فما تقول في إبراهيم بن رباح ؟ قال : ذاك رجل أوثقه كرمه ، وأسلبه فضله ، وله دعاء لا يسلبه ، ورب لا يتخذله ، وفوقه خليفة لا يظلمه . قلت : فما تقول في الحسن ابنه ؟ قال : ذاك عود نضار غرس في منابت الكرم ، حتى إذا اهتز حصوده . قلت : فما تقول في نجاح بن سبرة ؟ قال : لله دره ، أى طالب وتر ، ومدرك سنار ، يلمب كانه شعلة نار ، له من الخليفة في الأحيان جلسة تزيل نعما ، وتحل نقما . قلت : يا أعرابي أين منزلك حتى آتيك ؟ قال ، اللهم غفرا ، مالى منزل ، أنا أشتعل النهار ، وألتحف الليل ، فحينما أدركنى الرقاد رقدت . قلت : فكيف رضاك عن أهل العسكر ؟ قال : إن أعطوني لم أحمدهم ، وإن ضيعوني لم أذمهم ، وإنى كما قال هذا الغلام الطائي :

وما أبالى وخير القول أصدقه حقنت لى ماء وجهى أو حقنت دى
قلت : فأنا قائل هذا الشعر . قال أأنتك أنت الطائي ؟ قلت : نعم . قال لله أبوك ، وأنت القائل :

ما جود كفك إن جادت وإن بخلت من ماء وجهى وقد أخلقته عرض ؟

صفات الواثق :

كان الواثق لا يبارى في علمه وأدبه ، حتى سمي المأمون الأصغر لأدبه وفضله^(١) . وشغف بالوقوف على آراء العلماء والحكماء ، فطلب من حنين بن إسحق أن يؤلف كتابا يذكر فيه الفرق بين الغذاء والدواء والمسهل وآلات الجسد ، فألفه وسماه « كتاب المسائل الطبيعية »^(٢) .

وقد أفرد الواثق مجلسا للناظرة في قصره ، مقتفيا في ذلك أثر عمه المأمون . ويحدثنا المسعودي^(٣) أن الواثق سأل العلماء مرة في الزهد ، فأفاضوا القول فيه . ثم طلب إليهم أن

(١) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٢٧ . (٢) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٣٦٦ .

(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ٣٦٨ .

يخبره كل منهم عن أحسن ما سمع من أقوال الحكماء الذين حضروا وفاة الاسكندر ، فقال أحدهم
يا أمير المؤمنين ! كل ما ذكروه حسن ، وأحسن ما نطق به من حضر ذلك المشهد من الحكماء .
« دوجانس » ، فقال إن الاسكندر أمس أنطق منه اليوم ، وهو اليوم أوعظ منه أمس .
وقد نظم أبو العتاهية شعراً تمثل فيه هذه الحكمة فقال :

كفى حزنا بدفئك ثم أنى نفضت تراب قبرك من يديا
وكانت في حياتك لي عظات وأنت اليوم أوعظ منك حيا
وكان الواثق شاعرا يقول الشعر ، ويجزل العطاء للشعراء الذين زخر عصره بكثير منهم .
ومن هؤلاء أبو تمام الذى مهد طريق الحكم والأمثال لآبى الطيب المتنبي وأبى العلاء المعرى .
وقد مدحه على بن الجهم في قصيدة طويلة ننقل منها هذه الآيات :

قد فاز ذو الدنيا وذو الدين بدولة الواثق هارون
أفاض من عدل ومن نائل ما أحسن الدنيا مع الدين
قد عم بالإحسان في فضله فالتاس في خفض وفي لين
ما أكثر الداعي لها بالبقا وأكثر التالى بآمين

وقال على بن الجهم أيضا :

وثقتُ بالملك الواثق بالله النفوسُ
ملكٌ يشقى به الممالِك ولا يشقى الجليسُ
أنس السيف به واستوحش العلق النفيسُ
أسدُّه تضحك عن شدَّاته الحرب العبوسُ
بابني العباس يا بني الله إلا أن تسوسوا

وقد حكم الواثق الدولة العباسية أقل من ست سنين ، ولم يول عهده أحدا . وسئل في مرض
الموت أن يوصى بالخلافة لولده ، فلم يقبل وقال : « لا أتحمّل أمركم حيا وميتا » .
وتوفى الواثق في شهر ذى الحجة سنة ٢٣٢ هـ . وبموته انتهى العصر الذهبي للدولة العباسية ،
وذلك نتيجة طبيعية لهذه السياسة التى سار عليها أبوه المعتصم ، الذى اعتمد على الأتراك ،
وأحلام محل العرب ، وماجره هؤلاء من إثارة خواطر الأهلىين ، بسبب تمسكهم بالبدع الدينية .

الباب الثالث

الحركات السياسية والدينية

١ - حالة الأحزاب السياسية عقب قيام الدولة العباسية

(١) إسراف العباسيين في التمثيل ببني أمية :

تتبع السفاح البقية الباقية من بني أمية وأنصارهم . ويخيل إلينا أنه إنما لجأ إلى هذه السياسة ، لما كان يضمره بنو هاشم لبني أمية من عداوة منذ أيام الجاهلية ؛ والعداء بين بني أمية وبني هاشم باقى الأثر ، لم يزد فى الإسلام إلا تفاقفا وازديادا . أضف إلى ذلك ما كان من تأثير الشعراء ورجال البلاط فى إذكاء نيران هذا العداء ، وما قام به بنو أمية من سفك دماء أهل البيت حين كان لهم السلطان .

وقد ذكر المؤرخون أن العباسيين أخذوا بثأر إبراهيم الإمام ، قتل حران فى عهد مروان ابن محمد آخر خلفاء بني أمية ، فقتل عبد الله بن عليّ عم السفاح نحو ثلثمائة من بني أمية ، منهم إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك أخو يزيد الناقص ، وذلك فى شهر جمادى الآخرة سنة ١٣٢ هـ ، ثم قبض على يزيد بن معاوية بن عبد الملك وعبد الجبار بن يزيد بن عبد الملك ، وبعث بهما إلى أبي العباس فقتلهما وصلبهما ، ثم قتل ، وهو على نهر أبي فطرس بفلسطين ، خلقا كثيرا من بني أمية . وقتل سليمان بن يزيد بن عبد الملك بالبلقاء وحمل رأسه إلى عبد الله ابن عليّ .

يقول المسعودى (١) : « ولما قتل عامر بن اسماعيل مروان ، وأراد الكنييسة التي فيها بنات مروان ونساؤه ، إذا بخادم لمروان شاهر السيف ، يحاول الدخول عليهن ؛ فأخذوا الخادم ، فستل عن أمره فقال : أمرني مروان إذا هو قتل أن أضرب رقاب بناته ونسائه . فلا تقتلوني ، فإنكم والله إن قتلتموني ليفقدن ميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا له أنظر ما تقول ، قال : إن كذبت فاقتلوني ، هلبوا فاتبعوني ، ففعلوا فأخرجهم من القرية إلى موضع رمل ، فقال : اكشفوا هنا ، فكشفوا ، فإذا البرد والقضيب ومخصر قد دفنها مروان لئلا تصير إلى بني هاشم ، فوجه بها عامر بن اسماعيل إلى عبد الله بن عليّ ، فوجه بها عبد الله إلى أبي العباس السفاح ، فتداولت ذلك خلفاء بني العباس إلى أيام المقتدر . » (٢٩٥ - ٣٢٠ هـ) .

« ولما احتز عامر رأس مروان واحتوى على عسكره ، دخل الكنيسة التي كان فيها مروان ، فقعده على فرشه وأكل من طعامه ، فخرجت إليه ابنة مروان الكبرى ، وتعرف بأُم مروان فقالت : يا عامر إن دهرًا أنزل مروان عن فرشة حتى أقعدك عليها فأكلت من طعامه واحتويت على أمره ، وحكمت في مملكته ، لقادر أن يغيّر ما بك . ثم وجه عامر بنات مروان وجواريه والأسارى إلى صالح بن علي . فلما دخلن عليه تكلمت ابنة مروان الكبرى فقالت : يا عم أمير المؤمنين حفظ الله لك في الدنيا والآخرة . نحن بناتك وبنات أخيك ، فليسمعنا من عفوك ما وسعكم من جورنا ، قال إذا لا نستبقى منكم أحدا رجلا ولا امرأة ، ألم يقتل أبوك بالأمس ابن أخى إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس الإمام في محبسه بخران ؟ ألم يقتل هشام بن عبد الملك زيد بن علي بن الحسين بن علي وصلبه في كناسة الكوفة ، وقتل امرأة زيد بالخيرة على يد يوسف بن عمر الثقفي ؟ ، ألم يقتل الوليد بن يزيد يحيى بن زيد وصلبه بخراسان ؟ ألم يقتل عبيد الله بن زياد المدعى مسلمة بن عقيل بن أبي طالب بالكوفة ؟ ألم يقتل يزيد بن معاوية الحسين بن علي بن علي بن سعد مع من قُتل بين يديه من أهل بيته ؟ ألم يخرج بحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم سبايا حتى ورد بهم على يزيد بن معاوية ، وقبل مقدمهم بعث إليه برأس الحسين بن علي قد نصب دماغه على رأس رمح يطاف به كور الشام ومدائنهما ، حتى قدموا به على يزيد بدمشق ، كما نأى بعث إليه برأس رجل من أهل الشرك ؟ ثم أوقف حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم موقف السبي يتصفحهن جنود أهل الشام الجفاة الطغام ، وبطلبون منه أن يهب لهم حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، استخفافا بحقه صلى الله عليه وسلم ، وجرأة على الله عز وجل وكفرا لأنعمه ؟ فما الذى استبقيت منا أهل البيت لو عدلتم فيه علينا ؟ قالت : يا عم أمير المؤمنين ، وليسمعنا عفوك إذا . قال أما العفو فنعم ، قد وسعكم ، فإن أحببت زوجتك من الفضل بن صالح بن علي ، وزوجت اختك من أخيه عبد الله بن صالح . فقالت : يا عم أمير المؤمنين أى أوان عرس هذا ؟ بل تلحقنا بخران . قال : إذن أفعل ذلك بكم إن شاء الله . فألحق بخران ، ففعلت أصواتهن عند دخولهن بالبكاء على مروان ، وشققن جيوبهن ، وأعلون بالصياح حتى ارتج العسكر بالبكاء منهن على مروان .

ولما أتى العباس برأس مروان ، ووضع بين يديه ، سجد فأطال ، ثم رفع رأسه فقال : الحمد لله الذى لم يبق ثأرى قبلك وقبل رهطك ، الحمد لله الذى أظفرتى بك وأظهرتني عليك ، ثم قال : ما أبالى متى طرقتى الموت ، فقد قتلت بالحسين وبنى أبيه من بنى أمية مائتين ، وأحرقت شيلو^(١) هشام ، وابن عمى زيد بن علي ، وقتلت مروان بأخى إبراهيم ، وتمثل بقول الشاعر :

لو يشربون دمي لم يرو شاربهم ولا دماؤهم للغيبظ تروني

(١) الشلو من كل شيء : الجسد وهو المراد هنا ؟ والشلو أيضا : العضو جمعه أشلاء .

ثم حول وجهه إلى القبلة فأطال السجود ، ثم جلس وقد أسفر وجهه وتمثل بقول العباس
ابن عبد المطلب من أبيات له :

أبي قومنا أن يُنصفونا فأنصفت قواطعُ في أيماننا تقطر الدما
تورثن من أشياخ صدق تقربوا بهن إلى يوم الوغى فتقدما
إذا خالطت هامَ الرجال تركتها كبيض نعام في الوغى متحطاً (١)

نعم لقد كان للشعراء ورجال البلاط أثر كبير في إشعال نيران العداء ضد بني أمية ، فإن
السفاح كان جالسا في مجالس الخلافة وعنده سليمان بن هشام بن عبد الملك ، وقد أكرمه
السفاح ، فدخل عليه سديف الشاعر فأنشده :

لا يغرنك ماترى من رجال إن تحت الضلوع داء دوبا
فضع السيف وارفع السوط حتى لاترى فوق ظهرها أمويا

فالتفت سليمان وقال : قتلتنى يا شيخ ، ثم دخل السفاح ، وأخذ سليمان فقتل . ودخل على
أبي العباس شاعر آخر ، وقد قدم الطعام ، وعنده نحو سبعين رجلا من بني أمية فأنشده :

أصبح الملك ثابت الأساس بالبهليل من بني العباس
طلبوا وتر هاشم فشفوها بعد ميل من الزمان وياس
لا تقيلن عبد شمس عثارا واقطن كل رقلة (٢) وغراس (٣)
ذهبا أظهر التودد منها وبها منكم كجز المواسي
ولقد غاظني وغازي سوائى قريهم من نمارق وكراسي
أنزلوها بحيث أنزلها الله بدار الهوان والإتعاس
واذكروا مصرع الحسين وزيد وقتيلا بجانب المهراس (٤)
والقتيل الذي بحران أضحي (٥) ثاويا بين غربة وتناسي (٦)

أجل لقد أعاد إنشاد هذين الشاعرين ذكرى الماضي ، وماجره الأمويون على أنفسهم من
سخط الناس لتمثيلهم بأهل البيت . ولا زالت مأساة إبراهيم الإمام عالقة ببال الخليفة العباسي .
فماذا كان من أمر هؤلاء الأمويين بعد هذه الذكريات المؤلمة التي أعادها إلى ذاكرة السفاح
شعراء دولته ؟ أمر السفاح بسليمان بن هشام فقتل ، ثم أمر بمن كان في داره من بني أمية فضربوا

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٢١٣ . (٢) الرقل : جمع رقلة وهي النخلة فانت اليد سموقا .

(٣) ما يغرس من صفار النخل . (٤) ماء . يجبل أحد قتل عنده حمزة بن عبد المطلب ودفن .

(٥) هو إبراهيم الإمام بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس . (٦) ابن الأثير ج ٥ ص ١٧٤ .

بالسياط ، وبسط النطوع ^(١) عليهم . وجلس فوقهم فأكل الطعام وهو يسمع أنين بعضهم حتى ماتوا جميعا .

ولقد بالغ العباسيون في التنكيل ببني أمية ، فعولوا على استئصال شأفتهم ، فتعقبهم أخوه وأعمامه في البصرة والكوفة والشام ، ونبشوا قبر معاوية بن أبي سفيان ، فلم يجدوا فيه إلا خيطا مثل الهباء ، ونبشوا قبر يزيد بن معاوية فوجدوا فيه حطاما كأنه الرماد . ولما قتل أبو العباس رجال بني أمية واستصنى أموالهم واطمأن على دولته من ناحيتهم قال :

بني أمية قد أفنيت جمعكم فكيف لي منكم بالاول الماضي
يطيب النفس أن النار تجمعكم عؤصتموا من لظاها شر معتاض
منيتم لا أقال الله عثرتم بليت غاب إلى الأعداء نهاض
إن كان غيظي لفوت منكم فلقد رضيت منكم بما ربي به راضى ^(٢)

على أن روح الانتقام الذى أضمره العباسيون لبني أمية لم يفته بوفاء السفاح ، بل استمر طول العصر العباسي الأول . يقول ابن دأب ، وكان من خواص الخليفة الهادى : « دعانى الهادى وقت من الليل لم تجر العادة أنه يدعونى فى مثله ، فدخلت إليه ، فإذا هو جالس فى بيت صغير شتوى وقدامه جزء ينظر فيه ، فقال لى : يا عيسى ! قلت لبيك يا أمير المؤمنين ، قال : إني أرقى فى هذه الليلة ، وتداعت إلى الخواطر ، واشتملت على الهموم ، وهاج لى ما جرت إليه بنو أمية من بنى حرب وبنى مروان فى سفك دمائنا ، فقلت : يا أمير المؤمنين ! هذا عبد الله بن على قد قتل منهم على نهر أبى فطرس فلانا وفلانا ، حتى أتيت على تسمية من قتل منهم ، وهذا عبد الصمد ابن على قد قتل منهم بالحجاز فى وقت واحد نحو ما قتل عبد الله بن على ، وهو القاتل لسفك دمائهم :

ولقد شفى نفسى وأبرأ سقمها أخذنى بثأرى من بنى مروان
ومن آل حرب ليت شيخى شاهد سفكى دماء بنى أبي سفيان

قال ابن دأب : فسر والله الهادى وظهرت منه أريحية ، فقال يا عيسى ، داود بن على هو القاتل ما ذكرت بالحجاز ، ولقد أذكرتها حتى كأنى ما سمعتها ، فقلت : يا أمير المؤمنين ،

(١) روى السعوى عن الهيثم الطائى عن عمرو بن هانىء ، قال : خرجت مع عبد الله بن على لنش قبور بنى أمية فى أيام أبى العباس السفاح ، فاتمينا إلى قبر هشام فاستخرجناه صحيحا ما فقدنا منه إلا حشمة أفه ، فضر به عبد الله بن على ثمانين سوطا ثم أحرقه ، واستخرجنا سليمان من أرض دابق ، فلم نجد منه شيئا إلا صلبه وأضلاعه ورأسه ، فأحرقناه ، وفعلنا ذلك بغيرها من بنى أمية ، وكانت قبورهم بقنسرين . ثم اتمينا إلى دمشق ؟ فاستخرجنا الوليد بن عبد الملك فما وجدنا فى قبره قليلا ولا كثيرا ، واحتفرنا عن عبد الملك ، فما وجدنا إلا شوون رأسه ، ثم احتفرنا عن يزيد بن معاوية ، فما وجدنا فيه إلا عظما واحدا ، ووجدنا مع لحده خطا أسود كأنما خط بالرماد فى الطول فى لحده ، ثم اتبعنا قبورهم فى جميع البلدان فأحرقنا ما وجدنا فيها منهم . (٢) ابن الأثير ج ٥ ص ٢٧٥ .

وقد قيل إنهما لعبد الله بن عليّ قاهما على نهر أبي فطرس ، قال : قد قيل ذلك ، (١) . وهكذا اشتد العداء بين بني أمية وبني هاشم جاهلية وإسلاما ، وقد نهج المأمون نهج من سبقه من الخلفاء في الخط من شأن الأمويين ، حتى إنه أمر بلعن معاوية على المنابر في كافة الأمصار الإسلامية . وفي ذلك يقول المسعودي : « وأنشئت الكتب إلى الآفاق بلعنه على المنابر » . من ذلك نرى أن العباسيين لم يقفوا في معاملة بني أمية وأنصارهم عند حد التمثيل بالموتى ، ولعن بعض خلفائهم على المنابر ، فقد قتلوا الأحياء واستصفوا أموالهم ، وأثاروا كراهة العرب بتقريب الفرس إليهم . فلا عجب إذا انصرف العرب عن العباسيين ودب في نفوسهم ديب الكراهة لهم وللفرس الذين استأثروا بالسلطة دونهم ، للمالاة العباسيين لهم ، واعتمادهم على ولائهم ، فقامت الفتن والثورات في البلاد الإسلامية (٢) .

(ب) — ميل العباسيين إلى الفرس وإيثارهم بالمناصب المدنية والعسكرية — طمع الفرس في السلطان واستئنافهم الدعوة لآل عليّ .

قام الدين الإسلامي على أساس المساواة بين المسلمين كافة ، عربهم وعجمهم ؛ وأيد هذه النظرية بعض أحاديث أثرت عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وآيات وردت في القرآن الكريم ، مثل قوله عليه الصلاة والسلام : « لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى » ، ومثل قوله تعالى « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ، إنما المؤمنون إخوة ، فأصلحوا بين أخويكم . على أن الحكم ظل في حقيقة الأمر في يد العرب دون غيرهم من المسلمين ، وذلك في عهد الخلفاء الراشدين والأمويين ؛ حتى إذا قامت هذه الثورة التي انتقل بها الحكم إلى العباسيين على أيدي الفرس ، وخاصة الخراسانيين ، سنحت الفرصة لهؤلاء بالاستئثار بالسلطة وتولى الحكم ، وساعد على ذلك شدة ميل العباسيين إلى الفرس وإيثارهم بالمناصب المدنية والعسكرية . كما أن إسراف العباسيين في التمثيل ببني أمية صرف عنهم العرب كما تقدم .

قامت الدولة العباسية باسم الدين ، وعمل العباسيون على التأثير في عقول الناس عن طريق إعادة الأمر لآل محمد وإزالة سلطان بني أمية المغتصبين هذا الأمر منهم وهو الخلافة . وقد اختار الأئمة من ولد العباس أنشر دعوتهم الكوفة وخراسان اللتين كانتا مهد التشيع من قديم ، ولأن الفرس الذين دخلوا في الإسلام كانوا أقرب من غيرهم إلى التأثير بأراء الشيعة ، لأنهم لا يفرقون بين الخلافة والملك ، ومن ثم ناصروا العلويين . هذا إلى أن الفرس الذين كانت بلادهم ذات تاريخ عظيم من أقدم العصور ، والذين فرضوا سيادتهم على بعض بلاد العرب ، قد وجدوا في فشر الدعوة لآل محمد فرصة يتخلصون بها من نير الأمويين ويستردون شيئاً مما كان لهم من نفوذ وسلطان . لذلك رأوا أنهم بمساعدتهم هذه الدولة الجديدة يصبحون

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٥٨ .

(٢) نفس المصدر ج ٢ ص ٣٤٢ .

أصحاب الكلمة المسموعة فيها . ومن ثم غدا هذا النزاع في حقيقة الأمر نزاعا بين العرب والفرس ، بعد أن كان نزاعا بين بني أمية وبني العباس .

على أن نفوذ العرب قد تقلص تدريجيا ، حتى إن الفتنة التي قامت بين الأمين والمأمون لم تكن في حقيقة الأمر إلا جهادا حزبيا بين العلويين والعباسيين من ناحية ، وبين الفرس والعرب من ناحية أخرى . ولم يكن انتصار المأمون على الأمين إلا انتصارا للفرس على العرب ، وزوال حكم العرب زوالا لا رجعة بعده .

وكان من أثر ذلك الميل الذي أبداه العباسيون نحو الفرس ، وتلك الرعاية التي حاطوهم بها ، أن أصبح نظام الحكم عند العباسيين مماثلا لما كان عليه في بلاد الفرس أيام آل ساسان . قال بلبرني كتابه هارون الرشيد (١) : « ولما كان العباسيون يدينون بقيام دولتهم للنفوذ الفارسي كان طبعيا أن تسيطر الآراء الفارسية . ولهذا نجد وزيرا من أصل فارسي على رأس الحكومة ، كما نجد أيضا أن الخلافة تدار بنفس النظام الذي كانت تدار به امبراطورية آل ساسان . »

أجل لقد اتخذ الخلفاء الموالى من الخراسانيين حرسا لهم ، لاعتمادهم على موالاتهم وإخلاصهم؛ واستبد هؤلاء الخلفاء بالسلطة ، وتسلطوا على أرواح الرعية ، كما كان يفعل ملوك آل ساسان من قبل ، وظهرت الأزياء الفارسية في البلاط العباسي ، واحتجب الخليفة عن رعيته ، واتخذ الوزير والحاجب والمكاتب ، ودخلت مظاهر السلطان الفارسية قبل ظهور الإسلام بزمن طويل في بلاد الروم ، وقضت باحتجاب أباطرة الروم عن الشعب وحياتهم برجال البلاط .

وطبعي أن يميل العباسيون إلى الفرس ، الذين ساعدوهم على تأسيس دولتهم ، وقاموا في وجه أعدائهم الأمويين . وإن مثل هذا الميل إلى الفرس ، وتلك الكراهة التي أضمرها العباسيون للأمويين لتتمثل في تلك الخطب التي ألقاها داود بن عليّ وأبو جعفر المنصور ، يشيدون فيها بما أثر الفرس وما بذلوه من جهود في سبيل تأسيس الدولة العباسية ، ويتوعدون الأمويين لما اقترفوه من ذنوب ، ويمنون الفرس ، وبخاصة الخراسانيين ، بأجزاء العطايا وإدراج الأموال . من ذلك قول داود بن عليّ : يأهل الكوفة إنا والله ما زلنا مظلومين مقهورين على حقنا ، حتى أتاح الله لنا شيعتنا أهل خراسان ، فأحيا بهم حقنا وأفلج بهم حجتنا ، وأظهر بهم دولتنا ، (٢) ، وقول أبي جعفر المنصور : يأهل خراسان ، أتم شيعتنا وأنصارنا وأهل دعوتنا ، (٣) ، كما أوصى المنصور ابنه المهدي بالخراسانيين خيرا فقال : « وأوصيك بأهل خراسان خيرا ، فإنهم أنصارك وشيعتك الذين بذلوا أموالهم في دولتك

(١) Palmer: Haroun al-Raschid. (Lond., 1881), p.37—38.

(٢) الطبري ج ٩ ص ١٢٧ . (٣) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٤١ .

ودماهم دونك ، ومن لا تخرج محبتك من قلوبهم ، أن تحسن إليهم ، وتجاوز عن مسيئتهم ، وتكافئهم على ما كان منهم ، وتختلف من مات منهم في أهله وولده ، (١) .

كذلك يتمثل ميل العباسيين إلى الفرس في تلك الخطبة التي ألقاها أبو جعفر المنصور في أهل خراسان بعد أن قبض على عبد الله بن الحسن العلوي ، وهي تبين لنا مبلغ عداة العباسيين للعلويين وأشياءهم ولأنصار الأمويين ، وكيف آثروا الفرس عليهم ، واعتمدوا عليهم في تأسيس دولتهم ، وكيف عولوا على إسناد مناصب الدولة إلى الفرس .

ولما أخذ المنصور عبد الله بن الحسن وأهل بيته ، صعد المنبر بالهاشمية ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : يا أهل خراسان أتم أنصارنا وأهل دعوتنا ، ولو بايعتم غيرنا لم تبايعوا خيرا منا . إن ولد ابن أبي طالب تركناهم والذي لا إله إلا هو والخلافة ، فلم نعرض لهم لا بقليل ولا بكثير ، فقام فيها على بن أبي طالب فما أفلح وحكم الحكيم ، فاختلفت عليه الأمة واقتربت الكلمة ، ثم وثب عليه شيعته وأنصاره وثقاته فقتلوه ، ثم قام بعده الحسن بن علي رضي الله عنه ، فوالله ما كان برجل ، عرضت عليه الأموال فقبلها ، ودس إليه معاوية إنى أجعلك ولي عهدي ، فخلعه ، وانساخ له بما كان فيه وسلبه إليه . . . فلم يزل كذلك حتى مات على فراشه . ثم قام من بعده الحسين بن علي رضي الله عنه ، فخذعه أهل العراق وأهل الكوفة . . . فأسلبوه حتى قتل ، ثم قام بعده زيد بن علي ، فخذعه أهل الكوفة وغرّوه ، فلما أظهروه وأخرجوه أسلبوه . وقد كان أبي محمد بن علي ناشده الله في الخروج ، وقال له لا تقبل أقاويل أهل الكوفة ، فإننا نجد في علينا أن بعض أهل بيتنا يصلب بالكناسة ، وأخشى أن تكون ذلك المصلوب ، وناشده الله بذلك عمى داود وتحذره رحمه الله عن زاهد الكوفة فلم يقبل . . . وقتل وصلب بالكناسة . ثم وثب بنو أمية علينا ، فأما اتوا شرفنا وأذهبوا عزنا . والله ما كان لهم عندنا تسرة (٢) يطلبونها ، وما كان ذلك كله إلا فيهم وبسبب خروجهم ، فنفضونا عن البلاد ، فصرنا مرة بالطائف ، ومرة بالشام ومرة بالشرارة ، حتى ابتعثكم الله لنا شيعه وأنصارا ، فأحيا الله شرفنا ، وعزنا بكم ، وأظهر لنا حقنا وأصار إلينا ميراثنا من نبيتنا صلى الله عليه وسلم ، فقرر الحق في قراره ، وأظهر الله مناره ، وأعز أنصاره ، وقطع دابر القوم الذين ظلموا ، (٣) .

على أن الفرس ، على الرغم مما أظهره العباسيون من ميل ظاهر نحوهم ، حتى آثروهم على العرب ، فأسندوا إليهم مناصب الدولة مدنية كانت أو عسكرية ، وعلى الرغم من تأثر العباسيين بهم في اقتباس نظم الحكم عنهم ، والاقتداء بهم في مظاهر البلاط ، وفي اللباس ، وفي الاحتفال بالأعياد والمواسم — كانوا على الرغم من هذا كله لا يقنعون بما نالوه من عطف

(١) الطبري ج ٩ ص ٣١٩ .

(٢) نأر . (٣) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٤١ — ٢٤٢ .

وميل ، وما وصلوا إليه من نفوذ وسلطان ، فيعملون على التخلص من العباسيين وتحويل الخلافة إلى العلويين . وإن ميل الفرس إلى العلويين قديم كما نعلم يرجع إلى أيام الحسين ابن علي .

ولا غرو فقد شابع الفرس العلويين ، لما كانوا يعتقدونه أنهم وحدهم يملكون حق حمل التاج ، لكونهم وراثي آل ساسان من جهة أمهم شهر بانوه ابنة يزدجرد الثالث آخر ملوك هذه الأسرة ، ولأنهم الأئمة رؤساء الدين حقاً . وذلك يتفق مع معتقداتهم الدينية ، إذ كانوا ينظرون إلى ملوكهم نظرة تقديس وإكبار ، ويعتقدون أنهم ظل الله في الأرض . كما كانوا يعتقدون أن العلويين ، وبخاصة أبناء الحسين بن علي ، يمثلون حق النبوة والملك ، لأنهم من سلالة النبي وآل ساسان . وهذا يفسر لنا سبب ميل الفرس إلى العلويين ، وعملهم على تحويل الخلافة إليهم . وقد اضطلع بهذا الأمر أحد زعماء الفرس وهو أبو سلة الخلال .

كان حفص بن سليمان ، ويكنى أبا سلة الخلال^(١)، مولى لبني الحارث بن كعب ، من أهل اليسار في الكوفة ، اشتهر بالكرم وكثرة البذل لرجال الدعوة العباسية ، كما كان فصيحاً عالماً بالأشعار والسير والجدل والتفسير ، وقد اتصل بالعباسيين عن طريق صهره بكير بن ماهان كاتب إبراهيم الإمام . فلما حانت وفاة بكير أوصى الإمام بأن يعهد إلى أبي سلة بالقيام بأمر الدعوة مكانه ، فكتب إليه الإمام بذلك . فأخلص أبو سلة للدعوة العباسية ، وبذل جهده في القيام بنصرتها . وقد اتفق المؤرخون على أنه لما سبر أحوال بني العباس عزم على العدول عنهم إلى أولاد علي بن أبي طالب . ولما عزم على تنفيذ رغبته في نقل الخلافة إلى العلويين ، أرسل مع رجل من شيعة العلويين كتاباً ، وأمره أن يقصد جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي ، فإن أجاب أبطل الكتابين الآخرين ، وإن لم يجيب لقي عبد الله المحض بن الحسن بن الحسن بن علي ، فإن أجاب أبطل كتاب عمر الأشرف بن علي زين العابدين ، وإن لم يجيب قصد عمر . فذهب الرسول إلى جعفر الصادق ودفع إليه كتاب أبي سلة ، فلم يقم له وزناً ، ولم يحفل بما قدمه رجل الشيعة بخراسان للعلويين حيث قال : « مالي ولأبي سلة وهو شيعة لغيري ؟ » ، ثم وضع الكتاب على السراج فاحترق ، فسأله الرسول عن رد كتاب أبي سلة فقال له : قد رأيت الجواب .

مضى الرسول بعد ذلك إلى عبد الله المحض ، فسر بالكتاب ، وركب غداة هذا اليوم إلى جعفر الصادق وقال له : « هذا كتاب أبي سلة يدعوني فيه إلى الخلافة ، وقد وصل علي يد بعض شيعتنا من أهل خراسان » ، فقال له جعفر الصادق كلاماً يؤيد ما ذهبنا إليه من أن

(١) قيل في تلقيبه بالخلال ثلاثة أوجه : (١) لأن منزله كان قريباً من محلة الخلالين — وكان يجالسهم — فنسب إليهم ، كما نسب الغزالي إلى الغزالين لأنه كان يجالسهم كثيراً . (ب) أو لأنه كانت له حوانيت يعمل فيها الخل فنسب إلى ذلك . (ج) وقيل أيضاً إنه نسب إلى خلل السيوف وهي أعمداها .

الفرس ، أو الكثيرين منهم على الأقل ، لم يكونوا في ذلك الوقت شيعة للعلويين خاصة : «ومتى صار أهل خراسان شيعتك ؟ أنت وجهت إليهم أبا مسلم ؟ هل تعرف أحداً منهم باسمه أو بصورته ؟ فكيف يكونون شيعتك وأنت لا تعرفهم وهم لا يعرفونك ؟ وهذا كلام رجل من كبار العلويين وأعيانهم في ذلك الزمان ، وقف على مبلغ الثقة من رجال الشيعة ، وإن لم يكن عبد الله المحض قد وثق منه ، بل شك في نصحه ، ولم يحفل بما سمع عن الكتاب الذي جاءه قبله . وأما عمر بن علي زين العابدين فلم يكن منه إلا أن رد الكتاب وقال : «أنا لا أعرف صاحبه فأجيبه (١)» .

ومن هذا كله نرى أن العلويين لم يكن لهم من القوة وكثرة الأنصار ما يعبد لهم سبيل الوصول إلى الخلافة ، فلم يروا بداً من الاستكانة حتى تنهياً لهم الأحوال فيمتشقون الحسام ويقومون بطلبها . ومن هذا لا نعجب إذا فت رفض هؤلاء العلويين في عضد أبي سلبية ، وأدى إلى قتله على يد السفاح بعد أن وقف على ما دبره له ولاسرتة .

ويحكى لنا التاريخ أن السفاح لما بويع بالخلافة ، استوزر أبا سلبية على كره منه ، لمكانته من الخراسانيين ، وهم عصب الدولة ومصدر قوتها ، ولقبه وزير آل محمد . إلا أن هذا كله لم يكن مصدره حسن النية من جانب السفاح ، إذ خاف على نفسه إن هو قتله ، قام أهل خراسان يثأرون له ، فعمل على أن يتم هذا الأمر على يد أبي مسلم . وكتب إليه مع أخيه المنصور كتاباً يخبره فيه أن أبا سلبية يعمل على تحويل الخلافة إلى العلويين ، وعهد له بمعاقبته ، وباطن الكتاب يشعر بتصويب قتله ، فأرسل أبو مسلم رجالاً من أهل خراسان فقتلوه . وتخلص منه السفاح ، وأبو مسلم الذي كان يكرهه ويحقد عليه مقامه . وبذلك هيا أبو مسلم سبيل قتله بنفسه ، فقد عول السفاح على التخلص منه ، إلا أن منيته حالت دون ذلك .

ولكن ميل الفرس إلى العلويين لم يخدم بقتل أبي سلبية الخلال ، فقد كانوا يناصرون كل علوى يعمل على الخروج على العباسيين . ومن أحسن الأمثلة التي تؤيد هذا الرأي محاولة جعفر ابن يحيى البرمكي تخليص يحيى بن عبد الله العلوى في عهد هارون الرشيد ، وما قام به الفضل بن سهل وزير المأمون في خراسان من تحويل الخلافة من العباسيين إلى العلويين حيث حمل المأمون على أن يولى عهده على الرضا ، وأن يتخذ الخضره شعار العلويين بدل السواد شعار العباسيين شعاراً رسمياً لدولته .

(ح) خرج مركز العباسيين أيام المنصور بين الساخطين من العرب وعلى رأسهم عم المنصور عبد الله بن علي ، والساخطين من الفرس وعلى رأسهم أبو مسلم الخراساني . عمل العباسيون في مستهل دولتهم عن التخلص من بني أمية ، فأمر فوا في قتلهم والتمثيل بهم ،

مدفوعين في ذلك بما أضمره الأمويين من ذلك العداء القديم الذي بقيت آثاره بعد ظهور الإسلام . ومال العباسيون إلى الفرس ميلا شديداً ، فقرّبوهم إليهم وأثروهم على العرب بالمناصب المدنية والعسكرية ، مما أوغر صدور العرب من ناحية العباسيين . على أن الفرس لم يقنعوا بما نالوه من أثره ، وما تمتعوا به من نفوذ وسلطان في ظل العباسيين ، الذين أنقذوهم من نير الأمويين ، ومالوا إلى آل علي ، وخاصة أولاد الحسين بن علي ، لأنهم يجمعون ، كما نعلم ، بين أشرف دم عربي وأشرف دم فارسي . هذا إلى مناوأة عبد الله بن علي عم المنصور الذي بدأ يناوئه السلطان ، ويؤلب الناس عليه ، ويعمل على اغتصاب الخلافة منه .

لذلك ساء موقف المنصور بين الساخطين من العرب ، وعلى رأسهم عمه عبد الله بن علي ، والساخطين من الفرس ، وعلى رأسهم أبو مسلم الخراساني . أضف إلى ذلك خروج العلويين وعلى رأسهم محمد النفس الزكية وأخوه إبراهيم في الحجاز والعراق ، كما سيأتي .

ذلك أنه لما مات أبو العباس السفاح ، ولي الخلافة أبو جعفر المنصور . ولما اتصل بعمه عبد الله بن علي خبر وفاة أبي العباس أمر مناديا فنادى في الجند : الصلاة جامعة ، فاجتمع إليه القواد والجند ، وقرأ عليهم كتاب عيسى بن موسى الذي ولاه السفاح عهده بعد أبي جعفر ، ودعا إلى نفسه ، وادعى أن أبا العباس لما أراد توجيه الجند لقتال مروان بن محمد قال لهم : « من انتدب منكم للمسير إليه فهو ولي عهدي ، وأنه لم ينتدب لهذا الأمر أحد غيري » . ويقال إن القواد بايعوا عبد الله ، وكان بموضع يقال له دلوك بنواحي حلب ، وأنه رحل إلى حران الواقعة على طريق الموصل والشام ، وطلب إلى واليها مبايعته فأبى ، فهزمه وقتله . ولما بلغ أبا جعفر أن عبد الله قد شق عصا الطاعة ، ندب أبا مسلم لقتاله فقال له ، لاحتفه فأنا أكفيك إن شاء الله ؛ إنما عامة جنده من أهل خراسان وهم لا يعصوني . وضم أبو جعفر إلى أبي مسلم نخبة من مشهورى قواد العرب ، كالحسن وحيد ابني قحطبة . ويقول اليعقوبي (١) إن حميد ابن قحطبة كان مع عبد الله بن علي ، وإن هذا تخوف منه واحتال في التخلص منه ، فأرسل معه إلى والي حلب كتاباً أمره فيه بقتله . ولما قطع قحطبة نحو نصف الطريق ، ارتاب في أمر هذا الكتاب ، وتوجّس خيفة من ناحية عبد الله بن علي . ولما فك الطومار وقرأ الكتاب ، جمع خاصته وأعلمهم بما فيه ، وسار إلى الرصافة ، وانضم بجنده فقوى بانضمامه إليه ، وضعف جند عبد الله .

وهناك حادثة أخرى جعلت موقف عبد الله أشد حرجاً ، هي أنه همّ بقتل من في جنده من الخراسانيين ، وكانوا زهاء سبعة عشر ألفاً ، خشية انضمامهم إلى أبي مسلم . وقد كتب أبو مسلم إلى عبد الله كتاباً يقول فيه : « اني لم أؤمر بقتالك ولم أوجه له ، ولكن أمير المؤمنين ولاني الشام ، فأنا أريدها » . وبذلك خدع أبو مسلم جند عبد الله من أهل الشام ،

الذين خافوا على بلادهم وذرائعهم ، وأبوا إلا المسير نحو بلادهم ، فلم ير عبد الله بدا من التوجه نحو بلاد الشام ، واقتل خمسة أشهر حلت بعدها الهزيمة بجند عبد الله ، وذلك في شهر جمادى الثانية سنة ١٣٦ هـ ، وفر من ميدان القتال حتى وصل إلى البصرة ، واختفى عند أخيه سليمان بن علي ، وكان قد وليها من قبل المنصور ، واستولى أبو مسلم على ما في معسكر عبد الله من مال وعتاد (١) .

من ذلك نرى أن عبد الله بن علي قد أخطأ بعمله على التخلص من حميد بن قحطبة ، الذي كان يعد من أعظم قواد الدولة العباسية في ذلك الحين ، ثم بقتله من كان في جيشه من الخراسانيين ، مما أضعف قوته ، وأثار حفيظة من بقي معه من الجند فلم يخلصوا له ولدعوته . ويقول الطبري (٢) إن عبد الله بن علي بايع أبا جعفر المنصور سنة ١٣٨ هـ ، حين كان لا يزال أخوه سليمان على ولاية البصرة ، وأنه لما عزل سليمان ، اختفى عبد الله خوفاً على حياته . ثم ألح المنصور على سليمان بن علي وعيسى بن موسى بإحضار عبد الله وأعطاهما الأمان على ألا يسيء إليه . ولكنه أمر بحبسه ، وقتل بعض أصحابه ، ثم قتله سنة ١٤٩ هـ ، بعد أن حبسه تسع سنين (٣) . وأمن بذلك شر أبي مسلم ومحمد النفس الزكية وإبراهيم ابني عبد الله بن الحسن العلوي ، وعنه عبد الله بن علي . كما عمل أبو جعفر على التخلص من عيسى بن موسى بن علي ليصفو الجو لابنه المهدي كما تقدم .



تفاقم العداء بين أبي مسلم وأبي جعفر منذ أيام السفاح ، الذي بعث أخاه أبا جعفر المنصور إلى أبي مسلم ، وكان بئيسابور ، ومعه كتاب بتوليته على خراسان ، وطلب منه أن يبايع أخاه أبا جعفر من بعده . وعلى الرغم من أن أبا مسلم أجاب الخليفة إلى ما طلب ، وأخذ له ولأخيه البيعة من أهل خراسان ، حنق عليه أبو جعفر لاستخفافه به ، وأوغر صدر الخليفة عليه وحشه على قتله ، وخوفه من خروجه عليه ، وقال له : « أظعنني واقتل أبا مسلم ، فوالله إن في رأسه لغدرة » . ولكن أبا العباس لم يحب أخاه إلى ما طلب ، لما قام به أبو مسلم من جهود في سبيل الدولة العباسية ، وما كان يتمتع به من نفوذ في نفوس أهل خراسان (٤) .

ثم حدثت بين أبي جعفر وأبي مسلم أحداث أدت إلى إثارة عواجل الحقد والكراهة بين الرجلين . ذلك أن أبا مسلم أراد أن يحج بيت الله ، فولى الخليفة أبا جعفر إمارة الحج ، فغضب أبو مسلم وقال : « أما وجد أبو جعفر عاماً يحج فيه غير هذا ؟ » وعمل أبو مسلم على الخط من هيبة أبي جعفر ، بانفاقه الأموال الضخمة في الترفيه عن العرب وإصلاح الطرق ، ثم بتقديمه عليه في الطريق بعد أداء فريضة الحج .

(١) الطبري ج ٩ ص ١٥٨ — ١٥٩ . (٢) ج ٩ ص ١٧٢ .

(٣) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٤٤ . (٤) الطبري ج ٩ ص ١٥٣ .

عند ذلك أتى أبا مسلم نعى أبي العباس السفاح ، فكتب إلى أبي جعفر يعزيه في وفاة أخيه ، ولم يهتبه بالخلافة ، أو يبعث إليه بالبيعة ، أو يقف في طريقه حتى يلحق به الخليفة الجديد ؛ ثم بايعه بعد بماطلة قليلة ، ليدخل في روعه القلق من ناحيته . ولما وصل المنصور إلى الكوفة ، ندب أبا مسلم لمحاربة عمه عبد الله بن علي لخروجه عليه . وما أن علم المنصور بانتصار أبي مسلم على عمه ، حتى أرسل إليه رسولا من قبله ، ليحصى الغنائم ، فغضب أبو مسلم وهم بقتل الرسول وقال : « أمين على الدماء خائن في الأموال ؟ » .

ولما عاد رسول أبي جعفر أخبره بما رآه ، تخاف أن يعود أبو مسلم إلى خراسان ، فيؤلب عليه أهلها ويستقل بحكمها ، فعمل على إبعاده عنها ، وولاه مصر والشام ، فغضب أبو مسلم وقال : « هو يوليني الشام ومصر وخراسان لي » ، وعول على المسير إلى خراسان . عند ذلك أوجس المنصور خيفة من ناحية أبي مسلم ، وخشى خروجه عليه ، وعول على التخلص منه قبل أن يستفحل شره . فكتب إليه كتاباً يأمره فيه بالرجوع إليه ، فرد عليه أبو مسلم « أنه لم يبق لأمير المؤمنين ، أكرمه الله ، عدو إلا أمكنه الله منه . وقد كنا نروى عن ملوك آل ساسان ، أن أخوف ما يكون الوزراء إذا سكنت الدهاء ، فنحن نأفرون من قربك ، حربصون على الوفاء بعهدك ما وفيت ، حريون بالسمع والطاعة ، غير أنها من بعيد ، حيث تقارنها السلامة . فإن أرضاك ذلك ، فأنا كأحسن عبيدك ، فإن أبيت إلا أن تعطى النفس إرادتها ، نقضت ما أبرمت من عهدك ضنا بنفسى » (١) .

وفي هذا الكتاب عبر أبو مسلم عما يجيش في صدره من حقد لآبي جعفر ، وما يخشاه على حياته إذا هو أطاع أمره . ولكن أبا جعفر أراد أن يسلك مع قائده العظيم سبيل اللين والمسالمة ، فكتب إليه كتاباً يقول فيه :

« قد فهمت كتابك ، وأيست صفتك صفة أولئك الوزراء الغششة ملوكهم ، الذين يتمنون اضطراب حبل الدولة لكثرة جرائمهم . فانما راحتهم في انتشار نظام الجماعة ، فلم سويت نفسك بهم ؟ فأنت في طاعتك ومناصحتك ، واضطلاعتك بما حملت من أعباء هذا الأمر على ما أنت به ، وليس مع الشريطة الأخرى التي أوجبت منك سماع ولا طاعة . وحمل إليك أمير المؤمنين عيسى بن موسى رسالة لتسكن إليها إن أصغيت إليها ، وأسأل الله أن يحول بين السلطان ونزعاته وبينك ، فإنه لم يجد باباً يفسد به نيتك أوكد عنده وأقرب من طبعه من الباب الذي فتجه عليك » (٢) .

أرسل أبو جعفر هذا الكتاب إلى أبي مسلم مع أبي حميد المروروذي ، وأمره أن يتلطف معه في القول حتى يلين ، وأن يمتنيه الأمان ؛ فإن أبي هدده بالويل والثبور وعظائم الأمور ، وأكد له أن الخليفة قد عول على القضاء عليه ، ولو خاض البحر واقتحم النار حتى يقتله أو

يموت . فأوجس أبو مسلم خيفة وساورته الظنون وتمسكه القلق ، ولا سيما بعد أن علم أن أبا جعفر أرسل إلى نائب أبي مسلم بخراسان كتاباً يمتنّيه فيه بولايتها إذا هو قطع صلته به ، وحال دون وصوله إليها . كما ازداد قلق أبي مسلم حين بلغه كتاب نائبه في خراسان يقول فيه : « إنا لم نخرج لمعصية خلفاء الله وأهل بيت نبيه صلى الله عليه وسلم ، فلا تخالفن إمامك ولا ترجعن إلا بإذنه » . وكان تهديد أبي حميد نائب أبي مسلم في خراسان كافياً لعدوله عن رأيه ، ولكن بعض نصيحائه لم يطمئن إلى وعود أبي جعفر ورسله ، وحذروه من الرجوع إليه ، وتمثل أحدهم بقول الشاعر حين أعيته الحيل في إرجاع أبي مسلم عن رأيه :

ما للرجال مع القضاء محالة ذهب القضاء بحيلة الأقوام (١)

ولما علم أبو جعفر بقرب أبي مسلم من المدائن دبر أمر اغتياله ، وأمر في الوقت نفسه رجالات دولته وأفراد البيت الهاشمي ببقائه . ثم مثل أبو مسلم بين يدي الخليفة ، فقال له : انصرف يا عبد الرحمن فأرح نفسك وادخل الحمام ، فإن للسفر عناء ، ثم أحضر غداً . وأرسل الخليفة إلى عثمان بن نهيك رئيس حرسه ، ودبر معه طريقة قتله ، وهي أن يحضر أربعة من الحراس الذين يثق بهم ، وأن يكونوا خلف الرواق ، على أن يخرجوا إذا صفق بيديه ويقتلوا أبا مسلم (٢) .

ثم أصبح الصباح وجاء أبو مسلم ومثل بين يدي أبي جعفر الذي أخذ يحدثه ويقول له (٣) : « أخبرني عن نصلين أصبتهما في متاع عبد الله بن علي ، قال هذا أحدهما الذي علي » ، قال أرنيه ، فانتصاه ، فناوله ، فهزّه أبو جعفر ثم وضعه تحت فراشه . وأقبل عليه يعاتبه ، فقال « أخبرني عن كتابك إلى أبي العباس تنهاه عن المصوات (٤) » أردت أن تعلمنا الدين . قال ظننت أخذه لا يحل » ، فكتب إلى » ، فلما أتاني كتابه علمت أن أمير المؤمنين وأهل بيته معدن العلم . قال فأخبرني عن تقدمك إياي في الطريق ، قال كرهت اجتماعنا على الماء فيضر ذلك بالناس ، فتقدمتكم اتّمس المفرق . قال فقولك حين أتاك الخبر بموت أبي العباس لمن أشار عليك أن تنصرف إلى » ، تقدم ففري من رأينا ، ومضيت فلا أنت أقمت حتى نلحقك ولا أنت رجعت إلى » ، قال منعني من ذلك ما أخبرتك من طلب المرفق بالناس ، وقلت تقدم الكوفة فليس عليه مني خلاف » . قال تجارية عبد الله بن علي أردت أن تتخذها ، قال لا ، ولكنني خفت أن تضعي لحملتها في قبة ووكلت بها من يحفظها ، قال فراعمتك وخروجك إلى خراسان ، قال خفت أن يكون قد دخلك مني شيء ، فقلت آتي خراسان فأكتب إليك بعذري ، وإلى ذلك ما قد ذهب ما في نفسك علي . قال تالله ما رأيت كالיום قط ، والله ما زدتنى إلا غضباً ... ثم أقبل يعاتبه

(١) الطبري ج ١ ص ١٦٣ . (٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٣٤ — ٢٣٥ .

(٣) الطبري ج ٩ ص ١٦٦ — ١٦٧ .

(٤) الموات : ما لا روح فيه ؛ أو هو الأرض التي لا مالك لها .

ألسن الكاتب إلى تبدأ بنفسك ، والكاتب إلى تخطب أمينة بنت علي ، وتزعم أنك ابن سليل بن عبد الله بن عباس؟ ما دعاك إلى قتل سليمان بن كثير مع أثره في دعوتنا ، وهو أحد نقبائنا قبل أن ندخلك في شيء من هذا الأمر؟ قال أراد الخلاف وعصاني فقتلته (١) ، فقال المنصور وحاله عندنا حاله فقتلته ، وتعصيني وأنت مخالف علي ، قتلني الله إن لم أقتلك ، فضربه بعمود وخرج عثمان بن نهيك وشيب وحرب فقتلوه ، وذلك لخمس ليال بقين من شعبان من سنة ١٣٧ هـ فقال المنصور :

زعمت أن الدين لا ينقض فاستوف بالكيل أبا مسجر
سقيت كأسا كنت تسقي بها أمر في الحلق من العلقم

وكان أبو مسلم قد قتل في دولته وحروبه ستمائة ألف صبرا ، وقيل إن أبا جعفر لما عاتبه قال له : فعلت وفعلت ، قال له أبو مسلم ليس يقال هذا إلى بعد بلائي وما كان مني . فقال يا ابن الخبيثة ، والله لو كانت أمة مكانك لأجزت ناحيتها ، إنما عملت ما علمت في دولتنا وبريختنا ، ولو كان ذلك إليك ما قطعت فتيلًا .

وقد كان أبو مسلم قال فيما قيل عند أول ضربة أصابته : يا أمير المؤمنين استبقني لعدوك ، فقال لا أبقاني الله إذا ، وأتى عدو لي أعدى منك ، وقيل إن عيسى بن موسى دخل بعد ما قتل أبو مسلم ، فقال يا أمير المؤمنين أين أبو مسلم؟ فقال قد كان ههنا آ نفا ، فقال عيسى يا أمير المؤمنين قد عرفت طاعته ونصيحته ورأى الإمام إبراهيم كان فيه ، فقال يا أثوك والله ما أعلم في الأرض عدوا أعدى لك منه ، ها هو ذاك في البساط ، فقال عيسى إنا لله وإنا إليه راجعون ، وكان لعيسى رأي في أبي مسلم ، فقال له المنصور خلع الله قلبك ، وهل كان لكم ملك أو سلطان أو أمر أو نهى مع أبي مسلم؟ ثم دعا أبو جعفر بجعفر بن حنظلة ، فدخل عليه فقال : ما تقول في أبي مسلم؟ فقال يا أمير المؤمنين إن كنت أخذت شعرة من رأسه ، فاقتل ، ثم

(١) نقل فان فلوتن عن كتاب المقفي الكبير للمقرزي (مخطوط ، المكتبة الأهلية بباريس ، ورقة ٨٠ ب) شذرات خاصة بمقتل سليمان بن كثير فقال : وكان سليمان بن كثير الخزازي من النقباء ، فلما قدم أبو جعفر أخو أبي العباس على أبي مسلم قال له : إنا كنا نحب تمام أمركم ، وقد تم بحمد الله ونعمته ، فإذا شتم قلبنا عليه . وكان محمد بن سليمان بن كثير خداسيا ، فكره تسليم أبيه الأمر إلى أبي مسلم . فلما ظهر أبو مسلم وغلب على الأمر قتل محمدا ، ثم أتى سليمان الكفية ، وهم الذين بايعوا على أن لا يأخذوا مالا ، وأن تؤخذ أموالهم إن احتيج إليها ويدخلون الجنة . ويقال لئهم أعطوا كفا من الخطة فسموا الكفية . وقال لهم : حفرنا نهرا بأيدينا فجاء غيبرا فأجرى فيه الماء ، يعني أبا مسلم ، فبلغ قوله أبا مسلم ، فاستوحش منه ، وشهد عليه أبو تراب الداعية ومحمد بن علوان المروزي وغيرها في وجهه ، بأنه أخذ عنقود غيب وقال : اللهم سود وجه أبي مسلم كما سودت هذا العنقود واسق دمه . وشهدوا أن ابنه كان خداسيا ، وأنه بال على كتاب الإمام ، فقال أبو مسلم لبعضهم : خذ به وألحقه بخوارزم . وكذلك كان يقول لمن أراد قتله ، فقتل سليمان بن كثير . (السادة العربية — ترجمة المؤلف ص ١٤٦ — ١٤٧) .

أقتل ، ثم أقتل . فقال المنصور وفقك الله ، ثم أمره بالقيام والنظر إلى أبي مسلم مقتولا ، فقال يا أمير المؤمنين عد من هذا اليوم لخلافتك (١) .

ثم خطب المنصور في الناس خطبة قال فيها : « أيها الناس لا تخرجوا عن أنس الطاعة إلى وحشة المعصية ، ولا تفسدوا غش الأئمة ، فانه لم يفسر أحد قط منكرا إلا ظهرت في آثار يده أو فلتات لسانه ، وأبداها الله لإمامه ، باعزاز دينه به وإعلاء حقه . إنا لن نبخسكم حقوقكم ، وإن نبخس الذي بادر باعزاز دينه به وإعلاء حقه بفلجه . إنا من نازعنا هذا القميص أجزرناه خي هذا الغمد ، وإن أبامسلم بايعنا وبايع الناس لنا ، على أنه من نكث بنا فقد أباح دمه ، ثم نكث بنا فحكمتنا عليه حكمه على غيره لنا . ولم تمنعنا رعاية الحق له من إقامة الحق عليه (٢) . » ثم أعطى المنصور الجوائز لقواد أبي مسلم وجنده ، حتى رضوا ورجع أصحابه وهم يقولون : « بعنا مولانا بالدرهم (٣) . » وكان قتل أبي مسلم لخمس بقين من شهر شعبان سنة ١٣٧ هـ .

ولكن قتل أبي مسلم لم يرض أهل خراسان ، ولم يرض أنصاره ، فخرج رجل منهم اسمه سنباذ يطلب الأخذ بثأره . وكان مجوسيا من بعض قرى نيسابور ، وقد كثرا شياعه ، وأطاعه كثير من أهل خراسان وبخاصة أهل الجبال (٤) . فلما بلغ المنصور خبر سنباذ ، أرسل إليه عشرة آلاف فارس أحلوا به الهزيمة ، وخرج غير سنباذ كثيرون طلبا لثأر أبي مسلم . وكان المقتنع الخراساني أشدهم خطرا ، واعتقد بعضهم أنه حتى لم يمت ، فزعموا أنه أو شيدربامي (Ochederbami) أو أشيدرما (Ochederma) أحدا عقاب زرادشت الذي ينتظر المجوس ظهوره ، كما ينتظر المسلمون ظهور المهدي ، حتى إن تلك الطوائف لم تعتقد بموت أبي مسلم ، بل كانوا ينتظرون رجوعه ، ليملا الأرض عدلا ، على حين حول بعض أشياعه الإمامة إلى ابنته فاطمة (٥) .

ويقول نظام الملك (٦) « كان أول ما يتكلمون به في دعواتهم ترحمهم على أبي مسلم الخراساني والمهدي وفيروز حفيد أبي مسلم وابن ابنته فاطمة . » وذهب كازانوف إلى القول بأن هؤلاء الأشياع كانوا يسمون الفاطميين نسبة إلى فاطمة بنت أبي مسلم . وهؤلاء هم طائفة الخرمية التي سيأتي الكلام عليها .

وفي رأينا أن المنصور إنما قام بهذا العمل ، مدفوعا بما كان بينه وبين أبي مسلم من حزازات

١ الطبري ج ٩ ص ١٦٧ . (٢) المصدر نفسه ج ٩ ص ٣١٣ .

(٣) الطبري ج ٩ ص ٣١٣ .

(٤) أي الجبال الواقعة جنوب بحر قزوين أو بحر طبرستان ، وسمى بذلك لأن طبرستان أشهر البلاد الواقعة عليه .

(٥) السيادة العربية ترجمة المؤلف ص ١٣١ .

(٦) Siasset Nameh, tome II. p. 298.

شخصية قديمة . وقد زاد أبو مسلم النار إشعالا بتهاديه في زهوه وإعجابه بنفسه ، وإسرافه في قتل النفوس البريئة بغير شفقة أو رحمة . ومما يؤخذ عليه قتله ساسانيين كثير . وقد قيل انه قتل نحو ستمائة ألف في غير ميادين القتال .

أما إخلاص هذا الرجل وتفانيه في نصرة العباسيين ، فأمر لم يقم الدليل بعد على إضعافه أو دحضه . وإن أبا جعفر إنما قام بهذا العمل ، مدفوعا بعوامل الغيرة من أبي مسلم ، متأثرا بهذه الهواجس التي استولت عليه ، فظن به الظنون وخامرته الريب في إخلاصه وولائه . وعندنا أن أبا مسلم ، إن كان يستحق القتل على يد أحد من الناس ، فيصح أن يكون بعيدا عن بيت العباس .

وقد دلت الحوادث على أن من أسس دولة لا يستمتع بها في أغلب الأحيان . قال عليه الصلاة والسلام : « لا تتمتعوا بالدول فتُحرموها » . ويقول صاحب الفخرى ^(١) : « وكان المخترع للدولة ، يكون عنده من الدالة والتبسط ما تأنف من احتماله نفوس الملوك . كلما زاد تبسطه زادت الأنفة عندهم حتى يوقعوا به » .

والتاريخ يعيد نفسه كما يقولون ، فقد كانت خاتمة أبي عبد الله الشيعي ، الذي تدن له الدولة الفاطمية بظهورها ووجودها في عالم الدول المستقلة ، خاتمة أبي مسلم الخراساني ، مع ما عُرِف من غيرته وانتصاره للدعوة العباسية .

وقد استطاع أبو جعفر المنصور بما أوتيته من دهاء وحزم ، أن يقهر أعداءه من العرب ويأسر عمه عبد الله بن علي ثم يقتله ، وأن يقهر أعداءه من الفرس ويقتل أبا مسلم الخراساني مؤسس الدولة العباسية .

(د) حركات الموالى : الراوندية — المَقْسَنِيَّة — الخرمية — الزنادقة

(١) الراوندية : لم يكبد المنصور يتهنى من جند أبي مسلم الخراساني ، حتى فوجيء بتعاليم جديدة يدعو إليها أهل فارس . وكانوا قبلي الفتح الإسلامي يقدرسون ملوكهم ، فيجعلونهم في مصاف الآلهة . وهؤلاء هم الراوندية .

يقول فان فلوتن ^(٢) : « كانت البكوفة التي ظهر منها الدعاة العباسيون في مستهل القرن الثاني للهجرة ، مهدا لتشيع متطرف غير إسلامي . وهكذا لم يلبث الإسلام أن أصبح خليطا من مذاهب ونحل شتى ، على أثر اتصاله بالديانات والعقائد التي كانت سائدة في بلاد العراق قبل ظهور الإسلام (كديانة الفرس القدماء (Parsees) والمناوية ^(٣) والصابئة وغيرها) ، وذلك للتوفيق بينه (أي الإسلام) وبين تلك الديانات المختلفة . وكان الدعاة يقومون بنشر

(١) ص ١٥٤ .

(٢) كتاب السيادة العربية والتشيع والامرائيليات في عهد بني أمية ، ترجمة المؤلف ص ٩٦ .

(٣) المصدر نفسه ص ٨٢ .

الدين الاسلامي بين الناس بحماسة وحمية ، برغم هذا التغير الذي طرأ عليه في ذلك الحين ، ويدافعون عنه باخلاص وغيره ، حتى كان يحكم بالاعدام على الكثيرين من الفلاة والمبتدعين منذ أيام علي بن أبي طالب إلى عهد المنصور العباسي (حين أصبحت بغداد حاضرة البلاد الاسلامية) ، وذلك لجراتهم على الابتداع في الاسلام ، وإدخالهم فيه ما ليس منه . وإلى القاري . ما ذكره المدائني المؤرخ المتوفى سنة ٢١٥ هـ عن عقيدة الراوندية (١) ، قال : إن رجلاً من الراوندية كان يقال له الأبلق ، وكان أبرص ، فتكلم بالغلو ودعا بالراوندية ، فزعم أن الروح التي كانت في عيسى بن مريم صارت في علي بن أبي طالب ، ثم في الأئمة واحد بعد واحد ، إلى إبراهيم بن محمد ، (سبط العباس عم النبي) ، وأنهم آلهة ، واستحلوا الحرمة . فكان كل رجل منهم يدعو الجماعة منهم إلى منزله ، فيطعمهم ويسقيهم ويبيع لهم الحرمة ، فبلغ ذلك أسد بن عبد الله (القسري) فقتلهم وصلبهم ، فلم يزل ذلك فيهم إلى اليوم ، فعبدوا أبا جعفر المنصور ، وصعدوا إلى الخضراء (٢) ، فألفوا أنفسهم كأنهم يطيرون (٣) ، وخرج جماعتهم على الناس بالسلاح ، فأقبلوا يصيحون بأبي جعفر : أنت أنت (يعنون أنت الله) ، فخرج إليهم بنفسه فقاتلهم ، فأقبلوا يقولون : أنت أنت (٤) .

لم ير المنصور بدا من أن يضرب على أيدي هؤلاء ، لأنه لم يكن يستطيع أن يوافقهم على قولهم ، لخروجهم على الدين والدولة ، ولأن ذلك من شأنه أن يثير العرب عامة . وقد حبس المنصور من زعماء الراوندية مائتي رجل ، فأثار هذا العمل نفوس أنصارهم ، فاجتمعوا وفتحوا السجون وأخرجوا الرؤساء ، ثم قصدوا المنصور وحاربوه ، فخرج إليهم ماشياً ، فتكاثروا عليه وكادوا يقتلونه ، لولا أن أغاثه معن بن زائدة الشيباني ، أحد قواد الأمويين الذين حاربوا العباسيين تحت إمرة ابن هبيرة وإلى العراق . وقد ظهر معن ، وقاتل دون الخليفة العباسي ، فأبلى بلاء حسناً ، فظفر بالراوندية وكوفي بولاية النين . وكان قد اختفى بعد واقعة واسط إلى هذه الساعة .

وكان أبو جعفر المنصور ينظر إلى الراوندية كأعداء سياسيين لدولته ، لأنهم من أتباع عدوه أبي مسلم الخراساني ، الذين يعملون على تحويل الخلافة إلى ملك كسروي ؛ كما كان ينظر إليهم ، باعتبارهم زنادقة ، يريدون أن تعود المجوسية أو شكل من أشكالها ، كالزرادشتية أو المانوية أو المزدكية أو غيرها ؛ فعاملهم كما عامل أبا مسلم ، وقتلهم شر قتله . إلا أنه لم يستطع مع ذلك أن يقضى عليهم قضاء تاماً ، فظهروا في صور مختلفة نراها في مثل ثورات المقنع الخراساني وبابك الخرمي وغيرهما .

(١) نسبة إلى مدينة راوند القريبة من أصفهان ، وكانت مهد دعوتهم .

(٢) وهي القبة التي بناها المنصور ببغداد

(٣) ولا يزال يعزى إلى طائفة النصيرية من الفرس القدرة على الطير في الهواء حتى اليوم كما يعزى مثل ذلك أيضاً إلى بعض البوذيين .

(٤) راجع أيضاً الطبري ج ٩ ص ٣٠٧ .

٢ — المُتَشَبِّهَةُ : وفي عهد المهدي (١٥٨ — ١٦٩ هـ) ظهر المقنع بخراسان . وكان رجلا قبيح الخلق ، أعور قصيرا ، من أهل مرو ، عمل وجها من ذهب وركبه على وجهه لئلا يرى وجهه ، وادعى الألوهية ، وكان يقول : « الله خلق آدم فتحوّل في صورته ، ثم في صورة نوح ، ثم إلى صورة إبراهيم ، ثم إلى صورة واحد فواحد من الأنبياء والحكماء ، ثم في صورة محمد ، ثم تحول بعده في صورة علي بن أبي طالب ، ثم انتقل في صورة أولاده ، حتى حصل في صورة أبي مسلم الخراساني . ثم زعم أنه انتقل منه إليه ، وقال : إني أنتقل في الصور ، لأن عبادي لا يطيقون رؤيتي في صورتي التي أنا عليها ، ومن رأى أني احترق بنوري . وأسقط الصلاة والزكاة والصوم والحج ، وأباح للناس الأموال والنساء ، كما أباح لهم تعاليم مزدك ، فعبده الناس وسجدوا له .

وقد أظهر المقنع قرا يطلع ويراه الناس على مسيرة شهر ثم يأفل . وفي ذلك يقول أبو العلاء المعري (١) .

أَفِقْ إِنَّمَا الْبَدْرُ الْمُقْنَعُ (٢) رَأْسُهُ ضَلَالٌ وَغَيٌّ مِثْلُ بَدْرِ الْمُقْنَعِ

وإلى ذلك يشير أبو القاسم هبة الله بن سناء الملك في إحدى قصائده :

إِلَيْكَ فَمَا بَدْرُ الْمُقْنَعِ طَالَعًا بِأَسْحَرِ مِنْ أَلْفَاظِ بَدْرِ الْمُعَمَّمِ (٣)

وكان المقنع في مبدأ أمره ينتحل مذهب الرزامية (أتباع رزام ، وكانوا كيسانية في الأصل) الذين ساقوا الإمامة إلى محمد بن الحنفية ، ثم إلى ابنه أبي هاشم ، ثم إلى علي بن عبد الله ابن عباس ، ثم إلى ابنه محمد ، ثم إلى ابنه إبراهيم الإمام ، ثم إلى أخيه أبي العباس السفاح ، ثم انتقلت إلى أبي مسلم الخراساني ، وقد ظهروا بخراسان واتخذوا مرو مركزا لنشر دعوتهم ، واعتقدوا أن روح الله قد حل في أبي مسلم ، وأنه أبده وأعانه على بني أمية فقتلهم عن آخرهم ، كما قالوا بتناسخ الأرواح . واعتقدت طائفة منهم أن أبا مسلم صار إلها يحل روح الله فيه وأنه حتى لم يمت ، وينتظرون عودته ، وقالوا إن الذي قتله المنصور كان شيطانا تصوّر للناس في صورة أبي مسلم ، وهؤلاء همروا وهرأ يعرفون بالبركوكية (٤)

(١) شرح التنوير على كتاب سقط الزند لأبي العلاء المعري (القاهرة سنة ١٢٨٦ هـ) ج ٢ ص ١٠٣ .

(٢) يريد بالبدر المقنع رأس امرأة مقنعة ، تشبه بحسنها البدر . والمراد بالمقنع رجل من المعرفين تنبأ بيلاد ما وراء النهر في ناحية كش ، وأغوى بمخرقته كثيرا من الناس ، وادعى أنه يطلع بدرا في السماء ، فانبط بئرا واسعة في بعض جبال تلك الناحية ، فطرح فيها الزئبق الكثير فوق الماء ، فكان شعاعه يظهر في الجو كأنه بدر . وأقام بذلك مدة يغوى الناس ويضلهم بأباطيله يقول : أفق من سكرة الهوى ، ودعوى حجة النساء ، فإن المرأة المقنعة التي تحسبها بدرا مقنعا حسنا وبهاء حبها والاعتزاز بها غواية وضلالة ، كالاغترار ببدر المقنع الذي أظهره تمويهها وتغريها .

(٣) ابن خلكان : وفيصات الأعيان ج ١ ص ٤٥٣ ، وكتاب الدعاء والمتألهين والتنبيين ص ١٢ — ١٤ .

(٤) كتاب فرق الشيعة لأبي محمد الحسن بن موسى النوبختي ص ٤٢ — ٤٣ ، والفرق بين الفرق ص ٣٤١ — ٣٤٣ ، والمثل والنحل للشهرستاني ج ١ ص ٢٠٥ — ٢٠٧ .

ولما قوى أمر المقتنع وكثر أنصاره ، وانضم إليه أهل بخارى وسمرقند والأتراك الذين كانوا يقيمون حول بحر قزوين ، واعتصم بقلعة حصينة بكش ، أرسل إليه الخليفة المهدي سبعين ألف مقاتل بقيادة معاذ بن مسلم الذي طاوله حتى ضجر هو وأصحابه ، فطلب أكثرهم الأمان ، وبقي هو في القلعة مع نفر يسير من أصحابه .

ولما شعر المقتنع بالهزيمة أشعل النار في القلعة ، وأحرق كل ما فيها من دواب وثياب ومتاع ، وأذاب النحاس والسكر في تنور ، وجمع نساءه وأولاده ، وطلب عن أحب من أصحابه أن يلقوا بأنفسهم في النار ليرتفعوا إلى السماء ، وقال : « أنا صاعد إلى السماء ، فمن أراد أن يصحبنى فليشرب من هذا الشراب » ، وسقاهم شراباً مسموماً شرب هو منه ، فأتوا جميعاً ، وألقى نساءه وأولاده في النار ، ثم ألقى بنفسه فيها خوفاً من أن يظفر أعداؤه بجثته أو جثث نساته ، وذلك سنة ١٦٩ هـ . واطمان المهدي من ناحية المقتنع ، وأمن الناس من شر مبادئه .

ولكن موت المقتنع لم يضع حداً لتعاليمه التي اعتنقها نفر من بلاد ما وراء النهر ، أصبحوا يعرفون باسم « المقتنعية المبسطة » الذين زعموا أن المقتنع كان إلهاً ، وأنه تصور في كل زمان بصورة خاصة (١) ، وأصبح له أشياع في بلاد ما وراء النهر وفي تركستان ، حيث اتخذوا في كل قرية مسجداً يصلون فيه ويستحلون الميتة والخنزير ، ويبيعون النساء ، وإن ظفروا بمسلم لم يره مؤذناً مسجدهم قتلوه ، وأخفوا جثته .

٣ - الخرمية : (١) بابك الخرمي .

كانت بلاد الفرس التي نشأ فيها بابك الخرمي كثيرة المعتقدات والبدع ، سواء أكان ذلك قبل الإسلام أم بعده . ولهذا ظهرت فيها الطوائف الدينية على اختلافها ، ومنها طائفة الخرمية (٢) التي أسسها مزدك في أيام قبادز أبي كسرى الأول المعروف بأنو شروان . وقد نشأت من طائفة الخرمية المزدكية (٣) ، طائفة الخرمية البابكية التي تنسب إلى بابك الذي ادعى الألوهية ، وعكس صفو الدولة العباسية في أيام المأمون ، وأخذ أمره يتفاقم إلى أيام المعتصم . ويرى بعض المؤرخين أن بابك الخرمي من سلالة أبي مسلم الخراساني ، وأنه ثار في وجه العباسيين لينتقم لأبي مسلم ، وأن حركته استمرار لحركة المقتنع الخراساني والراوندي وغيرهم . ويقول أبو حنيفة الدينوري (٤) ، « والذي صح عندنا وثبت ، أنه كان من ولد مطهر بن فاطمة

(١) الفرق بين الفرق ص ٢١٥ .

(٢) قيل إنهم سموا خرمية نسبة إلى خرما امرأة مزدك التي اضطاعت بنشر عقائد هذا المذهب بعد قتل زوجها .

(٣) وهؤلاء يسمون الخرمية الأولى لتمييزهم عن الخرمية الثانية الذين نبغ منهم البابكية أتباع بابك الخرمي في عهد المأمون والمعتصم .

(٤) الأخبار الطوال (طبعة لندن) ص ٣٩٧ .

بنت أبي مسلم ، هذه التي تنسب إليها الفاطمية من الحرثية ، لا إلى فاطمة بنت رسول الله . وكان بابك يقوم بخدمة جاويدان أحد رؤساء الحرثية . ولما توفي جاويدان هذا ، أقامت امرأته بابك مكانه ، وادعت أن روحه حلت في جسده ، وأوعزت إلى رجاله بوجوب طاعته ثم تزوجت منه ، فأخذ بابك في إفساد عقول الناس ، حتى كان المأمون يبرو .

وفي عهد المعتصم تفاقم قلق أهل بغداد من بابك الحرثي ، ودخلت أذربيجان تحت حوزته ، وأعانه ملك أرمينية وأمراطور الدولة البيزنطية ، وانتشرت جيوشه ، وأدخل الرعب في نفوس أهالي البلاد الواقعة بين أذربيجان وإيران التي كانت ، ولا تزال ، تموج بالمذاهب المختلفة : فهناك الزرادشتية والمناوية والمزدكية والآبوسلية أتباع أبي مسلم الخراساني ، وكل هذه المذاهب مجتمعة تكون عقائد الحرثية .

ويقول المقدسي (١) : « وانضوى إليه القطاع والحرب والذعار وأصحاب الفتن وأرباب النحل الزائفة ، وتكاثفت جموعه ، حتى بلغ فرسان رجاله عشرين ألف فارس سوى الرجال ؛ واحتوى على مدن وقرى ، وأخذ بالتمثيل بالناس ، والتحريق بالنار ، والانهماك في الفساد ، وقلة الرحمة والمبالاة ، وهزم جيوشا كثيرة للسلطان ، وقتل عدة قواد . وذكر في بعض الكتب أنه قتل فيما حفظ ألف ألف إنسان من بين رجل وامرأة وصبي . »

وقد وصف المسعودي (٢) نهاية بابك الحرثي وصفا مسهبا فقال : « فلما استشعر بابك ما نزل به وأشرف عليه ، هرب من موضعه وزال عن مكانه ، فتذكر هو وأخوه وولده وأهله ومن تبعه من خواصه . وقد تزيّا بزى السفر وأهل التجارة والقوافل ، فنزل موضعا من بلاد إرمينية على بعض المياه ؛ وبالقرب منهم راعى غنم ، فابتاعوا منه شاة وشاءوا شراء شيء من الزاد لهم ، فمضى من فوره إلى سهل ابن سنياط ، فأخبره الخبر وقال ، هو بابك لا شك فيه . وقد كان الأفشين لما هرب بابك من موضعه وزال عن جبله ، خشى أن يعتصم ببعض الجبال المنيع أو يتحصن ببعض القلاع ، أو ينضاف إلى بعض الأمم القاطنة ببعض تلك الديار ، فيكثر جمعه وينضاف إليه فلان عسكري ، فيرجع إلى ما كان من أمره . فأخذ الطرق وكاتب البطارقة في الحصون والمواضع من بلاد إرمينية وأذربيجان والران والبيلقان ، وضمن في ذلك الرغائب . فلما سمع سهل بن سنياط من الراعي ما أخبره به ، سار من فوره فيمن حضر من عدده وأصحابه ، حتى أتى الموضع الذي به بابك ، فترجل له ودنا منه وسلم عليه بالملك وقال له : أيها الملك قم إلى قصرك الذي فيه وليك وموضع يمنعك فيه الله من عدوك ؛ فسار معه إلى أن أتى قلعته ، وأجلسه على سريرته ، ورفع منزلته ، ووطأ له منزله ومن معه ، وقدمت المائدة وقعد

(١) كتاب البدء والتاريخ ج ٦ ص ١١٥ — ١١٦ . أنظر ما كتبه نظام الملك عن ثورة بابك في كتابه سياسة نامه (طبعة Charles Schefer) ج ٢ ص ٢٩٢ — ٢٩٨ .

(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٣٥٠ — ٣٥١ .

يأكل معه ، فقال له بابلك بجهله وقلة معرفته بما هو فيه وما دفع إليه : أمثلك يأكل معي ؟ فقام سهل عن المائدة وقال : أخطأت أيها الملك ، وأنت أحق من احتمل عبده إذ كانت منزلتي ليست بمنزلة من يأكل مع الملوك ، وجاءه بحداد وقال له : مد رجلك أيها الملك ، وأوثقه بالحديد ، فقال له بابلك أغدرا ياسهل ؟ قال يا بن الخبيثة إنما أنت راعي غنم وبقر ، ما أنت والتدبير للملك ونظام السياسات ؟ وقيد من كان معه ، وأرسل إلى الأفشين يخبره الخبر ، وأن الرجل عنده ، فسرحت إليه الأفشين أربعة آلاف فارس ، عليهم الحديد ، وعليهم خليفة يقال له بومادة ، فقتله ومن معه ، وأتى به إلى الأفشين ومعه ابن سباط ، فرفع الأفشين منزلة سهل ، وخلع عليه ، وجعله وتوحيته ، وقاد بين يديه ، وأسقط عنه الخراج ، فأطلقه ، وأطلقت الطيور إلى المعتصم ، وكتب إليه بالفتح . فلما وصل إليه ذلك ضج الناس بالتكبير ، وعمهم الفرح وأظهروا السرور ، وبثت الكتب إلى الأمصار بالفتح . وقد كان آفي عساكر السلطان ، فسار الأفشين ببابلك وتنقل بالعساكر حتى أتى سر من رأى ، وذلك سنة ثلاث وعشرين ومائتين . وتلقى الأفشين هارون بن المعتصم وأهل بيت الخلافة ورجال الدولة ، ونزل بالموضع المعروف بالقاطول ، على خمسة فراسخ من سامرا ، وبعث إليه بالفيل الأشهب ، وكان قد حمله بعض ملوك الهند إلى المأمون ، وكان فيلا عظيما ، قد جملت بالديباج الأحمر والأخضر وأنواع الحرير الملون ، ومعه ناقة عظيمة نجمية قد جللت بما وصفناه . وحمل إلى الأفشين دراعة من الديباج الأحمر ، منسوجة بالذهب ، قد رصع صدرها بأنواع الياقوت والجوهر ، ودراعة دونها وقلنسوة عظيمة كالبرنس ذات سفاسك بألوان مختلفة ، وقد نظم على القلنسوة كثيرا من اللؤلؤ والجوهر ، وألبس بابلك الدراعة ، وألبس أخوه الأخرى ، وجعلت القلنسوة على رأس بابلك ، وعلى رأس أخيه نحوها . وقدم إليه الفيل وإلى أخيه الناقة ، فلما رأى صورة الفيل استعظمه ، وقال ما هذه الدابة العظيمة ؟ واستحسن الدراعة وقال هذه كرامة ملك عظيم جليل إلى أسير ، فقد العز ذليل ، أخطأته الأقدار ، وزالت عنه الجدود وتورطته المحن ، إنها الفرحة تقتضى ترحه . وضرب له المصاف صفين ، في الخيل والرجل والسلاح والحديد والرايات والبندود ، من القاطول إلى سامرا مدد واحد متصل غير منفصل ، وبابلك على الفيل ، وأخوه وراءه على الناقة ، والفيل يحظر بين الصفين به ، وبابلك ينظر إلى ذات اليمين وذات الشمال ويميز الرجال والعدد ، ويظهر الأسف والحنين على ما فاتته من سفك دماهم ، غير مستعظم لما يرى من كثرتهم ، وذلك يوم الخميس لليلتين خلتا من صفر سنة ثلاث وعشرين ومائتين . ولم ير الناس مثل ذلك اليوم ، ولا مثل تلك الزينة . ودخل الأفشين على المعتصم ، فرفع منزلته وأعلى مكانه ، وأتى ببابلك فطوف به بين يديه ، فقال له المعتصم أنت بابلك ؟ فلم يجب ، وكررها عليه مرارا ، وبابلك ساكت ، فقال إليه الأفشين وقال له : الويل لك ، أمير المؤمنين يخاطبك وأنت ساكت ؟ فقال نعم أنا بابلك ، فسجد المعتصم عند ذلك ، ثم قال : جردوه ، فسلبه الخدام ما عليه من الزينة ، وقطعت يمينه ، وضرب بها وجهه ، وفعل مثل ذلك ببساره ، وثلاث برجليه ، وهو يتمرغ

في النطع في دمه . وقد كان تكلم بكلام كثير يرغب في أموال عظيمة قبله ، فلم يلتفت إلى قوله ، وأقبل يضرب بما بقي من زنديه وجهه ، وأمر المعتصم السيف أن يدخل السيف بين ضلعين من أضلاعه أسفل القلب ، ليكون أطول لعذابه ففعل . ثم أمر بجز لسانه وصلب أطرافه مع جسده ، ثم حمل الرأس إلى مدينة السلام ، ونصب على الجسر ، وحمل إلى خراسان بعد ذلك يطاف به كل مدينة من مدنها وكورها ، لما كان في نفوس الناس من استفعال أمره وعظم شأنه وكثرة جنوده ، وإشرافه على إزالة ملك وقلب ملة وتبديلها . وحمل أخوه عبدالله مع الرأس إلى مدينة السلام ، ففعل به إسحق بن إبراهيم ما فعل بأخيه بابك بسامرا ، وصلب جثة بابك على خشبة طويلة في أفاصي سامرا .

مبادئ الخرمية :

ومبادئ الخرمية جذيرة بالبحث ، لما كان لها من الأثر في تاريخ العصر العباسي ، وبخاصة في علاقة الموالى بالعباسيين . فمن مبادئهم الأساسية تحويل الملك من العرب المسلمين إلى الفرس المجوس ، وهم بذلك قد أثاروا حربا شعواء على الاسلام والعرب . يؤيد هذا ما ذكره المقدسي في كتابه « البدء والتاريخ » (١) « فان الخرمية احتالوا في إزالة الملك إلى العجم ، فهووا هذه النحلة وزينوها للجهال ودعوا إليها في السر ، ومحصول أمرهم التعطيل والإلحاد . ومن مبادئهم تأليه البشر ، فقد ادعى بابك أن روح جاويدان حلت فيه حتى جعل الخرمية يقولون « آمنا بك يا روح بابك ، كما آمنا بك يا روح جاريدان » . كما كان من مبادئ الخرمية مبدأ الرجعة التي قال بها غلاة المتشيعين .

ويقول المقدسي عن مبادئ الخرمية في كتابه « البدء والتاريخ » (٢) « هم فرق وأصناف ، غير أنهم يجمعهم القول بالرجعة ، ويقولون بتغيير الاسم وتبديل الجسم (يعني القول بالتناسخ) ، ويزعمون أن الرسل كلهم على اختلاف شرائعهم وأديانهم يحصلون على روح واحدة ، وأن الوحي لا ينقطع أبدا . وكل ذي دين مصيب عندهم إذا كان راجي ثواب وخاشع عقاب . ولا يرون تهيجته (أي تحقيره) والتخطي إليه بالمكروه ، مالم يرؤم كيد نخلتهم وخسف مذهبهم . . . ويعظمون أمر أبي مسلم ، ويلعنون أبا جعفر على قتله ، ويكثرون الصلاة على فيروز ، لأنه من ولد فاطمة بنت أبي مسلم . ولهم أئمة يرجعون إليهم في الأحكام ، ورسول يدورون بينهم ويسمونهم « فريشتكان » ، ولا يتبركون بشيء مثل تبركهم بالخمر والأشربة . وأصل دينهم القول بالنور والظلمة . . . ووجدنا منهم من يقول بإباحة النساء . . . وإباحة كل ما يستلذ النفس وينزع إليه الطبع . . . يؤيد هذا ما ذهب إليه نظام الملك في كتابه سياسة نامه (٣) عن عقائد الخرمية بقوله : إنهم رفضوا جميع الفروض الدينية كالصلاة والصوم والحج والزكاة ، وأباحوا لأنفسهم شرب

(٢) ج ٤ من ٣٠ — ٣١ .

(١) ج ٥ من ١٣٤ .

(٣) Siaset nameh (ed. by Charles Schefer), pp. 298 suiv.

الحمر ونادوا بإباحة المحرمات والاشترائية في النساء . ويعتقد الإنسان أن هذه المبادئ هي مبادئ مزدك . وببذل هؤلاء دائماً كل ما يستطيعون من جهد للقضاء على الاسلام قضاء مبرما ، كما أنهم لم يشعروا بأى ميل أو عاطفة إزاء أحد من أهل البيت ، وإن كانوا قد اتخذوا من أسمائهم سبيلا إلى جذب الأنصار إليهم ، لنشر دعوتهم التي ترمى إلى هدم العقائد الإسلامية . كما يقول نظام الملك إن الخرمية والباطنية سواء .

ويقول فان فلوتن^(١) : « ويرى بعض الباحثين أن هناك صلة بين اسم الخرمية الذى قد يكون مشتقا من خرم ، اسم لمدينة بيلاد ميديا ، أو كلمة خرم ، ومعناها « لذيد » ، فإذا ما تكلمنا عن « خرم دينيا » Khorram dinia ، فلكي نبين أن هؤلاء كانوا لا يعرفون ديننا غير اللذة . ومن هنا يتبين لنا أن هذه الطوائف ، وإن كانت قد جعلت للنساء مكانة أرقى من المكانة التي لهن في البلاد الشرقية ، وأباحن لهن الظهور في المجتمعات الدينية ، فلم يكن ذلك إلا بقصد الاستمتاع بظهورهن في تلك المجتمعات . »

« على أن ما ذهب إليه هذه الطائفة من الاستمتاع باللذة التي لا حد لها ، لم يكن العامل الوحيد فيما يكنه أهل السنة من بغض لهذه الطوائف . وإن كنا لا نستطيع في الوقت نفسه أن ننكر ، أنه كان لغلو بعض المتطرفين من أهل هذه الطوائف ، أثر كبير في بغض السنيين لطائفة الخرمية . »

(ب) الأفشين والمازيار :

ولم يكد المعتمد ينتهي من ثورة بابك ، تلك الثورة التي هددت ملكه وأقلقت باله وأفنت كثيرا من جنده ، وأضاعت أمواله وأهلك الحارث والنسل ، حتى فوجئ بثورة الأفشين ، أو بمؤامراته التي دبرها بالاشتراك مع المازيار ، وكان رئيسا للمحسمة ، وهم فرقة من الخرمية أتباع بابك الخرمي . وقد تألق نجم المازيار في أيام المأمون ، فوثق به وولاه جبال شروين في أطراف بلاد طبرستان ، وسماه محمدا وسمح له بأن يحتفظ بقلب الإصهبند ، الذي كان يطلق على كل من يلي هذه الجهات .

ولما مات المأمون وولى أخوه المعتمد الخلافة ، كشف المازيار عن ميوله الثورية ، ودارت المراسلات بينه وبين بابك الذي كان يدين بمبادئ الخرمية كما ذكرنا ؛ وعرض عليه مساعدته له في ثورته على الخليفة العباسي . ويقول الطبري^(٢) إن المازيار لما عزم على الخلاف دعا الناس إلى البيعة ، فبايعوه كرهًا ، وأخذ منهم الرهائن ، فحبسهم في برج الإصهبند ، وأمر أكره الضياع بالوثوب بأرباب الضياع وانهابهم . « وما يؤيد اتصال المازيار ببابك واتفاقه

(١) كتاب السيادة العربية والاشترائية في عهد بني أمية ، ترجمة المؤلف ص ٩٩ — ١٠٠ .

(٢) ج ١٠ ص ٣٤٩ .

معه على الشقاق ، ما ذكره صاحب كتاب الفرق بين الفرق^(١) : « وكانت فتنة مازيار قد عظمت في ناحيته ، إلى أن أخذ في أيام المعتصم . . . وصب بسر من رأى بخداء بابك الخرمي . وأتباع مازيار اليوم في جبلهم أكسرة^(٢) ، يظهرون الإسلام ويضمرون خلافه . »
كان المازيار من دهاقين الفرس ، يخضع مباشرة للخليفة العباسي دون ولاية خراسان من آل طاهر . وانهز فرصة انشغال الدولة العباسية بحرب بابك الخرمي ، فاتصل به وبالأفشين سرا ، وعمل ثلاثتهم على نحو الإسلام من بلادهم والتخلص من حكم العرب . فهذه الثورة وأمثالها كانت في الواقع ثورة دينية سياسية معا ، يراد بها الاستقلال عن الدولة العباسية ، وهي في الوقت نفسه حركة شعبية ، تعمل على حط شأن العرب وإزالة دينهم ودولتهم .

* * *

وكان الأفشين من بلاد أشروسنة أحد أجزاء بلاد ما وراء النهر الواقعة بين أقاليم فَرَغانة شرقا وسمرقند غربا والشاس شمالا . وكان هو وأبوه في خدمة الخليفة المعتصم ، فولاه قيادة إحدى الفرق التي سيرها لغزو عمورية ، فاشتهر في حروبه حتى وثق به المعتصم ، وقربه إليه ، وولاه حرب بابك الخرمي .

ولكن الأفشين عرف بالتعصب لبلاده ، حتى إنه لم يصله وهو يحارب بابك مال أو هدية ، إلا أرسلها إلى بلاده . وقد قيل إن عبد الله بن طاهر قبض على كثير من هذه الأموال وهي في طريقها إلى أشروسنة^(٣) . وكان الأفشين — كما كان بابك والمازيار من قبله — يسعى إلى الاستقلال ببلاده ، والخروج على الإسلام والدولة العباسية معا ؛ كما كان يعتقد أنه لا سبيل إلى نصرته المجوسية إلا على أيديهم . ويقول الأستاذ براون^(٤) : « إن الأفشين لم يكن في ميوله ونشأته الفارسية أقل وطنية وعظفا على الفرس من هذين الرجلين اللذين صحباه في نهائيه المحزنة » ، حتى قيل إنهم وجدوا في داره أصناما زعموا أنها كانت قد حملت إليه^(٥) ، وأنه كان يعبدها ، كما وجدوا عنده كتباً للزندقة . وما يدل على أنه كان يكره العرب ويظهر الإسلام ويبطن الكفر قوله : « إني قد دخلت لهؤلاء القوم (العرب) في كل شيء أكرهه ، حتى أكلت منهم الزيت ، وركبت الجمل ، ولبست النعل . غير أني إلى هذه الغاية ، يعني لم يَطْمَسْ^(٦) ولم يَحْتَن . وقد عبر أبو تمام عن عقيدة الأفشين في هذه الآيات :

قد كان يوأه الخليفة جانيسا من قلبه حَرَمًا على الأقدار

(١) ١٠ ص ٢٥١ - ٢٥٢ . (٢) عمال الأراضي .

(٣) الطبري ج ١٠ ص ٣٦٣ . (٤) Lit. Hist. of Persia, vol. 1, p. 330 .

(٥) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٣٥٤ .

(٦) لم يطل أي لم يزل شعره بالنورة (مادة لازالة الشعر) .

فإذا ابن كافرة يسر بكفره وجدّا كوجد فرزدق بنوار (١)
ما زال سر الكفر بين ضلوعه حتى اصطلى شر الزناد الوارى
صلى لها حيّا وكان وقودها ميتا ويدخلها مع الفجار

كما أباح الأفشين لنفسه أكل المنخنقة من الحيوانات ، بحجة أن لحما أرطب من لحم المذبوح ، وكان لا يذبح على طريقة المسلمين ، فيأتى فى كل يوم أربعاء وينصف شاة بسيفه ، ويسمر وسطها ، ثم يأكل لحما جريا على عادة قومه . وكان ، كالمقنع الخراسانى ، حين يكاتب قومه يبدأ بقوله ، « من إله الآلهة إلى عبده فلان » .

وقد ذكر المسعودى (٢) أن المازيار بعد أن قبض عليه « أقر على الأفشين أنه بعثه على الخروج والعصيان ، لمذهب كانوا اجتمعوا عليه ، ودين اتفقوا عليه من مذاهب الثنوية والمجوس » .

ومن محاكمة المعتصم للأفشين ، تبين مبلغ تعصب الأفشين لدينه ووطنه ، وتنكشف لنا سلسلة التهم التى رى بها ، كما تبين لنا اهتمام المعتصم بكشف غوامض هذه المؤامرة الخطيرة التى دبرها الأفشين وأنصاره . لذلك نراه يعقد محاكمته مجلسا برياسته ، ومعه وزيره محمد بن عبد الملك الزيات ، وقاضيه ابن أبى دؤاد ، وكثير من رجالات الدولة . وهالك ما ذكره الطبرى (٣) عن هذه المحاكمة التاريخية الكبرى :

« وذكر عن هارون بن عيسى بن منصور أنه قال : شهدت دار المعتصم وفيها أحمد بن أبى دؤاد وإسحاق بن إبراهيم بن مصعب ومحمد بن عبد الملك الزيات ، فأتى بالأفشين ، ولم يكن بعد فى الحبس الشديد ، فأحضر قوم من الوجوه لتبكيه الأفشين بما هو عليه . ولم يترك فى الدار أحد من أصحاب المراتب إلا ولد المنصور ، وصرف الناس وكان المناظر له محمد بن عبد الملك الزيات . وكان الذين أحضروا المازيار صاحب طبرستان والموتى والمرزبان بن تركش ، وهو أحد ملوك السغد ، ورجلان من أهل السغد . فدعا محمد بن عبد الملك بالرجلين ، وعليهما ثياب رثة ، فقال لهما محمد بن عبد الملك : ماشأنكما ؟ فكشفا عن ظهرهما وهى عارية من اللحم فقال له محمد : تعرف هذين ؟ قال نعم ! هذا مؤذن ، وهذا إمام بنيامسجدا بأشروسنة ، فضربت كل واحد منهما ألف سوط ، وذلك أن بينى وبين ملوك السغد عهدا أو شرطاً أن أترك كل قوم على دينهم وما هم عليه ، فوثب هذان على بيت كان فيه أصنامهم — يعنى أهل أشروسنة — فأخرجنا الأصنام واتخذاه مسجدا فضربتهما على هذا ألفا ألفا ، لتعديهما ومنعهما القوم من بيعتهما .

(١) نوار زوجة الفرزدق ، وكان قد طلقها فقدم على ذلك ، وقال :

ندمت ندامة الكسعى لما غدت منى مطافه نوار
وبت كفاقد عينيه عمداً فأصبح ما يضىء له نهار

(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٣٥٤ . (٣) ج ١٠ ص ٣٦٥ — ٣٦٧ .

فقال له محمد : ما كتابك عندك قد زينته بالذهب والجوهر والديباج فيه الكفر بالله ؟ قال هذا كتاب ورثته عن أبي ، فيه أدب من العجم ، وما ذكرت من الكفر ، فكشنت استمتع منه بالأدب وأترك ما سوى ذلك . ووجدته محكي ، فلم تضطرنى الحاجة إلى أخذ الحلية منه ، فتركته على حاله ، ككتاب كيلة ودمنة وكتاب مزدك فى منزلك ، فما ظننت أن هذا يخرج من الإسلام . ثم تقدم الموبذ فقال : إن هذا كان يأكل الخنوقة ويحملنى على أكلها ، ويزعم أنها أرطب لحما من المذبوحة . وكان يقتل شاة سوداء كل يوم أربعاء يضرب وسطها بالسيف ، ثم يمشى بين نصفها ويأكل لحما . وقال لى يوما : إني قد دخلت لهؤلاء القوم فى كل شيء أكرهه حتى أكلت لهم الزيت وركبت الجمل ولبست النعل ، غير أنى إلى هذه الغاية لم تسقط عنى شعرة ، يعنى لم يطّل ولم يخنن . فقال الأفشين : خبّرني عن هذا الذى يتكلم بهذا الكلام ، ثقة هو فى دينه ؟ وكان الموبذ مجوسياً ، أسلم بعد على يد المتوكل وناداه . قالوا لا ، قال فما معنى قبولكم شهادة من لا تثقون به ولا تعدّون له ؟ ثم أقبل على الموبذ فقال : هل كان بين منزلى ومنزلك باب أو كوة تطلع على منها ، وتعرف أخبارى منها ؟ قال لا ، قال أفليس كنت أدخلك إلى وأبشك سرى ، وأخبرك بالأعجمية وميلى إليها ، وإلى أهلها ؟ قال نعم . قال فلست بالثقة فى دينك ولا بالكريم فى عهدك ، إذا أفشيت على سرا أسرته إليك . ثم تمنى الموبذ وتقدم المرزبان ابن تركش ، فقالوا للأفشين : هل تعرف هذا ؟ قال لا ، فقيل للمرزبان : هل تعرف هذا ؟ قال نعم ، هذا الأفشين . قالوا له : هذا المرزبان ، فقال له المرزبان : يا بمخرق كم تدافع وتموه ؟ قال له الأفشين : يا طويل اللحية ما تقول ؟ قال كيف يكتب إليك أهل مملكته ؟ قال : كما كانوا يكتبون إلى أبى وسجدي . قال فقل ، قال لا أقول ، فقال المرزبان : أليس يكتبون إليك بكذا وكذا بالأشروسنية ؟ قال بلى ، قال أفليس تفسيره بالعربية إلى إله الآله من عبده فلان ابن فلان ؟ قال بلى ، قال محمد بن عيد الملك : والمسلمون يحملون أن يقال لهم هذا ؟ فما بقيت أفرعون حين قال لقومه أنا ربكم الأعلى ؟ قال كانت هذه عادة القوم لأبى وسجدي ولى قبل أن أدخل فى الإسلام ، فكرهت أن أضع نفسى دونهم فتفسد على طاعتهم ، فقال له إسحق بن إبراهيم بن مصعب : ويحك يا خيذر ، كيف تحلف بالله لنا ، فنصدقك ونصدق يمينك ، ونجريك مجرى المسلمين وأنت تدعى ما ادعى فرعون ؟ قال يا أبا الحسين هذه سورة قرأها عجيف على على بن هشام ، وأنت تقرأها على ، فانظر غدا من يقرؤها عليك . ثم قدّم ما زيار صاحب طبرستان فقالوا للأفشين تعرف هذا ؟ قال لا ، قالوا للبازيان تعرف هذا ؟ قال نعم قد عرفته الآن ، قالوا هل يكتبته ؟ قال لا . قالوا للبازيان هل كتب إليك ؟ قال نعم ، كتب أخوه خاش إلى أخى قوهيار ، أنه لم يكن ينصر هذا الدين الأبيض غيرى وغيرك وغير بابك ، فإنه بحمقه قتل نفسه . ولقد جهدت أن أصرف عنه الموت ، فأبى حمقه إلا أن دلّاه فيما وقع فيه ، فإن خالفت لم يكن للقوم من يرمونك به غيرى ، ومعى الفرسان وأهل النجدة

والباس . فان وجهت إليك لم يبق أحد يحاربنا إلا ثلاثة : العرب والمغاربة والآتراك .
والعربي بمنزلة الكلب ، إطرح له كسرة وأضرب رأسه بالدبوس ، وهؤلاء الذئاب يعنى
المغاربة ، إنهم أكلة رأس . وأولاد الشياطين ، يعنى الآتراك ، فانما هي ساعة حتى تنفذ
سهامهم ، ثم تجول الخيل عليهم جولة فتأتى على آخرهم ، ويعود الدين إلى ما لم يزل عليه أيام
العجم . فقال الأفشين : هذا يدعى على أخيه وأخى دعوى لا يجب على ، ولو كنت كتبت بهذا
الكتاب إليه لاستميله إلى ويثق بنا حتى ، كان غير مستنكر ، لأنى إذا نصرت الخليفة يسدى
كنت بالجلسة أخرى أن أنصره ، لأخذ بقفاه وآتى به الخليفة لأحظى به عنده كما حظى به
عبد الله طاهر عند الخليفة . ثم نحى المازيار . ولما قال للرزبان التركشى ما قال ، وقال لإسحاق
ابن إبراهيم ما قال ، زجر ابن أبي دؤاد الأفشين فقال : أنت يا أبا عبد الله ترفع طيلسانك
بيدك فلا تدعه على عاتقك حتى تقتل به جماعة ، فقال له ابن أبي دؤاد :

أمطر أنت ؟ قال لا ، قال فما منعك من ذلك وبه تمام الإسلام ، والطهور من النجاسة ؟
قال : أو ليس فى دين الإسلام استعمال النقية ؟ قال بلى ، قال خفت أن أقطع ذلك العضو من
جسدى فأموت ، قال : أنت تطعن بالرمح وتضرب بالسيف ، فلا يمنعك ذلك من أن تكون
فى الحرب ، وتجزع من قتل قلفة ؟ قال تلك ضروره تعينى ، فأصبر عليها إذا وقعت . وهذا
شئ أستجلبه ، فلا آمن معه خروج نفسى ، ولم أعلم أن فى تركها الخروج من الإسلام . فقال ابن أبي
دؤاد : قد بان لكم أمره يا بغا (لبغا الكبير أبو موسى التركى) عليك به . فضرب يده بغا
على منطقته فغذبا فقال : قد كنت أتوقع هذا منك قبل اليوم ، فقلب بغا ذيل القسياء على
رأسه ، ثم أخذ بمجامع القباء من عند عنقه ، ثم أخرجه من باب الوزيرى إلى محبسه .

ولكن خاتمة الأفشين لم تكن كخاتمة بابك . فانه أودع السجن ومات مسموما ، ثم
أخرجت جثته ، فصليت ، وأحرقت مع الأصنام التى وجدت فى داره ، وذلك سنة ٢٢٦ هـ .

وقد علق ميور ^(١) على محاكمة الأفشين بقوله : إنها تبين لنا بجلاء كيف كان تمسك أهالى
ولايات الدولة العباسية الشرقية بدينهم الوثنى ، وذلك لبعدهم عن مركز هذه الدولة ، ولأن الإسلام
لم يكن قد وصل إلى قلوبهم ، ثم لتحصنهم فى بلادهم المنيعه وقربهم من الآتراك الوثنيين . وقد
خلص ميور من ذلك بهذا الرأى ، وهو أن إسلام بعض أهالى فارس إنما كان إسلاما ظاهريا ،
وأنهم كانوا لا يزالون متمسكين بعقائدهم المجوسية القديمة ، وأنهم كانوا ينتهزون الفرصة المواتية
ليرتدوا عن الإسلام ويعودوا إلى دينهم القديم . ومصدق ذلك ما رأيناه من ظهور هذه
الحركات التى أشعل نيرانها سنباز المجوسى ، وأنصار أبي مسلم الخراسانى ، وبابك الخرمى .

٤ — الزنادقة :

كان أشد الثورات بأسا وأكثرها خطرا في العصر العباسي الأول ، تلك الثورات التي أذكي نيرانها الزنادقة ، الذين تبعد تعاليمهم عن تعاليم الإسلام وعقائده ، وتقوم على نوع من الديمقراطية الفاسدة ، التي تبيح المحرمات وتعبث بالأداب الاجتماعية ، وتعرض الحياة السياسية والاجتماعية للخطر .

وللزنادقة عدة معان تختلف باختلاف العصور : فقد كان العرب يطلقون لفظ « زنديق » على من ينفي وجود الله سبحانه ، أو ينكر حكمته ، أو يقول إن له شريكا . وفي ذلك يقول ابن الراوندي : (١)

كم عاقل عاقل أعيت مذاهبه وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا
هذا الذي ترك الأوهام حائرة وصير العالم التحرير زنديقا
وقيل إن الزنديق من يبطن الكفر ويظهر الإيمان . وفي ذلك يقول الشاعر :

بغداد دار لأهل المال طيبة وللبغاليس دار الضنك والضيق
ظلت حيران أمشي في أزقتها كأنني مصحف في بيت زنديق (٢)

وكان لفظ زنديق يطلق أول الأمر على كل من يتأثر بالفرس في عاداتهم وحضارتهم ، ويسرف في العبث والمجون ، ثم صار يطلق بعد ذلك على كل من يتخذ عقائد المانوية شعارا له ، ويتمسك بعقيدة الثنوية ، وعبادة إلهين اثنين ، واتباع تعاليم ماني . ثم توسعوا في العصر العباسي في إطلاق لفظ الزنادقة ، فأصبح يطلق على من ينكر الألوهية ، أو يتظاهر بالظرف . ويرجع تاريخ الزنادقة إلى أواخر العصر الأموي ، فقد كان عبد الصمد بن عبد الأعلى مربي الخليفة الأموي الوليد بن يزيد بن عبد الملك ومؤدبه زنديقا (٣) . كما كان الجعد بن درهم ، الذي ينسب إليه مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، فيقال مروان الجعدي ، زنديقا .

وقد ذكر ابن النديم (٤) أن الجعد كان مؤدبا لمروان ولولده ، وأنه أدخله في الزنادقة . وكان خالد بن عبد الله القسري ، على الرغم من اتهامه بالزنادقة ، شديدا على الزنادقة ، حتى إنه حبس الجعدي بن درهم وقتله يوم عيد الأضحى ، وجعله بدلا من الأضحية بعد أن أعلن ذلك على المنبر في عهد هشام بن عبد الملك الأموي .

ولم تقو الزنادقة على الظهور إلا بعد قيام الدولة العباسية ، حيث انتشرت في الكوفة . وتكلم الجاحظ الذي عاش في عصر المأمون على كتب الزنادقة فوصفها لنا وصفا دقيقا . وإن ما ذكره عن هذه الكتب يطابق ما وصل إلينا عن كتب المانوية . وجاء أبو الفرج الأصفهاني

(١) كتاب فيصل التفرقة بين الإسلام والزنادقة للقرابي ص ٣٢ .

(٢) أنظر لفظ بغداد في معجم البلدان لياقوت . (٣) الأغاني ج ٦ ص ١٣١ — ١٣٢ .

(٤) كتاب الفهرست ص ٤٧٢ .

(+ ٣٤٨ هـ) بعده فقال عن الزنادقة في كتابه الأغاني (١)، إنهم كانوا يعرفون بالثنوية وعبادة إلهين اثنين، واتباع تعاليم ماني، .

ومن الأسباب التي أدت إلى انتشار الزندقة، أنها كانت وسطا بين النصرانية والزرادشتية اتباع زرادشت أحد أنبياء الفرس (وأشهرهم زرادشت وماني ومزدك)، وأن ذلك كان سببا في تأثير الزندقة في أهل هذه النجل، كما أن شعائرها كانت قريبة الشبه بشعائر الإسلام، فإن المانوي، كالمسلم، له عدد من الصلوات في اليوم والليلة، (أربع أو سبع)، كما كانت لهم طهارة قبل الصلاة كالوضوء عند المسلمين.

اضطهد بعض الخلفاء العباسيين أشياع هذه التعاليم، فتعقبهم المهدي، وأنشأ ديوانا عهد به إلى رجل أطلق عليه «صاحب الزنادقة»، ومهنته القضاء عليهم وعلى تعاليمهم. وكان المهدي يقتل على الظنة كل من رمى عنده بالزندقة. ولما وصل إلى حلب أمر بتتبع الزنادقة وقتلهم، ومزق أجسادهم شرمزق. ويقول صاحب الأغاني (٢) إن المهدي لما نزل البصرة دفع بشارا إلى حمويه صاحب الزنادقة وقال له: اضربه ضرب التلف. وقال المسعودي إن هذا الخليفة أسرف في قتل الملحدين، وأنشأ هذا الديوان الذي عهد به إلى صاحب الزنادقة للبحث عن الزنادقة ومحاكمتهم، كما ألف هيئة عليية لمناظرتهم ووضع الكتب للرد عليهم. وليس أدل على اهتمام المهدي بأمر الزنادقة وعمله على التشكيل بهم والقضاء عليهم، من وصيته ابنه موسى الذي اعتلى عرش الخلافة العباسية من بعده وتلقب بالهادي. وفي ذلك يقول الطبري (٤): «إن المهدي قال لموسى يوما، وقد قدم إليه زنديق فاستتابه، فأبى أن يتوب، فضرب عنقه وأمر بصليبه: يا بني! إن صار لك هذا الأمر، فتجرد لهذه العصابة — يعني أصحاب ماني — فانها فرقة تدعو الناس إلى ظاهر حسن، كاجتناب الفواحش والزهد في الدنيا والعمل للآخرة، ثم تخرجها إلى تحريم اللحم ومس الماء الطهور وترك قتل الهوام تخرجها وتحوشها، ثم تخرجها من هذه إلى عبادة اثنين: أحدهما النور والآخر الظلمة، ثم تبع بعد هذا نسكاح الأخوات والبنات والاعتسال بالبول وسرقة الأطفال من الطرق، لتنفذهم من ضلال الظلمة إلى هداية النور. فارفع فيها الخشب، وجرد فيها السيف، وتقرّب بأمرها إلى الله لا شريك له. فأبى رأيت جدك العباس في المنام قلّدني سيفين، وأمرني بقتل أصحاب الاثنين».

وقد انتشرت الزندقة حتى سرت إلى بيوت الوزراء والشعراء، فيحدثنا صاحب الفخري (٥) أن الربيع بن يونس حاجب الخليفة المهدي قد اتهم ابن معاوية بن يسار الذي وزر الخليفة

(١) ج ٣ ص ٧٣، ٨٦ . (٢) ج ٣ ص ٧٣ .

(٣) مروج الذهب ج ٢ ص ٤٠١ . (٤) ج ١٠ ص ٤٢ .

(٥) ص ١٦٣ — ١٦٦ .

بسبب منافسته للوزير ، فبعث إليه المهدي « فسأله عن شيء من القرآن العزيز ، فلم يعرف ، فقال لأبيه ، وكان حاضرا ، ألم تخبرني أن ابنك يحفظ القرآن ؟ قال : بلى يا أمير المؤمنين ، ولكن فارقتي منذ مدة فنسيه ، فقال له : قم فتقرب إلى الله بدمه ، فقام أبو عبيد الله ، فعثر ووقع وارتعد ، فقال العباس بن محمد عم المهدي : يا أمير المؤمنين إن رأيت أن تسعفي الشيخ من قتل ولده ويتولى ذلك غيره ، فأمر المهدي بعض من كان حاضرا بقتله ، فضربت عنقه ، ثم احتجب الوزير وانقطع بدارة حتى مات سنة ١٧٠ هـ .

ولما ولي الهادي الخلافة اشتد على الزنادقة ، فقتل منهم جماعة كبيرة . ويقول الطبري^(١) : فكان ممن قتل منهم يزدان بن باذان كاتب يقططين وابنه علي بن يقططين من أهل النهروان . ذكر عنه أنه حج ، فنظر إلى الناس في الطواف يهرولون ، فقال ما أشبههم إلا بيقر تدوس في اليبدر . وله يقول أبو العلاء بن الحداد الأعمى :

أيا أمين الله في خلقه ووارث الكعبة والميبر
ما ذا ترى في رجل كافر يشبه الكعبة بالبيدر
ويجعل الناس إذا ما سعوأ حمرا تدوس البر والدوس

فقتله موسى الهادي ، فسقطت خشبته على رجل من الحاج ، فقتلته وقتلت حمارة . وقد روى الطبري أن الهادي قال : « لئن عشت لأقتلن هذه الفرقة كلها ، حتى لا أترك منها عينا تطرف . ويقال إنه أمر أن يهيا له ألف جذع فقال : هذا في شهر كذا ومات بعد شهر » . وصار القضاء على أتباع هذه الطائفة ديدن المهدي وشغله الشاغل . وجاء ابنه الهادي فسار في ذلك سير أبيه . كما عين الرشيد رجلا عرف بصاحب الزنادقة ، فكان يمتحن كل من يتهم بالزندقة ويعاقب من ثبت عليه بكل أنواع العقوبة . ولم تقتصر هذه العقوبة على الفرس وحدهم ، بل كان هناك كثير من العرب من أمثال صالح بن عبد القدوس ، ومطيع بن إياس الشاعر الذي عاش في عهد المنصور والمهدي . وقد جرى بابنته أهام الرشيد ، واعترفت بأن أباهما لقنها تعاليم الزنادقة ، وأنها قرأت كتاب المانوية^(٢) . ويقول ابن النديم^(٣) : إن أكثر البرامكة كانوا زنادقة ، حتى زعم البعض أن ذلك كان من أهم أسباب نكبتهم^(٤) . وقد ذكر ابن قتيبة في كتابه المعارف^(٥) أن الأصمعي رماه بالكفر فقال :

(١) ج ١٠ ص ٢٣ .

(٢) الأغاني ج ١٢ ص ٨٥ .

(٣) الفهرست ص ٤٧٣ .

(٤) الطبري ج ١٠ ص ٣٢٠ .

(٥) طبعة وستنفلد ص ١٤٨ .

إذا ذكر الشرك في مجلس أضاءت وجوه بني برمك
وإن تليت عندهم آية أتوا بالأحاديث عن مزدك
وقد كانت الزندقة في العصر العباسي الأول ضرباً من ضروب الظرف والتشقيف . يدلنا
على ذلك ما قاله أحد الشعراء المسلمين لصديق له يصفه بالظرف :

يا بن زياد يا أبا جعفر أظهرت ديناً غير ماتحفي
مزدق الظاهر باللفظ في باطن إسلام قتي عف
لست بزنديق ولكننا أردت أن توسم بالظرف

ويكاد يصور لنا هذه الحالة بأجلى بيان أبو نواس في قوله يذم أبان بن عبد الحميد اللاحقي
وكان زنديقا :

جالست يوماً أبانا لا درّ درّ أبان
ونحن حضر رواق الـ أمـير بالنهروان
حتى إذا ما صلاة الـ أولى دنت لأوان
فقام ثم بها ذو فصاحة ويـان
فكلّ ما قال قلنا إلى انقضاء الأذان
فقال كيف شهدتم هذا بغير عيـان
لا أشهد الدهر حتى تعـان العينان
فقلت سبحان ربّي فقال سبحان ماني
فقلت موسى نجيّ الـ مهميمن المنـان
فقال ربك ذو مـة لـسـان
أنفسه خلقتـه أم من ؟ فقمّت مكاني
وقت أسحب ذيلي عن هازل بالقران
عن كافر يتارى بالكفر بالرحمن
يريد أن يتساوى بالعصبة الميجان
بعجرد وعـباد والواليّ الهيجان
وابن الإياس الذي نا ح نخلي حلوان
وابن الخليل على ريحانة الندمان (١)

(١) كتاب الحيوان للجاحظ ج ٤ ص ١٤٣ — ١٤٤ ، وديوان أبي نواس .
ذكر ابن النديم في كتابه الفهرست (ص ٤٧٣) طائفة من الشعراء الزنادقة : منهم بشار بن برد ،
واسحق بن خلف ، وسلم الحاسر ، وعلي بن الخليل ، وعلي بن ثابت .

وقد بقيت الزندقة بعد عصر الرشيد حتى تسربت إلى بلاط المعتصم ، فقد كان قائده الأفشين يدين بعقائد المانوية . ولا نظن أنها زالت بموته ، بل لا بد أنها سارت شوطا بعيدا بعد تغلب الأتراك على الدولة العباسية .

وللزنادقة أبحاث في العلم والأدب والسياسة ، إذ تأثر بها الأدباء والمفكرون ، حتى إن طائفة كبيرة من أدباء هذا العصر ومفكره بذلوا الجهد في مكافحة الزندقة والرد على الزنادقة ، ومن ثم نشأ علم الكلام . وكان واصل بن عطاء أول من تصدى للرد عليهم ، وأنكر على بشار بن برد الزندقة والإلحاد لقوله :

إبليس أفضل من أيكم آدم فتبينوا يا معشر الأشرار
النار عنصره وآدم طينة والطين لا يسمو سمو النار^(١)
الأرض مظلمة والنار مشرقة والنار معبودة منذ كانت النار^(٢)

وبهذا البيت الأخير وجد واصل بن عطاء السبيل إلى زندقة بشار وتكفيره ، فقال فيه :
« أما لهذا الأعمى الملمح المشنف المكنتى بأبى معاذ من يقتله ؟ . أما والله لولا أن الغيلة سجية من سجايا الغالية^(٣) ، لبعثت إليه من يبيع بطنه على مضجعه ، ويقتله في جوف منزله^(٤) . »
ويقال إن بشارا كان كثير المدح لواصل بن عطاء قبل أن يدين بالرجعة ويكفر جميع الأئمة ، فلما قال فيه واصل ما قال هجاه بقوله :

مالى أشابع غزالا له عنق كنفتق الدو^(٥) إن ولى وإن مثلا
عنق الزرافة ما بالى وبالكم تكفرون رجالا أكفروا رجلا

وكان لأبى الهذيل العلاف شيخ المعتزلة مناظرات طويلة مع الزنادقة ؛ وقد قيل إنه ناظر يوما صالح بن عبد القدوس — وكان ثنويا معروفا — فقال : « على أى شيء تعزم يا صالح ؟ قال أستخير الله وأقول بالاثنتين ، فقال أبو الهذيل : فأيهما استخرت لا أم لك ؟ مات لصالح ابن فذهب إليه أبو الهذيل ومعه النظام ، وهو غلام حدث ، فرآه حزينا فقال : لا أعرف لجزعك وجها ، فقال : أجزع لأنه لم يقرأ كتاب الشكوك . قال : وما كتاب الشكوك ؟ قال : كتاب وضعته ، من قرأ فيه شك ، حتى يتوهم أنه لم يكن ، وفيما لم يكن ، حتى يظن أنه قد كان . قال أبو الهذيل : فشك أنت في موت ابنك ، واعمل على أنه لم يمت ، وإن كان قد مات ، فشك أنه قد قرأ ذلك الكتاب ، وإن لم يقرأه . »

وهكذا كانت مناظرات أبى الهذيل الذى حول عددا كبيرا من المجوس الثنوية إلى

(١) أبو العلاء المعرى : رسالة الغفران ج ١ ص ١٧٦ . (٢) الأغاني ج ٣ ص ٢٤ .

(٣) هم الزنادقة الخناقون من المغيرة والمنصورية ، وقد ظهوروا في أواخر الدولة الأموية .

(٤) كتاب البيان والتبيين ج ١ ص ١٠ . (٥) التفتق الصوت ، والدو المقازة .

الإسلام (١). كذلك فعل عمرو بن عبيد بن جريح بن حازم الأزدي السلمي في البصرة (٢). ثم ظهر النظام (٣)، وهو أحذق من تكلم في الإشراق (٤)، ولم يزل يشن الغارة على الثنوية وغيرهم من الفرق الأخرى.

ولا غرو فقد تصدى المتكلمون للرد على الزنادقة. ولكن كثيرا منهم ظل، على الرغم من إلخامه، متمسكا بعقائد الزندقة. فقد ذكر ابن النديم (٥) عنده كلامه على يزدان بنحت وهو الذي أحضره المأمون من الري بعد أن أمنه، فقطعه المتكلمون، فقال له المأمون: «أسلم يا يزدان بنحت، فلو لا ما أعطيناك إياه من الأمان لكان لنا ولك شأن، فقال له يزدان بنحت: نصيحتك يا أمير المؤمنين مسموعة وقولك مقبول، ولكنك بمن لا يجبر الناس على ترك مذاهبهم، فقال المأمون: أجل».

٢ - ظهور الحزب العلوي في ميدان السياسة واعتماده على السيف

(١) ثورة محمد وإبراهيم في الحجاز والعراق:

لم ينس العلويون حقهم في الخلافة منذ مقتل الحسين بن علي في كربلاء، بل كان ذلك شغلهم الشاغل. فإنهم ما فتئوا في كل أدوار حياتهم يتذرعون إلى تمثيل حقهم بكل وسيلة، فإذا وجدوا الفرصة سانحة لأعمال القوة وتجريد السيف اغتصموا ولم يدعوا تمر، وإذا أنسوا من أنفسهم ضعفاً استكانوا، مكتفين بلقب الإمامة وقرابتهم من النبي، وآثروا المعيشة الهادئة والاشتغال بالتجارة والانصراف إلى الدين على الاشتغال بالسياسة والحرب، اللهم إلا في أواخر أيام الدولة الأموية، حين قام زيد بن علي بن الحسين وابنه يحيى في عهد هشام ابن عبد الملك.

نعم! لقد عاش العلويون عيشة هادئة، إلى أن ظهرت الدعوة لآل البيت على أيدي العباسيين، فلم يترجسوا بأنفسهم فيها، بل تركوا الأمور تجري في مجراها الطبيعي، حتى كانوا لهم عصبية قوية بالمصاهرة، وكسبوا رضا أهل المدينة، فأولاهم عطفهم واحترامهم، وأظهروا استعدادهم إلى الانضمام إليهم وإلى دعوتهم.

وكانت الدعوة في ذلك الوقت إلى الرضا من آل محمد، وكان الناس لا يسألون كثيراً

(١) كتاب الانتصار في الرد على ابن الراوندي الحياط ص ٨١.

(٢) كتاب طبقات المعتزلة ص ٢٧. (١) الأغاني ج ٣ ص ٢٤.

(٣) كتاب الانتصار في الرد على ابن الراوندي ص ٤٨ — ٥٠.

(٤) انظر كتاب السيادة العربية والشيعية والاسرائيليات في عهد بني أمية، ترجمة المؤلف

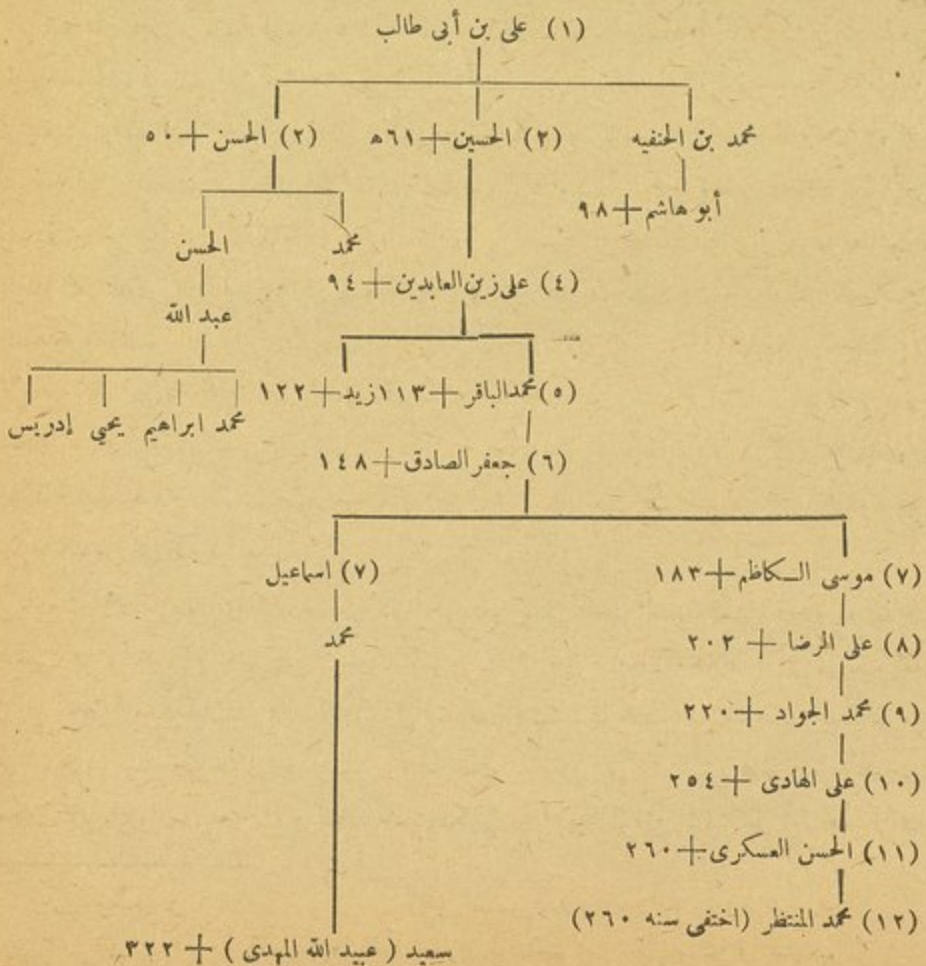
ص ٧٥ — ٧٦.

(٥) كتاب القهرست ص ٤٧٣. وذكر ابن النديم اتهام المأمون بالزندقة فقال: «قرأت بنحت

بعض أهل المذهب أن المأمون كان منهم (أي من الزنادقة) وكذب في ذلك».

أن يتولى أمرهم علوي أو عباسي، وربما كان ذلك راجعاً إلى انشغالهم بحرب بني أمية وعملهم على القضاء على دعوتهم. ولما غلب الدعاة على الكوفة وجدوا أبا العباس السَّفَّاح بينهم، وقد عهد إليه أخوه إبراهيم الإمام، ولم يجدوا من بين آل عليٍّ من يستطيع أن يحوّلهم عن بني العباس؛ إذ لم يكن للعلويين في ذلك الوقت من القوة وكثرة الأنصار ما يساعدهم على الوصول إلى الخلافة، فلم يروا بداً من الهدوء حتى انتهت لهم الأحوال فيقومون بطلبها. فلما ظفر العباسيون بالخلافة، وأقاموا دولتهم على أنقاض دولة بني أمية، لم يرمق ذلك في نظر العلويين، ولم تطيب بذلك نفوسهم، على الرغم من أن الجميع من أولاد هاشم، وعلى الرغم من كونهم يدأواحدة ضد بني أمية، واشتراكهم في العمل على إزالة دولتهم؛ إذ أدركوا أن العباسيين قد خدعهم وإستأثروا بالخلافة دونهم، مع أنهم أحق بها منهم، فتابذوهم العداوة، ونظروا إليهم كما كانوا ينظرون إلى الأمويين من قبل، فظلموا يئساضلون ويكافون ابتغاء الوصول إلى حقهم في الخلافة. وكانوا في هذا الدور يعملون في طي الخفاء بما مهروا فيه من فنون الدعوة والمكايد والخدع.

البيت العلوي



١ — ثورة محمد و ابراهيم في الحجاز والعراق :

وأول الخارجين من العلويين في أيام العباسيين محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب وأخوه ابراهيم . واشتهر من أولاد الحسين في ذلك الوقت جعفر الصادق بن محمد الباقر إمام الشيعة الإمامية ، ولكنه لم يحرك ساكناً ، وأوصى أصحابه بالخلاوة إلى السكينة حتى تحين الفرصة للخروج (١) .

وكان محمد النفس الزكية أول المتطوعين إلى الخلافة من العلويين ، على الرغم مما بذله العباسيون في سبيل استرضائهم : فمن إجزال للعطايا ، إلى لين في القول . غير أن ذلك لم يجدهم تفسحاً ، فقد كان محمد هذا يرى أنه أحق بالخلافة . هذا إلى دعوام الأساسية ، من أنهم أولاد علي ، وهو الوصي والامام ، كما ذكره محمد إلى أبي جعفر في المكاتبات التي دارت بينهما .

يقول صاحب الفخرى (٢) عن مبايعة بني هاشم لمحمد النفس الزكية في أواخر أيام بني أمية : « كان بنو هاشم الطالبيون والعباسيون ، قد اجتمعوا في ذيل دولة بني أمية ، وتذاكروا حالهم وما هم عليه من الاضطهاد . وما قد آل إليه أمر بني أمية من الاضطراب ، وميل الناس اليهم ومحبتهم لأن تكون لهم دعوة ، واتفقوا على أن يدعوا الناس سرّاً ، ثم قالوا لا بد لنا من رئيس نبايعه ، فاتفقوا على مبايعة النفس الزكية محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليهم السلام . وكان محمد من سادات بني هاشم ورجلهم فضلاً وشرفاً وعلماً ، وكان هذا المجلس قد حضره أعيان بني هاشم تلوهم وعباسيتهم ، فحضره من أعيان الطالبين الصادق جعفر بن محمد عليهما السلام ، وعبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، وابناء محمد النفس الزكية و ابراهيم قتيب باخترى ، وجماعة من الطالبين ، ومن أعيان العباسيين السفاح والمنصور وغيرهما من آل العباس . فاتفق الجميع على مبايعة النفس الزكية إلا الامام جعفر بن محمد الصادق ، فانه قال لا ييه عبد الله المحض ، إن ابتك لا ينالها (يعني الخلافة) ، وإن ينالها إلا صاحب القباة الأصفر (يعني المنصور) (٣) ، وكان على المنصور حينئذ قسباء أصفر . قال المنصور فرتببت العمال في نفسي من تلك الساعة ، ثم اتفقوا على مبايعة النفس الزكية فبايعوه . »

امتنع محمد عن مبايعة السفاح ، وكان أخوه أبو جعفر يأخذ الدعوة له في الحجاز . وكذلك تخلف هو وأخوه ابراهيم عن البيعة للمنصور ؛ فلما ولي المنصور الخلافة رأى في بقاء محمد وأخيه خطراً يهدد كيانه دولته ، فعمل على التخلص منهما ، كما تخلص من منافسيه عبد الله بن علي ، وأبي مسلم الخراساني من قسبل . وقد بعث المنصور في طلب بني هاشم ، وسأهم عن مكان محمد ، فهوّن البعض الأمر عليه بهذه الكلمات « يا أمير المؤمنين ! قد علم أنك قد عرّفته

(١) الفخرى ص ١٤٦ . (٢) المصدر نفسه ص ١٤٧ — ١٤٨ .

(٣) يظهر أن هذا من وضع الشيعة فانهم ينسبون إلى أئمتهم العلم بالغيب بمالقه في احترامهم .

يطلب هذا الشأن قبل اليوم ، فهو يخافك على نفسه ، وهو لا يريد لك خلافاً ولا يحب لك معصية ، وقال بعض آخر : « والله ما آمن وثوبه عليك ، فانه لئلذى لا ينام عنك فرأيتك (١) » .

ومهما يكن من شيء ، فقد خاف المنصور على نفسه من العلويين ، ورأى أنه لن تقوم لخلافته قائمه إلا إذا ظفر بمحمد وأخيه ، وأعمل الحيل في سبيل الظفر بهما ، فاشترى أبو جعفر رقيقاً من رقيق الأعراب ، ثم أعطى الرجل منهم البعير ، والرجل البعيرين ، والرجل الذؤ (٢) ، وفرقهم في طلب محمد في ظهر المدينة ، فكان الرجل منهم يرد الماء كلاماً وكالضال فيفرون عنه ويتجسسون (٣) .

وقد تعهد زياد بن عبيد الله عامل المنصور على المدينة أن يحدد في طلب محمد وأخيه إبراهيم ، على أنه ما لبث أن تهاون في طلبهما ، واتصل بمحمد سرّاً وساعده على الهرب من المدينة ، فذهب إلى سعدن ثم إلى السند فالكوفة وعاد أخيراً إلى المدينة . وقد قسا المنصور على زياد هذا فعزله وكبله بالحديد ، وصادر أمواله وحجمه وولى مكانه محمد بن خالد القسري (٤) .

وسرعان ما عزّل المنصور محمد بن خالد ، لأنه استبطأه في طلب محمد النفس الزكية ، واتهمه بالتهاون والتفريط في ذلك ، فأرسل رياح بن عثمان بن حيان ابن عم مسئلة بن عتبة المشرقي قائد الحرّة في عهد يزيد بن معاوية . وقد قدم عثمان المدينة سنة ١٤١ هـ ، واعتلى المنبر ، وخطب الناس خطبة لا تختلف في معناها عن خطبة الحجاج بن يوسف في مسجد الكوفة ، تنقل منها ما يلي : « يا أهل المدينة ! أنا الأفعى ابن الأفعى ، عثمان بن حيان ، وابن عم مسلم بن عتبة المييد خضراءكم ، المفنى رجالكم ، والله لأدعنه بلقعا لا يندبج فيها كلب (٥) » .

بيد أن شعور أهل المدينة كان يتدفق حماسه نحو آل علي ؛ فان هذا الوالي لما فرغ من كلامه ، انبرى له قوم منهم ، وفاجئوه بهذه الكلمات المملوءة حقاً على العباسيين فقالوا : « يابن المجلود خدي ! لتكففن أو لتكففنك عن أنفسنا » . ولم يكن بدّ من أن يكتب هذا الوالي إلى المنصور عن سوء طاعة أهل المدينة ، فبعث إليه رسولا من قبيله يحمل كتابه إلى أهلها : « يا أهل المدينة ! فان واليكم كتب إلى يذكر غشكم وخلافكم وسوء رأيكم ، واستمالكم على بيعه أمير المؤمنين ، وأمير المؤمنين يقسم بالله لننّ لم تنذروا استبدلناكم بعدد أمّناكم خوفاً ، وليقتطعن البر والبحر عنكم ، وليسبعن عليكم رجالا غلاظ الأكباد يستاد الأرحام (٦) » .

(١) الطبري ج ٩ ص ١٨٠ .

(٢) الذود من الإبل ما بين الثلاث إلى العشر ، وهي مؤنثة لا واحد لها من لفظها ، وجمعها أذواد .

(٣) الطبري ج ٩ ص ١٨١ .

(٤) الطبري ج ٩ ص ١٨١ — ١٨٧ .

(٥) تاريخ يعقوب ج ٢ ص ٤٥١ .

(٦) المصدر نفسه ج ٢ ص ٤٥١ .

على أن هذا الكتاب لم يكن له أثر في نفوس أهل المدينة ، الذين أجمعوا على الخلاف ، وأبوا إلا خذلان العباسيين وتحويل الخلافة إلى العلويين ، وصاحوا بعامل المنصور من كل جانب ورموه بالحصى ، واضطروه إلى الالتجاء إلى المقصورة ، وإغلاقها عليه ، والهرب من شرهم .

ولم يكن رياح بالذى يتراجع عن تنفيذ سياسة المنصور مهما لاقى في سبيل ذلك من محن وخطوب ؛ لذلك نراه يأتي عبد الله بن الحسن أبا محمد النفس الزكية ، وهو في محبسه ، ويأخذه بالتهديد والوعيد إذا لم يأتيه بابنيه محمد وإبراهيم .

هنا بدأ اضطهاد العلويين الحقيقي ؛ فقد حبس رياح إخوة عبد الله بن الحسن بن الحسن وغيرهم من ذوى قرباه ، وأعلن سبّ ابنه محمد النفس الزكية وإبراهيم ومن ناصرهما من أهل المدينة ، فرماه هؤلاء بالحصى وأنزلوه من على المنبر قهراً حتى استتر خوفاً على حياته .

وكان محمد في ذلك الوقت مستخفياً في المدينة ، فلما سمع بما حلّ بأبيه وأعمامه وغيرهم من ذوى قرباه ، أتى أمّه هنداً وقال لها : « قد حتمت أبي وعمومتى ما لا طاقة لهم به ، ولقد هممت أن أضع يدي في أيديهم ، فعسى أن يخلى عنهم » .

ويحدثنا اليعقوبى والمسعودى أن هنداً ذهبت إلى السجن في زى رسول ، وطلبت مقابلة عبد الله ، ونقلت إليه قول ابنه محمد لتستطلع رأيه في هذا الأمر . بيد أن عبد الله لم يكن بالرجل الذى تلىن قناته ، بل كان يعتقد في أحقية ابنه بالخلافة دون المنصور والسفاح من قبله ، وكان يرى مواصلة العمل وعدم التراخي والتهاون فقال لها : « إني لأرجو أن يفتّح الله به خيراً ويصبر حتى يأتي الله بالفرج ، وقولى له فليدع إلى أمره وليجدّ فيه » . ومضى محمد في نشر دعوته وبنو الحسن بن الحسن مسجونون في المدينة . إلى أن حجّ المنصور في سنة ١٤٤ هـ ؛ فتلّقاه رياح عامل المدينة بالربذة ، فأمره الخليفة بالعودة إلى المدينة وإشخاص العاويين . فلما ملأوا بين يديه وهم مكبلون بالقيود والأغلال ، سألهم عن مقام محمد بن عبد الله فلم يظفر بشيء . فأخذ يعنفهم ونكّل ببعضهم (١) ؛ ثم بعث بهم إلى الكوفة على أقتاب (٢) بغير وطاء (٣) ، وحبسوا — كما يقول المسعودى (٤) — في سرداب تحت الأرض لا يفرقون بين ضياء النهار وسواد الليل ، وغلا المنصور في التنكيل بهم حتى مات أكثرهم (٥) .

وفي سنة ١٤٥ هـ [٧٦٢ م] لم ير محمد بدأ من الظهور ، بعد أن دعا إلى نفسه سرّاً وعاش في الخفاء دهرأ ، أخذ فيه أشياعه من أهل بيته وغيرهم يقيمون له الدعوة ، حتى اعترف الناس

(١) اليعقوبى ج ٢ ص ٤٥٠ .

(٢) الأقتاب جمع قَتَب أو قَتَب وهو الإكاف أو الإكاف الصغير على قدر سنام البعير ، وإكاف الحمار هو البرذعة . (٣) الوطاء بالكسر ضد الفطاء أى بغير براذع ولا غطاء .

(٤) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٤٠ . (٥) الطبرى ج ٩ ص ١٩٨ — ٢٠١ .

بإمامته في مكة والمدينة ، وتلقب بأمر المؤمنين . وكان محمد بن عبد الله — كما وصفه صاحب كتاب الفخرى (١) — « من سادات بني هاشم ورجالهم فضلا وشرفا وعلماء ، وكان متحليا بالصفات الحميدة والخصال الكريمة ، فذاع صيته وعظم احترام الناس له . ولم يكن يميل إلى سفك الدماء والظلم ، وإنما اشتهر بحبه للعفو . وكان زاهداً وناسكاً ، ولذلك لقب بالنفس الزكية وبالمهدي .

ويبدو أن وقت ظهور محمد النفس الزكية لم يكن قد آن أوانه ، وإنما اضطر إلى ذلك اضطراراً . دخل جماعة على محمد وقد اشتد بهم البلاء فقالوا له : « ما تنتظر بالخروج ؟ ما نجد في هذه الأمة أحداً أشأم عليها منك ، ما الذي يمنعك من أن تخرج وحدك ؟ فلم ير بداً من الخروج ، وكان ذلك لليلتين بقيتا من شهر جمادى الآخرة من هذه السنة (١٤٥ هـ) (٢) .

وقد ظن محمد أن الناس أجمعوا على نصرته ، وأنهم كانوا شديدي الميل إليه ، إذ كانوا يعتقدون فيه الفضل والشرف والرياسة ، وساعده على ذلك إفتاء الإمام مالك بنقضبيعة المنصور حيث قال لأهل المدينة : « إنما بايعتم مشركهين ، وليس على مكروه يمين (٣) » ، وتلك الكتب التي كانت تأتيه من الولايات الإسلامية بتأييد الناس له وانتظار خروجه . ولم يكن يدرى أن هذه حيلة دبرها له المنصور على السنة قواده .

أرسل محمد النفس الزكية أخاه إبراهيم إلى البصرة لنشر دعوته . وقد أجمع المؤرخون على أن محمداً خرج في مائتين وخمسين رجلاً ، وأنه توجه إلى السجن وأخرج من كان فيه ، وأمر بحبس عامل المنصور في المدينة ، ثم صعد المنبر وخطب الناس هذه الخطبة (٤) : « أما بعد أيها الناس ، فإنه كان من أمر هذا الطاغية عدو الله أبي جعفر ما لم يخف عليكم ، من بنائه القبة الخضراء التي بناها معانداً لله في ملكه ، وتصغيراً للكهبة الحرام ، وإنما أخذ الله فرعون حين قال أنا ربكم الأعلى . وإن أحق الناس بالقيام بهذا الدين أبناء المهاجرين الأولين والأَنْصار المَواسين . اللهم إنهم قد أحلوا حرامك ، وحرّموا حلالك ، وآمنوا من أخفت ، وأخافوا من آمنت . اللهم فأحصهم عدداً ، واقتلهم ببدأ ، ولا تغادر منهم أحداً . أيها الناس ! إني والله ما خرجت من بين أظهركم . وأنتم عندي أهل قوة ولا شدة ، ولكني اخترتكم لنفسى . والله ما جمعت هذه وفي الأرض مصر يسعبد الله فيه ، إلا قد أخذ لي فيه البيعة .

وإن الناظر في هذه الخطبة ليقف على أن محمداً كان مدفوعاً في خروجه بعدة عوامل : فقد كان ينشد الخلافة ، ويرى أنه أحق الناس بها ، كما كان يقد على المنصور لاعتلائه عرش الخلافة وتعذيبه أهل بيته حتى مات أكثرهم في السجن . وساعد على ذلك موالاته الناس له ، ولا سيما بعد أن أفتى مالك بجواز بيعته ، واعتقاده أنه قد أصبح أقوى من المنصور .

(٢) السعدي : التنبيه والأشراف ص ٣٤٠ .

(١) الفخرى ص ١٤٧ .

(٤) المصدر نفسه ج ٩ ص ٢٠٤ - ٢٠٥ .

(٣) الطبري ج ٩ ص ٢٠٦ .

ظهور إبراهيم بن عبد الله بالعراق :

ولما شدد المنصور في طلب إبراهيم بن عبد الله ، خرج من المدينة قاصداً الكوفة . وأيقن أن أهلها لن يترددوا في الخروج معه ، واتصل نبأ قدومه بالمنصور ، فوضع الأرصاد والجواسيس للقبض عليه والحيلولة دون هربه . ولم ير إبراهيم بن عبد الله بداً من إعمال الحيلة . ويحدثنا اليعقوبي (١) أن إبراهيم أرسل رجلاً من أشياعه يسمى سفيان بن يزيد إلى المنصور ؛ فقال له يا أمير المؤمنين ! تؤمنني وأدلك على إبراهيم بعد أن أدفعه إليك ؟ فقال أنت آمن وأين هو ؟ قال بالبصرة ؛ فوجه معي برجل تثق به ، واحملني على دواب البريد ، واكتب إلى عامل البصرة حتى أدله عليه ، فيقبض عليه ، فوجه معه أباسويد .

وخرج سفيان بن يزيد ومعه غلام عليه جبة من الصوف ، وعلى عنقه سفرة فيها طعام ، وركب معه على خيل البريد أبو سويد وذلك الغلام . فلما وصل البريد إلى البصرة قال سفيان لابي سويد : انتظرني حتى أعرف خبر الرجل ، ومضى ولم يعد . وكان الغلام الذي عليه الجبة الصوف هو إبراهيم بن عبد الله بن الحسن . ومن ذلك الوقت أخذ إبراهيم يثب الدعوة لأخيه محمد (٢) .

ظهر إبراهيم بن عبد الله في البصرة ، واستولى على دار الأمانة (٣) ، وهزم قوات الخليفة المنصور . وشد أزره كثير من فقهاء البصرة وغيرهم من ذوى الرأي والجاه ، وانضوت المعتزلة والزيدية تحت لوائه ، وعاونوه الامام أبو حنيفة ، وراسله سراً ، كما عاون الامام مالك أخاه محمداً بالمدينة . وبهذا كله تمكن إبراهيم من إدخال أهالى واسط والأهواز وفارس في دعوته . ولم يزل إبراهيم يوالى انتصاراته حتى أتاه خبر قتل أخيه محمد ، وذلك قبل عيد الفطر سنة ١٤٥ هـ بثلاثة أيام ، فصلى بالناس يوم العيد ، وقد علا وجهه الحزن ، ودب اليأس إلى قلبه ، ونعى أخاه للناس ، فازدادوا حماسة في نصرة العلويين ، وبايعوا إبراهيم على إمامتهم .

وضع المنصور في تلك السنة أساس بغداد ، وأخذ العمال في العمل ، حتى بلغ ارتفاع السور قامة . على أن خروج محمد بن عبد الله قد حال دون إتمام بناء قاعدة العباسيين الجديدة ، وتحولت

(١) تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٤٥٣ - ٤٥٤ .

(٢) اختلف المؤرخون في السنة التي بدأ فيها إبراهيم بنشر الدعوة لأخيه محمد ، فذكر بعضهم أنه بدأها سنة ١٤٣ هـ ، وذكر بعضهم الآخر أن ذلك كان سنة ١٤٥ هـ ، أى في السنة التي ظهر فيها محمد واستولى على مكة والمدينة . ومع ذلك فالتنازع إلى ما ذكره الطبرى (ج ٩ ص ٢٥٠ - ٢٥١) وهو أن إبراهيم قدم البصرة في أوائل سنة ١٤٣ هـ ، وأقام فيها مستخفياً يدعو أهلها إلى أخيه سراً حتى خرج في غرة رمضان سنة ١٤٥ هـ .

(٣) ذكر الطبرى (ج ٩ ص ٢٥١) أن إبراهيم استولى على دار الأمانة وقبض على سفيان بن معاوية والى البصرة ، وحبسه ، ثم انتقل إلى بيت المال ، فاستولى على ما فيه ، وأعطى كل رجل من جنده خمسين درهما .

بذلك عناية المنصور إلى القضاء على العلويين ، وأظهر من الحسنة السياسية ما أتاح له النصر والظفر . مستعيناً في ذلك بدوى الرأى من رجالات دولته .

قال المسعودى (١) ، لما ظهر محمد بن عبد الله بالمدينة ، دعا المنصور أبا مسلم العقيلي ، وكان شيخاً ذا رأى وتجربة فقال له : أشرْ عليَّ في خارجيَّ خرج علي ، قال : صف لي الرجل ، قال : رجل من ولد فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ذو علم وزهد وورع ، قال : فمن تبعه ؟ قال : ولد عليّ ، وولد جعفر وعقيل ، وولد عمر بن الخطاب ، وولد الزبير ، وسائر قريش ، وأولاد الأنصار . قال له : صف لي البلد الذي قام به ، قال : بلد ليس به زرع ولا كسْرُع ولا تجارة واسعة . ففكر ساعة ثم قال : اشحن يا أمير المؤمنين البصرة بالرجال ، فقال المنصور في نفسه قد خرف الرجل ، أسأله عن خارجيَّ خرج بالمدينة ، يقول لي اشحن البصرة بالرجال ؟ فقال له انصرف يا شيخ ! ثم لم يكن إلا يسير حتى ورد الخبر أن إبراهيم قد ظهر بالبصرة ، فقال المنصور : عليّ بالعقيلي . فلما دخل عليه أدناه ، ثم قال له : إني كنت قد شاورتك في خارجيَّ خرج بالمدينة ، فأشرت عليّ أن أشحن البصرة ، أو كان عندك من البصرة علم ؟ قال : لا ! ولكن ذكرت لي خروج رجل إذا خرج مثله لم يتخلف عنه أحد ، ثم ذكرت لي البلد الذي هو فيه ، فإذا هو ضيق لا يحتمل الجيوش ، فقلت إنه رجل سيطلب غير موضعه ، ففكرت في مصر فوجدتها مضبوطة ، والشام والكوفة كذلك ، وفكرت في البصرة تخفت عليها منه ، فأشرت بشحنها . فقال له المنصور : أحسنت ! وقد خرج بها أخوه ، فما الرأى في صاحب المدينة ؟ قال : نزميه بمثله ، إذا قال أنا ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال هذا : وأنا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال المنصور لعيسى بن موسى : وإما أن تخرج إليه وأقيم أنا أمدك بالجيوش ، وإما أن تكفيني ما أخلف ورائي وأخرج أنا إليه . فقال عيسى : بل أقيك أنا يا أمير المؤمنين ، وأكون الذي يخرج إليه . فأخرجه إليه من الكوفة في أربعة آلاف فارس وألني راجل ، واتبه محمد بن قحطبة في جيش كثيف ، فقاتلوا محمداً بالمدينة حتى قتل وهو ابن خمس وأربعين سنة .

تحقق المنصور من صدق نبوءة أبي مسلم العقيلي ، بعد أن علم بظهور إبراهيم بن عبد الله بالبصرة . ولم يكتف المنصور باستشارة العقيلي ، إذ لم يقتنع بوجاهة رأيه أول الأمر ، ففكر في استشارة غيره ، فلجأ إلى رجل من أهل بيته ، هو عمه عبد الله بن علي ، وكان في حبسه ، فأشار عليه بأن يغدق لجنده ، وأن يستحث أهل النجدة والقوة من أهل الشام ، ويسد منافذ الكوفة حتى يحول دون قيام الشيعة في وجهه . وأرسل إليه عبد الله : « ارتحل الساعة حتى تأتي الكوفة فاجثم على أكبادهم ، فانهم شيعة أهل هذا البيت وأنصارهم ، ثم احففها بالمسالح ، فمن خرج منها إلى وجه من الوجوه ، أو أتاها من وجه من الوجوه ، فاضرب عنقه . وابعث إلى سلم بن قتيبة

ينحدر عليك (وكان بالرى) . واكتب إلى أهل الشام ، فرهم أن يحملوا إليك من أهل البأس والنجدة ما يحمل البريد ، فأحسن جوائزهم ووجههم مع سلم ، ففعل (١) .

على أن المنصور كان - على الرغم من هذا كله - متخوفاً من ناحية محمد بن عبد الله أشد الخوف فلم يكن مطمئناً إلى نتيجة منازلة العلويين . لذلك نراه يلجأ إلى انتهاج سبيل الحيلة مع محمد ، فكتب إليه كتاباً بعث به مع رسول من قبله ، رغبة منه في أن تفعل سياسة اللين والمسالمة ما لا تفعله سياسة العداء والحرب ، تلك السياسة التي كان المنصور متخوفاً من سوء مغبتها . وهاك الكتاب بنصه : (٢) « بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ، ويسعون في الأرض فساداً ، أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، أو ينفوا من الأرض ، ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم ، إلا الذين تابوا من قبل أن يقرروا عليهم ، فاعلموا أن الله غفور رحيم (٣)) . ولك على عهد الله وميثاقه ودمته ودمته رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إن ثبتت ورجعت من قبل أن تؤمّنك وجميع ولدك وإخوتك وأهل بيتك ، ومن اتبعك ، على دمائكم وأموالكم ، وأسوؤكم ما أصبت من دم أو مال ، وأعطيك ألف ألف درهم ، وما سألت من الخواصج وأنزلك من البلاد حيث شئت ، وأن أطلق من في حبس من أهل بيتك ، وأن تؤمّن كل من جاءك وبايعك واتبعك ، أو دخل معك في شيء من أمرك ، ثم لا أتبع أحداً منهم بشيء كان منه أبداً . فإن أردت أن تتوثق لنفسك فوجه إلى من أحببت ، يأخذ لك من الأمان والعهد والميثاق ما تثق به » .

على أن هذا الكتاب لم يكن له أى أثر في نفس محمد بن عبد الله الذي لم يعبأ بهذه الوعود الخلابه ، إذ كان يعتقد بأحقية بالخلافة ، وأنه صاحب الحق الشرعى ، وأن المنصور قد سلبه هذه الخلافة . لذلك نراه يرد على المنصور ويلومه لتسكيته بأهل بيته وخروجه على أصحاب الحق من آل على ، وسلبهم الخلافة ، ويفخر عليه باتنائه إلى الرسول وإلى على وفاطمة . وما أصابوه من البلاء في نصره الدين : ثم يوازن بينه وبين المنصور من جهة الأمان ، ويستخر من الأمان الذي أعطاه إياه ، إذ لم يكن يثق به بعد ما حث في يمينه مع ابن هبيرة ، ومع عمه عبد الله بن على ، ثم مع أبى مسلم الخراساني . وهناك نص الكتاب (٤) : « بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله المهدي محمد بن عبد الله ، إلى عبد الله بن محمد (طسم) تلك آيات الكتاب المبين ، تلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ، إن فوعون غلا في الأرض وجعل أهلها شيعا ، يستضعف طائفة منهم ، يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين . ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم في الأرض

(٢) الطبرى ج ٩ ص ٢١٠ .

(١) الطبرى ج ٩ ص ٢٠٩ .

(٤) الطبرى ج ٩ ص ٢١٠ - ٢١١ .

(٣) سورة المائدة رقم ٥ آية ٣٣ - ٣٤ .

ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون^(١). وأنا أعرض عليك من الأمان مثل الذى عرضت على . فإن الحق حقنا ، وإنما ادعيتم هذا الأمر بنا ، وخرجتم له بشيئنا ، وحظيتم بفضلنا ، وإن أبانا عليا كان الوصى وكان الامام ، فكيف ورثتم ولايته وولده أحياء . ثم قد علمت أنه لم يطلب هذا الأمر أحد له مثل نسبنا وشرفنا وحالنا وشرف آبائنا . لسنا من أبناء اللعناء ، ولا الطرداء ، ولا الطلقاء . وليس يمت أحد من بنى هاشم مثل الذى يمت به من القرابة والسابقة والفضل ، وإنا بنو أم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاطمة بنت عمرو فى الجاهلية ، وبنو بنته فاطمة فى الإسلام دونكم . إن الله اختارنا واختار لنا ، فوالدنا من النبيين محمد صلى الله عليه وسلم . ومن السلف أولهم إسلاما على ، ومن الأزواج أفضلهن خديجة الطاهرة ، وأول من صلى القبلة . ومن البنات خيرهن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة ، ومن المولودين فى الإسلام حسن وحسين سيدا شباب أهل الجنة . وإن هاشما ولد عليا مرتين ، وإن عبد المطلب ولد حسنا مرتين ، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولدنى مرتين من قبل حسن وحسين ؛ وإنى أوسط بنى هاشم نسباً وأصرحهم أباً ، لم تعرق فى العجم ، ولم تنازع فى أمهات الأولاد . فما زال الله يختار لى الآباء والأمهات فى الجاهلية والإسلام ، حتى اختار لى فى النار ؛ فأنا ابن أرفع الناس درجة فى الجنة ، وأهونهم عذاباً فى النار ؛ وأنا ابن خير الأخيار ، وابن خير الأشرار ، وابن خير أهل الجنة وابن خير أهل النار . ولك الله على أن دخلت فى طاعته ، وأجبت دعوتى ، أن أؤمّنك على نفسك ومالك ، وعلى كل أمر أحدثته إلا حداً من حدود الله ، أو حقاً لمسلم أو معاهد ، فقد علمت ما يلزمك من ذلك ؛ وأنا أولى بالأمر منك وأدنى بالعهد ، لأنك أعطيتنى من العهد والأمان ما أعطيته رجال قبلى ، فأى الأمانات تعطيتنى ؟ أمان ابن هبيرة ؟ أم أمان عمك عبد الله بن علي ؟ أم أمان أبى مسلم ؟

ولما قرأ المنصور كتاب محمد ثارت ثائثرته ، وأبى إلا أن يجيبه بنفسه . فقدر وى الطبرى^(٢) أن أباً أيوب المورى أنى قال للمنصور : دعنى أجبه عنها ، فقال له : لا ! بل أنا أجيبه عنها ، إذ تقارعتنا على الأحساب ، فدعنى وإياه . . وهاك نص كتاب المنصور إلى محمد بن عبد الله^(٣) :
بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد فقد بلغنى كلامك ، وقرأت كتابك ، فإذا جل بفرك بقرابة النساء لتضل به الجفأة والغوغاء . ولم يجعل الله النساء كالعومة والآباء ، ولا كالعصبة والأولياء . لأن الله جعل العم أباً ، وبدأ به فى كتابه على الوالدة الدنيا . ولو كان اختيار الله لمن على قدر قرابتهن ، كانت آمنة أقرب من رحما ، وأعظم من حقاً ، وأول من يدخل الجنة غداً . ولكن اختيار الله لخلق على علمه ، لما مضى منهم ، واصطفاه لهم . وأما ما ذكرت من فاطمة أم أبى طالب وولادتها ، فإن الله لم يرزق أحداً من ولدها الإسلام لا بنتاً ولا ابناً ، ولو أن أحداً رزق

(١) سورة القصص رقم ٢٨ آية ١-٦ .

(٢) الطبرى ج ٩ ص ٢٠٩ . (٣) الطبرى ج ٩ ص ٢١١-٢١٣ .

الإسلام بالقرابة ، رزقه عبد الله ، أولاهم بكل خير في الدنيا والآخرة ؛ ولكن الأمر لله يختار
لدينه من يشاء ، قال الله عز وجل (إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو
أعلم بالمهتدين) (١) . ولقد بعث الله محمداً عليه السلام وله عمومة أربعة . فأُنزل الله عز وجل
(وأنذر عشيرتكَ الأقربين) (٢) . فأُنذِرهم ودعاهم ، فأجاب اثنان أحدهما أبي ، وأبي اثنان
أحدهما أبوك ، فقطع الله ولايتهما منه ، ولم يجعل بينهما وبينهما إلا ولا ذمة ولا ميراثاً ؛ وزعمت
أنك ابن أخف أهل النار عذاباً ، وابن خير الأشرار ، وليس في الكفر بالله صغير ، ولا في
عذاب الله خفيف ولا يسير ، وليس في الشر خيار ، ولا ينبغي للمؤمن يؤمن بالله أن يفخر بالنار .
وسترد فتعلم (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون) (٣) . وأما ما نثرت به من فاطمة أم علي ،
وأن هاشماً ولده مرتين ، ومن فاطمة أم حسن ، وأن عبد المطلب ولده مرتين ، وأن النبي صلى
الله عليه وسلم ولدك مرتين ، نفي الأولين والآخرين رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لم يُلده
هاشم إلا مرة ، ولا عبد المطلب إلا مرة . وزعمت أنك أوسط بني هاشم نسباً وأصرحهم
أماً وأباً ، وأنه لم يلدك العجم ، ولم تعرق فيك أمهات الأولاد ، فقد رأيتك نثرت على بني هاشم
طراً ، فانظر ويحك أين أنت من الله غداً ، فانك قد تعديت طورك ، ونثرت على من هو خير
منك نفساً وأباً ، وأولاً وآخر ، إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى والد ولده ؛
وما خيار بني أبيك خاصة ، وأهل الفضل منهم ، إلا بنو أمهات أولاد ؛ وما ولد فيكم بعد
وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أفضل من علي بن حسين ، وهو لأم ولد ، وهو خير من
جدك حسن بن حسن ، وما كان فيكم بعده مثل ابنه محمد بن علي ؛ وجدته أم ولد ، وهو خير
من أبيك ، ولا مثل ابنه جعفر ؛ وجدته أم ولد ، وهو خير منك . وأما قولك إنكم بنو رسول
الله صلى الله عليه وسلم ، فإن الله تعالى يقول في كتابه (ما كان محمدٌ أباً أحدهم من رجالكم) (٤) .
ولكنكم بنو ابنته ، وإنها لقرابة قريبة ، ولكنها لا تحوز الميراث ، ولا ترث الولاية ، ولا تجوز
لها الإمامة ؛ فكيف تورث بها ، ولقد طلبها أبوك بكل وجه فأخبر سجنها نهاراً ، ومرضاها سراً ،
ودفنها ليلاً ، فأبى الناس إلا الشيخين وتفضيلهما . ولقد جاءت السنة التي لا اختلاف فيها بين
المسلمين ، أن الجدَّ أبا الأم والخال والخال لا يرثون . وأما ما نثرت به من علي وسابقتها ، فقد
حضرت رسول الله صلى الله عليه وسلم الوفاة ، فأمر غيره بالصلاة ، ثم أخذ الناس رجلاً بعد
رجل فلم يأخذوه ، وكان في الستة فتركوه كلهم دفعاً له عنها ، ولم يروا له حقاً فيها . أما عبد الرحمن
فقد تم عليه عثمان ، وقتل عثمان وهو له مُستهم ، وقتله طلحة والزبير ، وأبى سعد يبعته ، وأغاث
دونه بابه ، ثم بايع معاوية بعده . ثم طلبها بكل وجه ، وقتل عليها ، وتفرق عنه أصحابه ، وشك
فيه شيعته قبل الحكومة ، ثم حكّم حكّمين رضى بهما وأعطاهما عهده وميثاقه ، فاجتمعا على

(١) سورة القصص رقم ٢٨ آية ٥٦ . (٢) سورة الشعراء رقم ٢٦ آية ٢١٤ .
(٣) سورة الشعراء رقم ٢٦ آية ٢٢٧ . (٤) سورة الأحزاب رقم ٣٣ آية ٤٠ .

خلعه . ثم كان حسن فباعها من معاوية بخير قودراهم ، ولحق بالحجاز ، وأسلم شيعته بيد معاوية ، ودفع الأمر إلى غير أهله ، وأخذ مالا من غير ولائه ولا حله . فان كان لكم فيها شيء فقد بعتموه وأخذتم ثمنه . ثم خرج عمك حسين بن عليّ على ابن مرجانة ، فكان الناس معه عليه ، حتى قتلوه وأتوا برأسه إليه . ثم خرجتم على بني أمية ، فقتلوك وصلبوك على جذوع النخل ، وأحرقوكم بالنيران ، ونفونكم من البلدان ، حتى قُتل يحيى بن زيد بخراسان ، وقتلوا رجالكم وأسروا الصبية والنساء ، وحملوهم بلا وطاء في المحامل كالسبي المجلوب إلى الشام ، حتى خرجنا عليهم ، فطلبنا بشاركم وأدركنا بدمائكم ، وأورثناكم أرضهم وديارهم ، وسنينا سلفكم وفضلناهم ، فانخذت ذلك علينا حجة ، وظننت أننا إنما ذكرنا أباك وفضلنا للتقدمة منا له على حمزة والعباس وجعفر ، وليس ذلك كما ظننت ، ولكن خرج هؤلاء من الدنيا سالمين ، متسلبا منهم ، مجتمعاع عليهم بالفضل ، وابتلى أبوك بالقتال والحرب . وكانت بنو أمية تلعنهم كما تلعن الكفرة في الصلاة المكتوبة ، فاحتججنا له وذكرناهم فضله ، وعشقناهم ، وظلناهم بما نالوا منه . ولقد علمت أن مكرمتنا في الجاهلية سقاية الحجيج الأعظم ، وولاية زمزم ، فصارت للعباس من بين أخوته . فنازعنا فيها أبوك ، ففضى لنا عليه عمر ، فلم نزل نلبها في الجاهلية والإسلام . ولقد قحط أهل المدينة ، فلم يتوسل عمر إلى ربه ، ولم يتقرب إليه إلا بأيدنا ، حتى نعشهم الله وسقام الغيث ، وأبوك حاضر لم يتوسل به . ولقد علمت أنه لم يبق أحد من بني عبد المطلب بعد النبي صلى الله عليه وسلم غيره ، فكان وارثه من عموته . ثم طلب هذا الأمر غير واحد من بني هاشم ، فلم ينله إلا ولده : فالسقاية سقايته ، وميراث النبي له ، والخلافة في ولده . فلم يبق شرف ولا فضل في جاهلية ولا إسلام ، في دنيا ولا آخرة ، إلا والعباس وارثه ومورثه . وأما ما ذكرت من بدر ، فان الإسلام جاء والعباس يسمون أبا طالب وعياله ، ويُنْفِقُ عليهم للأزمة التي أصابته . ولولا أن العباس أخرج إلى بدر كرها ، لما ت طالبٌ وعقيلٌ وجوعا ، ولما حَسَسا جفان عتبة وشيبة ، ولكنه كان من المطعمين ، فأذهب عنكم العار والسبة ، وكفاكم النفقة والمؤونة ؛ ثم فدى عقيلًا يوم بدر ، فكيف تفخر علينا ، وقد عثلناكم في الكفر ، وفديناكم من الأسر ، وحزنا عليكم مكارم الآباء ، وورثنا دونكم خاتم الأنبياء ، وطلبنا بشاركم فأدركنا منه ما عجزتم عنه ، ولم تدر كوا لأنفسكم ، والسلام عليكم ورحمة الله .

(ب) إخفاق هذه الثورة وأسبابه — تأثير مصر في ذلك :

ومهما يكن من شيء ، فقد أخطأ محمد بن عبد الله وأخوه إبراهيم في خروجهما على المنصور بعد أن بايعه عامة المسلمين ، واعتمدا على هذا العدد القليل من الأنصار ، مع أن خصمهما قوى لا يتوانى عن إتيان كل أنواع المسكيد والخذع للقضاء عليهما .

وقد تدب المنصور لحربهما عمه وولى عهده عيسى بن موسى بن محمد كما تقدم ، وأراد أن يضرب عصفورين بحجر واحد كما يقولون ، فان قتل عيسى ، تحولت الخلافة إلى ابنه المهدي .

وقد ذكر الطبري (١) أن المنصور قال بعد أن سار عيسى لحرب محمد بن عبد الله : « لا أبالي أيهما قتل صاحبه » . ولما أمر أبو جعفر عيسى بن موسى بالشخص قال : « شاور عمومك ، فقال له : « امض أيها الرجل ، فوالله ما يراد غيري وغيرك ، وما هو إلا أن تشخص أو أشخص » .

سار عيسى إلى المدينة لحرب محمد ، وكان قد تغلب عليها وعلى مكة . ولما وصل الجيش إلى فيد أرسل عيسى إلى أهل المدينة كتباً يمتنهم فيها الأمان الطيبة ، فكف كثير منهم عن مساعدة العلويين .

ويظهر لنا أن محمداً النفس الزكية قد هاله عظم جيش عيسى بن موسى ، وأحزنه تفرق أكثر رجاله عنه ، وشك في قوته وتردد في منازلة خصمه ، واستشار أصحابه فيما يصنع : أينازهم في المدينة كما حارب الرسول الأحزاب ؟ أم يخرج إلى بلد آخر تتاح له فيه الفرصة لمحاربتهم ؟ وقد أشار عليه بعضهم بالخروج إلى مصر ، لأن فيها من الاستعداد والقوة ما لم يكن في المدينة المنورة وقالوا له : « أأست تعلم أنك بأقل بلاد الله فرساً وطعاماً وسلاحاً وأضعفها رجالاً ؟ أأست تعلم أنك تقا تل أشد بلاد الله رجالاً وأكثرها مالا وسلاحاً ؟ . . . فالرأى أن تسير بمن معك حتى تأتي مصر . فوالله لا يردك راد ، فتقاتل الرجل بمثل سلاحه وكراعه ورجاله وماله » ، فصاح حنين بن عبد الله : « أعوذ بالله أن تخرج من المدينة ، وحدثه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : رأيتني في درع حصينة فأولتها المدينة (٢) » .

لم ير محمد بدأ من النزول على رأى القائلين بالبقاء في المدينة على كره منه ، وأخذ اليأس يدب إلى نفسه ، وبخاصة بعد ما تبين له ضعف حماسة ذلك الفريق الذي كان يرى الخروج إلى مصر وتناقله عن نصرته ، فلم يطمئن إليهم ، ورأى أن لا فائدة من الاعتماد عليهم ، فخطبهم خطبة قال فيها : « يا أيها الناس ! إنا قد جمعناكم للقتال ، وأخذنا عليكم المناقب ، وإن هذا العدو منكم قريب ، وهو في عدد كثير ، والنصر من الله والأمر بيده . وإنه قد بدا لي أن آذن لكم وأفرج عنكم المناقب ، فمن أحب أن يقيم أقام ، ومن أحب أن يظن ظعن (٣) » .

وكانت هذه الخطبة مقياساً لمعرفة عدد المخلصين من أنصار محمد النفس الزكية الذين قاربوا مائة ألف أول الأمر . فقد تسلل أكثرهم وبقي هو في شردمة قليلة قاتل بها عيسى بن موسى وجنده . وقتل محمد بن عبد الله واحتز رأسه وأرسل إلى عيسى بن موسى . وكان ذلك يوم الاثنين ١٤ رمضان سنة ١٤٥ هـ (٤) .

هكذا ختم أول فصول هذه المأساة . ولم يبق أمام المنصور إلا القضاء على منافسه الجديد

(٢) المصدر نفسه ج ٩ ص ٢١٨ .

(١) الطبري ج ٩ ص ٢١٦ .

(٤) المصدر نفسه ج ٩ ص ٢١٩ - ٢٢٠ .

(٣) المصدر نفسه ج ٩ ص ٢١٩ .

إبراهيم بن عبد الله في العراق ؛ وكان قد تغلب على البصرة والأهواز وفارس ، وتفاقم خطره وكثر عدد جنده حتى بلغ مائة ألف . وعرف ذلك الخليفة المنصور فاستعد لدره خطر إبراهيم أتم استعداد ، وشمر للذود عن حياض خلافته ، وأبى أن يخلع ثيابه حتى يظفر بالعلويين في الحجاز والعراق ، على حين تزوج إبراهيم بابنة عمر بن سلبه ، فكانت تأتيه في مصيغاتها وألوان ثيابها (١) .

وسرعان ما أنفذ أبو جعفر المنصور عيسى بن موسى ، وقد عجم عوده وخبر مهارته الحربية في حرب محمد بالحجاز ، لمحاربة أخيه إبراهيم في العراق . ودارت رحى الحرب بين الفريقين في باخرى بين الكوفة وواسط (٢) ، وانهمز حميد بن قحطبة أحد قواد عيسى وكادت الهزيمة تلحق بجيش المنصور ، لولا أن ثبت عيسى وأبى أن يتحول عن مكانه حتى يقتل أو يفتح الله عليه (٣) . وما زال الفريقان يقتتلان ، حتى انهزم جند إبراهيم وولى أكثرهم الأدبار . وثبت هو في عدد قليل من أنصاره ، حتى أصيب بسهم في حلقه ، واحتز ابن قحطبة رأسه ، وأرسله إلى عيسى بن موسى ، فسجد شكراً لله . وذلك يوم الاثنين لخمس بقين من ذى القعدة سنة ١٥٤ هـ . ولما رأى المنصور رأس إبراهيم تمثل بقول الشاعر :

فألقت عصاها واستقرت بها النوى كما قرّ عيناً بالإياب المسافر (٤)

ولا شك أن هزيمة العلويين قد أحرزت أشياءهم المخلصين ، فندبوا حظهم العاثر ، وبكوا ما حل بهم من الكروب والويلات ، ورنثاهم شعراؤهم أجمل رثاء .

ولم تقتصر هذا المصائب على محمد وأخيه إبراهيم ، فقد استعان محمد النفس الزكية ببعض أهل بيته للدعوة إلى إمامته في الولايات الإسلامية ؛ فبعث ابنه عبد الله إلى خراسان ثم إلى السند فقتل بها ؛ وبعث ابنه الحسن إلى اليمن ، فحبس ومات في الحبس . وسار أخوه موسى إلى الجزيرة ؛ ومضى أخوه يحيى إلى الري وطبرستان ، وسار أخوه إدريس إلى بلاد المغرب ، وبعث ابنه محمد إلى مصر . وقد ذكر الكندي (٥) والمقرئ (٦) أن محمداً أرسل ابنه علياً إلى مصر لبحث الدعوة له ، غير أن والى المنصور فيها استطاع أن يحبط أعماله وأعمال من ناصرته ؛ وظل على ذلك حتى قدمت النعاة إلى مصر بخبر وفاة إبراهيم ، فسقط في يد الشيعة ، وانطفأت جذوة الثورة في هذه البلاد ، ولا يعلم المؤرخون ما آل إليه أمر علي بن محمد .

(١) الطبرى ج ٩ ص ٢٥٥ .

(٢) أقرب إلى الكوفة منها إلى واسط : وتبعد عن الأولى بسبعة عشر فرسخاً . انظر هذا اللفظ في معجم البلدان لياقوت .

(٣) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٣٨ ؛ الطبرى ج ٩ ص ٢٥٧ - ٢٥٨ .

(٤) اليعقوبى ج ٢ ص ٤٥٦ ؛ الطبرى ج ٩ ص ٢٥٩ .

(٥) كتاب الولاة ص ١١٤ ، (٦) الخطط ج ٢ ص ٣٣٨ .

عوامل إخفاق هذه الثورة :

أما وقد بينا كيف أخفق محمد وإبراهيم في هذه الثورة ، فقد وجب أن نبين العوامل التي أدت إلى ذلك .

ذكر المؤرخون أن جيش محمد في المدينة قارب مائة ألف ، وكذلك جيش أخيه إبراهيم في العراق ، وأن أنصارهما قد انتشروا في طول بلاد الدولة العباسية وعرضها ، حتى إننا نسمع عنهم في الحجاز وفي العراق ، وفي خراسان ومصر وغيرها ، فما سبب خذلانهم في وقت كانت الدولة العباسية لا تزال في دور إنشائها ، وفي وقت كانت قلوب المسلمين — وخاصة قلوب أهل فارس — مع العلويين ، حتى ذهب كثير من أهل خراسان ، كأبي سلة الخلال وأبي مسلم الخراساني ، ضحية هذه الميول والأهواء ؟ لا شك أن هذا الإخفاق يرجع إلى عدة أسباب . ولا شك أيضاً أن المنصور يرجع إليه الفضل الأكبر في إحباط هذه الثورة ، على الرغم من أن تنكيهه بالعلويين قد أثار سخط المسلمين وخاصة أهل خراسان ، وعلى الرغم مما لاقته دعوة العلويين من عطف كثير من الشعوب الإسلامية وتأيد فقهاء ذلك العصر ، وعلى رأسهم الإمامان مالك وأبو حنيفة ، وعلى الرغم مما اتصف به محمد بن عبد الله من كريم الخصال والسجايا التي رفعت في أعين الناس ، فإن ذلك كله لم يكن له من أثر أمام قوة شكيمة المنصور ، وشدة دهائه وعظم جيوشه وكثرة آلاته الحربية .

عرف المنصور ميل الخراسانيين إلى آل علي ؛ فقد كتب إليه عامله على خراسان يخبره أن أهلها طلبوا شيوخ محمد بن عبد الله لنصرته والخروج في وجه العباسيين تحت لوائه . وقد رأى المنصور بدعائه أن يداهن الخراسانيين ويثنيهم عن عزمهم ؛ فأرسل إليهم رأس محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان أخى عبد الله بن الحسن بن الحسن لأمه فاطمة ابنة الحسين ابن علي ، وأوهمهم أنها رأس محمد بن عبد الله (١) .

ولاشك أن المنصور قد حال بحيلته هذه ، دون قيام الفتن والاضطرابات في خراسان التي كان يميل أهلها إلى العلويين لما كان بينهم من صلة النسب ، ولم يحمل الدولة أعباء مقاومة هذه الفتن وما يتبعها من فقد النفوس والأرواح .

ولقد ظن محمد النفس الزكية أن قلوب الناس معه ، وأنه غدا بذلك أقوى من المنصور . وزاد في هذا الظن هذه الكتب التي كانت ترد عليه من الولايات الإسلامية بتأييد أهلها له وانتظار خروجه . ولم يفتن إلى أن أكثر الناس لا يعلنون من أمر الدعوة العلوية شيئاً ، وأن أبا جعفر المنصور هو الذي دبر هذه الحيلة على ألسنة قواده ، وساعده على زهوه بنفسه إفتاء الإمام مالك ببطان بيعة المنصور .

ولقد أخطأ محمد في اختيار مركزه الحربي ، لأن المدينة كما وصفها المسعودي (٢) وبلد ليس

(١) الطبري ٩ ص ٢٠٠ — ٢٠١ . (٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٣٧ .

به زرع ولا ضرع ولا تجارة واسعة . كما أن مركزه الحربى لم يكن مركزاً طبيعياً للحرب ، فلو حوصرت المدينة لما وصلت إليها الميرة ومات أهلها جوعاً وعطشاً . هذا إلى أن النفس الزكية لم يقف على مبالغ استعداد أهل الحجاز لنصرته ، حتى تفرقوا عنه في الساعة الأخيرة ، وتركوه في هذه الشرذمة القليلة حتى قتل . ولم يدر أن المنصور كان يستشير ذوى رأى والحجا من رجالات دولته ، ولم يدخر وسعاً في تنظيم جنده وإمداده بالسلاح والمؤن ، وأمر عليهم نخبة من مشهورى قواده بما كفل له النصر . أما جند العلويين فإنه على الرغم من كثرته ، لم ينظم ولم يرتب على أحدث النظم في ذلك العصر . فزرى إبراهيم يحارب عدوه بجيشه الذى قسمه إلى كراديس يقدم منها إلى الحرب كردوسا ، فإذا انهزم تقدم الآخر وهكذا . وقد أبى إبراهيم أن يقاثل جنده صفأ واحداً ، فيكونوا كالبنيان المرصوص لقوله تعالى : (إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفأ كأنهم بنيان مرصوص) (١) ، مع أنهم كانوا أكثر عدداً من جند عيسى بن موسى (٢) .

ثم لعل من أقوى الأسباب لإخفاق هذه الثورة عدم تنفيذ الخطة التى رسمها محمد وإبراهيم ، وكانت تقضى بأن يخرجوا فى وقت واحد . ويرجع ذلك إلى تأخر خروج إبراهيم لمرضه ، أو بسبب تعجل محمد للحرب . ولو خرج الأخوان فى وقت واحد لما استطاع المنصور الوقوف أمامهما (٣) .

(ج) موقف الحزب العلوى بعد ثورة محمد وإبراهيم

١ — ثورة الحسين بن على

من ذلك يتبين أن العلويين لم يعملوا فى دعواهم فى الخلافة على السكيد وحده ، بل ظلوا ينازلون أعداءهم فى ميدان القتال ، كلما سنحت لهم الفرصة وتهاأت لهم الأحوال (٤) . وفى الحق أن أمر العلويين قد ضعف بعد مقتل محمد وإبراهيم ابني عبد الله ؛ غير أنهم ما فتؤا يتطلعون للخلافة ، على الرغم من أنهم قد أصبحوا من الضعف بحيث لم يعد الخليفة العباسى بحاجة إلى التخوف من ناحيتهم . وإنما اكتفى بأن وضع كبارهم تحت نظره ببغداد ، وبمراقبة عامله على المدينة المنورة لهم . ومن ثم نراهم يلجئون إلى الاستكانة ، ويتحسنون الفرص لشن الغارة على الخلافة العباسية من جديد .

خرج العلويون فى عهد الهادى بمكة والمدينة بزعامة الحسين بن على بن الحسن بن الحسن بن

(١) سورة الصف رقم ٦١ آية ٤ . (٢) الطبرى ج ٩ ص ٢٥٧ .

(٣) كان خروج محمد بالمدينة فى أول رجب سنة ١٤٥ هـ ، وكان ظهور إبراهيم بالبصرة فى أول رمضان من هذه السنة . ويظهر أن الاتفاق على زمن خروج محمد وإبراهيم كان أمراً متفقاً عليه بينهما ، وأن محمداً تعجل الخروج بسبب حث الناس له .

(٤) الفاطميون فى مصر للمؤلف ص ٤٩ .

الحسن بن علي ، الذي دعا إلى نفسه بالمدينة في ذى القعدة سنة ١٦٩ هـ . ويعزو المؤرخون خروج الحسين إلى سوء معاملة عامل الهادي على المدينة ، وبخاصة الحسن بن محمد النفس الزكية ، وانهاهم بشرب النبيذ ، وقبضهم عليهم والتشهير بهم بين أهل المدينة ، مما أثار سخط الشيعة وحفزهم على الانضمام إلى العلويين . ويظهر أن العلويين قد عزموا على الخروج قبل ذلك بزعامه الحسين ، وأنهم اتخذوا من سوء معاملة عامل المدينة لهم فرصة سانحة لإثارة شعور أهل المدينة نحو العباسيين ؛ فقد سار الحسين بن علي إلى عامل المدينة ، واعترض على التشهير بأهل بيته والخط من كرامتهم .

يقول صاحب الفخرى (١) : « كان الحسين بن علي من رجال بني هاشم وسادتهم وفضلائهم ؛ وكان قد عزم على الخروج ، واتفق معه جماعه من أعيان أهل بيته . ثم وقع من عامل المدينة تهضم لبعض آل علي عليه السلام ، فثار آل أبي طالب بسبب ذلك ، واجتمع إليهم ناس كثيرون ، وقصدوا دار الإمارة ، فتحصن عنهم عاملها ، فكسروا السجون وأخرجوا من فيها ، وبويع الحسين بن علي » .

أقام الحسين بعد خروجه بالمدينة أحد عشر يوما ؛ ثم قصد مكة ، فلقه جيش العباسيين بفخ ، وهو واد في طريق مكة ، يبعد عنها بستة أميال . وفي هذا المكان تقرر مصير العلويين ، حيث قتل الحسين بن علي بعد أن أبلى بلاء شديدا ، وقتل معه بعض أهل بيته . وكانت هذه الموقعة من الشدة بحيث قيل : « لم تكن مصيبة بعد كربلاء أشد وأجفع من فخ » (٢) . وقد كثر شعر الشيعة في رثاء قتلاهم ، ومن ذلك قول أحدهم :

فلا بكين على الحسين — بعولة وعلى الحسن
وعلى ابن عاتكة (٣) الذي واروه ليس بندي كفن
تركوا بفخ غدوة في غير منزلة الوطن
كانوا كراما هيجوا لا طائشين ولا جبين
غسلوا المذلة عنهم غسل الثياب من الدرن (٤)
هدى العباد بحمدهم فلم على الناس المن (٥)

من ذلك يتضح أن العلويين لم يعدلوا عن اعتقادهم الراسخ ، أنهم أحق بالخلافة من أبناء عمهم العباسيين ، وأنهم كانوا يشورون في وجه الدولة الحاكمة ، كلما سنحت لهم الفرص وتهايت لهم الأحوال . ولم يكن العباسيون يعتمدون إساءة العلويين ، وإنما كانوا ينكلون بهم لقيامهم في وجه النظام القائم كما يقولون ؛ كما أنهم كانوا يرغبونهم بكل أنواع الترغيب ، فلم يثبتم ذلك عن

(١) من ١٧٢ — ١٧٣ . (٢) راجع لفظ فخ في معجم البلدان لياقوت .

(٣) هو الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي قاتل فخ .

(٤) الدرن : القذارة . (٥) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٥٧ .

عزمهم في طلب الخلافة . ولم يكن العباسيون ينسبون في كل أطوار علاقتهم مع العلويين ، أنهم أولادهم ، وأن لهم عليهم حرمة القرابة القريبة من الرسول . حتى في الوقت الذي كانوا يخرجون فيه عليهم ، ويعملون على استخلاص الخلافة منهم وتحويلها إليهم . وفي ذلك يقول المسعودي (١) : « وأخذ لعبد الله بن الحسن بن علي وللحسين بن علي الأمان ، فحبسا عند جعفر بن يحيى بن خالد ابن برمك ، وقتلا بعد ذلك ؛ فسخط الهادي على موسى بن عيسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس لقتل الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن ، وترك المصير به إليه ليحكم فيه بما يرى . وقبض أموال موسى (بن عيسى) ، وأظهر الذين أتوا بالرأس الاستبشار ، فبكى الهادي وزجرهم وقال : أتيتموني مستبشرين ، كأنكم أتيتموني برأس رجل من الترك أو الديلم ؛ إنه رأس رجل من عترة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ألا إن أقل جزائكم عندي ألا أنيئكم شيئا . »

٢ — ثورة يحيى وإدريس ابني عبد الله :

كانت موقعة فخ بعيدة الأثر ؛ فقد هرب منها رجلان كانا شجاء في حلق العباسيين : هما يحيى بن عبد الله صاحب الديلم ، وأخوه إدريس الذي فر إلى بلاد المغرب . وقد أراد الرشيد أن أن يستميل إليه العلويين ، ففك الحجر عن كثير ممن كان منهم ببغداد . ولكن أفراد البيت العلوي لم يعدلوا عن اعتقادهم الراسخ في استحقاق الخلافة ، ومناضلتهم في سبيل الوصول إليها . وقد فر يحيى وإدريس ابنا عبد الله بن الحسن العلوي من موقعة فخ ، وكان لهما شأن في أيام الرشيد .

أما يحيى فقد مضى إلى بلاد الديلم ، فاعتقد أهلها أحقيته للإمامة وبايعوه ، وغدا أمره من الخطر بحيث هدد سلامة الدولة العباسية ، وأقلق بال الرشيد ، وحدا به إلى إعمال الحيلة للقضاء عليه وعلى دعوته ، فولى الفضل بن يحيى البرمكي بلاد جرجان وطبرستان والري ، وسيره في خمسين ألف جندي لمحاربة هذا العلوي .

ولكن الفضل قد أتى — بما عرف عنه من الذكاء — يحيى بن عبد الله من ناحية غير ناحية الحرب ، فأخذ يحذره ويخوفه حيناً ، ويمنيه ويرغبه حيناً آخر ، حتى مال إلى الصلح ، على أن يكتب له الرشيد أماناً مخطئ ، وأن يشهد فيه القضاة والفقهاء وكبار بني هاشم ؛ فأجابه الرشيد إلى ما طلب ، وأرسل الأمان إليه مع الهدايا والتحف . ثم قدم يحيى مع الفضل ، فقابله الرشيد بالحفاوة والإكرام ، ولكنه لم يلبث أن حبسه في داره ، واستفتى الفقهاء في نقض الأمان . ويحدثنا صاحب « الفخرى » (٢) « أن منهم من أفتى بصحته ، ومنهم من أفتى ببطلانه ، فأبطله . »

على أن أموراً دعت الرشيد إلى نقض هذا الأمان والتخلص من يحيى ، وذلك لسعاية رجل

من أولاد الزبير بن العوام يحيى بن عبد الله عند الرشيد ، واتهامه بأنه أخذ يدعو إلى نفسه بعد إعطائه الأمان .

وأما إدريس بن عبد الله أخو يحيى ، فقد فر إلى مصر سنة ١٧٢ هـ ، ثم توجه إلى بلاد المغرب الأقصى حيث التفت حوله البربر . وقد رأى الرشيد أنه لا طاقة له باخضاعه بحد السيف ، ففكر في بلوغ غايته من طريق المسكايد والخدع ، فأرسل إليه رجلاً معروفاً بالدهاء ، وأمره أن يتقرب إليه ، وأن يظهر أمامه بمظهر السخط على العباسيين وعلى حكمهم . ولما وصل هذا الرجل إلى بلاد المغرب ، تقرب من إدريس حتى صار من خواصه . ثم دس له السم فمات سنة ١٧٧ هـ دون أن يترك ولداً يؤول إليه الأمر من بعده . فانتظر أتباعه أمة له كانت حاملاً ، فوضعت ولداً سموه إدريس وبايعوه بالخلافة . واليه تنسب دولة الإدارة ببلاد المغرب . وقد زاد خطر الإدارة بحيث أصبح الرشيد يخاف العلويين كافة ، ويعمل على استئصالهم (١) . وكان من أثر ذلك أن أقطع الرشيد إبراهيم بن الأغلب بلاد إفريقية (تونس) ليوقف في وجه الإدارة كما تقدم .

٤ — خروج محمد بن جعفر والقاسم بن إبراهيم :

خلف جعفر الصادق من الأولاد غير موسى وإسماعيل ، أبناء آخرون ، نخص بالذكر منهم عبد الله الأفظح وإسحق ومحمد الديباج . وقد ذكر أبو الحسن النوبختي (٢) . أن فريقاً من الشيعة ذهب إلى أن الإمام بعد جعفر الصادق ابنه محمد (أخو موسى وإسحق من أم ولد يقال لها حميدة) ، وقالوا إن محمداً دخل على أبيه جعفر يوماً وهو صبي ، فعدا عليه ، فكبا في قيضه ووقع لحراً وجهه ، فقام إليه جعفر وقبله ومسح التراب عن وجهه ووضعه على صدره ، وقال سمعت أبي يقول إذا ولد لك ولد يشبهني ، فسمه باسمي ، فهو شبيهي وشبيه رسول الله صلى الله عليه وآله وعلى سنته . فجعل هؤلاء الإمامة في محمد بن جعفر وولده من بعده . وهذه الفرقة تسمى السمطية ، التي تنتسب إلى رئيس لهم يقال له يحيى بن أبي السميط .

من هذا نرى أن الإمامة بعد جعفر الصادق لم تكن في موسى الكاظم ولا إسماعيل أو ابنه محمد ، بل ذهب بعض الشيعة إلى أن محمد بن جعفر أحق أولاد جعفر بها ، وذهب بعضهم الآخر إلى إمامة أخيه عبد الله الأفظح . على أن إمامة عبد الله هذا لم يطل أمدها ، لوفاته دون أن يخلف ولداً ذكراً ، فعاد عامة أشياعه وقالوا بإمامة أخيه موسى الكاظم .

خرج محمد الديباج بن جعفر الصادق في خلافة المأمون . ويظهر أن خروجه قد حدث قبل أن يولى المأمون علياً الرضا بن موسى الكاظم عهده ، أو أن ذلك كان بسبب الاختلاف

(١) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٣٨ ؛ وابن الأثير ج ٦ ص ٥٠ ؛ وأبو الفدا ج ٢

ص ١٣ .

(٢) كتاب فرق الشيعة ص ٦٤ — ٦٥ ، ٧٢ ، ٩٠ .

بين عقائد الشيعة الإمامية أصحاب موسى الكاظم الذى أحله المأمون من نفسه محل العطف والرعاية ثم ولاه عهده ، وبين أشياخ أخيه محمد الديباج الذين لم تكن الصلة بينهم وبين أشياخ محمد على شيء من الصفاء . ومن ثم كان خروجهم على المأمون خروجاً على من خالفهم في العقيدة من أشياخ موسى الكاظم . ويقول صاحب الفخرى (١) عند كلامه على خلافة المأمون : « وفي أيامه خرج محمد بن جعفر الصادق عليهما السلام بمكة ، وبويع بالخلافة ، وسموه أمير المؤمنين . وكان بعض أهله قد حسن له ذلك حين رأى كثرة الاختلاف ببغداد وما بها من الفتن وخروج الخوارج . وكان محمد بن جعفر شيخاً من شيوخ آل أبى طالب يقرأ عليه العلم . وكان روى عن أبيه عليه السلام علماً جماً ، فكثرت بمكة مدة ، وكان الغالب على أمره ابنه وبعض بنى عمه ، فلم يحمد سيرتهما ، وأرسل المأمون إليهم عسكرياً فكانت الغلبة له ، وظفر به المأمون وعفا عنه . »

ولم يكن خروج محمد الديباج هو كل ما قام به العلويون في وجه المأمون ، فقد ذكر لنا المؤرخون أن أبا السرايا خرج في أيامه وقويت شوكته ودعا إلى بعض أهل البيت ، وأن الحسن بن سهل قاتل أشياخ العلويين وغلهم على أمرهم وقتل أبا السرايا . كما خرج على المأمون أيضاً رجل من العلويين من بيت الحسن بن على هو القاسم بن إبراهيم بن اسماعيل بعد أن غاب في الخفاء دهرًا طويلاً .

ولقد أورد لنا يحيى بن الحسين المتوفى سنة ٣٦٠ هـ (٩٧١ م) في كتابه « الإفادة في تاريخ الأئمة السادة على مذهب الزيدية » ، أن القاسم بن إبراهيم بن اسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب استترى في مصر في خلافة المأمون العباسي ، وأنه دعا إلى نفسه حين بلغه موت أخيه محمد . وقد بث دعاته وهو على حال استتاره زهاء عشر سنين ؛ فبايعه أهل مكة والمدينة والسكوفة والرى وقزوين وطبرستان وبلاد الديلم ، وكاتبه أهل البصرة والأحواز وحثوه على الظهور ، فاتصل خبره بمسامع الخليفة ، فأمر بالتشدد في طلبه . فلم يطب للقاسم المقام في مصر ، فعاد إلى الحجاز ومنها إلى تهامة ، ولحق به جماعة من بنى عمه وغيرهم ، فبشوا الدعوة باسمه في بلخ (٢) والطالقان (٣) ومرو وغيرها فذاع خبره ، وبعث الخليفة إلى بلاد اليمن جنوداً يطلبونه ، فاخترق

(١) ص ٢٠١ .

(٢) مدينة مشهورة بخراسان ومن أجل مدائنها وأكثرها خيراً . افتتحها الأخنف بن قيس من قبل عبد الله بن عامر في خلافة عثمان بن عفان . وإليها ينتدب كثيرون من أهل الأدب وعلماء الكلام والحفاظ — أنظر لفظ بلخ في معجم البلدان لياقوت .

(٣) الطالقان بلدتان : إحداهما بخراسان بين مرو الروذ وبلخ ، بينهما وبين مرو الروذ ثلاث مراحل ، وقد ذكر الاصطخرى أن طالقان أكبر مدن طخارستان ، وتقع في مستوى من الأرض ، يجرى فيها نهر كبير ، وتبلغ في الاتساع ثلث ما تبلغه مدينة بلخ ، والأخرى بلدة وكورة بين قزوين وأبهر (مدينة

في حى من البدو . ولما ولي المعتصم الخلافة شدد في طلب القاسم ، وبعث بغا الكبير وأشناس في جند كشياف ، فانتقض عليه أمره ، وذلك سنة ٢٢٠ هـ .

وقد روى هذا المؤرخ عن خادم القاسم بمصر تلك الحكاية قال : « ضاقت بالإمام القاسم المسالك واشتد الطلب ، ونحن محتفون معه خلف حانوت إسكاف . . . فتودى نداء يبلغنا صوته : برئت الذمة من آوى القاسم بن ابراهيم ومن لا يدل عليه ؛ ومن دل عليه فله ألف دينار ، ومن البز كذا وكذا . والاسكاف . مطرق يسمع ويعمل لا يرفع صوته . فلما جاءنا قلنا له : أما ارتمت ؟ قال : من لى ! ما ارتياعى منهم ولو قرضت بالمقاريض بعد إرضاء رسول الله حتى في وقايتى لولده بنفسى (١) ؟ »

٣ — الجهاد النظرى بين الحزبين العلوى والعباسى

(١) فى الشعر

١ — الشعراء العلويون :

ذكرنا أن العلويين لم ينسوا حقهم فى الخلافة منذ مقتل الحسين بن على ، وأنهم عملوا للوصول إلى حقهم بكل وسيلة ممكنة . فاذا وجدوا الفرصة سانحة لأعمال القوة اغتتموها ولم يدعوها تمر ، وإذا أنسوا من أنفسهم ضعفا استكانوا ، مكتفين بلقب الإمامة وقرابتهم من الرسول . ولما ظهرت الدعوة لآل البيت فى أواخر الدولة الأموية ، تركوا الأمور تجري فى مجراها الطبيعى . فلما ظفر العباسيون بالخلافة ، أدرك العلويون أنهم قد خدعوه واستأثروا بالخلافة دونهم ، مع أنهم أحق بها منهم ، فثابذوا العباسيين العدا ، وظلوا يناضلونهم ابتغاء الوصول إلى الخلافة بالسيف تارة ، وبالمسكيدة والدهاء تارة ، وبالكلام والشعر تارة أخرى . ومن ثم قامت هذه الثورات التى أشعل نيرانها العلويون : كثورات محمد النفس الزكية وأخيه ابراهيم فى عهد المنصور ، وثورة الحسين بن على بن الحسن فى عهد الهادى ، وثورة يحيى وإدريس ابنى عبد الله بن الحسن فى عهد الرشيد ، وثورة محمد الديباج بن جعفر الصادق فى عهد المأمون .

ولم يكن انتصار هؤلاء الأشياع للعلويين راجعا إلى السيف وحده ، بل عمد كثير من الشعراء المواليين لهم إلى نشر دعوتهم وتأيد حقهم فى الخلافة . وكان طبعيا أن يناصر العباسيين جماعة من الشعراء ينتصرون لهم ويقارعون شعراء أعدائهم العلويين ، مدفوعين فى ذلك بالعطايا

مشهورة بين قزوين وزنجان وهذان من نواحى الجبل ، والفرس يسمونها أوهر ، فتحت فى أيام عثمان ابن عفان ، وبينها وبين زنجان خمسة عشر فرسخا ، وبينها وبين قزوين اثنا عشر فرسخا (وبها عدة قرى تعرف كلها بهذا الاسم .

(١) ليدن مخطوط ، ١٩٧٤ ، ورقة ٣٤ — ٣٥ ب ، أنظر كتاب « الفاطميون فى مصر »

والأموال، أو لاعتقادهم بأحقية العباسيين بهذا الأمر دون أبناء عمهم العلويين . ويمكن أن نعتبر هذه المساجلات الشعرية ناحية من نواحي الجهاد النظرى الذى قام بين الحزبين العلوى والعباسى . وثمة نواح أخرى من هذه المساجلات ، نراها تظهر ظهورا جليا فى العلم والكلام بنوع خاص ، كما تظهر فى السياسة ، حتى إن كثيرين من الوزراء كانوا يتغمسون فى هذا الصراع بموالاتهم للعلويين ، فيعرضون أنفسهم لسخط العباسيين وكرهاتهم .

والآن نعرض للكلام على الجهاد النظرى بين العلويين والعباسيين ، كما يظهر من ثنايا أقوال الشعراء الموالين لكل من هذين الحزبين : فمن شعراء العلويين كشمس عزة (+ ١٠٥ هـ) ، والكميت (+ ١٢٦ هـ) فى العصر الأموى ، والسيد الحميرى (+ ١٧٣ هـ) ودعبل بن على الخزاعى فى العصر العباسى الأول .

فمن شعراء العلويين فى العصر العباسى الأول ، إسماعيل بن محمد المعروف بالسيد الحميرى ، وكان يعتنق مذهب الكيسانية الذى يعتقد أنصاره أن محمد بن الحنفية بن على ورث الإمامة عن أبيه على مباشرة ، أو عن طريق أخويه الحسن والحسين ، كما يعتقدون برجعته . ويقول السيد الحميرى (١) :

سنين وأشهر أو يرى برضوى	يشعب بين أنمار وأسد
مقيم بين آرام وعين	وحفان تروح خلال رطب
تراعيا السباع وليس منها	ملاقين مفترسا بحمد
أمن به الردى فرتعن طورا	بلاخوف لدى مرعى وورد

وإن هذه الأبيات تمثل عقيدة السيد الحميرى فى محمد بن الحنفية ، من أنه قام بشعب من شباب رضىوى سنين وأشهر كثيرة ، ومن حوله الأنمار والآساد والظباء وبقر الوحش وأنواع الشاء ، من غير أن يعدو عليها أسد بظفر أو بناب ، لاحترامها إياه وتقديسها له . ويظهر أن السيد الحميرى قد غلا فى ميله إلى العلويين ، فكان يعبر عن هذا الميل وذلك الاخلاص بقصائد يبكى فيها ما حل بهم من عنات واضطهاد وقتل . فمن ذلك هذه القصيدة التى نظمها فى قبر الحسين بن على :

أمرى على جدت الحس	بن فقل لأعظميه الزكية
آعظما لازلت من	وطفاء سماكية رويه
وإذا مررت بقبره	فأطل به وقف المطيه
وابك المطهر للبطر	والمطهرة النقيسه
كبكا مشعولة أت	يوما لواحدھا المنيه

على أن إسراف السيد الحميري في مدح العلويين وذم السنين ، وبخاصة كبار الصحابة كآبي بكر وعمر وعثمان ، قد حمل الناس على نبذ شعره ، لما تضمنته من سب أصحاب رسول الله والطعن فيهم . يؤيد ذلك تلك القصيدة التي بعث بها إلى الخليفة المهدي يطلب إليه أن يحرم آل أبي بكر وعمر ما يستحقونه من مال الدولة :

قل لابن عباس سَمِيَّ مُحَمَّد	لا تعطينَّ بني عدِيَّ درهما
لحرم بني تيم بن مرةٍ لأنهم	شرُّ البرية آخرًا ومُقدِّمًا
إن تعطيهم لن يشكروا لك نعمة	ويكافئون بأن تدمَّ وتشتما
وإن ائتمنتهم أو استعملتهم	خانوك واتخذوا خراجك مغنا
ولئن منعهم لقد بدوكم	بالمنع إذ ملكوا وكانوا ظلماً
منعوا تراث محمد أعمامه	وبنيه وابنته عديلةً مريما
وتأمروا من غير أن يستخلفوا	وكفى بما فعلوا هنالك مأثما
لم يشكروا لمحمد إنعامه	أفيشكرون لغيره أن أنعمنا
والله من عليهم بهجده	وهدهم وكسا الجنوب وأطعنا
ثم انبروا لوحيته ووليته	بالمشكرات فجرَّعوه الصلثما

ومما يدل على مبلغ تشيع السيد الحميري وحبّه لعلي بن أبي طالب وأولاده من بعده ، هذه القصيدة التي نظمها في يوم غدير خم ، حيث نزل الرسول وأخى علي بن أبي طالب . وقد أثر عنه أنه قال : عليّ مني بمنزلة هارون من موسى ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه ، وانصر من نصره واخذل من خذله . ومن ذلك أصبح يوم غدير خم عيداً يعنى به الشيعة عناية عظيمة . ويرى الشيعة هذا الحديث عن النبي ويقولون إنه قاله في السنة العاشرة للهجرة ، وهو العام المعروف بحجة الوداع ^(١) . ويعتقد الشيعة أن علي بن أبي طالب أحق بالخلافة بعد الرسول ، وأن أبا بكر وعمر وعثمان اغتصبوا الخلافة منه . وفي ذلك يقول السيد الحميري ^(٢) :

عجبت من قوم أتوا أحمدا	بخطبة ليس لها موضع
قالوا له : لو شئت أعلننا	إلى من الغاية والمضرع
إذا توفيت وفارقنا	وفهم في الملك من يطمع
فقال : لو أعلنتكم مفزعا	كنتم عسيتم فيه أن تصنعوا
كصنع أهل العجل إذ فارقوا	هرون ، فالترك له أروع
ثم أتته بعسده عزيمة	من ربه ليس له مدفع
أبلغ وإلا لم تكن مبلغا	والله منهم عاصمٌ يمنع
فغندما قام النبي الذي	كان بما يأمره يصدع

يخطب مأمورا وفي كفه	كف على نورها يلعب
رافعها أكرم بكف الذي	يرفع والكف التي ترفع
من كنت مولاه فهذا له	مولي فلم يرضوا ولم يقتنعوا
وظل قوم غاظمهم قوله	كأنما آناهم تجدد
حتى إذا واروه في لحده	وانصرفوا عن دفنه ضيعوا
ما قال بالأمس وأوصى به	واشتروا الضر بما ينفع
وقطعوا أرحامهم بعده	فسوف يجزون بما قطعوا
وأزمعوا مكرًا بمولاهم	تبًا لما كانوا به أزمعوا
لا هم عليه يردوا حوضه	غدا ولا هو لهم يشفع

وكان السيد الحميري مع إسراره في حب العلويين لا يتورع عن مدح خصومهم العباسيين ، مدفوعا في ذلك بخوفه من بطش العباسيين ، ورغبته في الحصول على أموالهم . من ذلك قوله يمدح أبا العباس السفاح :

دونكموها يا بني هاشم	لجددوا من عهدا الدارسا
دونكموها لا علا كعب من	كان عليكم ملكها نافسا
دونكموها فالبسوا تاجها	لا تعدموا منكم له لابسا
لو خير المنبر فرسانه	ما اختار إلا منكم فارسا
قد ساسها قبلكم ساسة	لم يتركوا رطبًا ولا يابسا

ويعتبر دعبل بن علي الخزاعي ، من أكثر الشعراء العلويين تعصبا للذهب الشيعي ، وتقانيا في حب علي وأولاده ، حتى لقد وقف من العباسيين موقفا عدائيا ظاهرا ، فأخذهم جو خلفاءهم ووزرائهم وولاتهم وكبار رجال دولتهم ، فلم يسلم من هجائه الرشيد والمأمون والمعتصم ، ومدح العلويين بقصائد رائعة أشاد فيها بمناقبتهم . وقد عبر دعبل عن حزنه لقتل العلويين وتشتت أشلائهم في مختلف الأقطار الإسلامية ، في قصيدة طويلة أنشدها بعد أن حلت الهزيمة بمحمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم :

ذكرت محل الربع ^(١) من عرفات	فأسبلت دمع العين بالعبرات
مدارس آيات خلت من تلاوة	ومنزول وحى مقفر العرصات
ديار عفاها تجور كل منابذ	ولم تعف بالأيام والسنوات
قبور بكوفان وأخرى بطيبة	وأخرى بفتح مالها صلوات

(١) الربع : مطلق مكان .

(٢) عرصة الدار : ساحتها وهي البقعة الواسعة التي ليس فيها بناء .

وأخرى بأرض الجوزجان محلها
 قفا نسأل الدار التي خف أهلها
 وأين الأولى شطت بهم غربة النوى
 هم أهل ميراث النبي إذا اعتزوا
 وما الناس إلا حاسد ومكذّب
 ملامك في أهل النبي فإنهم
 تخيرتهم رشداً لأمرى فإنهم
 فيارب زدني من يقيني بصيرة
 ألم تر أني من ثلاثين حجة
 فلولاً الذي أرجوه في اليوم أو غد
 خروج إمام لا محالة خارج
 يميز فينا كل حق وباطل
 سأقصر نفسي جاهداً عن جداهم
 وقد ذكر الطبري (٢) أن دعبل بن علي الخزاعي هجا الخلفاء العباسيين كما تقدم ، ومن ذلك ما قاله في المأمون :

ويسومني المأمون خطة عارف
 يوفي على هام الخلائف مثلاً
 ويحل في أكناف كل ممنوع
 إن التراث مسهّد طلابها
 أو مارأى بالأمس رأس محمد ؟
 يوفي الجبال على رهوس القرّد
 حتى يذل شاهقا لم يصعد
 فاكفف لعابك عن لعاب الأسود
 ولم يسلم من هجماء دعبل كبار رجال الدولة وأمرأؤها وخواصها . فقد هجا إبراهيم بن شكلة (٣) بقوله :

إن كان إبراهيم مضطلعا بها
 ولتصلحن من بعد ذلك لزلزل
 أني يكون ولا يكون ولم يكن
 كذلك هجا دعبل الخليفة المعتصم الذي هدده بقتله ، فخاف وهرب إلى مصر ثم إلى بلاد المغرب . وهاك تلك الأبيات التي هجاه بها :

ملوك بني العباس في الكتب سبعة
 كذلك أهل الكهف في الكهف سبعة
 ولم يأتنا في ثامن منهم الكتب
 غداة ثووا فيها وثامنهم كلب

(١) محمد بن النعمان : مكتبة الجامعة ببلدن مخطوط رقم ١٦٤٧ ورقة ٢٢٧ ب - ٢٢٩ ب .

(٢) ج ١٠ ص ٣٠١ . (٣) هو إبراهيم بن المهدي ، وشكلة أمه .

وإني لأزهي كلبهم عنك رغبة
لقد ضاع أمر الناس حيث يسوسهم
لأنك ذو ذنب وليس له ذنب
وصيف ثؤأشناس وقد عظم الخطب
وإني لأرجو أن ترى من مغيبها
مطالع شمس قد يغص بها الشرب
وهشك تركي عليه مهانة
فأنت له أم وأنت له أب (١)

ولم يسلم الواثق من هجاء دعبيل ، فقد ذكر الخطيب البغدادي (٢) أنه لما تولى الواثق الخلافة كتب دعبيل بن علي الخزاعي أبياتا ، ثم أتى بها الحاجب فقال : أبلغ أمير المؤمنين السلام ، وقل : مديح لدعبيل : فأخذ الحاجب الطومار ، فأدخله إلى الواثق ففضه ، فاذا فيه :

الحمد لله لا صبر ولا جلد
ولا رقادة إذا أهل الهوى رقدوا
خليفة مات لم يحزن له أحد
وأخر قام لم يفرح به أحد
فر هذا ، ومر الشؤم يتبعه
وقام هذا ، وقام الويل والنكد
فطلب فلم يوجد .

٢ — الشعراء العباسيون :

وكان مروان بن أبي حفصة يخالف السيد الحيرى ودعبلا في تشيعهما للعباسيين . وكان من أنصار الأمويين ، حتى قربه إليه مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، وأصبح من خاصته المقرين إليه ، وشهد معه جميع مواقع السياسية والحربية ، كما كان ساعده الأيمن في الأعمال التي تولاها قبل وصوله إلى عرش الخلافة وبعده .

على أن مروان كان كثير اللون والتذبذب في ميوله وأهوائه ، فلم يستمر على ولائه للأمويين بعد أن دالت دولتهم وقامت على أنقاضها دولة العباسيين . وسرعان ما غدا من شعرائهم البارزين الذين يؤيدون أحقيتهم في الخلافة ، وناووا العلويين وشعرائهم في مسألة الخلافة حتى قال :

يا بن الذي ورث النبي محمدا
الوحي بين بني البنات وبينكم
دون الأقارب من ذوى الأرحام
قطع الخصام فلات حين خصام
نزلت بذلك سورة الأنعام
حطم المناكب كل يوم زحام (٣)
ودعوا وراثة كل أصيد (٤) حام (٥)
ارضوا بما قسم الإله لكم به
خلوا الطريق لمعشر عاداتهم

(١) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٢٢ — ٢٢٣ .

(٢) ج ١٤ ص ١٦ — ١٧ .

(٣) كناية عن غلبهم الخصوم يوم التنافس في المجد .

(٤) من يحمي من يلوذ به .

(٥) السيد .

أنى يكون وليس ذاك بكائن لبنى البنات وراثه الأعمام؟
وقد أثار هذا البيت الأخير حفيظة الشيعة فلمنوا مروان بن أبى حفصة ، وردوا على
قصيدته بقصيدة أخرى على وزنها وروياها ، ثم قتلوه . وما جاء فيها :

لم لا يكون ، وإن ذاك لكائن ، لبنى البنات وراثه الأعمام؟
للبنات نصفه كامل من ماله والععم متروكه بغير سهم
ما للطلق وللزنا وإنما صلى الطلاق مخافة الصمصام (١)

وكان مروان شاعر بنى العباس فى عهد المهدي والهادي والرشيدي . أنشد فى حضرة المهدي
قصيدة أشاد فيها بفضائل العباسيين وأحققتهم بالخلافة وذم العلويين ؛ فمن ذلك قوله :

هل تطمسون من السماء نجومها بأ كفكم أو تسترون هلالها
أو تيجادون مقالة عن ربكم جبريل بلغها النبي فقهاها؟
شهدت من الأنفال آخر آية بترائهم فأردتهم إبطالها

ولكن مروان بن أبى حفصة كان — كما ذكرنا — نفعا يسير فى ركاب صاحب السلطان
ويشيد بمدحهم ، ويهجو أعداءه فى سبيل الحصول على المال . ولا عجب فهو القائل فى مروان
ابن محمد آخر خلفاء بنى أمية :

مروان يا بن محمد أنت الذى زيدت به شرفا بنو مروان (٢)

(ب) فى العلم والكلام بنوع خاص

١ — الشيعة :

كان لكل من العلويين والعباسيين وجهة نظر تدرع بها لتأييد دعواه فى الخلافة : فأما وجهة
نظر العلويين ، فترجع إلى ما كانوا يعتقدونه من أنهم أحق بالخلافة من أبناء عمهم العباس ،
الذى اعترف بأحقية على بن أبى طالب ، وامتنع هو وكثير من عالية العرب عن مبايعة أبى بكر
واتحدوا مع على (٣) . وحذا أولاد العباس فى ذلك حذو أبيهم ، حتى جاء أبو هاشم بن محمد
ابن الحنفية ، فنزل عن حقه فى الإمامة إلى محمد بن على بن عبد الله بن العباس . أضف إلى ذلك
أن محمداً النفس الزكية كان قد بويع فى أواخر أيام الدولة الأموية ، فى ذلك الاجتماع الذى حضره
رجال بني هاشم : حضره من العلويين جعفر الصادق وعبد الله بن الحسن ، وأبناء محمد النفس

(١) يريد العباس بن عبد المطلب ، لقبه الطلق ، لأنه كان مع المشركين يوم بدر ثم اقتدى نفسه بعد
أن أسره المسلمون .

(٢) انظر طه حسين : حديث الأربعماء ج ٢ ص ٢٨٩ — ٢٩١ ، ٣٠٩ — ٣١٢ ؛ أحمد
أمين : ضحى الاسلام ج ٣ ص ٣٠٩ — ٣١٣ .

(٣) ابن هشام « طبعة أوروبا » ج ٢ ص ١٠١٣ . انظر كتاب « الفاطميون فى مصر » للمؤلف

الزكية وإبراهيم ، ومن العباسيين السفاح والمنصور وغيرهما ، وانفقوا جميعا على أن يدعوا الناس سرا ، وبائعوا النفس الزكية لإلّا جمعوا الصادق . هذا إلى ما يعتقده العلويون ، من أنهم وحدهم أحق المسلمين بالخلافة ، وأن أبا بكر وعمر وعثمان ، وكذا الخلفاء من بني أمية وبني العباس ، قد انتزعوا حق الإمامة من علي ، الذي يعتقد أشياء أن الإمامة في بيته ، لأنه كان أول من دخل في الإسلام من الصبيان ، ولما له من البلاء الحسن في نصرة هذا الدين ، ولأنه ابن عم الرسول وزوج ابنته فاطمة .

فهل نقض العباسيون هذه البيعة فنازعوا العلويين حقهم في الخلافة ؟ أو أنهم كانوا يرون أنهم أصحاب هذا الحق وأولى به من بني عمهم ؟ إن كتاب المنصور إلى محمد النفس الزكية (١) لا يترك مجالاً للشك في أن العباسيين قد أصبحوا منذ أواخر الدولة الأموية — على الأقل — يعتقدون أنهم وحدهم أحق بهذا الأمر دون أبناء عمهم العلويين ، لأنهم أولاد فاطمة بنت الرسول ، وهي « لا تحوز الميراث ، ولا ترث الولاية ، ولا تجوز لها الإمامة » ، على حين أن العباسيين أولاد العباس عم رسول الله ، والوارث له يوم وفاته (٢) ، ولأن العباس كانت إليه ولاية زهزم ، وسقاية الحجيج في الجاهلية دون إخوته ، حتى نازعه فيها علي بن أبي طالب ، فقضى عمر للعباس ، فلم يزل العباسيون يلونها في الجاهلية والإسلام .

ويستند العباسيون في دعواهم إلى مذهب أهل السنة ، الذي يورث العم دون البنت أو ابن العم ، كما يتبين ذلك من قول المنصور في نهاية كتابه إلى محمد بن عبد الله يفخر عليه بشرف العباسيين على العلويين : « ولقد علمت أنه لم يبق أحد من بني عبد المطلب بعد النبي صلى الله عليه وسلم غيره (العباس) ؛ فكان وارثه من عمومته . ثم طلب هذا الأمر غير واحد من بني هاشم ، فلم ينله إلا ولده : فالسقاية سقايته ، وميراث النبي له ، والخلافة في ولده ، فلم يبق شرف ولا فضل ، ولا إسلام في دنيا ولا آخرة ، إلا والعباس وارثه ومورثه ... فكيف تفخر علينا وقد علمناكم في الكفر ، وفديناكم من الأسر ، وحزنا عليكم مكارم الآباء ، وورثنا دونكم

(١) راجع ص ١١٨ — ١١٩ من هذا الكتاب .

(٢) والسفر في أن الشيعة يورثون البنت كل المال ويجعلونها حاجبة للأعمام أمران : الأول ، أن أبا بكر أخذ فدك « قرية بخير » من يد فاطمة ، وكان رسول الله أعطها تلك الضيقة للارتفاق بها ، فادعت أنها ترث ذلك ؛ فاحتج أبو بكر بأن الأنبياء لا يورثون ، واستدل بحديث سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك . الثاني ، أن بني العباس يدعون أيلولة ميراث الرسول من إمام المسلمين لهم ، لأنه عم رسول الله ، والوارث له يوم وفاته ، لأن ابنته فاطمة لا تحوز كل المال ، وعلى أنزل من العباس ، فقالوا هم إنما تحوز كل الميراث ، ليعتوا بني العباس من دعواهم . وإلى ذلك يشير شاعر بني العباس بقوله :

أني يكون وليس ذلك بكائن لبني البنات ورائة الأعمام ؟

أنظر كتاب « الفاطميون في مصر » للمؤلف ص ١٩٥ .

خاتم الأنبياء ، وطلبنا بثأركم ، فأدركنا منه ما عجزتم عنه ، ولم تدركو أنفُسكم ؟ (١) من هذا نرى أن العباسيين إنما تحولوا إلى جانب العلويين ، ليطلبوا بثأرهم ويتخذوهم توكأة للوصول إلى الخلافة : فظن العلويون أن العباسيين قد نضوا عليا على العباس . هذا إلى ما قرره المنصور من أن العلويين لم يعد لهم حق في الخلافة ، بعد أن نزل عنها الحسن بن علي لمعاوية ابن أبي سفيان على الأقل .

ولقد رأى المنصور ضرورة محاربة محمد وأخيه إبراهيم والقضاء عليهما ، باعتبارهما خارجين على الدولة ، لأنه قد أصبح بحكم البيعة له خليفة المسلمين ، فلا ينبغي له أن يفرط في مقاومة العلويين ، الذين كانوا يعملون على قلب نظام الدولة العباسية وتحويل الخلافة إليهم ، بعد أن جاهد العباسيون في سبيل الوصول إليها . وكان العباسيون يرون أنهم أولو الأمر وأحق من بنى عمهم بالخلافة . على أنه من العدل والانصاف أن نقول ، إن العباسيين كان يجدر بهم أن يجدوا سبيلا للتوفيق بين وجهة نظريهم ووجهة نظر آل بيت علي ، لإزالة أسباب الخلاف ، وإعطاء العلويين نصيبهم من هذا الأمر ، الذي كانوا يرون أنهم أحق به من غيرهم ، ولا سيما بعد أن قعد العباسيون عن المطالبة بدعواهم في الخلافة ، منذ انتقل الرسول إلى جوار ربه ، إلى أن أشرفت الدولة الأموية على الزوال .

طائفنا الإمامية :

خرجت بلاد المغرب الأقصى عن سلطان الرشيد على يد إدريس بن عبد الله بن الحسن ، كما خرجت بلاد الأندلس على يد عبد الرحمن الداخل الأموي ، وأصبح الرشيد يخاف العلويين أشد الخوف ، ويوقع أشد أنواع العقاب بكل من اتهم بالميل إليهم ؛ ووجد سعاة السوء ، حتى من العلويين أنفسهم ، سبيلا للايقاع بآل بيتهم عند الرشيد . وكان موسى الكاظم ابن جعفر الصادق ضحية هؤلاء السعاة ، فقد وجد حساده والناقون عليه ، السبيل معبدا للايقاع به عند الرشيد وإثارة مخاوفه من اعتقاد الناس بإمامته ، حتى أخذوا يحملون إليه خمس أموالهم ، ومن اعتزاهم الخروج عليه ، مما أقلق باله ، ودفعه إلى العمل على التخلص منه . يقول صاحب « الفخرى » (٢) : « كان بعض حساد موسى بن جعفر من أقاربه ، قد وشى به إلى الرشيد ، وقال له إن الناس يحملون إلى موسى خمس أموالهم ، ويعتقدون إمامته ، وأنه على عزم الخروج عليك ؛ وكثر في القول ، فوقع ذلك عند الرشيد بموقع أهمه وأقلقه ، ثم أعطى الواشي مالا أحاله به على البلاد ، فلم يستمتع به ، وما وصل المال من البلاد ، إلا وقد مرض مرضة شديدة ومات فيها . »

حب الرشيد سنة ١٧٩ هـ ، ولما وصل إلى المدينة قبض على موسى بن جعفر الصادق ،

(١) الطبرى ج ٩ ص ٢١٢ — ٢١٣ .

(٢) ص ١٧٨ ، المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٧٤ .

وحمله إلى بغداد حيث حبس ، ثم قتل ، وأدخل عليه جماعة من العدول شهدوا أنه مات حتف أنفه .

على أن الأمر الذي يسترعى النظر في هذه المسألة ، هو وشاية بعض آل علي بموسى الكاظم عند الرشيد ، مما يدل على أن الخلاف قد دب بين العلويين ، فما السبب إذا ؟ يرجع السبب في ذلك إلى معتقدات الامامية التي تنزع على أن الإمام يكتسب الامامة بطريق الوراثة ، وأنه يجب أن يكون أكبر أبناء أبيه سناً .

وإن خروج فريق من هذه الطائفة على هذه القاعدة بعدموت جعفر الصادق في سنة ١٩٨ هـ ، قد جر إلى انقسام الامامية إلى طائفتين : الامامية ، وهم الذين أطلق عليهم فيما بعد الامامية الاثنا عشرية ، وقد قالوا بامامة موسى الكاظم بن جعفر الصادق ، وهو عندهم الامام السابع ، والاسماعيلية ، وقد قالوا بامامة إسماعيل بن جعفر وكان أكبر أولاد أبيه ، على الرغم من أن وفاته كانت في حياة أبيه .

ويقال إن جعفر الصادق حول الامامة من ابنه إسماعيل إلى ابنه موسى الكاظم ، بسبب اتهام إسماعيل بشرب الخمر . على أن فريقاً من الشيعة يقول ، إن شرب إسماعيل الخمر لا يعد دليلاً على عدم تقواه ، وأيدوا دعواهم بأن بعض الشيعة في العراق كان يشرب الخمر . وبذلك ظهرت طائفة الاسماعيلية ، الذين يقولون بامامة إسماعيل بن جعفر الصادق ، وهو الامام السابع عندهم (١) .

ويحدثنا أبو محمد الحسن النوبختي في كتابه « فرق الشيعة » (٢) ، أن طائفة الاسماعيلية التي ذهبت إلى أن الامام بعد جعفر ابنه إسماعيل ، لا ابنه موسى الكاظم ، قد أنكرت موت إسماعيل في حياة أبيه ، وقالت إنه تغيب « ولا يموت حتى يملك الأرض ويقوم بأمر الناس » ، كما قالت بعدم جواز تحويل الخلافة إلى موسى بعد وفاة أخيه إسماعيل ، « لأنها لا تنتقل من أخ إلى أخ بعد الحسن والحسين عليهما السلام ، ولا تكون إلا في الأعقاب . ولم يكن لأخوي إسماعيل ، عبد الله وموسى ، في الامامة حق ، كما لم يكن لمحمد بن الحنفية حق مع علي بن الحسين . وأصحاب هذا القول يسمون « المباركية » ، نسبة إلى رئيسهم المبارك مولى إسماعيل بن جعفر .

وبديهي أن الخلاف بين العلويين على اختلاف طوائفهم ، وبين العباسيين ، لم يكن أقل أثراً منه بين طائفتي الامامية الاثنا عشرية والامامية الاسماعيلية ، مما يحملنا على الظن أن حساد موسى الكاظم كانوا من أهل بيته ، وأنهم أوقعوا به عند الرشيد ، فقبض عليه وحبسه في بغداد ،

(١) يقول أنصار اسماعيل إنه ، وإن كان قد أبعد عن الامامة ، فقد تحوّل إلى ابنه محمد بن إسماعيل ، وهو الامام السابع عندهم .

أنظر كتاب « الفاطميون في مصر » للمؤلف ص ٤٤ — ٤٥ . والخطط للعقري ج ٢ ص ٣٩٠ — ٣٩٧ ،

O'Leary de Lacy : A Short History of the Fat. Khalifate, pp.39—50.

(٢) ص ٥٧ — ٥٨ ، ٧١ — ٧٢ ، ٩٠ .

فظل فيها إلى أن كانت نهايته سنة ١٨٣ هـ وهو في الرابعة والخمسين ، ولا يزال قبره يزار إلى الآن في حي « الكاظمية » المشهور بالكرخ ، في الجانب الغربي من بغداد ، وهو موطن الشيعة .
ويحدثنا أبو الفدا (١) عن ورع موسى وزهده فيقول « وتولى خدمته في الحبس أخت السندی . وحكت عن موسى المذكور أنه كان إذا صلى العتمة ، حمد الله ومجده ، ودعا إلى أن يزول الليل ، ثم يقوم يصلي حتى يطلع الصبح ، فيصلي الصبح ، ثم يذكر الله تعالى حتى تطلع الشمس ، ثم يقعد إلى ارتفاع الضحى . ثم يرقد ويستيقظ قبل الزوال ، ثم يتوضأ ويصلي حتى يصلي العصر ، ثم يذكر الله تعالى حتى يصلي المغرب ، ثم يصلي ما بين المغرب والعتمة . فكان هذا دأبه إلى أن مات رحمة الله عليه . وكان يلقب الكاظم لأنه كان يحسن إلى من يسئ إليه .
وقد فطن المأمون إلى مغبة هذه السياسة التي سار عليها الخلفاء العباسيون في معاملة العلويين ، فولى عهده رجلاً من آل علي ، هو علي الرضا . ولولا موته مسموماً وهو في طريقه إلى بغداد ، لتحولت الخلافة من العباسيين إلى العلويين .

٢ — المعتزلة :

تكلمنا في الباب الأول على المعتزلة أو القدرية من حيث أثرها في اتجاه السياسة الإسلامية في العصر الأموي ، وقلنا إن عقيدتهم الأساسية تتكون من خمسة أصول ، وهي : القول بالتوحيد وهو أن الله واحد لا شريك له . والقول بالعدل ، وهو أن الله لا يحب الشر والفساد ، والقول بالوعد والوعيد ، وهو أن الله صادق في وعده ووعيده ، لا يغفر لمرتكب الكبيرة إلا بعد التوبة ، والقول بالمنزلة بين المنزلتين ، وهو أن صاحب الكبيرة ليس بمؤمن ولا كافر ، لكنه فاسق ، والقول بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهو تكليف المؤمنين بالجهاد وإقامة حكم الله على كل من خالف أمره أو نهيه سواء أكان كافراً أم فاسقاً (٢) .

وقد ابتدأت المعتزلة منذ نشأتها طائفة دينية لاعلاقة لها بالسياسة ، بخلاف ما كان عليه الشيعة والخوارج والمرجئة . إلا أنها سرعان ما تدخلت في الأمور السياسية الهامة ، فبحثت مسألة الإمامة ، ووضعت الشروط التي يجب أن تتوافر في الأئمة ، كما بينا ما هنالك من علاقة بين مبادئ المعتزلة ومبادئ الشيعة ، حتى كانت هذه تسمى نفسها « أهل العدل » كالمعتزلة سواء بسواء ، كما قالت المعتزلة بحرية الإرادة التي وضع أساسها علي بن أبي طالب . كذلك كان المعتزلة يلقبون فقهاءهم بلقب « إمام » ، ذلك اللقب الذي يقدره الشيعة . أضف إلى ذلك تأثير الشيعة بمبادئ المعتزلة في عقيدتهم القائلة إن الإمام المنتظر سوف يظهر لينشر العدل والتوحيد . وهذا نفس ما يقوله المعتزلة ، والزيدية أكثر شبهاً في ذلك بالمعتزلة من الإمامية . وهكذا تأثر

(١) المختصر في أخبار البشر ج ٢ ص ١٥ — ١٦ .

(٢) كتاب الانتصار والرد على ابن الراوندي ، مقدمة ص ٥٠ — ٥١ ، والمسدودي : مروج الذهب

كل من الشيعة والمعتزلة بعضها ببعض ، حتى لقد اختلط الأمر على المؤرخين ، فلم يستطيعوا التمييز بين كتب الشيعة وكتب المعتزلة في التوحيد خاصة (١) .

ولا غرو فقد نسبت المعتزلة عقائدها إلى علي بن أبي طالب . وقلبا تجد كتاباً من كتبهم ، وعلى الأخص كتب المتأخرين منهم ، إلا ادعوا فيه أنه ليس ثمة مؤسس لمذهب الاعتزال وعلم الكلام غير الإمام علي . ويقول ابن أبي الحديد : « وأما الحكمة والبحث في الأمور الإلهية فلم يكن من فن أحد من العرب ، ولا نقل في جهاز أكابرهم وأصاغرهم شيء من ذلك أصلاً . وهذا فن كانت اليونان وأوائل الحكماء وأساطين الحكمة ينفردون به . وأول من خاض فيه من العرب على عليه السلام ، ولهذا تجد المباحث الدقيقة في التوحيد والعدل مبثوثة عنه في فرش كلامه وخطبه ، ولا تجد في كلام أحد من الصحابة والتابعين كلمة واحدة من ذلك ، ولا يتصورونه ، ولو فهموه لم يفهموه ، وأنى للعرب ذلك . ولهذا انتسب المتكلمون الذين لججوا في بحار المعقولات إليه خاصة دون غيره ، وسموه أستاذهم ورئيسهم ، واجتذبه كل فرقة من الفرق إلى نفسها . ألا ترى أن أصحابنا يتمنون إلى واصل بن عطاء ، وواصل تلميذ أبي هاشم بن محمد بن الحنفية ، وأبو هاشم تلميذ أبيه محمد ، ومحمد تلميذ أبيه علي عليه السلام ، ؟ (٢) .

كذلك ذكر المعتزلة الإمام علي في الطبقة الأولى من طبقاتهم . كما ذكروا قصة الشيخ الذي سأله عند انصرافه من صفين ، أكان المسير بقضاء الله وقدره ؟ فقال عليه السلام : والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما هبطنا وادياً ولا علونا تلعة إلا بقضاء وقدر . فقال الشيخ عند الله أحسب عثائي ما لي من الأجر شيء ، فقال : بل أيها الشيخ عظم الله لكم الأجر في مسيركم وأنتم سائرون ، وفي منقلبكم وأنتم منقلبون ، ولم تكونوا في شيء من حالاتكم مكرهين ولا إليها مضطرين ، فقال الشيخ : فكيف ذلك والقضاء والقدر ساقانا وعنها كان مسيرنا ؟ فقال عليه السلام : لعلك تظن قضاء واجباً وقدرأ حتماً ، ولو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب وسقط الوعد والوعيد ، ولما كانت تأتي من الله لائمة المذنب ولا محمداً لمحسن ، ولا كان المحسن بثواب الإحسان أولى من المسمى ، ولا المسمى بعقوبة المذنب أولى من المحسن . تلك مقالة إخوان الشياطين ، وعبداء الأوثان ، وخصماء الرحمن ، وشهود الزور ، وأهل العما عن الصواب في الأمور ، هم قدرية هذه الأمة وبجوسها ، إن الله تعالى أمر بتحيراً ، ونهى تحذيراً ، ولم يكلف جبراً ولا بعث الأنبياء عبثاً ، ذلك ظن الذين كفروا ، فويل للكافرين من النار . فقال الشيخ وما ذلك القضاء والقدر اللذان ساقانا ؟ فقال أمر الله بذلك وإرادته ثم تلا (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً) ، فنهض الشيخ مسروراً بما سمع وأنشد يقول :

أنت الإمام الذي نرجو بطاعته يوم النشور من الرحمن رضوانا

(١) راجع كتاب تاريخ الاسلام للسيات المؤلف ج ١ ص ٥١٠ — ٥١٨ .

(٢) ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة ج ٢ ص ١٢٨ — ١٢٩ .

أوضحت من ديننا ما كان ملتبساً جزاك ربك بالاحسان إحساناً (١)

كذلك ذكروا في الطبقة الثانية الحسين، وعلي بن الحسين، ومحمد بن علي. وقد كان محمد هذا (بن الحنفية) هو الذي روى واصل بن عطاء، كما تقدم. وكان إذا سئل أبو هاشم عن مبلغ علم محمد بن الحنفية يقول: إذا أردتم معرفة ذلك فانظروا إلى أثره في واصل بن عطاء. وكذلك أخذ واصل عن أبي هاشم الذي كان معه في المكتتب، فأخذ عنه وعن أبيه (٢). هذه بعض الصلات التي ظهرت منذ ظهور المعتزلة، ومنها نرى أثر آل البيت في ظهور الاعتزال، ومقدار تأثير رؤساء المعتزلة بالبيت النبوي.

ولما كان الشيعة فيما بعد طوائف مختلفة، لم تكن المعتزلة مع كل هذه الطوائف على علاقة متساوية، فخاصمت بعضها، واتصلت بالبعض الآخر اتصالاً يختلف شدة وضعفاً، حسبما يذهب إليه كل منها في عقائده. وليبيان هذا نقول إن الشيعة تنقسم بحسب اعتقادها لثلاثة أقسام: غالبية ورافضة وزيدية. أما الغالبية فهم الذين غلوا في علي وقالوا فيه قولاً عظيماً، وهم فرق كثيرة كالسبيئة (٣)

لذلك قيل إن المعتزلة وضعت الأصل الأول من أصولها الخمسة، وهو التوحيد، للرد على غلاة الشيعة، والرافضة الذين قالوا إن الله قَدَّ وصورة، وإنه جسم ذو أعضاء. وإذا نظرنا إلى الرافضة وعلاقتها بالمعتزلة نرى أن المتقدمين، منهم مثل هشام بن الحكم وهشام بن سالم الجواليقي وشيطان الطاق وغيرهم من متقدمي الرافضة، كانوا كذلك خصوصاً للمعتزلة، لقولهم بالتشبيه والرجعة وغير ذلك. ويقول الخياط المعتزلي (٤): «فهل كان على الأرض رافضياً إلا وهو يقول: إن الله صورة، ويروى في ذلك الروايات، ويحتج فيه بالأحاديث عن أئمتهم، إلا من صحب المعتزلة منهم قديماً فقال بالتوحيد، فنفته الرافضة عنها ولم تُقرَّ به؟»

أما الزيدية أتباع زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي، فقد كانت صلة المعتزلة بهم أقوى منها بغيرهم من الشيعة. وترجع هذه الصلة إلى أيام زيد بن علي الذي تتلمذ لواصل ابن عطاء الغزال رأس المعتزلة، واقتبس منه أصول الاعتزال، وأصبح جميع أصحابه معتزلة إلا من خرج عليه منهم. وقد اشترك المعتزلة من بني هاشم في مبايعة محمد النفس الزكية وإبراهيم ابني عبد الله بن الحسن بمكة في أواخر بني أمية، ثم شاركوا الشيعة في سحقهم على العباسيين، بعد أن آلت الخلافة إليهم، وانضوى المعتزلة والزيدية بزعامة عيسى بن زيد بن علي تحت لواء إبراهيم بن عبد الله في العراق في محاربة أبي جعفر المنصور، وظلوا على ولائهم لإبراهيم حتى قتل وقتلت المعتزلة بين يديه (٥).

(١) كتاب طبقات المعتزلة ص ٨.

(٢) المصدر نفسه ص ١١.

(٣) المصدر نفسه ص ٨.

(٤) كتاب الانتصار والرد على ابن الراوندي ص ١٤٤.

(٥) مقالات الإسلاميين ج ١ ص ١٧٩.

ولم تبلغ تعاليم المعتزلة مبلغها من الانتشار والقوة إلا في العصر العباسي الأول ، وخاصة في عهد المأمون (١٩٨ - ٢١٨ هـ) الذي عمل على عقد مجالس المناظرة بقصره ، وأباح للمتناظرين الكلام في مختلف الموضوعات . فقد تناظر في مجلسه اثنان في موضوع الإمامة : فانتصر أحدهما لطائفة الإمامية الاثنا عشرية ، وانتصر الثاني لطائفة الإمامية الزيدية . ولو أخذ بأحد هذين الرأيين ، لأضعف ذلك من حجة العباسيين بأحقيتهم بالخلافة ، وولى العلويين . وكان المأمون يرى أن مجالس المناظرة تساعد على إزالة الخلاف بين العلماء ؛ فقد روى عن القاضي يحيى بن أكثم أنه قال : أمرني المأمون عند دخوله بغداد أن أجمع له وجوه الفقهاء وأهل العلم من أهل بغداد ، فاخترت له من أعلامهم أربعين رجلا وأحضرتهم ، وجاس لهم المأمون ، فسأل عن مسائل ؛ وأفاض في فنون الحديث والعلم . فلما انفض ذلك المجلس الذي جعلناه للنظر في أمر الدين قال المأمون : يا أبا محمد ... إني لأرجو أن يكون مجلسنا هذا بتوفيق الله وتأييده على إتمامه ، سببا لاجتماع هذه الطوائف على ما هو أَرْضَى وأصلح للدين . إما شك فيتبين ويتثبت فينقاد طوعا ، وإما معاند فيرد بالعدل كرها .

وقد ظهر في عهد المأمون جماعة من كبار العلماء والمتكلمين ، الذين تناولوا أصول الدين والعقائد وحكموا عقولهم في البحث ، ونشأت بسبب ذلك اعتقادات تخالف اعتقادات عامة المسلمين وجمهور علماءهم المعروفين بأهل الحديث .

وكان المأمون يميل إلى الأخذ بمذهب المعتزلة ، لأنه أكثر حرية واعتماداً على العقل ، فقرب أتباع هذا المذهب إليه ، ومن ثم أصبحوا ذوى نفوذ كبير في قصر الخلافة ببغداد . يقول براون^(١) : « وأما العقيدة القائلة بأن القرآن غير مخلوق ، فقد كان المعتزلة يمتقونها أشد المقت ؛ ففي سنة ٢١١ هـ (٨٢٦ م) كاد المأمون أن يثير حرباً داخلية ، مدفوعاً إلى ذلك بميول الشيعة ، وخاصة عندما عهد بالخلافة من بعده لعليّ الرضا الامام الثامن من أئمة الشيعة الاثنا عشرية . »

وقد وافق المأمون المعتزلة فيما ذهبوا إليه من أن القرآن مخلوق ، وعهد إلى تسخير قوة الدولة ، لحمل الناس على القول بخلق كتاب الله ، فأرسل في سنة ٢١٨ هـ كتاباً إلى والي بغداد إسحاق بن إبراهيم بن مصعب ، يطلب منه امتحان القضاة والمحدثين في مسألة القرآن . كما أمره أن يأخذ على القضاة عهداً بالألا يقبلوا شهادة من لا يقول بخلق القرآن ، وأن يعاقب كل من لم يقل بهذا الرأي . ومما جاء في هذا الكتاب : « وقد عرف أمير المؤمنين أن الجمهور الأعظم والسواد الأكبر من خشوة الرعية ، وسفلة العامة ، بمن لا نظره ولا روية ولا استنصاء بنور العلم وبرهانه ، أهل جهالة بالله ، وعمى عنه ، وضلالة عن حقيقة دينه ، وقصوراً أن يقدرُوا الله حق قدره ، ويعرفوه كنه معرفته ، ويفرقوا بينه وبين خلقه . ذلك أنهم ساووا بين الله

وبين خلقه وبين ما أنزل من القرآن ، فأطبقوا على أنه قديم لم يخلقه ولم يخترعه . وقد قال تعالى (إنا جعلناه قرآنا عربياً) ، فكل ما جعله الله قد خلقه ، كما قال الله تعالى (وجعل الظلمات والنور) وقال (نقص عليك من أنباء ما قد سبق) ، فأخبر أنه قصص لأمر أحدثها بعده وتلا به متقدمها . وقال تعالى (أحكمت آياته ثم فصلت) . والله يحكم كتابه ومفصله ، فهو خالقه ومبتدعه . . . فاجمع من بحضرتك من القضاة ، وقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين ، وامتنعهم فيما يقولون ، واكشفهم عما يعتقدون في خلق الله تعالى القرآن وإحداثه ، واعلمهم أنى غير مستعين في عملي ولا أثق بمن لا يوثق بدينه ،^(١)

وقد سار المعتصم على سياسة أخيه المأمون في حمل الناس على القول بخلق القرآن ، مع أنه لم يكن له حظ من العلم يجعله ذا رأى في مثل هذه المسألة . وإنما كان ينفذ وصية المأمون ، وزاد عليه في إلحاق الأذى بكل من يعترف بذلك من العلماء وأهل الرأى ، فأهان أحمد بن حنبل إهانة بالغة وسجنه ، وأصبح كل عالم أو قاض هدفاً لخطر الضرب بالسياط والتعذيب ، إذا لم يأخذ أى المعتزلة في القول بخلق القرآن .

وكذلك اقتدى الواثق بأبيه المعتصم في انتصاره للمعتزلة ، وتشدده في فرض آرائه الدينية على الناس ، مما أدى إلى إثارة خواطر أهل بغداد . وكان أحمد بن نصر رأس هؤلاء الساخطين الذين أنكروا القول بخلق القرآن ، ودعوا إلى عزل الواثق ، لكنهم ما لبث أن قبض عليه وعلى أعوانه ، وسبقوا إلى الخليفة بسامرا قاعدة خلافته ، فمقد لهم مجلساً للمناظرة ، وناظر الواثق أحمد بن نصر في مسألة خلق القرآن ، فقال له : يا أحمد ما تقول في القرآن ؟ قال : كلام الله ، قال أمخلوق هو ؟ قال : هو كلام الله ، قال : فما تقول في ربك ؟ أترأه يوم القيامة ؟ قال : يا أمير المؤمنين جاءت الآثار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر » ، فقال الواثق لمن حوله ما تقولون فيه ؟ فقال القاضي عبد الرحمن ابن اسحق ، وقال غيره اسقنى دمه يا أمير المؤمنين ، فوافقه الحاضرون إلا ابن أى دؤاد قاضى القضاة ، فإنه قال يا أمير المؤمنين كافر يستتاب لعل به عاهة أو تغير عقل . وما لبث أحمد بن نصر أن لقي حتفه على يد هذا الخليفة

وقد غلا الواثق في معاملة القائلين بعدم خلق القرآن ، فقد طلب عند ما تبودلت الأسرى بين المسلمين والبيزنطيين ، أن يسأل كل أسير من أسرى المسلمين عن رأيه في القرآن . وكان نصيب كل من قال بعدم خلق القرآن أن يرد إلى أسره باعتباره خارجاً على الاسلام^(٢) .

٣ — أهل السنة :

دخل في الاسلام بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم كثير من الشعوب كالفرس والشاميين والمصريين وغيرهم ، واتسعت رقعة الدولة الاسلامية خارج جزيرة العرب . وكان لهذه الشعوب

(٢) المصدر نفسه ج ١١ ص ١٩ .

(١) الطبرى ج ١٠ ص ٢٨٤ — ٢٨٥ .

أديان وتقاليد ونظم . ولم يكن في استطاعتهم تطبيق عقائد الاسلام التي ذكرت في القرآن عليها . ومن ثم اتجه نظرهم إلى مصدر آخر من مصادر التشريع الإسلامي هو السنة ، أى ما أقرع الرسول من قول أو فعل أو أى شئ رآه . وكانت المدينة المنورة مركز أهل السنة أول الأمر . وينبغي أن نميز بين أهل الحديث الذين يتمسكون بأقوال الرسول خاصة ، وأهل السنة وهم الذين يتمسكون بأقوال الرسول وأفعاله وعاداته وغيرها (١) .

ولم يطلق اسم « أهل السنة » إلا في العصر العباسي الأول ، في الوقت الذي تطور فيه مذهب المعتزلة ، حتى أصبح يطلق اسم « أهل السنة » على كل من يتمسك بالكتاب والسنة ، واسم « المعتزلة » على كل من يأخذ بالكلام والنظر . أما في صدر الإسلام فكان يطلق على كل من يتمسك بالكتاب والسنة اسم « الصحابة » ، لأنهم اجتمعوا مع الرسول وناصروه ، كما أطلق على من أتى بعدهم اسم « أتباع » وأتباع الأتباع . وظلت الحال كذلك إلى أن انتصر أبو الحسن الأشعري وأتباعه على المعتزلة ، واضمحلت أكثر الفرق الإسلامية الأخرى ، فلم يعد هناك سوى الشيعة وأهل السنة ، فيقال هذا شيعي وذاك سني . وقد استمرت هذه التسمية إلى الوقت الحاضر .

وقد مر مذهب أهل السنة بأدوار مختلفة ، وقام الصراع بينهم وبين المعتزلة ، واصطدم زعماء أهل السنة مع العباسيين أنفسهم . فكان من مبادئ أهل السنة تمسكهم بنصوص الكتاب والسنة ، وذهبوا إلى أن الإيمان ليس بحاجة إلى غيرها ، كما ذهبوا إلى القول بأن الاعتماد على النظر والعقل قد يوصل إلى الإلحاد ، مخالفين بذلك مبادئ المعتزلة ، مما أدى إلى وقوع النزاع بين أصحاب هذين المذهبين . وآية ذلك ما رأيناه في عهد المأمون ، من وقوع ذلك الصراع العنيف في مسألة خلق القرآن بين « أهل السنة والجماعة » وبين « المعتزلة » الذين سادت مبادئهم في بلاط الخلفاء ، وأصبحت لهم الكلمة النافذة في ذلك الوقت .

على أن أهل السنة لم يقصروا كلامهم على الأمور النظرية ، بل كثيراً ما تعرضوا للمسائل السياسية كمسألة الإمامة . فقد نقم أبو حنيفة على العباسيين سطوتهم وشدتهم ، ومال إلى جانب العلويين في الفتنة التي قامت بين أبي جعفر المنصور ومحمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم . وقد روى أن المنصور استقدم أبا حنيفة من الكوفة لاتهمه بمناصرة إبراهيم بن عبد الله العلوي ، فظل يبغداد خمسة عشر يوماً ، ثم دس له السم فمات . كما كان مالك بن أنس يفتي الناس بأنه « ليس على مكره يمين » . ولم تكن هذه الفتوى تعجب العباسيين ، لأن هذا معناه أن من بايع العباسيين مكرهاً ، فله أن يتحلل من بيعته ، وله أن يبايع محمداً النفس الزكية . وقد نهى المنصور

(١) قيل عن سفيان الثوري إنه إمام في السنة وليس بإمام في الحديث ، وأن الأوزاعي إمام في الحديث وليس بإمام في السنة ، وأن مالك بن أنس كان إماماً في السنة والحديث معاً . وقد بقي هذا التمييز وقتاً طويلاً حتى اصطلاح المتأخرون على جعلها شيئاً واحداً .

مالكا عن التحدث بهذا الحديث ، ثم ضربه بالسياط لما علم أنه ما زال يحدث به .
وقد ذهب البغدادى صاحب كتاب الفرق بين الفرق (١) إلى القول : إن أهل السنة والجماعة ثمانية أصناف من الناس : صنف منهم أحاطوا العلم بأبواب التوحيد والنبوة ، وأحكام الوعد والوعيد والثواب والعقاب ، وشروط الاجتهاد والإمامة والزعامة ، وسلكوا في هذا النوع من العلم طرق الصفاتية (٢) من المتكلمين الذين تبرءوا من التشبيه والتعطيل ، ومن بدع الرافضة والخوارج والجهمية والنجارية وسائر أهل الأهواء الضالة . والصنف الثانى منهم أئمة الفقه من فريقي الرأي والحديث من الذين اعتقدوا في أصول الدين مذاهب الصفاتية في الله وفي صفاته الأزلية وتبرءوا من القدر والاعتزال ، وأثبتوا رؤية الله بالأبصار من غير تشبيه ولا تعطيل ، وأثبتوا الحشر من القبور مع إثبات السؤال في القبر ، ومع إثبات الحوض والصراط والشفاعة وغفران الذنوب التي دون الشرك . وقالوا بدوام نعيم الجنة على أهلها ودوام عذاب النار على الكفرة . وقالوا بإمامة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ، وأحسنوا الثناء على السلف الصالح من الأمة ، ورأوا وجوب الجمعة خلف الأئمة ، الذين تبرءوا من أهل الأهواء الضالة ، ورأوا وجوب استنباط أحكام الشريعة من القرآن والسنة ومن إجماع الصحابة ، ورأوا جواز المسح على الخفين ووقوع الطلاق الثلاث ، ورأوا تحريم المتعة ، ورأوا وجوب طاعة السلطان فيما ليس بمعصية . ويدخل في هذه الجماعة أصحاب مالك والشافعي والأوزاعي والثوري وأبي حنيفة وابن أبي ليلى ، وأصحاب أبي ثور وأصحاب أحمد بن حنبل ، وأهل الظاهر وسائر الفقهاء الذين اعتقدوا في الأبواب العقلية أصول الصفاتية ، ولم يخلطوا فقه بشيء من بدع أهل الأهواء الضالة . والصنف الثالث منهم هم الذين أحاطوا علما بطرق الأخبار والسنن المأثورة عن النبي عليه السلام ، وميزوا بين الصحيح والسقيم منها وعرفوا أسباب الجرح والتعديل (٣) ، ولم يخلطوا عليهم بذلك بشيء من بدع أهل الأهواء الضالة . والصنف الرابع منهم قوم أحاطوا علما بأكثر أبواب الأدب والنحو والتصريف وجروا على سمت (٤) أئمة اللغة كالخليل وأبي عمرو بن العلاء وسيبويه والفرّاء والاحفش والأصمعي والمازني وأبي عبيد ، وسائر أئمة النحو من الكوفيين والبصريين الذين لم يخلطوا عليهم بذلك بشيء من بدع القدرية أو الرافضة أو الخوارج . ومن مال منهم إلى شيء من الأهواء الضالة لم يكن من أهل السنة ، ولا كان قوله حجة في اللغة والنحو . والصنف الخامس منهم هم الذين أحاطوا علما بوجوه قراءات القرآن وبوجوه تفسير آيات القرآن وتأويلها على وفق مذاهب أهل السنة دون تأويلات أهل الأهواء الضالة . والصنف السادس منهم الزهاد الصوفية الذين أبصروا فاقصروا

(٢) الصفاتية من يشتون صفات الله .

(١) من ٣٠٠ — ٣٠٣ .

(٣) الجرح الذنب الذي يجعل صاحبه غير أهل لرواية الحديث ، والتعديل هو إثبات الصفات التي

(٤) سمت : الطريق .

تعمله غير عرضة للتجريح .

واختبروا فاعتبروا ، ورضوا بالمقدور وقنعوا بالميسور ، وعلوا أن السمع والبصر والفؤاد ، كل مسئول عن الخير والشر ومحاسبٌ على مثاقيل الذر ، فأعدوا خير الاعتداد ليوم المعاد ، وجرى كلامهم في طريق العبارة والاشارة على سمت أهل الحديث دون من يشتري لهو الحديث لا يعملون الخير رياء ولا يتركونه حياء ، دينهم التوحيد ونفى التشبيه . ومذهبهم التفويض إلى الله تعالى والتوكل عليه والتسليم لأمره والقناعة بما رزقوا ، والاعراض عن الاعتراض عليه (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) (١) . والصنف السابع منهم قوم مرابطون في ثغور المسلمين في وجوه الكفرة ، يجاهدون أعداء المسلمين ويحمون حمى المسلمين ويذبون عن حريمهم وديارهم ، ويظهرون في ثغورهم مذاهب أهل السنة والجماعة . وهم الذين أنزل الله تعالى فيهم قوله (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) (٢) . والصنف الثامن منهم عامة البلدان التي غلب فيها شعائر أهل السنة دون عامة البقاع ، التي ظهر فيها شعار أهل الأهواء الضالة . وإنما أردنا بهذا الصنف من العامة ، عامة اعتقدوا تصويب علماء السنة والجماعة في أبواب العدل والتوحيد والوعد والوعيد ، ورجعوا إليهم في معالم دينهم ، وقلدوهم في فروع الحلال والحرام ، ولم يعتقدوا شيئا من بدع أهل الأهواء الضالة . وهؤلاء هم الذين ستمتهم الصوفية حشو الجنة . فهؤلاء أصناف أهل السنة والجماعة ، ومجموعهم أصحاب الدين القويم والصراط المستقيم .

(ح) في السياسة : أثر الوزراء العباسيين والبرامكة خاصة في هذا النزاع :

اعتنق الفرس الدين الاسلامي ، ووجدوا فيه المساواة التي كانوا يشهدونها ، لأن هذا الدين يقوم على أساس المساواة بين المسلمين كافة ، لا فرق في ذلك بين عربي وعجمي . وتمتع الفرس بمبدأ المساواة في عهد الخلفاء الراشدين . فلما انتقل الحكم إلى الأمويين آثروا العرب على الفرس ، ولم يساوا بين هؤلاء وأولئك في الحقوق المدنية والعسكرية ، وأثاروا بذلك كراهة الموالي ، الذين عملوا على التخلص من نيرهم ، ورأوا أن ينضموا إلى بني هاشم ، طمعاً في نيل حقوقهم ، وإعادة مجد بلادهم على أيديهم .

وقد قامت الدولة العباسية على أكتاف الفرس ، كما نعلم . ولكن العباسيين ، وإن كانوا قد اعترفوا بمساعدة الفرس لهم في تأسيس دولتهم ، فانهم لم ينسوا عريقتهم وحبهم للملك ، فلم يسمحوا لمواليهم وأنصارهم أن يزاخموهم في سلطانهم ، أو يعملوا على تحويل الأمر إلى أعدائهم العلويين . ومن ثم رأينا الخلفاء العباسيين يتكلمون بوزرائهم الذين مالوا إلى العلويين : فتكل السفاح بأبي سلة ، والمهدي يعقوب بن داود ، والرشد بالبرامكة ، والمأمون بالفضل بن سهل . اتصل أبو سلة الخلال ، الذي كان من أهم العوامل التي ساعدت على تأسيس الدولة العباسية ،

بني العباس ، بتزكية صهره بـسكسر بن ماهان كاتب ابراهيم الامام . ولما مات ابراهيم وخلفه في الدعوة أخوه ابو العباس ، حامت الشكوك حول إخلاص أبي سلبية للدعوة العباسية ، واتهم بأنه أخذ يعمل على العدول عنهم وتحويل الخلافة إلى العلويين ، كما أنه لم يهتم بأبي العباس وأهل بيته ، بعد أن هاجروا من الحميمة إلى الكوفة ، حتى إنه أن يدفع أجرة الحماليين الذين تولوا نقلهم ونقل أمتعتهم ، وأخفى أمرهم وأمر بمراقبتهم . ولما قامت الدولة العباسية أرسل أبو سلبية إلى زعماء العلويين بالحجاز ، وهم جعفر الصادق وعبد الله المحض بن الحسن بن الحسن بن علي ، وعمر الأشرف بن علي زين العابدين ، يدعوهم إلى قبول الخلافة كما تقدم . وقد قيل إن أبا العباس السفاح استوزر أبا سلبية على كره منه ، لما كان يتمتع به من مكانة سامية ونفوذ كبير في نفوس الخراسانيين ، وهم أعضاء الدولة العباسية ومصدر قوتها ، وفوض إليه أمور هذه الدولة ، ولقبه وزير آل محمد ، وخشى إذا قتله أن يقوم أهل خراسان في وجهه ويثأروا له . وبذلك عمل أبو العباس على أن يتم هذا الأمر على يد أبي مسلم الخراساني ، لأنه كان يكرهه ويحقد عليه لعل منزلته في الدولة .

ولم يكن للوزراء من الفرس أثر في هذا النزاع الذي قام بين العلويين والعباسيين في عهد أبي جعفر المنصور ، لضعف هؤلاء الوزراء في عهده ، بسبب استبداده بأمور دولته ، وشدة حرصه على سلطانه ، حتى كانوا معرضين للقتل لأتفه الأسباب . فلما ولي المهدي الخلافة وأمر بحجب وزيره أبي عبيد الله معاوية بن يسار بعد أن قُتل ابنه الذي اتهم بانتحال مذهب الزنادقة ، استوزر أبا عبد الله يعقوب بن داود ، وكان من الخراسانيين ، وكان أبوه وأعمامه يتولون الكتابة لنصر بن سيار والى خراسان في أواخر أيام بني أمية ، لنبوغهم في العلم والأدب والأشعار والسير . فلما انتقل الحكم إلى العباسيين لم ينتفعوا به واهب آل داود لاتصالهم ببني أمية من قبل . وقد قيل إن يعقوب بن داود انتحل عقائد الزيدية ، ثم مال إلى أولاد عبد الله بن الحسن العلوي وتقرب إليهم ، وأخذ هو وأهل بيته ينشرون الدعوة لمحمد النفس الزكية ، وانضوا تحت لواء أخيه إبراهيم في العراق . فلما قتل إبراهيم اختفوا حتى ظفر بهم المنصور ، فحبسهم إلى أن ولي المهدي الخلافة ، فأطلقهم ، واستوزر يعقوب بن داود وفوض إليه كافة أمور دولته ، وانصرف إلى اللهو وسماع الغناء والشراب ، فقال بشار بن برد :

بني أمية هبوا طال نومكم إن الخليفة يعقوب بن داود
صاعت خلافتكم يا قوم فالتسوا خلافة الله بين النسي والعود

وقد ذكر صاحب الفخرى^(١) أن الخليفة المهدي طلب من وزيره يعقوب بن داود أن يكفيه أحد العلويين ، لأنه خاف خروجه عليه ، واستحلفه على ذلك ، ولكن يعقوب رق لحال العلوي وأطلقه . وكانت عند هذا الوزير جارية أهداها له المهدي ، فدنست إليه من أعليه بحقيقة الحال ،

فبث العيون والأرصاد حتى أتوه بذلك العلوى ، وجعله في بيت قريب من مجلسه . ثم استدعى الوزير وسأله عما آل إليه أمر العلوى ، فقال له : قد أراح الله منه أمير المؤمنين ، قال : مات ؟ قال نعم ، قال بالله ؟ قال إى والله ، قال فضع يدك على رأسى واحلف به ، قال يعقوب : فوضعت يدى على رأسه وحلفت به ، فقال (المهدي) لبعض الخدم : أخرج إلينا من في هذا البيت . فلما رآه يعقوب امتنع الكلام عليه ، وتحير في أمره ، فقال المهدي يا يعقوب قد حل لي دمك . قال يعقوب : فدللت بحبل في بئر مظلمة لا أرى فيها الضوء ، فظل في حبسه إلى أن أطلقه الرشيد ، وقد فقد بصره ورقت حاله ، وسمح له بأن يقضى البقية الباقية من حياته في مكة ، فلم تطل أيامه بعد ذلك ومات سنة ١٧٦ هـ .

ولم يعمر الهادى في الخلافة ، وخلفه أخوه هارون الرشيد ، فاستوزر البرامكة الذين كان لهم شأن عظيم في الدولة العباسية ، ولا سيما في عهد هارون الرشيد الذى أوقع بهم لأسباب كثيرة أهمها ميلهم إلى العلويين ، كما أوقع السفاح بوزيره أنى سلة الخلال ، والمهدي بوزيره يعقوب بن داود ، كما تقدم . ويحسن بنا أن نفحص عن العوامل التى أدت إلى نكبة البرامكة على يد الرشيد ، تلك النكبة التى تعتبر بحق من أهمات الحوادث التى وقعت في عهد الرشيد خاصة ، وفي العصر العباسى الأول عامة .

اختلفت كلمة المؤرخين وأصحاب السير في السبب الذى دفع هارون الرشيد إلى نكبة البرامكة ، مع أنه شب في حجر يحيى بن خالد البرمكى وكان يدعوه يا أبت . فبعضهم يرى أن الرشيد غضب عليهم لوجود علاقات بين جعفر بن يحيى وبين أخته العباسة . وبعضهم يقول إن ذلك كان بسبب إطلاق جعفر البرمكى يحيى بن عبد الله العلوى بعد أن أمره الرشيد بحبسه . وبعضهم يقول إن استبداد البرامكة بالملك وجمعهم الأموال استمال الناس إليهم ، وأن ذلك أوغر صدر الرشيد عليهم وحمله على الإيقاع بهم .

أضف إلى ذلك ما أظهره البرامكة من الدالة على الرشيد عما لا تحتمله نفوس الملوك ، وسعاية أعداء البرامكة وبخاصة الفضل بن الربيع بهم عند الرشيد . وما يدل على تأثير هذه السعيات في نفس الرشيد ما رواه صاحب الفخرى ^(١) عن بخشي شوع الطيب نال : دخلت يوماً على الرشيد وهو جالس في قصر الخلد ، وكان البرامكة يسكنون بجذائه من الجانب الآخر ، وبينهم وبينه عرض دجلة ، فنظر الرشيد فرأى اعتراك الخيول وازدحام الناس على باب يحيى بن خالد فقال : جزى الله يحيى خيراً ، تصدى للامور وأراحنى من الكد ووفر أوقاتي على اللذة . ثم دخلت عليه بعد أوقات ، وقد شرع يتغير عليهم ، فنظر فرأى الخيول كما رآها

تلك المرة فقال : استبد يحيى بالأمور دونى ، فالخلافة على الحقيقة له ، وليس لى منها إلا اسمها ، فقلت إنه سينكبهم ، فنكبهم عقيب ذلك .

وروى الطبرى (١) عن بختيشوع بن جبريل عن أبيه أنه قال : « إني لقاعدته في مجلس الرشيد إذ طلع يحيى بن خالد ، وكان فيما مضى يدخل بلا إذن . فلما دخل وصار بالقرب من الرشيد وسلم ، رد عليه رداً ضعيفاً ، فلم يحيى أن أمرهم قد تغير . ثم أقبل على الرشيد فقال : يا جبريل يدخل عليك وأنت في منزلك أحد بلا إذنك ؟ فقلت لا ولا يطمع في ذلك . قال فما بالنا يدخل علينا بلا إذن ؟ فقام يحيى فقال يا أمير المؤمنين ! قد منى الله قبلك ، والله ما ابتدأت ذلك الساعة وما هو إلا شيء . كان خصنى به أمير المؤمنين ورفع به ذكرى ، حتى إن كنت لأدخل وهو في فراشه ، مجرداً حيناً وحيناً في بعض إزاره . وما علمت أن أمير المؤمنين كره ما كان يحب ؛ وإذا قد علمت فإني أكون عنده في الطبقة الثانية من أهل الإذن أو الثالثة إن أمرنى سيدى بذلك . قال فاستحي ، وكان من أرق الخلفاء وجهاً ، وعيناه في الأرض ما يرفع إليه طرفه . ثم قال ما أردت ما تكره ، ولكن الناس يقولون . قال : فظننت أنه لم يسبح له جواب يرتضيه ، فقال بهذا القول ، ثم أمسك عنه وخرج يحيى . »

كذلك روى الطبرى (٢) هذه العبارة التى تدلنا على مبلغ حقد الرشيد على البرامكة وعمله على الغض من شأنهم ، حتى إنه أمر غلبانه بالإعراض عنهم والاستتار بهم إذا دخلوا قصره : دخل يحيى بن خالد بعد ذلك على الرشيد ، فقام الغلبان إليه ، فقال الرشيد لمسرور الخادم : مر الغلبان ألا يقوموا ليحيى إذا دخل الدار قال : فدخل فلم يقم إليه أحد ، فأرد لونه . وكان الغلبان والحجاب بعد إذا رأوه أعرضوا عنه ، فكان ربما استسقى الشربة من الماء أو غيره فلا يسقونه ، وبالحرى إن سقوه أن يكون ذلك بعد أن يدعوا بها مراراً .

أضف إلى ذلك ما ذكره ابن عبد ربه في محاوراة الأصمعى للرشيد وللفضل بن يحيى وغيرهم ؛ وذلك أن أعداء البرامكة من بطانة الرشيد دسوا للغبين شعرا يثير عامل المنافسة والحق في نفسه . وكذلك ما تحيل به أعداؤهم من البطانة فيما دسوه للغبين من الشعر احتيالا على سماعه للخليفة وتحريك حفاظته لهم (٣) . فانظر كيف كانت حال الرشيد من البرامكة عندما سمع هذين البيتين ؟

ليتَ هنداُ أنجزتنا ما نعد وشفّت أنفسنا بما تجد
واستبدّت مرة واحدة إنما العاجز من لا يستبد

أجل لقد نجح أعداء البرامكة ومنافسهم في حيلتهم ، فان الرشيد لما سمع هذين البيتين قال : « إى والله إني عاجز ، وسلط عليهم سيف انتقامه . »

(٢) ج ١٠ ص ٨٠ .

(١) ج ١٠ ص ٧٩ - ٨٠ .

(٣) ابن خلدون : مقدمه ص ١٥٠ .

ويعزو بعض المؤرخين نكبة هذه الأسرة إلى حوادث ليست لجائية كالتى تقدمت ، وإنما هي أمور جاءت متتابعة ، منها أن الرشيد كان يميل كثيراً إلى تولية الفضل بن الربيع بعض أمور الدولة ، فكانت الخيزران أم الرشيد تحول دون ذلك ، وكان الفضل يظن أن الذى حملها على ذلك إنما هو جعفر البرمكى . فلما ماتت الخيزران ولى الرشيد الفضل الخاتم وغيره مما كان فى يد جعفر (١٨٤ هـ) .

وأعقب ذلك إطلاق يحيى بن عبد الله بن الحسن العلوى ، الذى خرج على الرشيد فى بلاد الديلم ، فبعث إليه الفضل بن يحيى البرمكى فى خمسين ألف مقاتل ، فزال به حتى مال إلى الصلح وطلب أماناً بخط الرشيد ، فكتب إليه الأمان بخطه ، وشهد عليه فيه القضاة والفقهاء وكبار بنى هاشم . ولما قدم يحيى تلقاه الرشيد بالحفاوة والاكرام ، ولكنه لم يلبث أن حبسه ، إذ علم أنه يعمل لخلافه ، واستفتى الرشيد الفقهاء فى نقض الأمان الذى أعطاه يحيى ، ثم سلبه لجعفر بن يحيى البرمكى فأطلقه (١) ، فكان ذلك من أهم أسباب نكبة البرامكة . وفى ذلك يقول الطبرى (٢) : « وذلك أن الرشيد دفع يحيى إلى جعفر فحبسه ، ثم دعا به ليلة من الليالى ، فسأله عن شيء من أمره ، فأجابه إلى أن قال : إلتقى الله فى أمرى ، ولا تتعرض أن يكون خصمك غداً محمد بن صلى الله عليه وسلم ؛ فوالله ما أحدثت حدثاً ولا آويت مضجداً ؛ فرق عليه ، وقال له اذهب حيث شئت من بلاد الله . قال وكيف أذهب ، ولا آمن أن أؤخذ بعد قليل ، فأرد إليك أو إلى غيرك ؟ فوجه معه من أداه إلى مأمنه ، وبلغ الخبر الفضل بن الربيع من عين كانت له عليه من خاص خدمه ، فعلا الأمر فوجده حقاً ، وانكشف عنده ، فدخل على الرشيد وأخبره ، فأراه أنه لا يعياً بخبره وقال ، وما أنت وهذا لا أم لك ، فلعل ذلك عن أمرى ، فانكسر الفضل ، وجاءه جعفر فدعا بالغداء فأكلا ، وجعل يلقمه ويحادثه ، إلى أن كان آخر ما دار بينهما أن قال : ما فعل يحيى بن عبد الله ؟ قال بحاله يا أمير المؤمنين فى الحبس الضيق والأكبال ، قال بحياتى ؟ فأحجم جعفر ، وكان من أدق الخلق ذهنأ وأصحهم فكراً ، فهجس فى نفسه أنه قد علم بشيء من أمره ، وقال : لا وحياتك يا سيدى ، ولكن أطلقتة وعلبت أنه لا خيانة به ولا مكروه عنده ، قال نعم ما فعلت ، ما عدوت ما كان فى نفسى . فلما خرج أتبعه بصره حتى كاد أن يتوارى عن وجهه ، ثم قال قتلنى الله بسيف الهدى على عمل الضلالة إن لم أقتلك ، فكان من أمره ما كان . »

لذلك لا تعجب إذا ساءت العلاقة بين البرامكة وبين الرشيد ، وساعد على إشعال هذه النيران سعاية الفضل بن الربيع وغيره ، وكراهة زبيدة أم الأمين للبرامكة ، إذ كانت تظن أن

(١) الفخرى ص ١٧٦ — ١٧٧ ؛ الجهمشيارى : كتاب الوزراء والكتاب ص ١٨٩ — ١٩٠ .

(٢) ج ١٠ ص ٨٠ — ٨١ .

الرشيد قد عهد إلى ابنه المأمون دون الأمين بتأثير يحيى البرمكي . أضف إلى ذلك ما اتصل بعلم الرشيد من أن عبد الملك بن صالح العباسي كان يدعو إلى نفسه ، وأن البرامكة كانوا يساعدونه في دعوته ، فغضب الرشيد عليهم وحبس عبد الملك معهم .

ولم يكن جعفر البرمكي وحده هو الذي اتهم بالتقرب إلى العلويين ، بل شاركه في ذلك أخوه موسى بن يحيى البرمكي ، فقد رماه أعداؤه بأنه ينشر الدعوة إلى العلويين ويعمل على تمويل الخلافة إليهم بين أهالي خراسان .

أما قصة العباسية مع جعفر بن يحيى ، وتتلخص في أن هارون الرشيد ، لسكفه بمكانة جعفر بن يحيى البرمكي وأخته العباسية ، وحرصه على حضورهما مجلسه ، أذن لها في عقد الزواج دون الخلوة ، وأن الرشيد قد غضب على جعفر لعدم تنفيذ هذا الشرط ، فأمره تستعبده كل البعد ، مع ما نعرفه عن نسب العباسية وحسبها ودينها . فهي بذت الخليفة المهدي ابن المنصور ، وهي كما يقول ابن خلدون (١) ، قريبة عهد بداوة العروبة وسداجة الدين ، البعيدة عن عوائد الترف ومواقع الفواحش ، فأين يطلب الصون والعفاف إذا ذهب عنها ، أو أين توجد الطهارة والذكا . إذا فقد من يديها ، أو كيف تلتحم نسبها بجعفر بن يحيى وتدنس شرفها العربي بمولى من موالى العجم ؟ . . . وكيف يسوغ من الرشيد أن يصهر إلى موالى الأعاجم على بعد همته وعظم آبائه ؟ ولو نظر المتأمل في ذلك نظر المنصف ، وقاس العباسية بابنة ملك من ملوك زمانه ، لاستنكف لها عن مثله مع مولى من موالى دولتها ، وفي سلطان قومها ، واستنكره ولجَّ في تكذيبه . وأين قدر العباسية والرشيد من الناس ؟ .

وبما يؤيد بطلان هذا الرأي ، مانعه من أنفة العباسيين عن مصاهرة الموالى . وليست حكاية أبي مسلم الخراساني مع زوجة عبد الله بن علي العباسي التي زادت حنق المنصور عليه وساعدت على الفتك به بعيدة عن أذهانتنا .

ونحن نميل إلى القول بأن الرشيد نكب البرامكة ، لما كان من استبدادهم بالأمور دونه . وفي ذلك يقول ابن خلدون (٢) « وإنما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة ، واحتجائهم أموال الجباية ، حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه ، فغلبوه على أمره وشاركوه في سلطانه . ولم يكن له معهم تصرف في أمور ملكه ، فعظمت آثارهم وبعد صيتهم ، وعثمروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم ، واحتازوها عن سواهم ، من وزارة وكتابة وقيادة وحجابه وسيف وقلم ، فتوجه الإيثار من السلطان إليهم وعظمت الدالة منهم ، وانبسط الجاه عندهم ، وانصرف نحوهم الوجوه وخضعت لهم الرقاب وقصرت عليهم الآمال ، ومدحوا بما لم يمدح به خليفتهم ، وأسئوا لعفاتهم الجوائز والصلوات

(١) مقدمة ص ١٤ .

(٢) مقدمة ص ١٤ .

(٣) أنظر المسعودي : (مروج الذهب) ج ٢ ص ٢٨٦ — ٢٨٨ .

واستولوا على القرى والضياع ، من الضواحي والأمصار في سائر الممالك ، حتى آسفوا البطانة وأحقدوا الخاصة ، وأغصوا أهل الولاية ، فكشفت لهم وجوه المنافسة والحسد ، ودبت إلى مهادم الوثير من الدولة عقارب السعاية .

عاش البرامكة عيشة قوامها البذخ والإسراف وحب الظهور ، وأغدقوا الأموال على الشعراء والعلماء ، ولم يردوا قاصدا . قيل إن جعفر بن يحيى البرمكي أنفق على بناء داره عشرين ألف ألف درهم ، وهو — كما يبدو — مبلغ ضخم لا يقل عن مليون وستائة وخمسة وستين ألف دينار ، غير ما يحتاج إليه هذا البناء من أثاث ورياش وخدم وحشم ، وما إلى ذلك من أسباب البذخ وألوان الترف التي تثير عوامل الغيرة في نفوس أعدائهم وحسادهم ، وتهمي لهم السيليل للإيقاع بهم عند الخليفة . بهذا تنبأ إبراهيم بن المهدي ووجد أن نكبة البرامكة آتية لا ريب فيها . وهو يقص علينا هذه العبارة التي نقلها عن الطبري (١) قال : « أتيت جعفر بن يحيى في داره التي ابتناها فقال لي : أما تعجب من منصور بن زياد ؟ قلت فماذا ؟ قال سألته هل ترى في داري عيبا ؟ قال نعم ليس فيها لبننة ولا صنوبرة ، قال إبراهيم ، فقلت الذي يعيبها عندي أنك أنفقت عليها نحواً من عشرين ألف ألف درهم ، وهو شيء لا آمنه عليك غداً بين يدي أمير المؤمنين . قال هو يعلم أنه قد وصلني بأكثر من ذلك وضعف ذلك سوى ما عرضني له . قال قلت إن العدو إنما يأتيه في هذا من جهة أن يقول يا أمير المؤمنين ، إذا أنفق على دار عشرين ألف ألف درهم ، فأين نفقاته وأين صلاته وأين النوائب التي تنوبه ؟ وما ظنك يا أمير المؤمنين بما وراء ذلك ؟ وهذه جملة سريعة إلى القلب ، والموقف على الحاصل منها صعب . قال إن سمع مني قلت إن لأمير المؤمنين نعماً على قوم قد كفروها بالستر لها أو باظهار القليل من كثيرها ، وأنا رجل نظرت إلى نعمته عندي فوضعها في رأس جبل ، ثم قلت للناس تعالوا وانظروا . »

ويتهم البغدادى البرامكة ، فيرميهم بالزندقة والميل إلى مذاهب المجوس ، فيقول عند كلامه على الباطنية : « ولم يمكنهم (الباطنية) إظهار عبادة النيران ، فاحتالوا بأن قالوا للمسلمين : ينبغي أن تُجسَّم المساجد كلها ، وأن تكون في كل مسجد مجمرة (٢) يوضع عليها الند (٣) والعود في كل حال . وكان البرامكة قد زينوا للرشد أن يتخذ في جوف السكبة بحجرة يتبخر عليها العود أبداً ، فعلم الرشد أنهم أرادوا من ذلك عبادة النار في السكبة ، وأن تصير السكبة بيت نار ، فكان ذلك أحد أسباب قبض الرشد على البرامكة (٤) . وذكر ابن النديم (٥) أن البرامكة بأسرها — إلا محمد بن خالد بن برمك — كانت زنادقة . »

(٢) المجمرة كالوقد عندنا اليوم يوضع فيها البخور

(٤) كتاب الفرق بين الفرق ص ٢٧٠

(١) ج ١٠ ص ٨٢

(٣) الطيب

(٥) كتاب الفهرست ص ٤٧٣ م

وصفوة القول أن سقوط أسرة البرامكة كانت نتيجة حوادث متتابعة ، دفعت الرشيد إلى الحد من نفوذ هذه الأسرة فحسب ، بل إلى القضاء عليها وإعفاء آثارها . فانظر كيف قضى الرشيد على هذه الأسرة . ولما عاد الرشيد من الحج ، سار من الحيرة إلى الأنبار في السفن ، وركب جعفر بن يحيى إلى الصيد ، وجعل يشرب تارة ويلهو أخرى ، وتُحَف الرشيد وهداياهِ تأتيه ، وعنده بِخَشْيَشُوع الطيب ، وأبو زكار الأعمى يغنيه . فلما ظل المساء دعا الرشيد مسرورا الخادم وكان مبهضاً لجعفر وقال ، إذهب لجنّتي برأس جعفر ولا تراجعني ، فوافاه مسرور بغير إذن وهجم عليه وأبو زكار يغنيه :

فلا تبعّد فكل فتى سياتي عليه الموت يطرق أو يغادري

فلما دخل مسرور قال جعفر بن يحيى البرمكي لقد سررتني بمجيئك وسوءتني بدخولك على بغير إذن ، فقال الذي جئت له أعظم . أجب أمير المؤمنين إلى ما يريد بك ، فوقع على رجله فقبلهما وقال له : عاود أمير المؤمنين فإنّ الشراب قد حمله على ذلك وقال : دعني أدخل دارى فأوصى فقال : الدخول لاسيّل إليه ، وأما الوصية فأوص بما بدالك ، فأوصى ، ثم حمله إلى منزل الرشيد وعدل به إلى قبة وضرب عنقه ، وأتى برأسه على ترس إلى الرشيد ، وببدهنه في نطع ، ووجه الرشيد فقبض على أبيه وإخوته وأهله وأصحابه بالرقّة واستأصل شأفتهم . وكان قتل جعفر البرمكي في ليلة السبت أول ليلة من شهر صفر سنة ١٧٧ هـ ، وهو في السابعة والثلاثين من عمره .

وقد رثا الرّقّاشي الشاعر هذه الأسرة البرمكية ، التي اضطلعت بمهام الوزارة سبع عشرة سنة ، في قصيدة طويلة نذكر منها هذه الأبيات :

إن يغدر الزمان الخشون بنا فقد	عَدَرَ الزمان بجعفر ومحمد
حتى إذا وضح النهار تكشّفت	عن قتل أكرم هالك لم يلحد
والبيض لولا أنها مأمورة	ما فل حد مهتد بمهند
يا آل برمك كم لكم من نائل	وندى كعد الرّمل غير مصرّد
إن الخليفة لا يشكّ أخوكم	لكنه في برمك لم يولد
نازعتموه رّضاع أكرم حرة	مخلوقة من جوهر وزبرجد
ملك له كانت يد فياضة	أبدأ تجود بطارف ويمتد
كانت يداً للجود حتى غلّها	قد رفاضحى الجود مغلول اليد ^(١)

وقال أبو عبد الرحمن العطوى الشاعر يرثيهم ^(٢) :

أما والله لولا قول واش وعين للخليفة لاتنام

لطفنا حول جزعك واستلينا كما للناس بالحجر استلام
على الدنيا وساكنها جميعاً ودولة آل برمك السلام^(١)
ومن ذلك قول علي بن أبي معاذ يرثي البرامكة ويصف كيفية قتلهم :

يا أيها المغتر بالدهر	والدهر ذو صرف وذو غدر
لاتأمن الدهر وصولاته	وكن من الدهر على حذر
إن كشت ذا جهل بتصرفه	فانظر إلى المصلوب بالجسر
فإن فيه عبرة فاعتبر	وذا الحجا والعقل والفكر
وخذ من الدنيا صفا عيشها	واجر مع الدهر كما يجري
كان وزير القائم المرتضى	وإذا النسي والفضل والذكر
وكانت الدنيا بأقطارها	إليه في البر وفي البحر
يشيد الملك بآرائه	وكان فيه نافذ الأمر
فبينما جعفر في مله	عشية الجمعة بالقمر
يطير في الدنيا بأجناحه	بأمل طول الخلد والعمر
إذ عثر الدهر به عثرة	يا ويلنا من عثرة الدهر
وزلت النعل به زلة	كانت له قاصمة الظهر
فغودر اليأس في ليلة السبد	ت قتيلاً مطلع الفجر
وأصبح الفضل بن يحيى وقد	أحيط بالشيخ وما يدرى
وجىء بالشيخ وأولاده	يحي معاً في الغل والأسر
والبرمكيين وأتباعهم	من كان في الآفاق والمصر
كأنما كانوا على موعد	كموعد الناس في الحشر
وأصبحوا للناس أحدىئة	سبحان ذي السلطان والأمر ^(٢)

هكذا عفى الدهر هذه الأسره التي كان لها أكبر الأثر في تقدم الحضارة الإسلامية في العلوم والآداب ، وفي الزراعة والصناعة والتجارة وغيرها .

كذلك ذهب الفضل بن سهل وزير المأمون ضحية ميله إلى العلويين وعمله على تحويل الخلافة إليهم .

وكان الفضل من أولاد ملوك الفرس ، وكان أبوه مجوسياً من ذوى اليسار ، أسلم في أيام هارون الرشيد ، واتصل هو وابنه الفضل بيحيى بن خالد البرمكي ، الذي اتخذ الفضل قهرمانا

(١) الطبرى ج ١٠ ص ٨٧

(٢) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٩٣ — ٢٩٤

له (أى رئيساً للخدم). ثم اتخذ الرشيد ليكون في خدمة ابنه المأمون. ويقول الجهشيارى (١): إن جعفر بن يحيى لما عزم على استخدام الفضل بن سهل للمأمون، قرّطه يحيى بن خالد بمحضرة الرشيد، فقال له الرشيد: أوصله الى. فلما وصل إليه أدركته حيرة فسكت، فنظر إلى يحيى نظرة منكر لاختياره، فقال له الفضل: يا أمير المؤمنين، إن أعدل الشواهد على فراهة المملوك، أن تملك قلبه هيبة سيده. فقال له الرشيد: لئن كنت سكنت لتصوغ هذا الكلام، لقد أحسنت، ولئن كان بديهة، لهو أحسن، ولم يسأله بعد ذلك عن شيء إلا أجابه بما يصدق تقرّظ يحيى له.

ويقال إن الفضل بن سهل لمّا رأى نجابة المأمون في صباه، ونظر في طالعها، وكان خبيراً بعلم النجوم، فدلته النجوم على أنه سيصير خليفة، لزم ناحيته وخدمه، ودبر أموره حتى أفضت الخلافة إليه فاستوزره (٢).

استوزر المأمون الفضل بن سهل الذى سمي «ذا الرياستين» لجمعه بين السيف والقلم، كما كان يقال له «الوزير الأمير». وكان الفضل بن سهل — كما يقول صاحب كتاب الفخرى في الآداب السلطانية — (٣) «سخياً كريماً، يجارى البرامكة في سخائه وكرمه، كما كان حليماً بليغاً، عالماً بآداب الملوك، بصيراً بالخليل، جيد الحس، شديد العقوبة، وفيه يقول الشاعر:

فضل بن سهل يدُّ يقصر عنها المثل
فباطنها للندى وظاهرها للقبيل
وبسطتها للنفى وسطوتها للاجل

ولكن الفضل بن سهل كان — كغيره من الفرس — ينتصر للعنصر الفارسى، ويعتقد أن العلويين أحق بحمل التاج، لأنهم يجمعون بين أشرف دم عربى، وهو دم النبوة، وأشرف دم فارسى، وهو دم الأكسرة، وعمل على أن تكون السيادة للعنصر الفارسى. وكان يتشبه بوزراء الأكسرة ليعيد مجد الفرس القديم.

يقول الجهشيارى (٤): «إن الفضل بن سهل بن زاذانفروخ كان يجلس على كرسي مجسّح، ويحمل فيه إذا أراد الدخول على المأمون، فلا يزال يحمل حتى تقع عين المأمون عليه، فاذا وقعت وضع الكرسي ونزل عنه فشى، وحمل الكرسي حتى يوضع بين يدي المأمون، ثم يسلم ذو الرياستين، فيعود ويقعد عليه. وإنما ذهب ذو الرياستين إلى مذهب الأكسرة».

(١) كتاب الوزراء والكتاب ص ٢٣١. (٢) الفخرى ص ٢٠٣.

(٤) ص ٤٠١ — ٤٠٢.

(٣) ص ٢٠١ — ٢٠٢.

وكان الفضل بن سهل وزير المأمون يمثل في الفتنة التي قامت بين الأمين والمأمون العنصر الفارسي ، كما كان الفضل بن الربيع وزير الأمين يمثل العنصر العربي ، حتى كان هذا النزاع في الواقع نزاعاً حزبياً بين الفرس من ناحية ، وبين العرب من ناحية أخرى . ولا غرو فقد أوغر الفضل بن سهل قلب المأمون على أخيه الأمين ، وإليه يرجع الفضل في تولية المأمون علياً الرضا عهده ، وتحويل الخلافة إلى آل علي الذين يؤثرهم الفرس على سائر بني هاشم . ويقول الجهشيارى (١) : « وكان المأمون سجدة في تجديد العهد لعلي بن موسى بن جعفر ، وتقدم إلى الفضل بأخذ البيعة على الناس ، والكتاب إلى الأقاليم في إبطال لبس السواد ، وكتب الفضل بن سهل إلى الحسن يعلمه ذلك ، ويأمره بطرح لبس السواد ، وأن يلبس الخضر ، ويجعل الأعلام والقلانس خضرا ، ويطلب الناس بذلك ، ويكتب فيه جميع عماله . »

على أن المأمون قد أدرك أن الفضل بن سهل قد أثار بعمله هذا أهل بغداد وأفراد البيت العباسي ، حتى إنهم ولّوا إبراهيم بن المهدي الخلافة في بغداد ، وعولوا على الوقوف في وجهه ، فعمل على التخلص من علي الرضا والفضل بن سهل ليصفو الجوله . فلما دخل بغداد لم يقف أهلها في وجهه .

٤ — تطور موقف الحزبين العلوي والعباسي بعد نكبة البرامكة

(١) قوة الحزب العباسي بعد نكبة البرامكة

١ — تولية الرشيد أولاده العهد وتقويتها للحزب العلوي

ذكرنا في كلامنا على أثر الوزراء العباسيين والبرامكة خاصة في النزاع الذي قام بين العلويين والعباسيين ، أن العباسيين « وإن كانوا قد أشادوا بمساعدة الفرس لهم في تأسيس دولتهم ، فانهم لم ينسوا عريتهم وحبهم للملك ، فلم يسمحوا لمواليهم وأنصارهم أن يراحوهم في سلطانهم ، أو يعملوا على تحويل الأمر إلى أعدائهم العلويين . ومن ثم رأينا الخلفاء العباسيين ينكرون بوزرائهم الذين مالوا إلى العلويين ، فيشكل السفاح بأبي سلة ، والمهدي يبعث يعبوب ابن داود ، والرشيد بالبرامكة ، والمأمون بالفضل بن سهل ، (٢) . وقد وقعت نكبة البرامكة على أثر وقوع حوادث جاءت متتابعة ، ووجد أعداء البرامكة من بطانة الرشيد من العرب ، وخاصة الفضل بن الربيع من استئثار البرامكة بالنفوذ ، واستمالتهم الناس إليهم ، ما أوغر صدر الرشيد عليهم ، وحمله على الإيقاع بهم . وقام الشعراء بدور هام في إثارة حقد الرشيد على البرامكة ، وبخاصة عندما سمع هذين البيتين وأمثالها :

(١) كتاب الوزراء والكتاب ص ٣١٢

(٢) انظر هذا الكتاب ص ١٥٠ — ١٥١

ليت هنداً أنجزتنا ماتعد وشفت أنفسنا بما تجد
واستبدت مرة واحدة إنما العاجز من لا يستبد

ولاغرو فان نكبة البرامكة معناها ضعف نفوذ الفرس وانتصار الحزب العباسي ، لولا وقوع هذه الحادثة التاريخية التي أضعفت من نفوذ هذا الحزب وزادت في نفوذ الحزب العلوي ، وهي تولية الرشيد أولاده الثلاثة العهد : الأمين والمأمون والمؤتمن .

ذلك أن الفضل بن يحيى البرمكي حسن للرشيد تولية ابنه محمد العهد ، وتعهده بأخذ البيعة له في خراسان ، فبايعه وسماه الأمين ، وكتب بذلك إلى الأمصار الإسلامية فبايعه الناس . وقد ذكر الطبري ^(١) أن الرشيد ولي الأمين عهده سنة ١٧٣ هـ ، وضم إليه الشام والعراق في سنة ١٧٥ هـ ، فقال الثوري الشاعر يحمد سياسة الرشيد ويشيد بمحمد الأمين :

أمنت بمرؤ على التوفيق قد صفقت على يد الفضل أيدى العجم والعرب
بيعة لولي العهد أحكمها بالتصريح منه وبالإشفاق والحدب
قد وكد الفضل عقدا لا انتقاض له لمصطفى من بني العباس منتخب
وقال أبا ن بن عبد الحميد اللاحقي :

عزمت أمير المؤمنين على الرشيد برأى هدى فالحمد لله ذى الحمد

وقد اختلف العباسيون في هذه البيعة ، فبعضهم كان يميل إليها ، لأن الأمين ابن السيدة زبيدة وهي عربية عباسية ، وبعضهم لم يعجبه هذا العمل لأنه كان يتطلع إلى الخلافة بعد الرشيد لصغر سن الأمين ، وبعضهم كان لا يميل إلى المأمون لأن أمه كانت أم ولد من خراسان ^(٢) . ولكن الرشيد أحس أنه أخطأ بتولية ابنه الأمين عهده ، وهو أصغر من أخيه عبد الله (المأمون) ، وأنه فعل ذلك بتأثير زوجه زبيدة أم الأمين وميل بني هاشم ، لأن أمه هاشمية ، مع أنه لم يكن يصلح للخلافة ، لما عرف به من سوء التصرف والتبذير ، وميله إلى مشاركة النساء في الرأي ، وما عرف عن أخيه المأمون من الاستقامة وحسن التدبير وبعد النظر ، وما تحلى به من عزم المنصور ونسك المهدي وعزة نفس الهادي ^(٣) . ويظهر أن الرشيد أحسن أنه تعجل بتوليته ابنه الأمين دون عبد الله ، وأخذ يفكر في العدول عن هذا الرأي وتحويل هذه البيعة إلى عبد الله ، فبايع له في سنة ١٨٣ هـ وسماه المأمون ، وولاه من حد همدان إلى آخر المشرق .

روى المسعودي عن الأصمعي ^(٤) أنه قال : « بينما أنا أسامر الرشيد ذات ليلة ، إذ رأيته قد قلق قلقاً شديداً ، فكان يقعد مرة ، ويضطجع مرة ويبكي ثم أنشأ يقول :

(١) ج ١٠ ص ٧٢ (٢) المصدر نفسه ج ١٠ ص ٥٣ .

(٣) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٧٢ .

(٤) المصدر نفسه ص ٢٧٢ — ٢٧٣ .

قُلِّدْ أُمُورَ اللَّهِ ذَا ثِقَةٍ مَوْحِدَ الرَّأْيِ لَا نِكَسَ وَلَا بَرَمَ
وَاتَرَكَ مَقَالَهَ أَقْوَامَ ذَوِي خَطَلٍ لَا يَفْهَمُونَ إِذَا مَا مَعَشَرَ فَمِـسَمُوا

فلما سمعت ذلك علمت أنه يريد أمرا عظيما ، ثم قال لمرؤان الخادم عليّ يبيحي ، فما لبث أن
نُقال : يا أبا الفضل ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم مات في غير وصية ، والإسلام سجداع ،
والإيمان جديد ، وكلمة العرب مجتمعة ، قد آمنها الله تعالى بعد الخوف وأعزها بعد الذل ،
فما لبث أن ارتد عامة العرب على أبي بكر ، وكان من خبره ما قد علمت ، وأن أبا بكر صيّر
الأمر إلى عمر فسلمت الأمة له ورضيت بخلافته ، ثم صيّر لها عمر شوري ، فكان بعده ما قد
بلغك من الفتن حتى صارت إلى غير أهلها .

وقد عنيت بتصحيح هذا العهد وتصديره إلى من أرضى سيرته ، وأحمد طريقته ، وأثق
بحسن سياسته ، وآمن ضعفه ووهنه ، وهو عبد الله ، وبنو هاشم ماثلون إلى محمد بأهوائهم ،
وفيه ما فيه من الانقياد لهواه ، والتصرف مع طويته ، والتبذير لما حوته يده ، ومشاركة
النساء والإماء في رأيه . وعبد الله المرضي الطريقة الأصلية للرأى الموثوق به في الأمر العظيم ،
فان ملّت إلى عبد الله أسخطتُ بني هاشم ، وإن أفردت محمدا بالأمر لم آمن تخليطه على
الرعية . فأشر علىّ في هذا الأمر برأيك . مشورة يعم فضلها ونفعها ، فإنك بحمد الله مبارك
الرأى لطيف النظر . فقال يا أمير المؤمنين ، إن كل زلة مستقالة وكل رأى يتلافى خلا هذا
العهد ، فان الخطأ فيه غير مأمون ، والزلة فيه لا تستدرك ، وللنظر فيه مجلس غير هذا . فعلم
الرشد أنه يريد الخلوة ، فأمرني بالتنحي ، فقممت وقعدت ناحية بحيث أسمع كلامهما ، فما
زالا في مناجاة ومناظرة طويلة حتى مضى الليل ، وافترقا على أن عقد الأمر لعبد الله بعد
محمد .

هكذا ولي الرشيد عهده ابنيه الأمين والمأمون . وفي سنة ١٨٦ هـ حج بيت الله مع وليّ
عده ، وعلق الشرطين في السكبة (١) . وفي ذلك يقول سلكم بن عمرو الخامر : (٢)

بايع هارون أمام الهدى	لذى الحيجا والخلق الفاضل
المخلف المتلف أمواله	والضامن الأثقال للحامل
والعالم الناقد في علمه	والحاكم الفاضل والعدل
والرايق الفائق حيلف الهدى	والقائل الصادق والفاعل
لخير عباس إذا حصلوا	والمفضل المجدي على العائل
أبرهيم سرا وأولاهم	بالعرف عند الحدث النازل
لمشبه المنصور في ملكه	إذا تدجّت ظلمة الباطل
فتمّ بالمأمون نور الهدى	وانكشف الجهل عن الجاهل

(١) راجع نسخة الشرط الذي كتبه عبد الله بن أمير المؤمنين بخط يده في السكبة في الطبري

(٢) الطبري ج ١٠ ص ٧٢ .

ج ١٠ ص ٧٦ — ٧٧ .

ولم يقتصر الرشيد على توليته ابنه الأمين والمأمون العهد ، بل قد تعدى الأمر إلى ابنه القاسم ، الذى ولاه عهده بعد الأمين والمأمون ، وسماه المؤمن ، وولاه الجزيرة والثغور والعواصم . وهكذا قسم الرشيد الدولة العباسية بين أبنائه الثلاثة ، وهى بذلك عوامل المنافسة والحسد بين هؤلاء الإخوة ، وغرس بذور الفتنة التى قامت بين الأمين والمأمون ، وأضعفت الحزب العباسى ، وهىأت السبيل لتقوية الحزب العلوى فى عهد المأمون كما سيأتى . وقد وصف الطبرى (١) شعور الناس على اختلافهم فى تولية الرشيد عهده فقال : « ولما قسم الأرض بين أولاده الثلاثة قال بعض العامة قد أحكم أمر الملك ، وقال بعضهم ، بل قد ألقى بأسهم بينهم ، وعاقبة ما صنع فى ذلك مخوفة على الرعية ، وقالت الشعراء فى ذلك ، فقال بعضهم :

أقول لغمته فى النفس منى	ودمع العين يطرد اطرادا
خذى للهول عدته بحزم	ستلقى ما سيمنعك الرقادا
فانك إن بقيت لقيت أمرا	يطيل لك السكابة والسهادا
رأى الملك المهدب شر رأى	بقسمته الخلافة والبلادا
رأى ما لو تعقبه بعلم	ليبض من مفارقة السوادا
أراد به ليقطع عن بنيه	خلافهم ويبتذلوا الودادا
فقد غرس العداوة غير آل	وورث شمل ألفتهم بدادا
وألقح بينهم حربا عوانا	وسلس لاجتباهم القسيادا
فويل للرعية عن قليل	لقد أهدى لها الكرب الشدادا
وألبسها بلاء غير فان	وأرهما التضعضع والفسادا
ستجرى من دماهم بحور	زواخر لا يرون لها كفادا
فوزر بلاهم أبدا عليه	أغيا كان ذلك أم رشادا

٢ — الفتنة بين الأمين والمأمون : كيف كانت هذه الفتنة جهادا حزبيا بين الفرس أنصار المأمون من ناحية ، وبين العرب أنصار الأمين من ناحية أخرى .

قامت ببغداد فى خلافة الأمين (١٩٣ — ١٩٨ هـ) فتنة جامحة ، حين عزم على خلع أخيه المأمون من ولاية العهد ، وشجعه على ذلك وزيره الفضل بن الربيع ، لأنه كان يخاف المأمون لما فعله عند وفاة الرشيد من إحضاره جميع عسكره إلى الأمين ، بعد أن كان الرشيد قد أوصى به للمأمون . لذلك حسن الفضل بن ^{سيف} الأمين خلع أخيه والبيعة لابنه موسى ، ووافق الفضل فى رأيه بعض الناس ، فقال الأمين إلى أقوالهم ، على حين نهاه أصحابه وذوو الرأى فى بغداد عن ذلك ، وحذروه عاقبة التبغى ونكث العهود والمواثيق ، وقالوا له على

رواية صاحب الفخرى^(١)، لا تجرى القواد على النكث للآيمان وعلى الخلع فيخلعوك^(٢)، فلم يلتفت إليهم ومال إلى رأى الفضل بن الربيع، وولى عهده ابنه موسى، وسماه الناطق بالحق، وبذلك نكث الأمين العهد والميثاق الذى أخذه على نفسه، فأغضب الخراسانيين وغيرهم من أهالى الأمصار الإسلامية، وبخاصة أهالى الحجاز، فقاموا فى وجهه واشتعلت نيران الفتنة التى أودت بخلافته.

على أن الأمين لما شرع فى خدع المأمون باستدعائه إلى بغداد ليقرّ على نفسه بالخلع، لم ينجح فى ذلك. واعتذر المأمون عن الحضور، وكثرت الكتب بينهما، ورقّ الأمين فى مراسلاته إلى أخيه حتى كاد ينخدع، وبوافق على خلع نفسه من ولاية العهد ومبايعة موسى ابن الأمين. إلا أن الفضل بن سهل وزير المأمون شجعه على الامتناع، وضمن له الخلافة: فقد اشتهر المأمون فى أثناء مقامه بخراسان بالورع والتقوى، فحسنت سيرته، وتمدّح الناس بذكره، على حين انصرف الأمين بعد اعتلائه عرش الخلافة الى اللهو والمجون. فلما ظهرت بوادر الفتنة استمال الفضل بن سهل الناس الى المأمون، وضبط الثغور، وقام بتفتيش الكتب الواردة الى خراسان، وقبض على أعوان الأمين، كما قطع الأمين خطبة المأمون من بغداد. قامت الفتنة بين الآخرين، وهى فى الواقع نزاع حزبي بين الفرس أنصار المأمون من ناحية، وبين العرب أنصار الأمين من ناحية أخرى. وقد قاد أمر هذ النزاع الفضل بن سهل وزير المأمون وكان فارسياً، والفضل بن الربيع وزير الأمين وكان عربياً. وسرعان ما تغلب طاهر بن الحسين قائد المأمون على جند على بن عيسى بن ماهان قائد الأمين وقتله بظاهر الرى. وزاد مركز الأمين حرجاً شغب الحسين بن على بن عيسى عليه وخلعه وحبسه، وانتصار كثير من الجند له، مما أدى إلى قيام الحروب بين جند الأمين أنفسهم.

على أن سياسة الأمين فى حكم الدولة العربية قد جرت عليه سخط الناس، حتى قال أحد الشعراء يصف ما آلت إليه حاله من الضعف، ويتنبأ بنجاح المأمون وظفره بأخيه.

عجبت لمعشر يرجون نجاحاً لأمر ماتم به الأمور
أهاب إلى الضلال بهم غوى وشيطان مواعده غرور
وكادوا الحق والمأمون غدوا وليس بمفلح أبداً غرور
وعاقبة الأمور له يقينا به شهد الشريعة والزبور
وكيف يتم ماعقدوا وراموا ورأس بناتهم منه الفجور^(٣)

وقد وضع حصار بغداد وسقوطها على أيدى طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين وزهير

(١) ص ١٩٤.

(٢) أنظر نصيحة خزيمة بن خازم للأمين فى كتاب الخفاء للسيوطى ص ١٩٨.

(٣) المسعودى مروج الذهب ج ٢ ص ٣٠٤.

ابن المسيب ، حدا لهذا النزاع الذي انتهى بقتل الأمين . فقد نزل زهيرقة كلواذى ، وحفر الخنادق ، ونصب المجانيق ، ورمى جند الأمين بالعرادات ، وأخذ عشر أموال التجار ، وجبى الضرائب على السفن . ونزل هرثمة نهر د بين ، وجعل عليه حائطا وخندقا ، وأعد المجانيق ؛ ونزل طاهر البستان القريب من باب الأنبار . وكان من أثر هذا الحصار أن ضاق الأمين ذرعا . وسرعان ما نفذت أمواله واضطر لبيع كل مافي الخزائن من الأمتعة ، وضرب مافي قصوره من آنية الذهب والفضة دنانير ودراهم لينفق منها على الجند ، ثم استولى طاهر على بعض أرباض بغداد ومدينة المنصور الشرقية وأسواق الكرخ ، وعلى قصر الخلد ، عدا أهل السجن والأوباش (١) .

ويظهر أن الأمين لم يقدر الظروف السيئة التي أحاطت به وبدولته . فقد أقبل برغم ذلك على اللهو والشراب ، واعتمد على قواده ، وعاث اللصوص وقطاع الطرق في الأرض فسادا ، فتطاولوا على الرجال والنساء والضعفاء ، في الوقت الذي أحكم طاهر بن الحسين خطته لفتح بغداد ، وأمر جنده بحسن معاملة الضعفاء والنساء مما كان له أثر يذكر في تحول كثير من رعايا الأمين إلى جانب قائد المأمون ، وعلى رأسهم محمد بن عيسى صاحب شرطة الأمين ، وعبد الله ابن حميد بن قحطبة ، ويحيى بن علي بن ماهان .

وقد اشتد البلاء بأهل بغداد ، وسامت حالهم ، فخرج منها كل من قدر على الخروج ، وأصبحت حاضرة العباسيين على حد قول الشاعر الذي رثاها في هذه الأبيات :

بكيت دما على بغداد لما فقدت غضارة العيش الأنيق
تبدلنا هموما من سرور ومن سعة تبدلنا بضيق
أصابها من الحساد عين فأفنت أهلها بالمنجنيق
فلا ولد يقيم على أبيه وقد هرب الصديق بلاصديق (٢)

انتصر جند الأمين على جند طاهر بن الحسين في موقعة د درب الحجارة ، التي قتل فيها خلق كثير ، وهزم هرثمة في موقعة د باب الشاسية ، على يد رجل من العراء (٣) ، لولا أن حمل بعض أصحاب هرثمة على هذا الرجل وقطع يده ، وخلصه ، فر منهزما ، وبلغ خبره أهل عسكره ، فذب إلى نفوسهم اليأس وفروا نحو حلوان لابلون على شيء ، وقويت بذلك الغزاة واشتد خطرهم (٤) ، وأصبح طاهر بين نارين : إما أن يفر فيلحق به عار الهزيمة ، وإما أن

(١) الطبري ج ١٠ ص ١٧٤ - ١٧٦ . أنظر ماورد في الباب السابع عن بناء مدينة بغداد .

(٢) الطبري ج ١٠ ص ١٨٢ - ١٨٣ .

(٣) قيل في تلك الموقعة أشعار كثيرة ؛ من ذلك قول عمرو الوراق :

عُرِّيَّان ليس بندي قيمس يغدو على طلب القميمس
يعمدو على ذي جوشن يعمى العيون من البصيمس

(٤) نفس المصدر ص ١٨١ - ١٨٨ .

الطبري ج ١٠ ص ١٨٨

يحارب حتى يكتب له النصر . ثم أمر طاهر بإحراق مدينة بغداد وهدمها .

ويقول الطبري (١) أن طاهر بن الحسين هدم دور من خالفه ما بين دجلة ودار الرقيق وباب الشام وباب الكوفة إلى الصراة ، وأرجاء أبي جعفر وربض حميد ونهر كرخايا والكناسة ، وجعل يبايت أصحاب محمد (الأمين) ويدالجهم ، ويحوى في كل يوم ناحية من بعد ناحية ويخندق عليها المراسد من المقاتلة . وجعل أصحاب محمد ينقصون ويزيدون ، حتى لقد كان أصحاب طاهر يهدمون الدار وينصرفون ، فتقلع أبوابها وسقوفها أصحاب محمد ، ويكونون أضر على أصحابهم من أصحاب طاهر تعديا . وفي ذلك يقول أحد الشعراء :

إذا هدموا داراً أخذنا سقوفها ونحن لأخرى غيرها نتربص
وإن حرصوا يوماً على الشرحهدهم فغواؤنا منها على الشر أحرص
لقد أفسدوا شرق البلاد وغربها علينا فما ندري إلى أين نلخص

ولكن أهل هذه الجهات لم يحفلوا بما حل بهم من القتل وببيلدهم من التخريب والإحراق ، ولم ير طاهر بداً من التضيق عليهم ، فحال دون وصول متاجريهم ، واحتكر الدقيق ، فغلت الأسعار واشتد البلاء .

ضعف أمر الأمين وتركه بعض قواده ، وأنحازوا مع بعض تجار الكرخ ووجوهها إلى طاهر بن الحسين ، وطلب الجند أرزاقهم ، فأمر الأمين ببيع ما بقى من التحف في خزائنه ، وغدا مركزه من أخرج المراكز ، حتى إنه لم يعد يثق بأشد الناس اتصالاً به ، وعبر عن سخطه وسوء حاله في هذه الكلمات : « وددت أن الله عز وجل قتل الفريقين جميعاً وأراح الناس منهم ؛ فما منهم إلا عدو بمن معنا ومن علينا . أما هؤلاء فيريدون مالي ، وأما أولئك فيريدون نفسي » (٢) .

اشتد البلاء على بغداد ، وأيقن قواد الأمين أنه لا قبل لهم بمقاومة الحصار ، فغشوا سوء مصيرهم ، وأشار عليه جماعة منهم بالهرب إلى الجزيرة والشام ، وطلب النجدة من أهلها ، وصادف هذا الرأي قبولاً منه . ولكن طاهر بن الحسين كتب إلى سليمان بن جعفر ، وإلى محمد بن عيسى ، وإلى السندی بن شاهك : « والله إن لم تقرّوه وتردوه عن هذا الرأي ، لا تركت لكم ضيعة إلا قبضتها ، ولا تكون لي همة إلا أنفسم ، فدخلوا على محمد (الأمين) فقالوا : لقد بلغنا الذي عزمتم عليه ، فنحن نذكرك الله في نفسك . إن هؤلاء صنعنا إليك . وقد بلغ الأمر إلى ما نرى من الحصار ، وضاق عليهم المذهب ، وهم يرون ألا أمان لهم على أنفسهم . وأموالهم عند أخيك وعند طاهر وهرثمة ، لما قد انتشر عنهم من مباشرة الحرب والجد فيها . ولستنا نأمن إذا برزوا

(١) الطبري ج ١٠ ص ١٨٤ .

(٢) نفس المصدر ج ١٠ ص ١٩٠ .

بك وحصلت في أيديهم ، أن يأخذوك أسيراً ، وبأخذوا رأسك ، فیتقربوا بك ويجعلوك سبباً
أمانهم ، وضربوا له فيه الأمثال ، (١) .

واختلف أصحاب الأمين في الرأي : فطلب من هرثمة أن يتوسط في إصلاح ذات البين
بينه وبين أخيه المأمون ، على أن ينزل له عن الخلافة ، فكتب إليه كتاباً يقول فيه : قد كان
ينبغي لك أن تدعو إلى ذلك قبل أن يتفاقم الأمر . أما الآن فقد جاوز السيل الزبي ، وشغل
الحلى أهله أن يعار ، ومع ذلك . . . فاني لا ألو جهداً في كل ما عاد بصلاح حالك وقربك إلى
أمير المؤمنين . فلما سمع الأمين ذلك استشار أصحابه ، فأشاروا عليه بالقبول طمعاً في
الإبقاء عليه . فلما جن الليل لبس لباس الخلافة ، وسار في الحراسة إلى هرثمة ، فخرج طاهر
وأصحابه فرموا الحراسة بالسهم ، فألقى الأمين بنفسه في الماء ، وركض إلى الشاطئ ، فحمل
عليه بعض رجال المأمون وقتلوه وأخذوا رأسه ، فبعث به طاهر بن الحسين إلى المأمون مع
البردة والقضيب والسيوف (٢) .

على أننا إذا دققنا النظر في هذه الفتنة ، رأينا أن الرشيد كان السبب في هذه النكبات لأنه :
أولاً — ولي الأمين دون المأمون مع أنه أكبر منه سناً .
ثانياً — أعطى المأمون امتيازاً كبيراً فيما أقطعه إياه ، فاستطاع أن يناوئ الأمين
ويتغلب عليه ، فقد تولى الأمين على العراق والشام ، وتولى المأمون على بلاد الفرس ، وتولى
المؤمن على بلاد المغرب ومصر .
ثالثاً — أن الأمين مال إلى تولية ابنه دون أخيه .

أما الأمين فإن خلعة وقتله يرجع إلى نكسته العهد والميثاق ، وإخراجه أخاه المأمون من
ولاية العهد ، ونقضه العهد الذي تركهما أبوه . وفي ذلك ما فيه من انتهاك حرمة البيت المقدس .
أضف إلى ذلك توليته عيسى بن علي بن عيسى الحرب في خراسان ، مع ما عرف عنه من القسوة
في معاملة الأهلين ، مما ساعد على ثورة الناس عليه ، وانصراف الأمين عن أمور الخلافة واشتغاله
باللهو والغناء .

٣ — تولية المأمون علياً الرضا عهده .

إن العوامل التي حملت الخليفة المأمون على أن يولي عهده علياً الرضا بن موسى السكاظم ،
وهو الإمام الثامن عند طائفة الإمامية الاثنا عشرية ، ثم ما كان بعد ذلك من موت ذلك العلوي
بتدبير المأمون — على ما ورد في المصادر الشيعية — جديرة بالبحث ، لما لها من العلاقة الوثيقة
بتاريخ الشيعة من ناحية ، ثم بتاريخ الخليفة المأمون العباسي من ناحية أخرى .

(١) الطبري ج ١٠ ص ١٩٦

(٢) أنظر الطبري (ج ١٠ ص ١٩٢ — ٢٠٨) للوقوف على ما ذكره عن الفتنة التي قامت بين
الأمين والمأمون .

اتفق جمهور المؤرخين — من الشيعة والسنيين — على ثلاث نقط أساسية ، لا شك في صحتها ، وهى أن المأمون ولى عهده عليا الرضا ، وأنه لبس الخضره شعار العلويين ، وأنه زوجة ابنته أم حبيب سنة ٢٠٢ هـ .

ولد على الرضا سنة ١٥٠ هـ ، وكان على جانب عظيم من العلم والورع . وقد قيل لآلئ نواس « علام تركت مدح على بن موسى والحصل التى تجمعن فيه ؟ » فقال : لا أستطيع مدح إمام كان جبريل خادماً لآبيه ، والله ما تركت ذلك إلا إعظاماً له ، وليس قدر مثلى أن يقول فى مثله .

قيل لى أنت أحسن الناس طُراً فى فنون من الكلام النبیه
لك من جيد القريض مديح يثمر الدر فى يدى مجتنیه
فعلا ما تركت مدح ابن موسى والحصل التى تجمعن فيه ؟
قلت لا أستطيع مدح إمام كان جبريل خادماً لآیه
ثم أنشد بعد ساعة من هذه الآيات :

مطهرون نقيات جیوبهم یجرى عليهم ثناء أينما ذكروا
من لم يكن علویاً حين تنسبه فما له فى قديم الدهر مفتخر
الله لما برا خلقاً فأثقنه صفاكم واصطفاكم أيها البشر
فأتمم الملا الأعلى وعندكم علم الكتاب وما جاءت به السور (١)

ويحمل بنا أن نسأل أى الغرضين أرجح : أكان شعور المأمون نحو على الرضا شعوراً دينياً بحتاً ، الباعث عليه ، اقتناعه بأن بيت على أحق بالخلافة من بيت العباس ؟ أم كان ذلك الشعور الدينى يحمل بين ثناياه مشروعا سياسياً ، يرمى إلى اكتساب المأمون ولاء الخراسانيين الذين أشربت قلوبهم حب العقائد الشيعية ، متأثراً بميوله الفارسية ، إذ كانت أمه وزوجه فارسيتين ، فشب على التشيع متأثراً بالفرس ؟

أما الجواب عن السؤال الأول ، فإن بعض المصادر تؤيد القول بأن المأمون كان مخلصاً فى تودده للعلويين ، جاداً فى تولية على الرضا عهده ، وأن الذى حمله على ذلك هو إفراطه فى التشيع حتى قيل « إنه هم بخلع نفسه ، وبأن يفوض الأمر إليه . . . وضرب الدراهم باسمه ، وخطب له مع الخليفة على المنابر ، وزوجه ابنته . . من ذلك ما ذكره محمد بن النعمان من أن المأمون أرسل الجلودى إلى المدينة . وطلب إليه أن يبحث أفراد البيت العلوى على الرحيل معه إلى مرو حاضرة خراسان ، فلبى الجلودى أوامر الخليفة ونهض بالأمر . فلما قدموا مرو استقبلهم المأمون فى قصره ، واحتفل بهم ، وخص علياً الرضا برعايته وعطفه ، وأفرده منزلاً خاصاً به (٢) .

(١) ابن خلكان : كتاب وفیات الأعيان ج ١ ص ٣٢١ — ٣٢٢ .

(٢) محمد بن النعمان : كتاب الارشاد ، مكتبة الجامعة بليدن ، مخطوط رقم ١٦٤٧ ، ورقة ٢٢٧ ب .

ثم بعث المأمون في طلب الحسن والفضل ابني سهل ، وأسر إليهما عزمه على تولية الرضا عهده . وقد اختلف الاخوان في الرأي : فقاوم الحسن الفسكرة أشد مقاومة ، وحذر المأمون مغبة الأخذ بهذه السياسة ، لما فيها من تحويل الخلافة إلى بيت علي ، فقال له المأمون : « إن عاهدت الله إن ظفرت بالخلوع ، أخرجت الخلافة إلى أفضل آل أبي طالب ، وما أعلم أحداً أفضل من هذا الرجل على وجه الأرض » (١) .

وكان الفضل يطمح إلى الاستئثار بالنفوذ في دولة المأمون ؛ غير أنه لما رأى أن هذا الأمر لا يتم له ، والعراق في أيدي طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين ، عمل على إقصائهما عما كانا يليانه من البلاد ، حتى يضعف بذلك نفوذهما ، وولى أخاه الحسن بن سهل بلاد العراق . وقد عضد الفضل بن سهل فكرة تحويل الخلافة إلى بيت علي . يدل على ذلك ما كان من تدبير اغتيال الفضل بمرو قبل رحيل المأمون إلى بغداد ، ثم قتل الرضا بالسم ، والمأمون في طريقه إليها .

وقد ذكر الطبري (٢) أن عليا الرضا لما قدم مرو أحسن المأمون وفادته ، وجمع رجال دولته وأخبرهم أنه قلب نظره في أولاد العباس وأولاد علي بن أبي طالب ، فلم يجد أحداً أفضل ولا أروع ولا أعلم منه . فولاه عهده ولقبه « الرضا من آل محمد » ، وأمر جنده بطرح السواد شعار العباسيين ، وكتب بذلك إلى الآفاق (وذلك لليلتين خلتا من رمضان سنة ٢٠١ هـ) . فأحفظ ذلك بني العباس ، ولا سيما منصور وإبراهيم ابني المهدي ، وامتنع أهل بغداد عن البيعة للرضا . ثم خاض الناس في خلع المأمون وأخذ البيعة لإبراهيم بن المهدي . وكان في جانب المأمون رجال كرهوا تولية علي الرضا العهد ، وخافوا خروج الخلافة عن بيت العباس وعودها إلى بني فاطمة .

وفي مجمع حافل يضم الأشراف والأمراء ورجال الدولة ، أعلن الفضل بن سهل بالنيابة عن الخليفة ولاية عهد علي بن موسى الكاظم بعد المأمون . وبعد أسبوع أقيم احتفال كبير أقر فيه المأمون وابنه العباس بيعة الرضا . ثم وزعت الجوائز والخلع على كبار رجال الدولة ، وعلى الشعراء الذين شادوا بفضائل الرضا وامتدحوا المأمون ، ومنح المأمون كبار عمال الدولة عطاء سنة ، وأجاز دعبل بن علي الخزاعي الشاعر المشيع المشهور بخمسين ألف درهم ، وأجزل الوزير عطاءه . ومن هذه القصيدة التي أذاعت ذكر دعبل بين شعراء عصره كما تقدم :

ذكرت محل الربع من عرفات فأسبأت دمع العين بالعبرات
مدارس آيات خلعت من تلاوة ومنزل وحى مقفر العرصات

(١) النسبي : كتاب مطالب السؤل في غزوات الرسول . مكتبة الجامعة بليدن ، مخطوط رقم

١٩٧٩ ورقة ٢٢٢ (١) .

(٢) ج ١٠ ص ٢٤٣ .

ويرى بعض المؤرخين أن علياً أفضل الخلفاء الراشدين ، ويعزو بعض آخر ذلك إلى عوامل سياسية ليس غير ؛ ذلك أن الفرس كانوا يعتقدون أن العلويين هم وحدهم أحق بحمل التاج ، لصفتهم المشتركة من آل ساسان وآل علي ، لأن أولاد الحسين بن علي من أئمة يزدجرد الثالث . وقد كتب المأمون بذلك إلى الأمصار الإسلامية ، وأمر المسلمين بلبس الخضرة شعار العلويين بدل السواد شعار بني العباس . وليس من عجب في ذلك ، فقد كان المأمون نفسه متأثراً بالعقائد الفارسية ، لأن أمه كانت خراسانية ، ولأنه بعمله هذا يستطيع أن يكتسب رضا الفرس وإخلاصهم ؛ فكان عمله هذا سياسياً أكثر منه دينياً . يدلك على ذلك أن الناس ببغداد هاجوا ، وأدلو بالخلافة إلى إبراهيم بن المهدي ، فبقى فيها سنتين تقريباً (٢٠٢ — ٢٠٤ هـ)

أما عن السؤال الثاني ، وهو هل كان ذلك الشعور الديني يحمل بين ثنائه مشروعاً سياسياً يرمي إلى اكتساب ولاء الخراسانيين المتشيعين ؟ فالجواب عنه أن بعض مؤلفي المصادر الشيعية والسنية يرى أن تولية المأمون علياً الرضا ولاية العهد لم تكن لإسباغ منه ، لاستمالة قلوب الخراسانيين . فإن العلاقة التي كانت بين المأمون وعلي الرضا ، والتي كان ظاهرها الاخلاص والمحبة ، لم تلبث أن تغيرت ، لما كان يراه المأمون من التفاف الخراسانيين حول علي الرضا ، وما كان يخشاه من تحول الخلافة عنه إلى العلويين ، إذا هو تورط في هذه السياسة . يدل على ذلك هذه العبارة التي نقلها عن كتاب « مطالب السؤل في غزوات الرسول » (١) . « وما تلقته الأسماع ونقلته الألسن في بقاع الأصقاع ، أن الخليفة المأمون وجد في يوم عيد انحراف مزاج أحدث عنده ثقلاً عن الخروج إلى الصلاة بالناس ، فانتدب أبا الحسن علياً الرضا للصلاة بالناس ، فخرج وعليه قميص قصير أبيض وعمامة بيضاء ، وهي من قطن ، وفي يده قضيب . فأقبل ماشياً يؤم المصلين وهو يقول : السلام على أبوي آدم ونوح ، السلام على أبوي إسماعيل وإبراهيم ، السلام على أبوي محمد وعلي ، السلام على عباد الله الصالحين . فلما رآه الناس هرعوا إليه واثالوا عليه لتقريب يده . فأسرع بعض الحاشية إلى الخليفة المأمون وقال له : يا أمير المؤمنين تدارك الناس واخرج وصل بهم ، وإلا خرجت الخلافة منك الآن . (٢) فحمله هذا الأمر على الخروج بنفسه ، وجاء مسرعاً والرضا لم يخلص إلى المصلين ، لكثرة ازدحام الناس عليه ، فتقدم المأمون وصلى بالناس . »

ولو رجعنا إلى بعض المصادر الشيعية ، فانتا نقف منها على أن العلاقة بين المأمون وبين علي الرضا لم تكن قط على شيء من الصفاء . فقد كان الرضا يكثر من وعظ المأمون إذا خلا به

(١) النسيبي ورقة ١٢٤ ب .

(٢) وقد ذكر محمد بن النعمان (مخطوط رقم ١٦٤٧ ورقة ١٣٢٠) أن الفضل بن سهل الوزير

هو الذي أسرع إلى المأمون وأخبره بخطورة المركز وما كان من شغب الناس .

ويخوفه بالله عز وجل ، ويقبّح ما يرتكبه من خلافه . وكان المأمون يظهر قبول ذلك منه ويبتطن كراهيته له . على أننا لا نستطيع الجزم بأن ما ذكرناه مستمد من جميع المصادر الشيعية التي رجعنا إليها ، لأن بعض المؤرخين لم يذكر شيئاً عن فساد العلاقات بين المأمون والرضا ، وإنما اقتصروا على القول بأن المأمون هو الذي دبر موت علي الرضا .

قال القفطى فى كتابه د إخبار العلماء بأخبار الحكماء ، (١) : وقال عبد الله بن سهل بن نوبخت المنجم ، وهو منجم مأمونى كبير القدر فى صناعته ، يعلم المأمون قدره فى ذلك — وكان لا يقدم إلا عالماً مشهوداً له بعد الاختبار — وكان المأمون قد رأى آل أمير المؤمنين على بن أبى طالب متخشين متخفين من خوف المنصور ومن جاء بعده من بنى العباس ، ورأى العوام قد خفيت عنهم أمورهم بالاختفاء ، فظنوا بهم ما يظنون بالأنبياء ، ويتفوهون فى صفتهم بما يخرجهم عن الشريعة من التغالى . فأراد معاقبة العامة على هذا الفعل ، ثم فكر أنه إذا فعل هذا بالعوام زادهم إغراء به ، فنظر فى هذا الأمر نظراً دقيقاً وقال : لو ظهروا للناس ورأوا فسق الفاسق منهم وظلم الظالم ، لسقطوا من أعينهم ، ولا تقلب شكرهم لهم ذمّاً ، ثم قال : إذا أمرناهم بالظهور خافوا واستتروا وظنوا بنا سوماً ، وإنما رأى أن نقدم أحدهم ونظهر لهم إماماً . فإذا رأوا هذا أنسوا وظهروا وأظهروا ما عندهم من الحركات الموجودة فى الآدميين ، ويتحقق للعوام حالهم وما هم عليه مما خفى بالاختفاء . فإذا تحقق ذلك أزلت من أقمته ، ورددت الأمر إلى حالته الأولى . وقوى هذا رأى عنده ، وكنتم باطنه عن خواصه ، وأظهر للفضل بن سهل أنه يريد أن يقيم إماماً من آل أمير المؤمنين (على بن أبى طالب) صلوات الله عليه . وأفكر هو وهو فيمن يصلح ، فوقع إجماعهما على الرضا . فإذا الفضل بن سهل فى تقرير ذلك وترتيبه ، وهو لا يعلم باطن الأمر ، وأخذ فى اختيار وقت لبيعة الرضا ، فاختر طالع السرطان وفيه المشتري . قال عبد الله بن سهل بن نوبخت هذا : أردت أن أعلم نية المأمون فى هذه البيعة ، وأن باطنه كظاهرة أم لا ، لأن الأمر عظيم ، فأنفذت إليه فى هذه قبل العقد رقعة مع ثقة من خدمه — وكان يحجى فى مهم أمره — وقلت له إن هذه البيعة فى الوقت الذى اختاره ذو الرياستين لا تتم بل تنقص ، لأن المشتري ، وإن كان فى الطالع فى بيت شرفه ، فإن السرطان برج منقلب . وفى الرابع — وهو بيت العافية — المريخ ، وهو نحس . وقد أغفل ذو الرياستين هذا . فكتب المأمون إلى : قد وقفت على ذلك ، أحسن الله جزاءك ، فاحذر كل الحذر أن تنبئه ذا الرياستين على هذا ، فإنه إن زال عن رأيه علمت أنك أنت المنبئه له . فهم ذو الرياستين بذلك . فما زالت أصوب رأيه الأول خوفاً من اتهام المأمون لى ، وما أغفلت أمرى حتى مضى أمر البيعة ، فسلمت من المأمون ، (٢) .

(١) من ٢٢١ — ٢٢٣ .

(٢) من ٢٢١ — ٢٢٣ .

وإذا صح ما قيل من أن شعور المأمون نحو آل على كان شعوراً دينياً ، يحمل بين ثناياه مشروعا سياسيا ، يرمى إلى اكتساب ولاء الخراسانيين الذين أشربت قلوبهم حب العلويين — إذا صح ذلك تبين لنا أن المأمون لم يرد بهذا العمل إلا اكتساب رضا العنصر الخراساني وضم العلويين إلى صفه ، وتهديمه الخواطر ، وأنه لم يكن مخلصاً في تحويل الخلافة إلى العلويين ، وأن هذا لم يكن إلا سياسة دعت إليها الضرورة وسياسة الملك . ولا أدل على ذلك من نقضه كل ما أبرم من تولية الرضا عهده حينما أمكنته الفرصة .

وانتهى الأمر بتلك المأساة التاريخية ، وهي اغتيال كل من الفضل بن سهل وعلى الرضا ؛ فقد هاج الناس ببغداد وماجوا ، وغرقت حاضرة العباسيين في لجج الفوضى ، وخاض الناس في خلع المأمون ، وفكروا في تولية إبراهيم بن المهدي ، كما تقدم ، ولقبوه المبارك . وقد كتب الحسن بن سهل إلى أخيه الفضل — وقد أحس بما أضمره المأمون له من الشر — ينصح له بأن يحتاط لنفسه خشية الاغتيال وقال في كتابه : « إني نظرت في تحويل السنة ، فوجدت فيه أنك تذوق في شهر كذا يوم الأربعاء حر الحديد وحر النار . وأرى أن تحجم أنت وأمير المؤمنين والرضا عن دخول الحمام في هذا اليوم لينزل عنك نحسه . ودخل الفضل الحمام في يوم الأربعاء الذي حذره منه أخوه ، فقبض عليه جماعة من الرجال واغتالوه (١) .

ويظهر أن كتاب الحسن بن سهل لم يصل إلى أخيه الفضل قبل يوم الأربعاء المشؤم ، أو أنه أرغم على دخول الحمام بعد أن وصل إليه الكتاب .

وإن صحت هذه الرواية ، فقد لهج الحسن بن سهل بما كان سائدا في البيت العباسي ببغداد ، وبما كان من هياجهم على المأمون ، لتوليته رجلا من العلويين ، وعملهم على التخلص من المأمون والرضا والفضل .

وكان للفضل بن سهل شيعة قوية تؤيده وتنصره . فلما رأوا ما حلَّ به ، اتهموا المأمون ورموه بالاشتراك في المؤامرة ، وشغب قواد خراسان وجنودهم وغيرهم من أنصار الفضل على الخليفة ، وتجمعوا ببابه وهموا باحراقه . ولما رأى المأمون أن حياته مهددة بالخطر ، طلب إلى علي الرضا أن يركب إلى الثوار ويصرفهم . وكان الرضا هو الوسيلة الوحيدة لنجاة الخليفة وتهديمه الخواطر لمحبة أهل خراسان له ، وصدقهم في الإخلاص لطاعته . ولا غرو فإن إشارة واحدة منه كانت كفيلة بتهديمه خواطر الثائرين وعدولهم عن رأيهم .

هكذا مات الفضل بن سهل وتفرق أنصاره ، ونجا الخليفة مما كان يهدده من الخطر في ذلك الظرف العصيب . وبموت الفضل بن سهل لم يبق أمام المأمون إلا علي الرضا ؛ فلتنظر كيف تخلص منه .

اختلفت كلمة المؤرخين في كيفية قتل علي الرضا ، فمنهم من ذكر أن المأمون دس له السم في

عنقود من العنب أوفى بعض الأشربة ، وذكر محمد بن النعمان^(١) أن المأمون أمر أحد رجاله أن يطيل أظفاره ، وألا يطلع أحدا على ذلك ، ثم استدعاه ، فأخرج إليه شيئا يشبه التمر هندي وقال له : « لعجن هذا بيدك جميعا ، ففعل . ثم دخل على الرضا ، فحك المأمون بما أغضبته ، فصاح المأمون بأحد غلمانه ، وأمره أن يقدم إلى الرضا ماء الرمان (أو عصير التمر هندي على الأصح) ، ثم سقاه المأمون للرضا ، فلم يلبث إلا يومين حتى مات . وقد ذكر ابن أبي الصلت ، الذي روى محمد بن النعمان هذه الحكاية عنه ، أنه دخل على عليّ الرضا ، وقد خرج المأمون من عنده فقال : يا أبا الصلت ! لقد فعلوها والله ، وجعل يوحد الله . وقد روى لنا هذا المؤرخ نفسه رواية أخرى عن كيفية موت الرضا ، فذكر أنه كان يحب العنب ، فأخذ له شيء منه . فجعل في موضع أقماعه الأبر أياما ، ثم نزعت وجيء به إليه ، فأكل منه وهو في علته التي ذكرناها فقتلته . ومن الواضح أن هذه الروايات متهمة لأنها جاءت من مصدر شيعي ، على حين سكنت معظم المصادر الموثوقة بها عن ذكرها .

وقد اتفق المؤرخون على أن المأمون أظهر عند وفاة الرضا أعظم مظاهر الحزن . وهكذا نجحت سياسة المأمون ، فاغتيل الفضل بن سهل ، وقتل على الرضا بالسم ، ودفن في سنا باز من أعمال طوس ، التي دفن فيها الرشيد ، وحرم ابنه محمد ولاية العهد بعد أبيه ، وعاد المأمون ثانية إلى السواد شعار العباسيين .

وقد كانت سياسة المأمون نحو العلويين تنطوي على كثير من العطف والتسامح . ويظهر لنا ذلك مما رواه صاحب الفخرى^(٢) عن خروج محمد بن جعفر الصادق على المأمون فقال : « وفي أيامه خرج محمد بن جعفر الصادق عليهما السلام بمكة ، وبويع بالخلافة ، وسموه أمير المؤمنين . وكان بعض أهله قد حسن له ذلك ، حين رأى كثرة الاختلاف ببغداد ، وما بها من الفتن وخروج الخوارج . وكان محمد بن جعفر شيخاً من شيوخ آل أبي طالب ، يقرأ عليه العلم ، وكان (قد) روى عن أبيه عليه السلام علماً جماً ، فكثرت بمكة مدة . وكان الغالب على أمره ابنه وبعض بني عمه ، فلم تحمد سيرتهما ، وأرسل المأمون عسكرياً ، فسكانت الغلبة له ، وظفر به المأمون وعفا عنه .

ومهما يكن من شيء ، فقد أجمعت المصادر الشيعية والسنية على أن المأمون كان يعطف على العلويين ، ويرى أن الخلافة قد اغتصبت منهم ؛ وكان يعترف بحسن معاملة العلويين لأبناء عمهم العباسيين .

(١) كتاب الارشاد ورقة ٢٣١ ب — ٢٣٢ أ

(٢) ص ٢٠١ .

أنظر مقالة المؤلف « المأمون وعليّ الرضا » ، بحث مستخرج من مجلة كلية الآداب ، المجلد الأول ، الجزء الأول ، مايو سنة ١٩٣٣ .

فقد روى السيوطي^(١) أن المأمون قال يوماً وقد سئل عن سبب بره بالعلويين : « إنما فعلت ما فعلت ، لأن أبا بكر لما ولي ، لم يول أحداً من بني هاشم شيئاً ، ثم عمر ثم عثمان كذلك . ثم ولي عليّ فولى عبد الله بن عباس البصرة ، وعبيد الله اليمن ، ومعبدا مكة ، وقثم البحرين ، وماترك أحداً منهم حتى ولاة شيئاً ، فكانت هذه في أعناقنا حتى كافأته في ولده بما فعلت » .

وليس أدل على حب المأمون لأولاد علي بن أبي طالب من هذه الوصية التي أوصى بها أخاه المعتصم قبل وفاته ، ننقلها عن الطبري^(٢) : « وهؤلاء بنو عمك من ولد أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب رضي الله عنه ، فأحسن صحبتهم ، وتجاوز عن مسيئتهم وأقبل من محسنهم ، وصلاتهم فلا تغفلها في كل سنة عن محلها ، فإن حقوقهم تجب من وجوه شتى » .

وقد ظل المأمون يعامل العلويين معاملة تتفق مع ما كان يعتقد في فضل علي بن أبي طالب ، إلى أن خرج في سنة ٢٠٧ هـ ببلاد اليمن عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن عمر بن علي ابن أبي طالب ، فبعث إليه المأمون أحد رجاله في جيش كثيف فأمنه ، وعاد به إلى المأمون ، فأمر بمنع المأمون العلويين من الدخول عليه ، كما حتم عليهم لبس السواد .

٥ - ظهور العنصر التركي :

اعتمد الأمويون على العنصر العربي ، فأسندوا إليهم أهم مناصب الدولة ، كما اعتمدوا عليهم في الشؤون الحربية ، ولم يساوا بينهم وبين العجم ، وخاصة الموالي من الفرس الذين عملوا على التخلص من الأمويين ، وأخذوا ينضمون إلى الثائرين عليهم ، وكانوا من أقوى العوامل في القضاء على الأمويين كما رأينا . ولما آل الأمر إلى العباسيين ، اعتمدوا على هؤلاء الموالي ، الذين قامت دولتهم على أكتافهم ، وأخذوا عنهم كثيراً من نظم الحكم التي كانت سائدة في العهد الساساني ، وأهملوا العنصر العربي إهمالاً ظهر أثره في بعض الحركات التي كانت نتيجة سخط العنصر العربي على العنصر الفارسي . ومن أقوى الأمثلة على ذلك تأمر الفضل بن الربيع على البرامكة . ثم قامت الفتنة بين الأمين والمأمون ، فكانت في الواقع انتصاراً للفرس على العرب ، وذلك نتيجة لذلك العداء القديم الذي قام بين العرب والفرس .

ولما ولي المعتصم الخلافة ، وكانت أمه تركية ، أهمل العنصر العربي والفارسي ، واعتمد على الأتراك الذين اتخذهم حرساً له ، وأسند إليهم مناصب الدولة ، كما فعل أخوه المأمون مع الخراسانيين . وكان المعتصم بذلك أول خليفة عباسي استعان بالأتراك وأسند إليهم مناصب الدولة . ويقول السيوطي^(٣) : « إنه (أي المعتصم) اعتنى باقتناء الترك ، فبعث إلى سمرقند وفرغانة والنواحي في شرائهم ، وبذل فيهم الأموال ، وألبسهم أنواع الديباج ومناطق الذهب » . وكان المعتصم يرى أن دولته الواسعة لا بد أن يقوم بحراستها جيش قوى ، فاستكثر من

الأتراك ، لأن أمه كانت تركية ، وكانوا يجلبون من أسواق الرقيق في بلاد ماوراء النهر . واتخذ من حسن هندامهم وجمال منظرهم وشجاعتهم وتمسكهم بأهداب الإسلام ، سببا للاعتماد عليهم ، فولاهم حراسة قصره ، وأسند إليهم أعلى المناصب ، وقدمهم الولايات الكبيرة ، وأدر عليهم الهبات والأرزاق ، وآثرهم على الفرس والعرب في كل شيء . (١) .

ومالبث أن تفاقم نفوذ هؤلاء الأتراك ، وزاد عددهم حتى أربى على الخمسين ألفا ، كما يقول المؤرخ جيبون Gibbon (٢) . وكان هؤلاء الأتراك يرسلون إلى الخلفاء العباسيين مع الهدايا التي كان يبعث بها الولاة من بلاد ماوراء النهر . ومن هؤلاء الأتراك طولون أبو احمد ابن طولون الذي أهداه والى هذه البلاد إلى الخليفة المأمون . وكان هؤلاء الأتراك يتدفعون سنة بعد سنة على أسواق بغداد ، حتى كثر عددهم ، واستطاعوا أن يصلوا من هذه الأسواق إلى بلاط الخلفاء ثم إلى الجيش أخيراً .

وكان الشاب التركي يحصل على حريته إذا ما أخلص في خدمة مولاه ، وقد جرت العادة أن يصل إلى المناصب الكبيرة في البلاط العباسي . وأخذ هؤلاء الأتراك ، الذين كانوا بعيدين عن الحضارة والعلم ، يندمجون في طبقات الأمراء المثقفين ، فاعتنقوا الإسلام وتأدبوا بأدابه ، وتعلموا العربية ، ووقفوا على أحكام القرآن ، ودرسوا العلوم الطبيعية والسياسية . حتى إذا ما أصبح أحدهم ذا كفاية تؤهله للاضطلاع بشئون الدولة أو القيام بأعباء المناصب العالية في البلاط ، تحرر من عبوديته ، وتولى المنصب الذي يتناسب مع كفاءته ومواهبه . ومن ثم رشعوا للناسب على اختلافها ، ووصلوا إلى أعلى مراتبها ، من الاندماج في سلك البلاط ، إلى تقلد أكبر الولايات .

وقد بلغ من نفوذ هؤلاء الأتراك أن أخذ الخلفاء يقطعونهم الولايات الإسلامية ، على أن يؤديوا لدار الخلافة جزية معينة ، على نحو ما كان متبعاً في نظام الإقطاع تقريباً ، ذلك النظام الذي ذاع في أوروبا في القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين .

وقد جرت العادة أن يستخلف هؤلاء الأتراك نواباً عنهم ، يحكون هذه البلاد باسمهم ، فكانوا يدعون لهم بعد الخليفة وينقشون اسمهم على السكة . وكان هؤلاء الأتراك من كبار رجال البلاط العباسي . ولم يكن من السهل أن يتركوا دار الخلافة في بغداد أو سامرا ، وما فيها من نعيم وترف ، ثم يأتون إلى هذه الولايات للإقامة فيها . ويقول ستانلي لينبول في كتابه « تاريخ مصر في العصور الوسطى » (٣) : « إن هذا الانقلاب من الحكم العربي إلى الحكم التركي ، كان مظهرأ من مظاهر الثورة التي أحس بها معظم أجزاء الخلافة ، وأدت إلى إضعاف سلطة الخليفة وزوالها في النهاية » .

(١) النظم الإسلامية للمؤلف ص ٢٢٩ .

(٢) Gibbon: Decline & Fall of the Roman Empire vol. IV, p. 47.

(٣) History of Egypt in the Middle Ages , p. 29

ومن ذلك الوقت الذى التحم فيه العرب بالأتراك على ضفاف نهر سيحون ، واضحى هؤلاء تحت النفوذ العربى ، صار لهؤلاء الأسرى مجال فسيح فى الأسر الإسلامية : ففوة أبدانهم ، وبجمال طلعتهم ، وشجاعتهم وأمانتهم ، كل هذه الصفات قد أكسبتهم ثقة كبار الأمراء من العرب وخاصة الخلفاء ، الذين اعتقدوا أنهم باعتمادهم على أمانة هؤلاء الأجانب الذين اشتروهم بالمال ، يكونون أكثر طمأنينة على أنفسهم من اعتمادهم على أبناء جلدتهم من العرب ، الذين عرفوا بالغيرة والحسد ، أو على الفرس الذين تصاقم نفوذهم حتى عده الخلفاء العباسيون مهدداً لكيان دولتهم وسلامتها ، وكان لهم إلى ذلك الوقت نصيب كبير فى إدارة شئون الدولة العربية .

ولم يلبث الأتراك أن أصبحوا آفة على أهل بغداد ، الذين عانوا من عنتهم وجورهم شيئاً كثيراً . ويقول المسعودى (١) : « وكانت الأتراك تؤذى العوام بمدينة السلام ، بحريها بالخيول فى الأسواق ، وما ينال الضعفاء والصبيان من ذلك . فكان أهل بغداد ربما ثاروا ببعضهم فقتلوه عند صدمه لامرأة أو شيخ كبير أو صبي أو ضرير » . وقد زاد الطبرى (٢) هذه المسألة بياناً فقال : « إن غلباته الأتراك كانوا لا يزالون يجردون الواحد بعد الواحد منهم قتيلاً فى أرباضها ، وذلك أنهم كانوا عجماء جفاة ، يركبون الدواب فيتراكضون فى طرق بغداد وشوارعها ، فيصدمون الرجل والمرأة ، ويطنون الصبي فيأخذهم الأبناء (٣) ، فينكسونهم عن دوابهم ويحرقون بعضهم ، فربما هلك من الجراح بعضهم . فشكت الأتراك ذلك إلى المعتصم ، وتأذت بهم العامة . فذكر أنه رأى المعتصم راكباً منصرفاً من المصلى فى يوم عيد أضحى أو فطر ، فلما صار فى مربعة الحرشى ، نظر إلى شيخ قد قام إليه فقال له : يا أبا إسحق ! فابتدره الجند ليضربوه ، فأشار إليهم المعتصم فكفهم عنه ، فقال للشيخ مالك ! قال : « لاجزاك الله عن الجوار خيراً ، جاورتنا وجئت هؤلاء العلوج (٤) فأسكنتهم بين أظهرنا ، فأيتمت بهم صبياننا ، وأرملت بهم نسواننا ، وقتلت بهم رجالنا ، والمعتصم يسمع ذلك كله » .

وكان من أثر ازدياد نفوذ الأتراك أن حقد عليهم العرب وآمروا على المعتصم والأفشين وأشناس (٥) وغيرهم من قواد الأتراك ، وأثار عجيف بن عنبسة القائد العربى العباس بن المأمون على عمه المعتصم . ولكن المعتصم ، وإن كان قد قضى على العباس وعجيف ، وأقصى

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٣٤٩ (٢) ج ١٠ ص ٣١١ .

(٣) الأبناء هم البقية الباقية من الفرس الذين طردوا الأحباش من اليمن أيام سيف بن ذى يزن ، الذى استتجد بكسرى أنوشروان ، فأرسل معه قائده وهريز .

(٤) العليج حمار الوحش الغليظ ، ورجل عليج أى شديد .

(٥) ذكر الطبرى (ج ١٠ ص ٣٠٧) نفرا من هؤلاء الأتراك ورد فى قصيدة أحد شعراء

الزوط ، تنقل منها هذين البيتين .

فاستنصروا العبد من أبناء دولتكم
ومن شناس وأفشين ومن فرج
المعلمين بديساج ولابرير

العرب من مناصب الدولة المدنية والعسكرية ومن ديوان العطاء ، إلا أنه أتاح بذلك الفرصة للأتراك فزاد نفوذهم ، وأصبحوا خطراً على الخلفاء العباسيين وعلى الدولة العباسية . وقد استفحل خطر هؤلاء الأتراك ، حتى قيل إن المعتصم نفسه شكاً من قوادهم في أواخر أيامه . ولو استعان بقواد العرب لآتبع له استعادة سلطان الخلافة . ويقول الطبرى (١) : إن المعتصم عبر عن أسفه لاعتماده على هؤلاء الأتراك في هذه العبارة التي خاطب فيها أحد جلسائه فقال : « في قلبي أمر أنا مفكر فيه منذ مدة طويلة . نظرت إلى أخى المأمون وقد اصطنع أربعة أنجبوا ، واصطنعت أنا أربعة لم يفلح أحد منهم . قلت : ومن الذين اصطنعهم أخوك ؟ قال طاهر بن الحسين ، فقد رأيت وسمعت ، وعبد الله بن طاهر ، فهو الرجل الذي لم ير مثله ، وأنت ، فأنت والله الذي لا يعتاض السلطان منك أبداً ، وأخوك محمد بن إبراهيم وأين مثل محمد ؟ وأنا ، فاصطنعت الأفشين ، فقد رأيت إلى ماصار أمره ، وأشناس ، ففشل أيته ، وإيتاخ فلا شيء ، ووصيف فلا معنى فيه . فقلت يا أمير المؤمنين أعزك الله : نظر أخوك إلى الأصول فاستعملها ، فأنجبت فروعها ، واستعمل أمير المؤمنين فروعا ، فلم تنجب ، إذ لا أصول لها . قال يا اسحق المقاساة ما مررت في طول هذه المدة أسهل على من هذا الجواب . على أن قوة شكيمة المعتصم قد حدثت من نفوذ الأتراك . فلما مات ، وولى الخلافة بعده ابنه الواثق ، أخذ هؤلاء يتدخلون في أمور الدولة ، حتى أصبح مكتوف الأيدي مسلوب السلطة . ولما ولى المتوكل الخلافة حاول أن يكف أيديهم فقتلوه ، وصار ابنه المنتصر ، الذي اشترك معهم في قتله ، طوع بنانهم ، وأصبحت الدولة العباسية ميداناً للفوضى والدسائس ، وغدا في أيدي هؤلاء الأتراك أمر تولية الخليفة وعزله ، أو حبسه وقتله .

على أن ظهور العنصر التركي قد أدى إلى إخماد نار الخصومة بين الفرس والعرب حيناً ، وبين العلويين والعباسيين حيناً آخر ، لأنه استأثر بالامر دون الفريقين ، ولم يكن يحفل بأولئك أو هؤلاء .

ومن هنا بدأ ظهور الدول المستقلة وشبه المستقلة في أطراف الدولة العباسية : كالصفارية والسامانية والغزنوية ، والعلوية بطبرستان ، والأغلبية بتونس ، والفاطمية ببلاد المغرب ، والطولونية والإخشيدية بمصر ، وبنو أمية بالاندلس ، والزيدية باليمن .

(١) ج ١١ ص ٨ — ٩ .

(١) النظم الإسلامية المؤلف من ٢٣٩ .

الْبَابُ السَّابِعُ

العلاقات الخارجية

وضع الرسول صلى الله عليه وسلم أساس السياسة الخارجية للعرب : فبعث في السنة السادسة للهجرة أصحابه إلى هرقل أمبراطور الدولة البيزنطية ، وإلى كسرى فارس ، وإلى نجاشي الحبشة ، وإلى المقوقس حاكم مصر من قبل هرقل ، وإلى أمير بلاد النجاشية ، وإلى أمير الغساسنة الذين كانوا يقيمون على حدود بلاد العرب من ناحية الشام ، فمنهم من تلمظ في الرد ، ومنهم من أساء معاملة رسل النبي .

وقد أعد الرسول قبل أن يلحق بالرفيق الأعلى ، جيشاً لغزو أطراف بلاد الشام بقيادة أسامة بن زيد ، غير أن وفاته حالت دون إرسال هذا الجيش . فلما ولي أبو بكر الخلافة أمر أسامة بغزو بلاد الروم . وما كاد ينتهي من حروب الردة ، حتى دعا المقاتلين من أرجاء الجزيرة العربية للجهاد في سبيل الله ، وأنفذهم لغزو دولتي الفرس والروم في وقت واحد ، مع ما كان لكل من هاتين الدولتين من سعة الملك وبسطة السلطان ووفرة الثروة . وبذلك وضع المسلمون أساس السياسة الخارجية . ثم توجهت هممتهم في عهد الدولة الأموية نحو الشمال والغرب ، حيث الدولة الرومانية الشرقية ، التي كانت تغير على البلاد الإسلامية المجاورة لها ، وحاول العرب فتح القسطنطينية غير مرة . ولما انتقل الحكم إلى العباسيين زادت علاقات المسلمين بغيرهم ، وبخاصة ببلاد المغرب ، وبلاد الأندلس والفرنجية ، وبالدولة البيزنطية ، وبلاد الهند .

١ — مع بلاد المغرب :

كان تأسيس مدينة القيروان في إفريقية (بلاد تونس الآن) ، على يد عقبة بن نافع سنة ٥١ هـ (٦٧٠ م) تمكيداً للعرب بمركز حصين ، اتخذوه قاعدة لأعمالهم الحربية . وكان نجاح عقبة في تحويل البربر إلى الإسلام بطيئاً . ثم واصل ولاية العرب الذين تولوا هذه البلاد في القرن الثاني للهجرة جهودهم في سبيل تحويل هؤلاء البربر إلى الإسلام ، كما عملوا على إدماجهم في جيوشهم وانضوائهم تحت لوائهم ؛ وبذلك تسنى لهم أن يجذبوهم إلى اعتناق الإسلام .

وقد كون البربر في إفريقية نواة الجيوش الإسلامية التي أتمت فتح بلاد المغرب بقيادة قواد من العرب بل من البربر ، كطارق بن زياد . وفي أقل من نصف قرن تم لهم فتح بلاد الأندلس . على أن صلات الصداقة بين العرب والبربر لم تدم طويلاً ، لأن البربر رأوا أنهم لم يكافئوا على ما قدموه من خدمات ، كما كانوا يؤملون . ومع اعتناقهم الإسلام لم يعاملهم العرب معاملة

النظير للنظير ، بل معاملة السيد البسود . وكان من أثر هذه المعاملة أن انتحل البربر مذهب الخوارج ، لأنه كان يلائم نزعاتهم الديمقراطية ، وأخذوا يثيرون الفتن والقتال في وجه العرب (١) ، حتى إننا إذا تتبعنا حوادث سنة ١٣٠ هـ ، تبين لنا ضعف نفوذ الخليفة الأموي في هذه البلاد .

لهذا لانعجب إذا غدت إفريقية مسرحاً للفتن والقتال في العصر العباسي ، وذلك لبعدها عن السلطة المركزية في بغداد ، ولجهل البربر وعدم استعدادهم لقبول الحضارة الإسلامية ، وبغضهم ولائهم من العرب ، لفرضهم الضرائب الفادحة عليهم .

أما بُعد بلاد المغرب عن السلطة المركزية في بغداد ، فقد ساعد الإدارة على تأسيس دولتهم بالمغرب الأقصى سنة ١٦٩ هـ (٨٧٥ م) ، كما ساعد الأغالبة في تونس على تأسيس دولتهم . وكان الرشيد قد أقطع إبراهيم بن الاغلب تونس في سنة ١٨٤ هـ . وأما عن جهل البربر وعدم استعدادهم للحضارة الإسلامية ، فكان من آثاره أن الاسلام لم يتوطد بين البربر وبين العرب التازلين في بلادهم منذ امتدت الفتوح الإسلامية إلى هذه البلاد . وهذا يفسر لنا انتشار مذهبي الخوارج والشيعة في بلاد المغرب وقيام البربر في وجه العباسيين بين حين وحين .

(١) ذكر الطبري (طبعة دى غوية ١ : ٢٨١٥) أسباب سخط البربر في إفريقية في العصر الأموي منذ خلافة هشام بن عبد الملك ، حيث اندس بينهم بعض الخوارج ، حتى لائم قطعوا صلحهم بدار الخلافة . وما أورده من هذه الأسباب قول أهل إفريقية : « إنا لا نخالف الأئمة بما تحجي العمال ، ولا نحمل ذلك عليهم . فقالوا لهم إنا يعمل هؤلاء بأمر أولئك . فقالوا لهم لا تقبل ذلك حتى نبورهم (؟) . فخرج ميسرة في بضعة عشر إنسانا حتى يقوم على هشام ، فطلبوا الأذن فصعب عليهم ، فأثرو الأبرش ، فقالوا : أبلغ أمير المؤمنين أن أميرنا يفزونا وبجندنا ، فإذا أصاب نفلهم دوننا وقال هم أحق به ، فقلنا هو أخلص لجهادنا ، لأننا لا نأخذ منه شيئا ، إن كان لنا فهم في حل ، وإن لم يكن لنا لم نرده . وقالوا : إذا حاصرنا مدينة قال تقدموا وآخر جنده ، فقلنا تقدموا فإنه ازدياد في الجهاد ومثلكم كني إخوانه ، فوقيناكم بأنفسنا وكفيناكم . ثم لأنهم عمدوا إلى ما شئنا فجعلوا يبقرونها عن السخال يطلبون القراء البيض فيقتلون ألف شاة في جلد ، فقلنا ما أيسر هذا لأمر المؤمنين ، فاحتملنا ذلك وخليناهم وذلك .

ثم لأنهم سامونا أن يأخذوا كل جملة من يثاننا ، فقلنا هذا ليس في كتاب ولا سنة ونحن مسلمون ، فأحببنا أن نعلم عن رأي أمير المؤمنين ؟ قال « الأبرش » نفعل . فلما طال عليهم ، ونفدت نفقاتهم ، كتبوا أسماءهم في رقاع ورفضوها إلى الوزير وقالوا : هذه أسماءنا وأنسابنا ، فإن سألكم أمير المؤمنين عنا فأخبروه . ثم كان وجههم إلى إفريقية .

فخرجوا على عامل هشام فقتلوه ، واستولوا على إفريقية . . . وبلغ هشام الخبر وسأل عن الأمر ، فرفعت إليه أسماءهم ، فإذا هم الذين صنعوا ما صنعوا .

أنظر كتاب السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات في عهد بني أمية : ترجمة المؤلف

من ١٣٩ — ١٤٠ .

وأما عن بغض البربر لولاتهم من العرب ، فيرجع إلى فداحة الضرائب التي أثقلت كاهل الأهاليين . وفي الحق أن قيام الخوارج من البربر في وجه العباسيين ، لم يكن خروجاً على الدين . بل كان خروجاً على السلطة الحاكمة . لظلم الولاة لهم ، وفرضهم عليهم ضرائب فادحة (١) . وقد ذكر ابن الأثير (٢) أن محمد بن الأشعث وإلى إفريقية خرج على أبي جعفر المنصور ، فولى هذه البلاد الأغلب بن سالم (٣) ، أبا إبراهيم بن الأغلب ، مؤسس دولة الأغالبة ، فقدم القيروان سنة ١٤٨ هـ . وسرعان ما ثار عليه البربر بزعامة قواد من العرب ، وقتل الأغلب على أبواب مدينة القيروان سنة ١٥٠ هـ ، وقبره هناك يعرف بقبر الشهيد . ويقول ميور (٤) : إن إفريقية كادت تخرج عن طاعة العباسيين في معظم عهد المنصور ، وإن البربر والعرب التنازلين فيها مالوا إلى مبادئ الخوارج ، وخلعوا طاعة العباسيين ، الذين أخذوا يرسلون إليهم الجيوش تلو الجيوش لإخضاعهم ، ولكن بدون جدوى . واستمرت مدينة القيروان تسقط في أيدي الثوار حيناً ، وفي أيدي العباسيين حيناً آخر ، إلى قبيل نهاية خلافة المنصور .

ولما بلغ الخليفة المنصور نبأ مقتل الأغلب بن سالم ، ولى إفريقية أبا جعفر عمر بن حفص من ولد قبصة بن أبي صفرة أخى المهلب ، فوصل إلى القيروان — وكان جند الأغلب قد استولوا عليها بعد وفاته — في شهر صفر سنة ١٥١ هـ ، وأقر الأمن في هذه البلاد نحو ثلاث سنين ، ثم سار إلى ناحية الزاب ، لبناء مدينة طنبجة ، فانتز البربر من الإباضية والصُفْرية وغيرهم فرصة تغيب عمر بن حفص عن إفريقية ، وانتقضوا على هذا الوالى ، وهاجوا مدينة القيروان . وانتقضت إفريقية من كل ناحية ، ومضوا إلى طنبجة فأحاطوا بها في اثني عشر عسكراً ، منهم أبو قرّة الصُفْرى في أربعين ألفاً ، وعبد الرحمن بن رُستم في خمسة عشر ألفاً ، وأبو حاتم في عسكر كثير ، وعاصم السدْرائى الإباضى في ستة آلاف ، والمسعود الزناتى الإباضى في عشرة آلاف فارس ، وغير من ذكرنا (٥) . واستطاع عمر بن حفص ، بما بذل من الأموال ، أن يفك حصار طنبجة بارشاً بعض المحاصرين من الخوارج ، فترك هؤلاء حصار طنبجة ، وحاصروا القيروان ، فلما اشتد الضيق بأهلها قصدهم عمر بن حفص وأعمل الحيلة حتى دخلها .

ولما علم أبو جعفر المنصور بما حلَّ بجند عمر بن حفص من الشدة ، بعث يزيد بن حاتم ابن قبصة بن أبي صفرة في ستين ألف فارس ، فوصل إلى إفريقية سنة ١٥٤ هـ ، فبادر أبو حاتم الخارجي إلى لقائه ، ولكن الهزيمة حلت به ، وقتل هو وجنده من البربر في شهر ربيع الأول

(١) الفاطميون في مصر للمؤلف ص ٥٠ — ٥٣ . (٢) ج ٥ ص ٢٣٦ — ٢٣٧ .

(٣) ذكر ابن الأثير أن الأغلب بن سالم بن عقّال بن خفاجة التميمي كان ممن قام مع أبي مسلم الحراساني ، ثم قدم لإفريقية مع محمد بن الأشعث .

(٤) Muir : The Caliphate, 461 .

(٥) ابن الأثير ج ٥ ص ٢٤١ .

سنة ١٥٥ هـ ، وجعل آل المهلب يقتلون الخوارج ويقولون : « بالثارات عمر بن حفص ، وأقام شهراً يقتل الخوارج ، ثم رحل إلى القيروان » (١) . ويقول ميور (٢) : إن أبا جعفر المنصور لما تخلص من خصومه الآخرين ، أصبح من القوة بحيث استطاع أن يرسل إلى بلاد المغرب جيشاً جراراً ، أقر الأمن في جميع أرجاء هذه البلاد حيناً من الدهر . ولا غرو ، فقد اشتعلت نيران الثورة في بلاد المغرب ، وأفلقت بال العباسيين ، حتى قيل إنه : « كان بين الخوارج والجنود (العباسيين) ، من لدن قاتلوا عمر بن حفص إلى انقضاء أمرهم ، ثلثمائة وخمسة وسبعون وقعة » (٣) ، بعد أن بذلت الدولة العباسية جهوداً متصلة ، وتضحيات عظيمة ، ونفقات طائلة .

وقد استمرت قبائل البربر في إفريقية تناوياً سلطان العباسيين بين سنتي ١٧٨ و ١٨١ هـ ، وأخذت في الخروج على حكم العباسيين ، وغدت كفة النصر ترجح في جانبهم حيناً ، وفي جانب العباسيين حيناً آخر . حتى بعث إليهم الرشيد هرثمة بن أعين ، فوصل إليها في شهر ربيع الأول سنة ١٧٩ هـ على رأس جيش كثيف ، استطاع أن يضعف من قوتهم . على أن هرثمة رأى بثاقب نظره وطول خبرته ، أن فوز العباسيين على البربر لا سبيل إلى تحقيقه ، لتأصل العداة في نفوس هؤلاء البربر ، فعمل على النزول عن القيادة ، وعاد إلى المشرق حيث البذخ والرفاهية . ويقول ابن الأثير (٤) : لما رأى هرثمة ما با إفريقية من الاختلاف ، واصل كتبه إلى الرشيد يستعني ، فأمره بالقدوم عليه إلى العراق ، فسار عن إفريقية في رمضان سنة إحدى وثمانين ومائة . فكانت ولايته سنتين ونصفاً .

ولى الرشيد بعد هرثمة أخاه في الرضاع محمد بن مقاتل بن حكيم العكي ، فأساء معاملته الأهلين ، فتجددت ثورات البربر والعرب ، ودخلوا القيروان ، فجمع إبراهيم بن الأغلب — وكان يلي بعض نواحي الزاب — جيشاً كبيراً طرد به هؤلاء الثوار وأعاد والي الرشيد إلى مقره (٥) .

كان من أثر هذا العداة الذي أضمره البربر في بلاد إفريقية للأمويين والعباسيين ، وانضمام بعض العرب النازلين في هذه البلاد إلى البربر ، وميل هؤلاء وأولئك إلى مذهب الخوارج ، أن قامت الفتن والفتن في هذه البلاد ، وعمل بعض زعمائهم على الاستقلال عن الدولة العباسية ، فتأسست ولايات من البربر على يد زعماء من سلالة العرب ، استقلت استقلالاً يكاد يكون تاماً . ومن هذه الولايات ولاية تاهرت التي أسسها ابن رستم بمساعدة الإباضية من الخوارج (١٣٧ — ٥٢٩٧ هـ) ، وولاية سجلماسة التي أسسها بنو مدرار (١٦٧ — ٥٢٥٧ هـ) ، وتلمسان التي أسسها أبو قرّة الصنهاجي ، وبرغواته الواقعة على ساحل المحيط الأطلسي ، ودولة الإدارة

(١) ابن الأثير ص ٢٤٢ . (٢) p. 461

(٣) ابن الأثير ج ٥ ص ٢٤٢ . (٤) نفس المصدر ج ٦ ص ٥٠ .

(٥) نفس المصدر ج ٦ ص ٥٥ .

التي أسسها إدريس بن عبد الله في بلاد المغرب الأقصى (١٧٢ — ٣١٣ هـ = ٧٨٨ — ٩٢٢ م)،
ودولة الأغالبة في تونس (١٨٤ — ٢٩٦ هـ = ٨٠٠ — ٩٠٩ م)

أما قيام دولة الإدارة فيرجع إلى موقعة فخ التي وقعت في عهد الخليفة الهادي العباسي، حين
خرج عليه الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن الحسن بن علي سنة ١٦٩ هـ. تلك الموقعة
التي كانت بعيدة الأثر في تاريخ العصر العباسي الأول. فقد هرب منها رجلان كانا شجاء في حلق
العباسيين: أحدهما يحيى بن عبد الله صاحب الديلم، وأخوه إدريس الذي نجح في إثارة أهالي المغرب
الأقصى على العباسيين. وتأسست دولة الإدارة بفضل ما بذله من جهود متصلة في هذا
السييل. ولكن هارون الرشيد عمل على التخلص من إدريس بن عبد الله كما فعل مع أخيه
يحيى صاحب الديلم ودس له من قتله (١). ويقول الطبري: «ويقال إن الرشيد... دس إلى
إدريس الشماخ اليمامي مولى المهدي، وكتب له كتابا إلى إبراهيم بن الأغلب عامله على إفريقية،
فخرج حتى وصل إلى ليلة، وذكر أنه متطبيب، وأنه من أوليائهم. ودخل على إدريس، فأنس
به واطمأن إليه، وأقبل الشماخ يريه الإغظام له، والميل إليه، والإيثار له، فنزل عنده بكل منزلة.
ثم إنه شكاه إليه علة في أسنانه، فأعطاه سنونا مسموما قاتلا، وأمره أن يستن به عند طلوع
الفجر ليلته. فلما طلع الفجر استن إدريس بالسنان، وجعل يرده في فيه ويكثر منه فقتله.
وطلب الشماخ فلم يظفر به. وقدم على إبراهيم بن الأغلب، فأخبره بما كان منه. وجاءته بعد
مقدمه الأخبار بموت إدريس، فمكث ابن الأغلب إلى الرشيد بذلك، فولى الشماخ بريد مصر
وأخباره، فقال في ذلك بعض الشعراء:

أتظن يا إدريس أنك مفلت	كيد الخليفة أو يفيد فرار
فلا يدركنك أو تحل ببلدة	لا يمتدى فيها إليك نهار
إن السيوف إذا انتضاها سخطه	طالت وقصرت دونها الأعمار
ملك كأن الموت يتبع أمره	حتى يقال تطيعه الأقدار (٢)

على أن مقتل إدريس لم يقف جهود العلويين في بلاد المغرب. فقد كانت له أمة حاملا،
فانتظر أشياعه حتى وضعت ولدا ذكرأ، أسموه إدريس، والتفوا حوله. فكان المؤسس
الحقيقي لدولة الإدارة، التي ظلت في بلاد المغرب حتى سنة ٣١٣ هـ.

وكان قيام دولة الأغالبة في تونس نتيجة هذه السياسة التي سار عليها الرشيد في تأديب البربر
وغيرهم من الثوار، والوقوف في وجه الإدارة إذا أرادوا الإغارة على أراضي الدولة العباسية
الواقعة شرق دولتهم. ويقول ابن الأثير في حوادث سنة ١٨١ هـ عن تأسيس دولة الأغالبة،
إنه لما تبين للرشيد كراهة البربر لو اليهم محمد بن مقاتل — وأن إبراهيم بن الأغلب كان قد طلب

(١) انظر هذا الكتاب ص ١٢٧ — ١٢٨ وكتاب «الفاطميون في مصر» للمؤلف ص ٤٦.

(٢) الطبري ج ١٠ ص ٢٩

إليه أن يوليه إفريقية ، على أن يوفر لبيت المال الإعانة التي كانت ترسلها مصر إلى إفريقية ومقدارها مائة ألف دينار ، وأن يرسل الى بيت المال فوق ذلك أربعين ألف دينار — أشار هريثم بن أعين على الخليفة بتولية ابراهيم بن الاغلب هذه البلاد ، لما رآه « من عقله ودينه وكفايته » ، فولاه الرشيد هذه البلاد في شهر المحرم سنة ١٨٤ هـ ، « فانقمع الشر وضبط الامر » . فسكنت البلاد ، وابتنى مدينة سماها العباسية بقرب القيروان ، وانتقل اليها بأهله وعبيده ، (١) . على أن الثورات في بلاد المغرب قد سارت سيرتها الأولى ، فخرج على إبراهيم بعض الثوار في سنة ١٨٦ هـ ، ولكنهم قضى عليها ، ثم عول على القضاء على دولة الأدارسة في المغرب الأقصى ، ففرق بين أنصار إدريس بن إدريس بن عبد الله . ويقول ابن الأثير (٢) . « بلغ ابن الأغلب أن إدريس بن إدريس العلوي قد كثرت جمعه بأفصى المغرب ، فأراد قصده ، فنهاه أصحابه وقالوا : اتركه ما تركك . فأعمل الحيلة وكانب القيم بأمره من المغاربة ، واسمه بهلول بن عبد الواحد ، وأهدى اليه ، ولم يزل به حتى فارق إدريس وأطاع إبراهيم ، وتفرق جمع إدريس ، فسكتب إلى إبراهيم يستعطفه ويسأله الكف عن ناحيته ، ويذكر له قرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكف عنه » .

هكذا تأسست دولة الأغالبة في إفريقية على يد إبراهيم بن الأغلب الذي اتخذ مدينة القيروان حاضرة لدولته ، وتمتعت هذه الدولة باستقلال اسمي ، ولكنها ما لبثت أن استقلت على مر الزمن استقلالاً يكاد يكون تاماً ، بحيث لم يبق للخليفة العباسي سوى ذكر اسمه في الخطبة ونقشه على السكة . وظلت على ذلك إلى أن استولى الفاطميون عليها سنة ٢٩٦ هـ (٣) .

٢ — مع بلاد الأندلس والفرنجية :

أخذ سلطان العباسيين يتقلص عن بلاد الأندلس بعد سقوط الدولة الأموية . ولا غرو فقد قام النزاع بين المضربة والبنية في هذه البلاد : فقد تولى أبو الخطار على بلاد الأندلس سنة ١٢٥ هـ ، فقام في وجهه الصمّيل بن حاتم — وكان مضرباً — وخلعه وأسرّه ، وولى عليهم واحداً منهم (١٢٧ هـ) . ولكن هذا الوالي الجديد ، أو الثائر بعبارة أدق ، توفي بعد سنتين ، « فأراد أهل البنية إعادة أبي الخطار ، وامتنعت مضر ورأسهم الصمّيل ، وافترقت الكلمة . فأقامت الأندلس أربعة أشهر بغير أمير . . . فلما تفاقم الأمر اتفق رأيهم على يوسف ابن عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة الفهرى . فوليا يوسف (وكان مضرباً) سنة تسع وعشرين (ومائة) ، فاستقر الامر على أن يلى سنة ، ثم يرد الأمر إلى البنية ، فيولون من أحبوا من قومهم . فلما انقضت السنة ، أقبل أهل البنية بأسرهم يريدون أن يولوا رجلاً منهم ، فهم الصمّيل فقتل منهم خلقاً كثيراً . . . واجتمع الناس على يوسف ، ولم يعترضه أحد . . . وبقي يوسف على الأندلس

(١) ابن الأثير ج ٦ ص ٥٦ (٢) نفس المصدر ج ٦ ص ٥٦ .

(٣) أنظر Muir : The Caliphate, pp. 478—9

إلى أن غلب عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ، (١)

ظلت الحال على ذلك حتى زالت الدولة الأموية ، وتعقب العباسيون أفراد البيت الأموي ومثلوهم ، فأتيحت الفرصة لأحد أمراء البيت ، وهو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك ، الذي أفلت من أيدي العباسيين ، وهرب إلى بلاد الأندلس ، حيث أسس الدولة الأموية التي أصبحت حضارتها منبعاً لحضارة أوربا الحديثة .

وقد وصف عبد الرحمن كيفية نجاحه من العباسيين وهربه إلى بلاد الأندلس فقال (٢) :
« لما أعطينا الأمان ، ثم نكث بنا بنهر أبي فطرس ، وأبيحت دماؤنا ، أنانا الخبر . وكنت متنبذاً من الناس ، فرجعت إلى منزلي آيساً ونظرت فيما يصلحني وأهلي ، وخرجت خائفاً ، حتى صرت إلى قرية على الفرات ذات شجر وغياض . فبينما أنا ذات يوم بها ، وولدى سليمان يلعب بين يدي ، وهو يومئذ ابن أربع سنين ، نخرج عني ، ثم دخل الصبي من باب البيت باكياً فزعاً ، فتعلق بي وجعلت أدفعه وهو يتعلق بي . فخرجت لأنظر ، وإذا بالخوف قد نزل بالقرية ، وإذا بالرايات السود منسجطة عليها ، وأخ لي حدث السن يقول لي النجاة النجاة ، فهذه رايات المسودة . فأخذت دنائير معي ونجوت بنفسى وأخى ، وأعلت أخواقى بمتوجهى ، فأمرتهن أن يلحقننى مولاي بدرا . وأحاطت الخيل بالقرية ، فلم يجدوا لى أثراً . فأتييت رجلاً من معارفى ، وأمرته ، فاشترى لى دواب وما يصلحني ، فدل على عبد له العامل ، فأقبل فى خيل له يطلبننى ، فخرجنا على أرجلنا هراباً ، والخيل تبصرنا ، فدخلنا فى بساتين على الفرات ، فسبقنا الخيل على الفرات ، فسبقنا . فأما أنا فنجوت ، والخيل ينادوننا بالأمان ولا أرجع . وأما أخى فإنه عجز عن السباحة فى نصف الفرات ، فرجع إليهم بالأمان وأخذوه فقتلوه ، وأنا أنظر إليه ، وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، فاحتملت فيه شكلاً ومضيت لوجهى ، فتواريت فى غيضة أشبه ، حتى انقطع الطلب عني ، وخرجت فقصدت المغرب فبلغت إفريقية . »

وقد لقي عبد الرحمن كثيراً من الصعاب فى طريقه إلى الأندلس ، فقد اشتد فى طلبه عبد الرحمن ابن حبيب الفهرى والى إفريقية ، وأبى يوسف الفهرى أمير بلاد الأندلس ، فهرب إلى مكناسة إحدى قبائل البربر ، فلقى منهم كثيراً من الشدائد ، فتسلل إلى جماعة من زناتة فأحسنوا إليه ، وقيل إنه قصد أخواله فى نفاوة فأكرموه ، ثم أخذ يرسل الأمويين فى الأندلس ، ويدعوهم إلى نفسه ، ويمنهم الأمان الطيبة ، واستعان فى ذلك بغلامه بدر . وقد استغل عبد الرحمن سوء حالة بلاد الأندلس التى مزقتها الانقسامات والفتن ، فأوقع بين المضربة والبنية فيها ، واستطاع أن يدخل هذه البلاد فى شهر ربيع الأول سنة ١٣٨ هـ ، كما استطاع بعد قليل أن يجذب إليه قبائل البين ، وكانت تحتق على يوسف الفهرى . ومازال يستولى على بلاد الأندلس مدينة تلو مدينة ، حتى دخل قرطبة ، وقضى على نفوذ واليها يوسف الفهرى ، واستقر عبد الرحمن بقرطبة ،

وربى القصر والمسجد الجامع ... ووافاه جماعة من أهل بيته (١). ولكن أبا جعفر المنصور لم يهدأ باله من ناحية عبد الرحمن الداخل ، فعمل على القضاء عليه . ويقول ابن الأثير (٢) عند كلامه على حوادث سنة ١٤٦ هـ : « وفيها سار العلاء بن مغيرة اليحصبي من إفريقية إلى مدينة بناحية من الأندلس ، ولبس السواد ، وقام بالدولة العباسية ، وخطب للمنصور ، واجتمع اليه خلق كثير . فخرج إليه الأمير عبد الرحمن الأموي ، فالتقيا بنواحي إشبيلية ، ثم تحاربا أياما . فانهزم العلاء وأصحابه ، وقتل منهم في المعركة سبعة آلاف ، وقتل العلاء ، وأمر بعض التجار بحمل رأسه وروس جماعة من مشاهير أصحابه إلى القيروان وإلقائها بالسوق سرا ، ففعل ذلك . ثم حمل منها شيء إلى مكة ، فوصلت . وكان بها المنصور ، وكان مع الروس لواء أسود وكتاب كتبه المنصور للعلاء . » (٣)

ولاشك أن انسلاخ بلاد الأندلس عن الدولة العباسية قد فت في عضدها . ولم يتمكن أبو جعفر المنصور من إعادة سلطان العباسيين إلى هذه البلاد ، فعمل على استمالة عبد الرحمن ، وأرسل اليه الرسل . وكثيراً ما كان يظهر إعجابه به وبمقدرته ، وعزيمته التي جعلته وهو شريد طريد يستطيع أن يؤسس هذا الملك الواسع في تلك البلاد البعيدة . وذلك أن أبا جعفر المنصور قال لأصحابه : « أخبروني عن صقر قریش من هو ؟ قالوا : أمير المؤمنين الذي راض الملك وسكن الزلازل وحسم الأدواء وأباد الأعداء ، قال : ما صنعت شيئا ، قالوا : فعاوية ، قال : ولا هذا ، قالوا : فعبد الملك بن مروان ، قال ولا هذا ، قالوا : فن يا أمير المؤمنين ؟ قال : عبد الرحمن بن معاوية الذي عبر البحر ، وقطع القفر ، ودخل بلداً أعجميا مفردا ، فصّر الأمصار ، وجنّد الأجناس ، ودوّن الدواوين ، وأقام ملكا بعد انقطاعه بحسن تديره . وشد شكيمته أن معاوية نهض بمركب حمله عليه عمر وعثمان وذلل أصابعه ، وعبد الملك بيعة تقوم لها عقدها ، وأمير المؤمنين يطالب غيره واجتماع شيعته ، وعبد الرحمن مفرد بنفسه ، مؤيد برأيه ، مستصحب لعزمه ، » (٤).

ولما لم يظفر المنصور بشيء من وراء هذه السياسة ، طرق باب يمين (Pepin) ملك الفرنجة ، رغبة في مساعدته على عبد الرحمن الداخل ، فأرسل اليه سفراء أقاموا في بلاطه عدة سنين ، ثم عادوا الى المنصور بصحبهم سفراء من الفرنجة ، ثم عاد هؤلاء إلى يميني محمدين بهدايا الشرق النفيسة ، دون أن تؤدي هذه المفاوضات إلى شيء سوى ما ولدته في نفس عبد الرحمن الداخل من خوف هجوم الفرنجة على بلاده (٥) . وبذلك لم يحاول إظهار عدائه

(١) ابن الأثير ج ٥ ص ١٩٩ — ٢٠٠ (٢) ج ٥ ص ٢٣٢ .

(٣) Stanly Lane - Poole : The Moors in Spain, pp. 63—4

(٤) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٣ ص ٢٠١ — ٢٠٢ ، المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص

١٥٦ — ١٥٨ (طبعة بولاق) .

(٥) Muir : The Caliphate, p.p. 460—61 .

الحرب للخليفة العباسي . لذلك نرى أن المنصور ، وإن كان لم ينجح في القضاء على عبد الرحمن الداخل في الناحية الحربية ، فإنه قد نجح إلى حد بعيد في الناحية السياسية ، ووضع أساس هذه السياسة التي سار عليها أبناؤه من بعده .

وكانت الدول تهاب الدولة الإسلامية في عهد المهدي لعظمتها وقوة سلطانها ؛ إلا ما كان بين العباسيين والأمويين في الأندلس . فقد كان المهدي يضرر العداء لعبد الرحمن الداخل كما كان أبوه المنصور من قبل ، ويود إزالة دولته . ولكنه كان يحجم عن تجريد الجيوش إلى بلاده ، لبعده الشقة ووعورة الطريق ، ولإنعاب جنده بالمسير في صحراء إفريقية ، وقوة عبد الرحمن الذي فكر في انتزاع بلاد الشام من العباسيين ، لولا أن الحالة الداخلية في بلاده تطلبت العدول عن تحقيق هذه السياسة ، فاكتمل كل من الرجلين بمعاداة الآخر . يقول ابن الأثير (١) : إن المهدي وجه عبد الرحمن بن حبيب الفهري إلى بلاد الأندلس ، فسار من إفريقية وعبر البحر ، وكتب إلى سليمان بن يقظان ببرشلونة ، يحثه على الدخول في طاعة العباسيين . فلم يجب سليمان طلبه ، فثارت ثورة الفهري ، وأغار على بلده بجند كثيف من البربر . ولكن سليمان هزم الفهري ، وطرد عبد الرحمن الداخل الفالقة من جنده ، وأحرق سفنه ليحول بذلك دون هربه . على أن قائد المهدي تحصن بناحية بلنسية وصمد للأمويين ، وأوقع الرعب في قلوبهم ، وبذل عبد الرحمن الداخل ألف دينار لمن يأتيه برأسه ، فاقبض في أثره رجل من البربر وتبع خطواته حتى عثر عليه وقتله غيلة ، وحمل رأسه إلى أمير بلاد الأندلس . ولم تنجح سياسة المهدي في إعادة هذه البلاد إلى الدولة العباسية .

وقد أفاد شارل مارتل Charles Martel ملك الفرنجة من الخلف الذي ساد بين العباسيين في الشرق والأمويين في بلاد الأندلس ، فتقرب إلى الخليفة المهدي العباسي ليكتسب شيئا من النفوذ في بلاده ، ويهدد بذلك منافسه أمبراطور الدولة البيزنطية . وقد جنى شرلمان ثمار هذه السياسة ، فاكسب محبة هارون الرشيد . وكانت العلاقة بينه وبين أمبراطور الفرنجة تقوم على الود والصفاء ، بخلاف ما كانت عليه مع أمبراطور الدولة البيزنطية ، فخطب شرلمان ود الرشيد ، وأرسل إليه وفدا مؤلفا من رجلين من النصراني ، ورجل من اليهود ، لتسهيل سبل الحج إلى بيت المقدس ، ونشر التجارة بين البلدين ، والحصول على علوم المشرق . كما رغب الرشيد في محالفة شرلمان على أمبراطور القسطنطينية وأمير الأندلس الأموي .

على أن هؤلاء السفراء وتلك الكتب ، لم تؤدي إلى غرض مادي يذكر ، اللهم إلا ما كان من إرسال مفاتيح كنيسة بيت المقدس إلى شرلمان وتبادل الهدايا بينه وبين الرشيد . ولاغرو فقد أصبح شرلمان حامى المسيحيين الذين يفدون إلى هذه البلاد لأداء فريضة الحج . ومع أنه لم ينظر

الى هذا الأمر بعين الاعتبار في ذلك الحين، فقد أدى ذلك الى نتائج خطيرة في المستقبل ، لأنه أكسب ملك الفرنجة حق حماية الأماكن المقدسة في فلسطين .

وكان من بين الهدايا التي أرسلها الرشيد إلى شرملة وأثارت إعجاب الناس في بلاد الفرنجة ، ذلك الفيل الذي وصل إلى مكس لاشابل حاضرة أمبراطورية شرملة ، وكان يسمى أبا العباس ، وتلك الساعة المائية الدقيقة التي ظنوا أنها آلة سحرية ، وغيرهما من هدايا المشرق النادرة (١) .

على أن العلاقة بين الدولة العباسية والأندلس في العصر العباسي الأول لم تنته عند الرشيد ، فقد ذكر الطبري (٢) في حوادث سنة ٢١٠ هـ ، أن عبد الله بن طاهر طرد جماعة من الأندلس اتخذوا من وقوع الاضطرابات في مصر فرصة سانحة لهم ، فزلوا الإسكندرية واستقروا فيها . فلما دخل عبد الله بن طاهر بن الحسين مصر ، أرسل إلى من كان بها من الأندلسيين ، وإلى من كان انضوى اليهم ، يؤذهم بالحرب إنهم لم يدخلوا في الطاعة . فأخبروني أنهم أجابوه الى الطاعة وسألوه الأمان ، على أن يرتحلوا من الإسكندرية إلى بعض أطراف الروم التي ليست من بلاد الاسلام ، فأعطاهم الأمان على ذلك ، وأنهم رحلوا عنها ، فزلوا جزيرة من جزائر البحر يقال لها إقريطش ، فاستوطنوها وأقاموا بها ، وفيها بقايا أولادهم الى اليوم .

ولكن فكرة فتح بلاد الأندلس وإعادةها إلى سلطان العباسيين قد شغلت خلفاءهم ، حتى إن المعتصم كان — كما يقول السيوطي (٣) — قد عزم على المسير إلى أقصى المغرب ، لملك البلاد التي لم تدخل في ملك بني العباس لاستيلاء الأموي عليها ، فروى الصولي عن أحمد ابن الخطيب قال : قال لي المعتصم ان بني أمية ملكوا ، وما لأحد مناملك ، وملكنا نحن ، ولهم بالأندلس هذا الأموي ، فقد رما يحتاج اليه لمحاربه ، وشرع في ذلك ، فاشتدت عليه علته ومات .

٣ — مع البيزنطيين :

لم تنقطع الحرب بين العرب والروم منذ ظهور الإسلام . فقد حاول العرب الاستيلاء على القسطنطينية ثلاث مرات : المرة الأولى في عهد عثمان بن عفان ، والثانية في عهد معاوية ابن أبي سفيان ، والثالثة في عهد سليمان بن عبد الملك .

وقد أضعفت الحروب الأهلية قوة العرب في أواخر الدولة الأموية ، فاتخذ قسطنطين الرابع أمبراطور الدولة البيزنطية من هذه الاضطرابات فرصة سانحة لشن الإغارات على البلاد الإسلامية المتاخمة لبلاده .

ولما انتقل الحكم إلى العباسيين تغيرت وجهة الحرب بين العرب وبين البيزنطيين ،

(١) Muir : The Caliphate, p. 485.

(٢) ج ١٠ ص ٢٧٥ .

(٣) تاريخ الخلفاء ص ٢٢٣ — ٢٢٤

وأصبحت عبارة عن إغارات ، الغرض منها الهدم والتخريب وإتلاف النفس والمال . وهذا يخالف ما كانت عليه الحال في أيام الأمويين ، الذين كانت لهم سياسة مرسومة لمحاربة البيزنطيين ، ابتغاء احتلال القسطنطينية . ولا شك أن السبب في ذلك يرجع إلى عاملين هامين : أولهما : مناوأة أهالي بلاد الشام للعباسيين ، لأنهم كانوا لا يزالون على ولائهم للأمويين ، حتى إن عبد الرحمن الداخل فكر في إعادة هذه البلاد إلى سلطان الأمويين ، واعتمد في تحقيق سياسته على ولاء أهالي بلاد الشام لبني أمية .

وثانيهما : عدم اهتمام العباسيين بإنشاء أسطول قوى في البحر الأبيض المتوسط يضارع أسطول الأمويين من قبل ، واعتمادهم على الجيوش البرية دون القوات البحرية .

وقد بدأ البيزنطيون يشنون إغاراتهم على أراضي الدول العباسية في عهد أبي جعفر المنصور ؛ فغزا قسطنطين الرابع Constantine . IV بعض أراضي الشام سنة ١٣٧ هـ ، واستولى على ملطية وخرب حصونها . غير أن العرب تمكنوا من استردادها في السنة التالية ، ورموا حصونها ، وأقاموا فيها حامية كبيرة . ويقول ابن الأثير (١) عند كلامه على حوادث سنة ١٣٩ هـ : « وغزا مع صالح بن علي (العباسي) أخناه أم عيسى ولقبناه بتتا علي ، وكاتنا نذرتا إن زال ملك بني أمية أن نجاهدا في سبيل الله . . . وكان الفداء بين المنصور وملك الروم ، فاستفدى المنصور أسرى قاليقلا وغيرهم من الروم ، وبناهما وعمرهما ، ورد إليها أهلها ، وندب إليها جندا من أهل الجزيرة ، فأقاموا بها وحومها . ولم يكن بعد ذلك صائفة (٢) فيما قيل إلا سنة ست وأربعين (ومائة) ، لاشتغال المنصور بابني عبد الله بن الحسن بن علي » .

وكانت الحرب بين العباسيين والبيزنطيين تشتعل من حين إلى حين حتى سنة ١٥٥ هـ ، حيث طلب الإمبراطور قسطنطين الرابع الصالح مع العباسيين ، على أن يؤدي لهم جزية سنوية (٤) . ونقرأ في الطبري (٥) عن الصوائف في سن ١٥٦ و ١٥٧ و ١٥٨ هـ ، وذلك في أواخر عهد الخليفة المنصور .

وفي سنة ١٥٩ هـ خرج الخليفة المهدي على رأس جيش كثيف لغزو بلاد الروم ، ووصل إلى البردان وعسكر به ، وأرسل العباس بن محمد فبلغ أنقره (٦) . وفي سنة ١٦١ هـ تولى قيادة الصائفة ثُمَامَة بن الوليد الذي سار بجيشه حتى نزل دابق ، والتقى بجيش الروم الذي بلغ عدده ثمانين ألفا ، فلم يحفل به ثُمَامَة اغترارا بقوته وكثرة جنده ، وهزم الروم على مقربة من برعش التي حاصرها ، ولكن الدائرة دارت عليه وقتل كثير من جنده .

(٢) ج ٥ ص ١٩٧

(١) ج ٦ ص ٢٢ .

(٣) الصائفة غزوة الروم ، لأنهم كانوا يغزون صيفا لمسكان البرد والثلج (القاموس المحيط) ، وجمعها صوائف ، وهي تختلف عن الشوائف ، وهي الحروب مع الروم في الشتاء .

(٥) ج ٩ ص ٢٨٨ .

(٤) الطبري ج ٩ ص ٢٨٦ .

(٦) الطبري ج ٩ ص ٣٢٦ .

وقد قوى الروم بهذا الانتصار ، فأغاروا على والحدّث ، في سنة ١٦٢ هـ وهدموا سورها ، فولى المهدي أمر الصائفة قائده الحسن بن قحطبة ، الذي لم يستطع إحراز النصر على الروم وعاد أدراجه (١). وفي سنة ١٦٣ هـ أغار الروم على حدود الدولة العباسية واستولوا على مرعش وأحرقوها ، فأرسل المهدي جيشا بقيادة الحسن بن قحطبة . غير أن الروم عادوا إلى بلادهم ، ثم أغاروا على حدود العباسيين من جديد ، فخرج المهدي على رأس جيش يبلغ مائة وخمسين ألفا ، واستخلف ابنه موسى (الهادي) على بغداد ، واتخذ مدينة حلب مركزاً لأعماله الحربية ، ووجه ابنه هارون على رأس جيش كشيّف يضم نخبة من أشهر رجال الدولة العباسية . منهم يحيى بن خالد البرمكي ، وعبد الملك بن صالح ، وعيسى بن موسى ، والحسن بن قحطبة . وخرج المهدي مشيعا ابنه هارون ، حتى وصل إلى جيحان وارتاد بها مدينة تسمى المهديّة .

زحف هارون إلى بلاد الروم ، حتى وصل إلى حصن سمالو ، ونصب عليه المنجنيق وخرّب به ، واستولى عليه . (٢) وقد تعهد الروم بدفع غرامة حرية فداء لأسراهم .

وقد نقض الروم شروط الصلح ، وعادت إغاراتهم على أملاك الدولة العباسية سيرتها الأولى ، فندب المهدي ابنه هارون لحربهم وغزو بلادهم من جديد ، وولاه الصائفة ، وضم إليه مولاة الربيع بن يونس .

وفي سنة ١٦٥ هـ أعاد المهدي الكرة على بلاد الدولة البيزنطية ، فجمع جيشا يبلغ نحو مائة ألف جندي ، وعبر الفرات . ثم أمر عليه ابنه هارون ، فوصل هذا الجيش إلى سواحل البسفور ، وأرغم الملكة إيريني Irene أرملة ليو الرابع Leo. IV ، وكانت وصية على ابنها قسطنطين السادس ، على أن تدفع للمسلمين تسعين ألف دينار جزية سنوية تقضى على دفعتين ، وأن تقيم لهم الأسواق والأدلاء في الطريق عند عودتهم إلى بلادهم ، وأن تسلّم أسرى المسلمين . وانتهت هذه الغزوة بعقد هدنة بين الفريقين أمدها ثلاث سنين . وبلغت هذه الحروب من الشدة بحيث ذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن عدد قتلى البيزنطيين بلغ ٥٤,٠٠٠ ، والأسرى ٥,٠٠٠ (٣). وفي هذه الغزوة يقول مروان بن أبي حفصة مناديا هارون ، ومشيدا بما ناله فيها من نصر وظفر :

أطلفت بقسطنطينية الروم مسندا إليها القنا (٤) حتى اكتسى الذلّ سورها
وما رمتها حتى أتتك ملوكها بجزيّتها والحرب تغلى قدورها
وقد أتى الطبري (٥) وابن الأثير (٦) بنص شروط الصلح الذي أبرم بين المسلمين والروم .

(١) الطبري ج ٩ ص ٣٤٢ . (٢) ابن الأثير ٦ ص ٢٢ .

(٣) Finlay : History of the Byzantine Empire, pp. 104 — 7& (٤) القنا الرمح

Muir : The Caliphate, pp. 470—1.

(٥) ج ٩ ص ٣٤٧ .

(٦) ج ٦ ص ٢٤ .

وكان من أثر هذه الانتصارات التي أحرزها المهدي أن هابه الملوك ، وأرسل اليهم رسلا يدعونهم الى الطاعة ، فدخل أكثرهم في طاعته ، ومنهم ملك كابل ، وملك طبرستان ، وملك السند ، وملك طخارستان ، وملك فرغانة ، وملك أشروسنة ، وملك سجستان ، وملك الترك ، وملك التبت ، وملك السند ، وملك الصين ، وملك الهند (١).

وعلى الجملة فقد أمتاز عهد المهدي بكثرة حروبه مع البيزنطيين . وما يسترعى النظر في هذه الحروب أن النصر كان كثيراً في جانب المسلمين .

ولما ولي هارون الرشيد الخلافة وجه اهتمامه إلى توطيد دعائم السلام في أراضي الدولة العباسية المتاخمة لحدود الدولة البيزنطية ، ثم سار بنفسه في سنة ١٨١ هـ على رأس جيش كبير إلى آسيا الصغرى ، فانتصر على البيزنطيين في كثير من المعارك ، وظل يتابع فتوحه حتى وصل إلى القسطنطينية .

وكان من أثر الانتصارات التي أحرزها المسلمون على البيزنطيين كما تقدم ، أن سارعت الأمباطورة أيريني Irene إلى طلب الهدنة مقابل دفعها الجزية . غير أن نفقور الذي أعلى العرش بعد أيريني أرسل إلى الرشيد في سنة ١٨٧ هـ كتابا نقض فيه الهدنة ، وألح في طلب الجزية التي دفعها إليه أيريني . وإليك نص هذا الكتاب : « من نفقور ملك الروم إلى هارون ملك العرب ، أما بعد ، فإن الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخ ، وأقامت نفسها مقام البيدق ، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أمثالها إليها . لكن ذلك ضعف النساء وحمقهن . فإذا قرأت كتابي ، فاردد ما حصل قبلك من أموالها ، وافسد نفسك بما يقع به المصادرة لك ، وإلا فالسيف بيننا وبينك » .

فلما قرأ الرشيد هذا الكتاب استغزه الغضب ، حتى لم يمكن أحداً أن ينظر إليه دون أن يخاطبه ، وتفرق جلساؤه من الخوف ، واستعجم الرأي على الوزير ، ودعا الرشيد من فوره بدواة ورد على أمباطور الروم بهذه الكلمات : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من هارون أمير المؤمنين ، إلى نفقور كلب الروم . قد قرأت كتابك ، والجواب ما تراه دون ما تسمعه والسلام » . ثم خرج لمحاربه ، فسار إليه بجيوشه الجزاره مخترباً آسيا الصغرى ، وظل يتابع إغاراته ، حتى استولى على هرقة قبل أن يتمكن الأمباطور من رده لانشغاله باخماد الفتنة التي قامت في بلاده . وانتهى بذلك كبرياء هذا الأمباطور وصلفه بعقد صلح أرغم فيه على دفع الجزية من جديد (٢) .

وقد اتخذ الشعراء نقض نفقور شروط الصلح ، وما أبلاه هارون الرشيد في حروبه مع

الروم موضوعا لقصائدهم ، فقال الحجاج بن يوسف التيمي أحد شعراء هذا العصر (١) :

نقض الذى أعطيتَه نقفور وأبشر أمير المؤمنين فإنه
فلقد تباشرت الرعية أن أتى ورجتُ يمينك أن تعجل عَزْوَةً
أعطاك جزيتَه وطأطأ خِدْيَه فأجرتَه من وقعها وكأنها
وصرفت بالطول العساكر قافلا نقفور إنك حين تغدر أن نأى
أظننت حين غدرت أنك مفليت ألقاك حينك في زواجر بحره
إنَّ الامامَ على اقتسارك قادره ليس الامام وإن غفلنا غافلا
ملك تجرّد للجهاد بهزمه يا من يريد رضى الإله بسعيه
لا نصح ينفع من يغش إمامه نصح الإمام على الأنام فريضة
وقال أبو العتاهية (٢) :

ألا نادى هرقلة بالخراب من المليك الموفق للصواب
غدا هارون يرعد بالمنايا ويشرق بالذاكرة القضا
ورايات يحمل النصر فيها تمر كأنها قطع السحاب
أمير المؤمنين ظفرت فاسلم وأبشر بالغنيمة والإياب

على أن البيزنطيين لم يلبثوا أن نقضوا هذه الهدنة من جديد ، وأخذوا يتقدمون نحو بلاد الدولة العباسية في السنة التالية ، وأوقعوا بالمسلمين جنوبي آسيا الصغرى ، وعلى الأخص في مرعش وطرسوس ؛ وساعدهم على إحراز هذا النصر انشغال الرشيد بقمع الثورات الداخلية . ولكنه عاد إلى بلاد الروم على رأس جيش يبلغ مائة وخمسة وثلاثين ألف رجل ، وأوقع

(١) الطبرى ج ١٠ ص ٩٢ — ٩٣ .

(٢) نفس المصدر ج ١٠ ص ٩٣ .

بهم ، واستولى على هرقله وطوانه Tiyana وغيرهما من أمهات مدن الروم ، وأسر عشرة آلاف ، كما أخذ جزية قدرها عشرون ألف قطعة من العملة الذهبية (١) .

يقول الطبرى (٢) : « وكان نفقور اشترط ألا يخرب (الرشيد) ذا السكلاع ولا سملة ولا حصن سنان ، واشترط الرشيد عليه ألا يعمر هرقله ، وعلى أن يحمل نفقور ثلثمائة ألف دينار . »

ولم تقتصر حروب هارون الرشيد مع الروم على آسيا الصغرى ، بل تعدتها إلى البحر الأبيض المتوسط ، ففي سنة ١٩٠ هـ غزا العباسيون جزيرة قبرص وأسروا منها ستة عشر ألف نفس ، ومن بينهم أسقف هذه الجزيرة (٣) .

وفي عهد الخليفة الأمين لم تقع حروب بين هاتين الدولتين ، لانشغاله بالفتنة التي قامت بينه وبين أخيه المأمون . وفي عهد المأمون عاد الصراع بين الدولتين ، فقد شجع المأمون توماس الصقلي الذي ثار في آسيا الصغرى على الامبراطور تيوفيلس Theophilus ، وأمدّه بالمال والرجال ، وعمل على تويجه أمبراطوراً على الدولة البيزنطية نفسها . ولكن سرعان ما انكشفت حيلته ، ولم يتم له ما أراد . واتبع الامبراطور البيزنطى هذه السياسة نفسها نحو الخليفة العباسى ، فجعل بلاد الروم موئلاً للخرمية أتباع بابك الخرمى الفارسى الذى ثار سنة ٢٠١ هـ على المأمون ، واعتصم بالأقاليم الجبلية الشمالية الشرقية في منطقة حران ، واستقل عن الدولة العباسية اثنتين وعشرين سنة (٢٠١ - ٢٢٣ هـ) ، نشر خلالها مذهبه في الإباحية . إلا أن أمبراطور الروم سُمّ في النهاية ، وعرض على المأمون الصلح ، وكتب إليه (٤) : « أما بعد فإن اجتماع المختلفين على حظهما أولى بهما في رأى مما عاد بالضرر عليهما . ولست حريّاً أن تدع لحظ يصل إلى غيرك حظاً تحوزه إلى نفسك ، وفي عليك كاف عن أخبارك . وقد كنت كتبت إليك داعياً إلى المسالمة ، راغباً في فضيلة المهادنة ، لتضع أوزار الحرب عنا ، ولتكون كل واحد لكل واحد ولياً وحزباً ، مع اتصال المرافق والفسح في المتاجر ، وفك المستأثر وأمن الطرق والبيضة . فإن أبيت فلا أدب لك (في) الخمس ، ولا أزخرف لك القول ، فإني لخائض إليك غمارها ، آخذ عليك أسداها ، شانّ خيلها ورجالها . وإن أفعل فبعد أن قدمت المَعذرة وأقت بيني وبينك علم الحجة والسلام . »

ولكن كتاب أمبراطور الروم أثار غضب المأمون ، لأنه كان يجمع بين اللين والشدّة ، ولأن المأمون كان يرغب في فتح القسطنطينية . ولذلك رفض الصلح مع الروم ، ورد على تيوفيلس بهذا الكتاب (٥) : « أما بعد فقد بلغنى كتابك فيما سألت من الهدنة ، ودعوت إليه من الموادعة ،

Muir : The Caliphate, p. 488. (١)

(٢) المصدر نفسه ص ٩٩ .

(٣) ج ١٠ ص ٩٩ .

(٤) نفس المصدر ص ٢٨٣ — ٢٨٤ .

(٥) الطبرى ج ١٠ ص ٢٨٣ .

وخلطت فيه من اللين والشدة ، مما استعطفت به من شرح المتاجر واتصال المرافق ، وفك الأسارى ورفع القتل والقتال . فلولا ما رجعتُ اليه من أعمال التؤدة والأخذ بالحظ في تقليب الفكرة ، وألا أعتقد الرأى فى مستقبله إلا فى استصلاح ما أورثه فى معتقه ، لجلعت جواب كتابك لخيلا تحمل رجلا من أهل البأس والنجدة والبصيرة ، ينازعونكم عن ثبلكم ويتقربون إلى الله بدمائكم ، ويستقلون فى ذات الله ما نالهم من ألم شوكتكم . ثم أوصل إليهم من الأمداد ، وأبلغ لهم كافياً من العدة والعتاد ، هم أظلم إلى موارد المنايا منكم إلى السلامة من مخوف معرفتهم عليكم ، موعدهم إحدى الحسينين : عاجل غلبة أو كريم منقلب . غير أنى رأيت أن أقدم إليك بالموعظة التى يثبت الله بها عليك الحجة من الدعاء لك ولبن معك ، إلى الوحدانية والشرعية الحنيفية . فان أبيت ففدية^١ توجب ذمة وتثبت نظرة ، وإن تركت ذلك فى يقين المعاينة لنعوتنا ، ما يغنى عن الإبلاغ فى القول والإغراق فى الصفة ، والسلام على من اتبع الهدى .

وفى سنة ٢١٨ هـ خرج المأمون لقتال الروم ، ولكن المشية وافته ودفن فى طرسوس . وفى زمن المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧ هـ) أصبحت العلاقات بين الدولة العباسية والدولة البيزنطية أسوأ مما كانت عليه . ولكن المعتصم كان بعيد النظر ، فوجه كل همه للقضاء على فتنة بابك الخرمى أولاً ، فانتهاز الامبراطور البيزنطى تلك الفرصة وأغار على مدينة زبطرة Zapetra وأحرقها ، وأسر من فيها من المسلمين . وكان الامبراطور يرمى من وراء ذلك إلى انقاذ بابك ، ونفخ ثيوفيلس فى مائة ألف . . . وسبى المسلمات ومثل بمن صار فى يده من المسلمين ، وسمل أعينهم ، وقطع أنوفهم وآذانهم ، ونفخ إليهم أهل الثغور من الشام والجزيرة .

وقد ذكر ابن الأثير^(١) أنه لما خرج ملك الروم وفعل فى بلاد الإسلام ما فعل ، بلغ الخبر المعتصم . فلما بلغه ذلك استعظمه ، وكبر لديه ، وبلغه أن امرأة هاشمية صاحبة وهى أسيرة فى أيدي الروم : وامعتصماه ! فأجابها وهو جالس على سريرته : لبيك لبيك ! ونهض من ساعته ، وصاح فى قصره ، النفير النفير ! ثم ركب دابته .

وقد أثارت هذه الحوادث شعور المسلمين ، ففضج الناس فى الأمصار ، واستعانوا فى المساجد والديار ، فدخل إبراهيم بن المهدي على المعتصم ، فأنشده قائماً قصيدة يذكر فيها ما نزل بمن وصفنا ويحثه على الجهاد فيها .

يا غارة الله قد عاينت فانتكى هتك النساء وما منهن يرتكب
هَب الرجال على إجرامها قتلت ما بال أطفالها بالذبح تنتهب؟ (٢)

وكان المعتصم إذ ذاك قد قضى على بابك ، فسار من فوره إلى أنقرة فى جيش ضخم ، وهزم الامبراطور البيزنطى واستولى على أنقرة . ثم عزم على تخريب عمورية التى نشأ فيها الامبراطور ثيوفيلس . فمسكروا غربى دجلة حيث التف حوله جنده ، وعلى رأسهم نخبة من

مشاهير قواده كالأفشين وأشناس ، وبغا الكبير ، ومن العرب أمثال عفيف بن عنبسة ومحمد بن إبراهيم .

وقد ذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن جند المعتصم بلغ خمسمائة ألف ، وذكر بعض آخر من لا يميلون إلى المبالغة أنه بلغ مائتي ألف ، وخرج المعتصم على رأس هذا الجيش ، وتابع المسير في أراضي آسيا الصغرى حتى وصل إلى عمورية ، فحاصرها وأسرف في قتل الأهليين ، حتى قيل أنه قتل ثلاثين ألفاً من سكانها ، وتركها للنهب والتدمير والإحراق أربعة أيام كاملة ، واقتدى أشرافها ونبلؤها أنفسهم بأموال كثيرة .

ولما عاد المعتصم إلى سامرا بعد ذلك النصر المؤزر الذي أحرزه على البزنطيين في عمورية سنة ٢٢٣ هـ ، احتفل باستقباله احتفالاً باهراً ، ومدحه أبو تمام الشاعر المشهور بقصيدته التي قال فيها :

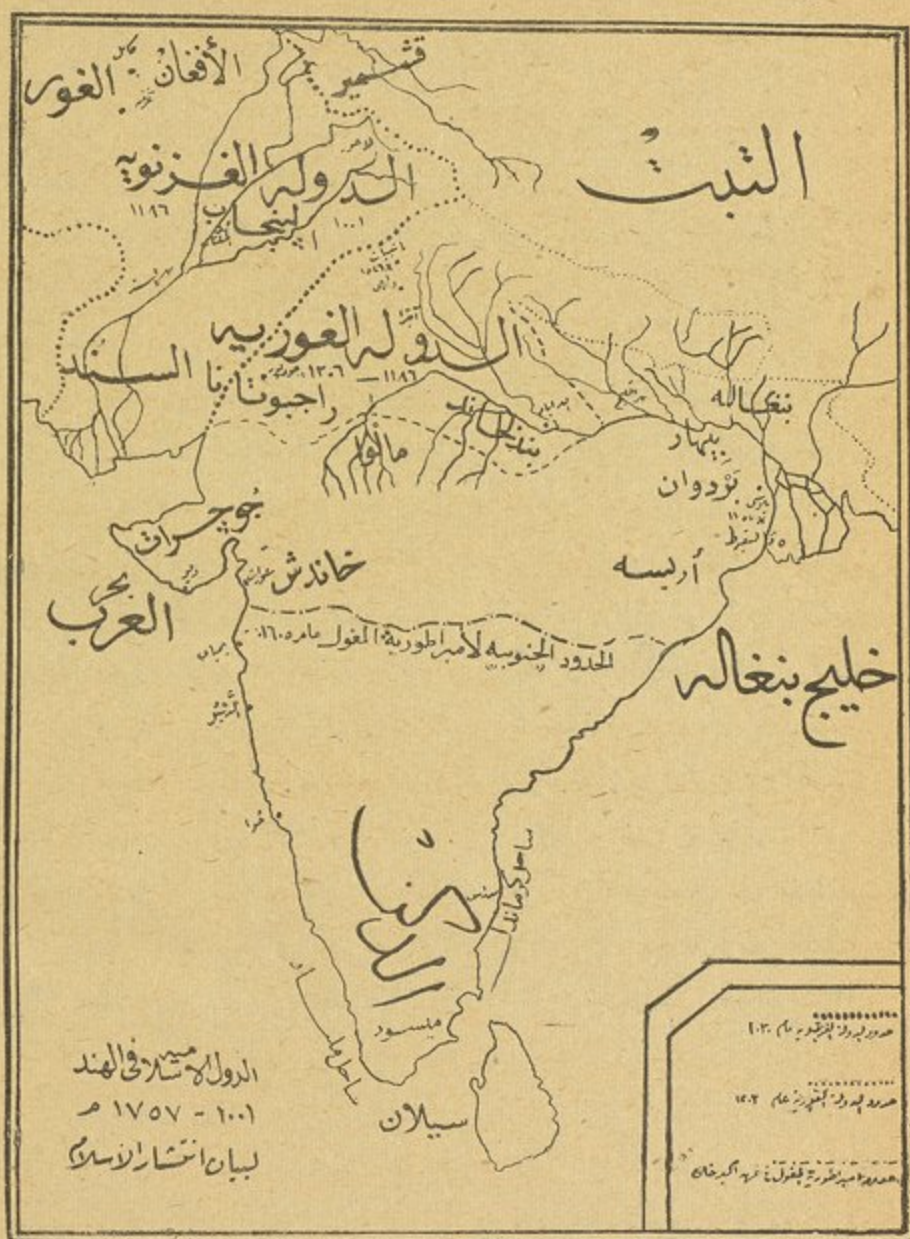
السيف أصدق أنباء من الكتب	في حذّه الحد بين الجد واللعب
والعلم في شهب الأرماح لامة	بين الخيسين لا في السبعة الشهب
يا يوم وقعت عمورية انصرفت	عنك المنى حفلاً معسولة الحلب
أبقيت جند بني الإسلام في صعد	والمشركين ودار الشرك في صلب
أمّ لهم لو رجوا أن تفتدى جعلوا	فدائها كل أم برة وأب
وبرزة الوجه قد أعيت رياضتها	كسرى وصدت صدودا عن أي كرب
من عهد إسكندر أو قبل ذلك قد	شابت نواصي الليالي وهي لم تشب
خليفة الله جازى الله سعيك عن	جرثومة الدين والاسلام والحسب
بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها	تنال إلا على جسر من التغب
إن كان بين صروف الدهر من رحم	موصولة أو ذمام غير مقتضب
فبين أيامك اللاتي نصرت بها	وبين أيام بدر أقرب النسب
أبقت بني الأصفر المصفر كاسمهم	صفر الوجوه وجلت أوجه العرب (١)

٤ — مع بلاد الهند :

ترجع حملات المسلمين على بلاد الهند إلى عهد بعيد ، فقد أرسلوا أولى حملاتهم بعد أن انتقل الرسول إلى جوار ربه بخمس عشرة سنة . ومن ثم أخذ سيل العرب يتدفق على هذه البلاد إلى القرن الثامن عشر الميلادي ، واستقر بعضهم فيها ، وكونوا ممالك كان لها أثر يذكر في تقدم الحضارة الإسلامية .

وفي عهد معاوية بن أبي سفيان غزا المهلب بن أبي صفرة بلاد السند سنة ٤٤ هـ ، وامتدت

فتوحه إلى الأراضى الواقعة بين كابل والملتان ، ثم امتدت فتوح المسلمين في هذه البلاد ، فشملت البوقان والقيقان والدجيل . ثم واصل محمد بن القاسم فتوحه في هذه البلاد حتى بلغ نهر السند ، وكان يعرف اذ ذاك بنهر مهران . وهناك التقي بداهر ملك السند ، وكان هو وجنده يقاتلون على ظهور الفيلة ، فاقتلوا قتالا شديدا انتهى بقتل داهر ووزعة أصحابه (١) .



ولما قامت الدولة العباسية ولى أبو جعفر المنصور هشام بن عمرو التغلبي بلاد السند . وفى عهده فتحت بلاد كشمير ، وكانت قد انتقضت ، وهدم البدّ وهو مكان عبادتهم ، ويشبه

(۲) البلاذری : کتاب فتوح البلدان ص ۴۴۳ — ۴۴۵ .

Muir : The Caliphate, Its Rise, Decline and Fall, pp. 353-4.

كنائس النصراني ويسع اليهود ، وبنى في موضعه مسجداً . ويقول البلاذري (١) :
 وكان بد الملتان بدا تهدي إليه الأموال وتذر له النذور ، ويحج إليه أهل السند ، فيطوفون
 به ويحلقون رؤوسهم ولحاهم عنده ، ويزعمون أن صنما فيه هو أيوب النبي صلى الله عليه وسلم .
 والمولتان أو الملتان مركز مشهور للحجاج من الهنود في بلاد البنجاب . قال ياقوت (٢) : وهما
 صنم يعظمه الهند وتحج إليه من أقصى بلدانها ، ويتقرب إلى الصنم في كل عام بمال عظيم ينفق على
 بيت الصنم والمعتكفين عليه منهم . وسمى المولتان بهذا الصنم . وقد ألبس جميع بدنه جلدأ يشبه
 السخنيان الأحمر لا يبين من جثته شيء إلا عيناه . وعيناه جوهرتان ، وعلى رأسه إكليل ذهب ،
 وهو متربع على ذلك السرير ، وقد مد ذراعيه على ركبتيه . ويسمى العرب المولتان فرج
 بيت الذهب ، لأنها فتحت في أول الإسلام ، وكان بها ضيق وقحط ، فوجدوا فيها ذهباً
 كثيراً فاتسعوا به .

وفي عهد الخليفة المهدي غزا المسلمون بلاد الهند في سنة ١٥٩ هـ ، وحاصروا مدينة باربد
 بالمنجنيق وفتحوها عنوة ، وأشعلوا النار في تمثال بوذا . على أن هذه الغزوة كانت كارثة على
 جند العباسيين ؛ فقد فشا الموت فيهم ، حتى مات منهم أكثر من ألف ، ودمرت الزوابع
 سفنهم في الخليج الفارسي ، وغرق كثير من الجند . وما زالت فتوح المسلمين تتسع في بلاد السند
 والهند في عهد الخليفة المأمون . وفي عهد أخيه المعتصم انتشر الإسلام في البلاد الواقعة بين كابل
 وكشمير والملتان . وفي ذلك يقول البلاذري (٣) : « إن بلاداً يدعى العيسقان بين قشмир والملتان
 وكابل كان له ملك عاقل . وكان أهل ذلك البلد يعبدون صنماً قد بنى عليه بيت وأبدوه . فرض
 ابن الملك ، فدعى سدة ذلك البيت فقال لهم : ادعوا الصنم أن يبرئ ابني ، فغابوا عنه ساعة ،
 ثم أتوه فقالوا : قد دعونا وقد أجابنا إلى ما سألناه ؛ فلم يابث الغلام أن مات ، فوثب الملك
 على البيت فهدمه ، وعلى الصنم فكسره ، وعلى السدة فقتلهم . ثم دعا قوماً من تجار المسلمين
 فعرضوا عليه التوحيد ، فوحّد وأسلم . وكان ذلك في خلافة أمير المؤمنين المعتصم بالله
 رحمه الله . »

(١) فتوح البلدان ص ٤٤٥ . (٢) انظر لفظ المولتان في معجم البلدان لياقوت .

(٣) البلاذري : فتوح البلدان ص ٤٥١ ، وابن الأثير ج ٦ ص ١٧ .

انظر مجلة كلية الآداب ، المجلد السابع ، يولييه ١٩٤٤ : انتصار الإسلام في الهند بقلم حسن إبراهيم

حسن ص ٣ ، ٥ ، ٧ .

الباب الحادي عشر

نظم الحكم

١ - النظام السياسي

(١) مظاهر الخلافة :

وضع أبو جعفر المنصور أساس النظام السياسي الذي سارت عليه الدولة العباسية في العصر العباسي الأول ، وهو النظام الذي كان منتشرأ في الشرق ، وكان مألوفاً عند الفرس منذ أيام إكزركيس Xerxes . وبذلك تمكن العباسيون من أن يحكموا البلاد على النحو الذي كان يحكم به آل ساسان من قبل (١) .

وبقيام الدولة العباسية تطور نظام الخلافة . فان تلك الدولة قد قامت على كواهل الفرس ، الذين سخطوا على الأمويين لعدم تسويتهم بالعرب في الحقوق السياسية والاجتماعية ، مع منافاة ذلك لحق المساواة الذي أقره القرآن والسنة بين البشر . وقد حذا العباسيون حذو الأمويين في تولية العهد لأبنائهم . وكان الفرس يقولون بنظرية الحق الملكي المقدس The Divine Right of Kings ، بمعنى أن كل رجل لا ينتسب إلى البيت المالك ويتولى الملك يعتبر مغتصباً لحق غيره . لذلك أصبح الخليفة العباسي في نظرهم يحكم بتفويض من الله لامن الشعب ، كما يتجلى ذلك من قول أبي جعفر المنصور : « إنما أنا سلطان الله في أرضه » . وذلك يخالف ما كان عليه الخلفاء الراشدون الذين استمدوا سلطانهم من الشعب . يدل على ذلك قول أبي بكر عقب توليته الخلافة : « إن أحسنتم فأعينوني وإن أسأت فقوموني » ، وقول عمر ابن عبد العزيز : « لست بخير من أحدكم ولكني أثقلكم حملاً » .

ويقول السيد أمير علي (٢) : « لقد ظل نظام الحكم في الدولة العباسية استبدادياً إلى عهد الرشيد ، على الرغم من أن أصحاب الدواوين أو البارزين من أفراد البيت العباسي كانوا بمثابة مستشارين غير رسميين . أما الخليفة فكان مصدر كل قوة ، كما كان مرجعاً لكل الأوامر المتعلقة بإدارة الدولة . وكان من أثر ميل الخلفاء العباسيين إلى الفرس أن أصبح نظام الحكم في عهدهم مماثلاً لما كان عليه في بلاد الفرس أيام آل ساسان . يقول بلير (٣) .

(١) كتاب النظام الاسلامي المؤلف من ٢٠٥ .

(٢) A Short History of the Saracens, p.p. 405—6.

(٣) Palmer : Haroun Al-Raschid, p.p. 37—8.

ولما كان العباسيون يدينون بقيام دولتهم للنفوذ الفارسي ، كان طبعياً أن تسيطر الآراء الفارسية . ولهذا فانتا نجد وزيراً من أصل فارسي على رأس الحكومة ، كما نجد الخلافة تدار بنفس النظام الذي كانت تدار به أمبراطورية آل ساسان . واحتجب الخليفة عن رعيته ، واتخذ الوزير والسياف ، فأحيط شخصه بالقداسة والرهبة ؛ وظهرت الأزياء الفارسية في البلاط العباسي ، واحتفل بالنيروز والمهرجان والرام (١) وغيرها من الأعياد الفارسية القديمة . لهذا لانعجب إذا أصبح الخليفة العباسي يعيش معيشة الأكاسرة ، تحوطه الآبهة والعظمة ، وينعني أمامه الداخل عليه ويقبل الأرض بين يديه . وإذا قرب منه قبيل رداه ، وهو شرف لا يناله إلا رجال الدولة البارزون .

أضف إلى ذلك ارتداء الخليفة بردة النبي صلى الله عليه وسلم عند توليته الخلافة ، أو حضوره في الحفلات الدينية ، باعتباره نائباً عنه في حكم المسلمين . كذلك نجد الخليفة العباسي يتلقب بلقب « إمام » ، تؤكد للمعنى الديني في خلافة العباسيين ، بعد أن كان يطلق هذا اللقب في عصر الخلفاء الراشدين والأمويين على من يؤم الناس في الصلاة ، على حين كان الشيعة يطلقونه على أفراد البيت العلوي الذين كانوا يعتقدون أنهم أحق بالخلافة من سواهم . وبعد أن صارت الخلافة العباسية تستند إلى نظرية الحق الإلهي ، قرب الخلفاء إليهم العلماء ورجال الدين لينشروا بين الناس هذه النظرية التي أصبح لها شأن في الحياة السياسية في الدولة العباسية (٢) .

وقد سار العباسيون على نظام تولية العهد أكثر من واحد ، وغلوا في ذلك . فقد عهد السفاح (١٣٢ - ١٣٦ هـ) بالخلافة إلى أخيه أبي جعفر المنصور (١٣٦ - ١٥٨ هـ) ، ثم إلى ابن أخيه عيسى بن موسى بن علي بن عبد الله بن عباس . فلما آلت الخلافة إلى المنصور خلع عيسى بن موسى ، وبايع ابنه المهدي ، وجعل عيسى من بعده (٣) . ولما ولي المهدي (١٥٨ - ١٦٩ هـ) الخلافة خلع عيسى بن موسى من ولاية العهد ، وولى ولديه الهادي ثم هارون الرشيد (٤) . كذلك عول الهادي (١٦٩ - ١٧٠ هـ) على خلع أخيه هارون والبيعة لابنه جعفر ، مقتدياً في ذلك بما فعله أبوه مع عيسى بن موسى ؛ ولم يحترم العهد الذي أخذه على نفسه حين ولاه أبوه عهده ، وضيق على أخيه هارون ، وحط رجال بلاطه من شأنه حتى مال إلى النزول عن حقه ، لولا وفاة الهادي .

جاء هارون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣ هـ) ، فولى عهده أولاده الثلاثة الأمين والمأمون والمؤتمن ، وقسم البلاد بينهم ، وأعطى كلا منهم الفرصة للدفاع عن حقه (٥) ، مما أدى إلى الفرقة وقيام

(١) عيد لهم في اليوم الحادي والعشرين من كل شهر من شهور الفرس ، ومعناه الراحة والفرح .

(٢) أنظر كتاب النظم الإسلامية للدكتور حسن إبراهيم حسن والدكتور علي إبراهيم حسن

ص ٦٣ - ٦٥ .

(٣) الفخرى ص ١٥٥ - ١٥٦ .

(٤) المصدر نفسه ص ١٦٢ .

(٥) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٢١٥ - ٢١٦ .

الفتن والحروب الداخلية . على أن الواثق (٢٢٧ — ٢٣٢ هـ) قد خرج على هذا النظام ، فلم يعهد لابنه محمد . وقد سئل وهو في مرضه الأخير أن يوصى بالخلافة لولده ، فقال كلمته المأثورة : « لا يراني الله أنقلدها حياً وميتاً » ، مقتفياً في ذلك أثر عمر بن الخطاب ومعاوية الثاني . ولا يخفى ما جرت به هذه السياسة من إثارة البغضاء والعداوة بين أفراد البيت المالك ، فإنه لم يكذبهم الأمر لأحد المتنافسين حتى يعمل على التكميل بمن ساعد خصمه على إقصائه من ولاية العهد . وهكذا تطورت المنافسة بين أفراد البيت المالك تطوراً غريباً ، وأصبحت خطراً على كيان الدولة العباسية .

(ب) الوزارة

لما انتقلت الخلافة إلى العباسيين ، اتخذوا نظم الحكم عن الفرس — كما تقدم — ومنها الوزارة . وكان الوزير في عهدهم ساعد الخليفة الأمين ، يقضى باسمه في جميع شئون الدولة ، فكان له الحق في تنصيب العمال والإشراف على الضرائب . فكان بذلك ينوب عن الخليفة في حكم البلاد ، ويجمع في شخصه السلطتين المدنية والحربية ، بجانب الواجبات العادية من نصيح الخليفة ومساعدته . وفي ذلك يقول ابن خلدون ^(١) : « فلما جاءت دولة بني العباس ، واستفحل الملك وعظمت مراتبه وارتفعت ، عظم شأن الوزير ، وصارت إليه النيابة في إنفاذ الحل والعقد ، وتعيّن مرتبته في الدولة ، وعنت لها الوجوه وخضعت لها الرقاب ، وجعل لها النظر في ديوان الحسابان ، لما تحتاج إليه خطته من قسم الأعطيات في الجند . فاحتاج إلى النظر في جمعه وتفريقه ، وأضيف إليه النظر فيه ، ثم جعل له النظر في القلم والترسيل لصون أسرار السلطان ، ولحفظ البلاغة لما كان اللسان قد فسد عند الجمهور . وجعل الخاتم لسجلات السلطان ليحفظها من الذباغ والشياخ ، ودفع إليه . فصار اسم الوزير جامعاً لحطى السيف والقلم ، وسائر معاني الوزارة والمعاونة ، حتى لقد دعى جعفر بن يحيى (البرمكي) بالسلطان أيام الرشيد ، إشارة إلى عموم نظره وقيامه بالدولة ، ولم يخرج عنه من الرتبة السلطانية كلها إلا الحجابة ، التي هي القيام على الباب ، فلم تسكن له لاستنكافه عن مثل ذلك » .

وكان الوزراء في العصر العباسي الأول يخافون على أنفسهم من بطش الخلفاء بهم ، فكان كل منهم يتجنب أن يسمى وزيراً بعد أن مات أبو الجهم على يد المنصور . وكان خالد بن برمك يعمل عمل الوزراء ، ويأبى أن يسمى وزيراً ، على الرغم من علو منزلته عند الخلفاء . وهكذا كان حال الوزارة في أيام المنصور ، بل في الصدر الأول من هذا العصر . وقد استوزر الخليفة المنصور بعد خالد البرمكي أبا أيوب المورياني ، وكان من أهل موريان ^(٢) ،

(١) مقدمة ص ٢٠٧ .

(٢) موريان قرية من نواحي خوزستان : معجم البلدان لياقوت .

اشتراه المنصور صييا قبل أن يلى الخلافة ، فثقفه وعلمه ، واتفق أن أرسله مرة إلى أخيه الخليفة السفاح ومعه هدية له ، فلما رآه أعجب بهيته وفصاحته ، فأبقاه عنده وأعتقه ، وجعله من أخص رجاله المقرين اليه ، وأدر عليه عطاءه وصلاته . وظل على ذلك حتى ولى المنصور الخلافة ، فقلده الوزارة ، وكان نصيبه نصيب من سبقه من الوزراء إلا خالد بن برمك (١) .

وبعد قتل هذا الوزير المنكود الطالع ، استوزر المنصور الربيع بن يونس ، الذى شارك سلفه فى سوء طالع أيام الهادى . وكان نبىلا حازما ، عاقلا فطنا ، خيرا بالأمور الحسائية ، ملمسا بشئون الدولة ، محبا لفعل الخير ، عارفا بآداب الملوك . رأى المنصور يوما فى بستانه شجيرة من شجر يسمى الخلاف ، فلم يدر ما هى ، فقال : يارب ، ماهذه الشجرة ؟ فقال الربيع : إجماع ووفاق ، وكره أن يقال خلاف .

ولم يزل الربيع حائزا ثقة المنصور إلى أن مات ، فقام بأخذ البيعة لابنه المهدي ، وظل على ذلك إلى أن قتله الهادى فى خلافته .

وكانت أعمال الوزارة فى عهد المهدي أوضح ، ويد أصحابها أكثر عملا مما كانت عليه أيام المنصور ، لأن المهدي كان يعتمد على وزرائه بسبب كفايتهم وانشغاله هو بالهوى . وكان أول هؤلاء الوزراء أبو عبيد الله معاوية بن يسار ، الذى تقلد الكتابة للمهدي قبل أن يلى الخلافة . وقد عرف له المنصور فضله ، وعزم على أن يستوزره لنفسه ، ولكنه أثر به ابنه المهدي ، ونصح له أن يعمل برأيه ويتبع مشورته . ولما ولى المهدي الخلافة ، فوض إليه الأمور وسلبه الدواوين .

ولكن معاوية كان متكبرا ، وكان الربيع بن يونس الحاجب يضر له الكراهة والبغضاء لتكبره عليه وعدم اكترائه به ، وأخذ يدس له عند الخليفة (٢) ، فأوغر صدره على ابنه الذى رمى بالزندقة ، وقتل بسبب ذلك ، ثم أمر المهدي بوزيره فحجب عنه ، وزالت سلطته ، واعتزل بداره حتى مات سنة ١٧٠ هـ (٣) .

استوزر المهدي بعد أبي عبيد الله معاوية بن يسار ، أبا عبد الله يعقوب بن داود . ولكن هذا الخليفة نكبه وأودعه السجن ، حيث قضى بقية عهد المهدي والهادى وردحا من أيام هارون الرشيد . ويعزو المؤرخون سبب نكبه إلى تشييعه وميله إلى أولاد عبد الله بن الحسن العلوى على ما تقدم (٤) .

(١) انظر كتاب النظم الاسلامية للدكتور حسن ابراهيم حسن والدكتور على ابراهيم حسن ص ١٤٨ — ١٤٩ .

(٢) الفخرى ص ١٣٤ — ١٣٥ (٣) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٤٨ .

(٤) انظر هذا الكتاب ص ١٤٨ — ١٤٩ .

واستوزر المهدي بعده الفيض بن صالح ، وكان من أهل نيسابور ، وكان نصرانيا فأسلم في أوائل أيام الدولة العباسية ، وأخذ من الأدب وعلو الهمة والبراعة بأوفى نصيب ، كما اشتهر بالسخاء والجود ، حتى كان يحيى بن خالد بن برمك يقول : إذا استعظم أحد كرمه وجوده : « لو رأيتم الفيض لصغر عندكم أمرى » . وما يؤخذ عليه ما كان يظهره من الكبر والتب ، حتى قال بعض الشعراء ينحو عليه باللائمة ويحط من شأنه لزهوه وإعجابه :

أبا جعفر جئتاك نسأل نائلا (١) فأعوزنا من دون نائلك البشر
فما برقت بالوعد منك عَمَامَةٌ يرجى بها من سيب (٢) نائلك القطر (٣)
فلو كنتَ تعطينا المنى وزيادة لنغصّها منك التجبر والكبر
وظل الفيض متربعا في دست الوزارة حتى مات المهدي ، وولى الهادي الخلافة ، فلم يستوزره ومات سنة ١٧٣ هـ .

استوزر الهادي في مبدأ خلافته الربيع بن يونس ، واستوزر بعده إبراهيم بن دكوان الحراني . وكان اتصاله به لأول مرة عن طريق معلمه الخاص ، إذ كان يصحبه عند ذهابه إليه ، تخف على قلب الأمير الصغير ، وألفه حتى إنه لم يكن يصبر على فراقه . وقد اشتدت باين دكوان السعاية إلى المهدي ، فنهى ابنته عن صحبته ، وهدده بالخلع ، وهدد الحراني بالقتل . ولما أعيته الحيل في إبعاده عنه ، أمر المهدي باحضاره إليه ، فحضر وهو على أهبة الركوب إلى الصيد ، فلما رآه حلف بالله ثلاثا ليقبلته عند عودته وأمر بحبس . فأقبل ابن دكوان على الدعاء والتضرع ، ومات المهدي في أثناء غيابه ، وولى الخلافة من بعده ابنه الهادي فاستوزره ، فلم يعمر في الوزارة طويلا لوفاة الهادي بعد قليل (٤) .

وقد ذكر الماوردي (٥) الفرق بين وزارة التفويض ووزارة التنفيذ فقال : « ويكون الفرق بين هاتين الوزارتين بحسب الفرق بينهما في النظرين ، وذلك من أربعة أوجه : أحدها ، أنه يجوز لوزير التفويض مباشرة الحكم والنظر في المظالم ، وليس ذلك لوزير التنفيذ . والثاني ،

(١) نائل عطية .

(٢) السيب العطاء .

(٣) القطر المطر .

(٤) الفخرى ص ١٤٢ — ١٤٣ .

(٥) كتاب الأحكام السلطانية ص ٢٦ .

أنه يجوز لوزير التفويض أن يستبد بتقليد الولاية ، وليس ذلك لوزير التنفيذ . والثالث ، أنه يجوز لوزير التفويض أن ينفرد بتسيير الجيوش وتدير الحروب ، وليس ذلك لوزير التنفيذ . والرابع ، أنه يجوز لوزير التفويض أن يتصرف في أموال بيت المال بقبض ما يستحق له وبدفع ما يجب فيه ، وليس ذلك لوزير التنفيذ . وليس فيما عدا هذه الأربعة ما يمنع أهل الذمة منها ... ولهذا الفروق الأربعة بين النظريين اختلف في أربعة من شروط الوزارتين : أحدها ، أن الحرية معتبرة في وزارة التفويض وغير معتبرة في وزارة التنفيذ ؛ والثاني ، أن الإسلام معتبر في وزارة التفويض وغير معتبر في وزارة التنفيذ ؛ والثالث ، أن العلم بالأحكام الشرعية معتبر في وزارة التفويض وغير معتبر في وزارة التنفيذ ؛ والرابع ، أن المعرفة بأمرى الحرب والخراج معتبرة في وزارة التفويض وغير معتبرة في وزارة التنفيذ . فافترقا في شروط التقليد من أربعة أوجه ، كما اختلفا في حقوق النظر من أربعة أوجه ، واستويا فيما عداها من حقوق وشروط .

ومن أشهر وزراء التفويض في العصر العباسي الأول « آل برمك » ، فقد اتخذ هارون الرشيد خالداً البرمكي وزيراً له وقال له : « قلدتك أمر الرعية ، وأخرجته من عنقي إليك . فاحكم في ذلك بما ترى من الصواب ، واستعمل من رأيت ، واعزل من رأيت » ، وامض الأمور على ما ترى . ودفع إليه خاتمه الخاص ، ثم سلمه خاتم الخلافة حتى صار بيده الحل والعقد في كل شئون الدولة . وخلفه ابنه جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي ، فقبض البرامكة على زمام الأمور ، وأصبحت أموال الدولة في أيديهم ... فعظمت آثارهم وبعده صيتهم ، وعمرُوا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدكم وصنائعهم ، واحتازوها لأنفسهم عن سواهم ، من وزارة وقيادة وكتابة .

استوزر المأمون الفضل بن سهل ، الذي سمي ذا الرياستين ، والوزير الأمير ؛ ثم استوزر أخاه الحسن بن سهل ، وتزوج ابنته بوران . وكانت دولة بني فضل — على ما قاله صاحب الفخرى (١) — في جبهة الدهر غرة ، وفي مفرق العصر درة ، وكانت مختصر الدولة البرمكية . وهم صنائع البرامكة . ثم استوزر أحمد بن أبي دؤاد ، وكان من خيرة الكتاب وأجودهم خطا . ثم جاء بعده وزراء اشتهر بعضهم بالتفقه في الدين والحديث ، ومنهم من برع في الخط . غير أن الوزراء الذين استوزرهم المأمون بعد بني سهل لم يكونوا وزراء تفويض ، وإنما كانوا وزراء تنفيذ ، بمعنى أنه لم يكن لهم استقلال بالأمور ، إذ كان المأمون يدير دولته بنفسه لئلا يستفحل

نفوذ الوزراء ، كما حدث في عهد أبيه الرشيد مع البرامكة ، وفي عهد أخيه الأمين مع الفضل ابن الربيع ، وفي عهده مع بني سهل .

ومن أشهر وزراء التنفيذ في عهد المأمون ومن جاء بعده من خلفاء العصر العباسي الأول أحمد بن أبي خالد . وكان من الموالي ، على جانب كبير من رجاحة العقل ، كما كان كاتباً فصيحاً بصيراً بالأمور . وقد استشاره المأمون في تولية طاهر بن الحسين على خراسان ، فصوب هذا الرأي وضمن هذا التعيين . على أن طاهراً ما لبث أن قطع الخطبة للمأمون لأمور أنكرها عليه الخليفة ، فهدد المأمون وزيره ، لأنه أشار عليه بتولية طاهر ، وصمم على قطع رقبته إذا هو لم يعمل على التخلص من هذا الخارج ، فأرسل الوزير إلى طاهر هدية فيها كواخ مسمومة ، فأكل منها ومات لساعته . أما أحمد بن أبي خالد فكانت وفاته سنة ٢١٠ هـ في أيام المأمون . ومنهم أحمد بن يوسف ، وكان من الموالي كذلك ، كما كان كاتباً أديباً ، شاعراً ، عالماً بأمور الدولة وآداب الملوك . استشاره المأمون في رجل كان يكرهه أحمد ، فوصفه وذكر محاسنه ، فقال له المأمون : يا أحمد ! لقد مدحته على سوء رأيك فيه ومعاداته لك ، فقال : « لأنى لك كما قال الشاعر :

كفى ثمناً بما أسديت أنى صدقتك في الصديق وفي عدائى
وأنى حين تشدبنى لأمر يكون هواك أغلب من هواى

وقد اتخذ الواثق محمد بن عبد الملك الزيات وزيراً أبيه ، وكان منحرفاً عنه قبل توليته الخلافة ، لكنه لما استخلف لم يجد بين رجاله من يقوم مقام هذا الوزير ، فاعتمد عليه في إدارة شئون دولته . وقد ذكر لنا صاحب كتاب الفخرى في الآداب السلطانية السبب الذى من أجله انحرف الواثق قبل خلافته على ابن الزيات ، وكيف اضطر هذا الخليفة إلى اتخاذه كاتباً له ووزيراً فقال : « كان المعتصم قد أمر لابنه الواثق بمال ، وأحاله به على ابن الزيات ، فنفعه وأشار على المعتصم ألا يعطيه شيئاً . فقبل المعتصم قوله ، ورجع فيما كان أمر به للواثق من ذلك ، فكتب بخطه كتاباً بالحج والعنق والصدقة أنه إن ولى الخلافة ليقطن ابن الزيات شر قتلة . فلما مات المعتصم وجلس الواثق على سرير الخلافة ، ذكر حديث ابن الزيات ، فأراد أن يعاجله ، فخاف ألا يجد مثله ، فقال للحاجب : ادخل إلى عشرة من الكتاب . فلما دخلوا عليه اختبرهم ، فما كان فيهم من أَرْضاه ، فقال للحاجب : ادخل من الملك محتاج إليه محمد بن الزيات ، فأدخله ، فوقف بين يديه خائفاً ، فقال لخدام : أحضر إلى المكتوب الفلانى ، فأحضر له الكتاب الذى كان كتبه ، وحلف فيه ليقطن ابن الزيات ، فدفعه إلى ابن الزيات وقال : اقرأه ! فلما قرأه قال : يا أمير المؤمنين أنا عبثه إن عاقبته فأنت حاكم فيه ، وإن كفرت عن يمينك

واستبقيته كان أشبه بك ، فقال الواثق : والله ما أبقيتك إلا خوفا من خلو الدولة من مثلك ، وسأ كفر عن يميني ، فأتى أجد عن المال عوضا ، ولا أجد عن مثلك عوضا ، ثم كفر عن يمينه واستوزره . وما لبث ابن الزيات حتى أصبح صاحب الأمر والنهي أكثر مما كان في عهد المعتصم (١) .

وكان ابن الزيات شاعرا مجيدا ، فن شعره يرثي المعتصم ويمدح الواثق :

قلتُ إذ غيبوك واصطفقت عليك أيدٍ بالماء والطين
إذهب فنعيم المعين أنت على الدنيا ونعم المعين للدين
لا يجبر الله أمة فقدتُ مثلك إلا بمثل هارون
(ج) الكتابة :

لما كثرت أعمال الوزراء في العصر العباسي الأول ، أصبح من الضروري تعيين موظفين يعاونون الوزير للإشراف على الدواوين المختلفة وإدارة شئونها . ومن أشهر الكتاب في هذا العصر كاتب الرسائل ، وكاتب الخراج ، وكاتب الجند ، وكاتب الشرطة ، وكاتب القاضي . ومهنة كاتب الرسائل إذاعة المراسيم والبرامات وتحرير الرسائل السياسية وختمها بخاتم الخلافة بعد اعتمادها من الخليفة ، ومراجعة الرسائل الرسمية ووضعها في الصيغة النهائية وختمها بخاتمها ، كما كان يجلس مع الخليفة في مجلس القضاء للنظر في المظالم وختم الأحكام بخاتم الخليفة (٢) . وكان كاتب الرسائل يتولى مكاتبة الأمراء والملوك عن الخليفة . وكثيراً ما كان الخليفة يتولى ذلك بنفسه ؛ فقد أثار عن أبي جعفر المنصور ، أنه لما جاءه كتاب محمد النفس الزكية ، هم كاتبه أن يجيبه ، فقال له المنصور : لا ، بل أنا أجيبه ، إذ تقارعنا على الأحساب فدعني وإياه .

وقد زخر العصر العباسي الأول بطائفة من الكتاب لم يسمح الدهر بمثلهم . فقد اشتهر يحيى بن خالد البرمكي ، والفضل بن الربيع في عهد هارون الرشيد ، والفضل والحسن ابنا سهل واحمد بن يوسف في عهد المأمون ، واشتهر محمد بن عبد الملك الزيات والحسن بن وهب واحمد ابن المدبر في عهد المعتصم والواثق .

وقد حرص الخلفاء على أن تدون الرسائل بأسلوب شائق بليغ ، كما حرصوا على اختيار كتابهم من رجال الأدب من أعرق الأسر ، ومن عرفوا بسعة العلم ورصانة الأسلوب (٣) .

(١) الفخري ص ١٢٥ — ١٢٦ .

(٢) ابن خلدون : مقدمة ص ٢٠٥ — ٢٠٦ .

(٣) كتاب النظم الاسلامي للمؤلف ص ١٨٠ — ١٨١ ، الجهمياري : كتاب الوزراء والكتاب

(د) الحجابة :

كان الخلفاء الراشدون لا يمتنعون أحداً من الدخول عليهم ، بل كانوا يخاطبون الناس على اختلاف مراتبهم بلا حجاب . فلما انتقل الحكم إلى بني أمية اتخذ معاوية بن أبي سفيان ومن جاء بعده من الخلفاء الحجاب بعد حادثة الخوارج مع علي ومعاوية وعمرو بن العاص ، وذلك خوفاً على أنفسهم من شر الناس ، وتلافياً لآزدهامهم على أبوابهم ، وشغلهم عن النظر في مهام الدولة .

والحاجب موظف كبير يشبه كبير الأمناء في أيامنا . وكان يشغل منصباً سامياً في القصر ، ومهمته إدخال الناس على الخليفة مراعيًا في ذلك مقامهم وأهمية أعمالهم .

وقد اقتدى الخلفاء العباسيون ببني أمية ، فاتخذوا الحجاب ، وزادوا في منع الناس عن ملاقاتهم إلا في الأمور الهامة ، وهذا ما يسميه ابن خلدون بالحجاب الثاني . فصار بين الناس وبين الخليفة داران : دار الخاصة ودار العامة ، يقابل كل طائفة في مكان معين على ما يراه الحجاب . ثم تطرقوا عند انحطاط الدولة إلى حجاب ثالث أشد من الأولين .

وقد علت مرتبة الحاجب بارتقاء الحضارة الإسلامية في أيام العباسيين ، فأصبح يستشار في كثير من أمور الدولة ، ويستبد بالنفوذ دون الوزير ، ويلزم أصحاب الدواوين بالرجوع إليه في كل أمور الدولة ، ويحتم عليهم ألا يفصلوا في الأعمال إلا بعد موافقته (١) .

ومن أبرز الحجاب في العصر العباسي الأول : الفضل بن الربيع ، الذي أوقع بالبرامكة عند الرشيد وأشعل نار الفتنة بين الأمين وأخيه المأمون ، وإيتاخ حاجب الخليفة الواثق . ويقول البيهقي (٢) : قال الواثق لابن أبي دؤاد : « من أولى الناس بالحجبة ؟ » فقال : مولى شقيق يصون لطلاقة وجهه من ولاءه ، ويستعبد الناس لمولاه ؛ فنظر الواثق إلى إيتاخ — وكان واقفاً على رأسه — فقال : قد ولاء أبو عبد الله الحجبة . فكان إيتاخ يعرف ذلك ، ويتقدم بين يديه إلى أن يبلغ مرتبته .

٢ - النظام الإداري

(١) الإمارة على البلدان :

كان النظام الإداري في العصر العباسي الأول نظاماً مركزياً ، وأصبح العمال على الأقاليم مجرد عمال لا ولاية مطلقى السلطة ، بعكس ولاية الأمويين كالحجاج بن يوسف الثقفي وزيد بن

(١) Metz: The Renaissance of Islam, p. 15.

(٢) كتاب المحاسن والمساوي ج ١ ص ١٢٤ .

أبيه ، كما أنهم لم يكونوا من الشخصيات البارزة . ولذلك استحال النظام اللامركزي إلى نظام مركزي ، مما يشعر بتقلص نفوذ العمال . وكان من أهم الموظفين في الولايات الإسلامية في العصر العباسي الأول : صاحب بيت المال ، وصاحب البريد ، والقاضي ، واقتصر عمل والي على الصلاة وقيادة الجند .

ويقول سيد أمير على (١) : أما الإدارة فكانت قائمة على قواعد محدودة مماثلة للنظم الحديثة في الأمم المتحضرة ، بل قد يمكن القول إنها كانت متقدمة من بعض الوجوه عما هي عليه في أيامنا هذه . فكانت كل مناصب الدولة ، كما كان الحال في الدولة العثمانية ، مفتوحة أمام كل من المسلمين واليهود والنصارى على السواء .

وكان الخليفة العباسي في هذا العصر يختار عمال الأقاليم بنفسه لإدارة شئونها . بيد أن سلطتهم المدنية والقضائية لم تكن خالصة من كل قيد ، فلم يترك العامل في ولايته زمناً طويلاً . وإذا عزل عن منصبه طلب منه أن يقدم بياناً مفصلاً عن شئون ولايته . وكان أقل شك في صدقه كافياً لمصادرة أملاكه جميعها . وفي أيام المنصور لم تكن مهمة والي بأى حال أكثر من وظيفة صورية .

وقد ذكر الماوردي (٢) أن الأماراة على الأقاليم كانت ثلاثة أنواع :

١ — إمارة الاستكفاء : وفيها يفوض الخليفة إلى والي إمارة بلد أو إقليم ، فيشمل نظره فيه على سبعة أمور : أحدها النظر في تدبير الجيوش وترتيبهم في النواحي وتقدير أرزاقهم ، إلا أن يكون الخليفة قدرها فيذرهما عليهم ، والثاني النظر في الأحكام وتقليد القضاة والحكام ، والثالث جباية الخراج وقبض الصدقات وتقليد العمال فيهما وتقريب ما يستحق منهما ، والرابع حماية الدين والذب عن الحرم ومراعاة الدين من تغيير أو تبديل ، والخامس إقامة الحدود في حق الله وحقوق الآدميين ، والسادس الإمامة في الجمع والجماعات حتى يؤم بها أو يستخلف عليها ، والسابع تسيير الحجيج من عمله ومن سلكه من غير أهله حتى يتوجهوا معانين عليه . فإن كان هذا الإقليم ثغراً متاخماً للعدو ، اقترن بها ثامن ، وهو جهاد من يليه من الأعداء وقسم غنائمهم في المقاتلة وأخذ خمسها لأهل الخمس .

٢ — إمارة الاستيلاء : وهي أن يستولى أحد الأمراء قسراً على ولاية من الولايات ، فيضطر الخليفة إلى إقراره عليها ويفوض إليه تدبيرها وسياستها .

(١) Sayed Ameer Aly: A Short History of the Saracens, pp. 408—9.

والنظم الإسلامية للمؤلف من ٢٠٤ — ٢٠٦ .

(٢) الأحكام السلطانية ص ٢٨ — ٣٤ .

٣ — الإمارة الخاصة : بمعنى أن يقصر الخليفة عمل الوالى على تدبير الجيش وسياسة الرعية ، وحماية البيضة والذب عن الحرم ، دون التعرض للقضاء والأحكام أو لجباية الخراج والصدقات . وكانت الدولة العباسية فى عهد السفاح تنقسم سياسيا إلى عدة ولايات هى :

(١) الكوفة والسواد (٢) البصرة وإقليم دجلة والبحرين وعمان (٣) الحجاز واليامة (٤) اليمن (٥) الأهواز ويشمل خوزستان وسستان (٦) فارس (٧) خراسان (٨) الموصل (٩) الجزيرة وأرمينية وأذربيجان (١٠) سورية (١١) مصر وإفريقية (١٢) السند .

وقد فصل السفاح فيما بعد فلسطين عن الشام ، كما فصل أرمينية وأذربيجان عن الجزيرة وجعل منهما ولايتين . وأصبحت صقلية تابعة لولاية إفريقية . واستمرت إفريقية تحت إشراف والى مصر إلى أن استقل إبراهيم بن الأغلب بحكم هذه الولاية استقلالاً داخلها فى عهد هارون الرشيد (١) .

وقد جرت العادة أن يولى الخلفاء العباسيون الولايات الإسلامية البعيدة بعض أفراد البيت العباسى وأكابر القواد . غير أن هؤلاء وأولئك قد آثروا البقاء فى بغداد أو فى سامرا ، وأنابوا عنهم نوابا يحكمون هذه الولايات باسمهم . ولم يكن هذا التقليد الجديد شديد الخطر على سلامة الدولة العباسية وهى فى قوتها . على أنه لما ضعفت السلطة المركزية ، ساءت الحالة فى هذه الولايات ، وجنح بعض نواب الولاة إلى الاستقلال ، فظهرت فى مصر الدولتان الطولونية والإخشيدية ، وظهرت فى المشرق الدول الطاهرية والصفارية والسامانية وغيرها .

وقد ظل نظام الحكم فى الدولة العباسية كما وضعه المنصور إلى عهد الرشيد ، على الرغم من أن أصحاب الدواوين وأفراد البيت العباسى كانوا بمثابة مستشارين غير رسميين . أما الخليفة فكان مصدر كل قوة ، كما كان مرجع كل الأوامر المتعلقة بإدارة الدولة . ولكن ظهر بتوالى الأيام أن هذه الأعباء كانت مرهقة لا يستطيع القيام بها رجل واحد ؛ ومن ثم أصبح من الضرورى تعيين موظفين يعاونون الوزير فى الإشراف على الدواوين المختلفة وإدارة شئونها .

(ب) الدواوين .

وكان النظام الإدارى فى العصر العباسى الأول من حيث توزيعه للعمل ، يعادل خير النظم الحديثة . وهاك أهم دواوين الدولة التى كانت تشبه الوزارات فى العهد الحاضر :

ديوان الخراج ، وديوان الدية ، وديوان الزمام ، وديوان الجند ، وديوان الموالى والغلمان (وتسجل فيه أسماء موالى الخليفة وعبيده) ، وديوان البريد ، وديوان زمام النفقات ، وديوان الرسائل ، وكانت مهنة صاحبه إذاعة المراسيم والبراءات وتحرير الرسائل السياسية وختمها بخاتم الخلافة ، وديوان النظر فى المظالم ، وديوان الأحداث والشرطة ، وديوان العطاء ، وديوان الحوامج ، وديوان الأحشام ، وديوان المنح أو المقاضاة ، وديوان الأكرة للإشراف على الترع والجسور وشئون الري .

وكان ديوان الأزمّة أو الزمام (ويشبه ديوان المحاسبة اليوم) ، الذى أنشأه الخليفة المهدي ، من أهم دواوين الدولة (١) . وكانت مهمة صاحب هذا الديوان جمع ضرائب بلاد العراق أغنى أقاليم الدولة العباسية ، وتقديم حساب للضرائب فى الأقاليم الأخرى . ومن اختصاص صاحب هذا الديوان جمع الضرائب النوعية المسماة بالمعاون ، التى كانت تجمع لرجل يضبطها بزمام يكون له على كل ديوان ، فيتخذ دواوين الأزمّة ويولى على كل منها رجلا . وقد أنشأ العباسيون ديوانا سموه ديوان النظر أو المسكبات والمراجعات ، وينقسم أربعة أقسام : ديوان الجيش وفيه الإثبات والعطاء ، وديوان الأعمال ويتولى الرسوم والحقوق ، وديوان العمال ويختص بالتقليد والعزل ، وديوان بيت المال وينظر فى الدخل والخرج (٢) .

وكانت هناك إدارة خاصة تنظر فى مصالح غير المسلمين ويدعى رئيسها كاتب الجهباز . ولم تكن الحكومة العباسية تتدخل فى شئون الجماعات إلا بمقدار ، بل كانت كل بلدة أو قرية تدير شئونها الخاصة بنفسها ، ولا تتدخل الحكومة إلا فى حالة نشوب الفتن أو الامتناع عن دفع الضرائب ، غير أنها — مع ذلك — كانت تقوم بالرقابة الفعالة على جميع الشئون التى تتصل بالزراعة والري من بناء القنوات وترميمها (٣) .

(ج) البريد :

كان للبريد ديوان كبير فى بغداد له محطات على طول الطريق . وقد ظل حمام الزاجل مستخدما فى نقل الرسائل حتى عهد الخليفة المعتصم . وساعدت معالم الطرق التى أقامتها الدولة التجار فى أسفارهم ، كما كانت أساسا للبحوث الجغرافية . إلا أن البريد كان خاصا بأعمال الدولة ، لا لنقل

(١) Sayed Ameer Aly : A Short History of the Saracens, p. 415.
& Von Kremer : Cultur - Geschichte des Orients, translated by : Khuda Bukhsh : The Orient under the Caliphs, pp 235—8

(٢) النظم الإسلامية المؤلف من ٢٢٢ — ٢٢٣ .

(٣) المصدر نفسه من ٢٢٢ .

رسائل الجمهور ، ومن ثم كان مصلحة من مصالح الدولة الخاصة . فكان صاحب البريد يراقب العمال ، ويتجسس على الأعداء ، ويقوم بالأعمال التي يقوم بها رئيس قلم المخابرات في وزارة الدفاع الآن . وكانت مهمة صاحب البريد أول الأمر توصيل الأخبار إلى الخليفة من عماله في الأقاليم ، ثم توسعوا فيه حتى جعلوا صاحبه عيناً للخليفة ، ينقل أوامره إلى ولاته ، كما ينقل أخبار ولاته إليه (١) .

وقد اهتم الخلفاء العباسيون بهذا النظام واعتمدوا عليه اعتماداً كبيراً في إدارة شئون دولتهم . وكان أبو جعفر المنصور يقول : « ما كان أحوجني إلى أن يكون على بابي أربعة نفر ، لا يكون على بابي أعف منهم ، فليل له يا أمير المؤمنين من هم ؟ قال : هم أركان الملك ، لا يصلح الملك إلا بهم ، كما أن السرير لا يصلح إلا بأربعة قوائم ، إن نقصت واحدة وهى : أما أحدهم فقاض لا تأخذه في الله لومة لائم ، والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوى ، والثالث صاحب خراج يستقصى ولا يظلم الرعية فاني عن ظلمها غنى ، والرابع . . . ثم عض على إصبعه السبابة ثلاث مرات ، يقول في كل مرة : آه آه . قيل له : ومن هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : صاحب بريد يكتب إلى بخبر هؤلاء على الصحة ، (٢) .

وكانت عين المنصور ساهرة لاتنام عن عماله ، وما يأتونه في أعمالهم من خير أو شر ؛ وقد كتب إليه عامل البريد عن واليه في حضر موت أنه يكثر الخروج في طلب الصيد ، فكتب إلى هذا الوالى : « ثكلتك أمك ، وعدمتك عشيرتك ، ماهذه العدة التي أعددتها للنسكية في الوحش ؟ إنا إنما استكفيناك أمور المسلمين ولم نستكفك أمور الوحش ، سلم ما كنت تلى من عملنا إلى فلان بن فلان ، والحق بأهلك مذموماً مدحوراً ، (٣) .

وقد استخدم أبو جعفر المنصور عمال البريد الذين كانوا عيوناً له وعونا على الإشراف على أمور دولته ، وبواسطتهم كان يقف على أعمال الولاة ، وعلى ما يصدره القضاة من الأحكام ، وما يرد بيت المال من الأموال وما إلى ذلك . كما كان ولاية البريد يوافونه بأسعار الحاجيات من قمح وحبوب ، وأدب وماكولات وغيرها . وبلغ من انتظام إدارة البريد في عهده أن عماله كانوا يوافونه بذلك مرتين في كل يوم . فاذا صلى المغرب وافوه بما حدث طول النهار ، وإذا صلى الصبح كتبوا إليه بما جرى في الليل من أمور . وبهذا كان يقف المنصور على كل ما يحدث في الولايات الإسلامية . لذا كان شديد الاتصال بولاته ، فيوقف القاضى عند حده إذا ظلم ،

Von Kremer : Orient Under the Caliphs, p. 233 seq. (١)

(٢) الطبرى ج ٩ ص ٢٩٧ .

(٣) المصدر نفسه ج ٩ ص ٣١٤ ، مروج الذهب ج ٢ ص ٢٣٢

ويرجع السعر إلى حالته الأولى إذا غلا . وإن رأى تقصيراً من أحدهم وبخه ولامه أو عزله من عمله مهانا .

ويقول فون كريم^(١) عن نظام البريد في عهد العباسيين : « إنه كان على رأس كل مصلحة في الولايات الكبيرة عامل بريد ، مهمته موافاة الخليفة بجميع الشؤون الهامة ، والإشراف على أعمال الوالى ، كما كان بعبارة أخرى ، مندوباً أولته الحكومة المركزية ثقها . وعلى الرغم من كل ذلك ، فقد بدأ الولاة يستقلون بولاياتهم شيئاً فشيئاً ، حتى أصبحت ولاية هذه الأقاليم وراثية . ولا غرو فقد كان ولاية الأقاليم الكبيرة يولون من قبلهم الولاة ، وسرعان ما خرجت مقاليد الأمور في حاضرة الدولة نفسها من أيدي الخلفاء . »

(د) الشرطة :

ومن النظم الإدارية الهامة في العصر العباسى الأول نظام الشرطة . يقول ابن خلدون^(٢) : « وكان أصل وضعها في الدولة العباسية لمن يقيم أحكام الجرائم في حال استبدائها أولاً ، ثم الحدود بعد استيفائها . فان التهم التى تعرض في الجرائم لانظر للشرع إلا في استيفاء حدودها ، وللسياسة النظر في استيفاء موجباتها باقرار يكرهه عليه الحاكم إذا احتفت به القرائن ، لما توجه المصلحة العامة في ذلك . فكان الذى يقوم بهذا الاستبداء ، وباستيفاء الحدود بعده إذا تنزه عنه القاضى ، يسمى صاحب الشرطة . وربما جعلوا إليه النظر في الحدود والدماء باطلاق ، وأفردوها من نظر القاضى ، ونزوها هذه المرتبة ، وقلدوها كبار القواد وعظماء الخاصة من مواليم . ولم تكن عامة التنفيذ من طبقات الناس ، إنما كان حكمهم على الدماء وأهل الرتب والضرب على أيدي الرعاع والفجرة . ثم عظمت نباهتهم في دولة بنى أمية بالآندلس ، ونوعت إلى شرطة كبرى وشرطة صغرى ، وجعل حكم الكبرى على الخاصة والدماء ، وجعل له الحكم على أهل المراتب السلطانية والضرب على أيديهم في الظلامات ، وعلى أيدي أقاربهم ومن إليهم من أهل الجاه ، وجعل صاحب الصغرى مخصوصاً بالعامية . ونصب لصاحب الكبرى كرسى بباب دار السلطان ، ورجال يتبوءون المقاعد بين يديه ، فلا يبرحون عنها إلا في تصريحه . وكانت ولايتها لا كابر من رجالات الدولة ترشيحاً للوزارة والحجابة . » وكان صاحب الشرطة يختار من عالية القوم ومن أهل العصبة والقوة . وهو أشبه بالمحافظ في هذا العصر ، لأنه عبارة عن رئيس الجند ، الذين يساعدون الوالى على استتباب الأمن وحفظ النظام والقبض على الجناة والمفسدين .

Orient Under the Caliphs, p. 232 seq. (١)

(٢) مقدمة ص ٢١٨ — ٢١٩

٣ — النظام الحربى :

وقد بلغ عدد الجيش فى عهد الخلفاء العباسيين مئات الألوف من الجنود الذين كانوا يكونون الجيش النظامى للدولة . وكانت رواتبهم تدفع لهم بانتظام . ثم قلت أرزاقهم تبعا لقلّة عددهم . ولما بلغت قوة العباسيين أشدها فى بغداد ، أصبح الجندى يتقاضى راتبا شهريا قدره عشرون درهما (والدرهم يساوى أربعة قروش تقريبا) . وبجانب الجنود النظامية طائفة أخرى من الجنود المتطوعة من البدو ، وطبقة الزراع وسكان المدن الذين اشتركوا فى الحروب ، مدفوعين بعوامل دينية أو مادية .

وكان تقسيم الجنود تابعا لجنسية أفرادهم : فمنهم الحربية ، وهم الفرسان الذين كانوا يتسلحون بالرمح وهم من جنود العرب ، والمشاة وكانوا من الفرس ولا سيما الخراسانيين . وكان الجنود العربى حتى آخر عهد الدولة الأموية من العرب . ولما جاءت الدولة العباسية بمساعدة الفرس ، دخل فى الجيش العربى العنصر الفارسى الذى تغلغل نفوذه فى جسم الدولة .

ولم يكن اعتماد الخلفاء العباسيين على الفرس راجعا إلى مساعدة هؤلاء لهم فى تأسيس دولتهم ، بل كان راجعا أيضا إلى العصبية التى كانت تشتعل نارها بين الجنود العربى من حين إلى حين ، حتى إن أبا جعفر المنصور فكر فى تأسيس السرخ جنوبى بغداد ، ليمعده عنه خطر جنده من التمنية والمضربة (١) . فقد تعرض عربى من عرب الشمال للخليفة المأمون مرارا وقال له : « أنظر لعرب الشام كما نظرت إلى عجم خراسان . قال : أكثرت على يا أخا الشام ، والله ما أنزلت قيسا عن ظهور الخيل إلا وأنا أرى أنه لم يبق فى بيت مالى درهم واحد . وأما اليمن فوالله ما أحببتها وما أحببتى قط ، وأما قضاة فسادتها تنتظر السفيانى وخروجه فتكون من أشياعه ، وأما ربيعة فساخطة على الله مذ بعث الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم من مضر ، ولم يخرج اثنان إلا خرج أحدهما شاريا أعزب فعل الله بك ، » .

وقد علق الخضرى (٢) . على هذه العبارة بقوله : « وهذا تصريح عظيم من المأمون . وهو يدل على أن تلك القوة العربية التى كان العالم الإسلامى يحس بوجودها ، وتخشى الخلفاء سيطرتها وانحرافها ، قد اتضعت ، فاجترأ خليفة المسلمين أن يحجر بمثل هذا القول على ملاء من الناس . ولما كان جيش الدولة هو الذى يدل على حقيقة أمرها ، كان من الواضح

أن الدولة ليس لها من العربية إلا الالة . أما العصبية العربية للعنصر العربي فقد أشرفت على الإخماء . .

ولما ولي المعتصم الخلافة سنة ٢١٨ هـ ، رأى أن دولته الواسعة لا بد أن يقوم بحراستها جيش قوى ، فاستكثر من الأتراك ، لأن أمه كانت تركية ، فولاهم حراسة قصره ، وأسند إليهم أعلى المناصب ، وقدمهم الولايات الكبيرة ، وآثرهم على الفرس والعرب في كل شيء ، فدبت الغيرة والحسد في نفوس القواد ، وبخاصة العرب ، فعملوا على التخلص منهم ، وأغروا العباس ابن المأمون بالمطالبة بالخلافة ، ودبروا المكائد للتخلص من المعتصم ، ولكنه قضى على هذه المؤامرة وقتل العباس كما تقدم .

وكان من أثر هذه المؤامرة أن أقصى المعتصم القواد من العرب والفرس تدريجياً ، ومحا أسماءهم من ديوان العطاء ، وزاد اعتماده على الأتراك ، حتى أربى عددهم على السبعين ألفاً (١) .

من هذا نرى أن العصبية في الجيش لم تقتصر على العصبية العربية القبلية بين اليمنية والمضرية ، بل تعدت ذلك إلى العصبية القومية التي قامت بين الترك والعرب ، تلك العصبية التي ظهرت في عهد المعتصم وكادت تودي بحياته حين سار لمحاربة الإمبراطور البيزنطى تيوفيل . إلا أن المجال لم يتسع لها ، لأن الأتراك أقصوا العرب نهائياً ، وأصبح لهم الأمر والنهى ، فاندمجوا في الأهليين واشتغلوا بالزراعة والصناعة والتجارة .

وتبين وصف الآلات الحربية التي استعملها العباسيون مما ذكره المسعودى (٢) عن حصار جند المأمون ببغداد :

« ونصب له (هرثمة بن أعين) على بغداد المنجنىقات ، ونزل في رقة كواذى والجزيرة ، فتأذى الناس به ، وصعد نحوه خلق من العيارين (٣) وأهل السجون — وكانوا يقاتلون عراة في أوساطهم التبايين (٤) والمآزر (٥) . وقد اتخذوا لهم وسهم دواخل من الخوص سموها

(١) أنظر كتاب النظم الإسلامية الدكتور حسن إبراهيم حسن والدكتور على إبراهيم حسن ، ص ٢٢٨ — ٢٣٠ .

(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٣٠٧ — ٣٠٨ .

(٣) قوم يخفون نهراً ويظهرون ليلاً ، وهم اللصوص .

(٤) التبايين : جمع تباين (بالضم والتشديد) وهى سراويل صغيرة مقدار شبر تستر العورة المغلظة فقط ، تكون للملاحين والمصارعين .

(٥) المآزر : جمع مئزر ، وهو الملحفة ، وكل ما سترك .

الخنوذ ، ودرقا^(١) من الخوص والبواري^(٢) قد قيرت^(٣) وحشيت بالخصى والرمل ، على كل عشرة عريف ، وعلى كل عشرة عرفاء نقيب ، وعلى كل عشرة نقباء قائد ، وعلى كل عشرة قواد أمير . ولسكل ذى مرتبة من الركوب على مقدار ماتحت يده . فالعريف له أناس مركبهم غير من ذكرنا من المقاتلة ، وكذلك النقيب والقائد والأمير ، يركبون أناسا عراة قد جعل في أعناقهم الجلاجل والصوف الأحمر والأصفر ومقاود قد اتخذت لهم ، ولجم وأذنان من مكائس ومذاب ، فيأتى العريف وقد أركب واحداً ، وقدامه عشرة من المقاتلة . . . ويأتى النقيب والقائد والأمير كذلك . فتقف النظارة ينظرون إلى حربهم مع أصحاب الخيول الفره^(٤) والجواشن^(٥) والدروع والتجافيف^(٦) والرماح والدرق التبتية^(٧) .

وكان عرض الجيش جزءاً من تدريب الجنند في أوائل عهد الدولة العباسية ، وخاصة في عهد أبي جعفر المنصور الذى اهتم بالشئون الحربية اهتماماً كبيراً . وكان يلذ له أن يعرض جنده وهو جالس على عرشه ، لابسا خوذه . وكانت الجنود تصفأمامه في ثلاثة أقسام : عرب الشمال (مضر) ، وعرب الجنوب (اليمن) والخراسانيون^(٨) .

٤ — النظام المالى :

تعمل السياسة المالية لسكل دولة على تحقيق التوازن بين مواردها ومصارفها . وقد سارت الدولة الإسلامية على هذه السياسة منذ ظهورها ، فأنشأت بيتا للمال ، يقوم على صيائمه وحفظه والتصرف فيه لصالح الجماعة الإسلامية . وهو يشبه وزارة المالية ، وصاحبه يقوم مقام وزير المالية فى الوقت الحاضر .

(١) الدرق : جمع درقة ، الجحفة ، وهى ترس من جلود ليس فيه خشب ولا عقب .

(٢) البواري ، جمع بورى أو بورية ، وهو الحصير المنسوج من القصب ، فارسى معرب .

(٣) قير الشيء : طلاه بالقار ، وهو الزيت .

(٤) الفره : جمع فاره ، وهو النشيط .

(٥) الجوشن : مثل الزرد يلبس على الظهر ، والفرق بينه وبين الزرد أن الزرد يكون من حلقة واحدة فقط ، والجوشن حلقة يتداخل فيها صفائح رقيقة من التنك .

(٦) التجافيف جمع تجفاف ، وهو ماجلل به الفرس من سلاح وآلة تقيه الجراح .

(٧) هذه النسبة إلى « تبت » بلدة بأرض الترك .

(٨) كتاب النظم الإسلامية ص ٢٣٢ — ٢٣٥ .

وأهم موارد بيت المال : الخراج ، الجزية ، الزكاة ، والفيء ، والغنيمة . والعشور (١) . وقد زادت الضرائب في عهد بني أمية على ما كانت عليه في عهد الخلفاء الراشدين ، إذ لم يراع الخلفاء القواعد التي قررها أسلافهم ، بل تجاوزوا حدود الضرائب التي فرضوها ؛ وسن الأمويون نظاما دقيقا للإشراف على جباية الأموال . ففي عهد عبد الملك بن مروان كان يعمل تحقيق دقيق مع الجباة وموظفي الخراج عند اعتزلهم أعمالهم الإدارية . وكان للتحقيق مع هؤلاء أما كن خاصة تسمى « دار الاستخراج » ، (٢) .

وفي العصر العباسي الأول كانت هناك ثلاث طرق لجباية الخراج :

١ — المحاسبة ، وهي إما أن تكون نقدا أو نوعا أو هما معا .

٢ — المقاسمة ، وهي ضريبة نوعية تؤخذ من المحصول .

٣ — المقاطعة ، وهي ضريبة تجبي بمقتضى اتفاقات معينة بين الحكومة والخاصة . ويدخل في هذا النظام معظم أراضي التاج . وكثيراً ما كان يعني البعض من دفع الضرائب ، حتى في العهود التي ساد فيها العمر والجذب . مثال ذلك أن الخليفة المعتضد العباسي تجاوز عن ربع الضريبة بارجائه السنة المالية من منتصف مارس إلى ١٧ يونية (ربيع الأول) ، ثم بارجائها مرة أخرى إلى ٢١ يولية .

وإذا ذكرنا رخاء الدولة وحسن حالة الزراع ونفاق التجارة ، لانهجب إذا علمنا أن دخل الدولة العباسية في عهد هارون الرشيد قد بلغ ٢٧٢,٠٠٠,٠٠٠ درهم وأربعة ملايين ونصف من الدنانير في السنة (٣) .

وقد اهتم العباسيون بالخراج اهتماما عظيما ، وعلى الأخص في عهد هارون الرشيد ، الذي أمر أبا يوسف يعقوب بن ابراهيم الأنصاري صاحب الإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت ، ومن أشهر فقهاء عصره ، أن يكتب في الخراج كتابا جامعا « يعمل به في جباية الخراج والعشور والصدقات والجوالى (٤) » ، وغير ذلك مما يجب عليه النظر فيه والعمل به . وإنما أراد بذلك رفع

(١) راجع كتاب النظم الاسلامية للدكتور حسن ابراهيم حسن والدكتور على ابراهيم حسن من ٢٦٥ — ٢٨٥ ، لمعرفة طرق جباية الضرائب ووسائل الانتفاع بكل منها في عهد الخلفاء الراشدين ، (٢) نفس المصدر ص ٢٧٠ .

(٣) Sayed Ameer Ali, p. 426 et seq.

(٤) الجوالى هي اختيار الأحسن من كل شيء ، سواء أكان من المتسلكات أو من الشاء ، الهزيل منها والصغير . وربما كانت هذه هي وظيفة العامل في الزكاة . الفاطميون في مصر للمؤلف ص ١٨٣ هامش رقم (٢) .

الظلم عن رعيته والصالح لأمرهم، (١). وقد بين أبو يوسف في هذا الكتاب الطريقة المثلى لتنظيم جباية الخراج وغيره من موارد بيت المال، فسمى كتابه «كتاب الخراج»، وفي هذا الكتاب تناول المؤلف الكلام على ثلاثة أمور:

الأول — موارد بيت المال، وتنقسم ثلاثة أقسام:

(١) خمس الغنائم.

(٢) الخراج ويدخل تحته ما يسمى وظيفة الأرض الخراجية ثم جزية أهل الذمة، ثم العشور. وقد حدثت في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ ومن ثم لم يرد لها ذكر في القرآن الكريم. وحدّ أرض الخراج: كل أرض من أراضي الأعاجم ظهر عليها المسلمون عنوة فلم يقسمها الإمام، وأبقاها بأيدي أهلها، أو صالحهم عليها وصيرهم ذمة. ويخرج من ذلك أنواع من الأرض لا يوضع عليها الخراج، وإنما تكون أرضاً عشيرة، وهى كل أرض للعرب غير بني تغلب، وكل أراضي الأعاجم أسلم عليها أهلها طوعاً، وكذلك كل أرض من أراضي الأعاجم ظهر عليها المسلمون عنوة فقسمها الإمام بين الفاتحين.

(٣) الصدقات.

الثاني — بيان الطريقة المثلى لجباية تلك الأموال.

الثالث — بيان الواجبات التي يقوم بها بيت المال (٢).

وقد عمل الخلفاء العباسيون على عدم إرهاق المزارعين، وعن البعض بوضع قواعد ثابتة لمقدار الخراج على حسب نوع المحصول وجودة الأرض، وراعوا خفض الضرائب في بعض الأحيان إذا قل المحصول لسبب من الأسباب (٣).

وصفوة القول أن خزائن العباسيين كانت تفيض بالأموال التي كانت تجبي من الضرائب، حتى بلغت في أيام هارون الرشيد ما يقرب من اثنين وأربعين مليون دينار، عدا الضريبة العينية التي كانت تؤخذ مما تنتجه الأرض من الحبوب (٤).

وقد بلغ ما حمل إلى الرشيد من المال في كل سنة نحو خمسمائة ألف ألف درهم من الفضة وعشرة

(١) أبو يوسف: كتاب الخراج (القاهرة سنة ١٣٤٦هـ) ص ٣.

(٢) أنظر الحضري: تاريخ الأمم الإسلامية: الدولة العباسية ص ١٨٨ — ٢١٥.

(٣) الدكتور حسن إبراهيم والدكتور علي إبراهيم: النظم الإسلامية ص ٢٨٩.

(٤) الفلقشندى: صبح الأعشى ج ٢ ص ٢٧٠.

آلاف ألف دينار من الذهب . ويقول الجهشيارى ^(١) إن أبا الوزير عمر بن مطرف الكاتب
عمل في أيام الرشيد تقديراً عرضه على يحيى بن خالد (البرمكى) لما يحمل إلى بيت المال
بالحضرة من جميع النواحي من المال والامتعة ، جاء فيه :

أثمان غلات السواد : ثمانون ألف ألف ، وسبع مئة ألف ، وثمانون ألف درهم .

أبواب المال بالسواد : أربعة عشر ألف ألف ، وثمانى مئة ألف درهم ، الحلل النجرانية :
مئتا حلة ، الطين للختم : مئتان وأربعون رطلا .

كسسكر : أحد عشر ألف ألف ، وست مئة ألف درهم .

كوردجلة : عشرون ألف ألف ، وثمانى مئة ألف درهم .

حلوان : أربعة آلاف ألف ، وثمانى مئة ألف درهم .

الاهواز : خمسة وعشرون ألف ألف درهم ، السكر : ثلاثون ألف رطل .

فارس : سبعة وعشرون ألف ألف درهم ، ماء الزبيب الأسود : عشرون ألف رطل ،
الزمان والسفرجل : مئتا ألف وخمسون ألفا ، ماء الورد : ثلاثون ألف قارورة ، الأنبيجات ^(٢) :
خمسة عشر ألف رطل ، الطين السيرافى : خمسون ألف رطل ، الزبيب — بالكرك الهاشمى :
ثلاثة أكوار .

كرمان : أربعة آلاف ألف ومئتا ألف درهم ، المتاع البنى والخيصى ^(٣) : خمس مئة
ثوب ، التمر : عشرون ألف رطل ، الكون : مئة رطل .

مسكران : أربع مئة ألف درهم .

السند ومايلها : أحد عشر ألف ألف ، وخمس مئة ألف درهم ، الطعام بالقفيز الكسيرخ :
ألف ألف قفيز ، الفيلة : ثلاثة فيلة ، الثياب الحشيشية : ألفا ثوب ، الفوط أربعة آلاف فوطة .
العود الهندى : مئة وخمسون مئتا ، ومن سائر أصناف العود : مئة وخمسون مئتا ، النعال :
ألفا زوج ، وذلك سوى القَرَ نفل والجوزبوا .

(١) كتاب الوزراء والكتاب ص ٢٨١ — ٢٨٨ .

(٢) هى ما نسميه نحن الآن (المانجو) وكانوا يتخذون منها مربى .

(٣) خيصى : بلدة بكرمان .

سجستان : أربعة آلاف ألف وست مئة ألف درهم ، الثياب المعيشة : ثلاث مائة ثوب ،
الفانيد (١) : عشرون ألف رطل .

خراسان : ثمانية وعشرون ألف ألف درهم ، نقر الفضة الأماء : ألفا نقرة ، البراذين :
أربعة آلاف برذون ، الرقيق : ألف رأس ، المتاع : سبعة وعشرون ألف ثوب ، الإهليج :
ثلاث مئة رطل .

جرجان : اثنا عشر ألف ألف درهم ، الإبريسم : ألف مئة
قوس : ألف ألف ، وخمس مئة ألف درهم ، نقر الفضة الأماء : ألف نقرة ، الأكسية :
سبعون كساء ، الرمان : أربعون ألف رمانة .

طبرستان ، والرويان ودنباوند : ستة آلاف ألف ، وثلاث مئة ألف درهم : الفروش
الطبرى : ست مئة قطعة ، الأكسية : مئة كساء ، الثياب : خمس مئة ثوب ، المناديل : ثلاث
مئة منديل ، الجامات ست مئة جام .

الري : اثنا عشر ألف درهم ، الرمان : مئة ألف ألف رمانة ، الخوخ : ألف رطل .
أصفهان : سوى خممش ورساتيق عيسى راديس : أحد عشر ألف ألف درهم ، العسل :
عشرون ألف رطل ، الشمع : عشرون ألف رطل .
همدان ودستى : أحد عشر ألف ألف رطل ، وثمان مئة ألف درهم ، الرب والرماني (٢) :
ألف مئة ، العسل الأروندى : عشرون ألف رطل .

ماهى البصرة والكوفة : عشرون ألف ألف وسبع مئة ألف درهم .
شهرزور ومايلها : أربعة وعشرون ألف ألف درهم .
الموصل ومايلها : أربعة وعشرون ألف ألف درهم ، العسل الأبيض : عشرون ألف رطل .
الجزيرة ، والديارات ، والفراة : أربعة وثلاثون ألف ألف درهم .
أذربيجان : أربعة آلاف ألف درهم .
موقان وكرخ : ثلاثة مئة ألف درهم .

جيلان : من الرقيق : مائة رأس ، البن والطيلسان (٣) من العسل ، اثنا عشر زقا ، من

(١) فى القاموس : الفانيد ضرب من الحلواء ، معرب (بانيد) .

(٢) كذا فى تاريخ ابن خلدون وفى الأصل (رب والرياس) .

(٣) لم يذكر أماءها تقدير فى الأصل .

البزاة : عشر بزاة ، ومن الأكسية : عشرون كساء .
أرمينية : ثلاثة عشر ألف ألف درهم ، البسط : عشرون بساطا ، الرّقم : خمس مائة
وثمانون قطعة ، المالح المنبوذ ماهى : عشرة آلاف رطل ، الطرخ : عشرة آلاف رطل ،
البزاة : ثلاثون بازيا ، البغال : مئتا بغل .

قنّسرون والعواصم : أربع مئة ألف وتسعون ألف دينار .

حمص : ثلاث مئة ألف وعشرون ألف دينار ، الزبيب : ألف راحلة .

دمشق : أربع مئة ألف وعشرون ألف دينار .

الأردن : ستة وتسعون ألف دينار .

فلسطين : ثلاث مئة ألف وعشرون ألف دينار . ومن جميع أجناد الشام من الزبيب :
ثلاث مئة ألف رطل .

مصر : سوى تنيس ودمياط والأشمونين ، فإن هذه وقفت للنفقات : ألف ألف ، وتسع
مئة وعشرون ألف دينار .

برقة : ألف ألف درهم .

إفريقية : ثلاثة عشر ألف ألف درهم ، ومن البسط : مئة وعشرون بساطا .

الين : سوى الثياب ، ثمان مائة ألف ، وسبعون ألف دينار .

مكة والمدينة : ثلاث مائة ألف دينار .

جملة التقدير : فذلك العين ، خمسة آلاف ألف دينار ، قيمتها حساب اثنين وعشرين درهما
بدينار : مئة ألف ألف ، وخمسة وعشرون ألف ألف ، وخمس مئة ، واثنان وثلاثون ألف
درهم ، الورق : أربع مئة ألف ألف وأربعة آلاف ألف ، وسبع مئة ألف ، وثمانية آلاف
درهم ، يكون الورق مع قيمة العين — خمس مئة ألف ألف ، وثلاثين ألف ألف ، وثلاث
مئة ألف ، واثنى عشر ألف درهم .

كذلك أورد ابن خلدون^(١) بيانا مفصلا بجباية الخراج في عهد الخليفة المأمون ، وقد نقله
عنه جورجى زيدان^(٢) . وإليك بيان خراج الدولة في هذا العهد :

(١) مقدمة ص ١٥٦ — ١٥٨

(٢) التمدن الاسلامى ج ٢ ص ٥٣ — ٥٥

أسماء الأقاليم	مقدار الجباية بالدراهم	الأموال والغلال
السواد	٢٧,٨٠٠,٠٠٠	ومن الحلل النجرانية ٢٠٠ حلة ، ومن طين الحتم ٢٤٠ رطلا
كسكر	١١,٦٠٠,٠٠٠	
كور دجلة	٢٠,٨٠٠,٠٠٠	
حلوان	٤,٨٠٠,٠٠٠	
الاهواز	٢٥,٠٠٠,٠٠٠	وسكر ٣٠,٠٠٠ رطل
فارس	٢٧,٠٠٠,٠٠٠	ومن ماء الورد ٣٠,٠٠٠ قارورة ومن الزيت الأسود ٢٠,٠٠٠ رطل
كرمان	٤,٢٠٠,٠٠٠	ومتاع يمانى ٥٠٠ ثوب وتمر ٢٠,٠٠٠ رطل
مكران	٤٠٠,٠٠٠	
السند وما يليه	١١,٥٠٠,٠٠٠	وعود هندي ١٥٠ رطلا
سجستان	٤,٠٠٠,٠٠٠	ومن الثياب المعينة ٣٠٠ ثوب ومن الفانيد ٢٠ رطلا
خراسان	٢٨,٠٠٠,٠٠٠	ومن نقر الفضة ٢,٠٠٠ نقره ٤,٠٠٠ برذون ١,٠٠٠ رأس رقيق ٢٠,٠٠٠ ثوب متاع ٣٠,٠٠٠ رطل إهليلج ١,٠٠٠ شقة إبريسم ١,٠٠٠ نقر الفضة ١,٠٠٠ نقره ٦٠٠ قطعة من الفرش الطبرى ٢٠٠ أكسية ٥٠٠ ثوب ٣٠٠ منديل ٣٠٠ جام ٢٠,٠٠٠ رطل عسل ١١,٣٠٠,٠٠٠ رطل رب الرمانين ١٢,٠٠٠ رطل عسل
الرى	١٢,٠٠٠,٠٠٠	
همدان	١١,٣٠٠,٠٠٠	
ماها البصرة والكوفة	١٠,٧٠٠,٠٠٠	
ماسبذان والريان	٤,٠٠٠,٠٠٠	
شهر زور	٦,٧٠٠,٠٠٠	
الموصل وما يليها	٢٤,٠٠٠,٠٠٠	٢٠,٠٠٠ رطل عسل
أذربيجان	٤,٠٠٠,٠٠٠	

أسماء الأقاليم	مقدار الجباية بالدرهم	الأموال والغلال
الجزيرة وما يليها من أعمال الفرات	٣٤,٠٠٠,٠٠٠	١,٠٠٠ رأس رقيق ١٢,٠٠٠ غزق عسل وعشر بزة ٢٠٠ كساء
أرمينية	١٣,٠٠٠,٠٠٠	٢٠٠ درهم من القسط المحفور ٥٣٠ رطلا من الرقم ١٠,٠٠٠ رطل من المساجح السور ماهي ١٠,٠٠٠ رطل من الصونج ٢٠٠ بغل ٣٠٠ ممرأ
برقه	١,٠٠٠,٠٠٠	
إفريقية	١٣,٠٠٠,٠٠٠	١٢٠ بساطا
المجموع الكلي	٣١٨,٦٠٠,٠٠٠	درهم
قنشرين	٤٠٠,٠٠٠	١,٠٠٠ حمل زيت
دمشق	٤٢٠,٠٠٠	
الأردن	٩٧,٠٠٠	
فلسطين	٣١٠,٠٠٠	٣٠٠,٠٠٠ رطل زيت
مصر	٢,٩٢٠,٠٠٠	
اليمن	٣٧٠,٠٠٠	سور المتاع (لم يذكر)
الحجاز	٣٠٠,٠٠٠	
المجموع الكلي	٤,٨١٧,٠٠٠	دينار ، تساوى ٧٢,٢٥٥,٠٠٠ درهم باعتبار الدينار ١٥ درهما وهو تقديره في ذلك العصر .
فيكون المجموع بالدرهم	٧٢,٢٥٥,٠٠٠	
يضاف اليه جباية الأقاليم المذكورة أعلاه	٣١٨,٦٠٠,٠٠٠	
فتكون الجملّة	٣٩٠,٨٥٥,٠٠٠	درهم

وترى من النظر في هذه القائمة أن خراج أقاليم المشرق كان يقدر بالدرهم وخراج أقاليم المغرب بالدنانير (إلا برقه وإفريقية) . وسترى نحو ذلك أيضا في القائمتين الآخرين . والسبب على ما يظهر أن مناجم الفضة كانت أكثر في أقاليم المشرق منها في المغرب ، وبالعكس ذلك مناجم الذهب .

فمجموع جباية أقاليم المشرق (مع برقة وإفريقية) ٣١٨,٦٠٠,٠٠٠ درهم، ومجموع أقاليم المغرب ٤,٨١٧,٠٠٠ دينار. ويتحول هذه الدنانير إلى دراهم يكون مجموعها ٧٢,٢٥٥,٠٠٠ درهم. وبإضافة مقدار جباية المغرب إلى مقدار جباية المشرق، يبلغ مجموع الجباية ٣٩٠,٨٥٥,٠٠٠ درهم. هذا عدا خراج السكر ويبلغ مقداره ٣٠٠,٠٠٠ درهم، وجيلان ويبلغ خراجها ٥,٠٠٠,٠٠٠ درهم. وعلى هذا يكون مجموع جباية الدولة العباسية في عهد المأمون نحو ٤٠٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم، عدا الأموال والغلات الأخرى. وقد جرت العادة أن تقدر الغلات بما تساويه نقداً، كما فعل صاحب جراب الدولة في غلات السواد، ومعظمها في الأصل من الحنطة، كما سنرى في تفصيل طساسيج (أى نواحي) السواد من قائمتي قدامة بن جعفر وابن خرداذبة. وكان يصل إلى بيت المال ببغداد صافي ما يتحصل من الجباية في الأقاليم بعد دفع أموال الجند وما يتطلبه الجباية من نفقات، وإصلاح الترع، وما ينفق على الدواوين، وما يتطلبه الخليفة ووزرائه وكتابه ورجال بلاطه (١).

ولإليك بيان خراج الدولة العباسية في عهد المعتمد على ما أورده قدامة بن جعفر (٢). وقد ذكر مقدار كل من الحنطة والشعير مفصلاً باعتبار طساسيج السواد، أى نواحيه في الشرق والغرب.

١ — طساسيج السواد في الجانب الغربي :

اسم الناحية	مقدار الحنطة بالسكر	مقدار الشعير بالسكر	الدرهم
الأنبار ونهر عيسى	١١,٨٠٠	٦,٤٠٠	٤٠٠,٠٠٠
طسوج مسكن	٣,٠٠٠	١,٠٠٠	١٥٠,٠٠٠
طسوج قطربل	٢,٠٠٠	١,٠٠٠	٣٠٠,٠٠٠
طسوج بادوريا (بادرايا)	٣,٥٠٠	١,٠٠٠	١,٠٠٠,٠٠٠
نهر سير	١,٧٠٠	١,٧٠٠	١٥٠,٠٠٠
الرومقان	٣,٣٠٠	٣,٣٠٠	٢٥٠,٠٠٠
كوثي	٣,٠٠٠	٢,٠٠٠	٣٥٠,٠٠٠
نهر درقيط	٢,٠٠٠	٢,٠٠٠	٢٠٠,٠٠٠
بحر جوبر	١,٥٠٠	٦,٠٠٠	١٥٠,٠٠٠
باروسما ونهر الملك	٣,٥٠٠	٤,٠٠٠	١٢٢,٠٠٠
الزواني الثلاثة	١,٤٠٠	٧,٢٠٠	٢٥٠,٠٠٠
بابل وخطرنية	٣,٠٠٠	٥,٠٠٠	٣٥٠,٠٠٠
الفلوجة العليا	٠,٥٠٠	٠,٥٠٠	٧٠,٠٠٠
الفلوجة السفلى	٢,٠٠٠	٣,٠٠٠	٢٨٠,٠٠٠

(١) جورجى زيدان : كتاب التمدن الاسلامي ج ٢ ص ٥٥ — ٥٦ .

(٢) كتاب الخراج (طبعة ليدن سنة ١٣٠٦هـ) . ص ٢٣٧ — ٢٤٠ . أنظر جورجى زيدان : كتاب

التمدن الاسلامي ج ٢ ص ٥٧ — ٥٩ .

اسم الناحية	مقدار الخنطة بالكر	مقدار الشعير بالكر	الدراهم
طسوج النهرين	٠,٣٠٠	٠,٤٠٠	٤٥,٠٠٠
طسوج عين التمر	٠,٣٠٠	٤٠٠	٤٥,٠٠٠
طسوج الحية والبداة	١,٥٠٠	١,٦٠٠	١٥٠,٠٠٠
سورا وبريسما	١,٥٠٠	٤,٥٠٠	٢٥٠,٠٠٠
البرس الأعلى والأسفل	٥٠٠	٥,٥٠٠	١٥٠,٠٠٠
فرات بادقلى	٢,٠٠٠	٢,٥٠٠	٦٢,٠٠٠
طسوج السيلحين	١,٠٠٠	١,٥٠٠	١٤٠,٠٠٠
روذمستان وهرمزجرد	٥٠٠	٥٠٠	٢٠,٠٠٠
تستر	٢,٢٠٠	٢,٠٠٠	٣٠٠,٠٠٠
إيفار يقطين	١,٢٠٠	٢,٠٠٠	٢٠٤,٨٠٠
كسكر	٣٠,٠٠٠	٢,٠٠٠	٢٧٠,٠٠٠

طساسيج السواد في الجانب الشرقى :

طسوج بزر جسابور	٢,٥٠٠	٢,٢٠٠	٣٠٠,٠٠٠
الراذانين	٤,٨٠٠	٤,٨٠٠	١٢٠,٠٠٠
طسوج نهر بوق	٢٠٠	١,٠٠٠	١٠٠,٠٠٠
كلواذى ونهر بين	١,٦٠٠	١,٥٠٠	٣٣٠,٠٠٠
جازر والمدينة العتيقة	١,٠٠٠	١,٥٠٠	٢٤٠,٠٠٠
روستقباد	١,٠٠٠	١,٤٠٠	٢٤٦,٠٠٠
سلسل ومهرود	٢,٠٠٠	١,٥٠٠	١٥٠,٠٠٠
جلولا وجللتا	١,٠٠٠	١,٠٠٠	١٠٠,٠٠٠
الذيبين	١,٩٠٠	١,٣٠٠	٤٠,٠٠٠
الدسكرة	١,٨٠٠	١,٤٠٠	٦٠,٠٠٠
البند نيجين	٦٠٠	٥٠٠	٣٥,٠٠٠
طسوج براز الروذ	٣,٠٠٠	٥,١٠٠	١٢٠,٠٠٠
النهروان الأعلى	١,٧٠٠	١,٨٠٠	٣٥٠,٠٠٠
النهروان الأوسط	١,٠٠٠	٥٠٠	١٠٠,٠٠٠
بادرايا وباكسايا	٤,٧٠٠	٥,٠٠٠	٣٣٠,٠٠٠
كور دجلة	٩٠٠	٤,٠٠٠	٤٣٠,٠٠٠
نهر الصلة على تلك العبرة	١,٠٠٠	٣,١٢١	٥٩,٠٠٠
النهروان الأسفل	١,٧٠٠	١,٣٠٠	٥٣,٠٠٠
مجموع خراج السواد	١١٥,٦٠٠	١٢٣,٩٢١	٨٢٨٢١,٨٠٠

فمجموع جبابة السواد باعتبار نواحيه ١١٥,٦٠٠ كر حنطة، ١٢٣,٩٢١ كر شعير، ٨,٨٢١,٨٠٠ درهم. على أن هذا المجموع يختلف عما ذكره قدامة بعد أن أورد خراج كل ناحية بالتفصيل كما تقدم. فقد ذكر في إيراد المجموع، فذلك ارتفاع السواد سوى صدقات البصرة من الحنطة ١٧٧,٢٠٠ كر، ومن الشعير ٩٩,٧٢١ كرا، ومن الورق ٨,٠٩٥,٨٠٠ درهم. ولعل السبب في هذا الفرق خطأ في قراءة بعض الأعداد. على أن الفرق على كثرته لا يعتد به. بقى علينا أن نحول الحنطة والشعير إلى دراهم. وقد فعل جعفر ذلك لحولها باعتبار ثمن الكرين المقرونين من الحنطة والشعير ستين دينار، والدينار على صرف خمسة عشر درهما بدینار، فبلغ ذلك ١٠٠,٣٦١,٨٥٠ درهما. وقال إن صدقات البصرة ترتفع في السنة ٦,٠٠٠,٠٠٠ درهم. فإذا جمعت ذلك كله بلغ ١١٤,٤٥٧,٦٥٠ درهما على هذه الصورة:

الدراهم المجموعة ورقا	٨,٠٩٥,٨٠٠
قيمة الحنطة والشعير بالدراهم	١٠٠,٣٦١,٨٥٠
صدقات البصرة	٦,٠٠٠,٠٠٠

درهم ١١٤,٤٥٧,٦٥٠

موارد الجبابة من سائر أقاليم المشرق والمغرب مع السواد

١ - أقاليم المشرق

أقاليم المشرق	درهم	أقاليم المشرق	درهم
السواد	١١٤,٤٥٧,٦٥٠	الري ودومانند	٢٠,٠٨٠,٠٠٠
الاهواز	٢٣,٠٠٠,٠٠٠	قزوين وزنجان وأبهر	١,٨٢٨,٠٠٠
فارس	٢٤,٠٠٠,٠٠٠	قومس	١,١٥٠,٠٠٠
كرمان	٦,٠٠٠,٠٠٠	جرجان	٤٠٠,٠٠٠,٠٠٠
مكران	١,٠٠٠,٠٠٠	طبرستان	٤,٢٨٠,٧٠٠
أصبهان	١٠,٥٠٠,٠٠٠	تكريت والطاهرهان	٩٠٠,٠٠٠
سجستان	١,٠٠٠,٠٠٠	شهرزور والصابغان	٢,٧٥٠,٠٠٠
خراسان	٣٧,٠٠٠,٠٠٠	الموصل ومايلها	٦,٣٠٠,٠٠٠
حلوان	٩٠٠,٠٠٠	قردي وبزیدی	٣,٢٠٠,٠٠٠
ماه الكوفة	٥,٠٠٠,٠٠٠	ديار ربيعة	٩,٦٣٥,٠٠٠
ماه البصرة	٤,٨٠٠,٠٠٠	أرزن وميفارقين	٤,٢٠٠,٠٠٠
همدان	١,٧٠٠,٠٠٠	طرون	١٠٠,٠٠٠
ماسبدان	١,٢٠٠,٠٠٠	آمد	٢,٠٠٠,٠٠٠
مهرجان قنق	١,١٠٠,٠٠٠	ديار مضر	٦,٠٠٠,٠٠٠
الإيفارين	٣,٨٠٠,٠٠٠	أعمال طريق الفرات	٢,٩٠٠,٠٠٠
قم وقاشان	٣,٠٠٠,٠٠٠		
آذربيجان	٤,٥٠٠,٠٠٠	المجموع الكلي	٣١١,٥٨١,٣٥٠ درهم

٢ - أقاليم المغرب

أقاليم المغرب	دينار	أقاليم المغرب	دينار
قنسرين والعوالم	٣٦٠,٠٠٠	الحرمين	١٠٠,٠٠٠
جند حمص	٢١٨,٠٠٠	البحرين	٦٠٠,٠٠٠
جند دمشق	١١٠,٠٠٠	اليمامة والبحرين	٥١٠,٠٠٠
جند الأردن	١٠٩,٠٠٠	عمان	٣٠٠,٠٠٠
جند فلسطين	٢٩٥,٠٠٠		
مصر والاسكندرية	٢,٥٠٠,٠٠٠	المجموع	٥,١٠٢,٠٠٠ دينار
		وبتحويلها إلى دراهم باعتبار الدينار ١٥ درهما تساوى ٧٦,٧١٠,٠٠٠ درهما	

وبإضافتها إلى مجموع جباية أقاليم المشرق والجزيرة يكون مجموع ذلك كله ٣٣٨,٢٩١,٣٥٠ درهما ، وهو ارتفاع الخراج حسب تقدير قدامة .

من ذلك يتضح أن جباية الخراج في عهد المأمون ٣٩٦,١٥٥,٠٠٠ درهما ، وفي عهد المعتصم ٣٨٨,٢٩١,٣٥٠ درهما (١) .

وكان المال الذى يأتى من الموارد المتقدمة ينفق على مصالح الدولة ، فتدفع منه أرزاق القضاة والولاة والعمال وصاحب بيت المال وغيرهم من الموظفين ، كما تدفع منه أعطيات الجند ، أى رواتبهم التى يستولون عليها فى أوقات معينة من العام ، كما ينفق منها على كرى الأنهار وإصلاح مجاريها ، وكرى الترع التى تأخذ من الأنهار الكبيرة كدجلة والفرات ، لتوصيل الماء إلى الأراضى البعيدة ، والنفقة على المسجونين وأسرى المشركين من مأكل ومشرب وملبس ، ودفن من يموت منهم وشراء المعدات الحربية ، ومنح العطايا للعلماء والأدباء وغيرهم (٢) .

٤ - نظام القضاء

تطور النظام القضائى فى العصر العباسى الأول تطوراً كبيراً ، لأن روح الاجتهاد فى الأحكام قد ضعفت بسبب ظهور المذاهب الأربعة ، فأصبح القاضى ملزماً بأن يصدر أحكامه وفق أحد هذه المذاهب . وكان القاضى فى العراق يحكم وفق مذهب أبى حنيفة ، وفى الشام والمغرب وفق مذهب مالك ، وفى مصر وفق المذهب الشافعى . وإذا تقدم متخاصمان على

(١) قدامة بن جعفر : كتاب الخراج ص ٢٤٩ - ٢٥١ .

(٢) كتاب النظم الإسلامية للمؤلف ص ٢٩٥ .

غير المذهب الشائع في بلد من البلاد أناب عنه قاضيا يحكم بمذهب المتخاصمين .

وقد عمد بعض الخلفاء العباسيين إلى حمل القضاة على السير وفق رغباتهم ليسكبوا أعمالهم صبغة شرعية ، حتى امتنع كثير من الفقهاء عن تولى القضاة خشية أن يحملهم الخليفة على الإفتاء بما يخالف الشريعة الإسلامية . لذلك نرى أبا حنيفة النعمان يعتذر عن تولى منصب القضاء في عهد أبي جعفر المنصور ، ويقول له : اتق الله ، ولا تزع في أمانتك إلا من يخاف الله . والله ما أنا مأمون الرضا ، فكيف أكون مأمون الغضب ؟ . وكان بين أبي حنيفة وبين محمد ابن عبد الرحمن بن أبي ليلى القاضي وحشة ، لا اعتراض أبي حنيفة عليه في أحكامه — وكان أصغر منه سنا — فشكاه إلى المنصور ، فمنعه من الفتيا (١) . وهناك كثير من الأمثلة تدل على أن الخلفاء العباسيين قد نقضوا العهد مع كثير من القواد والعلويين وغيرهم بعد أن أعطوهم الأمان ، وذلك عن طريق فتاوى القضاة ، كما فعل أبو العباس السفاح مع ابن هبيرة ، وأبو جعفر المنصور مع أبي مسلم الخراساني وعنه عبد الله بن علي ، وهارون الرشيد مع يحيى بن عبد الله بن الحسن العلوي (٢) . ذلك أن ابن هبيرة تسلم من أبي جعفر المنصور كتابا يحمل إمضاء الخليفة السفاح ، يعطيه فيه الأمان . ولكن لم تمض أيام حتى قتل ابن هبيرة . كذلك غدر المنصور بعنه عبد الله بن علي وبأبي مسلم الخراساني . وإلى ذلك يشير محمد النفس الزكية في رده على كتاب أبي جعفر . وأما يحيى ابن عبد الله أخو محمد النفس الزكية ، فقد ثار في بلاد الديلم ، وأقلق بال الرشيد ، فندب الفضل ابن يحيى البرمكي لمحاربته ، فاستأله إلى الصلح على أن يكتب له الرشيد أمانا بخطه ، يشهد فيه القضاة والفقهاء وكبار بني هاشم . فأجابه الرشيد إلى ما طلب وأرسل إليه الأمان ، ثم قدم يحيى مع الفضل ، فتلقاء الرشيد بالحنفاة والإكرام ، لكنهم لم يلبث أن حبسه في داره ، واستفتى الفقهاء في نقض الأمان ، فمنهم من أفتى بصحته ، ومنهم من أفتى ببطلانه فأبطله .

وقد اتخذ الخلفاء العباسيون نظام «قاضي القضاة» ؛ وكان يقيم في حاضرة الدولة ، ويولى من قبله قضاة ينوبون عنه في الأقاليم والأمصار . وأول من تلقب بهذا اللقب أبو يوسف صاحب كتاب الخراج في عهد هارون الرشيد .

وفي العصر العباسي اتسعت سلطة القاضي ؛ فبعد أن كان عمله مقصوراً على الفصل بين الخصوم ، أصبح يفصل في الدعاوى والأوقاف وتنصيب الأولياء . ومن نبغ من القضاة في هذا العصر يحيى بن أكرم الذي قاد الجنود في عهد المأمون لمحاربة الروم ، وأحمد بن أبي دؤاد قاضي القضاة في عهد الواثق الذي أخذ الفقه عن يحيى بن أكرم .

(١) كتاب التمدن الاسلامي ج ٢ ص ١٨٥ — ١٨٦ .

(٢) النظم الاسلامية ص ٣٣٥ — ٣٣٦ .

على أن أهم ما امتاز به العصر العباسي أنه أصبح في كل ولاية قضاة يمثلون المذاهب الأربعة ، ينظر كل منهم في النزاع الذي يقوم بين من يدينون بعقائد مذهبه (١) .

ومما هو جدير بالملاحظة اتحاد جماعة الشهود الدائمين أمام القاضي ، فيحدثنا الكندي أن القاضي إذا شهد عنده أحد كان معروفاً بالسلامة ، قبله القاضي ، وإذا كان غير معروف بها أوقف . وإن كان الشاهد محمولا لا يعرف مثل عنه جيرانه ، فما ذكره به من خير أو شر عمل به . وكان غوث بن سليمان في خلافة أبي جعفر المنصور ، أول من مثل عن الشهود بمصر في السر . ويرجع ذلك إلى كثرة شهادة الزور في زمنه . وقد عين القاضي مفضل بن فضالة رجلا يسمى صاحب المسائل ، مهمته الوقوف على حالة الشهود . كما أن القاضي العمري الذي ولي قضاء مصر من قبل الرشيد سنة ١٨٥ هـ دون أسماء الشهود في كتاب ، وحذا القضاة حذوه في هذا العمل . وبلغ من اهتمام القاضي عيسى بن المنكدر الذي ولي قضاء مصر سنة ٢١٢ هـ بأمر الشهود ، أن كان يتذكر بالليل ويغطي رأسه ويمشي في الطرقات ليسأل عنهم . ونجد في عهد بولاية القضاء في كتاب الخراج لقدامة بن جعفر ، أن التثبت في شهادة الشهود والمبالغة في السؤال عنهم والفحص عن وجوه عدالتهم والبحث عن حالاتهم من أهم واجبات القاضي في ذلك العصر (٢) .

النظر في المظالم :

وإلى جانب القضاء ، النظر في المظالم . وكان صاحب المظالم ينظر في كل حكم يعجز عنه القاضي ، فينظر فيه من هو أقوى منه يدأ . وكان الوزير يعين أصحاب المظالم في البلاد . وقد حرص بعض الخلفاء العباسيين على الجلوس للنظر في المظالم . وقد بين الماوردي الفروق بين نظر المظالم ونظر القضاء . ومن أهمها أن لناظر المظالم من فضل الهيبة وقوة اليد ما ليس للقضاة ما يكف الخصوم عن التجاحد ومنع الظلمة من التغالب ، وأنه يستعمل من الإرهاب ومعرفة الإمارات والشواهد ما يصل به إلى معرفة الحق من المبطل ، وأنه يستطيع رد الخصوم إذا اتصلوا إلى وساطة الأمراء ليفصلوا التنازع بينهم صليحا عن تراض . وليس للقاضي ذلك إلا عند رضا الخصمين بالرد ، وأنه يجوز له إخلاف الشهود عند ارتياحه بهم والاستكثار من عددهم ، ليزول عنه الشك ، وأنه يجوز له أن يبتدىء باستدعاء الشهود وسؤالهم عما عندهم ، وعادة القضاة تكليف المدعى إحضار بيئته ، ولا يسمعون البيئته إلا بعد سؤاله .

وكانت محكمة المظالم تنعقد تحت رئاسة الخليفة أو والي أو من ينوب عن أحدهما . وكان

صاحب المظالم يعين يوما يقصده فيه المتظلمون إذا كان من الموظفين ليتفرغ لأعماله الأخرى .
أما إذا انفرد بالمظالم ، نظر فيها طوال الأسبوع . وكانت محكمة المظالم تتعقد في المسجد ،
ويحاط صاحب المظالم بخمس جماعات لا ينتظم عقد جلساته إلا بحضورهم :

١ — الخماة والأعوان ، وكانوا من القوة بحيث يستطيعون التغلب على من يلجأ إلى
العنف أو يحاول الفرار من وجه القضاء .

٢ — الأحكام ، ومهمتهم الإحاطة بما يصدر من الأحكام لرد الحقوق إلى أصحابها ، والعلم
بما يجرى بين الخصوم ، فيدون بشتات الأمور الخاصة بالمتقاضين . وكان القضاء يستفيدون
من وراء حضورهم هذه الجلسات ، إذ كانوا يستطيعون تطبيق الأحكام على ما يعرض أمامهم
من القضايا في جلساتهم .

٣ — الفقهاء ، وكان صاحب المظالم يرجع إليهم فيما أشكل عليه من المسائل الشرعية .

٤ — الكتّاب ، ويقومون بتدوين أقوال الخصوم ، وإثبات ما لهم وما عليهم من
الحقوق .

٥ — الشهود ، ومهمتهم إثبات ما يعرفونه عن الخصوم ، والشهادة على أن ما أصدره
القاضي من الأحكام لا ينافي الحق والعدل . ومن اختصاصات قاضي المظالم :

١ — النظر في القضايا التي يقيمها الأفراد والجماعات على الولاية إذ انحرفوا عن طريق
العدل والانصاف ، وعلى عمال الخراج إذا اشتطوا في جمع الضرائب ، وكتّاب الدواوين إذا
حادوا عن إثبات أموال المسلمين بنقص أو زيادة .

٢ — النظر في تظلم المرتزقة إذا نقصت أرزاقهم أو تأخر ميعاد دفعها لهم .

٣ — تنفيذ ما يعجز القاضي والمحاسب عن تنفيذه من الأحكام .

٤ — مراعاة إقامة العبادات ، كالحج والأعياد والجمع والجهاد ^(١) .

البَيْتُ الدِّينِيُّ

الحالة الاقتصادية

تمهيد :

كانت خزائن العباسيين تفيض بالأموال التي كانت تجي من الضرائب ، وبلغت في أيام هارون الرشيد ما يقرب من اثنين وأربعين مليون دينار ، عدا الضريبة العينية التي كانت تؤخذ مما تنتجه الأرض من الحبوب ، حتى قيل إن الرشيد كان يستلقى على ظهره وينظر إلى السحابة المارة ويقول : « إذهبي حيث شئتِ يأتني خراجك » (١).

على أن دخل الدولة العباسية قد أخذ ينقص شيئا فشيئا ، حتى أصبح في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) أقل من جزء من واحد وعشرين جزءاً مما كان في عهد هارون الرشيد ، وأصبحت الحروب عبئاً ثقيلاً لا يحتمل ، مما نهك قوة هذه الدولة .

وإذا ذكرنا رخاء الدولة وحسن حالة الزراعة ونفاق التجارة ، لا نعجب إذا علمنا أن دخل الدولة العباسية في عهد هارون الرشيد قد بلغ ٢٧٢ مليون درهم وأربعة ملايين ونصف من الدنانير في السنة ، وأن نفقة الخليفة المأمون بلغت ستة آلاف دينار كل يوم أي ٢,١٩٠,٠٠٠ دينار في السنة (٢).

وقد بلغ ما حمل إلى الرشيد من المال في كل سنة نحواً من خمسمائة ألف درهم من الفضة وعشرة آلاف ألف دينار من الذهب ؛ وكان المال الذي يأتي من الموارد المتقدمة ينفق على مصالح الدولة : فتدفع منه أرزاق القضاة والولاة والعمال وصاحب بيت المال وغيرهم من الموظفين ، وتدفع منه أعطيات الجند ، أي رواتبهم التي تصرف لهم في أوقات معينة من العام ، كما ينفق منه على كرى الأنهار وإصلاح مجاريها وكرى الترع التي تأخذ من الأنهار الكبيرة لتوصيل الماء إلى الأراضي البعيدة ، وحفر الترع للزراعة وغيرها ، وكذا النفقة على المسجونين وأسرى المشركين من مأكل ومشرب وملبس ودفن من يموت منهم ، وعلى المعدات الحربية والعطايا والمنح التي يمنحها العلماء والأدباء ..

(١) الفلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٧٠ .

(٢) Sayed Amir Ali : A Short History of the Saracens, p. 426 et seq.

ومع توافر موارد الدولة في العصر العباسي ، كانت خزائن الخلفاء تفيض بما كانوا يجبونه من الضرائب ، حتى عم الرخاء ورخصت أسعار الحاجيات . ويقول الخطيب البغدادي (١) : « سمعت داود بن صعيبر بن شبيب بن رستم البخاري يقول : رأيت في زمن أبي جعفر كبشا بدرهم ، وحملًا بأربعة دنانير (والدانق سدس درهم) ، والتمر ستين رطلا بدرهم ، والزيت ستة عشر رطلا بدرهم ، والسمن ثمانية أرطال بدرهم ... وكان ينادى على لحم البقر تسعين رطلا بدرهم ، ولحم الغنم ستين رطلا بدرهم ، ثم ذكر العسل فقال عشرة أرطال ، والسمن اثني عشر رطلا » . ويرجع الفضل في ازدياد موارد الدولة في العصر العباسي الأول إلى اهتمام الخلفاء بشئون البلاد الاقتصادية ، والعمل على تنمية مواردها ، وعنايتهم بالزراعة والصناعة والتجارة وغيرها من شئون الاقتصاد والمال ، كما تفعل الدول في العصر الحديث .

١ — الزراعة :

وجه الخلفاء العباسيون في العصر العباسي الأول عنايتهم إلى تشجيع الزراعة ، فنشطوا في حفر الترع والمصارف ، وإقامة الجسور والقناطر . وكانت الأراضي الواقعة بين نهري دجلة والفرات من أخصب بقاع الدولة العباسية . وكانت الحكومة تشرف على إدارتها بإشراف مباشر ، وتعمل على تحسين زراعتها وتنمية مواردها . وقد امتدت في هذه الأراضي شبكة من الترع والمصارف ، حتى أصبحت قوية الخصب ، تكثر بها المزارع والبساتين ، وكانت تعرف بأرض السواد (٢) ، لكثرة ما بها من الشجر والزرع والخضرة . ويحد السواد من حديه : الموصل إلى عبادان طولا ، ومن العنذيب بالقادسية إلى حلوان غربا . وتبلغ مساحته على ما ذكره الخطيب البغدادي (٣) ٣٦,٠٠٠,٠٠٠ جريب ، والجريب عشرة آلاف ذراع (٤) .

ولما كان ماء الفرات لا يكفي لرى أراضي السواد أو يساعد على خصها ، عمل الخليفة المنصور على تنظيم وسائل الارواء بشق كثير من الجداول والترع ، على حين أمكن الاحتفاظ بماء دجلة لارواء الأراضي الواقعة على شاطئه الغربي وعلى ساحل الخليج الفارسي ، وأمكن بذلك

(١) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٠ .

(٢) ويلحق العرب لون الخضرة بالسواد ، فتضع أحدهما محل الآخر . ومن ذلك قوله تعالى حين ذكر الجنتين « مدهامتان » (سورة الرحمن ٥٥ آية ٦٤) أي خضراوان ، فوصفت الخضرة بالدهمة وهي من سواد الليل . وقال الخطيب البغدادي (تاريخ بغداد ج ١ ص ٢٤) في موضع آخر : إنما سمي السواد سوادا لأنهم قدموا يفتحون الكوفة ، فلما نظروا سواد النخل قالوا : ما هذا السواد ؟

(٣) تاريخ بغداد ج ١ ص ١١ .

(٤) أنظر لفظ السواد في معجم البلدان لياقوت ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي ج ١ ص ١١ .

إرواء جميع الأراضي الممتدة بين الصحراء العربية وجبال كردستان وتحويلها إلى أرض نضرة تدرك على أهلها الخير والنماء . كذلك مد المنصور قناة من دجيل الذي يأخذ ماءه من دجلة ، وقناة أخرى من كرخايا الذي يأخذ ماءه من الفرات ، ووصلهما بمدينة بغداد في عقود محكمة بالصاروج (وهو حجر الكلس) والآجر فكان ماء كل قناة منها يدخل المدينة وينفذ في الشوارع والدروب والأرباض ، ولا ينقطع صيفاً ولا شتاء^(١) . كما ساق هذا الخليفة العباسي الماء إلى الكرخ ، فجرى فيها نهر القلائين^(٢) ، نسبة إلى محلة كبيرة واقعة شرقي الكرخ ، ونهر البراذين ، ونهر الدجاج^(٣) .

ويجرى ببغداد نهر عيسى الأعظم الذي يأخذ ماءه من الفرات ويمر بطسوج فيروز سبور ، حتى يصل إلى المحول التي تبعد عن بغداد بفرسخ واحد ، ويتفرع منه أنهار تخترق بغداد ، ويصب في دجلة عند قصر عيسى (بن علي العباسي) . وعلى كل قنطرة من القناطر المقامة عليه سوق تحيط بجانبه البساتين والمتنزهات . وقد امتدت القنوات إلى جميع أرباض بغداد ، فغرس أهلها النخيل الذي كانت زراعته مقصورة على البصرة والكوفة والسواد ، كما غرسوا الأشجار ونسقوا البساتين والحدائق . ويأخذ الصراة من نهر عيسى عند المحول ، ويسقي أرض بأدرابا ، ويستمر في سيره إلى أن يصل إلى بغداد ويصب في دجلة . ومن أنهار بغداد نهر كرخايا الذي يأخذ ماءه من نهر عيسى جنوبي المحول ، وتتفرع منه جداول تجري في سوق الكرخ ، ومنها نهر رثييل ، ويأخذ ماءه من نهر عيسى ويصب في دجلة .

وقد عني العباسيون في العصر العباسي الأول بالزراعة وفلاحة البساتين التي قامت على دراسة عملية ، بفضل انتشار المدارس الزراعية التي كان لها أثر كبير في إنارة عقول المسلمين ، فتوسعوا في البحث النظري ، ودرسوا أنواع النباتات وصلاحية التربة لزراعتها ، واستعملوا الأسمدة المختلفة لأنواع النباتات .

وقد سار الخلفاء العباسيون على سياسة حكيمة ترى إلى عدم إرهاق المزارعين بالضرائب ، وغنى بعض هؤلاء الخلفاء بوضع قواعد ثابتة لأنواع الخراج بحسب نوع المحصول وجودة الأرض ، وراعوا خفض الضرائب إذا قل المحصول لسبب من الأسباب^(٤) .

وكان الخلفاء العباسيون يعنون بشئون الزراعة ويعملون على تخفيض الضرائب عليهم . وقد ألغى أبو جعفر المنصور الضريبة التقديمية التي كانت تفرض على الحنطة والشوفان ، وأحل محلها

(١) كتاب البلدان للياقوت ص ٢٥٠ .

(٢) جمع قلاء وهو الذي يقلى السمك .

(٣) سمي بهذا الاسم لأن بائعي الدجاج كانوا ينفقون عنده لبيع ما معهم من الدجاج .

(٤) كتاب النظم الإسلامية للمؤلف ص ٢٨٩ .

نظام « المقاسمة » ، وهو دفع الضرائب نوعاً بنسبة خاصة من المحصول . على أن النظام النقدي القديم قد ظل على النخيل والفواكه وأشباهاها . ولما أدى ذلك النظام الجديد إلى اشتطاط الجباة في جمع الضرائب ، توسع الخليفة المهدي (١٥٨ — ١٦٩ هـ) في تطبيق النظام الذي أدخله أبوه المنصور فعممه ، وجعل الضرائب تجبي دائماً بالنسبة للمحصول . وإذا كانت الأرض ممتازة الخصب ولا تحتاج إلى عمل كثير ، كان على المزارع أن يقدم إلى الحكومة نصف غلة أرضه ، وإذا صعب عليه إرواؤها ، دفع الثلث أو الربع أو الخمس تبعاً لحالة الأرض .

أما الكروم والبساتين والنخيل فكانت غلتها تقوّم بالمال ، ويدفع عنها النصف أو الثلث . ويسمى هذا النظام المقاسمة تمييزاً له عن النظام القديم الذي كان يعرف بالمحاسبة ، والذي كان يقضى بأن تجبي الضريبة بالنسبة لمساحة الأرض .

وفي سنة ٢٠٤ هـ خفض الخليفة المأمون العباسي (١٩٨ — ٢١٨ هـ) ضريبة الأرض مرة أخرى ، فأصبح يجبي الخمسان بدلاً من النصف ، حتى على أكثر الأرض إنتاجاً . أما في بابل والعراق والجزيرة وفارس ، حيث نجد كثيراً من كبار الملاك والمزارعين ، فقد كان هؤلاء يدفعون ضرائب مختلفة وفق شروط الصلح التي عقدت أيام الفتح ، ولم يكن من الممكن تغيير هذا النظام . وكانوا لذلك في مأمن من كل اغتصاب . وكان أهالي شمال فارس وخراسان يتمتعون بنفس هذا الامتياز .

وقد أقطع أبو جعفر المنصور بعض أعيان دولته قطائع^(١) من الأرض يعمرونها ويسكنونها مكافأة لهم على ما قدموه من الخدمات الجليلة . وسرعان ما عمرت هذه القطائع واتسع نطاقها ، وازدحمت بالسكان ، وأصبحت كل قطيعة تعرف باسم الرجل أو الطائفة التي تسكنها ، فترى من بينها قطيعة العباس بن محمد بن عبد الله بن العباس ، وقطيعة الربع بن يونس ، وكان بها تجار خراسان من البزازين أي بائعي الثياب ، وقطيعة صالح بن المنصور^(٢) .

وقد ساد هذا النظام في العصر العباسي حين تولى الأتراك حكم الدولة العباسية ، فكانوا يقطعون الولايات ، على أن يؤديوا لدار الخلافة مبلغاً من المال ، عدا الهدايا والطرف ، كما كان متبعاً في نظام الإقطاع الذي شمل أوروبا في القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين ، وسار عليه الخلفاء العباسيون قبل المعتصم ، فولى الرشيد عبد الملك صالح مصر صلاتها وخراجها ،

(١) أقطع الامام الجند البلد لإقطاعاً ، جعل لهم غلتها رزقاً واستقطعت . واسم ذلك الشيء الذي يقطع قطيعة . والقطيعة محال يفتاد أقطعها المنصور أناساً من أعيان دولته ليعمروها ويسكنوها — القاموس المحيط .

(٢) راجع كتاب البلدان لليعقوبي ص ٢٤٢ — ٢٥٤ . انظر ما ذكرناه عن قطائع بغداد في الباب السابع من هذا الجزء .

وولى المأمون عبد الله بن طاهر بن الحسين هذه البلاد (٢١١ - ٢١٣ هـ) على هذا النحو الاقطاعي . وحذا المعتصم حذو الرشيد والمأمون في تلك السياسة ، فولى أشناس التركي مصر (٢١٩ - ٢٢٩ هـ) ، وقلد الواثق إيتاخ ولاية هذه البلاد (٢٣٠ - ٢٣٥ هـ) ^(١) .

وكانت الحنطة تزرع في كافة بلاد الدولة العباسية حيث يتوافر الماء . أما الذرة فإن زراعته بقيت مقصورة على جنوبي جزيرة العرب . وكان الأهليون يزرعون كذلك الشعير والأرز والنخيل وأشجار الفاكهة .

وكان الكرم يغرس بكثرة في جميع أنحاء الدولة العباسية . وتمتاز كروم اليمن بطول عناقيدها : فيحكى أن بعض عمال هارون الرشيد حمل إليه وهو يؤدي فريضة الحج عنقودين من العنب في محملين على بعير . وذكر ابن حوقل في كتاب المسالك والممالك ، أن أهل مدينة زمغر القريبة من البحر الميت كانوا يلقحون كرومهم وكروم فلسطين ، كما يلقح النخيل بالطلع .

ومن الفواكه التي أدخلت زراعتها في أراضي الدولة العربية النارج : فيقول المسعودي إنه جلب من الهند ، ثم زرع بعمان والبصرة والعراق والشام . وذكر المقدسي في كتابه ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، أن ثمار النارج في فلسطين كانت أحسن منها في غيرها من البلاد . وكانت بلاد الشام تشتهر بتفاحها ، حتى أصبح مضرب المثل في الحسن ، كما كثر بفلسطين أشجار الزيتون ، وخاصة في بلدة نابلس ، التي كان أهلها يستخرجون منه الزيت .

وكان قصب السكر يزرع في البصرة وصور . وقد بلغ من شهرة صور بزراعته أن بعض أهالي البندقية اتخذوا بها مزرعة قصب أيام الحروب الصليبية ، وبلغت زراعة القصب أيضا شأوا كبيرا في مصر في العصر العباسي الأول .

وقد جلب العرب الجاموس من الهند — وهي موطنه الأصلي — ثم نقل إلى العراق في عهد الأمويين . وروى أن أهل الشام في ذلك العهد ، لما شكوا من كثرة هجوم السباع عليهم ، أمرت الحكومة بوضع أربعة آلاف جاموسة على حدود بلادهم من ناحية الشمال . وكان الجاموس يعتبر أكبر عدو للأسود .

وكان أهالي فلسطين يعنون بتربية الجاموس ، ويعتمدون في غذائهم على لبنه ولحمه . أما البقر فكان يربي لأجل لبنه ، ولم يكن لحمه مستساغا . وكان أبو بكر محمد بن زكريا الرازي الطبيب يوصي بلبن الغنم ولحم الضأن .

(١) الكندي : كتاب الولاة والقضاة ص ١٦٣ و ١٣٧ و ١٨٠ — ١٨٤ و ١٩٥ — ١٩٧

و ١٩٨ — ٢٠٢ ، Corbet: J. R. A. S. (1861), p. 528

٢ — الصناعة :

وكان للصناعة نصيب كبير من عناية الخلفاء العباسيين في العصر الأول . وقد غنى هؤلاء الخلفاء باستعمال موارد الثروة المعدنية ، فاستخرجوا الفضة والنحاس والرصاص والحديد من مناجم فارس وخراسان . وكان بالقرب من بيروت مناجم للحديد ، ساعد وجودها على نمو بعض الصناعات المعدنية ، كما استخرجوا الخزف والمرمر من تبريز ، والملح والكبريت من شمالي فارس ، والقار والنفط من بلاد الكرج .

واشتهرت البصرة بصناعة الصابون والزجاج ، ولا سيما في عهد الخليفة المعتصم الذي شيد مصانع جديدة لها في بغداد وسامرا وغيرهما من المدن ، كما أنشأ مصانع للورق في عدة مدن ، وجلب لها الآساتذة والصناع من مصر التي اشتهرت بصنع الورق منذ عهد بعيد . كذلك أنشأ العباسيون دورا للطراز في أهم مدن فارس . وقد تفوق المسلمون في هذا العصر في صناعة الحرير والأطلس والمنسوجات الحريرية المشجرة والسجاجيد . وما يدل على تفوق المسلمين في الصناعة ، هذه المنسوجات النفيسة التي أخرجتها أنوال فارس والعراق والشام . وامتازت الكوفة بكوفياتها الحريرية وغيرها ، وتفوقت خوزستان بمنسوجاتها كذلك . وكان للمنسوجات الحريرية المشجرة الجميلة التي تصنع في تيسر ، ولسجاجيد قرطب وحرير سوس شهرة عظيمة في أسواق العالم في ذلك الحين . وامتازت دمشق بصناعة الأقمشة الحريرية التي لاتزال تسمى « الدمقس » . واشتهرت مدن خراسان بصناعة البسط والستور والمنسوجات الصوفية على اختلاف أنواعها .

وقد اشتهرت مصر في ذلك العصر بصناعة المنسوجات . فكان يصنع في مدينة تنيس الثياب الملونة والفرش ، ويعمل بها للخلفاء ثوب يقال له البدنة ليس فيه من الغزل سدى ولا لحة سوى أوقيتين . أما بقيته فن الذهب الخالص المحكم الصنعة ، وتبلغ قيمة الثوب ألف دينار . ولم يحفظ لنا التاريخ أن قطعة النسيج من الكتان بلغت قيمتها مائة دينار إلا في مدينتي تنيس ودمياط ، مما يدل على مدى تقدم صناعة المنسوجات المصرية ودقتها في ذلك العصر . كما كانت تصنع في مدينة القيس الثياب الصوفية .

واشتهرت بلاد الشام بصناعة الزجاج والخزف ، واتخذ أهلها سمة (طرازاً) خاصة بهم في زخرفة الزجاج . وكانوا في مستهل القرن الثاني للهجرة يصدرون الزجاج الملون المطلق بالميناء إلى كثير من جهات العالم . وبلغت هذه البلاد في نقش الزجاج بالذهب والألوان الأخرى درجة كبيرة من الاتقان (١) .

وما يدل على تقدم الصناعة في العصر العباسي الأول ، أنه كان يوجد ببغداد عدد كبير من دور الصناعة ، حتى لقد قيل إنه كان بها أربع مائة رحى مائية ، وأربعة آلاف معمل لصنع الزجاج ، وثلاثون ألف معمل لصنع الخزف (١) . ويلوح لنا في هذا القول شيء غير قليل من المبالغة . وكان لكل حرفة سوق خاصة ، كسوق الحدادين ، وسوق النجارين ، وسوق البزازين (٢) . وقد أسس الخليفة المنصور أسواق الكرخ في الجهة الجنوبية من بغداد بين الصراة ونهر عيسى لتكون مركزاً للصناعة والتجارة .

واشتهرت بغداد بالصياغة التي نبغ فيها الفرس وبلغت صناعتهم شأواً بعيداً في الدقة والجمال ، حتى إنهم كانوا يرصعون الزجاج بالجواهر ، ويكتبون عليه بالذهب المجسم ، ويصنعون للبلوك أقفاصاً تبهر الأبصار ، ويتخذون على الجامات (الكؤوس) صوراً يحكون صناعتها بالرسم إلى بمائلة الحقائق ، وصوروا عليها طيوراً تطير ، ومن فوقها العقبان تنقض عليها ، وهي تحاول الإفلات من مخالبها ، مما يأخذ بالآلأباب ويستوقف الأنظار (٣) . واشتهرت مصر منذ عهد الفراعنة بصناعة المعادن ، ولاسيما صياغة الذهب والفضة ، وضربوا بسهم وافر في صناعة الأدوية والعقاقير . واشتهرت مصر في العصر العباسي الأول بصناعة المراكب النيلية التي كانت تسير في النيل تحمل حاصلات البلاد بين جهات الوجهين البحري والقبلي ، كما اشتهرت أيضاً بصناعة السفن التي تكون منها الأسطول المصري في ذلك العصر . وكانت هذه السفن تشحن بالأسلحة والمقاتلة لغزو بلاد الدولة الرومانية الشرقية عن طريق الإسكندرية ودمياط وتنيس والفرما .

٣ — التجارة :

لم تقتصر عناية الخلفاء على الزراعة والصناعة وحدهما ، بل اهتموا كذلك بتسهيل سبل التجارة : فأقاموا الآبار والمحاط في طرق القوافل ، وأنشؤا المنائر في الثغور ، وبنوا الأساطيل لحماية السواحل من إغارات لصوص البحار . وكان لذلك أكبر الأثر في نشاط التجارة الخارجية والداخلية ، فأصبحت قوافل المسلمين تجوب البلاد وسفنهم تمر عباب البحار .

مراكر التجارة :

وقد شجع الخلفاء العباسيون في العصر العباسي الأول التجارة تشجيعاً غير مباشر ، بما

(١) أمين زكي : كتاب عمران بغداد ص ٥٠ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٠٨ .

(٣) نخلة المدور : كتاب حضارة الاسلام في دار السلام ص ٢٥ .

أدخلوا من مظاهر الترف إلى بلاطهم ، تشجيعا مباشرا بتمهيد الطرق ، وبتأسيس مدينة بغداد التي ساعدها موقعها لأن تكون سوقا تجاريا من الطراز الأول . وكانت دمشق مركزا هاما للقوافل الآتية من آسيا الصغرى أو من أقاليم الفرات إلى بلاد العرب ومصر أو بالعكس . وكان الفرات ودجلة شريانين تجاريين هامين في داخل بلاد الدولة العباسية (١) .

ولما أسس العباسيون مدينة بغداد على شاطئ دجلة ، حفروا قناة للبلاحة تأخذ ماءها من الفرات عبر العراق ، ووصلوها ببغداد ، فأصبحت تربط الحاضرة الجديدة بآسيا الصغرى وسورية وبلاد العرب ومصر ، على حين كانت تأتي إليها القوافل من آسيا الوسطى مارة ببخارى وفارس (٢) .

وقد ذكر الخطيب البغدادي (٣) وياقوت (٤) عند كلامهما على سبب اختيار المنصور موقع مدينة بغداد ، أن أحد الدهاقين حسّن له النزول ببغداد فقال له : « إنك تصير بين أربعة طاسيج (٥) : طسوجان في الجانب الغربي ، وطسوجان في الجانب الشرقي . فاللذان في الغربي قطربل وبادرايا ، واللذان في الشرقي نهر بوق وكواذى . فإن أجذب طسوج وتأخرت عمارته كان الآخر عامرا . وأنت يا أمير المؤمنين على الصراة ودجلة تحينك الميرة من الغرب ، وفي الفرات من الشام والجزيرة ومصر ، وتحمل إليك طرائف الهند والبصرة وواسط في دجلة . وتحينك ميرة أرمينية وأذربيجان وما يتصل بها في تامرا . وتحينك ميرة الموصل وديار بكر وريبعة . وأنت بين أنهار لا يصل إليك عدوك إلا على جسر أو قنطرة ، فإذا قطعت الجسر أو القنطرة ، لم يصل إليك عدوك ، وأنت قريب من البر والبحر والجبل » .

وبعد أن بنى أبو جعفر المنصور مدينة بغداد ، وضع أساس السرخ في الجهة الجنوبية منها بين الصراة ونهر عيسى ، ونقل إليها أسواق بغداد ، وأفرد لكل حرفة سوقا خاصة . ومن هذه الأسواق : سوق العطارين ، وسوق الحدادين ، وسوق النجارين وسوق البرازين ، وسوق الرياحين (حيث تباع الزهور) وسوق القصابين . وقد قيل إن المنصور أمر بجعل هذه السوق في آخر الأسواق وقال : اجعلوا سوق القصابين في آخر الأسواق ، فانهم سفهاء ، وفي أيديهم الحديد القاطع (٦) .

Heyd : Histoire du Commerce au Moyen-Age, p. 26 (١)

Ibid, p. 27. (٢)

(٣) تاريخ بغداد ج ١ ص ١ — ٢٣

(٤) انظر لفظ بغداد في معجم البلدان لياقوت .

(٥) نواحي .

(٦) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج ١ ص ٨٠ ، أمين زكي : عمران بغداد ص ١٠٨ .

ويقول السيد حسن حسنى عبد الوهاب (١) التونسي عن مدينة البصرة ، التى أصبحت فى العصر العباسى الأول من أهم مراكز التجارة : وهى باب بغداد الكبير ، ومدخل دجلتها المتدفق بضروب المتاع وأنواع السلع المجلوبة من أطراف الدنيا . . . إذ كانت مقصد القوافل الواردة من كل حذب وصوب ، ومحط رحال الشرق والغرب من مجاهل الصين إلى مفاوز الصحراء الكبرى . ولذلك استفحل بها العمران ، وكثرت فيها المصانع والصنائع ، وصارت واسطة العرب والعجم ، وحق لها أن تتلقب بقبة السلام ، كما سماها عمر بن الخطاب رضى الله عنه . . .

وكان طريق القوافل الكبرى التى يجتازها الحجاج السوريون يبعد عن البحر بعض الشيء ، لأنه كان يمر شرق نهر الأردن خارج فلسطين . ولكن زيارة المسجد الأقصى بيت المقدس وقبر إبراهيم الخليل كانت من الأمور المقدسة عند المسلمين . وكان كثير من الحجاج يحجون بيت المقدس بعد أداء فريضة الحج فى مكة ، فيتقابلون مع حجاج الغرب المسيحيين . وبذلك أتاحت للتجار الفرصة لتبادل السلع . وفى ١٥ من سبتمبر من كل عام كان يقام فى بيت المقدس سوق كبيرة يفد إليها تجار الأمم المختلفة . وكان أكثر الحجاج يجتمعون فى دمشق ، التى كانت ملتقى عدة طرق هامة ، ثم يسرون فى جماعات كبيرة إلى مكة ، ومنها يتفرقون بعد أداء فريضة الحج . وكانت هذه الحركة المستمرة سببا فى وجود كثير من السلع إلى أسواق دمشق . ولما كانت المدن البحرية مثل طرابلس وبيروت وصور وعكا لا تبعد عن سوق دمشق الكبيرة إلا بضعة أيام ، فمن المرجح أنها كانت تحصل على ما تحتاج إليه من السلع التى كانوا يبتاعونها فى سوق دمشق الكبيرة . وهناك طريق آخر مهم يوصل إلى سورية ، وهو مجرى الفرات الذى يبدأ من الخليج الفارسى وينتهى عند نقطة لا تبعد كثيرا عن البحر الأبيض المتوسط .

وكان ببلاد الشام كثير من الأسواق تمتد بها الحوانيت على طول الشوارع من الجانبين ؛ ولكل طائفة من التجار قسم خاص بها . وكان للتجار الغرباء فنادق قريبة الشبه بالأسواق الكبيرة ، يضعون بضائعهم بأسفلها وينامون فى أعلاها .

وقد أقام العرب غربى مصر دويلات تمتد على طول ساحل إفريقية الشمالى ، وفى بلاد الأندلس وصقلية . وكانت هذه الدويلات تقوم بدور الوسيط فى تبادل التجارة بين الشرق والغرب ، كما كانت قصور القيروان وقرطبة وبلرم فى حاجة إلى منتجات آسيا .

وكانت سفن العرب تقطع البحر الأبيض المتوسط فى ستة وثلاثين يوما ، من ميناء أنطاكية

(١) كتاب البصر بالتجارة تأليف أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ : نشره السيد حسن حسنى عبد الوهاب (القاهرة سنة ١٣٥٤ هـ = ١٩٣٥ م) مقدمة ص ٣ .

شرقاً إلى جبل طارق . وتعتبر أنطاكية التي حصنها الخليفة المعتصم من أهم مرافق بلاد الشام التجارية ، كما كانت صور ميناء حريباً به دار للصناعة ، ومنه تخرج السفن لمحاربة البيزنطيين .
وصول تجارة العرب إلى بلاد الصين :

ويتضح من رحلات السندباد البحري التي وردت في كتاب ألف ليلة وليلة ، والتي ترجع إلى عهد الرشيد ، أن العرب كانوا في العصر العباسي يقومون برحلات بحرية تبدأ من بغداد ، وتسير في الخليج الفارسي حتى تصل إلى شبه جزيرة ملقا (وتعرف الآن بشبه جزيرة الملايو) ، وكان التجار يشجعون هذه الرحلات التي تجلب لهم ثوابل الهند وعطورها وحرير الصين .

ومن المحتمل أن يكون العرب في القرن الثاني الهجري قد وصلوا إلى بلاد الصين ، وأنهم كانوا من بين الأجانب الذين فتح لهم ميناء كاتون وسوقها سنة ٨٢ هـ (٧٠٠ م) ، وقد أثبتت بعض الفتن التي حدثت في هذه المدينة سنة ١٤١ هـ (٧٥٨ م) وجودهم هناك (١) .

وقد جاوز العرب في العصر العباسي الأول جزيرة سيلان كثيراً . وبعد أن كان الصينيون حتى أوائل العصر العباسي الأول يجوبون بكثرة البحار الواقعة على ساحل الهند وفي الخليج الفارسي ، أصبح من النادر وجودهم في الخليج الفارسي ، لأن العرب أخذوا يقومون برحلات طويلة ، حتى إنهم وصلوا إلى بلاد الصين . وقد اتخذ ميناء سيراف مرسى لهذه السفن ، التي كانت تعود محملة بالسلع الواردة من البصرة وعمان وغيرهما من هذه الجهات وتنقل تجارة العرب والفرس إلى بلاد الصين (٢) .

وفي القرن الثالث الهجري وضع أبو القاسم بن خرداذبة (٣) دليلاً للمسافرين ، وصف فيه فيما وصف الطريق البحري ، الذي يبدأ من مصب دجلة عند الأبله ويصل إلى بلاد الهند والصين . ويذكر ابن خرداذبة أن السفن العربية كانت تسير بمحاذاة الشاطئ الفارسي وساحل الهند حتى ملبار ، وكان اختيار هذه الطريق يرجع إلى الرغبة في شحن البضائع وتفريغها في الموانئ المختلفة ، لا إلى الخوف من التوغل في البحر . والحقيقة أن هذه السفن كانت عند مغادرتها ساحل كروماندل Cromandel تعبر خليج بنغالة في خط مستقيم ، كما كانت تفعل السفن الصينية تماماً .

وقد استطاع العرب منذ أواخر القرن الثاني للهجرة أن يستقروا في ميناء خانفو Khanfou ،

(١) T.W. Arnold : The Preaching of Islam, pp. 363-4

W. Heyd : Histoire du commerce du Levant au Moyen-âge (٢)

vol. I. p. 72.

(٣) كتاب المسالك والممالك (ليدن سنة ١٣٠٦ هـ) .

وهو إلى الجنوب من مدينة شنغهاي الحالية ، وكان لهم بسبب تساهل امبراطور هذه البلاد وكرمه قاض مسلم يحكم بينهم طبقا لأحكام الشريعة الإسلامية ، ويؤمهم في الصلاة ، كما كانوا يتبادلون التجارة مع الصينيين ، ويحصلون على جوازات تسمح لهم بالتنقل في داخل هذه البلاد ابتغاء التجارة مع أهلها . وظل حال تجار العرب على ذلك حتى قامت في هذه البلاد فتن وثورات كان من أثرها أن ساءت حال هؤلاء التجار ، فقطعوا علاقاتهم مع الصين وانتقلوا إلى شبه جزيرة ملقا ، واتخذوا مركزهم في مدينة كله (١) .

وقد أصبحت كله Kalah مرسى للسفن التي تحمل متاجر آسيا الغربية والشرقية ، وفتحت أمام تجار العرب سوق جديدة للتجارة في سلع الهند الصينية ، وهي الكافور والقرنفل وخشب العود والصندل وجوز الهند وجوز الطيب والقصدير . وقد تقدمت هذه التجارة تقدما عظيما ، حتى أصبحت الرحلة إلى شبه جزيرة ملقا في القرن العاشر ، من أسهل الرحلات العالمية في نظر بحارة سيراف الذين عرفوا أيضا جزيرة جاوه .

وقد وصل العرب إلى الهند الصينية والصين في كثير من الأحيان ، ومن المحتمل أن بعضهم قد وصل إلى كوريا (٢) .

وكانت الرحلة من الساحل الغربي إلى ساحل الهند الغربي تستغرق بين شهرين وثلاثة أشهر ، وقد تستغرق شهرا واحدا إذا ساعدتها الرياح . ولا ريب أن تجار العرب كانوا يقيمون في سيلان قبل سنة ٨٠ هـ .

وقد ذكر الرحالة العرب الذين قاموا برحلاتهم في القرنين التاسع والعاشر ، أنهم كانوا يلاقون شيئا كثيرا من العطف والرعاية من بعض ملوك الهند ، وأن جماعة من أمراء ملبار قد اعتنقوا الإسلام ، وسمحو للعرب بإقامة المساجد في هذه البلاد ، وبينما أنشأ العرب على سواحل الهند وفي بعض مدنها جاليات عربية ، كانت جيوشهم قد تجاوزت حدود فارس منذ أوائل القرن الثامن الميلادي ، واستولت على بلاد السند . وكان من أثر ذلك أن نشطت الحركة التجارية ونمت في الملبان والديبل . وكانت سفن فارس وبلاد العرب تعرج على تلك البلاد في ذهابها إلى بلاد الهند والصين ، وفي عودتها حاملة حاصلات تلك البلاد (٣) .

(٣) كله فرضة بالهند وهي منتصف الطريق بين عمان والمين ، وتقع في طرف خط الاستواء . أنظر هذا اللفظ في معجم البلدان لياقوت .

(٢) W. Heyd : Histoire du commerce du Levant au Moyen-âge, vol. I, pp. 30—32 .

(٣) Ibid. pp. 32—33; Arnold : The Preaching of Islam, p. 363 et seq. (٣)

كذلك وجدت بين بلاد اليمن والحجاز والحبشة ومصر وبين آسيا الشرقية علاقات تجارية. وحين كان زمرد ساحل الهند الشرقي ينقل إلى الغرب عن طريق عدن ومكة ، كان أمراء الشرق الأقصى يطلبون زمرد مصر العليا وناب الفيل الكثير في الحبشة . وكانت ميناء عدن سوقا نافقة لتلك السلع ومرسى للسفن الآتية من كل أنحاء آسيا وساحل إفريقيا الشرقية (١) .

وكانت جدة ميناء مكة ، كما كانت القلزم ميناء مصر وسورية . وقد فكر هارون الرشيد في حفر قناة تصل بين البحرين الأبيض والأحمر ، ولكنه أهمل هذه الفكرة عند ما قيل له إن الإغريق سيجدون عن طريق هذه القناة منفذا إلى البحر الأحمر ، وإنهم بذلك يستخدمون هذا المنفذ لإرسال حملات ضد مكة والمدينة وقطع طريق الحج . ولذلك عدل الرشيد عن حفر قناة السويس (٢) ، وأصبح من المستحيل تحاشي عبور الصحراء إذا أريد نقل السلع الواردة عن طريق البحر الأحمر إلى الغرب ، فكانت هذه السلع تحمل على ظهور الجمال ثم تنقل في النبل ، أو ترسل في البر عبر برزخ السويس . وكان الطريق الأول يوصل إلى الاسكندرية مباشرة . وإذا كانت شهرة الاسكندرية قد تضاءلت أمام شهرة بغداد ، فإن حالة الغنى التي تمتعت بها مصر في عهد الطولونيين قد أعادت إليها بعض الانتعاش . وكان بعض السلع التي ترد عن طريق البحر الأحمر يرسل عبر برزخ السويس إلى ميناء الفرما التي احتفظت بغناها وأهميتها . وبما جعل لهذا الطريق قيمة ظاهرة بين الطرق الأخرى ، أنه كان لا يستغرق أكثر من أربعة أو خمسة أيام (٣) .

أما السلع التي كانت تجلب من الشرق إلى جدة ، ومنها ترسل إلى مكة في موسم الحج ، فإنها كانت تصل إلى الغرب ، بواسطة التجار المصريين الذين كانوا يفقدون إلى بلادهم براً مع الحجاج أو مع التجار السوريين الذين كانوا يحملونها إلى دمشق .

وفي الوقت الذي كان فيه العرب أصحاب السيادة على المنطقة الواقعة عند مصب نهر السند ، كان هناك طريق تجارى يسير من تلك المنطقة نحو داخل فارس ماراً بولاية سجستان . وإلى الشمال من ذلك الطريق كانت قوافل البنجاب تنقل مقادير كبيرة من البضائع عبر هضاب أفغانستان ، وتوصلها إلى كابل وغزنة وغيرهما ، مما صار بعدئذٍ مراكز تجارية كبيرة . ومن

(١) Heyd, p. 35

(٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ١٨٩

(٣) Heyd : Histoire du Commerce du Levant Au Moyen-âge, p. 41.

هناك كانت القوافل تسير نحو خراسان غربا وبخارى شمالا ، حتى إن توابل الهند كانت تنتشر في تلك الأقاليم . وتلاقى في بخارى مع البضائع الآتية من الصين عبر آسيا الوسطى .

وكانت هناك علاقات تجارية بين أهالي بخارى والصين . وبعد أن وصل نفوذ العرب الى نهر سيحون ، كان التاجر يستطيع الذهاب الى الصين دون أن يجد عقبات من السلطات الرسمية . وبعد أن يعبر نهر سيحون شرقا ، يمر بقبيلة التغزغز أهم قبائل الترك التي كانت تقيم على سفوح جبال تيان شان . وكان هناك طريقان مطروقان ، أحدهما طويل يستغرق أربعة أسابيع ، ويصلح لسير دواب الحمل ، والآخر قصير جداً ، ولكنه متشعب ؛ ولذلك يستغرق أربعين يوماً . وهناك طريق يمر بالتبت ، ولكنه كان مخفوفاً بالمصاعب (١) .

وكان السبب الأساسي في ذهاب القوافل الى الصين ، هو تجارة الحرير . فلما انتشر هذا النوع في شمالى فارس ، واشتهرت مرو بصناعته ، قل مسير القوافل الى الصين (٢) . ويقول صاحب كتاب حضارة الاسلام في دار السلام (٣) إنه لما توفرت الأموال في أيدي العباسيين وأمن هارون الرشيد طرق القوافل والسفن ، حملت السلع من جميع أرجاء العالم الى العراق ، فحملت الآتية من الهند ، والحديد من خراسان ، والرصاص من كرمان ، والنسيج الملون من قشمبر ، والعود والمسك والسروج والدار صيني من الصين ، والعود وأنواع الطيب من اليمن ، والسلاح والمصوغات من فارس ، والآلى من عيذاب ، والخيزران والكافور والعود والقرنفل والتارجيل والثياب القطنية والفيقة من الهند والسند ، والياقوت والماس من سرنديب ، والجلود والرقيق من بلاد الروم ، والفأكة والسلاح والحديد من بلاد الشام ، وجلود الثعالب من روسيا .

وقد عنى هارون الرشيد بتنظيم التجارة ، فعهد إلى المحتسب في مراقبة الأسواق والإشراف على الموازين والمكاييل ، ومراعاة أئمان الحاجيات منعاً للغش أو ابتزاز أموال الأهالي (٤) .

وكان المسلمون في العصر العباسي الأول يصدرون الى البلاد الأخرى الشعير والحنطة ، والأرز والفأكة ، وزهور مازندران المشهورة ، والسكر والزجاج والحرير والأقشة الصوفية

(١) Heyd, pp. 36—37.

(٢) Ibid., pp. 37—38.

(٣) جميل نخلة المدور ص ١١٦—١١٧

(٤) المصدر نفسه ص ١١٨

والسكتانية والحريية ، والزيت والعطور كماء الورد والزعفران وماء السوسن وشراب العنب وزيت البنفسج وغيرها (١) .

وصفوة القول أن عناية الخلفاء العباسيين بالتجارة ، وحرصهم على تبادلها وتيسير طرقها البرية والبحرية ، كان له أكبر الأثر في ترقية التجارة التي تقوم على تبادل المحاصيل ، كما مهد السبيل أمام الكاشفين والرحالة ، فكثرت رحلاتهم في هذا العصر كثرة تدعو إلى الإعجاب ، فوصفوا البلاد المختلفة وصفا دقيقا مبينا على المشاهدة .

(١) سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامي : ترجمة من ٢٦٦ .

الباب السابع

الثقافة والفن

١ - الثقافة :

(١) اشتغال الموالى بالعلم :

مما يسترعى نظر الباحث في تاريخ الثقافة الإسلامية ، أن السواد الأعظم من الذين اشتغلوا بالعلم كانوا من الموالى ، وخاصة الفرس . وكانت اللغة العربية هى الوسيلة الوحيدة للتفاهم بين المسلمين ، إلى أن أزال المغول الخلافة العباسية من بغداد فى القرن السابع الهجرى . وفى ذلك يقول ابن خلدون^(١) عند كلامه على : « أن حملة العلم فى الاسلام أكثرهم العجم » : « من الغريب الواقع أن حملة العلم فى الملة الاسلامية أكثرهم العجم ، لامن العلوم الشرعية ، ولا من العلوم العقلية إلا فى القليل النادر ، وإن كان منهم العربى فى نسبته ، فهو أعجمى فى لغته ومُربّاه ومشيجته ، مع أن الملة عربية ، وصاحب شريعتهما عربى . والسبب فى ذلك أن الملة فى أولها لم يكن علم فيها ولا صناعة لمقتضى أحوال السداجة والبدواة . وإنما أحكام الشريعة التى هى أوامر الله ونواهيه كان الرجال ينقلونها فى صدورهم ، وقد عرفوا مأخذها من الكتاب والسنة بما تلقوه من صاحب الشرع وأصحابه ، والقوم يومئذ عرب لم يعرفوا أمر التعليم والتأليف والتدوين ، ولا دفعوا إليه ولادعتهم إليه حاجة . وجرى الأمر على ذلك زمن الصحابة والتابعين ، وكانوا يسمون المختصين بحمل ذلك ، ونقله القراء أى الذين يقرءون الكتاب ، وليسوا أميين لما أن الأمية يومئذ صفة عامة فى الصحابة ، بما كانوا عربا ، فقليل لحملة القرآن يومئذ قراء ، إشارة إلى هذا . فهم قراء لكتاب الله والسنة المأثورة عن الله ، لأنهم لم يعرفوا الأحكام الشرعية إلا مائة ومن الحديث الذى هو فى غالب موارد تفسيره وشرح . قال صلى الله عليه وسلم : تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما : كتاب الله وسنتى . فلما بعد النقل من لدن دولة الرشيد فما بعد ، احتيج إلى وضع التفسير القرآنية ، وتقييد الحديث مخافة ضياعه . ثم احتيج إلى معرفة الأسانيد وتعديل الرواة للتمييز بين الصحيح من الإسناد ومادونه ، ثم كثر استخراج أحكام الواقع من الكتاب والسنة ، وفسد مع ذلك اللسان ، فاحتيج إلى وضع القوانين النحوية وصارت

العلوم حضرية . . . وبعد العرب عنها وعن سوقها . والحضر لذلك العهد هم العجم أو من في معانهم من الموالى وأهل الحواضر الذين هم يومئذ تبع للعجم في الحضارة وأحوالهم من الصنائع والحرف ، لأنهم أقوم على ذلك للحضارة الراسخة فيهم منذ دولة الفرس . فكان صاحب صناعة النحو سيبويه والفارسي (٣٧٧ هـ) من بعده والزجاج (٣١١ هـ) من بعدهما ؛ وكلهم عجم في أنسابهم ، وإنما ربوا في اللسان العربي فاكْتَسَبُوهُ بالمربي (النشأة والتربية) ومخالطة العرب ، وصيروهم قوَّانين وفنا لمن بعدهم . وكذلك حملة الحديث الذين حفظوه على أهل الإسلام أكثرهم عجم أو مستعجمون باللغة والمربي ، لاتساع الفن بالعراق وما بعده . وكان علماء أصول الفقه كلهم عجم كما تعرف ، وكذا جملة علماء الكلام ، وكذا أكثر المفسرين . ولم يقيم بحفظ العلم وتدوينه إلا الأعاجم . فظهر مصداق قوله صلى الله عليه وسلم : لو تعلق العلم بأعناق السماء لثاله قوم من فارس . . وأما العرب الذين أدركوا هذه الحضارة وسوقها وخرجوا إليها عن البداوة ، فشغلتهُم الرياسة في الدولة العباسية ، ومادفعوا إليه من القيام بالملك عن القيام بالعلم والنظر فيه ، فانهم كانوا أهل الدولة وحاميتها وأولى سياستها ، مع ما يلحقهم من الأنفة في انتحال العلم حينئذ بما صار من جملة الصنائع . والرؤساء أبدأ ، يستكشفون عن الصنائع والمهن وما يجر إليهما ، ودفعوا ذلك إلى من قام به من العجم والمولدين ، وما زالوا يرون لهم حق القيام به ، فانه دينهم وعلومهم ، ولا يحتقرون حملتها كل الاحتقار . حتى إذا خرج الأمر من العرب جملة وصار للعجم ، صارت العلوم الشرعية غريبة النسب عند أهل الملك بما هم عليه من البعد عن نسبها ، وامتن حملتها بما يرون أنهم بعداء عنهم ، مشغولون بما لا يجدى عليهم في الملك والسياسة .

ويقول نيكلسون (٢) « وكان لانبساط رقعة الدولة العباسية ، ووفرة ثروتها ، ورواج تجارتها ، أثر كبير في خلق نهضة ثقافية لم يشهدها الشرق من قبل ، حتى لقد بدا أن الناس جميعا ، من الخليفة إلى أقل أفراد العامة شأنًا ، قد غدوا نجاة طلابا للعلم ، أو على الأقل أنصارا للآداب . وفي عهد الدولة العباسية كان الناس يجوبون ثلاث قارات سعيًا إلى موارد العلم والعرفان ، ليعودوا إلى بلادهم كالنحل يحملون الشهد إلى جموع التلاميذ المتلهفين ، ثم يصنفون بفضل ما بذلوه من جهد متصل ، هذه المصنفات التي هي أشبه شيء بدوائر المعارف ، والتي كان لها أكبر الفضل في إيصال هذه العلوم الحديثة إلينا بصورة لم تكن متوقعة من قبل . »

(١) Nicholson : Lit. Hist. of the Arabs, p. 281.

(٢) كذا بالأصل وأعله يريد أن يقول : والزجاج من بعده والفارسي من بعدهما ، لأن الزجاج

متقدم على أبي على الفارسي .

تقسيم العلوم :

وقد ميز كتاب المسلمين بين العلوم التي تتصل بالقرآن الكريم ، وبين العلوم التي أخذها العرب عن غيرهم من الأمم . ويطلق على الأولى العلوم العقلية أو الشرعية ، وعلى الثانية العلوم العقلية أو الحكيمة ، ويطلق عليها أحيانا علوم العجم أو العلوم القديمة . وتشمل العلوم العقلية : علم التفسير ، وعلم القراءات ، وعلم الحديث ، والفقه ، وعلم الكلام ، والنحو ، واللغة ، والبيان ، والأدب . وتشمل العلوم العقلية : الفلسفة ، والهندسة ، وعلم النجوم ، والموسيقى ، والطب ، والسحر ، والكيمياء ، والتاريخ ، والجغرافيا .

وفي العصر العباسي الأول اشتغل الناس بالعلوم الدينية ، وظهر المتكلمون ، وتكلم الناس في مسألة خلق القرآن . وتدخل المأمون في ذلك ، فأوجد مجالس للمناظرة بين العلماء في حضرته ، ولهذا عاب الناس عليه تدخله في الأمور الدينية ، كما عابوا عليه تفضيله على ابن أبي طالب على سائر الخلفاء الراشدين والأمويين . وذهب البعض إلى أن المأمون أراد بعقد هذه المجالس إزالة الخلاف بين المتناظرين في المسائل الدينية ، وتثبيت عقائد من زاغوا عن الدين ، وبذلك تتفق كلمة الأمة في المسائل الدينية التي كانت مصدر ضعفهم . وكان المأمون يميل إلى الأخذ بمذهب المعتزلة ، لأنه أكثر حرية واعتماداً على العقل ، فقرب أتباع هذا المذهب إليه ، ومن ثم أصبحوا ذوى نفوذ كبير في قصر الخلافة .

(١) العلوم العقلية :

١ — علم القراءات :

ومن العلوم التي اشتغل بها العباسيون علم القراءات ، ويعتبر المرحلة الأولى لتفسير القرآن . وتركز النواة التي بدأ بها هذا العلم في القرآن نفسه وفي نصوصه نفسها ، وبعبارة أوضح في قراءاته . ففي هذه الأشكال المختلفة نستطيع أن نرى أول محاولة للتفسير . ويرجع السبب في ظهور بعض هذه القراءات إلى خاصية الخط العربي ، إذ أن الرسم الواحد للكلمة الواحدة يقرأ بأشكال مختلفة تبعا للنقط فوق الحروف أو تحته .

وقد وجدت في القراءات على مر الزمن سبع طرق ، كل طريقة تمثلها مدرسة معترف بها ، ترجع قراءتها إلى إمام ترتبط باسمه وتستند إلى أحاديث موثوق بها ، وعليها يجب أن يقتصر في قراءة المصحف . ويعتبر هارون بن موسى البصرى اليهودي الأصل (المتوفى بين سنتي ١٧٠ و ١٨٠ هـ) ، الذي كان مولى للأنزاد ، أول من حاول نقد القراءات المختلفة ، وبحيث وجوه النظر التي تقوم عليها ، ونقد الأسانيد التي تستند إليها نقداً قوياً . وعلى الرغم من أنه كان قدرياً معتزلياً ، فقد قدره البخارى ومسلم ، ووثقه يحيى بن معين . ويرجع أغلب الاختلافات في القراءات إلى رجال موثق بهم من عاشوا في القرن الأول كابن عباس وعائشة ،

وعثمان صاحب القراءة، وابنه أبان، وإلى قراء معترف بهم، كعبد الله بن مسعود، وأبي بن كعب، وهؤلاء قد اثنى عليهم التابعون وغيرهم (١).

ومن أشهر أصحاب القراءات في العصر العباسي الأول يحيى بن الحارث الذمري (٢) المتوفى سنة ١٤٥ هـ، وحزمة بن حبيب الزيات المتوفى سنة ١٥٦ هـ في خلافة أبي جعفر المنصور، وأبو عبد الرحمن المقرئ المتوفى سنة ٢١٣ هـ، وخلف بن هشام البزاز المتوفى سنة ٢٢٩ هـ (٣).

٢ — التفسير :

اتجه المفسرون في تفسير القرآن اتجاهين : يعرف أولهما باسم التفسير بالمأثور، وهو ما أثر عن الرسول وكبار الصحابة، ويعرف ثانيهما باسم التفسير بالرأى، وهو ما كان يعتمد على العقل أكثر من اعتماده على النقل. ومن أشهر مفسري هذا النوع المعتزلة.

على أن النوع الأول من التفسير، وهو التفسير بالمأثور، قد اتسع على مر الزمن بما أدخل عليه من آراء أهل الكتاب الذين دخلوا في الإسلام، والذين كانت لهم آراء أخذوها عن التوراة والإنجيل مثل كعب الأحبار اليهودي وعبد الله بن سلام وابن جريج. ولقد كان إسلام هؤلاء فوق التهمة والكذب، ورفعوا إلى درجة أهل العلم الموثوق بهم (٤)، كما كانوا يتخذون الشعر مرجعاً للتفسير في استعماله اللغوية. وقد أثر عن ابن عباس أنه قال : إذا تعاجم شيء من القرآن فانظروا في الشعر فإن الشعر عربي، حتى لقد كان يفسر كثيراً من الآيات القرآنية بألفاظ وردت في الشعر الجاهلي (٥).

ولما كان الحديث يشغل كل عناية المسلمين في صدر الإسلام، فقد اعتبر التفسير جزءاً من الحديث، أو فرعاً من فروعه، حتى إن التفسير في ذلك العهد كان تفسيراً لآيات مبثورة غير مرتبة حسب ترتيب السور والآيات، إلا تفسير ابن عباس، ولو أن كثيرين يشكون في نسبته إليه. أما الطريقة المنظمة في تفسير القرآن، فإنها لم تحدث إلا في العصر العباسي. وقد روى ابن النديم (٦) : أن عمر بن بكير كان من أصحابه، وكان منقطعاً إلى الحسن بن سهل، فكتب إلى الفراء أن الأمير الحسن بن سهل ربما سألني عن الشيء بعد الشيء من القرآن فلا يحضرني

(١) جولدسيهر : المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن — ترجمة الدكتور علي حسن عبد القادر

ص ٣٦ — ٣٧.

(٢) نسبة إلى ذمار وهو مخالف من مخاليف اليمن.

(٣) ابن قتيبة : كتاب المعارف ص ٢٣٠ — ٢٣١ ؛ ابن النديم : كتاب الفهرست ص ٤٢ — ٤٥.

(٤) كتاب المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن ص ٦٦.

(٥) نفي المصدر ص ٦٨ — ٦٩. (٦) كتاب الفهرست ص ٩٩.

فيه جواب؛ فإن رأيت أن تجمع لى أصولاً أو تجعل فى ذلك كتاباً أرجع إليه فعلت، فقال
القراء لأصحابه: اجتمعوا حتى أملى عليكم كتاباً فى القرآن، وجعل لهم يوماً. فلما حضروا
خرج إليهم، وكان فى المسجد رجل يؤذن ويقرأ بالناس فى الصلاة، فالتفت إليه القراء
فقال له: اقرأ! وبدأ بفاتحة الكتاب ففسرها، ثم استوفى الكتاب كله، فقرأ الرجل، ويفسر
القراء، فقال أبو العباس: لم يعمل أحد قبله مثله، ولا أحسب أن أحداً يزيد عليه، ولا شك
أن القراء قد فسر القرآن حسب ترتيب الآيات، وأنه فسر هذه الطريقة التى رسمها لنفسه
فى أربعة أجزاء (١).

ومن أشهر المفسرين بعد عبد الله بن عباس ابن جريح الذى كان يجمع كل ما وصل إليه
دون تحرى الدقة فى التفسير، والشاذى المتوفى سنة ١٢٧ هـ، وقد اعتمد فى تفسيره على
ابن عباس وابن مسعود وغيرهما من الصحابة، ومقاتل بن سليمان المتوفى سنة ١٥٠ هـ، وقد تأثر
بتفسير التوراة الذى اتخذه عن اليهود، حتى اتهمه الإمام أبو حنيفة بالكذب، وتفسير محمد
ابن اسحق الذى أخذ كثيراً من آرائه عن اليهودية والنصرانية عن وهب بن منبه وكعب
الأخبار. على أن هذه التفاسير قد زالت، ولم يصل إلينا شيء منها إلا عن محمد بن جرير الطبرى
(+ ٣١٠ هـ) فى تفسيره المشهور الذى يقع فى ثلاثين مجلداً (٢)، والذى وصفه أبو حامد
الأسفرائنى بقوله: «لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل كتاب تفسير محمد بن جرير الطبرى
لم يكن ذلك كثيراً». ويقول جولد تسيهر إنه دائرة معارف غنية فى التفسير المأثور (٣).
ويمتاز الطبرى فى تفسيره بتحرى الدقة فى النقل عن الرسول والصحابة والتابعين، ومعارضته
أصحاب رأى المستقلين فى التفكير، لأنهم كثيراً ما يتبعون هواهم. «وقد أعطى — كذلك —
فى تفسيره لإجماع الأمة سلطاناً كبيراً. وعلى هذا النحو انتظم فى تفسيره، آية بعد آية، التفسير
بالروايات المروية عن العلماء المعبرين وحدهم، وأيد ذلك بالأسانيد المختلفة بالرجال الذين
وصلت إليه المعرفة عن طريقهم. ولم يسلك هذا الطريق على نحو آلى، وإنما فعل ذلك على
مثال ما كان يسير عليه العلماء المسلمون من وقت طويل، من نقد الرجال جرحاً وتعديلاً.
فعندما يظهر له أن الحديث غير موثوق به، فإنه يصرح فيه بما يناسبه، حتى آراء ابن عباس
وقف حيالها موقفاً حراً صريحاً. وقال مرة عن مجاهد الذى كان يجب اتباعه، إن رأيه «يخالف
إجماع الحجة الذى لا يمكن نسبته إلى الكذب»، وفى مرة أخرى «وما ذكرهنا عن مجاهد لا معنى
له وفساد رأيه لا شك فيه». وعلى هذا الشكل كان يعالج أيضاً آراء الضحاك وغيره من الرواة

(١) ابن النديم ص ١٠٠. (٢) القاهرة (سنة ١٩٠٤).

(٣) كتاب المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن ص ٨٥ — ٨٦.

عن ابن عباس (١). ويمتاز ابن جرير الطبري عن سبقه من المفسرين، بأنه كان يأتي بأخبار مأخوذة من القصص الإسرائيلية من مراجع يهودية الأصل (مثل كتب الأحبار ووهب ابن منبه)، ولكنه لا يتمسك في ذلك بإيجاب المتقدمين بلا قيد ولا شرط (٢).

وقد امتاز العصر العباسي الأول بوجود جماعة من المعتزلة (أحرار الرأي) الذين لم يتقيدوا بالفسير بالمأثور، وإنما كانوا يعتمدون في دعم آرائهم على العقل؛ وقد بذلوا جهدا عظيما لدحض آراء معارضهم بتفسير بعض الآيات القرآنية تفسيراً يتفق مع مبادئهم العقلية. ويقول جولدتسيهر (٣): «وقد جر سلوك هؤلاء المعتزلة المخالف لبعض النظريات الدينية السائدة عند المحدثين، إلى التباعد بين هؤلاء المنظرين الذين يعتمدون على العقل، مع أولئك الانتقياء المبالغين في الدقة، وكان ذلك في العصر العباسي الأول، وما لبثوا بعد ذلك حتى صاروا فرقة خالفت (وإن تكن للمخالفة أيضا بواحد أخرى) النظريات المروية على خط مستقيم بكل حرية واستقلال».

وقد تلا هذا أنه كان من الضروري لهذه الفرقة — المعتزلة — في سبيل مكافحة خصومها، أن تؤسس وتدعم تعاليمها على أسس دينية من القرآن، ومن جهة أخرى أن تردد حجج هؤلاء الخصوم وتضعف من قوتها من القرآن أيضا، وذلك كله بطريق التفسير الماهر واستخدامه في سبيل ذلك.

وقد جذب جولدتسيهر طريقة المعتزلة في تفسير القرآن وجعلهم العقل مقياسا للحقائق الدينية، لأنهم بهذا كلفوا الخرافات والتصورات المخالفة لطبيعة الأشياء التي وجدت طريقها إلى الدين (٤).

ومن أشهر تفاسير المعتزلة تفسير أبي بكر الأصم (+ ٢٤٠ هـ)، وتفسير ابن جرو الأسدي (+ ٣٨٧ هـ)؛ وقد قيل إنه كتب في تفسير البسملة نحو ١٢٠ وجها.

من ذلك نرى أن القرآن الكريم قد أصبح منبعاً لكثير من العلوم التي اشتغل بها المسلمون في العصر العباسي: فعلماء النحو قد اتخذوا منه مادة خصبة يعتمدون عليها في استنباط قواعد اللغة العربية، كما ساعد الإعراب على تفسير القرآن تفسيراً صحيحاً، وكشف غوامض بعض الآيات القرآنية، حتى لقد وضع بعض علمائهم، كالإسكافي والبرقي والفرجاني وخلف النحوي، كتباً أطلقوا عليها معاني القرآن (٥). كما اعتمد الفقهاء في آرائهم الفقهية على القرآن

(١) المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن ص ٨٦ — ٨٧. (٢) نفس المصدر ص ٨٨.

(٣) نفس المصدر ص ٩٩ — ١٠٠.

(٤) نفس المصدر ص ١٣٧.

(٥) ابن النديم: كتاب الفهرست ص ٥١ — ٥٢.

والفوا في المذاهب المختلفة ، كتبها سموها « أحكام القرآن » . ومن هؤلاء الشافعي وأبو بكر الرازي والكلبي ويحيى بن أكثم ^(١) . أضف إلى ذلك ما كتبه المؤرخون من تفسير الآيات القرآنية التاريخية من حيث صلتها بتاريخ الأمم الأخرى . وغير خاف أن القرآن الكريم هو بلا نزاع من أهم المصادر التاريخية ، لأنه أقدمها وأصدقها وأوسعها مجالا ، ولا سيما في الكلام على النبي صلى الله عليه وسلم . فمن القرآن نستطيع أن ننظر إلى النبي من حيث هو نبي أو سياسي أو مشرع ، أو من حيث هو مصاح اجنائي ، أو من حيث كونه رجلا عاديا . وبهذا كله نجد صورة واضحة للنبي من جميع هذه الوجوه . كما نجد في القرآن مصدرا لتاريخ الأمم الأخرى كدولة سبأ في اليمن (سورة النمل وسورة سبأ) ، وتاريخ اليهود (سورة البقرة) وصراعهم مع الرسول (سورة الأحزاب) وعلاقتهم بموسى (سور البقرة والنمل والقصص وغيرها) .

كما أخذ علماء الكلام يفسرون القرآن بما يتفق ومبادئهم . فأولوا القرآن لنبي الصفات عن الله سبحانه وتعالى ، وإبعاد الخرافات التي وجدت سبيلا إلى الدين الإسلامي عن طريق التفسير .

٣ — الحديث :

ومن مصادر التشريع الإسلامي « الحديث » ، وهو ما أثر عن النبي من قول أو فعل أو تقرير لشيء رآه ، وبأني في الأهمية بعد القرآن . وقد جمع البخاري ، على ما نعلم ، نحو ٧٢٧٥ حديثا بما فيها الأحاديث المكررة . فإذا حذفنا المكرر منها ، أصبح عددها نحو أربعة آلاف . وقد اختارها البخاري — على ما قيل — من ثلثمائة ألف حديث . ومع ذلك فإن الإمام أبا حنيفة لم يثن إلا بسة عشر حديثا . ومن ذلك يتبين لنا مبلغ ما وصل إليه التحريف في الحديث .

وكانت هذه الأحاديث التي وصلت إلى أيدينا موضعا للجدل العنيف بين فقهاء المسلمين : ذلك أنه عند وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام ، لم يكن السواد الأعظم من العرب يستطيعون القراءة والكتابة ، حتى إن تاريخ هذه الأمة لم يدون إلا بعد زمن طويل . وقد روى العرب الأحاديث النبوية بعضهم عن بعض ، فتأثرت بشيء غير قليل من التبديل والتحريف ، مما أدى بها إلى الغموض والإيهام ، فشوهت معانيها والظروف التي أحاطت بوقوعها وقولها . حتى إذا جاء القرن الثاني للهجرة ، أخذ العرب يدرون الأحاديث النبوية ، وأتاحوا الفرصة لظهور طائفة من أئمة الحديث الذين اشتهر منهم الإمام مالك ، والإمامان محمد بن اسماعيل البخاري

(+ ٢٥٦ هـ) ، ومسلم بن الحجاج القشيري صاحب الصحيحين المشهورين الذائعين في بلاد الإسلام . ثم ظهر بعدهما الإمام أحمد بن حنبل (+ ٢٤١ هـ) صاحب المسند ، وأبو داود السجستاني (+ ٢٧٥ هـ) صاحب السنن ، وأبو عيسى محمد الترمذي (+ ٢٧٨ هـ) صاحب الجامع ، والنسائي وابن ماجه صاحب السنن ، وكلهم من ألفت في السنن كتابا نسب إليه . ولا تزال كتبهم باقية ، وهي أشهر كتب السنة ، ولكن أشهرها جميعا صحيحا البخاري ومسلم . وهذه الكتب الستة ، كما تسمى ، تحتل المكانة السامية بين مصادر التشريع الإسلامي ^(١) .

٤ - الفقه :

نشأ عن دراسة القرآن والحديث وتعرف معانيهما الخاصة ، الحاجة إلى تعلم النحو واللغة ، وتطلب ذلك فهم الشعر الجاهلي الذي أمد الباحثين بأحسن ما تمثله اللغة العربية من الأدب القديم الخالص ، كما تطلب فهم اللغة العربية دراسة الأنساب والتاريخ التي مالبثت أن أصبحت على مر الزمن علوما مستقلة . كذلك عكف المسلمون على تفسير القرآن ، وحذا حذوهم في ذلك بعض التابعين . ولم يكن تدوين الحديث شائعا في القرن الأول الهجري ، غير أن الناس أقبلوا منذ مستهل القرن الثاني على جمعه وتدوينه ، حتى أصبح المحور الذي تدور عليه الحركات العلمية في الأمصار الإسلامية .

ومن أشهر فقهاء هذا العصر الإمام أبو حنيفة النعمان ، الذي ولد بالكوفة سنة ٨٠ هـ ، ومات ببغداد سنة ١٥٠ . وقيل إنه حج في السادسة عشرة من عمره مع أبيه ، وشهد عبد الله ابن الحارث أحد الصحابة يحدث بما سمع عن رسول الله ، كما روى أيضا أنه سمع أفس بن مالك .

وكان أبو حنيفة بجانب اشتغاله بالعلم يحترف التجارة ببيع الخبز ، ويجلس في الأسواق ، مما أكسبه خبرة عظيمة ، وجعله يعرف حقيقة ما يجري في الأسواق من معاملات الناس في البيع والشراء .

وقد تعلم أبو حنيفة الفقه في مدرسة الكوفة ، وأخذ عن عطاء بن أبي رباح وهشام بن عروة ، ونافع مولى عبد الله بن عمر ، واسكنه أخذ أكثره عن أستاذه حماد بن أبي سليمان الأشعري . وكان أبو حنيفة يثبده في قبول الحديث ويتحرى عنه وعن رجاله ، فلا يقبل الخبر عن رسول الله ، إلا إذا رواه جماعة عن جماعة ، أو إذا اتفق فقهاء الأمصار على العمل به .

ولم يصل إلينا أى كتاب فى الفقه لأبى حنيفة ؛ إلا أن ابن النديم ^(١) ذكر من بين كتبه كتاب الفقه الأكبر ، وهو فى العقائد ، ورسائله إلى البسّى ، وكتاب العالم والمتعلم ، وكتاب الرد على القدرية ، والعلم برأ وبحراً شرقاً وغرباً بعداً وقرباً .

ومن فقهاء ذلك العصر مالك بن أنس الذى ولد سنة ٩٣ هـ (أو سنة ٩٧ هـ) ، وتوفى سنة ١٧٩ هـ ، وقضى حياته بالمدينة المنورة . وروى أنه أخذ قراءة القرآن عن نافع بن أبى نعيم ، وسمع الحديث من كثير من شيوخ المدينة كابن شهاب الزهري ونافع مولى ابن عمر .

وكان مالك بن أنس أول من كتب فى العلوم الدينية فى العصر العباسى ، وكتابه ، الموطأ ، أول كتاب ظهر فى الفقه الإسلامى ، ومن كتبه ، المدونة ، وهى مجموعة رسائل من فقه مالك ، جمعها تلميذه أسد بن الفرات النيسابورى ، وتشتمل على نحو ست وثلاثين ألف مسألة . وكان مالك يعتمد على الحديث كثيراً ، لأن بيته الحجازية كانت تزخر بالعلماء والمحدثين الذين تلقوا الحديث عن الصحابة رضوان الله عليهم ، وورثوا من السنة ما لم يتبع لغيرهم من أهل الأمصار الإسلامية الأخرى . ومن اشتهر بالفقه من تلاميذ مالك محمد بن الحسن فى العراق ، ويحيى بن يحيى الليثى فى الأندلس ، وعبد الله بن وهب ، وعبد الرحمن بن القاسم ، وعبد الله بن الحسك فى مصر ، وأسد بن الفرات فى القيروان .

ومن أشهر أئمة هذا العصر أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعى . وكان شديداً فى التشيع ، حتى إنه حضرات يوم مجلسا فيه بعض الطائيين فقال : « لا أتكلم فى مجلس يحضره أحدهم ، هم أحق بالكلام ولهم الرياسة والفضل » . وقد ترك بلاد العراق سنة ٢٠٠ هـ ، وقصد مصر ، حيث مات بها سنة ٢٠٤ هـ . وله كتب كثيرة فى الفقه ، منها كتاب المبسوط فى الفقه ، وكتاب الأم ، وقد أملاه على تلاميذه فى مصر . وروى عنه كثير من الفقهاء كأبى ثور وابن الجنييد والبويطى وابن سرينج وغيرهم ^(٢) .

ومن هؤلاء الأئمة أحمد بن حنبل ، الذى قال فيه الإمام الشافعى حينما خرج من بغداد إلى مصر : « خرجت من بغداد وما خلفت بها أنقى ولا أفقه من ابن حنبل » . إلا أن مذهبه قليل الاتباع ، وأكثرهم بالشام والعراق وبغداد ونجد والبحرين . وقد شهد له أئمة عصره بالانفراد بالزهد والورع والتقوى . وموقفه من مشكلة خلق القرآن يدل على قوة عزمته وشدة تمسكه بالدين .

(١) كتاب الفهرست ص ٢٨٥ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٩٤ — ٣٠٠ .

ومن فقهاء ذلك العصر أبو يوسف الذى ولد سنة ١١٣ وتوفى سنة ١٨٢ هـ . وقد ذكر المترحمون له أنه نشأ فقيراً ، وأن أستاذه أبا حنيفة كان يمدّه بالمال . وقد تولى أبو يوسف القضاء للبهدي والهادي والرشيدي . وكان فى أيام الرشيد يتقلد منصب قاضى القضاة .

وكان أبو يوسف أكبر تلاميذ أبي حنيفة ؛ وقد أخذ عنه الفقه ، وعمل على نشر مذهبه ومبادئه بعد أن تقلد قضاء بغداد . ومن مؤلفات أبي يوسف كتاب الخراج الذى ألفه للرشيد . وقد تعرض أبو يوسف فى كتاب الخراج لأهم أمور الدولة المالية التى لا يستطيع الإمام بها إلا من كان فى مثل منصبه ، وقربه من الخلفاء ، وتضلعه فى الفقه الإسلامى .

٥ — علم الكلام :

ومن العلوم التى اشتغل بها العباسيون علم الكلام ، ويقصد به الأقوال التى كانت تصاغ على نمط منطقي أو جدلي ، وعلى الأخص المعتقدات ، كما يسمى المشتغلون بهذا العلم والمتكلمين . وكان يطلق هذا اللفظ أول الأمر على من يشتغلون بالمعتقد الدينية ، غير أنه أصبح يطلق على من يخالفون المعتزلة ويتبعون مذهب أهل السنة والجماعة ، وفى ذلك يقول الغزالي (١) : « وإنما مقصوده حفظ عقيدة أهل السنة ، وحراستها عن تشويش أهل البدعة . فقد ألقى الله (تعالى) إلى عباده على لسان رسوله عقيدة هى الحق ، على ما فيه صلاح دينهم ودنياهم ، كما نطق بمعرفته القرآن والأخبار . ثم ألقى الشيطان فى وسوس المبتدعة أموراً مخالفة للسنة ، فلم يجوا بها وكادوا يشوشون عقيدة الحق على أهلها . فأنشأ الله تعالى طائفة المتكلمين ، وحرك دواعيم لنصرة السنة بكلام مرتب ، يكشف عن تلبيسات أهل البدعة المحدثين على خلاف السنة الماثورة ، فنه نشأ علم الكلام وأهله . فلقد قام طائفة منهم بما ندبهم الله (تعالى) إليه ، فأحسنوا الذب عن السنة ، والنضال عن العقيدة المتلقاة بالقبول من النبوة والتغيير فى وجه ما أحدث من البدعة . »

ومن أشهر المتكلمين وأصل بن عطاء ، وأبو الهذيل العلاف ، والنظام ، وأبو الحسن الأشعري ، وحجة الاسلام الغزالي .

ويقول دى بور (٢) : على أن ظهور الكلام فى الإسلام كان بدعة من أكبر البدع ، وقد شدد فى التكسير على هذا العلم أهل الحديث الذين كانوا يرون أن ما جاوز البحث فى الأحكام الفقهية العملية ابتداء ، لأن الإيمان عندهم هو الطاعة ، لا كما يذهب إليه المرجئة والمعتزلة من أنه هو العلم ، بل إن هؤلاء الأخيرين كانوا يعتبرون النظر العقلى من الواجبات المفروضة على

(١) كتاب المنقذ من الضلال (طبعة دمشق سنة ١٣٥٣ هـ = ١٩٣٤ م) ص ٧٩ .

(٢) تاريخ الفلسفة فى الاسلام — ترجمة أبو ريده ص ٥١ .

المسلمين . وقد صادف هذا رأى قبولاً في ذلك العهد ، وفي الحديث أن النبي قال : أول ما خلق الله تعالى العلم : أو العقل .

إلا أن بعض أهل الحديث كانوا يعيبون على المتكلمين ردّهم على أهل البدع ، بحجة أن في ذلك الرد ترويحاً لعقائد هؤلاء المبتدعين ، وذلك لأنهم — كما يقول الغزالي (١) : « اعتمدوا على مقدمات تسلبوها من خصومهم ، واضطروهم إلى تسليمها ، إما التقليد أو إجماع الأمة ، أو مجرد القبول من القرآن والأخبار . وكان أكثر خوضهم في استخراج مناقضات الخصوم ومؤاخذتهم بلوازم مسلماتهم . وهذا قليل النفع في حق من لا يسلم سوى الضروريات شيئاً أصلاً . »

على أننا نرى أن المتكلمين باستخدامهم أسلحة خصومهم قد نجحوا في الرد عليهم ، كما نجحوا في دعم علم الكلام وتقويته . ويقول نيرج في مقدمة كتاب الانتصار والرد على ابن الراوندي (٢) : « لحلت المعتزلة (وهم من المتكلمين) من تاريخ الإسلام محل المدافعين عن حوزة المسيحية في أول أمرها من تاريخ المسيحية ، فكما أنه لا ريب في أن أولئك المدافعين هم الذين أسسوا علم اللاهوت بمناظراتهم فلاسفة الوثنيين واختلاسهم أسلحتهم من أيديهم عند ذلك ، كذلك أوجدت المعتزلة كلام الإسلام وأسسته . »

وقد غلا خصوم المتكلمين فرمواهم بالزندقة ، وقالوا « علماء الكلام زنادقة » . ويقول الشهرستاني (٣) : « فالمعتزلة غالوا في التوحيد بزعمهم ، حتى وصلوا إلى التعطيل بنفي الصفات » .

وكان لتعاليم المعتزلة أثر كبير في النهضة الثقافية في العصر العباسي الأول ، ولا سيما في مسألة القرآن ، وهل هو مخلوق أو قديم ، وفي المناظرات التي عمل المأمون على ترويحها لنشر العلم وإزالة الخلاف بين العلماء . وقد ظهر في عهده جماعة من كبار العلماء والمتكلمين الذين تناولوا أصول الدين والعقائد ، وحكموا عقولهم في البحث ، ونشأت بسبب ذلك اعتقادات تخالف اعتقادات عامة المسلمين وجمهور علماءهم المعروفين بأهل الحديث . وكان اعتماد المتكلمين في مباحثهم على العقل دون النقل . ومال المأمون إلى الأخذ بمذهب المعتزلة ، لأنه أكثر حرية واعتماداً على العقل ، فقرّب اتباع هذا المذهب إليه . ومن ثم أصبحوا ذوي نفوذ في قصر الخلافة ببغداد ، ووافقهم فيما ذهبوا إليه من أن القرآن مخلوق ، وعهد إلى تسخير قوة السولة لحمل الناس على القول بخلق القرآن كما تقدم .

(١) المنقذ من الضلال ص ٧٩ — ٨٠ .

(٢) ص ٥٨ — ٥٩ . (٣) الملل والنحل ج ١ ص ٢٠ .

وصفوة القول أن بعض خلفاء العصر العباسي ، كالمأمون والمعتصم والواثق ، شجع بعض الآراء الفلسفية والبحث العقلي في المسائل الدينية ، ووقع هؤلاء الخلفاء فيما وقع فيه الروم من قبل ، فأخذوا ببعض هذه الآراء ، واضطهدوا المعارضين لها ، وعضدوا علماء الكلام فيما ذهبوا إليه من المسائل الدينية ، وبخاصة مسألة خلق القرآن ، التي شغلت عقول الخلفاء وعلماء الكلام نحو خمس عشرة سنة (٢١٨ — ٢٣٢ هـ) .

ومن أبرز متكلمي المعتزلة أبو الهذيل العلاف الذي ولد سنة ١٣٥ هـ ومات سنة ٢٣٥ هـ ، وكان من أقوى الشخصيات في مدرسة البصرة ، كما كان رئيس طائفة المعتزلة في أيامه ، واشتهر بالجدل . وقد وصفه الخياط المعتزلي ^(١) بقوله وهو نسيج وحده ووحيد دهره في البيان ومعرفة جيد الكلام . . وكان أبو الهذيل واسع الاطلاع فصيحاً . يدل على ذلك قول احمد بن يحيى ابن المرتضى المتوفى سنة ٣٢٥ هـ ، وكان من أئمة الزيدية الذين يميلون إلى مذهب المعتزلة : « ما رأيت أفصح من أبي الهذيل والجاحظ . وكان أبو الهذيل أحسن منّاظرة ، شهدته في مجلس وقد استشهد في جملة كلامه بثلاثمائة بيت ^(٢) » . واشتهر أبو الهذيل بقوة الجدل والإقناع ، حتى قيل إنه أسلم على يديه ثلاثة آلاف رجل ، وشغل كل حياته بالجدل مع الزنادقة والجوس والثنوية وغيرهم . وقد ناظر مرة صالح بن عبد القدوس ، وكان زنديقاً فغلبه ، فأشدد صالح هذا البيت :

أبا الهذيل جزاك الله من رجل فأنت حقاً لعمري معضل جدل

وبالإضافة إلى ما امتاز به أبو الهذيل من سعة الاطلاع والفصاحة وقوة الحججة ، أفاد كثيراً من وراء اشتغاله بالفلسفة اليونانية . وقد شهد له بذلك النظام المعتزلي ، الذي قال عنه حين ناظره في الفلسفة : « فلما ناظرته خيّل إليّ أنه لم يكن متشاعلاً إلا بها ^(٣) » . ويقول دى بور ^(٤) : « وكان متكلماً مشهوراً ، وهو أول المفكرين الذين فسحوا للفلسفة المجال لتؤثر في مذاهبهم الكلامية » .

٦ — النحو

وقد نشأ علم النحو في البصرة والكوفة اللتين صارتا من أهم مراكز الثقافة في القرن الأول الهجري ، وفيها وضعت علوم العقائد والفقه ، ونشأت مدرسة النحويين واللغويين . وكان يقيم في هاتين المدينتين جالية تنسب إلى قبائل عربية مختلفة ذات لهجات متعددة ، وآلاف من

(١) الانتصار والرد على ابن الراوندى للمحدث ٦٧ .

(٢) احمد بن يحيى بن المرتضى : كتاب النية والأمل ص ٢٦ .

(٣) نفس المصدر ص ٢٦ . (٤) ص ٥٧ .

الصناع والموالي الذين كانوا يتكلمون الفارسية . ومن ثم تعرضت العبارات العربية السليمة إلى شيء غير قليل من الفساد ، ودعت الضرورة إلى تقويم اللسان العربي ، حتى لا يتعرض القرآن الكريم للتحريف . وكان أبو الأسود الدؤلي أول من اشتغل بالنحو في عهد الأمويين . وقد قيل إنه تلقى أصول هذا العلم عن علي بن أبي طالب (١) .

وكان أبو الأسود أول من وضع أساس مدرسة البصرة التي تعتبر أقدم من مدرسة الكوفة وأشهر منها . ولا غرو فقد تأثرت هذه المدرسة بالمنطق أكثر من منافستها مدرسة الكوفة ، حتى سمي نخبة البصرة « أهل المنطق » ، تميزا لهم عن نخبة الكوفة . وكانت مصطلحاتهم النحوية مباينة بعض المباينة لنظائرها عند الكوفيين . . . وسبقت أهل البصرة إلى الانتفاع بالمنطق لم يكن محض اتفاق ، لأن تأثير المذاهب الفلسفية قد ظهر في البصرة قبل ظهوره في غيرها . وكان بين نخبة البصرة كثير من الشيعة والمعتزلة الذين فسحوا السبيل للحكمة الأجنبية كي تؤثر في مذاهبهم الكلامية (٢) .

ومن علماء البصرة المبرزين أبو عمرو بن العلاء (+ ١٥٣ هـ = ٧٧٠ م) الذي اشتغل بالتفسير ، والخليل بن أحمد واضع علم العروض ، وصاحب كتاب « العين » الذي يعتبر أول معجم وضع في اللغة العربية ، وسيبويه الفارسي ، ويعرف كتابه باسم « كتاب سيبويه » ، وفيه يقول دى بور (٣) : فلو نظرنا إلى كتاب سيبويه لوجدناه عملا ناضجا ومجهودا عظيما ، حتى إن المتأخرين قالوا : إنه لا بد أن يكون ثمرة جهود متضافرة لكثير من العلماء ، مثله مثل قانون ابن سينا في الطب . ومن هؤلاء العلماء الأصمعي وأبو عبيدة اللذان تألق نجمهما في عهد هارون الرشيد ، والمبرد صاحب كتاب الكامل الذي توفي بعد ذلك بقرن .

ومن أشهر علماء الكوفة الكسائي العالم الفارسي الذي عهد إليه هارون الرشيد بتهديب ابنه الأمين والمأمون ، وتليذه الفراء المتوفى سنة ٢٠٧ هـ (٨٢٢ م) ، والمفضل الضبي الذي صنف كتابه المفضليات وأهداه إلى الخليفة المهدي (٤) .

٧ - الشعر والأدب :

(١) الشعر :

كانت نزعة الأمويين عربية جاهلية ، لا تميل إلى الفلسفة ، بل يؤثر عليها الشعر الجيد والخطبة البليغة ، فأجاد بعض خلفائهم نظام الشعر : كيزيد بن معاوية ، حتى قالوا : بدى .

(١) ابن النديم : كتاب الفهرست ص ٦٠ — ٦١ .

(٢) دى بور : تاريخ الفلسفة في الاسلام ص ٣٨ — ٣٩ .

(٣) تاريخ الفلسفة في الاسلام — ترجمة أبو ريده ص ٣٨ .

(٤) Nicholson : Lit. Hist. of the Arabs, pp. 432 2. (٤)

الشعر بملك ، وختم بملك ، يعنون امراً القيس وزيد . وكان عبد الملك بن مروان شاعراً فصيحاً ، وقد نبغ في عهده من الشعراء جرير والأخطل والفرزدق .

أما في العصر العباسي فقد ظهر كثير من الشعراء ، الذين نهجوا بالشعر مناهج جديدة في المعاني والموضوعات والأساليب ، حتى فاقوا في كل ذلك من سبقهم من الشعراء الإسلاميين والنخضرين والجاهليين . ومن أشهر هؤلاء الشعراء أبو نواس ، وهو من أذاع القول في الخمر والغزل والصيد ، وغير ذلك من فنون الشعر التي تناسب ما انتشر في العصر العباسي من حضارة وترف ، وسخر من الأطلال التي جرى الشعراء على الإشادة بذكرها في مطلع قصائدهم ، كما أنحى على كل قديم . يدل على صحة هذا الرأي قول أبي نواس :

دع الأطلال تسفها الجنوب وتبلى عهد جدتها الخطوب
وخلل لراكب الوجناء أرضاً تخبئ بها النجبية والنجيب
بلاذئ نبتها عسسر وطلح وأكثر صيئدها صبع وذيب
ولا تأخذ عن الأعراب لهوا ولا عيشاً فعيثهم جديب
دع الألبان يشربها رجال رقيق العيش بينهم غريب (١)

وقد حذا ابن قتيبة حذو أبي نواس في القول بالتجديد . وكان أول من اشتهر بالنقد ، وأعلن أن الحكم على القدامى والمحدثين يجب أن يبنى على المواهب دون سواها ، بغض النظر عن الزمن الذي عاشوا فيه . وحذا حذو ابن قتيبة من جاء بعده من الكتاب كالثعالبي ، وابن خلدون ، الذي نادى بأن الشعراء يجب أن يتغنوا بذكر الطبيعة ، وأن ينشدوا الحقيقة ، لا أن يصفوا أسفاراً على ظهور جمال لم يركبوها ، ويقطعوا صحراوات لم يشاهدوها ، بدلا من أن ينظموا قصائدهم في أحد أنصار الأدب ، ممن يقيمون في نفس المدينة التي يقيمون فيها . ويتبين ذلك من عبارات ابن قتيبة في مقدمة كتابه « الشعر والشعراء » : ولم أقصد فيما ذكرته من شعر كل شاعر ، مختاراً له سبيل من قلد أو استحسنت باستحسان غيره ، ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه ، ولا المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره ، بل نظرت بعين العدل على الفريقين ، وأعطيت كلا حقه ، ووفرت عليه حظه . فاني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ، ويضعه موضع متخيره ، ويرذل الشعر الرصين ، ولا عيب له عنده إلا أنه قيل في زمانه ، (٢) .

Divan des Abu Nowas, Die Weinteder (ed. by Ahlwardt), No. (١)
10 VV. 1 — 5.

(٢) كتاب طبقات الشعراء لابن سلام (طبعة القاهرة) ص ٢ .
Nicholson : Lit. Hist. of the Arabs, pp. 286-7. راجع

ومن هؤلاء الشعراء أبو تمام الطائي الأكبر ، المشهور بنزعه العقلية والفلسفية في الشعر ، وتليذه أبو عبادة البحرى صاحب الأوصاف البديعية والمدايح الخالدة ، وابن الرومي المعروف بطول نفسه وغزارة شعره وغوصه على نادر المعاني وعجيب التصورات ، وأبو العتاهية الذي برع في فنون الشعر ، فاشتهر بالغزل الرقيق ، وعلى الأخص في عتبة جارية المهدي التي قال فيها .

يا عتبَ ما أنتِ إلا بدعةٌ خلقت
من غير طينٍ وخلقَ الناس من طين
إني لأعجب من حبِّ يقرَّبني
من يباعدني عنه ويقصيني (١)

وقال أبو العتاهية في قصيدة أخرى :

يا عتبُ مالي ولكِ
يا ليتني لم أركِ
ملكيتني فانتهمكي
ما شئت أن تنهكي
أبيت ليلي ساهرا
أرعى نجومَ الفلكِ
مفترا شا جمر الفضي
ملتحفا بالحسك (٢)

كما امتاز شعره بالحكمة والموعظة ، وهو القائل :

إن أخاك الصدوق من كان معك
ومن يضرب نفسه لينفعك
ومن إذا ريب الزمان صدعك
شئت شمل نفسه كي يجمعك (٣)

وقد قال الثعالبي في كتابه « قيمة الدهر » ، إن الشعراء المحدثين فاقوا شعراء الجاهلية في رقة اللفظ وعذوبة المعنى .

ومن بين العوامل التي ساعدت في العصر العباسي على ظهور المناهج الجديدة في الشعر ومعانيه وأخيلته وأساليبه ، وفي الأدب عامة :

١ — اختلاف صور الحياة وقيم الأشياء في الدولة العباسية عن نظائرها في الحياة الجاهلية ، ففضائل العرب في الجاهلية لم تعد في نظر الذين عاشوا في العصر العباسي الأول مما يتغنى به .
٢ — تطور الحياة المادية التي كانت في أيام الجاهلية تقوم على السداجة ، وذلك بسبب تعدد أعمال الناس ، وزيادة تجاربهم في العصر العباسي .

٣ — انتشار الشعورية التي قامت على حط شأن العرب ونقد أشعارهم ومعانيهم .

٤ — أثر الثقافة الأجنبية ، والفارسية خاصة ، في الشعر والأدب العباسي . إلا أنه على

(١) السعوى : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٥١ .

(٢) نفس المصدر ج ٢ ص ٣٣٩ .

(٣) نفس المصدر ج ٢ ص ٢٥٢ .

الرغم من هذا كله ، لا يزال يوجد في اللغة العربية بعض بقايا من قيود الشعر القديم كالقوافي والأوزان .

هـ — اعتماد الشعراء طوال أيام العباسيين — عدا فترات قليلة — على تشجيع الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة . ويرجع السبب في ذلك إلى أنه لم تكن هناك تجارة كتب منظمة ، كما لم يكن هناك أحد من الناشرين الذين يستطيعون نشر الكتب على نفقتهم . فكان كل اعتماد الشعراء في كسب عيشهم ، على التقرب من الخلفاء والمقربين إليهم من العظماء ، بالقصائد الرنانة ابتغاء المنح والعطايا . ولهذا كان الإغراق في المدح من أهم مميزات الشعر في أيام العباسيين . أضف إلى ذلك دخول غير العرب ، وخاصة الفرس في حلبة الشعراء . ولما كان الحكم في الدولة العباسية استبداديا ، كان الإفراط في المدح هو السبيل الوحيد إلى التقرب من الخلفاء ورجال دولتهم .

وكان للفرق الدينية ، كالشيعة والمعتزلة ، التي نشأت في القرن الأول الهجري ونمت في العصر العباسي الأول ، شعراء يدافعون عن مبادئهم ، ويحفظون أتباعهم لمقاومة كل اعتداء يحيق بهم من خلفاء ذلك العصر . ومن هؤلاء السيد الحميري (+ ١٧٣ هـ) ، وكان كيسانيا ، فأبان عن عقيدته في محمد بن الحنفية بن علي بن أبي طالب ، وأشاد بما آثره على ما تقدم في الباب الثالث (١) .

وكان للمعتزلة الذين نشطت دعوتهم في بداية العصر العباسي ونمت نموا سريعا في عصر المأمون ، شعراء يشيدون بمبادئهم وأعمالهم . من ذلك ما قاله بعضهم .

له خلف شعب الصين في كل ثغرة	إلى سوسها الأقصى وخلف البرابر
رجال دعة لا يفل عزيهم	تهكم جبار ولا كيد مكر
إذا قال : مرؤا في الشتاء تطاوعوا	وإن كان صيفا لم يخف شهر فاجر
بهجرة أوطان وبذل وكلفة	وشدة أخطار وكد المسافر
فأنجح مسعاهم وأثقب زئندهم	وأروى بقلج للخصم قاهر
وأوتاد أرض الله في كل بلدة	وموضع فتياها وعلم التشاجر
تراهم كأن الطير فوق رؤسهم	على عمة معروفة في المعاصر
وسياهم معروفة في وجوههم	وفي المشي حجابا وفوق الأباغر

وقد حفزت الانتصارات المتوالية التي ظفر بها الخلفاء العباسيون على الروم ، كثيرا من الشعراء إلى إنشاد القصائد الرائعة للشادة ببطولتهم ، وما أحرزوه من نصر وظفر

في سبيل دفع خطر الأعداء عن المسلمين . من ذلك ما قاله أبو العتاهية في مطلع قصيدته التي نظمها على أترانتصار الرشيد على الروم في هرقة :

ألا نادتُ هرقة بالخراب من الملك الموفق بالصواب (١)

ويقول مروان بن أبي حفصة هذه الأبيات التي يعبر فيها عن الهزائم التي ألحقها العباسيون بالروم :

وسدّت بهارون الثغور وأحكمت به من أمور المسلمين المرائر
وما أنفك معقودا بنصر لواءه له عسكر عنه تشظى العساكر
وكل ملوك الروم أعطاء جزية عن الرغم قسرا عن يد وهو صاغر
وقد مدح أبو تمام الخليفة المعتمد على أترانتصاره في عمورية بقصيدته التي قال فيها :
فتح الفتوح تعالى أن يحيط به نظم من الشعر أوثر من الخطب
فتح تفتح أبواب السماء له وتبرز الأرض في أثوابها القشب
يا يوم وقعت عمورية انصرفت عنك المنى حفلا معسولة الحلب
(ب) الأدب :

ويمثل الأدب وتاريخه في العصر العباسي الأول طائفة من الأدباء ، نخص بالذكر منهم عبد الله بن المقفع ، الذي يرجع إليه الفضل في نقل كثير من الكتب عن الفهلوية ، وهي الفارسية القديمة . ومن هذه الكتب كتاب كلیلة ودمنة الذي ترجمه عن أفاصيص بيدبا التي كتبت بالسفسكريتية ، وهي اللغة الهندية القديمة . ويعد هذا الكتاب من أقدم كتب النثر في الأدب العربي ، كما يعد مثلاً أعلى في سلامة الأسلوب وسلاسة العبارة . ومن أدباء هذا العصر أيضاً عبد الحميد الكاتب الذي يعتبر شيخ صناعة الكتابة ، والذي قيل فيه : « بدئت الكتابة بعبد الحميد » ، لأنه أحدث فيها أموراً فنية لم تكن من قبل ، كالتحميدات في صدور الرسائل وتقسيم الفقر والفصول ، وختم الرسائل بما يناسب المكتوب إليه ، وإطالتها في شئون الملك والسياسة لإطالة لم تعهد من قبل . وليس لعبد الحميد كتب ، وإنما خلف رسائل مشهورة مبثوثة في كتب الأدب والتاريخ ، من أشهرها رسالته إلى الكتاب ، ورسالته التي كتبها إلى ولي عهد مروان ابن محمد آخر خلفاء بني أمية . ويجمع أسلوبه بين الجزالة العربية وسهولة الحضريين ، مع غزارة المعاني ودقتها وحسن تقسيمها (٢) . ومن هؤلاء ابن قتيبة الذي ينسب إلى مدينة مرو حاضرة خراسان ، وقد تقلد منصب القضاء في مدينة دینور ، وعاش في بغداد في النصف الثاني من

(١) أنظر الباب الرابع ص ١٨٨ .

(٢) راجع ما كتبه الجهمشاري (كتاب الوزراء والكتاب — نصره الأستاذ مصطفى السقا سنة

١٣٥٧ هـ = ١٩٣٨ م) ص ٧٢ — ٨٢ .

القرن الثالث الهجري . ومن كتبه كتاب المعارف ، وكتاب الشعر والشعراء ، الذي نادى فيه بالتجديد وأنحى على كل قديم لوما ، وكتاب أدب الكاتب ، وكتاب عيون الاختبار الذي قسمه إلى عشرة كتب ، الحرب ، وكتاب السؤدد ، وكتاب الطبائع والأخلاق المذمومة وكتاب العلم والبيان ، وكتاب الزاهد ، وكتاب الإخوان وكتاب الحواميج ، وكتاب الطعام وكتاب النساء (١) .

ومن أدباء ذلك العصر عمرو بن بحر الجاحظ البصري ، الذي عرف بحرية الفكر والميل إلى عقائد المعتزلة ، حتى لقد نشأت فرقة تسمى الجاحظية نسبة إليه . ومن أشهر كتبه كتاب الحيوان ، وكتاب البيان والتبيين ، (٢) .

(ب) العلوم العقلية :

أما عن اشتغال المسلمين بالعلوم العقلية ، فيرى نيكلسون (٣) أنهم استمدوا آراءهم وعالمهم من الثقافة اليونانية ، التي كانت منتشرة في مصر وسورية وغربي آسيا منذ فترات الإسكندر . فانه لما اضمحلت مدرسة الرها في أواخر القرن الخامس الميلادي بسبب قيام الخلافات المذهبية ، لجأ علماءها الذين طردوا إلى بلاد الفرس ، واحتموا ببلاط كسرى أنو شروان (٥٣١ م) ، وكان قد رحب بفلاسفة مدرسة الأنطاكية الحديثة ، الذين نفاهم الإمبراطور جستنيان من أثينا لوثنيتهم ، وأسس في جنديسابور من أعمال خوزستان داراً للعلم قام فيها هؤلاء العلماء بتدريس الطب والفلسفة ، وبقي أثرها في تلك البلاد حتى ظهرت الدولة العباسية ، كما غدت حران مركزاً آخر من مراكز الثقافة اليونانية ببلاد العراق . وقد تكلم أدل حران ، وهم الصابئة ، اللغة العربية بسهولة ويسر ، وساعدوا إلى حد كبير على نشر الثقافة اليونانية بين المسلمين ، وإليهم يرجع الفضل في ترجمة كثير من الكتب عن اللغات الأجنبية .

١ — الترجمة :

ولم يكن لترجمة الكتب إلى العربية حظ كبير في عهد بني أمية . وكان خالد بن يزيد ابن معاوية أول من عنى بنقل علوم الطب والكيمياء إلى العربية : فدعا جماعة من اليونانيين المقيمين في مصر وطلب إليهم أن ينقلوا له كثيراً من الكتب اليونانية والقبطية التي تناولت البحث في صناعة الكيمياء العملية ، وعمل على الحصول على الذهب عن طريق الكيمياء .

(١) طبعته دار الكتب المصرية في أربعة مجلدات (١٣٤٣ — ١٣٤٨ هـ) .

(٢) Nicholson : Lit. Hist. of the Arabs, pp. 346-7.

(٣) Lit. Hist. of the Arabs, p. 258.

وكذلك عُرِبت الدواوين منذ عهد عبد الملك بن مروان ، بعد أن كانت بالفارسية واليونانية ، ونقل ديوان مصر من اليونانية والقبطية إلى العربية في عهد الوليد بن عبد الملك (١) .

فلما جاءت الدولة العباسية التي قامت بمساعدة الفرس ، ونشأ من ذلك اختلاط العنصرين العربي والفارسي ، اتجهت ميول الخلفاء العباسيين إلى معرفة علوم الفرس واليونان ، فعنى أبو جعفر المنصور بترجمة الكتب ، ونقل له حنين بن إسحق بعض كتب أبقراط وجالينوس في الطب ، كما نقل ابن المقفع (٢) كتاب كليله ودمنه من الفهلوية ، وترجم كتاب « السند هند » وكتاب إقليدس في الهندسة إلى العربية .

وقد زادت العناية بترجمة الكتب في عهد هارون الرشيد ، بعد أن وقع في حوزته بعض المدن الرومية الكبرى ، فأمر بترجمة ما عثر عليه من كتب اليونان ، كما نشطت حركة الترجمة ، بفضل تشجيع البرامكة للترجمين وإدراهم الأرزاق غليهم .

وقويت في عهد المأمون حركة النقل والترجمة من اللغات الأجنبية ، وخاصة من اليونانية والفارسية ، إلى العربية ؛ فأرسل البعوث إلى القسطنطينية لإحضار المصنفات الفريدة في الفلسفة والهندسة والموسيقى والطب . وقد روى ابن النديم (٣) أن « المأمون كان بينه وبين ملك الروم مراسلات ، وقد استظهر عليه المأمون ، فكتب إليه ، يسأله الأذن في إنفاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة المدخرة ببلد الروم ، فأجاب إلى ذلك بعد امتناع . فأخرج المأمون لذلك جماعة منهم الحجاج بن مطر ، وابن البطريق ، وسليمان صاحب بيت الحكمة وغيرهم ، فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا . فلما حملوه إليه أمرهم بنقله فنقل . ولم تكمد تلك الذخائر النفيسة تصل إلى بغداد حتى عهد إلهام المأمون في ترجمتها . وكان قسطا بن لوقا يشرف على الترجمة من اللغات اليونانية والسريانية والسكندانية إلى العربية ، كما كان يحيى بن هارون يشرف على الترجمة من الفارسية القديمة .

ولم تكن العناية بالترجمة مقصورة على المأمون ، بل عنى جماعة من ذوى اليسار في عهده بنقل كثير من الكتب إلى العربية . ومن هؤلاء محمد واحمد والحسن بنو شاذان المنجم ، الذين أنفذوا حنين بن إسحق إلى بلاد الروم ، فجاءهم بطرائف الكتب وفرائد المصنفات (٤) .

(١) أنظر كتاب أوراق البردى العربية ، ترجمة المؤلف ج ١ ص ٢٨ وما يليها .

(٢) اشتهر في الترجمة من الفارسية إلى العربية غير ابن المقفع كثيرون ، كآل نوبخت والحسن ابن سهل الذي استوزره المأمون ، واحمد بن يحيى بن جابر البلاذري صاحب كتاب فتوح البلدان وعمر ابن الفرخان (ابن النديم ص ٣٤٢) .

(٣) الفهرست ص ٣٣٩ .

(٤) المصدر نفسه ص ٣٤٠ .

وكان من أثر نشاط حركة النقل والترجمة في عهد المأمون العباسي ، أن اشتغل كثير من المسلمين بدراسة الكتب التي ترجمت إلى العربية ، وعملوا على تفسيرها والتعليق عليها وإصلاح أغلاطها ، نخص بالذكر من هؤلاء يعقوب بن إسحق الكندي ، الذي نبغ في الطب والفلسفة وعلم الحساب والمنطق والهندسة وعلم النجوم . وقد حذا في تآليفه حذو أرسطو ، وترجم كثيراً من كتب الفلسفة وشرح غوامضها . وقصارى القول أنه كان هناك أربعة من مشاهير المترجمين في الإسلام هم : حنين بن إسحق ، ويعقوب بن إسحق الكندي ، وثابت بن قرة الحراني وعمر بن الفرسخان الطبري ، وأن العباسيين قد ترجموا ما وصل إليه اليونان والفرس وغيرهم من العلوم ، كالفلسفة والطب والنجوم والرياضيات والموسيقى والمنطق والفلك والجغرافيا والتاريخ والحكم والآداب والسير . وقد ذكر ابن النديم^(١) ، أن بني المنجم كانوا يرزقون جماعة من النقلة ، منهم حنين بن إسحق ، وحبيش بن الحسن ، وثابت بن قرة وغيرهم ، في الشهر نحو خمسمائة دينار ، للثقل والملازمة .

٢ — معاهد الدرس والثقافة :

وكانت المساجد تعد من أكبر معاهد الثقافة لدراسة القرآن والحديث والفقه . وقد تنوعت العلوم التي كانت تدرس في العصر العباسي ، وأصبح كثير من هذه المساجد مراكز هامة للحركات العلمية . وأحسن مثل ذلك مسجد البصرة ، الذي كان فيه حلقة قوم من أهل الجدل يتصايحون في المقالات ، وبجانبهم حلقة للشعر والأدب . وكان الذين يحضرون هذه الحلقات من شعوب وديانات مختلفة . وهكذا صارت الثقافات التي كان للإسلام أثر كبير في مزجها ، تلتقي في تلك المراكز على مر السنين ، حتى امتزج بعضها ببعض . فإن من اعتنق هذا الدين من غير العرب ، كان يرى لزوماً عليه أن يتعلم العربية وآدابها ، حتى يتيسر له قراءة القرآن ودراسته ، وبذلك يجمع بين ثقافته القومية والثقافة العربية .

ولم يكن للمكتبات شأن كبير في العهد الأموي ، لكن لما نشطت حركة الترجمة والتأليف في العصر العباسي ، وتقدمت صناعة الورق ، وتبع ذلك ظهور كثير من الوراقين ، واتخاذ أمكنة فسيحة يجتمع فيها العلماء والأدباء للتزود من العلم ، كثرت المكتبات التي كانت تزخر بالكتب الدينية والعلمية والأدبية ، وصارت هذه المكتبات فيما بعد أهم مراكز الثقافة الإسلامية .

وكان بيت الحكمة ، الذي يرجع أن الرشيد هو الذي وضع أساسه ، وعمل المأمون من بعده على إمداده بمختلف الكتب والمصنفات ، من أكبر خزائن الكتب في العصر العباسي ، وقد ظلت هذه

الخزائن قائمة حتى استولى المغول على بغداد سنة ٦٥٦ هـ ، وكانت تحوى كل الكتب في العلوم التي اشتغل بها العرب ، كما كان للعلماء والأدباء الذين كانوا يختلفون إليها ، أكبر الأثر في تقدم الحركة العلمية في عهد العباسيين ، ونشر الثقافة بين جمهور المسلمين ، وغيرهم من أصحاب الديانات الأخرى . ولم يقتصر تشجيع العلم على الخلفاء ، بل تعداهم إلى الوزراء وسائر كبار رجال الدولة . فقد ذكر المسعودي ^(١) أن يحيى بن خالد البرمكي كان يميل إلى البحث والمناظرة ، وكان له مجلس يجتمع فيه أهل الكلام من أهل الإسلام وغيرهم من أهل النحل .

٣ - التاريخ :

يقول دى بور ^(٢) : يمتاز مؤرخو العرب الإقدمون بالقدرة على إدراك الجزئيات إدراكا دقيقا ؛ غير أنهم لم يقدرُوا على ربط الحوادث برباط جامع . وقد وجدوا من اتساع دولتهم مادة غزيرة في التاريخ والجغرافيا .

ولم يكن السواد الأعظم في صدر الإسلام ، يستطيعون القراءة والكتابة ، فلم يدون تاريخ الأمة العربية إلا بعد زمن غير قصير . وقد روى العرب الحوادث التاريخية المشهورة والأحاديث النبوية بشئ غير قليل من التبديل والتحريف ، مما أدى بها إلى الغموض والإبهام ، فشوهت معانيها والظروف التي أحاطت بوقوعها وقولها . حتى إذا جاء القرن الثاني للهجرة ، أخذ العرب يبحثون تاريخهم ، ولم يكن أكثره إلا شذرات مبهمه غير متصل بعضها ببعض ، أو أنه دون بحيث يتمشى مع ميول الفرق الدينية المختلفة ، وقد عمل كل منها على إكبار مذهبيهم ولعن أعدائه .

والحق أن مصادر التاريخ الإسلامى كثيرة متنوعة . فمن أهم المصادر التاريخية ، مصادر التاريخ النبوى ، وهى القرآن الكريم ، والأحاديث النبوية ، والشعر الذى أثر عن العصر النبوى ، مثل شعر حسان بن ثابت ، الذى نظم القصائد الكثيرة في مدح الرسول وهجاء أعدائه . إلا أن كثيراً من الشعر المنسوب إليه قد دس عليه .

ويعزى إلى ابن المقفع نقل كتاب خدای نامه Khudáy-náma ، أو كتاب الملوك ، من الفهلوية إلى العربية ، وقد سماه سير ملوك العجم ، ويعد نموذجا لكتابة التاريخ عند العرب . ويعتبر هشام بن محمد الكلبي المتوفى سنة ٢٠٤ هـ ، وأبوه محمد أول من كتب من العرب في علم التاريخ ، كما اشتهر كل منهما بتحرى الدقة في روايته .

ومن أقدم مصادر السيرة النبوية سيرة ابن هشام المتوفى سنة ٢١٨ هـ ، وتعرف باسم سيرة

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٨٣ .

(٢) تاريخ الفلسفة في الإسلام ص ٨٠ .

رسول الله ، وقد استمد فيها معلوماته التاريخية عن أستاذه ابن اسحق المتوفى سنة ١٥١ هـ . وهي تعطينا صورة صحيحة لحياة النبي صلى الله عليه وسلم ، وما قام به في سبيل تبليغ الرسالة وبث الدين . ويؤخذ على ابن هشام اختصاره في مواضع أطال فيها ابن إسحق ، وإطالته في مواضع اختصرها .

ومن مصادر السيرة النبوية أيضا كتاب الطبقات الكبير^(١) لمحمد بن سعد المتوفى سنة ٢٣٠ هـ (٨٤٥ م) . وكان كاتب الواقدي المتوفى سنة ٢٠٨ هـ ، ويعد من المصادر الموثوق بصحتها ، على الرغم من أنه عرف بالميل إلى الشيعة .

٤ — الجغرافيا :

كان لاتساع نطاق التجارة في العصر العباسي الأول ، واتصال مدينة بغداد حاضرة العباسيين برأ وبحراً بالبلدان القاصية ، ثم لتعبيد الطرق وجعلها آمنة ، أثر كبير في تسهيل الأسفار وتمهيد السبل أمام الكاشفين والرحالين ، فظهر كثير منهم قاموا برحلات مهمة ووضعوا في وصفها الكتب والأسفار ، ووصفوا ما شاهدوه في البلدان التي اختلفوا إليها ، وصفا دقيقا مبنيًا على المشاهدة . وبذلك خلف لنا جغرافيو المسلمين ثروة كبيرة ، هي خلاصة مشاهداتهم وتجاربهم ، التي اكتسبوها من أسفارهم في كثير من الأقاليم والممالك والبلدان .

وقد تقدم الكلام في الباب السادس (ص ٢٣٤ - ٢٣٥) ، أن رحلات المسلمين قد وصلت في عهد هارون الرشيد ، إلى الهند وسيلان وشبه جزيرة ملقا والصين ، ويقال إنهم وصلوا بحراً إلى كوريا ، كما كان للفتوح الإسلامية في أواسط آسيا وفي بلاد الهند شرقاً ، وغرباً في شمال إفريقيا وأوربا ، أثر كبير في اتساع أفق التفكير الإسلامي ، عن أحوال هذه البلاد الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، وفي تنشيط التجارة والصناعة .

ولكن مما يسترعى النظر أن هذه الثروة الجغرافية العظيمة ، لم تظهر ظهوراً جلياً إلا في العصر العباسي الثاني . أما في العصر العباسي الأول ، فقد ظهر ابن خردادبة ، الجغرافي الفارسي الأصل ، الذي عاش في النصف الأول من القرن الثالث الهجري ، وخلف لنا كتابه « المسالك والممالك »^(٢) . ويعتبر بحق من أقدم الكتب الجغرافية التي ظهرت في اللغة العربية ، وهو عبارة عن دليل يستعين به المسافرون في الاهتداء إلى الطريق البحري ، الذي

(١) يقع هذا الكتاب في ثمانية مجلدات ، وطبع في مدينة ليدن سنة ١٣٢٥ هـ ، وقام بطبعه المستشرق إدوارد سخاو Edward Sachau مدير مدرسة اللغات الشرقية ببرلين سابقاً . وقد أفرد ابن سعد للسيرة مجلدين .

(٢) طبع في مدينة ليدن سنة ١٨٨٦ ونشره دي غويه .

يبدأ من مصب نهر دجلة عند الأبله ، ويصل إلى الهند والصين (١) .

٥ — علم النجوم والرياضيات والكيمياء :

ولم يكن لبعض علوم العجم ، كالنجوم والكيمياء والرياضيات والفلسفة والطب ، مكان ملحوظ بين العلوم التي اشتغل بها المسلمون في العصر العباسي الأول ، ولكنها ازدهرت بعد ذلك ، لأن همتهم كانت مقصورة في الغالب على نقل الكتب . على أن هذا لا يمنعنا من القول ، إنه كانت هناك طائفة من المسلمين أخذوا يشتغلون بهذه العلوم ، كجابر بن حيان الذي اشتهر في الكيمياء . وكان من أهل طرسوس ، ويعرفه الأوريون باسم Geber ، وتوفي في عهد الخليفة المهدي (١٥٨ — ١٦٩ هـ) .

ويقول دى بور (٢) إن فيثاغورس يعتبر معلم العرب في الرياضيات ، حتى إنه كان يقال إن الإنسان لا يكون فيلسوفا ولا طبيبا حاذقا ، إلا بدراسة فروع الرياضيات ، كالحساب والهندسة والفلك والموسيقى . وقد اشتهر في علم الحساب عمران بن الوضاح وشهاب بن كثير ، ومهر في الهندسة الحجاج بن أرطاه الذي خط المسجد الجامع ببغداد في عهد المنصور . وكانت هناك علاقة كبيرة بين الرياضيات والتنجيم الذي اشتغل به العرب في عهد بنى أمية ، ثم تقدمت ممارسته في العصر العباسي ، حتى إن أبا جعفر المنصور لما اتصل به خروج محمد النفس الزكية ، أشفق منه ، فجعل الحارث المنجم يقول له : يا أمير المؤمنين ! ما يحزكك منه ؟ فوالله لو ملك الأرض مالبث إلا تسعين يوما (٣) . وبما يدلنا على اعتماد العباسيين على التنجيم في كثير من الأحيان ، مذكره ياقوت الخوى (٤) عند كلامه على تأسيس مدينة بغداد ، من أن أبا جعفر المنصور اعتمد على الوقت الذي اختاره له المنجمون ، حتى إنه لم يبدأ بوضع الحجر الأساسى للبناء ، إلا بعد أن أشار عليه أبوسهل بن نوبخت المنجم ، وأخبره بما تدل عليه النجوم من طول بقاء هذه المدينة وكثرة عمارتها .

وقد رأينا عند كلامنا على أثر الوزراء في النزاع الذى قام بين العباسيين والعلويين ، أن الفضل بن سهل كان خبيراً بعلم النجوم ، وأن هذا العلم قد دله على أن المأمون سيصير خليفة . ولذلك تقرب إليه وأخلص له ، إلى أن أفضت الخلافة إليه فاستوزره (٥) . كما كان الحسن

(١) Nicholson : Lit. Hist. of the Arabs, p. 356.

(٢) تاريخ الفلسفة في الاسلام ص ٨٠ .

(٣) الطبرى ج ٩ ص ٢٠٩ .

(٤) أنظر لفظ بغداد في معجم البلدان لياقوت .

(٥) الفخرى ص ٢٠٢ أنظر الباب الثالث ص ١٥٦ .

ابن سهل أخو الفضل خير أ في علم النجوم ، فقد رأينا ينصح لأخيه الفضل ألا يدخل الحمام في اليوم الذي اغتيل فيه ، معتمداً في ذلك على معرفته بالتنجيم ^(١) . ومن اشتهر بالتنجيم في العصر العباسي الأول عبد الله بن سهل بن نوبخت . وقد ذكر القفطى ^(٢) أن المأمون استعان به في اختيار وقت لميعة على الرضا .

ومن نبغ في علم النجوم في العصر العباسي الأول جعفر بن عمر البلخي ، ويعرف بأبي معشر الفلكي . وكان في بدء حياته من أصحاب الحديث ، ثم اشتغل بعلم النجوم ، ونبغ فيه بعد أن بلغ السابعة والأربعين من عمره ، وعمّر طويلاً حتى جاوز المائة ، ومات بواسطة سنة ٢٧٢ هـ . ولأبي معشر كتب كثيرة ، منها لإثبات العلوم ، وهيئة الفلك .

٦ - الطب :

وكان لاختلاط المسلمين بغيرهم من الأمم ، وخاصة الفرس والروم ، أثر كبير في العلوم العقلية ، كالطب والرياضيات وعلم النجوم . فقد رأينا أبا جعفر المنصور يستشير أطباء العراق ويعتمد على إرشاداتهم ، وأنه استقدم طبيباً من مشاهير أطباء الهند ، وقد ذكرنا عند كلامنا على وفاة المنصور كيف تنبأ أطباؤه بموته ، بسبب إكثاره من الطعام وإسرافه في تعاطي الأفاويه والأدوية الحارة التي تهضم طعامه ، ولكنها تضر بمعدته وأمعائه ، وكيف ذهب المنصور ضحية عدم إصغائه لنصائح هؤلاء الأطباء ، مما يدل على مبلغ تقدم الطب في ذلك العصر ^(٣) .

واشتهر في عهد المعتصم من الأطباء يحيى بن ماسويه . ويذكر لنا المسعودي أن المعتصم كان يعتمد على مشورته ، وأنه كان لذلك يحتفظ ببشيرة قوية ، وأنه لما خالف مشورة طبيبه اعتلت صحته وتغير لونه . ويقول ابن ماسويه عن المعتصم لما اعتراه المرض : « كان قبل ذلك إذا أكل السمك ، اتخذ له صباغاً من الخل والكراويا والكون والسذاب والسكرفس والخردل ، فأكله بذلك الصباغ فدفع أذى السمك وإضراره بالعصب . وإذا أكل الروس اتخذت له أصباغ تدفع أذاها وتلطفها . وكان في أكثر أموره يلطف غذاه ويكثر مشورتي ، فصار اليوم إذا أنكرت شيئاً خالفني وقال : آكل هذا على رغم ابن ماسويه . »

وكما أن العباسيين اعتمدوا على أطباء العراق والهند ، كذلك اعتمدوا على الطب الذي خلفه اليونان . وقد نبغ في عهد الواثق من الأطباء ابن بختيشوع ، وابن ماسويه ، وميخائيل ، وحنين بن إسحق ، وأن هؤلاء وغيرهم حذقوا صناعة الطب ومرتوا عليها ، واعتمدوا في

(١) أنظر الباب الثالث من هذا الكتاب ص ١٦٩ .

(٢) أخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ٢٢١ - ٢٢٣ .

(٣) الطبري ج ٩ ص ٢٩٢ . أنظر ماورد في الباب الثاني ص ٣٦ .

علاج مرضاهم على ما كسبوه من تجارب ، كما أفادوا من كتب اليونان ونظرياتهم في تشخيص الأمراض ، حتى قالوا في مداواة المريض ، إنه يستدل على الدواء من نفس الطبيعة والمرض الحاضر ، أى الموجود في الحال والوقت ، دون الأسباب الفاعلة التي عُدت ، ودون الأزمان ... وزعموا أن من المعلومات الظاهرة التي لا ريب فيها أن الضدين لا يجوز اجتماعهما في حال ، وأن وجود أحدهما ينفي الآخر في الحال لا محالة ... وأن الطريق والقانون إلى معرفة الطب مأخوذ من مقدمات أولية : فمنها معرفة الأبدان والأعضاء وأفعالها ، ومنها معرفة الأبدان في الصحة والمرض ومعرفة الأهوية واختلافها ، والأعمال والصنائع والعادات ، والأطعمة والأشربة والأسفار ، ومعرفة قوى الأمراض ، وقالوا ثبت في الشاهد أن الحيوان يختلف في صورته وطباعه ، وكذلك أعضاؤه مختلفة في طباعها وصورها ، وأن الأجساد الحيوانية تتغير بالأهوية المحيطة بها ، وبالحركة والسكون ، والأغذية من المأكول والمشروب والنوم واليقظة ، واستفراغ ما يخرج من الجسد واحتباسه من الأعراض النفسانية ، من الفم والحزن والغضب والهم . والغرض بالطب هو تدبير الأجسام ، وحفظ الصحة الموجودة في البدن الصحيح ، واجتلابها للعليل . فالواجب أن يكون حفظ الصحة إنما هو بمعرفة الأسباب المصححة . فالواجب على الطبيب لا محالة من هذه المقدمات التي قد صحت ، إذا أراد علاج المريض ، النظر في طبائع الأمراض والأبدان والأغذية والعادات ، والأزمان والأوقات الحاضرة والأسباب ، ليستدل بجميع ذلك . وهذا يأمر المؤمنين قول أبقراط وجالينوس فيمن تقدم وتأخر عنهم . وقد اختلفت هذه الطائفة في كثير من الأغذية والأدوية ، مع اتفاقهم على ما وصفنا ، وذلك لاختلافهم في كيفية الاستدلال . فمنهم من زعم أنه يستدل على طبيعة الشيء من الأغذية والأدوية ، بطعمه أو ريحه ، أو لونه أو قوامه أو فعله ، وتأثيره في الجسد ، وزعموا أن الوثيقة في الاستدلال بالأجزاء ، إذا كانت الألوان والأرايح وسائر مذكرنا من أفعال الطبائع الأربع ، كما أن الأسخان والتبريد والتلين فعل لها ، وزعمت طائفة أخرى منهم أن أصح الشهادات وأثبت القضايا في الحكم على طبيعة الدواء والغذاء ، ما أخذ من فعله في الجسد دون الطعم والرائحة وما سوى ذلك ؛ فإن الاستدلال بما سوى الفعل والتأثير ، لا يقطع به ولا يعول على طبيعة الدواء المفرد والمركب ، (١).

كذلك وصف الأطباء في هذا العصر ، الفم والأسنان وأنواعها وعددها ووظيفة كل منها ، حتى لقد أعجب الخليفة الواثق بوصف حنين بن إسحق ، وطلب منه أن يصنف له كتابا يذكر فيه جميع ما يحتاج إلى معرفته ، وفصنف له كتابا جعله ثلاث مقالات ، يذكر فيه

الفرق بين الغذاء والدواء والمسهل وآلات الجسد (١).

٢ — الفن :

لما اتسعت فتوح العرب واختلطوا بغيرهم من الأمم الأخرى ، اتسع أفق الفن في أعينهم ، واستطاعوا أن يخرجوا صوراً فنية جديدة لا تخرج عن مبادئ الدين الإسلامى . على أن الأمر الذى يسترعى النظر ، أن العرب لم يعنوا بفن النحت والتصوير عنايتهم بالبناء والزخرفة ، لأنهم رأوا فى ذلك تشبهاً بعيدة الأوثان . لهذا كان العنصر الأساسى فى زخرفتهم الرسوم النباتية والهندسية (٢) .

وقد اتخذ العرب بعد استيلائهم على بلاد الشام وفارس طرازاً خاصاً للعمارة يتناسب وحالة معيشتهم ، فامتازت مبانيهم بطرز خاصة من الأعمدة والأقواس أو العقود والقباب ، والمقرنصات أو الدلايات ، وهى زخارف معمارية تشبه خلايا النحل ، وتجدها بارزة ومدلاة فى طبعقات ، مصفوفة بعضها فوق بعض فى واجهات المساجد وفى المساذن ، لإقامة الشرفات التى يدور فيها المؤذن ، أو فى تيجان بعض الأعمدة الإسلامية ، أو فى القباب التى بين القاعدة المربعة والسطح الدائر . وقد استخدمت المقرنصات للزخرفة فى السقوف الخشبية ، فضلاً عن

(١) مروج الذهب : ج ٢ ص ٣٦٦ .

أورد المسعودى وصفاً دقيقاً للأسنان يعتبر فى الواقع وثيقة طبية هامة لا بأس من ذكرها هنا : قال الوراق لحين من بين الجماعة : « ما أول آلات الغذاء من الإنسان ؟ قال : أول آلات الغذاء القم وفيه الأسنان . والأسنان اثنتان وثلاثون سناً ، منها فى اللحي الأعلى ستة عشر سناً ، وفى اللحي الأسفل كذلك . ومن ذلك أربعة فى كل واحد من اللحين عراض محددة الأطراف ، تسميها الأطباء من اليونانيين القواطع ، وذلك أن بها يقطع ما يحتاج إلى قطعه من الأطعمة اللينة ، كما يقطع هذا النوع من المأكول بالسكين ، وهى الثنايا والرابعيات . وعن جنبي هذه الأربعة فى كل واحد من اللحين سنان رءوسهما حادة وأصولهما عريضة ، وهى الأنياب . وبها يكسر كل ما يحتاج إلى تكسيه من الأشياء الصلبة مما يؤكل . وعن جنبي الثنايين فى كل واحد من اللحين ، خمس أسنان آخر عوارض خشن ، وهى الأضراس ، ويسميها اليونانيون الطواحن ، لأنها تطحن ما يحتاج إلى طحنه مما يؤكل . وكل واحد من الثنايا والرابعيات والأنياب له أصل واحد . وأما الأضراس فإما كان منها فى اللحي الأعلى ، فله ثلاثة أصول خلا الضرسين الأقيصين ، فإما كان لكل واحد منهما أصول أربعة . وما كان من الأضراس فى اللحي الأسفل ، فلكل واحد منها أصلان ، خلا الضرسين الأقيصين ، فإما كان لكل واحد منهما أصول ثلاثة . وإما احتيج إلى كثرة أصول الأضراس دون سائر الأسنان ، أشدة قوة العمل بها ، وخصت العليا منها بالزيادة فى الأصول لتعلقها بأعلى الفم » .

(٢) زكى محمد حسن : فى الفنون الإسلامية ص ٨ و ٢٥ — ٤٣ و Zaky M. Hassan : The

Attitude of Islam towards Painting (Bulletin of the Faculty of Arts, Fouad I.

University, Vol. VII, July, 1944) pp. 1—15.

استخدامها في العائر نفسها (١).

وعلى الرغم من أن العرب استعانوا بمهرة الصناع في البلاد التي دخلت تحت سلطانهم ، فإن العمارة الإسلامية احتفظت بطابعها الجديد ، وأصبحت تمتاز بمزايا خاصة بها . وقد تمثلت العمارة العربية أول الأمر في المساجد . وكان مسجد قباء الذي أنشأه الرسول عليه الصلاة والسلام ، النموذج الأول لسائر المساجد الإسلامية . ومما لاشك فيه أن اختلاف الحجاج إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة في كل عام ، وأداءهم الصلاة في المدن والقرى التي كانوا يبرون بها ، قد ساعد على محاكاة مساجد بلاد الحجاز .

وقد أدخلت المقصوره في عمارة المساجد لتعجب الإمام عن سائر المصلين . وكان أول من اتخذها معاوية بن أبي سفيان ، حين خشي على نفسه أن يحل به ماحل بعمر بن الخطاب وعلى بن أبي طالب ، واقتدى به الخلفاء من بعده . وكذلك دخلت في عمارة المساجد زيادات ، منها المآذن والمحراب الذي يدل على جهة القبلة (٢) ، والإيوانات ، وهي أروقة تحيط بالصحن ذات أقواس مرفوعة على أعمدة أو دعائم ، واستمر ذلك إلى العصر العباسي الأول .

وقد تقدم فن الزخرفة الإسلامية في عهد الخلفاء الأمويين والعباسيين . ومن مميزات الظاهرة استعمال النقوش الخطية العربية . فكثيراً ما نرى آية من آيات القرآن الكريم أو بيتاً من الشعر ، أو عبارة من عبارات التحية والتهنئة ، تدور حول حافة التحف الأثرية ، أو تكون شريطاً زخرفياً على أثر من الآثار .

وقد ازدهر في عهد الأمويين فن النقوش الحائطية ، التي لا يزال بعضها باقياً في قصير عمره ، وهو بيت للصيد شرقي البحر الميت ، ويتجلى في طرازها مزيج من الأساليب الشرقية والهلينية . ويذهب علماء الآثار إلى أن هذا البناء شيد في عهد الوليد بن عبد الملك الأموي (٣) .

ولما انتقل مركز الخلافة من دمشق إلى بغداد ، أثر الفن الفارسي في الفن الإسلامي تأثيراً كبيراً . وكان للخلفاء العباسيين والأمراء والوزراء وغيرهم من كبار رجال الدولة ، ولوع شديد ببناء القصور الفخمة . فقد بنى أبو جعفر المنصور قصر الذهب في وسط مدينة بغداد . وفي صدر هذا القصر إيوان طوله ثلاثون ذراعاً وعرضه عشرون ، يعلوه قبة عليها مجاس . وفوق هذا المجلس القبة الخضراء . وبلغ ارتفاع القصر ثمانين ذراعاً ، وبنى بالجص والآجر ، ورفعت

(١) نفس المصدر ص ٤٨ .

(٢) K.A.C. Creswell : Early Muslim Architecture Vol I, pp. 98-9

(٣) كتاب التصوير عند العرب تأليف المغفور له أحمد تيمور باشا ، أخرجه وزاد عليه الدراسات

الفنية والتعليقات الدكتور زكي محمد حسن ، ص ١٥٠ — ١٥١ و ٢٤٧ — ٢٥٠ .

حجراته على أساطين الساج ، وسقف بالخشب وحلى باللآزورد . وبقي على ذلك حتى هدمه هارون الرشيد وأعاد بناءه . وكان على رأس القبة تمثال على صورة فارس في يده رمح . وكان هذا التمثال يدور مع الريح ، فاذا استقبل الصنم جهة من الجهات ومد الريح نحوها ، كان ذلك إيذاناً بظهور بعض الخوارج من هذه الجهة . على أننا نرى أن فيما ذكر الخطيب البغدادي (١) شيئاً كثيراً من المبالغة .

ومن قصور بغداد قصر الخلد ، على شاطئ دجلة الغربي تجاه باب خراسان . وقد تألق أبو جعفر المنصور في بنائه وتجميله ، حتى سمي الخلد تشبهاً له بجنة الخلد . وبنى المهدي ابن المنصور قصر الوضاح على مقربة من قصر الرضافة . ومن قصور بغداد قصر عيسى الذي بناه عيسى بن علي العباسي عند مصب الرافد في دجلة . وكانت بعض عمائر بغداد مؤلفة من عدة طبقات يظهر في زخرفها الذوق الفارسي .

وقد تقدم فن الزخرفة في العصر العباسي الأول تقدماً عظيماً . يدل على ذلك هذه القباب الأربع التي بناها المنصور على أبواب مدينة بغداد الأربعة ، وكان قطر كل واحد منها خمسين ذراعاً . وقد زخرفت هذه القباب بالذهب ، وكان يصعد إليها على الخيل ، وعليها تماثيل تديرها الريح . وكان المنصور يجلس في هذه القباب طلباً للراحة ، فاذا أحب النظر إلى الماء جلس في قبة باب خراسان ، وإذا أحب النظر إلى الأرباض وما والاها جلس في قبة باب الشام ، وإذا أحب النظر إلى الكرخ جلس في قبة باب البصرة ، وإذا أحب النظر إلى البساتين والضياع جلس في قبة باب الكوفة . وتشبه هذه القباب المناظر التي بناها الخلفاء الفاطميون في القسطنطينية والقاهرة فيما بعد .

وقد أصبحت القصور في العصر العباسي الأول محلاة بالرسوم والزخارف من الداخل والخارج ، وعليها صور من الجص المجسم ، كما كانت طبقاتها مغطاة بستور من الديباج ، مزينة بالرسوم التي كانت من مميزات الفن الفارسي .

ومن آيات فن الزخرفة في العصر العباسي تلك الزخارف الجصية التي كانت تغطي الأجزاء السفلية من الجدران ، والتي كشفت الحفائر في أطلال مدينة سامرا عن نماذج كثيرة منها (٢) . كما أن من آياته الصور الحائطية التي عثر عليها في أنقاض بعض القصور في المدينة المذكورة . وقوام هذه الصور رسوم حيوانات وطيور وصور آدمية لأشخاص في الصيد (٣) أو لنساء

(١) كتاب تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٣ .

(٢) زكي محمد حسن : الفن الاسلامي في مصر ج ١ ص ٢٨ - ٣١ .

(٣) Zaky M. Hassan, Hunting as Practised in Arab Countries of the Middle Ages

يرقصن^(١) . والمعروف أن أساليب العباسيين في زخرفة المنسوجات والتحف المعدنية والخزفية الخشبية امتدت إلى شتى أقسام الدولة الإسلامية في عصرهم ، فوصلت إلى مصر وإفريقية وإيران^(٢) .

ولم تقتصر عناية الخلفاء العباسيين على عمارة المدن الكبيرة كبغداد وسامرا ، بل إنهم اهتموا ببناء القصور في طريق مكة . ويقول الطبري^(٣) : « أمر المهدي ببناء القصور في طريق مكة ، وأوسع من القصور التي كان أبو العباس بناها من القادسية إلى زباله ، وأمر بالزيادة في قصور أبي العباس ، وترك منازل أبي جعفر التي كان بناها على حالها ، وأمر باتخاذ المصانع في كل منهل ، وبتجديد الأميال والبرك وحفر الركيا مع المصانع ... وأمر المهدي بالزيادة في المسجد الجامع بالبصرة ، فزيد فيه من مقدمه مما يلي القبلة ، وعلى يمينه مما يلي رحبة بني سليم ... وأمر المهدي بنزع المقاصير من مساجد الجماعات وتقصير المنابر ، وتصويرها إلى المقدار الذي عليه منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكتب بذلك إلى الآفاق فعمل به » ، كما أمر المهدي بالزيادة في المسجد الحرام^(٤) .

وقد وصف المسعودي^(٥) قصر محمد بن سليمان ، وكان قد ولي البصرة في عهد المهدي فقال : « لما بنى محمد بن سليمان قصره بالبصرة على بعض الأنهار ، دخل عليه عبد الصمد بن شبيب ابن شبة فقال له محمد : كيف ترى بنائي ؟ قال : بنيت أجل بناء بأطيب فناء وأوسع بناء وأرق هواء على أحسن ماء بين صراري وحسان وطلباء » .

وقد أولع الخلفاء العباسيون عامة بالعمارة . ويقول المسعودي^(٦) عن المعتصم : « كان المعتصم يحب العمارة ويقول إن فيها أموراً محمودة : فأولها عمران الأرض التي يحيا بها العالم ، وعليها يزكو الخراج ، وتكثر الأموال ، وتعيش البهائم ، وترخص الأسعار ، ويكثر الكسب ويتسع المعاش . وكان يقول لوزيره محمد بن عبد الملك : إذا وجدت موضعاً ، متى انفقت فيه عشرة دراهم جامتي بعد سنة أحد عشر درهما ، فلا تؤامرني فيه » .

والآن نأخذ في الكلام على بناء المدن في العصر العباسي الأول ، فنشرع في الكلام على بناء مدينتي بغداد وسامرا .

(١) زكي محمد حسن : الفن الإسلامي في مصر ج ١ ص ٣٢ - ٣٣ . راجع أيضاً تعليقات زكي محمد حسن في كتاب التصوير عند العرب لأحمد تيمور باشا ص ١٤١ - ١٤٥ و ٢٥٠ - ٢٥٣ .
(٢) زكي محمد حسن : الفنون الإيرانية في العصر الإسلامي ص ١٧ و ٢١١ - ٢١٦ و ٢٣٧ - ٢٤١ .

(٣) ج ١ ص ٣٣٨ - ٣٣٩

(٤) نفس المصدر ج ١٠ ص ٩

(٥) ج ٢ ص ٢٦٤

(٦) ج ٢ ص ٣٤٥

(١) بغداد

١ — العواصم الإسلامية التي سبقت بغداد :

إن تاريخ بغداد ، باعتبارها قاعدة من القواعد الإسلامية ، يسير جنباً لجنب مع قيام الدولة العباسية وسقوطها . وقد جرت العادة في البلاد الإسلامية أن تتخذ كل أسرة تلي الحكم قاعدة جديدة لها ^(١)؛ فاتخذ الرسول عليه الصلاة والسلام يثرب مدينة له على أثر هجرته إليها ، فلم تلبث أن أصبحت حاضرة الإسلام ، وأصبحت تسمى المدينة أو مدينة الرسول أو المدينة المنورة . وظلت حاضرة للدولة العربية ، حتى ولى على بن أبي طالب الخلافة ، فتركها واتخذ الكوفة بعد واقعة الجمل المشهورة حاضرة لخلافته . وقد برهنت الأيام على أن علياً لم يوفق في اختيار تلك الحاضرة الجديدة ، فإن تركه المدينة ، قد هدم التوازن الذى كان بين القبائل العربية في عهد الخلفاء قبله . وقد تبين له بعد فوات الفرصة أن اعتماده على أهل الكوفة لم يكن إلا سراياً ، فانه لم يستطع أن يقر النظام في حاضرة ملكه الجديدة ، فقد كان السواد الأعظم منهم أهل شقاق وقتن ، يناوئون حكومته الناشئة .

ولما انتقلت الخلافة إلى معاوية بن أبي سفيان اتخذ دمشق حاضرة لخلافته . ولا غرو فقد عمل — منذ ولها في عهد عمر — على توطيد نفوذه في بلاد الشام ، مستعيناً بأتباعه وذوى قرباه ، وجذب الأنصار حوله بالعطايا والمنح . ومن ثم أصبحت دمشق صالحة لأن تكون حاضرة للأُمويين . أضف إلى ذلك خصب بلاد الشام وكثرة النماء فيها ، وقربها من بلاد الحجاز التي كانت لا تزال مركز القوة الدينية في الإسلام ، ومن سائر مواطن القبائل العربية مما يساعد على تجنيد الجنود إذا دعت الحاجة إلى ذلك . ولا عجب فإن الدولة الأموية كانت تحتفظ بالدم العربي والعصية العربية . هذا إلى أن دمشق كانت قريبة من حدود الامبراطورية البيزنطية ، التي كان يقوم عليها النزاع دائماً بين العرب والروم ، الذين لم تكف الحرب تخبو نارها بينهم في وقت من الأوقات . وإن قرب حاضرة المسلمين في العصر الأموى من هذه الحدود من شأنه أن يسهل حشد الجيوش في أقرب وقت .

ولما قامت الدولة العباسية لم تعد دمشق صالحة لأن تكون حاضرة لخلافتهم :

أولاً — لأنه كان بها بنو أمية وأنصارهم

(١) وهذه ظاهرة لاحظها العلماء في تاريخ الشرق القديم بوجه عام .

راجع الفصل الذى كتبه الأستاذ كريزول Creswell عن تأسيس بغداد في الجزء الثانى من كتابه Early Muslim Culture.

ثانياً — لبعدها عن بلاد الفرس مصدر قوة العباسيين . فقد كانت الدولة الأموية في وسط عنصر عربي يتعصب للعروبة ويناصر الأمويين على الروم إذا دهموا بلادهم . أما العباسيون فلم تكن لهم بين العرب عصبية ، وإنما قامت قوتهم على الموالي من الفرس الذين كانوا بعيدين عن دمشق .

ثالثاً — ولقربها من حدود الدولة البيزنطية لم تعد آمنة من غارات جيوشهم عليها . فكان من المناسب إذاً أن يعدل العباسيون عن اتخاذ دمشق حاضرة لخلافتهم ، وأن يستبدلوا بها حاضرة جديدة تكون على مقربة من بلاد فارس . وقد تأسست في غضون الفتوح الإسلامية ببلاد العراق مدينتان ، اتخذهما المسلمون مركزين حربيين للجند هما : البصرة القريبة من مصب دجلة ، والكوفة الواقعة على نهر الفرات ، حيث يدخل طريق القوافل الصحراوى من الحجاز إلى فارس في أراضي بلاد العراق الزراعية . وقد أقام أبو العباس السفاح في القصر الذى بناه بجانب الأنبار ، المدينة الفارسية القديمة الواقعة على الشاطئ الشرقى من نهر الفرات ، حيث يتفرع النهر الكبير الذى أطلق عليه فيما بعد نهر عيسى ، ويجرى نحو دجلة . وسمى السفاح قصره « الهاشمية » نسبة إلى جده هاشم ابن عبد مناف (١) .

ولما توفى السفاح سنة ١٣٦ هـ (٧٥٤ م) وولى بعده الخلافة أخوه المنصور ، شرع بعد قليل في بناء قصر آخر سماه الهاشمية أيضاً . وكانت الهاشمية الثانية ، أو هاشمية الكوفة ، بين الكوفة والحيرة ، وهى المدينة الفارسية القديمة الواقعة على نهر الفرات (٢) . وقد أدرك المنصور أن هذه المدينة لاتصلح حاضرة لخلافته ، لقربها من الكوفة مقر الشيعة ومركز دعايتهم ، ولأنها كانت معسكر القبائل العربية التى لم تفر عن إثارة الفتن والقتل ، حتى أصبح المنصور لا يأمن على نفسه لجوارته أهل هذه المدينة الذين أفسدوا عليه جنده ، ولما كان أيضاً من كراهته المقام فيها بعد حادثة الراوندية . أضف إلى ذلك أن الكوفة وما يجاورها من المدن تقع على حد الصحراء العربية التى تهب رمالها على الشاطئ الغربى للفرات (٣) ،

(١) اليعقوبى : كتاب البلدان ص ٢٣٧ ، والطبرى ج ٩ ص ١٧٤

(٢) وفي رواية أخرى أن هاشمية المنصور كانت على مقربة من المدينة المسماة بمدينة ابن هبيرة ، وكانت تقع على الفرات شمال الكوفة . وينبغى أن نميز بينها وبين قصر ابن هبيرة ، الذى عمر ما حوله ، حتى أصبح مدينة عرفت بقصر ابن هبيرة ، وكانت تقع على الفرات شمال الكوفة .

(٣) راجع ما كتبه لى سترينج ، Le Strange : Baghdad during the Abbasid Caliphate ،

٢ - اختيار موقع بغداد :

رأى المنصور ضرورة اتخاذ حاضرتة الجديدة وسط أراض خصبة يروها ماء دجلة والجداول التي تأخذ ماءها من الفرات ، وفي مكان تسهل فيه المواصلات بين أجزاء دولته ، تتوافر فيه سبل المعيشة . فبعث روادا يختارون له مكانا يبنى فيه حاضرتة الجديدة ، فدلوه على موضع قريب من پارما الواقعة جنوبي الموصل ، فخرج إليه في جماعة من رجال بلاطه ، وبات فيه . ولما أصبح سأل رجاله عن رأيهم في هذا المكان ، فذكروا له طيب هوائه وجودة غذائه ، فقال : « ولكن لأمرفق فيه للرعية » . وذكر لهم أنه قد مرّ في طريقه إلى هذا المكان بموضع تجلب إليه المؤن في البر والنهر ، وأنه يصلح مكانا لحاضرة ملكه إذا استطاب هواءه . ثم رجع المنصور إلى هذا المكان وأقام فيه يوما وليلة ، وكان ذلك في فصل الصيف ، فأعجبه هوائه ووجد فيه المكان الذي بنى بأغراضه (١) .

ثم دعا المنصور أهل هذه النواحي (٢) وسألمهم عنها ، وكيف هي في الحر والبرد والأمطار وغيرها ، فأخبره كل واحد بما عنده من العلم . فبعث رجالا من عنده فباتوا في هذه النواحي وأتوه بأخبارها ، فأعجب المنصور موضع بغداد . وكانت فيه ، كما ذكر الخطيب البغدادي (٣) ، مزرعة يقال لها المباركة ، فدعا المنصور صاحبها — وكان أحد الدهاقين — وسأله عنها ، فحسن له النزول بها لوقوعها بين أربعة نواح (طاساسيج) ، وورود المؤن إليها من الشام والجزيرة ومصر والهند والسند والبصرة وواسط وأرمينية وأذربيجان عن طريق دجلة والفرات وفروعها (٤) .

وقد روعي في اختيار موقع بغداد ما قاله ابن خلدون (٥) في أوضاع الجواضر : « ويشترط في اختيار موضع المدينة أن تقع إما على هضبة متوغرة من الجبل ، وإما باستدارة بحر أو نهر بها حتى لا يوصل إليها إلا بعد العبور ، وطيب الهواء للسلامة من الأمراض ، وقرب الزرع منها ليحصل الناس على الأقوات » . وقد ختم ابن خلدون كلامه بقوله إن العرب لم

(١) الطبرى ج ٩ ص ٢٣٨ — ٢٣٩ ، وياقوت : معجم البلدان — أنظر لفظ بغداد

Le Strange : Baghdad during the Abbasid Caliphate, pp. 6—8.

(٢) ذكر الطبرى (ج ٩ ص ٣٣٩) هذه النواحي وهي : الدير وبغداد والمنعم والدير المعروف ببستان القس والعتيقة .

(٣) كتاب تاريخ بغداد ج ١ ص ٢١ .

(٤) أنظر الباب السادس من هذا الكتاب ص ٢٣٢ .

(٥) مقدمة ص ٢٩١ .



بسم اللہ
برسہ سی ۱۵۰۶

يراعوا هذه الشروط في اختيار مواقع المدن التي أسسوها كالسكوفة والبصرة والقيروان ،
وأنها كانت أقرب إلى الخراب لما لم تراع فيها الأمور الطبيعية .

وقد ذكر المؤرخون حكاية تظهر عليها مسحة الاختلاق ؛ وذلك أن راهباً من رهبان
الدير القريب من بغداد سأل أحد أصحاب المنصور عن الرجل الذي يريد أن يبني المدينة ،
فقيل له أمير المؤمنين الخليفة المنصور . فسأل الراهب عن اسمه ، فقيل عبد الله . فسأل أيضاً
عما إذا كان للخليفة اسم غير هذا ، فقيل اللهم لا ، إلا أن كنيته أبو جعفر ولقبه المنصور .
فقال الراهب للرجل : « فاذهب إليه وقل له لا يتعب نفسه في بناء هذه المدينة ، فانا نجد في
كتبنا أن رجلاً اسمه مقلص يبني ههنا مدينة ويكون لها شأن من الشأن ، وأن غيره لا يتمكن
من ذلك » ، فجاء الرجل إلى المنصور ، فقص على الحاضرين قصته وهو صغير ننقلها بنصها : « أما
والله كان اسمي مقلصاً ، وكان هذا اللقب قد غلب عليّ ثم ذهب عني . وذاك أن لصاً كان في
صباي يسمى مقلصاً ، وكانت تضرب به الأمثال ، وكان لنا عجوز تربي ، فاتفق أن صبيان
المسكتب جاءوا يوماً إلى وقالوا لي نحن اليوم أضيافك ، ولم يكن معي ما أنفقه عليهم . وكان
للعجوز غزل ، فأخذته وبعته بما أنفقه عليهم . فلما علمت أني سرقت غزلها ، سميتي مقلصاً ؛
وغلب عليّ هذا اللقب ، ثم ذهب عني . والآن عرفت أني أبني هذه المدينة (١) » .

٣ — بغداد قبل تمصيرها :

وكانت بغداد قبل تمصيرها قرية قديمة بناها بعض ملوك الفرس ، وتقع على الشاطئ
الغربي لنهر دجلة في أعلى المكان الذي يلتقي فيه نهر الصراة بدجلة . وقد بقيت قباب بغداد
القديمة إلى أيام الطبري المتوفى سنة ٣١٠ هـ (٢) ؛ كما كانت سوقاً يقصده تجار الفرس والصين
بتجاراتهم . وقد أغار عليها المسلمون سنة ١٣ هـ بقيادة المثنى بن حارثة الشيباني وغنموا منها
مغانم كثيرة (٣) .

ويؤيد البحث الحديث وجود بغداد القديمة . فقد ذكر لي سترينج (٤) أن المنقب الانجليزي
السير هنري رولينسن (Sir Henry Rawlinson) عثر في سنة ١٨٤٨ م في وقت انخفاض نهر
دجلة على سور من الآجر يحف بشاطئ هذا النهر الغربي ، ومنه يظهر أنه كانت تقوم في هذا
المكان مدينة قديمة . وقد وجد اسم بختنصر وألقابه وغزواته منقوشة على قطع الآجر ، كما

(١) الطبري ج ٩ ص ٢٣٩ — ٢٤٠ ؛ مناقب بغداد لابن الجوزي ص ٧ ؛ الفخرى ١١٧ — ١١٨

(٢) ج ٩ ص ٢٤٠

(٣) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ج ١ ص ٢٦

(٤) Le Strange : Baghdad During the Abbasid Caliphate, pp. 9-10.

ظهر في التبت الجغرافي الآشوري لحكم سردانا بالوس (Sardanapalus) لفظ يقارب تماما لفظ بغداد .

٤ — اشتقاق لفظ بغداد :

ويرى بعض المؤرخين أن كلمة بغداد فارسية الأصل . فقد ذكر ياقوت وغيره عدة اشتقاقات طريفة لهذا الاسم منها :

١ — أن بغداد مكونة من كلمتين باغ ومعناها بالفارسية بستان و داد إسم لرجل كان يملك هذا البستان .

٢ — وقيل إن باغ إسم صنم و داد بمعنى أعطى أو منح . قيل إن كسرى أقطع هذه الناحية عبداً من المشرق من عباد الأصنام ، فقال العبد : باغ دادى ، أى الصنم أعطانى . وروى النسائي أن رجلاً قدم على عبد العزيز بن أبي رواد ، فقال له : من أين أنت ؟ فقال من بغداد ، فقال لا تنقل بغداد ، فان باغ صنم و داد أعطى ، ولكن قل مدينة السلام .

٣ — وقيل إن بغداد كانت سوقاً يقصده تجار أهل فلسطين بتجارهم ، فيربحون الربح الواسع . وكان اسم ملك الصين : باغ ، فكانوا إذا انصرفوا إلى بلادهم قالوا : باغ داد ، أى أن هذا الربح الذى ربحناه من عطية الملك ، لأن داد بمعنى أعطى أى أعطانا الملك .

٤ — وقيل إن بغداد أصلها بغداد ، وهو فارسي معرب عن باغ ومعناه بستان ، و دادويه اسم رجل من الفرس . وذلك أن بعض نواحي بغداد كان بستاناً لرجل من الفرس اسمه دادويه . وهذا قريب الشبه بما ورد في التسمية الأولى . وبما يدل على فارسية هذا الاسم وجود الدال مع الذال ؛ وهو مألوف عند الفرس ، وليس له نظير في كلام العرب . ويقول Le Strange إن الاشتقاق الصحيح لهذا اللفظ هو من الكلمتين الفارسييتين القديمتين Bāgh وهو الله ، و Dād وهو ومعناها مؤسسة أو أساس . ومن ذلك يكون معنى بغداد المدينة التى بناها الله .

٥ — وقد سماها المنصور مدينة السلام . وهذه التسمية مأخوذة عن الفارسية أيضاً ؛ فقد ذكر ياقوت أن بعض هذه المدينة كان أثراً لمدينة دارسة اختطها أحد ملوك الفرس ، فرض ، فقالوا له : ما الذى يأمر الملك أن تسمى به هذه المدينة ؟ فقال : هليدوه وروز ، أى ادخلوها بسلام . فلما علم المنصور بذلك قال : سميتها مدينة السلام . وقيل إنها سميت مدينة السلام ، لأن السلام هو الله ، أو لأن نهر دجلة يقال له وادى السلام . وكان أبو الفرج البیستغی يقول هى مدينة السلام ، بل مدينة الإسلام .

٦ — وكان الجانب الغربى لبغداد فى العصور الإسلامية يسمى الزوراء ، لا زورار فى قبلتها .

وقيل لأن المنصور لما عمرها جعل الأبواب الداخلة مزورة عن الأبواب الخارجة (أى ليست على سمتها)، وقيل لازورار نهر دجلة عند مروره بها . ويقول المسعودى عند ذكره أسماء بغداد إن أهل هذه المدينة كانوا يسمونها الزوراء والروحاء في أيامه ، بينما يسمى جانبها الشرقى الروحاء لانبساط مجرى نهر دجلة عنده .

وقد أطلق لفظ الزوراء على بغداد في بدء إنشائها للانحراف الذى شوهه في محارب مساجدها ، وسميت المدينة المدورة ، لأنها على شكل دائرة . ويقال لها دار السلام تشبيها لها بالجنة (١) .

وقد ورد في تسمية بغداد أيضاً مَعداذ ومَعداد ومَعدان (٢) .

ه — تخطيط بغداد :

شرع المنصور في بناء حاضرتة الجديدة في موضع بغداد القديمة ، وأمر باحضار المهندسين والبنائين والفعلة والصناع من التجارين والحدادين والحفارين من الشام والموصل والبصرة والكوفة وواسط وبلاد الديلم ، حتى بلغ عددهم مائة ألف (٣) . كما اختار جماعة ممن يثق بفضلمهم وعدالتهم وعلهم وأمانتهم ومعرفتهم بالهندسة والحساب من أمثال الحجاج بن أرطاه ، وعمران ابن الوضاح ، وأجرى عليهم الأرزاق ، ثم أمر بضرب اللبن وطبخ الآجر .

وقد قيل إن المنصور أراد أن يولى القضاء أبا حنيفة النعمان مؤسس المذهب الحنفى ، فامتنع ، فخلف ألا يتركه حتى يولى عملاً من الأعمال ، وحلف أبو حنيفة ألا يفعل . وبما حدا بالمنصور إلى معاملة أبى حنيفة هذه المعاملة ، رغبته في التحلل من يمينته والخروج منها (٤) ، وذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن المنصور إنما عامل أبا حنيفة هذه المعاملة ، لما رمى به من الانحياز إلى دعوة محمد بن عبد الله العلوى ، فحفظ له المنصور ذلك . فلما شرع في بناء بغداد ، عهد إلى أبى حنيفة في عد اللبن والإشراف على البناء ، فابتكر طريقة لعد الطوب بالقصب ، وهى طريقة سهلة . فاذا كان طول الطوبة ٣٠ سنتيمتراً مثلاً ، ألقى أبو حنيفة بقصبة قاس بها صف الطوب . وبذلك أمكنه معرفة عدد الطوب بالضبط في زمن قصير وبدون عناء .

أحضر أبو حنيفة قصبة يعد بها اللبن والآجر ، ثم وضع أبو جعفر المنصور أول لبنة

(١) البغدادى : تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٧ — ٧٨ .

(٢) الطبرى ج ٩ ص ٢٣٠ — ٢٣٢ ، تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ج ١ ص ٥٨ — ٥٩ .

أنظر لفظ بغداد في معجم البلدان لياقوت ولسان العرب .

(٣) لاشك أن في هذا العدد الذى ذكره المؤرخون مبالغة ظاهرة .

(٤) الطبرى ج ٩ ص ٢٤١ .

بيده وقال : بسم الله ! والحمد لله ! والارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ، ثم قال « ابنوا على بركة الله » (١) .

ويحدثنا ياقوت أن المنصور وضع أساس بغداد في الوقت الذي اختاره المنجمون . قال أبو سهل بن نوبخت : « أمرني المنصور لما أراد بناء بغداد بأخذ الطالع ففعلت ، فإذا الطالع في الشمس وهي في القوس . فخبّره بما تدل النجوم عليه من طول بقائها وكثرة عمارتها ، وفقر الناس إلى ما فيها ، ثم قلت : وأخبرك خلة أخرى أسرك بها يا أمير المؤمنين . قال وما هي ؟ قلت نجد في أدلة النجوم أنه لا يموت بها خليفة أبداً حتف أنفه ، فتبسم وقال : الحمد لله على ذلك (هذا فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) . ولذلك يقول عماره بن عقيل بن بلال بن جرير بن الخطافي :

أعانيت في طول من الأرض أوعرض	كبغداد من دار بها مسكن الخفض ؟
صفا العيش في بغداد واخضر عودُه	وعيشٌ سواها غير خفض ولا غرض
تطول بها الأعمار إن غدامها	مريء وبعض الأرض أمراً من بعض
قضى ربها ألا يموت خليفة	بها إنه ماشاء في خلقه يقضى
تنام بها عين الغريب ولن ترى	غريباً بأرض الشام يطعم في الغمض
فان جزيت بغداد منهم بقرضها	فما أسلفت إلا الجميل من القرض
ولن رُميت بالهجر منهم وبالقلي	فما أصبحت أهلاً لهجر ولا بغض

وكان من أعجب العجب أن المنصور مات وهو حاج ، والمهدي ابنه خرج إلى نواحي الجبل فمات بما سيبدان بموضع يقال له الرّذ ، والمهادي ابنه مات بعيسباد قرية أومحلة بالجانب الشرقي من بغداد ، والرّشيد مات بطوس ، والأمين أخذ في شبّارته وقتل بالجانب الشرقي ، والمأمون مات بالبزندون من نواحي المصيصة بالشام ، والمعتمد والواثق والمتوكل والمنصور وباقي الخلفاء ماتوا بسامرا ، ثم انتقل الخلفاء إلى التاج من شرقي بغداد ، (٢)

وقد احتفل المنصور بوضع الحجر الأساس لبناء بغداد احتفالاً شائقاً شهدته رجال الدولة العباسية من الأمراء والوزراء والعلماء والقواد والأعيان .

وقد روى الطبري وغيره أن المنصور لما عزم على بناء بغداد أحب أن يعرف رسمها ،

(١) اليعقوبي: كتاب البلدان ص ٢٣٨ — ٢٤٠ ، والطبري ج ٩ ص ٢٤١ .

(٢) راجع لفظ بغداد في معجم البلدان لياقوت .

فأمر أن تخطط طرق المدينة بالرماد ، ثم دخل من موضع كل باب ، ومر في طرقات المدينة ورحابها وهي مخطوطة بالرماد ، ثم أمر أن يوضع على تلك الخطوط حب القطن ، ويصب عليه النفط وتوقد فيه النار . فنظر إليه والنار تشتعل . وبذلك أمكنه الوقوف على رسم مدينته الجديدة . ثم حفر الأساس مكان هذه الخطوط ، وكان ذلك سنة ١٤٥ هـ .^(١) وقد جعل المنصور مدينته مدورة ، وجعل داره وجامعه في وسطها حتى لا يكون أحد أقرب إليه من الآخر ؛ وهو نوع جديد في بناء المدن عند المسلمين ، يظهر أنهم اخذوه عن الفرس^(٢) .

ولم يجعل المنصور حول القصر والجامع بناء ، إلا الدار التي بناها للحرس من ناحية باب الشام ، وسقيفة كبيرة ممتدة على عمد مبنية بالآجر والجص ، خص إحداها بصاحب الشرطة والأخرى بصاحب الحرس ، وجعل حول ذلك منازل أولاده الأصاغر ومن يقوم بشئونهم من الخدم والعبيد ، واتخذ حول ذلك قصور الأمراء ورجال الدولة ودواوين الحكومة ومطبخ العامة . وأخذ البناءون يبنون حول الدواوين دور الأهالي تتخللها الأسواق ، وجعل للمدينة شوارع رئيسية أربعة تمتد من شوارع المدينة الأربعة ، يتفرع منها شوارع أخرى^(٣) .

ولما وقف المنصور على رسم مدينته الجديدة ، شرع في بناء سورها . ثم أخذ العمال في العمل حتى بلغ ارتفاع السور قامة ، ولكن البناء ما لبث أن وقف بسبب خروج محمد النفس الزكية في المدينة المنورة سنة ١٤٥ هـ

٦ - إتمام البناء :

ولما قضى المنصور على ثورة العلويين عزم على إتمام بناء بغداد في أقرب وقت مستطاع^(٤) ، وأمر بأن يبنى للمدينة سوران : سور داخلي عرضه من أسفله خمسون ذراعا ومن أعلاه عشرون ذراعا ، وسور خارجي ارتفاعه ثلاثون ذراعا وعرضه كعرض السور الداخلي وليس عليه أبراج^(٥) ، وحوله من الخارج خندق عميق أجرى فيه الماء من القناة التي تأخذ من نهر كرخايا ، وبنيت حافته بالجص والآجر ، وفوقه ١٦٣ برجاً ، سلك كل منها خمسة أذرع^(٦) . وكان بالسور الخارجي أربعة أبواب ، بابان دون باب وهي : باب الكوفة ويقع في الجنوب الغربي ، وباب

(١) الطبري ج ٩ ص ٢٤١ .

(٢) Le Strange, p. 18.

(٣) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٦ .

(٤) أجمع المؤرخون على أن بناء بغداد قديم في سنة ١٤٦ هـ وأصبحت مقر الدولة العباسية ، وأن

بناء سور المدينة وخندقها لم يتم قبل سنة ١٤٩ هـ (الطبري ج ٩ ص ٢٤١)

(٥) الطبري ج ٩ ص ٢٤٠ .

(٦) اليعقوبي : كتاب البلدان ص ٢٣٩ .

البصرة ويقع في الجنوب الشرقى ويشرفان على قناة الصراة ، وباب خراسان ويقع في الشمال الشرقى وكان على نهر دجلة ويوصل إلى قنطرة السفن الرئيسية ، وكان يسمى باب الدولة لإقبال قوة الدولة العباسية من خراسان ، وباب الشام ويقع في الشمال الغربى ويوصل إلى طريق الأنبار (١).

وكان قطر مدينة بغداد من باب خراسان إلى باب الكوفة ٢٢٠٠ ذراع ، ومن باب البصرة إلى باب الشام كذلك . وعلى السور أبراج ، سمك كل منها خمسة أذرع ، وبُنيت عليه شرافات (٢). وبين السورين ستون ذراعا ، ويسمى «الفصيل» ، ويسمى السور الخارجى «سور الفصيل» ، وحوله الخندق ، ويسمى السور الداخلى سور المدينة .

وكان وزن كل لبنة جعفرية (٣) ١١٧ رطلا (٤). وقد ذكر يعقوب أن وزن اللبنة التامة المربعة التى يبلغ طولها ذراعا ، وعرضها ذراعا ، مائتا رطل ، واللبنة المنصرفة التى يبلغ طولها ذراعا وعرضها نصف ذراع مائة رطل . وقد ذكر صاحب كتاب مناقب بغداد (٥) أن الطوب المستعمل هو اللبن والآجر المطبوخ .

وكان بين البابين دهايز ورحبة توصل إلى الفصيل الدائر بين السورين ، ويسمى الأول باب الفصيل والثانى باب المدينة . فاذا دخل الداخل من باب خراسان مثلاً عطف على يساره فى دهايز أزج (٦) مبنى بالآجر والجص ، طوله ثلاثون ذراعا وعرضه عشرون ذراعا ، ويوصله بالباب الثانى رحبة طولها ستون ذراعا وعرضها أربعون ذراعا . وعن يمين الداخل ويساره بابان : الأيمن ويوصل إلى فصيل باب الشام ، والأيسر ويوصل إلى فصيل باب البصرة . ومن باب البصرة يدور الشخص إلى باب الكوفة ، ويدور الذى انتهى إلى باب الشام إلى باب الكوفة . والأبواب الأربعة على مثال واحد من حيث الفصلان والرحاب والطاقت . أما الباب الداخلى أو باب المدينة ، فيدخل منه إلى دهايز طوله عشرون ذراعا وعرضه اثنا عشر ذراعا .

وقد ذكر الطبرى أن أبا جعفر المنصور نقل خمسة من هذه الأبواب من مدينة واسط . ويقال إن الحاجاج بن يوسف الثقفى وجدها على باب مدينة بناها النبی سليمان بن داود تعرف

(١) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٤ — ٧٥ ، ١٩ — ١٧ Le Strange , pp.

(٢) الشرافات : هى الحلى التى توضع فى أعلى البناء على هيئة عرائس أو نحوها ، وتلاحظ فى أعلى

المباني الأثرية كالمساجد والحصون .

(٣) نسبة إلى أبى جعفر المنصور .

(٤) ياقوت الحموى : كتاب معجم البلدان — أنظر لفظ بغداد .

(٥) ضرب من الأبنية .

باسم زندورد^(١)؛ وقد شاهدها الطبري حول سنة ٣٠٠ هـ. وأقام المنصور على باب خراسان بابا جيء به من بلاد الشام، ويقال إنه من عمل الفراعنة. وأقام على باب الكوفة بابا جيء به من الكوفة من عمل خالد بن عبد الله القسري، وعمل لباب الشام بابا صنع في بغداد، وكان أضعف أبواب بغداد. وعلى كل أزج من أزج هذه الأبواب مجلس تتصل درجاته بهذا السور، وعلى هذا المجلس قبة عالية يجلس فيها المنصور طلباً للراحة، فيشاهد الوافدين من خراسان والشام والبصرة والكوفة.

بني المنصور قصره الذي كان يطلق عليه اسم قصر الذهب، وبني جامعاً قبالة في وسط المدينة. وقد بلغت مساحة القصر ١٦٠,٠٠٠ ذراعاً مربعاً، كما بلغت مساحة الجامع ٤٠,٠٠٠ ذراعاً مربعاً. ويعتبر قصر الذهب والجامع مركز الدائرة، حيث تفرعت من أبواب السور الداخلي الذي يحيط بمركز المدينة أربعة شوارع رئيسية منتظمة متجهة إلى خارج المدينة على شكل محاور الدائرة حتى تنتهي إلى الخندق. وقد أقيمت على جانبي هذه الشوارع الأبنية العالية، التي نسقت تنسيقاً بديعاً، والتي كانت متشابهة في الشكل وأسلوب البناء. وكانت أبواب القواد تشرف على رحبة الجامع، فشكك الناس ذلك إلى الخليفة المنصور، فأمرهم بتحويل أبوابهم حتى لا تطل على الجامع، وجعلت في طرف المدينة وطاقتها، التي بلغ عددها خمسة وثلاثين، عرض كل منها خمسة عشر ذراعاً، وطولها مائتا ذراع. وبين كل طاقين بنيت غرف للرابطة. وكان على كل باب من أبواب المدينة قائد في ألف جندي^(٢). وإذا وقف الإنسان في نهاية أحد هذه الشوارع رأى قصر الخليفة^(٣)، كما هو الحال في حي السكاكين بالقاهرة حيث نرى السراي مائلاً أمام الأعين من كل الشوارع المتفرعة عن السراي الذي هو بمثابة مركز الدائرة.

وسرعان ما ازدحمت بغداد بالعلماء والتجار والصناع الذين أقبلوا عليها، فلم ير المنصور بداً من الإقامة خارج المدينة في مكان طيب الهواء، فبنى في سنة ١٥٧ هـ قصر الخلد^(٤). ولا شك أن هذه الأعمال الجليلة قد كلفت الخليفة المنصور كثيراً من النفقات، حتى إنه فكر في استعمال أنقاض المدائن، حاضرة الفرس القديمة في تعمیر حاضرة مله الجديدة،

(١) زندورد اسم دير من أديار النسطوريين كان يقع شرق مدينة بغداد.

(٢) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٦.

(٣) ابن رسته: الأعلام النفيسة ص ١٠٨.

(٤) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٥، ياقوت معجم البلدان: أنظر لفظ بغداد.

فاستشار وزيره خالد بن برمك في هدم إيوان كسرى ونقل أنقاضه لبناء بغداد وتعميرها ،
فنهاه خالد عن ذلك .

٧ — القطائع والأرباض :

ولما فرغ أبو جعفر المنصور من عمارة بغداد ، أقطع أعيان دولته قطائع من الأرض
رغبة في تخفيف الضغط على بغداد من جهة ، ومكافأة لهم على ما قدموه من الخدمات الجليلة من
جهة أخرى . وقد حذا ابن طولون في مصر حذو المنصور في بغداد حين أسس مدينة القطائع ،
بعد أن ضاقت الفسطاط والعسكر بخدمه وبماليكه وجنده ، وأعطى كل طائفة قطيعة خاصة بها .
وسرعان ما عمرت هذه القطائع وازدحمت بالسكان ، وأصبحت كل قطيعة منها تعرف باسم
الرجل أو الطائفة التي تسكنها : فترى من بينها قطيعة العباس بن محمد بن عبد الله بن العباس على
الصراة ، وقطيعة الصحابة وهم من سائر قبائل العرب من قريش والأنصار وريعة ومضر ،
وكانت على الصراة أيضا ، وقطيعة الربيع بن يونس مولى المنصور ، وكان بها تجار خراسان من
البرازين (أى بائعى الثياب) ، وقطيعة صالح بن المنصور ^(١) . وسرعان ما اتسعت قطائع
بغداد وزاد إقبال الناس على سكناها ، حتى إن نقل حاضرة الدولة العباسية الى سامرا في
أيام المعتصم لم يؤثر في نمو الحركة التجارية والعلمية في بغداد ^(٢) .

وقد أسهب اليعقوبى في الكلام على سكك ^(٣) بغداد ودروبها ^(٤) : فنجد سكة الشرطة وسكة
المطبق وفيها سجن المطبق ، وسكة أبي حنيفة وسكة الربيع وسكة المؤذنين . وقد بلغ عدد هذه
السكك والدروب ستة آلاف ، وبلغ عدد الحمامات عشرة آلاف . وبالغ اليعقوبى وابن رسته في
عدد المساجد ، فذكر كل منهما أنها بلغت الثلاثين ألف ! وزاد ابن رسته أن الجانب الجنوبي
لمدينة بغداد (الكرخ) كان ضعف الجانب الشرقى (الرصافة) سعة وكثرة بعمارة .

وقد قسم الخليفة المنصور أرباض ^(٥) بغداد أربعة أقسام ، جعل على كل منها رئيسا ،
وعهد إلى كل رئيس منهم إقامة سوق في القسم الذى يشرف عليه ، كما أمر أن تخطط الشوارع
والدروب بحيث تكون المباني منتظمة ، وأن يسمى الشارع أو الدرب باسم القائد أو الرجل

(١) اليعقوبى : كتاب البلدان ص ٢٤٢ — ٢٥٤ ، أمين زكى : عمران بغداد ص ٣٧ — ٣٨ .

(٢) شرحه .

(٣) السكة الزقاق .

(٤) الدرب المدخل بين جيلين ، والعرب تستعمله في معنى الباب ، لأنه كالإبواب لما يفضى اليه . والدرب

باب السكة الواسع والباب الأكبر .

(٥) الرىض (بفتحين) للمدينة ماحولها ، وجمعها أرباض أى ضواحي .

الناب الذكر الذى يقيم فيه ، كما تفعل المجالس البلدية الآن . وسرعان ما عمرت الأرباض وكثرت فيها المساجد والحمامات (١) .

ولنتقل إلى الكلام على بناء الرصافة فى الجهة الشرقية من نهر دجلة المقابلة لمدينة بغداد ، وعن الكرخ التى بناها أبو جعفر المنصور فى الجزء الجنوبى من بغداد .

٨ — الرصافة :

إن بناء بغداد ، وإن كان قد حقق الغرض الذى رعى إليه المنصور من منع وصول العدو إليه ، إلا أنه لم يحل دون ما قد يحدث إذا شغب الجند عليه . ولقد برهنت الأيام على أنه لم يكن آمناً كل الأمن على نفسه بإقامته فى بغداد ، إذ قد وقع هذا الشغب فعلاً ، حين قام عليه جنده وحاربوه على باب الذهب أحد أبواب بغداد ، فأشار عليه أحد رجال دولته ببناء الرصافة وقال له : « عبر بابك (المهدى) ، فأنزله فى الجانب (الشرقى من بغداد) قصرأ ، وحوله ، وحول من جيشك معه قوما ، فيصير ذلك بلداً ، وهذا بلداً . فان فسد عليك أهل هذا الجانب ضربتهم بأهل ذلك الجانب ، وإن فسد عليك أهل ذلك الجانب ضربتهم بأهل هذا الجانب ، وإن فسدت عليك مضر ضربتها باليمن وربيعة والخراسانية ، وإن فسدت عليك اليمن ضربتها بمن أطاعك من مضر وغيرها . فقبل (المنصور) أمره ورأيه فاستوى له ملكه ، .

وقد اتخذت الرصافة فى الأصل مكينات للجيش ، وسميت « رصافة بغداد » وبغداد الشرقية لأنها تقع فى الجهة الشرقية من دجلة المقابلة لمدينة بغداد . وبنى لها المنصور سوراً ، وحفر حولها خندقاً ، وجعل فيها ميداناً فسيحاً ومسجداً وبستاناً ، وأجرى الماء فيها ، فتم ذلك فى خلافة ابنه المهدى سنة ١٥٩ هـ (٢) .

وسرعان ما عمرت الرصافة حتى قاربت بغداد فى الاتساع ، فظهرت فيها الحدائق والمنتزهات ، والميادين الواسعة ، والمباني الفخمة ، كما تجلت فيها مظاهر الخلاعة والملاهى . وفى ذلك يقول على بن الجهم الشاعر :

عيون المها بين الرصافة والجسر ، جلبن الهوى من حيث أدرى ولا أدرى
وقد أحصى اليعقوبى (٣) طرق الرصافة ودروبها ، ووصف أسواقها وتجاراتها ، وقال إنه كان بها أربعة آلاف درب وسكة ، وخمسة عشر ألف مسجدة ، وخمسة آلاف حمام ، إلى

(١) اليعقوبى : كتاب البلدان ص ٢٤٠ — ٢٤٩ .

(٢) الطبرى ج ٩ ص ٢٨٢ ، ابن الأثير ج ٥ ص ٢٨٦ .

(٣) كتاب البلدان ص ٢٥٣ — ٢٥٤ .

غير ذلك من الأقوال التي لا تخلو من المبالغة .

وقد قال صاحب كتاب حضارة الإسلام في دار السلام (١) :

« إن أهالي بغداد قد توسعوا في تعمير الجانب الشرقي لمدينة بغداد المعروف بالرصافة ، فبنوا فيه القصور الرفيعة والمنازل المزخرفة ، واتخذوا الأسواق والجوامع والحمامات ، وتوجهت عناية الرشيد والبرامكة إلى تزيينها بالبنائيات العامة ، حتى أصبحت الزوراء (يعني بغداد) بجانبها كأنها البلد العتيق تجتمع محاسنه في جزء من محاسن المدينة التي أحدثت في جواره .
وقد بلغ اتساع بغداد والرصافة اتساعاً عظيماً ، حتى أصبحت أشبه بمدن صغيرة متلاصقة (٢) ، وأصبحت بغداد أم مدائن الشرق في ذلك العصر ، وبلغ عدد سكانها مليوني نسمة ، وازدهرت فيها الفنون المختلفة وانتشرت منها إلى سائر أنحاء العالم الإسلامي حتى ما كان منها مناهضاً للخلافة العباسية (٣) »

٩ — الكرخ :

لم تزل الأسواق داخل مدينة بغداد ، حتى وفد على المنصور أحد بطارقة الروم ، فأمر حاجبه الربيع بن يونس أن يطيف به في المدينة ، ويصعد به إلى السور ، ويريه قباب الأبواب والطاقات ليرى ما عليه حاضرة خلافته من الأبهة وال عمران . فلما مثل البطريق (٤) بين يدي المنصور ، سأله : كيف رأيت مدينتي ؟ فقال : « يا أمير المؤمنين : إنك بنيت بناء لم يبنه أحد كان قبلك ؛ وفيه ثلاثة عيوب :

« أما أول عيب فيه فبعده عن الماء ، ولا بد للناس من الماء لشفاههم ؛ وأما العيب الثاني فإن العين خضرة وتشاق إلى الخضرة ، وليس في بنائك هذا بستان ؛ وأما العيب الثالث فإن رعيته معك في بنائك ؛ وإذا كانت الرعية مع الملك في بنائه فشا سره . »

وقف المنصور من ذلك على أوجه النقص في مدينته ، ولما سمعته لم يرد أن يعترف للبطريق بما فاتته من أخطاء في بنائها فقال له : أما قولك في الماء ، فحسبنا من الماء ما بل شفاهنا ؛ وأما

(١) ص ٩٢ — ٩٣ .

(٢) ذكر ياقوت في معجمه المدن التي تسمى الرصافة ؛ فنها رصافة البصرة ، ورصافة الشام ، وهي أكثر من مدينة ، منها رصافة نيسابور التي أقطعها سليمان بن عبد الملك ابنه عبد العزيز لما ولد ، ورصافة هشام بن عبد الملك غربي الرقة ، وقيل لها الزوراء ، وكان يسكنها في الصيف ، ورصافة واسط وهي قرية بالعراق من أعمال واسط ، ورصافة أبي العباس السفاح بالأنبار ، ورصافة قرطبة التي بناها عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك ، ورصافة بغداد . وقد قال ياقوت باحتمال اشتقاق لفظ الرصافة من الرصف ، وهو ضم الشيء إلى الشيء كما يرصف البناء والشارع .

(٣) زكي محمد حسن : كنوز الفاطميين ص ٨٢ ، ١٤٠ ، ١٦٨ .

(٤) البطريق : القائد من قواد الروم .

الغيب الثاني فانا لم نخلق للهو واللعب ، وأما قولك في سرى فالى سر دون رعيتي . ولما خرج البطريق من قصره بعث أبو جعفر المنصور في طلب شمس وبلاد وقال لها : مدا إلى قناتين من دجلة واغرسا لي العباسية وانقلا الناس إلى الكرخ (١)

وقد قام الربيع بن يونس ببناء الكرخ في سنة ١٥٧ هـ جنوبى المدينة المدورة (بغداد) من مال المنصور الخاص . وحولت إليها أسواق المدينة (٢) . وأوسع المنصور طرق بغداد حتى غدا اتساع كل منها أربعين ذراعا . ووضع تصميم بناء الكرخ على قطعة من القماش عين عليها مواضع الأسواق ، كما عين موضع بناء جامع يصلى فيه أهل هذه الأسواق ، حتى لا يدخلوا المدينة ، وعهد بالعمل إلى مولاة الوضاح . وأفرد لكل حرفة سوق خاصة كما هو الحال في المدن الكبيرة . وقد بنيت أسواق الكرخ في الجهة الجنوبية من بغداد بين الصراة ونهر عيسى (٣) لتكون مركزا للصناعة والتجارة ، حتى إذا أخذت بغداد في الاتساع صارت الكرخ في وسطها (٤) ، وأصبحت كما قال أبو عبد الله إبراهيم بن عرفة نفطويه :

سقى أربع الكرخ الفوادى بديمة وكل مُلْك دائم الهطل مسبل
منازل فيها كل حسن وبهجة وتلك لها فضل على كل منزل (٥)

وقد عنى المنصور عناية كبيرة بتنظيم مدينته ونظافة شوارعها وطرقها ؛ فكانت الرحاب تكس كل يوم ، ويحمل التراب خارج المدينة . وكانت الروايا تدخل على ظهور البغال ، فرأى الخليفة أن ذلك لا يتفق وأبته حاضرة خلافته وروادها ، فأمر بتوصيل الماء إلى قصره .

١٠ — نفقات بناء بغداد :

لقد تطلب بناء بغداد كثيراً من النفقات ، لأن المنصور عمل على تحصينها تحصيناً متيناً لتحاكى الحواضر الكبيرة ، وخاصة القسطنطينية حاضرة الروم ، في العظمة والآبهة . فقد بلغت نفقات المدينة وما إليها من الأسوار والأبواب والقصر والجامع والأسواق والقباب والفصلان والخنادق وغيرها ٨٣٣,٠٠٠ درهم على رواية الطبرى ، وهو يعادل ٤٠٠,٠٠٠ دينار

(١) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٨ — ٧٩ ، ياقوت : معجم البلدان . أنظر لفظ بغداد .

(٢) أورد الطبرى (ج ٩ ص ٢٦٢ — ٢٦٣) في نقل الأسواق إلى الكرخ سبباً آخر هو ارتفاع الدخان منها واسوداد حيطان بغداد مما ضائق الخليفة .

(٣) أمين زكى : عمران بغداد ص ١٠٨ .

(٤) اليعقوبى : كتاب البلدان ص ٢٥٤ .

(٥) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٩ — ٨٢ .

أو ٢٠٠,٠٠٠ جنيه . وفي رواية أخرى للطبرى^(١) أن نفقات المدينة بلغت ١٨,٠٠٠,٠٠٠ دينار من الذهب ، وهو يعادل ٩,٠٠٠,٠٠٠ جنيه تقريبا . وعن الطبرى أخذ الخطيب البغدادي مع تعديل طفيف . ويرجح لي سترينج Le Strange الرواية الثانية ، ويستبعد أن تكون النفقات قد بلغت ١٦٠,٠٠٠ جنيه إذا لاحظنا مقدار ما بذل من النفقات في بناء المدينة وتنسيق بساطتها وحفر خلجانها وتشديد حصونها وغير ذلك مما يتطلب من المال أكثر من ٤٠٠,٠٠٠ دينار أو ٢٠٠,٠٠٠ جنيه .

ونحن نرى أن في الرواية الثانية مبالغة ظاهرة ، إذا علمنا أن أبا جعفر المنصور كان حريصا على جمع المال ، كما كان أشد حرصا في إنفاقه . أضف إلى هذا رخص المعيشة في ذلك العصر رخصا يبرر هذا الرأي ، كما ذكرنا في الباب السادس الذي أفردناه لبحث الحالة الاقتصادية في العصر العباسي الأول . وكان المنصور يحرص في الاتفاق على البناء ، لأنه كان يغلب عليه الشح ، حتى ضرب المثل بشحه وحرصه ، فسمى « أبا الدوانيق » ، و « المنصور الدوانيقى » ، لتشدده في محاسبة العمال والصناع على الحبة والدانق ، وهو مقدار لا يزيد على سدس درهم أى سبعة مليمات تقريبا .

١١ - ما قبل في وصف بغداد :

هكذا تأسست مدينة بغداد في عهد أبي جعفر المنصور ، وبقيت الى سنة ٦٥٦ هـ حين أخرجها التتار بقيادة هولاكو . وقد لحق بها الخراب قبل القرن السابع الهجري مرتين : مرة في أثناء الفتنة التي قامت بين الأمين والمأمون في أواخر القرن الثاني للهجرة ، ومرة ثانية حين أغار بنو بويه على بلاد العراق واستولوا على بغداد سنة ٣٣٤ هـ .

وقد أصبحت مدينة بغداد في العصر العباسي الأول أم المدائن ومركز التجارة ، وكعبة العلوم والآداب ، ومعين الثروة والرخاء ، كما أصبحت مبانيها الفخمة ومتنزهاتها الجميلة آية من آيات الفن . وفي ذلك يقول الجاحظ : قد رأيت المدن العظام ، والمذكورة بالاتقان والإحكام ، بالشامات وبلاد الروم ، وفي غيرهما من البلدان . فلم أر مدينة قط أرفع سمكا ، ولا أجود استدارة ، ولا أنبل نبلا ، ولا أوسع أبوابا ، ولا أجود فصيلا من الزوراء ، وهي مدينة أبي جعفر المنصور ، كما نمت صبت في قالب ، وكأما أفرغت إفراغا^(٢) .

وما جاء في مدح بغداد : « بغداد جنة الأرض ، ومدينة السلام ، وقبة الإسلام ، ومجمع

(١) ج ٩ ص ٢٦٣ .

(٢) الخطيب البغدادي ج ١ ص ٧٧ .

الرافدين ، وغرة البلاد ، وعين العراق ، ودار الخلافة ، ومجمع المحاسن والطيبات ، ومعدن
الظرائف واللطائف . وبها أرباب الغايات في كل فن ، وآحاد الدهر في كل نوع . وكان
أبو إسحق الزجاج يقول : بغداد حاضرة الدنيا وما عداها بادية (١) .

وقد وصف عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير بغداد في هذه الآيات :

ما مثل بغداد في الدنيا ولا الدين على تقلبها في كل ماحين
ما بين قطر بل فالكرخ نرجسة تندى ومثبت خيري ونسرين
سقى لتلك القصور الشاهقات وما تشخى من البقر (٢) الأنسية العين
مناظر ذات أبواب مفتحة أنيقة بزخارف وتزين
فيها القصور التي تهوى بأجنحة بالزائرين إلى القوم المزورين
من كل حراقة تعلو فقارتها قصر من الساج عال ذو أساطين
وقال طاهر بن المظفر بن طاهر الخازن :

سقى الله سقى الغاديات محلة ببغداد بين الخلد والكرخ والجسر
هي البلدة الحسنة خصت لأهلها بأشياء لم يجمعن مذكن في مصر
هواء رقيق في اعتدال وصحة وماء له طعم ألد من الحمر
ودجلتها شيطان قد نظما لنا بتاج إلى تاج وقصر إلى قصر
تراها كسك والمياه كفضة وحصباؤها مثل اليواقيت والدر

(ب) سامرا :

ذكرنا في الباب الثالث عند كلامنا على ازدياد نفوذ الأتراك أن المعتصم اعتمد عليهم
واتخذهم حرسا له ، وأسند إليهم مناصب الدولة ، وأن نفوذهم قد تفاقم ، فأذوا أهل بغداد الذين
شكوا منهم إلى المعتصم وقتلوا جماعة منهم . فعزم على الرحيل من بغداد ، واتخاذ موضع يبني
فيه حاضرة جديدة تسع جنده ، وبذلك يتقى شر أهل بغداد . فندب أحد رجاله لاختيار
موضع كان أبو العباس السفاح قد شرع في بناء مدينة جديدة فيه ؛ ثم جاء هارون الرشيد فبنى
بجذاتها قصراً وحفر عندها نهراً سماه القاطول ، ثم بنى المعتصم في ذلك المكان قصراً وهبه
لمولاه أشناس القائد التركي المشهور .

(١) معجم البلدان لياقوت . لفظ بغداد .

(٢) المراد النساء التي تشبه بقر الوحش في حسن العنبن وسعتهما .

ولما شكأ أهل بغداد من عنت هؤلاء الأتراك وعسفهم ، فسكر في هذا المكان الذى فيه قصره ، فبنى عنده مدينة « سامرا » حاضرة خلافته الجديدة ، وتقع شرقى دجلة ، على مسيرة ثلاثة أيام من بغداد ، وتبعد عنها ستين ميلا من ناحية الشمال .

وقد ذكر ياقوت (١) فى سبب اختيار موضع سامرا ، أن المعتصم أعطى وزيره أحمد ابن خالد الكاتب (سنة ٢١٩ هـ) خمسة آلاف دينار ، وأن هذا الوزير قصد ذلك الموضع ، وابتاع ديرا للنصارى بخمسة آلاف درهم ، وبستانا بجواره بخمسة آلاف درهم ، كما ابتاع بعض الأراضى والدور المجاورة لذلك الموضع . ثم أطلع الوزير الخليفة المعتصم على عقود البيع ، فخرج إلى هذا المكان فى أواخر سنة ٢٢٠ هـ ، ونزل فى المضارب التى أقيمت على شاطئ نهر القاطول . ثم قصد موضع سامرا ، وأقام فيه ثلاثة أيام طلبا للصيد ، فأعجبه هواؤه وتربته ، كما أعجبه موقعه ، لأنه يسهل منه الوصول إلى بغداد برا وبحرا إذا خرج أهلها عن طاعته .

شرع المعتصم فى تخطيط حاضرتة الجديدة فى سنة ٢٢١ هـ ، فوضع أساس قصره ، وأحضر الفعلة والصناع وأرباب المهن من سائر الأمصار الإسلامية ، وجعل للأتراك قطائع خاصة بهم ، كما جعل قطائع أخرى لغلمانة من أهل خراسان — وكانوا يسمون الأشروسية — وجعل قطائع لأهل الخوف فى مصر ، وكان يطلق عليهم « المغاربة » ، وأفرد للتجار وأرباب الحرف والصناعات أسواقا خاصة بهم ، ونقل إلى هذه المدينة الأشجار والثمار ، وشيد فى طرفها مسجداً جامعاً . ونزل أشناس وغيره من القواد كرخ سامرا .

هكذا تم بناء سامرا التى قصدتها الناس من كل صوب وحذب ، وشيدوا فيها المباني الشاهقة ، حتى أصبحت من أحسن مدن ذلك العصر .

وقد سمي لنا ياقوت (٢) فى « معجمه » سبعة عشر قصرا بناها المعتصم والمتوكل فى مدينة سامرا ، وكانت هذه القصور نموذجاً للقصور التى بنيت فيما بعد فى البلاد الواقعة بين بخارى شرقا وقرطبة غربا (٣) . وذكر أن هذه المدينة لما عمرت ، أطلق عليها اسم « سرور من رأى » ، ثم اختصر الاسم فقبل « سر من رأى » . ولما خربت واستوحشت سميت « ساء من رأى » ، ثم اختصرت فقبل « سامرا » .

(١) كتاب معجم البلدان : أنظر لفظ سامرا .

(٢) أنظر لفظ سامرا فى معجم البلدان لياقوت .

(٣) بارتولد : تاريخ الحضارة الإسلامية (ترجمة حمزة طاهر) ص ٥٣ .

وذكر المسعودي (١) في سبب تسمية سامرا بهذا الاسم ، أنها مدينة سام بن نوح ، وقال
ياقوت في « معجمه » ، إن سام بن نوح بنى هذه المدينة فنسبت إليه ، وسميت « سام راه »
بالفارسية ، وأن سام بناها ودعا أن لا يصيب أهلها سوء ، فأراد السفاح أن يبنها ، فبنى مدينة
الأنبار بجذائها . ولما تم بناؤها سميت « سرور من رأى » . وقال قائل (٢) إن أميان
Ammian ذكر هذه المدينة في عيسارته التي وردت عن تقيقر جوفسيان Jovian باسم
Castellum Sumere . ويظهر أن لهذه التسمية الطويلة التي أطلقت على مدينة المعتصم صلة
اشتقاقية بهذا الاسم القديم .

وقد وصف الحسين بن الضحاك مدينة سامرا وفضلها على بغداد في هذه الآيات :

سر من را أسر من بغداد	فكأنه عن بعض ذكرها المعتاد
حبذا مسرح لها ليس يخلو	أبدا من طريدة وطراد
ورياض كأنما نشر الزهر	سر عليها مجر الأبراد
واذكر المشرف المظلل من	التل على الصادين والوراد
وإذا رَوَّح الرعاء فلا تند	س رواعى فراقدا الأولاد

ويقول أيضا :

على سر من را والمصيف تحية	مجللة من مغرم بهواهما
ألا هل لمشتاق ببغداد رجعة	تقرب من ظليهما وذراهما
محلان لقي الله خير عباده	عزيمة رشد فيهما فاصطفاهما
وقولا لبغداد إذا ماتنسمت	على أهل بغداد جشعلت فداهما
أفى بعض يوم شف عيني بالقذى	حرورك حتى را بنى ناظراهما (٣)

وإليك بعض ما قاله ابن المعتز في وصف سامرا :

« إنها وإن جففت معشوقة السكنى وحببية المشوى ، كوكبها يقظان ، وجوها عريان ،
وحصاها جوهر ، ونسيمها معطر ، وتراها مسك أذفر ، ويومها غداة ، وليها سحر ، وطعامها
هنى ، وشرابها مرى ، وتاجرها مالك ، وفقيرها فاتك » .

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٣٥٠

(٢) Weil : Geschichte der Chalifen , vol . II , p. 302 n.

(٣) ياقوت : معجم البلدان ، أنظر لفظ بغداد .

وقد احتفظت مدينة سامرا برواتها وبهاثها منذ بنيت في عهد الخليفة المعتصم سنة ٢٢١ هـ إلى نهاية خلافة المعتضد العباسي سنة ٢٨٩ هـ؛ ثم سارع إليها الخراب ، ولم يبق فيها إلا قبر على الهادي الإمام العاشر ، والسرداب الذي اختفى فيه محمد المنتظر ، وهو الإمام الثاني عشر عند طائفة الإمامية الاثنا عشرية ، وقبور الخلفاء العباسيين الواثق والمتوكل والمنتصر والمعتز والمهتدي والمعتد .

وقد وصف ياقوت المتوفى في أوائل القرن السابع الهجري أطلال سامرا كما شاهدها ، فقال :
« وسائر ذلك خراب يستوحش الناظر إليها ، بعد أن لم يكن في الأرض كلها أحسن منها ، ولا أجمل ولا أعظم ، ولا آنس ولا أوسع ملكا منها . فسبحان من لا يزول ولا يحول » . وفي ذلك يقول ابن المعتز :

قد أفقرت سر من را وما لشيء دوام
فالتقض يحمل منها كأنها آجام
مانت كما مات فيل تسل منه العظام

البَيْتُ الْمُنَى

الحالة الاجتماعية

يقصد بالحالة الاجتماعية في بلد من البلاد ، ذكر طبقات المجتمع في هذا البلد من حيث الجنس والدين ، وعلاقة كل من هذه الطبقات بعضها ببعض ، ثم بحث نظام الأسرة وحياة أفرادها وما يتمتع به كل منهم من الحرية ، ثم وصف البلاط ومجالس الخلفاء ، والأعياد والمواسم والولائم والحفلات ، وأماكن النزهة ، ووصف المنازل وما فيها من أثاث وطعام وشراب ولباس ، وما إلى ذلك من مظاهر المجتمع .

١ — طبقات الشعب :

كان الخلفاء الأمويون يعتمدون على العنصر العربي ، الذي كان يكوّن السواد الأعظم من أفراد الشعب في بلاد الشام . فلما ظهرت الدولة العباسية بمساعدة الفرس ، وتحول مركز هذه الدولة إلى بلاد العراق ، ساد العنصر الفارسي ، واعتمد الخلفاء العباسيون على الفرس دون العرب ، وأسندوا إليهم المناصب المدنية والعسكرية . ومن ثم قامت المنافسة بين العرب والفرس ، حتى جاء المعتصم — وكانت أمه تركية — فاعتمد على العنصر التركي واتخذهم حرسا له ، وأسند إليهم مناصب الدولة ، وقلدهم ولاية الأقاليم البعيدة عن مركز الخلافة ، بل أخرج العرب من ديوان العطاء ، وأحل محلهم الترك ، فحقد عليهم العرب والفرس جميعا .

ولم يقتصر الصراع على ما كان بين العرب والفرس والترك ، بل تعداه إلى قيام المنافسة بين العنصر العربي نفسه : فاشتعلت نيران العصبية بين عرب الشمال المضطربين ، وعرب الجنوب البئيسين ، حتى إن نقل المنصور جنوده إلى الكرخ جنوبي بغداد ، كان نتيجة قيام روح العصبية بين بعض العرب وبعض . فقد ذكر الطبري ^(١) أن قثم بن عباس دخل على المنصور ، وكان شيخا ذا رأي وحزم ، فقال له المنصور : أما ترى يا قثم مانحن فيه من التياث الجند علينا ؟ قد خفت أن تجتمع كلمتهم ، فيخرج هذا الأمر من أيدينا ، فما ترى ؟ قال : يا أمير المؤمنين !

عندي رأى لو أظهرته لك فسد ، وإن تركتني أمضيه ، صلحت لك خلافتك ، وهابك جندك ، فقال له : أقمضني في خلافتي أمراً لا تعلني ماهو ؟ فقال له : إن كنت عندك منهما على دولتك فلا تشاورني ، وإن كنت مأموناً عليها ، فدعني أمضى رأيي ، فقال : فأمضه . فأنصرف قثم إلى منزله ، فدعا غلاماً له فقال له : إذا كان غداً ، فتقدمني ، فاجلس في دار أمير المؤمنين . فإذا رأيته قد دخلت وتوسط أصحاب المراتب فخذ بعنان بغلي ، فاستوقفني ، واستحلفني بحق رسول الله ، وبحق العباس ، وبحق أمير المؤمنين ، لما وقفت لك وسمعت مسألتك وأجبتك عنها ، فاني سأتهرك ، وأغلظ لك القول ، فلا يهولك ذلك مني ، وعاودني بالمسألة ، فاني سأشتمك ، فلا يردعنك ذلك ، وعاودني بالقول والمسألة ، فاني سأضربك بسوطي ، فلا يشق ذلك عليك ، فقل لي : أي الحيين أشرف : الين أم مضر ؟ فإذا أجبتك فخلّ عنان بغلي وأنت حر . ففدا الغلام مجلس حيث أمره . فلما جاء الشيخ ، فعل الغلام ما أمره به مولاه ، وفعل المولى ما كان قد قال له ، ثم قال له : قل ! فقال : أي الحيين أشرف : الين أم مضر ؟ فقال قثم : مضر ، كان منها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفيها كتاب الله عز وجل ، وفيها بيت الله ، ومنها خليفة الله . فامتعضت الين ، إذ لم يذكر لها شيء من شرفها ، فقال له قائد من قواد الين : ليس الأمر كذلك مطلقاً بغير شرف ولا فضيلة لليمن ، ثم قال لغلامه : قم فخذ بعنان بغلة الشيخ ، فاكبها كعباً عنيفاً تطأ من به منه . ففعل الغلام ما أمره به مولاه ، حتى كاد أن يثقيعها على عراقيبها ، فامتعضت من ذلك مضر فقالت : أي فعل هذا بشيخنا ؟ فأمر رجل منهم غلامه فقال : اقطع يد العبد ، فقام إلى الغلام اليماني فقطع يده ، فنفر الحيان ، وصرف قثم بغلته ، فدخل على أبي جعفر ، وافترق الجند ، فصارت مضر فرقة ، والين فرقة ، والخراسانية فرقة ، وربيعة فرقة .

من ذلك نرى أن الشعب كان يتكون في العصر العباسي الأول من العرب ، وعلى الأخص المضريين واليمنيين ، ثم من الفرس ، وخاصة الخراسانيين الذين ساعدوا على قيام الدولة العباسية ، والترك ، وعلى الأخص منذ أيام المعتصم ، والمغاربة وغيرهم . وكان المسلمون ينقسمون إلى سنيين وشيعيين . ولم يخمد النزاع بينهم طوال العصر العباسي الأول ، بل تطور أطواراً مختلفة ، نراها في الثورات التي أذكى نيرانها محمد النفس الزكية وأخوه إبراهيم في عهد أبي جعفر المنصور ، والحسين بن علي في عهد الهادي ، ويحيى وإدريس ابنا عبد الله بن الحسن في عهد هارون الرشيد .

ومن طبقات الشعب في ذلك العصر أهل الذمة ، وهم النصارى واليهود ، وكانوا يتمتعون بكثير من ضروب التسامح الديني ، حتى إننا نرى ببغداد كثيراً من الأديار ، نخص بالذكر منها

دير العذارى ، وكان في قطيعة النصارى على نهر الدجاج ، ودير درمايس الذى وصفه الشاشتى في كتابه « الديارات » ، وكان به البساتين الكشيفة الأشجار ، ويقصده الناس للزهوة وانتشاء الهواء ، ودير الروم شرقى بغداد ، الذى أشار أحد رهبانه على أبى جعفر المنصور ببناء مدينته في هذا الموضع ، وكان خاصا بالذسطوريين . وكان النصارى واليهود يقيمون شعائرهم الدينية في أديارهم وبيعهم خارج مدينة بغداد في أمن ودعة ، مما يدل على أن الخلفاء العباسيين كانوا على جانب عظيم من التسامح الدينى مع أهل الذمة .

وقد أوجدت الحاجة إلى المعيشة المشتركة وما ينبغى أن يكون فيها من وفاق بين المسلمين واليهود والنصارى نوعا من التسامح ، ولم تتدخل الحكومة الإسلامية كذلك في شعائر أهل الذمة ، بل كان يبلغ من تسامح بعض الخلفاء أن يحضر مواعدهم وأعيادهم ويأمر بصياتهم .

وكانت الطوائف الدينية منفصلا بعضها عن بعض تمام الانفصال ، وكان لا يجوز للسبحى أن يتهود ، ولا لليهودى أن يتنصر ؛ واقتصر تغيير الدين على الدخول في الإسلام . ولم يكن النصرانى يرث اليهودى ، ولا اليهودى يرث النصرانى ، كما لم يكن اليهودى أو النصرانى يرث المسلم ، ولا المسلم يرث غير المسلم . يهوديا كان أو نصرانيا . ولم يكن في المدن الإسلامية أحياء مخصصة لليهود والنصارى بحيث لا يتعدونها ، وإن كان أهل كل دين قد آثروا أن يعيشوا متقاربين .

وكان الشعب يتألف في العصر العباسى الأول من أربعة عناصر رئيسية هى : العرب ، والفرس ، والآتراك ، والمغاربة . فلما قامت الدولة العباسية بمساعدة الفرس ، اعتمد الخلفاء عليهم وأهلوا العرب الذين تقموا على الفرس وأشعلوا نيران الثورات ، حتى قامت بين الأمين والمأمون هذه الفتنة التى كانت في حقيقة الأمر انتصارا للفرس على العرب . ولما ولى المعتصم الخلافة ، ظهر العنصر التركى على مسرح السياسة ، واتخذهم هذا الخليفة حرسا له ، وأسند اليهم مناصب الدولة ، وأقصى العرب من ديوان العطاء . وأدى ظهور العنصر التركى إلى إخماد نار الخصومة بين الفرس والعرب حينما ، وبين العلويين والعباسيين حينما آخر ، لأن ذلك العنصر استأثر بالنفوذ دون الفريقين . وإن الثورات التى أشعل نارها بابك الخرمى والمازيار والأفشين في أواخر العصر العباسى الأول لتبين لنا مبلغ سخط الفرس على العرب والآتراك والمغاربة ، كما يظهر ذلك من قول الأفشين للمازيار ، يستحبه على مساعدته في ثورته التى كانت ترمى من وراء ذلك إلى إعادة السلطان إلى الفرس : « فإن خالفت لم يكن للقوم من يرمونك به غيرى ، ومعى الفرسان وأهل النجدة والبأس . فإن ومجئت إليك لم يبق أحد يحاربنا إلا ثلاثة : العرب والمغاربة والآتراك . والعربى بمنزلة الكلب ، اطرح له كسرة واضرب رأسه بالدبوس ،

وهؤلاء الذئاب ، يعنى المغاربة ، إنما هم أكلة رأس . وأولاد الشياطين ، يعنى الأتراك ، فانما هم ساعة حتى تنفذ سهامهم ، ثم تجول الخيل عليهم جولة فتأتى على آخرهم ، ويعود الدين إلى ما لم يزل عليه أيام العجم ، (١) .

وكان الرقيق يكونون طبقة كبيرة من طبقات المجتمع الإسلامى فى العصر العباسى الأول ، إذ كان اتخاذ الرقيق منتشرًا انتشاراً كبيراً ، وكانت سمرقند التى كانت تعد من أكبر أسواق الرقيق ، بيئة صالحة جداً لتربية الرقيق المجلوب من بلاد ما وراء النهر ، كما كان أهلها يتخذون ذلك صناعة لهم يعيشون منها (٢) . ولم ينظر الخلفاء العباسيون إلى الرقيق نظرة امتهان وازدراء ، بدليل أن كثيرين منهم كانت أمهاتهم من الرقيق . وقد أولع الخلفاء وكبار رجال الدولة باتخاذ الإماء من غير العرب ، حتى إنهم كانوا يفضلونهن أحياناً على العرييات الحررات . وقد أشاد الخطيب البغدادي (٣) بوصف أهل العراق ، مركز الخلافة العباسية وقلبها النابض فى العصر العباسى الأول فى هذه العبارة الشائقة ، وأطنب فى ذكائهم ومحاسنهم وأدبهم وخلقهم فقال : « إن العراق الذى بنيت فيه بغداد ، هى صفوة الأرض ووسطها ، يحيط به ستة أقاليم هى : بلاد الترك ، والهند ، والصين ، والشام ، والحجاز ، ومصر . لذلك اعتدلت ألوان أهلها ، وامتدت أجسامهم ، وسلخوا من شقرة الروم والصقالبة ، ومن سواد الحبش وسائر أجناس السودان ، ومن غلظة الترك ، ومن جفاء أهل الجبال وخراسان ، ومن دمامة أهل الصين ومن جانسهم وشا كل خلقهم ، فسلخوا من ذلك كله . واجتمع فى أهل هذا القسم من الأرض محاسن جميع أهل الأقطار ، بلطف من العزيز القهار . وكما اعتدلوا فى الخلقة ، كذلك لطفوا فى الفطنة ، والتسك بالعلم والأدب ومحاسن الأمور .

٢ — مجالس الغناء والطرب :

(١) مراتب الندماء :

انغمس العباسيون فى الترف والبذخ بزيادة العمران وتدفق الثروة . وكانت قصور الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة مضرب المثل فى حسن رونقها وبهائها ، كما امتازت بفخامة بنائها واتساعها وما يكتنفها من حدائق غناء وأشجار متكاثفة ، كما ازدانت بالمناضد الثمينة والزهرات الخزفية والتريعات المرصعة والمذهبة . وكان العباسيون ينفقون عن سعة فى سبيل رفاهيتهم ،

(١) أنظر ص ١٠٤ من هذا الكتاب .

(٢) متر : الحضارة الإسلامية ج ١ ص ٢٦٨ .

(٣) تاريخ بغداد : ج ١ ص ٢٢ — ٢٣ .

ويعيشون عيشة قوامها البذخ والإسراف وحب الظهور . وحفلت قصور الخلفاء والأمراء والوزراء وكبار رجال الدولة بالمغنين والموسيقين ، كما كانت مجالس الخلفاء آية من آيات الروعة والجمال .

وقد أخذ العباسيون نظام مجالسهم عن الفرس . وقد وصف الجاحظ في كتابه « التاج في أخلاق الملوك » في باب المنادمة ، هذه المجالس في عهد أردشير بن بابك ، فقال إنه كان أول « من رتب الندماء ، وأخذ بزمام سياستهم ، فجعلهم ثلاث طبقات :

فكانت الأساورة ^(١) وأبناء الملوك في الطبقة الأولى ، وكان مجلس هذه الطبقة من الملك على عشرة أذرع من الستارة .

ثم الطبقة الثانية ، كان مجلسها من هذه الطبقة على عشرة أذرع ، وهي بطانة الملك وندماؤه ومحدثوه من أهل الشرف والعلم .

ثم الطبقة الثالثة ، كان مجلسهم على عشرة أذرع من الثانية ، وهم المضحكون وأهل الهزل والبطالة . غير أنه لم يكن في هذه الطبقة الثالثة خسيس الأصل ولا وضعه ، ولا ناقص الجوارح ولا فاحش الطول والقصر ، ولا مؤوف ^(٢) ولا مرمى بأبثنة ، ولا مجبول الأبوين ولا ابن صناعة دينية كابن حائك أو حجام ، ولو كان يعلم الغيب مثلاً . . .

وكان الذي يقابل الطبقة الأولى من الأساورة وأبناء الملوك أهل الخداقة بالموسيقىات والآغاني ، فكانوا يازاء هؤلاء نصب خط الاستواء .

وكان الذي يقابل الطبقة الثانية من ندماء الملك وبناته الطبقة الثانية من أصحاب الموسيقىات .

وكان الذي يقابل الطبقة الثالثة من أصحاب الفكاهات والمضحكين ، أصحاب الونج والمعازف والطناير . وكان لا يزمر الحاذق من الزامرين إلا على الحاذق من المغنين ، وإن أمره الملك بذلك ، راجعه واحتج عليه ^(٣) .

ولما قامت الدولة العباسية كان أبو العباس السفاح يظهر للندماء في مجلسه ثم احتجب عنهم ، كما كان يظهر سروره وابتهاجه لندمائه ومغنيه ويمنحهم العطايا والصلوات ويقول ^(٤) : والعجب

(١) الأسوار جمعها أساورة هم الفرسان .

(٢) مصاب بأفة .

(٣) الجاحظ : كتاب التاج في أخلاق الملوك ص ٢٥ - ٢٦ .

أنظر أيضاً المسعودي : مروج الذهب ج ١ ص ١٥١ وما يليها .

(٤) الجاحظ : كتاب التاج ص ٣٣ .

من يُفرح إنسانا فيتعجل السرور ، ويجعل ثواب من سرّه تسويفا وعدة . فكان في كل يوم ليلة يقعد فيه لشغله لا يتصرف أحد من حضره إلا مسرورا . ولم يظهر أبو جعفر المنصور لتدبير قط ، ولم يره أحد يشرب غير الماء ، كما كان لا يثيب أحدا من ندمائه . وكان المهدي يسمع الغناء ، وكان أصحابه يشربون عنده النبيذ رغم أنه لم يكن يشربه (١) .

وقد احتجب المهدي في أول أمره عن الندماء عاما كاملا تشبها بأبيه المنصور ، ثم ظهر لندمائه وأجزل لهم العطايا والمنح . وكان الهادي يحب الغناء ويطرب له . وقد قرب إليه من المغنين ابن جامع الذي حذق فن الغناء ، وإبراهيم الموصلي الذي ضرب في الغناء بسهم وافر ، والزبير ابن دحمان والغنوي . وقد ذكر الطبري (٢) أن الهادي كان يشتبه من الغناء الوسط الذي يقل ترجيعه ولا يبلغ أن يستخف به جدا . وكان إذا أعجبه الغناء وطرّب قال لمغنيه : أحسنت أحسنت ، ويكثر له العطاء حتى يبلغ أحيانا ألف ألف درهم .

(ب) مجلس الغناء في عهد الرشيد :

وقد فاق هارون الرشيد الخلفاء العباسيين في ولوعه بالغناء والموسيقى ، وإجزاله العطاء للمغنين والموسيقيين . وهو من بين خلفاء بني العباس من جعل للمغنين مراتب وطبقات على نحو ما وضعهم أردشير بن بابك وأنوشروان ، فكان إبراهيم الموصلي و [وإسماعيل أبو القاسم] ابن جامع وزلزل [منصور الضارب] في الطبقة الأولى . وكان زلزل يضرب ، ويعنى هذان عليه (٣) .

وقد نبغ في عهد الرشيد كثير من المغنين والموسيقيين . يدل على ذلك هذا الحديث الذي دار بين الرشيد وأحد الموسيقيين : « وكان منصور زلزل من أحسن وأحذق من برأ الله بالجلس . فكان إذا جس العود ، فلو سمعه الأحنف ومن تحالم في دهره كله ، لم يملك نفسه حتى يطرب (٤) . وكان زلزل ممن يضرب به المثل في حسن الضرب بالعود ، واشتهر في أيام المهدي والهادي والرشيد . وقد أنشأ في بغداد بركة ووقفها على المسلمين ، فاشتهرت باسمه وأكثر الشعراء من ذكرها ، وفيها يقول نبطويه النحوي :

لو أن زهيرا وامراً القيس أبصرا ملاحه ماتحويه بركة زلزل

(١) الفخرى ص ١٦٧ .

(٢) ج ١٠ ص ٤٦ .

(٣) الجاحظ : كتاب التاج ص ٣٧ — ٣٨ .

(٤) المصدر نفسه ص ٣٩ .

لما وصفا سلى ولا أمَّ جُنْدَب ولا أكثرًا ذكرى الدَّخُولِ فُجُولِ (١)

وإذا أجاد أحد المغنين أو الموسيقيين أمر الخليفة بترقيته إلى الرتبة التي تعلو رتبته . فقد ذكر صاحب كتاب التاج (٢) أن برصوما الزامر أعجب الرشيد مرة ، وكان في الطبقة الثانية ، وفطرب الرشيد يوما لزمرة ، فقال له صاحب الستارة يا إسحاق ! أزمري على غناء ابن جامع ، قال : لا أفعل ، قال : يقول لك أمير المؤمنين ولا تفعل ؟ قال : إن كنتُ أزمري على الطبقة العالية رفعت إليها . فأما أن أكون في الطبقة الثانية وأزمري على الأولى ، فلا أفعل ! فقال الرشيد لصاحب الستارة : ارفعه إلى الطبقة الأولى ، فاذا قمتُ فادفع البساط الذي في مجلسهم إليه ، فرفع إسحاق إلى الطبقة العالية وأخذ البساط ، وكان يساوي ألني دينار . فلما حمله إلى منزله استبشرت به أمه وإخواته . وكانت أمه نبطية لسكناء ، فخرج برصوما عن منزله لبعض حوائجه ، وجاء نساء جيرانه يهنئنه أمه بما خص به دون أصحابه ويدعون لها . فأخذت سكينًا وجعلت تقطع لكل من دخل عليها قطعة من البساط ، حتى أتت على أكثره . فجاء برصوما فاذا البساط قد تُقسم بالسكاكين فقال : ويلك ما صنعت ؟ قالت : لم أدر ظننت أنه كذا يقسم ، ففعلت الرشيد بذلك فضحك ووهب له آخر .

ومن نبغ في الغناء في عهد الرشيد مسكين المدنى ، ويعرف بأبى صدقة . وقد روى المسعودى (٣) قصة هذا المغنى الذى وصف فيها حياته ، وكيف تبدلت حاله من حائك رقيق الحال إلى مغنى رفيع القدر ، وكيف أخذ الغناء عن إحدى الجوارى ، وكيف كان لفن الغناء مكان ملحوظ بين الفنون في العصر العباسى ، فقال : « جمع الرشيد ذات يوم المغنين ، فلم يبق أحد من الرؤساء إلا حضر ، وكنتُ فيهم . وحضر معنا مسكين المدنى ، ويعرف بأبى صدقة ، وكان يوقع بالقضيب مطبوعا حاذقا ، طيب العشرة مليح البادرة . فاقترح الرشيد وقد عمل فيه التليذ صوتا ، فأمر صاحب الستارة ابن جامع أن يغنيه ففعل ، فلم يطرب عليه . ثم فعل مثل ذلك بجماعة من حضر فلم يحرك منه أحد . فقال صاحب الستارة لمسكين المدنى : يا أمرك أمير المؤمنين إن كنت تحسن هذا الصوت فغناه ، قال إبراهيم : فاندفع فغناه ، فأمسكنا جميعا متعجبين من جرأة مثله على الغناء بحضرتنا فى صوت قد قصّرنا فيه عن مراد الخليفة . فلما فرغ منه سمعت الرشيد يقول : يا مسكين أعده ! فأعاده بقوة ونشاط ، فقال أحسنت وأجملت ، ورفعت الستارة بيننا وبينه . قال مسكين : يا أمير المؤمنين ! إن لهذا الصوت خبرا ، قال : وما هو ؟ قال كنتُ »

(١) كتاب التاج ص ٣٨ (٢)

(٢) ص ٤١ .

(٣) مروج الذهب ج ٢ ٢٧٨ - ٢٧٩ .

عبداً خياطاً لبعض آل الزبير ، وكان لمولاي على ضريبة أدفع إليه كل يوم درهمين ، فإذا دفعت ضريبتى تصرفت في حوائجى ، نطقت يوماً قيصاً لبعض الطالبين فدفع الى درهمين ، وتغديت ، وسقائى أقداحاً . فخرجت وأنا جذلان فلقيتى سوداء على رقبتهجرة وهى تنقى هذا الصوت ، فأذهلنى عن كل مهم ، وأنسانى كل حاجة ، فقلت : بصاحب هذا القبر والمنبر ألا ألقيت على هذا الصوت ؟ فقالت ، وحق صاحب هذا القبر والمنبر لا ألقيته عليك إلا بدرهمين ، فأخرجت الدرهمين فدفعتهما إليها ، فأنزلت الجرة عن عاتقها واندفعت ، فما زالت تردده حتى كأنه مكتوب فى صدرى . ثم انصرفت إلى مولاي ، فقال لى هلم خراجك ، فقلت كان وكان ، فقال يا ابن اللخناء ، وبطحنى وضربنى وحلق لحيتى ورأيتى . فبت بأمر المؤمنين من أسوأ خلق الله حالاً وأنسيت الصوت مما نالنى . فلما أصبحت غدوت نحو الموضع الذى لقيتها فيه ، وبقيت متحيراً لا أعرف اسمها ولا منزلها ، إذ نظرت بها مقبلة فأنسيت كل ما نالنى ، وملت إليها فقالت : أنسيت الصوت ورب الكعبة ؟ فقلت الأمر كما ذكرت ، وعرقها مامرنى من حلق الرأس واللحية فقالت : وحق القبر ومن فيه لافعلت إلا بدرهمين . فأخرجت جلى (١) ورهته على درهمين ، فدفعتهما إليها . فأنزلت الجرة عن رأسها واندفعت ، فمرت فيه ثم قالت : كأتى بك مكان الأربعة دراهم أربعة آلاف دينار . ثم انصرفت إلى مولاي وجلا فقال : هلم خراجك ، فلويت لسانى ، فقال يا ابن اللخناء ! ألم يكفك مامر عليك بالأمس ؟ فقلت لى أعرفك أنى اشتريت بخراجى أمس واليوم هذا الصوت ، واندفعت أغنيه ، فقال لى : ويحك ! معك مثل هذا الصوت ولم تعلنى ؟ امرأته طالق لو كنت قلتها أمس لاعتقك . فضحك الرشيد وقال : ويلك ! ما أدرى أيا أحسن حديثك أم غناؤك ؟ وقد أمرت لك بما ذكرته السوداء ، فقبضه وانصرف ، والشعر :

قف بال منازل ساعة فتأمل فلسوف أحمل للبلبلى فى محمل

وكان هارون الرشيد يقدر الندماء والمغنين والموسيقين ، حتى إنه لم يجتمع — كما يقول صاحب الفخرى (٢) — على باب خليفة من العلماء والشعراء ، والفقهاء والقراء ، والكتاب والندماء والمغنين ، ما يجتمع على باب الرشيد . وكان يصل كل واحد منهم أجزل صيلة ، ويرفعه إلى أعلى درجة ، وينسب إليه الفضل ، وله قدوة لغيره . ولا غرو فقد ازدهرت الموسيقى فى العصر العباسى ، بفضل اهتمام الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة ، الذين عملوا على رفع شأنها . وكثيراً ما كانت الأميرات وسيدات الطبقة

(١) ٨٢٢ ر. ٢٢٢٢ (٢) ٨٢٢ ر. ٢٢٢٢

(٢) ١٢٢ ر. ٢٢٢٢

(٣) ٨٢٢ ر. ٢٢٢٢ — ٨٢٢ ر. ٢٢٢٢

(١) الجلم : النفس .

(٢) ص ١٧٧ — ١٧٨ .

الراقية في بغداد يشتركن في حفلات موسيقية خاصة (١).
ومن أشهر المغنين الذين حظوا برضاء بعض الخلفاء العباسيين ، إبراهيم الموصلي وابنه
إسحاق ، وكانا من رجال الأدب ، إلا أن الغناء قد غلب عليهما بما وضعاه من الألحان . وقد
أبدع إبراهيم الموصلي في تنسيق الألحان ، حتى توهم أن الأرواح هي التي تعلمه الأصوات (٢).
ويقول بعض الشعراء في مدحه (٣):

ما لإبراهيم في العالم — م بهذا الشأن ثاني
إنما عمر أبي إس — حاق زين الزمان
جنة الدنيا أبو إس — حاق في كل مكان
منه ينحى ثمر الله — و ربحان الجنان

ولما أفضت الخلافة إلى هارون الرشيد ، وفوض شئون الدولة ليحيى بن خالد البرمكي ،
ودفع إليه خاتمه ، أنشده إبراهيم الموصلي :

ألم تر أن الشمس كانت سقيمة — فلما ولي هارون أشرق نورها
ييمن أمين الله هارون ذي الندى — فهارون واليها ويحيى وزرها (٤)

(١) سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب من ٣٩١ — ٣٩٢ .
(٢) ولم يكن إبراهيم الموصلي وحده متأثراً بهذا الشعور ، بل ورثه عنه ابنه إسحاق . فقد ذكر
المسعودي (ج ٢ ص ٢٧٧ — ٢٧٨) أن إسحاق قال : بينا أنا ذات ليلة عند الرشيد أغنيه ، إذ طرب
لغنائي وقال لا تبرح . ولم أزل أغنيه حتى نام ، فأمسكت ووضعت العود من حجرى وجلست مكاني ، فإذا
شاب حسن القد عليه مقطعات خز وهيئة جميلة ، فدخل وسلم وجلس . فجعلت أعجب من دخوله في
ذلك الوقت إلى ذلك الموضع بغير استئذان ، ثم قلت في نفسي : عسى بعض ولد الرشيد من لا نعرفه ولم نره ؛
فضرب بيده على العود ، فأخذته ووضعه في حجره وجسه ، فرأيت أنه جس أحسن خلق الله ، ثم
أصلحه اصلاً ما أدرى ماهو ، ثم ضرب ضرباً ، فاسمعت أذنى أجود منه ، ثم اندفع يغنى :
ألا علاني قبل أن تتفرقا — وهات اسقني صرفاً شرباً مروفاً
فقد كادضوء الصبح أن يفضح الدجى — وكاد قيس الليل أن يتمزقا
ثم وضع العود من حجره وقال : إذا غنيت فغن هكذا . ثم خرج فقمت على أثره ، فقالت للحاجب :
من الفتى الذى خرج الساعة ؟ فقال : ما دخل هنا أحد ولا خرج ، فقمت متعجبا ورجعت إل مجلسي ،
وانتبه الرشيد فقال ماشأئك ؟ فحدثته بالقضية ، فبقى متعجباً وقال : لقد صادفت شيطانا ، ثم قال :
أعد على الصوت ، فأعدته ، فطرب طرباً شديداً وأمر لى بجائزة ، وانصرفت .

(٣) الأغاني ج ٢ ص ١٧٠ — ١٧١ .

(٤) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٦٣ .

وكان إبراهيم الموصلي أول من غنى للرشد بعد توليته الخلافة فقال :

إذا ظلم البلاد تجللتنا فهارون الإمام لها ضياء
بهارون استقام العدل فينا وغاض الجور وانفسح الرجاء
رأيت الناس قد سكنوا إليه كما سكنت إلى الحرم الطيباء
تبعته من الرسول سبيل حق فشأنك في الأمور به اقتداء (١)

وقد تعلم إبراهيم فن الغناء على رجل أخذ أصوات الغناء عن أهل الحجاز . وكان أول صوت أخذه عن أستاذه :

أرسلني بالسلام يا سلم إلى منذ علقتم غنى فقير
فالغنى إن ملكك أمرك والفة سر بأنى أزور من لا يزور
ويح نفسي ! تسلو النفوس ونفسي فى هوى الريم ذكرها ما يحور
من لنفس تتوق أنت هواها وفؤاد يكاد فيك يطير ؟ (٢)

وقد نبع إبراهيم الموصلي فى فن الغناء ، وإليه يرجع الفضل فى تعليم الجوارى الغناء فى عصره . فقد روى صاحب الأغاني (٣) عن إسحاق بن إبراهيم قال : لم يكن الناس يعلمون الجارية الحسناء الغناء ، وإنما كانوا يعلمونه الصغر والسود . وأول من علم الجوارى المشتمات أبى ، فانه بلغ بالقيان كل مبلغ ، ورفع من أقدارهن . وفيه يقول أبو عيينة بن محمد بن أبى عيينة المهلبى ، وقد كان هوى جارية يقال لها أمان ، فأغلى بها مولاها السوم (٤) ، وجعل يرددها إلى إبراهيم وإسحاق ابنه فتأخذ عنهما ، فكما زادت فى الغناء زاد فى سومه ، فقال أبو عيينة :

قلت لما رأيت مولى أمان قد طغى سومه بها طغيانا
لا جزى الله الموصلى أبا إسـ حقا عنا خيراً ولا إحسانا
جاءنا مرسل بوحي من الشـ طان أغلى به علينا القيانا
من غناء كأنه سكرات الـ سحب يصبى القلوب والآذانا

وقد وصف إبراهيم الموصلي كيف كان يصوغ ألحانه فى هذه العبارة : أخرج الهم من

(١) الأغاني ج ٥ ص ٢٠٣

(٢) المصدر نفسه ص ٢٠٢

(٣) ج ٥ ص ١٧٠

(٤) السوم : القيمة .

فكرى ، وأمثل الطرب بين عيني ، فتسرع لى مسالك الألحان [التى أريد] فأسلمكها بدليل الإيقاع ، فأرجع مصيبا ظافرا بما أريد ، (١) .

ومن أشهر ماغنى به إبراهيم الموصلى ونال إعجاب سامعيه من الخلفاء :

قد تخوفت أن أموت من الوجـ سد ولم يدر من هويت بما بي
يا كتابي فاقتر السلام على من لا أسمى وقل له يا كتابي
إن كفتا إليك قد بعثني فى شقاء مواصل وعذاب (٢)
ومن أغانيه :

ولى كبدته مقروحة من يديعى بها كبدأ ليست بذات قروح
أباها على الناس لا يشترونها ومن يشتري ذا علة بصحيح ؟
أئن من الشوق الذى فى جوانبي أنين غصيص بالشراب جريح
ومنها :

ألا يا حمامات اللوى عدن عودا فانى إلى أصواتكن حزين
فعدن ، فلما عدن كدن يمتنى وكدت بأسرارى لمن أبين
دعون بترداد الهدير كما نما سقين حميّا أو بهن جنون
فلم تر عيني مثلهن حائما بكين ولم تدمع لمن عيون
ومنها :

ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد لقد زادنى مسسراك وجندا على وجد
إن هتفت ورقاء فى رواق الضحى على فتن غض النبات من الرند (٣)
بكيت كما يبكي الحزين صبا وذبت من الحزن المبرح والجهد
وقد زعمو أن المحب إذا دنا يملئ وأن الثأى يشقى من الوجد
بكلّ تداوينا فلم يشف ما بنا على أن قرب الدار خير من البعد
وكان البرامكة وآل ربيع يتمسكون بالغناء القديم ، على حين ترفع جماعة من العباسيين ،

(١) الأغاني ج ٥ ص ٢٣٠ .

(٢) المصدر نفسه ج ٥ ص ٢٢٩ .

(٣) الرند : شجر طيب الرائحة من شجر البادية .

(٤) الأغاني ج ٥ ص ٢٣٣ — ٢٣٤ .

كأبراهيم بن المهدي وأخيه يعقوب وأختهما عليّة ، وعبد الله بن الهادي وعيسى بن الرشيد وغيرهم من تقييد غنائهم بما حفظ من أصوات المتقدمين .

وكانت مجالس الخلفاء العباسيين تزدان بمظاهر البذخ والروعة والبهاء ، فيتخذ الخليفة مكانه في صدر الإيوان في القصر ، وبين يديه مائة من صفوة الحرس في أثواب زاهية ، ويقف حوله يمينه ويسرة كبار رجال الدولة والأعيان (١) .

ولم تقتصر مجالس المنادمة والطرب على الخلفاء وحدهم ، بل جاراهم في ذلك الأمراء والوزراء وسائر رجال الدولة . فقد وصف صاحب الفخرى (٢) مجلس جعفر بن يحيى البرمكي حين كان يجلس للشراب ، ومعه ندماءؤه الذين يأنس إليهم ، وكانوا يلبسون « الثياب المصبغة ، وكانوا إذا جلسوا في مجلس الشراب واللهو ، لبسوا الثياب الحمر والصفراء والخضر . . . ثم جلسوا يشربون ، ودارت الكأسات وخفقت العيدان ، .

ولم تكن هذه المجالس تخلو من التوارد والطرائف ، مما كان يملؤها بهجة وسرور . فقد روى صاحب الأغاني (٣) أن الرشيد قال يوما لجعفر بن يحيى : « قد طال سماعنا هذه العصابة على اختلاط الأمر فيها ، فلم أقاسمك إياها ، وأخارك . فاقسما المغنين ، على أن جعلنا بازا . كل رجل نظيره . وكان ابن جامع في حين الرشيد ، وأبراهيم في حين جعفر بن يحيى . وحضر الندماء لمحنة المغنين (٤) ، وأمر الرشيد ابن جامع فغنى صوتا أحسن فيه كل الاحسان وطرب الرشيد غاية الطرب ، فلما قطعه قال الرشيد لإبراهيم : هات يا إبراهيم هذا الصوت فغنى ، فقال : لا والله يا أمير المؤمنين ما أعرفه ، وظهر الانكسار فيه ، فقال الرشيد لجعفر : هذا واحد ، ثم قال لإسماعيل بن جامع : غن يا إسماعيل ! فغنى صوتا ثانيا أحسن من الأول ، وأرضى في كل حال . فلما استوفاه قال الرشيد لإبراهيم : هات يا إبراهيم ، قال : ولا أعرف هذا ، فقال : هذان اثنان ، غن يا إسماعيل ، فغنى ثالثا يتقدم الصوتين الأولين ويفضلهما . فلما أتى على آخره قال : هات يا إبراهيم ، قال : ولا أعرف هذا أيضا ، فقال له جعفر : أخزينا أخزاك الله . وأتم ابن جامع يومه والرشيد مسرورا به ، وأجازه بجوائز كثيرة ، وخلع عليه خلعا فاخرة ، ولم يزل إبراهيم منكسرا حتى انصرف . ولكن إبراهيم الموصلى تمكن من سرقة هذه الألحان التي لحنها ابن جامع عن طريق أحد أصدقائه ، ونال بذلك رضا الخليفة الرشيد ، مما يدل على حرص المغنين على الاحتفاظ بألحانهم ، حتى لا يتداولها سائر المغنين (٥) .

(١) سيد أمير على : كتاب مختصر العرب ص ٣٨٧ . (٢) ص ١٨٧ .

(٣) ج ٥ ص ٢٠٦ . (٤) المحنة الاختبار ، يقال : محنه إذا اختبره وجربه .

(٥) الأغاني ج ١ ص ٢٠٦ - ٢٠٨ .

(ج) مجلس الغناء في عهد الأمين :

وكان الأمين يجتمع مع ندمائه في مكان واحد، وكان كثير الهبات والعطايا ، حتى فاق الخلفاء العباسيين قاطبة في جوده وعطاياه لندمائه ومغنييه . ويقول إسحاق بن إبراهيم الموصلی : « لو كان بينه وبين ندمائه حجاب ، خرقها كلها وألقاها عن وجهه حتى يقعد حيث قعدوا ، . وكان من أعطى الخلق لذهب وفضة ، وأنهبهم للأموال إذا طرب أو لها . وقد رأيت به وقد أمر لبعض أهل بيته بوقر زورق ذهباً ، فأنصرف به ، وأمر لي ذات ليلة بأربعين ألف دينار ، فحملت أمانى . ولقد غناه إبراهيم بن المهدي غناء لم أرته ، فقام عن مجلسه ، فأكب عليه فقبل رأسه ، فقام إبراهيم ، فقبل ما طئت رجلاه من بساطه ، فأمر له بما تقي ألف دينار . ولقد رأيت به يوماً وعلى رأسه بعض غلبانه ، فنظر إليه فقال : ثيابك هذه تحتاج إلى أن تغسل ، انطلق فخذ ثلاثين بدرية فاغسل بها ثيابك . »

وقد وصف إبراهيم بن المهدي مجلس الأمين وصفا شائقا ، وما كان يحويه من أئاث ورياش ، وكيف حاول أن يتخذ من هذا المجلس سبيلا إلى السلوى حين كان محاصرا ببغداد . يقول المسعودی (١) : « وحدث إبراهيم بن المهدي قال : بعث إلى الأمين وهو محاصر ، فصرت إليه ، فإذا هو جالس في طارمة (٢) . خشبها من عود وصندل عشرة في عشرة ، وإذا سليمان بن أبي جعفر المنصور معه في الطارمة ، وهي قبة كان اتخذها فراشا مبطناً بأنواع الحرير والديباج المنسوج بالذهب الأحمر ، وغير ذلك من أنواع الأبريسم . فسلمت ، فإذا قداده قدح بلور مخروز ، فيه شراب ينفذ مقداره خمسة أرتال ، وبين يدي سليمان قدح مثله . فجلست بازاء سليمان ، فأتيته بقدح كالاول والثاني ، فقال : إنما بعثت إليك لما بلغت قدوم طاهر بن الحسين إلى النهروان ، وما قد صنع في أمرنا من المكروه ، وقابلنا به من الإساءة ، فدعوتكما لأفرح بكما وبجديشكما . فأقبلنا نحدثه ونؤنس ، حتى سلا عما كان يحده ، وفرح ، ودعا بجارية من خواص جواريه تسمى ضعفاً ، قال : فتطيرت من اسمها ونحن على تلك الحال ، فقال لها : غنينا ، فوضعت العود في حجرها وغنت :

كليب لعمرى كان أكثر ناصرا وأ أكثر جرما منك ضُرج بالدم
فتطير من قولها ثم قال لها : اسكتي فبحك الله ! ثم عاد إلى ما كان عليه من الغم والإقطاب ، فأقبلنا نحادثه ونبسطه إلى أن سلا وضحك ، ثم أقبل عليها وقال : هات ما عندك ، فغننت :

هم قتلوه كي يكونوا مكانه كما غدرت يوما بكسرى مراربه

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٣٠٠ — ٣٠١ .

(٢) الطارمة : مجلس يتخذ من الخشب وسط بستان للجلوس فيه والترفة .

فأسكتها وزأرها ، وعاد الى الحالة الأولى ، فسليناه حتى عاد الى الضحك ، فأقبل عليها الثالثة فقال : غنى ! غننت :

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا أنيسٌ ولم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كنا أهلها فأبادنا صروفُ الليالي والجدود العواثر
وقيل بل إنها غننت :

أما ورب السكون والحرك إن المنايا كثيرة الشرك
فقال لها : قومي غنى ، فعل الله بك وصنع بك . فقامت فعثرت بالقدح الذى كان بين يديه
فكسرتة ، فانهرق الشراب . وكانت ليلة قمر ، ونحن على شاطئ دجلة فى قصره المعروف
بالخلد ، فسمعنا قائلاً يقول : قضى الأمر الذى فيه تستفتيان . قال ابن المهدي : فقامت وقد وثب
فسمعت منشدا من ناحية القصر ينشد هذين البيتين :

لا تعجبين من العجب قد جاء ما يقضى العجب
قد جاء أمر فادح فيه لذي عجب عجب
قال : فاقمنا معه بعدها الى أن قتل ،

(د) مجالس الغناء فى عهد المأمون والمعتضم والواثق :

أما المأمون فقد امتنع عن سماع الغناء سبع سنين بعد قدومه بغداد ، ثم أخذ يسمعه من وراء حجاب ، كما كان يفعل أبوه الرشيد فى أول عهده بالخلافة . وظهر للندماء والمغنين . ولم ينل إسحاق بن إبراهيم الموصلى تقدير المأمون أول الأمر حتى سأل عنه ، فأوقع به بعض خاصة الخليفة ، ورماء بالكبر والتهيه ، فلم يحفل به المأمون ، ثم تمكن إسحاق الموصلى من إرسال بيتين غناهما زرر أحد تلاميذه فى حضرة المأمون وهما :

ياسرحة الماء^(١) قد سدَّتْ موارِدُه أما إليك طريقٌ غير مسدود ؟
لحائمٍ حامٍ حتى لاحرأك به محلاً عن سبيل الماء مطرود^(٢)

(١) الشجرة النابتة على الماء ، كناية عن المرأة . وأصل الكناية عن المرأة بالسرحة أن عمر بن الخطاب لما أنذر الشعراء بالبلد إذا ما شربوا بالنساء ، قال أحد الشعراء فى قصيدة له
ترانى لأن عللت نفسى بسرحة من السرح موجود على طريق
أبى الله إلا أن سرحة مالك على كل مراحات المضاة تروق
(٢) الجاحظ : كتاب التاج من ٤٤ — ٤٥

فلما غناه زرزر أطربه وأبهجه وحرك له جوارحه ، وقال : ويلك ! من هذا ؟ قال : عبدك المجفو المطرح ياسيدى ، إسحاق ، قال : يحضر الساعة . فجاءه رسوله ، وإسحاق مستعد قد علم أنه إن سمع الغناء من مجيد مؤد أنه سيبحث إليه . فجاءه الرسول ، فحدثت أنه لما دخل عليه ودنا منه ، مد يده إليه ثم قال : أدن منى ! فأكب عليه واحتضنه المأمون وأدناه ، وأقبل عليه بوجهه مصغيا إليه ومسرورا به ، (١) .

وفي الحق أن إسحاق بن إبراهيم الموصلى قد أجاد فى وضع الألحان ، وكتب رسالة مطولة فى الغناء ، صحح فيها أنغامه وطرائقه ، واحتفظ بالغناء القديم ، وخالف بذلك أباه ومن ذهب مذهبه فى تغيير أصوات المتقدمين . ويقول صاحب الأغاني (٢) : « وهو الذى صحح أجناس الغناء وطرائقه ، وميزه تمييزاً لم يقدر عليه أحد قبله ولا تعلق به أحد بعده » .

وقد نبغ إسحاق فى العلم والأدب والرواية والشعر والغناء . وقد قال صاحب الأغاني (٣) : « ولم يكن له فى هذا (أى الغناء) نظير ، فانه لحق بمن مضى فيه ، وسبق من بقى ، ولحب (٤) للناس جميعاً طريقه ، فأوضحها ، وسهل عليه سبيله وأنارها . فهو لإمام أهل صناعته جميعاً ، ورأسهم ومعلمهم . . . وكان المأمون يقول : لولا ما سبق على ألسنة الناس وشهر به عندهم من الغناء ، لوليت القضاة بحضرتى . فانه أولى به وأعف وأصدق ، وأكثر ديناً وأمانة من هؤلاء القضاة » .

وكان إسحاق الموصلى يقدر العلم ويشجع العلماء ؛ وقد قيل إنه كان يعطى ابن الأعرابي فى كل سنة ثلثمائة دينار ، فأهدى له شيئاً من كتاب النوادر . ومز يوماً على دار إسحاق الموصلى فقال : هذه دار الذى نأخذ من ماله ومن أدبه . كما أشاد بفضل له البدائى المؤرخ المشهور صاحب كتاب المغازى فقال : إلى أين يا أبا عبد الله ؟ فقال : أمضى الى رجل هو كما قال الشاعر :

نحمل أشباحنا الى ملك نأخذ من ماله ومن أدبه (٥)

ويقول ابن النديم (٦) ان المدائنى مات فى دار إسحاق بن إبراهيم الموصلى — وكان منقطعا إليه — سنة ٢٢٥ هـ .

(١) المصدر نفسه ص ٤٤ — ٥٤

(٢) ج ٥ ص ٢٦٩ . (٣) ج ٥ ص ٢٦٨ — ٢٦٩ .

(٤) لب الطريق سلسكه وأوضحه .

(٥) الأغاني ج ٥ ص ٢٧٤ .

(٦) الفهرست ص ١٤٧

وقد غنى إسحاق الموصلى لهارون الرشيد وأبنائه الأمين والمأمون والمعتصم . ولما ولي المعتصم الخلافة ، كان إسحاق الموصلى قد ناهز الستين من عمره ، فغناه قصيدة من نظمها جاء فيها :

لاح بالمفرق منك القتير^(١) وذوى غصن الشباب النضير
هزئت أسماء منى وقالت أنت يا ابن الموصلي كبير
ورأت شيباً برأسي فصدمت وابن ستين بشيب جدير
يا بني العباس أتم شفاعة وضياء للقلوب ونور
أتم أهل الخلافة فينا ولكم منبرها والسريـ
لا يزال الملك فيكم مدى الدهر مقبلاً ما أقام ثبير^(٢)
وأبو إسحاق خير إمام ماله في العالمين نظير

وقد أمر المعتصم لإسحاق الموصلى بجائزة سنوية ، فضله بها على سائر الشعراء الذين هنتوه بالخلافة ، كما نال إعجابه بعد أن غناه قصيدة أخرى على أثر عودته من إحدى غزواته . وإليك بعض أبيات من هذه القصيدة التي يشيد فيها الموصلى بأبي إسحاق المعتصم ، وما أحرزه من نصر وظفر :

إلى ابن الرشيد إمام الهدى بعثنا المطى تجوب القلا
إلى ملك حل من هاشم ذؤابة مجد منيف الذرى
إذا قيل أى قى هاشم وسيدها كان ذاك الفتى
به نعش الله آمالنا كما نعش الأرض صوب الحيا
إذا ما نوى فعل أكرامة تجاوز من جوده ما نرى
كساه الإله رداء الجمال ونور الجلال وهدى التقى^(٣)

وكان الخليفة الواثق يتقن فن الغناء اتقاناً لم يسبقه إليه خليفة ولا ابن خليفة . وقد وضع بعض الأصوات والأنغام الجديدة . ويقول السيوطي^(٤) : وكان (الواثق) أعلم الخلفاء بالغناء ، وله أصوات وألحان عملها نحو مائة صوت . وكان حاذقاً بضرب العود ، راوية للاشعار والأخبار .

وكان الواثق يقدر غناء إسحاق الموصلى ويمجبه به . روى صاحب الأغاني أن الواثق

(١) القتير : الشيب ، وقيل هو أول ما يظهر منه

(٢) من جبال مكة بينها وبين عرفة

(٣) الأغاني ج ٥ ص ٣٠٢ — ٣٠٣ ، ٣٠٤

(٤) تاريخ الخلفاء ص ٢٢٧ — ٢٢٨

لحسن هذين البيتين وأمر الموصلی فغناهما ، فأعجب به وقال : « ما كان أغنانا أن نأمر إسحاق بالصنعة في هذا الشعر ، لأنه قد أفسد علينا لحسننا » . وهاك هذين البيتين :

أيا مُنْشَرِ المونی أَقِدنی مَنْ التی بها تَهَلَّت نفسی سقاما وعلت
لقد بَخِشْتَ حتی لو انی سألَها قذی العین من سافی التراب لَضَنْتُ (١)

وكان اسحاق يصحب الخليفة الواثق في أسفاره ، فقد قصد مرة النجف (٢) والصالحية ، فغن الموصلی إلى بغداد وإلى أولاده الصغار ، فوصف لنا ذلك كله وصفا شائقا ، وغناه في أبيات تدل على علو كعبه في الشعر والغناء :

بارا كبَّ العیس لا تعجل بنا وقف نحي داراً لسُعدی ثم تنصرف
لم ينزل الناس في سهل ولا جبل أصفى هواء ولا أعذى (٣) من النجف
حفت ببر وبحر من جوانبها فالبر في طرف والبحر في طرف
وما يزال نسيم من يمانية يأتیک منها بریا روضة أنف (٤)
أتبكي على بغداد وهی قریبة فكيف إذا ما ازددت منها غداً بعدا
لعمرك ما فارتقت بغداد عن قلبي لو أنا وجدنا عن فراق لها بدا
إذا ذكرت بغداداً نفسی تقطعت من الشوق أو كادت تموت بها وجدنا
كفی حَزَنّا إن رحمت لم أستطع لها وداعا ولم أحدث بساكنها عهدا (٥)

٣ — قصور الخلفاء والأمراء والوزراء

يعتبر المنزل وما فيه من سكان ، وما يقدم فيه من طعام وشراب ، وما تقام فيه من حفلات ، وما يرتديه سكانه من ملابس ، من أهم مظاهر الحياة الاجتماعية . وقد تأثر العباسيون في منازلهم بالأساليب الفارسية خاصة . ولاعجب فانهم قد مالوا إلى الفرس ، فأسندوا اليهم مناصب الدولة ، واقتبسوا عنهم نظم الحكم ، واقتدوا بهم في مظاهر البلاط ، وفي اللباس ، وفي الاحتفال بالأعياد والمواسم وغير ذلك .

وقد اتخذت دور بغداد على مثال دور الفرس ودور الروم التي بنوها في بلاد الشام .

(١) الأغاني ج ٥ ص ٣٥٨ .

(٢) موضع بظهر السكوفة ، وبالقرب منه قبر علي بن أبي طالب .

(٣) أطيب هواء ، يقال : غذا المسكان يعذو إذا طاب هواؤه

(٤) الروضة الأنف (بضم الهزلة والنون) التي لم يرعها أحد

(٥) الأغاني ج ٥ ص ٣٥٦ — ٣٨٥

وكانت مبنية بالآجر ومغطاة بالسكس ، وتنقسم دور الأغنياء ثلاثة أقسام هي : مقاصير الحرم ، وحجرات الخدم ، ومجالس السلام الخاصة بالضيافة ، ويحيط بها حدائق غناء تزرع فيها الفاكهة والرياحين . وقد حليت جدرانها وسقوفها بالفسيفساء المذهبة والرسوم الملونة ، كما كانوا يزبنون أسطح دورهم بالقباب المرفوعة على عمد دقيقة تظهر للعين كأنها معلقة في الفضاء . ويحيط بكل دار سور واحد . أما دور العامة فلم يكن لها أسوار تحيط بها ، وإنما كانت نوافذها تطل على الشوارع ، حتى إن المارة يستطيع أن يرى من بداخلها (١) .

وقد ساد الترف بين العباسيين بازدياد العمران ، فكانت العمائر ببغداد وغيرها من أمهات المدن مؤلفة من عدة طبقات ، كما كانت غرفها تزدان بالمناضد الثمينة والزهرات الخزفية ، والمرصعات والمذهبات التي بلغت حد الاتقان . ويقول صاحب كتاب حضارة الإسلام في دار السلام (٢) : إن أهل بغداد كانوا يزبنون مجالسهم بالفرش الفاخر والمتاع الثمين ، ويلبسون حيطانها بالشوشى والديباج ، ويعنون بغرس الأزهار في جنائهم ، حتى إنهم ليجلبون لها الرياحين من بلاد الهند ، فيصير من هذه الجنان ما يقوم ثمن البستان الواحد منها بعشرة آلاف دينار . ويتخذون غلمانهم من أظرف الناس وأخفهم نشاطا ، ويميلون إلى اللهو والطرب بما قد ذكرت من إقبالهم على اقتناء القيان ، ويتفننون في ملاذ الطعام إلى أن يشتروا الصيد في غير أوانه ، والثمار في غير إربانها بما يزن مثله فضة ، ويتخذون مقاعدهم في أوان الحر بين الماء المتدفق من صور السباع وأشكال الطيور وأشكال التفاحات وغيرها ، مما ينقشون في الرخام . فإذا ما أصابت الأجساد منها الرطوبة الوافية بترويح النفس ، اتخذوا في السقوف مراوح يعملون لها حبالا تجرها فيجذبونها فيهب عليهم النسيم البارد ، ويستجيدون في اللباس والزينة ، وركوب الخيل بالديباج والحلية الثقيلة من الفضة إلى الغاية التي لم تبلغها الأمم المترفة من قبلهم .

وكانت قصور الخلفاء تشتمل على دور واسعة ، وقباب وأروقة وبساتين ومسطحات مظلة بالأشجار . وكانت الأروقة تسمى بالآر بعيني أو الستيني ، على قدر الغلمان ، أو يجتمعون في كل منها . ومن هذه القصور قصر الذهب الذي بناه أبو جعفر المنصور في وسط بغداد ، وقصر الخلد الذي بناه على شاطئ دجلة الغربي ، تجاه باب خراسان ، وتأنق في بنائه وتجميله ، حتى سمي « الخلد » تشبها له بجثة الخلد ، وبنيت حوله المنازل ، فأصبح القصر وما حواله يعرف بالخلد (٣) . وكان بهذا القصر قباب بديعة الشكل ، وبأبوابه مسامير من الذهب والفضة ، كما تخللته العمدة الكثيرة الضخمة التي عني المنصور بتزيينها بالصور والرسوم . وفي هذا القصر العرش —

(١) حضارة الإسلام في دار السلام من ٢٥ — ٢٦ (٢) من ٩٩

(٣) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج ١ من ٧٥

ويسمى « مجلس الأمير » - قد فرش بالرخام المجزع يتوسطه قضبان من الذهب ، وفرش بالديباج والبسط التي نقشت عليها أبيات من الشعر في مدح الخليفة ، وفيه كراسي مرصعة باللؤلؤ يجلس عليها كبار رجال الدولة . وفي صدر هذا المجلس يجلس الخليفة في قبة مفروشة بأنفر أنواع الحرير المنسوج بالذهب (١) .

وقد بنى الرشيد على دجلة قصرآ ، تألق في تجميله وزينه بأنفر أنواع الزينة ، وأقام فيه أساطين الرخام . وكان أشبه بإحدى المناظر التي كان يجلس فيها الخلفاء الفاطميون للنزهة وتبديل الهواء ، فكان يجلس إلى الشباك يستمع إلى غناء الملاحين (٢) .

وبنى الخليفة الواثق في مدينة سامرا عدة قصور منها قصر الهاروني . وقد وصف الطبري (٣) أحد أروقته ، ويسمى الرواق الأوسط ، فقال : « كان في أحد شقى ذلك الرواق ، قبة مرتفعة في السماء كأنها بيضة ، قدر ذراع فيما ترى العين حولها ، في وسطها ساج منقوش مغشى باللازورد والذهب . وكانت تسمى قبة المنطقة ، وكان ذلك الرواق يسمى رواق قبة المنطقة » .

كذلك كانت قصور الأمراء ورجال الدولة تمكث فيها الحدايق الغناء ، كما امتازت أيضاً بفخامة بنائها واتساعها . ومن أحسن الأمثلة على ذلك قصر عيسى بن علي بن عبد الله بن العباس ، عند مصب نهر الرّفيل المتفرع من دجلة . فقد ذكر ياقوت (٤) أن أبا جعفر المنصور زار عمه عيسى ابن علي في أربعة آلاف رجل ، فوسّعهم هذا القصر . ولما أراد المنصور الانصراف قال لمضيفه : « يا أبا العباس إلى حاجة ، قال : ماهي يا أمير المؤمنين ؟ فأمر كطاعة . قال : تهب لي هذا القصر ، قال : ما بي ضن عنك به ، لكنني أكره أن يقول الناس إن أمير المؤمنين زار عمه ، فأخرجه من قصره وشرّد عياله . وبعد ، فإن فيه من حرم أمير المؤمنين ومواليه أربعة آلاف نفس ، فإن لم يكن بد من أخذه ، فليأمر لي أمير المؤمنين بفضاء يسعني ويسعهم ، أضرب فيه مضارب وخياماً ، أقفلهم إليها إلى أن أبني لهم ما يواريهم . فقال له المنصور : عمر الله بك منزلك يا عم وبارك لك فيه ، ثم نهض وانصرف » .

وكان البرامكة يعنون ببناء قصورهم ويتأنقون في تجميلها وتأنيشها ، حتى تبقى على الزمن شهادة بما آثرهم ناطقة بذكراهم . فقد روى الجهشياري أن يحيى بن خالد البرمكي قال لولديه الفضل وجعفر : « لاشئ أبقى ذكرا من البناء ، فاتخذوا منه ما يبقى لكم ذكرا . فاتخذ جعفر قصره وكذلك الفضل » . وقد قال جعفر يصف قصره لأبي الفضل عمرو بن مسعدة ، وقد سار بحذائه « يا أبا الفضل ! والله إنني لأعلم أنه من بناء مثلي ، ولكن قلت : إن بقي لي

(١) حضارة الاسلام في دار السلام من ٤٢ — ٤٣

(٢) نفس المصدر من ١٠٠ (٣) ج ١١ من ١٠

(٤) معجم البلدان ج ٧ من ١٠٧

فهو قصر جعفر ، وإن شره السلطان في وقت من الأوقات فهو قصر جعفر ، وإن مضت عليه الأيام فهو قصر جعفر ، ويبقى اسمه وذكره ، ولعله أن يمر به من لنا عنده إحسان فيترحم علينا .

وقد عاش البرامكة عيشة قوامها البذخ والإسراف وجب الظهور ، وأغدقوا الأموال على الشعراء والعلماء ، ولم يردوا قاصدا . قيل إن جعفرا البرمكي أنفق على بناء داره عشرين ألف ألف درهم ، وهو — كما يبدو — مبلغ لا يقل عن مليون وثلاثمائة ألف دينار ، غير ما يحتاج إليه هذا البناء من أثاث ورياش وخدم وحشم ، وما إلى ذلك من أسباب البذخ وألوان الترف .

وقد بنى محمد بن سليمان قصره بالبصرة . وقد وصفه أحد زواره فقال : « بنيت أجل بناء بأطيب فناء ، وأوسع فضاء ، وأرق هواء ، على أحسن ماء ، بين صواري وحسان وظباء ، فقال محمد : بناء كلامك أحسن من بنائنا ، وفي هذا القصر يقول ابن أبي عتيبة :

زر وادى القصر نعم القصر والوادي لا بد من زورة من غير ميعاد
زُرهُ فليس له شبهة يقاربه من منزل حاضر إن شئت أو باد
ترقى قراقيره والعيس واقفة والضب والنئون والملاح والحادي (١)

وقد خلف محمد بن سليمان كثيرا من الفرش الرقيق ، والدواب من الخيل والأبل ، والطيب والجوهر ، كما ترك ستين ألف ألف درهم ، غير ما خلفه من الضياع ، كما أخرج من خزائنه ما كان يهدي إليه من طرائف السند ومكران وكرمان وفارس والآهواز واليامة والري وعمان (٢) .

وكان العباسيون يقلدون الفرس في تخفيف حرارة الشمس في الصيف ، فيعملون لبيوتهم مقوفا من الطين يحدّدونها في كل يوم يقضى الخليفة القبلولة فيه . « وكان يؤتى بأطنان القصب والخلاف طولا غلاظا ، فترصف حول البيت ، ويؤتى بقطع الثلج العظيم فتجعل ما بين أضعافها . وكانت بنو أمية تفعل ذلك (أيضا) . . . وذكر بعضهم أن المنصور كان يطين له في أول خلافته بيت في الصيف يُسقى فيه ، فاتخذ له أيوب الخوزي ثيابا كثيفة تبل وتوضع على سيائك ، فيجد بردها فاستطابها . وقال : ما أحسب هذه الثياب إن اتخذت اكشف من هذه ، إلا حملت من الماء أكثر مما تحمل . وكانت أبرد ، فاتخذ له الخيش ، فكان ينصب على قبة ،

(١) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٦٤ .

(٢) الطبري ج ١٠ ص ٥١ — ٥٢ .

ثم اتخذ الخلفاء بعده الشرائع واتخذها الناس (١).

وقد عنى الخلفاء العباسيون عناية كبيرة بتنظيم بغداد ونظافة شوارعها وطرقها ، فكانت الرحاب تسكنس كل يوم ويحمل التراب خارج المدينة . ولما كانت الروايا تصل على ظهور البغال إلى قصر أبي جعفر المنصور ، رأى أن ذلك لا يتفق وأبهة مدينته ورواهها ، ومن ثم أمر بتوصيل الماء من نهر دجلة إلى قصره .

٤ — الطعام :

كان العباسيون يعنون بتنوع الطعام . وكان أبو جعفر المنصور يكثر منه ولا يعمل بنصح الأطباء ، حتى كان ذلك من أسباب ضعف صحته ووفاته . وكانت مائدة الرشيد حافلة بألوان الطعام ، حتى قيل إن الطهاة كانوا يطهون له ثلاثين لونا في اليوم . وكان الرشيد ينفق على طعامه عشرة آلاف درهم في اليوم . ولما تزوج من زبيدة بنت جعفر ، أقيمت في قصره وليمة أنفق عليها خمسة وخمسين ألف ألف درهم .

وقد ذكر ياقوت (٢) أن الرشيد زار عمه عيسى بن علي في أربعة آلاف رجل ، فقدم لهم من ألوان الطعام : الخبز ولحم الجدوى والدجاج والبيض واللحم البارد والحلوى على نحو ما نراه في ولائنا اليوم .

ومن هذا نرى أن إسراف العباسيين في الطعام ، لم يقتصر على الخلفاء وحدهم ، بل تعداهم إلى الأمراء وكبار رجال الدولة . ولا غرو فقد بلغ من تفننهم في الطهي وإسرافهم في الإنفاق عليه ، أن بعضهم كان يشتري مقادير كبيرة من السمك لتقديم ألسنته على المائدة ، ككون من ألوان الطعام الشبيهة بالكثيرة التي كانت تزخر بها مواعدهم . وقد روى المسعودي (٣) وأن إبراهيم بن المهدي قال : استزرت الرشيد بالركة ، فزارني ، وكان يأكل الطعام الحار قبل البارد . فلما وضعت البوارد ، رأى فيما قرب إليه منها جام قريض سمك ، فاستصغر القطع وقال : لم صغر طبأخك تقطيع السمك ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين ! هذه ألسنة السمك ، قال فيشبه أن يكون في هذا الجام مائة لسان ، فقال مراقب خادمه : يا أمير المؤمنين ! فيها أكثر من مائة وخمسين ، فاستحلفه عن مبلغ ثمن السمك ، فأخبره أنه قام بأكثر من ألف درهم ، فرفع الرشيد يده وحلف أن لا يطعم شيئا دون أن يحضره مراقب ، ألف درهم . فلما حضر

(١) الطبري ج ٩ ص ٣٠٦ .

(٢) أنظر قصر عيسى بن علي في معجم البلدان لياقوت ، والمسعودي : مروج الذهب ج ٢

ص ٢٧٩ — ٢٨٠

(٣) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٧٩ — ٢٨٠

المال أمر أن يتصدق به وقال : أرجو أن يكون كفارة لسرفك في إنفاقك على جام سمك ألف درهم .

وقد بلغت نفقة المأمون في اليوم ستة آلاف دينار ، كان ينفق منها مبلغا كبيرا على مطالبته (١) .

وكان أهل بغداد يتفننون في الطعام ويسرفون في اجتلاب ألوانه في غير مواعيدها ، من صيد وفاكهة وخضروات ، حتى كانوا يزنون هذه الأطعمة أحيانا بما يعادلها في الوزن من الفضة (٢) ، كما كانوا يجلبون ألوان الطعام مثل السمك والحبوب والحبوب وما إلى ذلك من البلاد الأخرى كفارس وعمان والهند (٣) .

وعلى الرغم من أن الخلفاء العباسيين قد يشربون النبيذ ، إلا أن الكثيرين منهم لم يسمحوا بتناوله على مواعيدهم . فقد ذكر الطبري أن بختيشوع الطبيب لما قدم على أبي جعفر المنصور من السوس ودخل عليه في قصره بباب الذهب ببغداد ، أمر له بطعام يتغذى به . فلما وضعت المائدة بين يديه قال : شراب ، فأخبر المنصور بذلك فقال : دعوه . فلما حضر العشاء فعل به مثل ذلك ، فطلب الشراب فقبل له : لا يشرب على مائدة أمير المؤمنين الشراب ، فتعشى وشرب ماء دجلة . فلما كان من الغد نظر إلى مائه وقال : ما كنت أحسب أن شيئا يجزى من الشراب (يغنى عنه) ، فهذا ماء دجلة يجزى من الشراب .

ه — الملابس :

وكان لانتشار النفوذ الفارسي في الدولة العباسية أثر كبير في ظهور الأزياء الفارسية في البلاط العباسي . يؤيد ذلك ما ذكره فون كريم (٤) حيث يقول : ازداد النفوذ الفارسي في بلاط الخلفاء ، وبلغ الذروة في عهد الهادي وهارون الرشيد والمأمون ، وكان أغلب وزراء الأخير من هؤلاء فرسا أو من أصل فارسي ؛ وفي بغداد أخذ الميل للأزياء الفارسية ينمو ويطرده .

وكان اللباس الفارسي لباس البلاط الرسمي ؛ فقد قرر أبو جعفر المنصور ثاني الخلفاء

(١) الفخرى ص ٢٠٧

(٢) حضارة الاسلام في دار السلام ص ٩٩ .

(٣) الطبري ج ١٠ ص ٥٢

(٤) Streifzuge, pp. 32—3. (٤)

العباسيين لبس القلانس ، وهى القبعات السود الطويلة المخروطية الشكل ، بصفة رسمية ؛ كما أدخل استعمال الملابس المحلاة بالذهب ، وغدا خلعها على الناس من حق الخليفة . يتبين لنا ذلك جليا من العملة التى ضربت فى عهد الخليفة المتوكل ، حيث تظهر صورته مرتديا ملابس فارسية حقيقية . وكان اللباس العادى للطبقة الراقية فى العهد العباسى يشتمل على سروالة فضفاضة ، وقميص ودراعة وسترة وقفطان وقباء وقلنسوة . أما لباس العامة فيشتمل على إزار وقميص ودراعة وسترة طويلة وحزام . وكانوا ينتعلون الأحذية والنعال :

وكان من المستحسن لبس الثياب البيض ؛ فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « خلق الله الجنة بيضاء ، وخير ثيابكم البيض تلبسونها فى حياتكم وتكفنون بها موتاكم » . وفى القرن الرابع الهجرى كانوا يرون أنه لا يجوز للرجال لبس الثياب ذات الألوان إلا فى خاصة بيوتهم ، على حين أجازوا لبسها للنساء (١) .

وكان لباس الخليفة العباسى فى المواكب القباء الأسود (٢) أو البنفسجى الذى يصل إلى الركبة ، ويتمنطق بمنطقة مرصعة بالجواهر ، ويتشح بعباءة سوداء ، ويلبس قلنسوة طويلة مزينة بجوهر غالية (٣) . وكان الأمراء والنبلاء يقلدون الخلفاء فى ملابسهم . أما الخلفاء والقضاة فكانوا يلبسون العمامة والطيلسان ، مقتدين فى ذلك بالنبي صلى الله عليه وسلم ، كما كانوا يلبسون قلنسوة طويلة ، حولها عمامة ذات لون أسود ، وهو شعار العباسيين .

وقد ذكر ابن خلكان (٤) المتوفى سنة ٦٨١ هـ عن أبى يوسف قاضى هارون الرشيد ، أنه أول من غيّر لباس العلما إلى هذه الهيئة التى هم عليها فى هذا الزمان ، وكان ملبوس الناس قبل ذلك شيئا واحدا لا يتميز أحد عن أحد بلباسه . وكان الكتاب يلبسون الدراعات ، وهى ثياب مشقوقة من الصدر ؛ ويلبس القواد الأقيسة الفارسية القصيرة (٥) . وأما غير العلما فقد كانوا يلبسون داخل بيوتهم القلنسوة وحدها فوق كلوثة من الحرير الأبيض ، ثم استعاضوا عنها بكلوثة خفيفة بنفسجية اللون . وكان اللباس العادى للطبقة الراقية فى العهد العباسى يتألف من سراويل فضفاضة وقميص ودراعة وسترة وقفطان وقباء وقلنسوة وعباءة أو جبة . وكان

(١) متر : الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ١٨٧ — ١٨٩

(٢) كان القباء مفتوحا عند الرقبة ، فيظهر القفطان زاهيا من تحته . وكانت أكمامه ضيقة حتى عهد المتصم الذى أمر بجعلها فضفاضة . ويقال إن عرض الأكمام بلغ ثلاثة أذرع .

(٣) سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب ص ٣٨٧

(٤) وفیات الأعيان ج ٢ ص ٣٣

(٥) متر : الحضارة الإسلامية ص ١٨٩

الأغنياء يلبسون الجوارب المصنوعة من الحرير أو الصوف أو الجلد ، ويسمونهم « موزاج » . وكانت ثمة فروق ملحوظة في ملابس أصحاب المهن المختلفة . أما لباس العامة فكان يشتمل على إزار وقيص ودراعة وسترة طويلة وحزام يسمى « قربند » . وكانوا يتنعلون الأحذية والنعال . أما الجنود فكانوا يلبسون الأحذية ، على حين كان بعض الأعيان يتنعل كليهما في وقت واحد ، غير أنهم كانوا يخلعون الحذاء الخارجى المسمى « الجر موق » عند دخول المساجد أو القصور (١) .

وكانت ملابس المرأة تتكون من ملءة فضفاضة وقيص مشقوق عند الرقبة ، عليه رداء قصير ضيق يلبس عادة في البرد . وكانت المرأة العربية إذا خرجت من بيتها ترتدى ملءة طويلة تغطى جسمها ، وتقى ملابسها من التراب ، وتلف رأسها بمنديل يربط فوق الرقبة .

وقد تطورت ملابس النساء في العهد العباسى تطوراً ظاهراً عما كانت عليه في العصر الأموى ، إذ اتخذت سيدات الطبقة الراقية غطاء للرأس (البرنس) مرصعا بالجواهر ، محلى بسلسلة ذهبية مطعمة بالأحجار الكريمة . ويعزى ابتكار هذا الغطاء إلى « علية » بنت المهدي أخت الرشيد . وكانت نساء تلك الطبقة يعلقن الحجب بزوار البرنس للزينة . أما نساء الطبقة الوسطى فكانن يزين رءوسهن بحلية مسطحة من الذهب ، ويلفن حولها عصاية منضدة باللؤلؤ والزمرد ، ويلبسن الخلاخل في أرجلهن والأساور في معاصمهن وأزنادهن ، ولم يجهلن فن التجميل الذى أخذنه عن الفارسيات . وكان « طابع الحسن » الصناعى مما يتجلى به الأعراسيات (٢) .

وكان للسيدة زبيدة أثر كبير في تطور الزى وإدخال تغييرات على ملابس السيدات في عصرها ؛ فيعزى إليها اتخاذ المناطق والنعال المرصعة بالجواهر . وكانت فوق ذلك تسرف في شراء ملابسها وتزيينها ، حتى إنها اتخذت ثوبا من الوشى الرفيع يزيد ثمنه على خمسين ألف دينار (٣) . وكان رجال الدولة يتميزون بملابسهم ، ويعزى إلى أبى جعفر المنصور أنه أول من اخترع عمل الخيش السكتان في الصيف اتقاء حرارة الشمس (٤) .

٦ - المرأة :

كانت المرأة في العصر العباسى الأول تتمتع بقسط وافر من الحرية ؛ فقد تدخل بعضهم في شئون الدولة ، كالخيزران زوج الخليفة المهدي وأم الهادي والرشيد ، وكانت كثيراً ما تسأل

(١) سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب ص ٣٨٨ — ٣٨٩

(٢) نفس المصدر ص ٣٨٩ — ٣٩٠

(٣) حضارة الإسلام في دار السلام ص ٩٥ (٤) الفخرى ص ١٤٣

ابنها الهادى قضاء حاجات المترددين على بيتها ، غير أن شدة غيرته على النساء حملته على أن يضع حداً لتدخلها في أمور دولته (١).

كذلك استخدمت السيدة زبيدة زوجة الرشيد وأم الأمين نفوذها ؛ فانها حين حجت بيت الله سنة ١٨٦ هـ ، وأدركت ما يعانيه أهل مكة من المشاق في الحصول على ماء الشرب ، دعت خازن أموالها ، وأمرته أن يدعو المهندسين والعمال من أنحاء البلاد وقالت له : « اعمل ولو كلفتك ضربة الفأس ديناراً . ووفد على مكة أ كفاء المهندسين والعمال ، ووصلوا بين منابع الماء في الجبال ، واعتمدوا على عين حنين ، فأسالوا منها الماء تحت الصخور ، حتى تغلغل من الحل إلى الحرم . وبذلك وصل الماء إلى مكة ، قبله المسلمين ، التي يجتمع فيها حجاج بيت الله . ولا يزال هذا الماء يجري إلى مكة حتى اليوم .

وقد ساهمت المرأة في هذا العصر في الحروب . فقد اشتركت فيها أم عيسى ولبابة بنتا على ابن عبد الله بن عباس عم الخليفة المنصور (٢) . وكن في عهد الرشيد يمتطين الجياد ويقدن الجنود إلى ميدان القتال (٣) . ولما سبى الروم نساء المسلمين ومثلوا بهم في عهد المعتصم ، وصاحت امرأة هاشمية وقعت أسيرة في أيديهم « وامعتصماه ، ! لبي الخليفة نداهما وثارت ثائرته ، وقاد جيشه الجرار وانتصر على الروم في موقعة عمورية المشهورة (٤) .

وقد بلغت المرأة في هذا العصر مبلغاً عظيماً من الثقافة ، وكانت تنظم الشعر وتناظر الرجل في شتى نواحي الثقافة والفكر في عهد الرشيد والمأمون . وكانت السيدة زبيدة شاعرة مثقفة ، وكثيراً ما كانت تبعث برسائلها الفياضة أبياتاً شعرية إلى زوجها الرشيد . وإن القصيدة التي بعثت بها إلى الخليفة المأمون على أثر مقتل ابنها الأمين لتدل دلالة واضحة على علو كعبها في الأدب والشعر والسياسة . وهاك بعض أبيات منها (٥) .

لخير إمام قام من خير عنصر	وأفضل راق فوق أعواد منبر
ووارث علم الأولين ونحرم	وللبلك المأمون من أم جعفر
كتبت وعيني تستهل دموعها	إليك ابن عمي مع جفوني ومحجري

(١) أنظر الباب الثاني ص ٤٣ — ٤٤

(٢) أنظر الباب الرابع ص ١٨٥

(٣) سيد أمير علي : مختصر تاريخ العرب ص ٣٩٠ .

(٤) أنظر الباب الرابع ص ١٩٠

(٥) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٣١٦ .

أصبحت بأدنى الناس منك قرابةً ومن زال عن كبدي فقلّ تصبري
أنى ظاهر لا طهر الله طاهراً وما طاهر في فعله بيطهر
فأبرزني مكشوفة الوجه حاسراً وأنتهب أموالى وأخرب أدورى
يعز على هرون ما قد لقيته وما نالنى من ناقص الخلق أعور
فإن كان ما أسدى لأمرى أمرته صيرت لأمرى من قدير مقدّر

ويقول صاحب كتاب حضاره الإسلام فى دار السلام^(١) ، « إن السیده زبیده زوج الرشید كانت تصنع أعمالاً تفوق مقدرة الملوك ، كمثل اصطناعها بساطاً من الديباج جمع صورة كل حيوان من جميع الأجناس ، وصورة كل طائر من الذهب ، وأعينها من يواقيت وجواهر ، يقال إنها أنفقت عليه نحواً من ألف ألف دينار . وكمثل اتخاذها الآلة من الذهب المرصع بالجواهر ، والثوب من الوشى الرفيع يزيد ثمنه على خمسين ألف دينار ، والقباب من الفضة والابنوس والصندل ، عليها الكلايب من الذهب الملبس بالوشى والديباج والسمور وأنواع الحرير ، ومثل اتخاذها شمع العنبر ، واصطناعها الخف مرصعاً بالجواهر ، واتخاذها الشاكرية من الخدم يختلفون على الدواب ويذهبون فى حاجاتها ورسائلها . »

وقد أولع الناس ، وخاصة الخلفاء ، باتخاذ الإمام من غير العرب ، لأنهم كن فى الغالب أوفر جمالاً . أضف إلى ذلك أن العادة قد جرت ألا يرى الرجل من يريد التزوج بها رؤية تامة إذا كانت من الحرائر ، إلا فى حدود ما يسمح به الشرع الإسلامى لمريد الخطبة ، بخلاف الأمة ، فقد كان يستطيع أن يراها ويعرف طباعها وأخلاقها بحكم مخالطتها قبل أن يقدم على الاقتران بها . وكثيراً ما كان أبناء الجوارى أحب إلى آبائهم من أبناء الحرائر ، كذلك لم يكن ثمة فرق فى التوريث بين أبناء الحرائر والإماء .

وكان كثير من الخلفاء العباسيين من أمهات أولاد ، فكانت أم المأمون أمة فارسية ، وأم المعتصم تركية ، كما كانت « شجاع » أم المتوكل خوارزمية ، والسيدة أم المقتدر رومية ، وكذلك كانت أم الخليفة المستكفى ، وكانت أم المطيع صفقبية^(٢) .

وكانت الإمام يجلبن من أسواق النخاسة من جميع البلاد إلى بغداد . وكان منهن الحبشيات والروميات والجرجيات والشركسيات والعربيات من مولدات المدينة والطائف واليمامة ومصر . وقد اشتهرت كثيرات منهن بالجمال وعذوبة اللفظ وجمال الصوت . ولم يكن بيع الرقيقات مظهراً من مظاهر العبودية والاسترقاق بالمعنى المألوف ، بل إن كثيراً من الإمام كن يأتين سوق

النخاسة مختارات ، ليمتغن بحياة الترف والنعم في بيوت الخلفاء والأمراء (١) .

٧ — الأعياد والمواسم والحفلات :

زاد النفوذ الفارسي في الدولة العباسية — كما رأينا — حتى شمل كل مظاهر الحياة في العصر العباسي ، وبلغ الذروة في عهد الهادي وهارون الرشيد . وفي بغداد أخذ الميل للأزياء الفارسية ينمو ويطرد ، واحتفل بالأعياد الفارسية القديمة ، وخاصة بالنوروز والمهرجان والرام ، واتخذ رجال البلاط العباسي العادات الفارسية القديمة .

(١) الاحتفال بالعيدين :

وكان الخلفاء يحتفلون بالعيدين احتفالا دينيا ، فيؤمنون الناس في الصلاة ، ويقفون عليهم خطبة في فضائل العيد ومايجب على المسلمين اتباعه للحفاظ على شعائر الإسلام . ولا غرو فقد كانت مظاهر الإسلام تتجلى في الاحتفال بهذين العيدين في الأمصار الإسلامية ، وعلى الأخص في بغداد وبيت المقدس ودمشق . أما المسلمون الذين يقصدون مكة من كافة أنحاء العالم لأداء فريضة الحج ، فكان يخطبهم الخطيب في المسجد الحرام في اليوم السابع من شهر ذي الحجة بعد صلاة الظهر خطبة بليغة ، يشرح لهم فيها مناسك الحج ، ثم يأخذون في أداء شعائره ، ويضجون أضحيان العيد بعد رميهم الجمار بمنى .

وكان الاحتفال بعيدى الفطر والأضحى يبلغ منتهى الروعة والأبهة في البلاد التي يكون فيها الشعور الإسلامي قويا ، مثل طرسوس حيث كان يتوافد إليها غزاة المسلمين من أنحاء الدولة الإسلامية ، وترد إليها صلات أهل البر من المسلمين الذين لا يستطيعون الخروج للجهاد بأنفسهم . ويقول ابن حوقل : « ليس من مدينة عظيمة من حدسجستان وكرمان إلى مصر والمغرب إلا بطرسوس ، لأهلها دار ينزل بها غزاة تلك البلدة ويرابطون بها إذا ورودها ، وتكثر لديهم الصلات وترد عليهم الأموال والصدقات العظيمة » . ولا شك أنه كان لذلك أكبر الأثر في ظهور الأبهة الإسلامية بأجلى معانيها في الاحتفال بالأعياد بطرسوس ، حتى أصبح عيد الفطر والأضحى في هذه المدينة من محاسن الإسلام .

وكانت المدن الإسلامية ، وعلى الأخص مدينة بغداد ، تسطع في أرجائها الأنوار في ليالي العيد ، وتتجاوب أصوات المسلمين بالتهليل والتكبير ، وتزدحم الأنهار بالزوارق المزينة بأهسى الزينات ، وتسطع من جوانبها أنوار القناديل ، وتتلألأ الأنوار الساطعة من قصور

الخلافة ، وقد لبست الجماهير الطيالة السود تشبها بالخلفاء العباسيين الذين اتخذوا السواد شعاراً لهم . وكان بعضهم يتخذ بدل العمام قلائس طويلة مصنوعة من القصب والورق مجللة بالسواد كذلك ، ويلبسون بدل الدروع دراعات كتب عليها « فسيكفيكم الله وهو السميع العليم » (١) .

(ب) الاحتفال بالنوروز والمهرجان والرام :

كان النوروز من المواسم القديمة . اتخذته الفرس لإحياء العام الجديد ، وهو أول أيام السنة عندهم . ويقع عند الاعتدال الربيعي ودخول الشمس في برج الحمل ، أى عند ابتداء فصل الربيع . وقد سن ملوك خراسان سنة جديدة ، فاتخذوا هذا اليوم موسماً يلبس فيه جنودهم ملابس الربيع والصيف ، وفيه يحتفلون بعيد النوروز . وأول من اتخذ هذا اليوم — على ما ذكره البيروني (٢) — هو جم شيد ، وهو — كما يقول براون (٣) — نقلا عن بعض المصادر العربية سليمان ابن داود (٤) . وقد أبطل المسلمون الاحتفال بهذا العيد في بلاد الفرس بعد الفتح الاسلامي ، غير أنه عاد في العصر العباسي الأول . وقد أضر نظام النوروز القديم بالمزارعين ضرراً بليغاً ، لأن التقويم الجديد قدم يوم النوروز ، فكان يحىء والزرع أخضر ، في الوقت الذي يجب أن تدفع فيه الضرائب .

ويستطرد البيروني في الكلام حتى يذكر أن الملاك اجتمعوا في عهد هشام بن عبد الملك الأموي (١٠٥ — ١٢٥ هـ) ، وشكوا إلى عامله خالد بن عبد الله القسري ، وشرحو له ما يجدونه من الصعاب ، وسألوه أن يؤخر النوروز شهراً ، فأبى وكتب إلى هشام بذلك ، فأجاب : إني أخاف أن يكون هذا من قوله تعالى : (إنما النسيء زيادة في الكفر) (٥) . واستمرت الحال كذلك إلى أن ولي هارون الرشيد الخلافة ، فاجتمع الملاك ثانية وشكوا إلى يحيى بن خالد البرمكي ، وسألوه أن يؤخر النوروز نحواً من شهرين ، فهم يحيى بإجابة طلبهم ، ولكن أعداءه أخذوا يرمونه بالتعصب للجوسية ؛ فعدل عن ذلك ، واستمر الحال على ما كان عليه من قبل .

أما عن أصل النوروز فيقول البيروني (٦) إنه يرجع إلى أن سليمان بن داود لما فقد خاتمه ذهب عنه ملكه ، ثم رد إليه بعد أربعين يوماً ، فعاد إليه ملكه ، وأتته الملك وعكفت عليه

(١) حضارة الاسلام في دار السلام ص ٢٢

(٢) كتاب الآثار الباقية عن القرون الخالية (طبعة سخاو Sachau) ص ٢١٦ — ٢١٧

(٣) Browne : Lit. Hist. of Persia, vol. I. pp. 114, 259.

(٤) البيروني ص ٢١٥ (٥) سورة ٩ آية ٣٧

(٦) الآثار الباقية ص ٢١٦ و ٢١٧

الطيور ، فقالت الفرس « نوروز آمد » ، أى جاء اليوم الجديد ، فسمى هذا اليوم « النوروز » ، وأمر سليمان الريح لحملته ، ورآه خطاف فقال : « أيها الملك ! إن لى عشا فيه بيضات ، فاعدل لاتحملها » ؛ فعدل سليمان . ولما نزل على الأرض ثانية ، حمل الخطاف فى منقاره ماء ، فرشه بين يدى الملك ، وأهداه رجل جرادة . فذلك أصل رش الماء والهدايا فى النوروز .

وكان الفرس يتهادون فى عيد النوروز بالهدايا السكثيرة ، ومنها السكر والملابس . ويقول البيرونى (١) : « إن قصب السكر إنما ظهر فى مملكة چم يوم النوروز ، ولم يكن يعرف قبل ذلك الوقت ، وهو أنه رأى قصبة كثيرة الماء قد مجت شيئا من عصارتها فذاقها ، فوجد فيها حلالة لذينة ، فأمر باستخراج مائها وعمل منها السكر ، فارتفع فى اليوم الخامس وتهاوده تبركا به ... فجرى الرسم للملك خراسان فيه أن يخلعوا على أساورتهم الخلع الربيعية والصفية . كما اعتادوا الاغتسال بالماء ، وأن يرشوا بعضهم بعضا به فى ذلك اليوم تبركا ودفعا للأمراض » . وما يدل على اهتمام أ كاسرة الفرس بالنوروز ما ذكره البيرونى حيث قال : « وكان من آيين الأ كاسرة فى هذه الأيام الخمسة أن يبدأ الملك يوم النوروز ، فيعلم الناس بالجلوس له والإحسان إليه ، وفى اليوم الثانى يجلس لمن هو أرفع مرتبة ، وهم الدهاقين وأهل البيوتات ، وفى اليوم الثالث يجلس لأساورته وعظماؤا موابذته ، وفى اليوم الرابع لأهل بيته وقرباته وخاصة ، وفى اليوم الخامس لولده وصنائعه ، فيصل إلى كل واحد منهم ما استحققه من الرتبة والإكرام ، ويستوفى ما استوجبه من المبرة والإنعام . فاذا كان اليوم السادس كان قد فرغ من قضاء حقوقهم ، فنورز لنفسه ، ولم يصل إليه إلا أهل أنسه ومن يصلح لخلوته ، وأمر بإحضار ما حصل من الهدايا على مراتب المهدين ، فيتأملها ويفرق منها ما شاء ويودع الخزائن ماشاء . وكان أ كاسرة الفرس والخلفاء العباسيون من بعدهم يحتفلون بالنوروز فى أول العام على ما رأينا ، وفى آخره بالمهرجان ، ويسمونه (روزِ مهر) ومعناه محبة الروح ، وكان من أ كبر أعيادهم . فقد أثر عن سليمان الفارسى أنه قال : « كسنا على عهد الفرس نقول إن الله أخرج زينة لعباده من الياقوت فى النوروز ، ومن الزبرجد فى المهرجان ، ففضلهما على غيرهما من الأيام ، كفضل الياقوت والزبرجد على سائر الجواهر » (٢) . وكان الفرس يتخذون المهرجان دليلا على نهاية العالم ، والنوروز دليلا على بدايته . ويوافق أول عيد المهرجان أول الشتاء .

وكان ملوك الفرس يلبسون تاجاً مرصعاً بالجواهر عليه صورة الشمس ، ويقومون سوقا عظيمة . وقد قيل إن تعظيم الفرس ليوم المهرجان يرجع إلى استبشار الناس حين سمعوا بانتصار أفريدون على الضحاك ، ويعتقدون أن الملائكة نزلت لمساعدة أفريدون فى ذلك اليوم ،

« وجرى الرسم بذلك في دور الملوك أن يقف في صحن الدار رجل شجاع وقت إسفار الصبح ، ويقول بأعلى صوته : يا أيها الملائكة ! انزلوا إلى الدنيا وأقموا الشياطين الأشرار وادفعوهم عن الدنيا ، (١) .

وكان الفرس يتهادون في المهرجان بالهدايا الكثيرة كهدايا النوروز ، ومنها السكر ، ويقدم فيه الأكاسرة للفرسان كسوة الخريف والشتاء (٢) . وقد اعتاد ملوك الفرس الجلوس للعامة يوماً في المهرجان ويوماً في النوروز . ويقول الجاحظ (٣) : « ولا يحجب عنه أحد في هذين اليومين من صغير ولا كبير ولا جاهل ولا شريف » .

وكان اليوم الخامس من المهرجان من أعظم أيام الفرس ، ويسمونه « رام روز » ، وهو المهرجان العظيم ، وفيه ظفر أفريدون بالضحاك . وقد اهتم الفرس بعيد المهرجان ، ويقع في اليوم السادس عشر ، وبعيد الرام ، ويقع في اليوم الحادى والعشرين . وقد أمر زرادشت أن يكون سبيل المهرجان ورام روز واحداً في التعظيم ، فعيدوهما معا ، حتى وصل بينهما هرمز ابن شابور البطل ، ونعيد ما بينهما من الأيام ... ثم جعل الملوك إيرانشهر من لدن المهرجان إلى تمام ثلاثين ، أعيادا بين طبقات الناس ، (٤) .

ولا غرو فقد كان من أثر ميل العباسيين إلى الفرس وإيثارهم على العرب ، أن أخذوا عنهم نظم الحكم ، وقلدوهم في الأزياء وفي الطعام ، واحتفلوا بأعيادهم ، وخاصة بالنوروز والمهرجان والرام ، التي أصبحت في العصر العباسى الأول من أهم أعيادهم الرسمية (٥) .

(ج) مواكب الخلفاء :

وقد فاقت مواكب الخلفاء العباسيين مواكب الأمويين في الروعة والبهاء . ففي أيام الجمع يسير الحراس على اختلاف طبقاتهم في مقدمة موكب الخليفة حاملين الأعلام ، ثم يليهم أمراء البيت العباسى على الخيول المطهمة ، ثم الخليفة بمتطيا جوادا شديد البياض ، وبين يديه كبار رجال الدولة . وكان الخليفة يلبس في تلك المواكب القباء الأسود ، ويتمنطق بمنطقة مرصعة بالجواهر ، ويتشبع بعباءة سوداء ، ويلبس قلنسوة طويلة مزينة بجوهر غالية ، ويده قضيب النبي صلى الله

(١) البيرونى ، كتاب الآثار الباقية : ص ٢٢٢ (٢) المصدر نفسه ص ٢٢٣

(٣) كتاب التاج في أخلاق الملوك ص ١٥٩

(٤) البيرونى : كتاب الآثار الباقية : ص ٢٢٣ — ٢٢٤

(٥) انظر « الفاطميون في مصر » المؤلف ص ٢٨٥ ؛

عليه وسلم وخاتمه ، ويتبدل على صدره سلسلة ذهبية مرصعة بالجواهر النفيسة (١) . وكان من مظاهر سيادة الخليفة في بغداد أن يضرب على باب قصره بالطبول والدفادب والأبواق في أوقات الصلاة .

ومن أعظم مواكب الخلفاء العباسيين موكب الحج ، حيث يجتمع ببغداد الحجاج من مختلف الأمصار الإسلامية الشرقية ، وخاصة أهل العراق وفارس وخراسان وغيرها ، وقد أعدوا عدتهم من الإبل والكسبي والطعام الذي كان يتكون من الأقراص المعجونة باللبن والسكر والكعك والفواكه اليابسة وغيرها من طعام الحاج ، ومعهم شزيمة من الجنند لحراستهم . ويسير في مقدمة هذا الموكب هودج يعلوها قباب مزينة بالديباج المطرز بالذهب يقيم في أحدها أمير الحاج (٢) .

(١) سيد أمير علي : مختصر تاريخ العرب ص ٣٨٦ — ٣٨٧ .

كان الخليفة الهادي أول من أدخل هذا النظام ؛ ولكن الرشيد والمأمون كثيراً ما كانا يميلان إلى البساطة ، فلم يكن يصحبهما غير حارس واحد أو حارسين .

(٢) ذكر الماوردي في « الأحكام السلطانية » (ص ١٠٣ — ١٠٥) أن أمير الحاج ينظر في عشرة أشياء : أحدها جمع الناس في مسيرهم ونزولهم حتى لا يفرقوا فيخاف عليهم التواني والتفرير ، والثاني ترتيبهم في المسير والنزول وإعطاء كل طائفة منهم مقادراً ، حتى يعرف كل فريق منهم مقاده إذا سار ، ويألف مكانه إذا نزل ، فلا يتنازعون فيه ولا يضلون عنه . والثالث أن يرفق بهم في المسير حتى لا يعجز عنه ضعيفهم ولا يضل عنه منقطعهم . روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : الضعيف أمير القوم ، يريد أن من ضعفت دوابه كان على القوم أن يسيروا سيره . والرابع أن يسلك بهم أوضح الطرق وأخصبها ويتجنب أجدبها وأوعرها . والخامس أن يرتاد لهم المياه إذا انقطعت والمراعى إذا قلت ، والسادس أن يحرسهم إذا نزلوا ويحوطهم إذا رحلوا حتى لا يختلطهم ذاعر ولا يطعم فيهم متلصص . والسابع أن يمنع عنهم من يصدعهم عن المسير ويدفع عنهم من يحصرهم عن الحج ، بقتال إن قدر عليه أو يبدل مال إن أجاب الحجاج إليه . ولا يسهه أن يجبر أحداً على بذل الخفارة إن امتنع منها ، حتى لا يكون باذلاً لها عفواً ومحبياً إليها طوعاً ، فإن بذل المال على التمكين من الحج لا يجب . والثامن أن يصلح بين المتشاجرين ويتوسط بين المتنازعين ، ولا تعرض للحكم بينهم إيجاباً ، إلا أن يفوض الحكم إليه ، فيعتبر فيه أن يكون من أهله فيجوز له حينئذ الحكم بينهم . فأت دخلوا بلداً فيه حاكم جاز له ، وتحاكم البلد أن يحكم ، فأيهما حكم نفذ حكمه ، ولو كان التنازع بين الحجاج وأهل البلد لم يحكم بينهم إلا حاكم البلد . والتاسع أن يقوم زانقهم ويؤدب خائفهم ولا يتجاوز التعزير إلى الحد ، لا أن يؤذنه فيستوفيه إذا كان من أهل الاجتهاد فيه . فإن دخل بلداً فيه من يتولى إقامة الحدود على أهله ، فإن كان مأثماً الحدود قبل دخول البلد ، فوالى الحجاج أولى بإقامة الحد عليه من والى البلد ، وإن كان مأثماً الحدود في البلد ، فوالى البلد أولى بإقامة الحد عليه من والى الحجاج . والعاصر أن يراعى اتساع الوقت حتى يؤمن القوات ولا تلجئهم ضيقة إلى الحث في السير . فإذا وصل إلى الميقات أمهلهم للإحرام وإقامة سنته ، فإن كان الوقت متسعاً عدل بهم إلى مكة ليخرجوا مع أهلها إلى المواقف ، وإن كان الوقت ضيقاً عدل بهم عن مكة إلى عرفة خوفاً من فواتها فيفوت الحج بها ، فإن زمان الوقوف بعرفة مابين زوال الشمس من يوم عرفة إلى طلوع الفجر من يوم النحر . فمن أدرك الوقوف بها في شيء من هذا الزمان من ليل أو نهار فقد أدرك =

ويقول صاحب كتاب حضارة الإسلام في دار السلام (١) : « ولما صارت الشمس على ارتفاع قامة ، وقد غصت بالناس المواقف ، وضائق بهم الساحات ، ضرب البوق لإذانا بركوب الخليفة . ثم لم يلبث أن أقبل مرتفعاً على فيل أبيض ، قد استرسلت عليه الفضة في الحلية الثقيلة ، وهو جالس في هودج منزل بالأصداق اللامعة ، وعلى القبة أستار من الديباج يتخللها رسوم من الذهب ، وفي يده قضيب الخلافة ، وفي الأخرى الخاتم ، وعليه جبة وشى من فوقها بردة خضراء للنبي صلى الله عليه وسلم ، وهى غير البردة التى كانت للملك بنى أمية ، يلقونها على أكتافهم فى جلوسهم وركوبهم ، لأنها فقدت بفقدان الخلافة منهم ، وكان قد اشتراها معاوية من آل زهير بن أبى سئلى بأربعين ألف درهم ، وإنما هذه البردة هى التى أعطاها النبي صلى الله عليه وسلم أهل الأئمة لتبقى عندهم بركة ، فاشتراها أبو جعفر بثلاثمائة دينار ، واتخذها فى شعار الخلافة موضع البردة التى كانت عند الأمويين . وأما الفيلة فإنه لم يسبق أحد من ملوك العرب إلى اتخاذها فى المراكب . . . ولأنه إنما اتخذها موكباً له ، لما كان من تعظيم الملوك السالفة إياها ، واقتنائهم لها ، وإعدادها للحروب والزينة فى الأعياد وغيرها ، إذ كانت أوطأ مراكب الملوك وأمهدها . وكان يصحب أبا جعفر جماعة من الأمراء ورجال بيت الخلافة ، ووراءهم الإبل التى يظعنهم حريمه وأهل بيته ، وفيهم موسى بن المهدي حاجاً ، ومعهم خرس خاص بهم ، يحملون الرايات السود . »

وقد سن الخليفة المهدي سنة كسوة الكعبة فى كل عام . فإنه لما قدم مكة ، نزع كسوة الكعبة وطلّى جدرانها بالمسك والعنبر ، وألبسها كسوة جديدة من الحرير ، إذ خاف أن تهدم لكثرة ما عليها من الكسوة الذى ألبسها هشام بن عبد الملك الأموى . فأصبح ذلك سنة اتبعها الخلفاء الذين جاءوا بعد المهدي ، هى سنة إلباس الكعبة كسوة جديدة كل عام . وقد اختصت مصر بصناعة هذه الكسوة منذ ذلك الوقت .

الحج ، وإن فاتته الوقوف بها حتى طلع الفجر من يوم النحر ، فقد فاتته الحج ، وعليه إتمام ما بقى من أركانه وجبرانه بدم ، وقضاؤه فى العام المقبل إن أمكنه وفيما بعده إن قدر عليه . ولا يصير حجه عمرة بالوقوف ، ولا يتحلل بعد القوات إلا بأجلال الحج . وإذا وصل الحجاج إلى مكة ، فمن لم يكن على العود منهم زالت عنه ولاية الوالى على الحجاج ، فلم يكن له عليه يد ، ومن كان منهم على العود فهو تحت ولايته وملتزم أحكام طاعته . فإذا قضى الناس حجهم أمهلهم الأيام التى جرت بها العادة فى إنجاز علائقهم ولا يرهقهم فى الخروج فيضرب بهم . فإذا عاد بهم سار على طريق المدينة لزيارة قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليجمع لهم بين حج بيت الله سبحانه وزيارة قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رعاية لحرمته وقياماً بحقوق طاعته ، ثم يكون فى عوده بهم ملتزماً فيهم من الحقوق ما التزمه فى صدرهم ، حتى يصل بهم إلى البلد الذى سار بهم منه ، فتقطع ولايته عنهم بالعود إليه . »

وكان بعض الوزراء في العصر العباسي الأول يعيش عيشة قوامها البذخ والإسراف : فهذا يحيى بن خالد البرمكي قد بلغ من كرمه وجوده ، أنه إذا ركب أعد بدرأ (صررا) في كل منها مائتا درهم ، يدفعها إلى من يقفون في طريقه ويلتمسون سؤاله . وقد كثر الوافدون على دار خالد بن برمك ، وكانوا قبل ذلك يسمون سؤالا ، فقال خالد : إني أستقبح هذا الاسم لمثل هؤلاء . وفيهم الأشراف والأكابر ، فدعاهم الزوار . وكان خالد أول من سماهم بذلك ، فقال له بعضهم : والله لا أدرى أى أياديك عندنا أجل ، أصلتنا أم تسميتنا ؟ (١) .

(٥) حفلات الزواج :

وكان العباسيون يعنون عناية فائقة بحفلات الزواج . ويتجلى إسراف خلفاء العصر العباسي الأول وبذخهم في حفلات الزواج مما فعله الخليفة المهدي عند زواج ابنته هارون (الرشيد) بالسيدة زبيدة ، فقد أقام يوم زفافها وليمة لم يسبقه إليها أحد في الإسلام ، ووهب للناس في هذا اليوم أواني الذهب مملوءة بالفضة وأواني الفضة مملوءة بالذهب والمسك والعنبر ، وزينها بكثير من الحلى والجواهر ، حتى إنها لم تقدر على المشي لكثرة ما عليها من هذه الحلى والجواهر (٢) . ويقول الشافعي في كتابه الديارات (٣) إن نفقات الزواج بلغت من مال الخليفة المهدي ١,٣٨٨,٠٠٠ ديناراً ، عدا مبلغ كبير أنفق الرشيد نفسه . وقد أكدت السيدة زبيدة لآبي عبد الله المأمون (وكان أخا الأمين ابن السيدة زبيدة من أبيه الرشيد كما نعلم) أن نفقات هذا الزواج كانت تتراوح بين خمسة وثلاثين مليون درهم وسبعة وثلاثين مليون .

وقد فاق المأمون أباه الرشيد في كرمه وإسرافه ؛ يدلنا على ذلك ما أنفق على زواجه من بوران — وكانت تسمى أيضا خديجة — بنت الحسن بن سهل فأمرها ١٠٥,٠٠٠,٠٠٠ درهم ، أى نحو تسعة ملايين دينار . ويقول الطبري (٤) إن المأمون أمر للحسن بن سهل وهو في طريقه إلى بوران بعشرة ملايين من الدراهم ، ومنحه خراج إقليم فَم الصِّلح . ويقول ابن خلكان (٥) إنه أعطاه خراج إقليم فارس والأهواز سنة واحدة (٦) . وقد وصف المسعودي (٧) إسراف الحسن بن سهل وبذخه في هذا الزواج فقال : « ونثر الحسن في ذلك من الأموال ما لم يثره

(١) الفخرى ص ١٤٠ (٢) حضارة الاسلام في دار السلام ص ٩٤ — ٩٥

(٣) مخطوطات فيمار Weimar رقم ١١٠ برلين

(٤) الطبري (مطبعة دي غويه) ٢ : ١٠٨٣ — ١٠٨٤

(٥) وفيات الأعيان ج ١ ص ١١٦ .

(٦) أنظر كتاب « الفاطميون في مصر » المؤلف من ٢٥٥ هاشم رقم (٢)

(٧) مروج الذهب ج ٢ ص ٣٣٤ .

ولم يفعله ملك قط في جاهلية ولا في إسلام ، وذلك أنه نثر على الهاشميين والقواد والكتاب
بنادق مسك ، فيها رقايع بأسماء ضياع وأسماء جوار وصفات دواب وغير ذلك . فكانت
البندقة إذا وقعت في يد الرجل ، فتحها فقرأ ما فيها ، فيجد على قدر إقباله وسعوده فيها ، فيمضي
إلى الوكيل الذي نصب لذلك ، فيقول له ضيعة يقال لها فلانة الفلانية من طسوج كذا ، من
رستاق كذا ، وجارية يقال لها فلانة الفلانية ، ودابة صفتها كذا . ثم نثر بعد ذلك على منائر الناس
الدنانير والدرهم ونوافح المسك وبيض العنبر ، وأنفق على المأمون وقواده ، وعلى جميع أصحابه
ومن كان معه من جنوده أيام مقامه عنده ، على المسكرين والحمالين والملاحين ، وكل من ضمه
العسكر من تابع ومتبوع مرتزق وغيره . فلم يكن أحد من الناس يشتري شيئاً في عسكر المأمون ،
مما يطعم ولا مما تغتلفه البهائم . فلما أراد المأمون أن يصعد في دجلة إلى مدينة السلام قال للحسن :
حوائجك يا أبا محمد ! قال نعم يا أمير المؤمنين ، أسألك أن تحفظ عليّ مكاني من قلبك ، فإنه
لا يتهيأ لي حفظه إلا بك . فقالت في ذلك الشعراء فأكثر ، واطمئنت الخطباء في ذلك
وتسكمت . فما استظرف مما قيل في ذلك من الشعر قول محمد بن حازم الباهلي :

بارك الله للحسن ولبوران في الحتن

يا بن هرون قد ظفرت ولكن بينت من ؟

فلما نمي هذا الشعر إلى المأمون قال : والله ما ندرى خير أراد أم شر .

٨ — أنواع التسلية :

وكان الناس في العصر العباسي الأول ، يقضون أوقات فراغهم في سماع الحكايات القصيرة
من النوادر الهزلية والأحاديث التي تتجلى فيها الزكاة والفطنة . أما الحكايات الطوال فكانوا
يتكبرون عنها ، لأنها بمجالس القصاص أولى منها بمجالس الخاصة .

كما كانوا يتلون في داخل المنازل بلعبة الشطرنج التي أدخلها الرشيد ، ثم انتشرت بين العرب
وحلت محل الورق والزهر ، وكانوا يلعبون بها على رقعة مربعة حرام من آدم . وقد ظهر في
قصر الخليفة العباسي المعتضد في أواخر القرن الثالث الهجري نوع من الشطرنج يسمى
« الجوارحية » أو اللعب بالجوارح ، تعمل فيه كل حاسة من حواس الإنسان تنافس غيرها
من الحواس (١) .

وقد قيل إن الخليفة المأمون مال بعد قدومه من خراسان إلى بغداد إلى لعب الشطرنج ،

ودعا كبار لاعبيه الذين كانوا يتوقرون بين يديه ، فضاق بذلك وقال : إن الشطرنج لا يلعب مع الهيبة ، قولوا ماتقولون إذا خلوتهم .

وكان النرد من الألعاب التي اعتاد الناس أن يتلها بها في العصر العباسي الأول ، ويستعمل في لعبه ثلاثون حجراً وفصان على رقعة ، رسم اثنا عشر منزلاً أو أربعة وعشرون منزلاً . وقد شبه بعض الحكماء رقعة النرد بالأرض الممهدة لساكنها ، ومنازل الرقعة بساعات الليل والنهار ، واختلاف ألوانها باختلاف يياض النهار وسواد الليل ، وما يخرج من الفصين إذا رمى بهما بالقضاء الجاري على العباد .

ومن أنواع التسلية في ذلك العصر الرمي بالنشاب ، والصيد بالبندق ، ولعبة الجوكان ، والصولجان والجريد .

وكان سباق الخيل من أجمل أنواع التسلية عند الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة في العصر العباسي الأول . وقد أباح الفقهاء هذا اللون من الرياضة ، على ألا تكون وسيلة للحصول على المال . وبلغ من شغف الناس بسباق الخيل واهتمامهم به ، أن كان السابق يستولى في بعض الأحيان على الحصان المسبوق ^(١) . وقد تنافس الخلفاء والوزراء في تربية خيل السباق . وروى الجهمشياري ^(٢) أن هارون الرشيد أمر جعفر بن يحيى البرمكي « أن يتخذ خيلاً يجرها في الحلبة ، فأجرى جعفر يوماً خيله بالرقعة ، فسبقت خيل الرشيد ، فغضب الرشيد فقال العباس بن محمد الهاشمي لجعفر : يا أبا الفضل ! ما أحسن الشكر وادعاه للزيد ! من أين لك هذا الفرس السابق ؟ فقال له : أمه من خيلك ، فقال : والله لأرضينك ، ثم أقبل على الرشيد فقال : كنتُ يا أمير المؤمنين مع أمير المؤمنين أبي العباس ، ونحن في المدائن وقد أرسلت الخيل ، فبينما نحن ننظر ، طلع فرس سابق ، وقد حصل في الغبار فما ترى علامته ، فقال عيسى ابن علي : لي ، وقال غيره : لي . ثم طلع آخر على تلك الصفة ، ثم طلع ثالث على تلك الصفة ، فنظروا فإذا هي لخالد بن برمك ، وقد أخذ قصبات السبق ، فقال خالد : يا أمير المؤمنين ! من يقبضها ؟ فقال : هي لنا عندك ، فإنك عدة من عددنا ، فسرى عن الرشيد وزال الغضب عنه .

وروى المسعودي ^(٣) حكاية تبين لنا مبلغ اهتمام الرشيد بسباق الخيل قال : « وأجرى الرشيد الخيل يوماً بالرقعة . فلما أرسلت ، صار إلى مجلسه في صدر الميدان حيث توافى عليه

(١) متز : الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٢١٥ ؛ سيد أمير علي : مختصر تاريخ العرب ص ٣٩٣ .

(٢) كتاب الوزراء والكتاب ص ٢٠٧ .

(٣) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٧٩ .

الحيل ، لا يتقدم أحدهما صاحبه ، فتأملها ، فقال : فرسى والله ، ثم تأمل الآخرة فقال : فرس
ابنى المأمون . فجاء يحنكان أمام الحيل ، وكان فرسه السابق ، وفرس المأمون ثانية ، فسر بذلك ،
ثم جاء الحيل بعد ذلك . فلما انقضى المجلس وهم بالانصراف ، قال الأصمعي ، وكان حاضراً ،
للفضل بن الربيع : يا أبا العباس ! هذا يوم من الأيام ، فأحب أن توصلى إلى أمير المؤمنين .
وقام الفضل فقال : يا أمير المؤمنين ! هذا الأصمعي يذكر شيئاً من أمر الفرسين يزيد الله به أمير
المؤمنين سروراً ، قال : هاته ! فلما دنا قال : ما عندك يا أصمعي ؟ قال : يا أمير المؤمنين ! كنت
وابنك اليوم والفرسين كما قالت الخنساء :

جارى أباه فأقبلا وهما يتنازعان ملاءة الحضر
وهما كأنهما وقد برزا صقران قد حطا على وكر
برزت صفيحة وجه والده ومضى على غلوائه يجرى
أولى فأولى أن يقاربه لولاجلال السن والكبر

ومن أنواع التسلية فى العصر العباسى الأولى لعبة الكريكت والتنس ، ويسمون لها لعبة
« القراح » . وكان النساء يمارسن الرمي بالسهم . ولم يكن الرقص بادی الأمر مقصوراً على
الطبقات المحترفة فحسب ، بل كثيراً ما كانت فتيات الطبقة الراقية يشتركن فيه أيضاً .

وكان بعض الخلفاء كلفاً بالصيد ، فقد حرص المهدي على القيام برحلات منظمة ، يصحبه
فرسان يتقلدون السيوف ، ويتبعهم طائفة من الجند والغلمان . وكان الخليفة يسير محاذياً لنهر
دجلة ارتياداً للخضرة التى تجنح إليها الطيور وتسرح فيها الغزلان .

وقد كلف هؤلاء الخلفاء بالصيد ، وتأنقوا فى إعداد العدة له ، وقلدوا فى ذلك الأمراء ،
حتى إنهم أخذوا يصنعون نصال سهامهم من الذهب ، كما عنوا باستخدام الصقر والباز فى الصيد ،
وعنوا بتربية الكلاب السريعة العدو ، ووكلوا بكل كلب شخصاً يقوم بتربيته وتدريبه . وقد
رمى الخليفة المهدي غزالاً بسهم فأصابه ، وكان ابن عمه على بن سليمان قد اتخذ هذا الغزال
هدفاً ، ولكنه لم يصبه وأصاب كلباً فصرعه ، فقال فى ذلك أبو دلالة الشاعر :

قد رمى المهدي ظييساً شك بالسهم فؤاده
وعلى بن سليمساً نرى كلباً فصاده
فهنئنا لها كل أمرى يأكل زاده

مصادر الكتاب

نورد في الثبت الآتي أهم مصادر الكتاب
وقد رتبت أسماء المؤلفين في جميعها حسب أحرف الهجاء

ابن الأثير : (+ ٦٣٠ هـ = ١٢٣٨ م) : على بن أحمد بن أبي الكرم

١ - «الكامل في التاريخ» ١٢ جزءاً (بولاق ١٢٧٤ هـ)

أرنولد : توماس و . Arnold : Thomas W.

«The Preaching of Islam» 3 rd. ed. by Reynold A. Nicholson — ٢

(Lond, 1935).

«The Caliphate» (Oxford, 1924) — ٣

الأصفهاني : (+ ٣٥٦ هـ = ٩٦٧ م) : أبو الفرج

٤ - «كتاب الأغاني» ٢١ جزءاً (القاهرة ١٢٨٥ هـ) ، (القاهرة ١٩٢٧-١٩٣٦)

أمير علي : سيد Ameer Ali : Sayed

«A Short History of the Saracens» (Lond., 1921) — ٥

٦ - «مختصر تاريخ العرب واتمدن الإسلام» ، (القاهرة ١٩٣٨) نقله إلى العربية

رياض رافت .

أوليري : دي ليسي O'Leary : De Lacy

«A Short History of the Fatimid Khalifate» (London, 1923) — ٧

بارتولد : ف . Bartold : F.

٨ - «تاريخ الحضارة الإسلامية» ، نقله إلى العربية حمزة طاهر (القاهرة ١٩٤٢)

بالمر : Palmer

«Haroun el-Raschid» (London, 1881) — ٩

براون : إدوارد ج. Browne : Edward G.

«A Literary History of Persia» (From the Earliest Times until — ١٠.
Firdawsi) Vol. I. (London, 1909).

بروكلمان : كارل Brockelmann : Carl.

«Geschichte der Arabischer Litteratur» 2 Vols. (Weimar, — ١١
1898—1902)

البغدادى : (+ ٤٢٩ هـ = ١٠٣٧ م) أبو منصور عبد القادر بن طاهر

١٢ — الفرق بين الفرق ، (القاهرة ١٣٢٨ هـ = ١٩١٠ م)

البلاذرى : (+ ٢٧٩ هـ = ٨٩٢ م) أحمد بن يحيى بن جابر

١٣ — فتوح البلدان ، (القاهرة ١٣١٨ هـ)

البلاخى : (+ ٣٢٢ هـ = ٩٣٣ — ٩٣٤ م) أبو زيد بن سهل

١٤ — كتاب البدء والتاريخ ، وينسب حقيقة إلى مطهر بن طاهر المقدسى ٦ أجزاء

(باريس ١٨٩٩ — ١٩٠٧)

دى بور : ت. ج. De Boer : T. G.

١٥ — تاريخ الفلسفة فى الإسلام ، نقله إلى العربية محمد عبد الهادى أبو ريذة

جزءان (القاهرة ١٣٥٧ هـ = ١٩٣٨ م)

البيرونى : (+ ٤٤٠ هـ = ١٠٤٨ م) أبو الريحان محمد بن أحمد .

١٦ — الآثار الباقية عن القرون الخالية ، (طبعة إدوارد سخا وليبنج ١٨٧٨ ، ١٨٧٩) .

تيمور : المغفور له أحمد باشا

١٧ — التصوير عند العرب ، : نشره وعلق عليه الدكتور زكى محمد حسن

(القاهرة ١٩٤٢)

١٨ — نظرة تاريخية فى حدوث المذاهب الأربعة وانتشارها ، (القاهرة ١٣٥١ هـ)

الجاحظ : (+ ٢٥٥ هـ = ٨٦٩ م) أبو عثمان عمرو بن بحر

١٩ — كتاب التاج فى أخلاق الملوك ،

حققه المرحوم أحمد زكى باشا (القاهرة ١٣٣٢ هـ = ١٩١٤ م)

٢٠ — كتاب البيان والتبيين ، أربعة أجزاء (القاهرة ١٩٢٨)

٢١ — «كتاب التبصر بالتجارة» (الطبعة الثانية القاهرة ١٣٥٤ هـ = ١٩٣٥ م)،
نشره وصححه وعلق عليه السيد حسن حسنى عبد الوهاب التونسى

جيبون : إدوارد Gibbon : Edward.

٢٢ — «The History of the Decline and Fall of the Roman Empire»
7 vols. ed. by. G. B. Bury.

جروهمان : أدولف Grohmann : Adolfe

٢٣ — أوراق البردى العربية بدارالكتب المصرية (القاهرة ١٩٣٥) الجزء الأول —
ترجمة الدكتور حسن ابراهيم حسن

الجهشياري : (+ ٢٣١ هـ) : أبو عبد الله محمد بن عبدوس

٢٤ — «كتاب الوزراء والكتاب» (القاهرة ١٩٣٨) حققه ونشره الأستاذ مصطفى
السقا و ابراهيم الإييارى ، وعبد الحفيظ شلي

دى جوبينو : De Gobineau

٢٥ — «Religion et Philosophie dans L' Asie Centrale (Paris, 1865)

جولدتسيهر : إجناس Goldziher : Ignaz

٢٦ — «المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن» ، ترجمة الدكتور على حسن عبد القادر
(القاهرة ١٣٦٣ هـ = ١٩٤٤ م)

٢٧ — «Vorlesungen über den Islams» (2nd ed., Heidelberg, 1919),
trans. into French by Félix Arin under the title «Le Dogme et
la Loi de l' Islam» (Paris, 1920).

ابن أبي الحديد : (+ ٤٠٤ هـ = ١٠١٣ م) : الشريف الرضى محمد بن أبى أحمد الحسينى
٢٨ — «كتاب نهج البلاغة» ، أربعة مجلدات (القاهرة ١٣٢٩ هـ)

حتى : فيليب ك. Hitti : Philip K.

٢٩ — «History of the Arabs» (London, 1940)

حسن ابراهيم حسن :

٣٠ — «الفاطميون في مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص» ، (المطبعة
الأميرية ببولاق ١٩٣٢)

٣١ — د السيادة العربية والشعبة والإسرائيليات في عهد بني أمية ، تأليف فان فلوتن Van Vloten — ترجمه وعلق عليه المؤلف بالاشتراك مع الشيخ محمد زكي إبراهيم (القاهرة ١٩٣٣) .

٣٢ — د أوراق البردى العربية بدار الكتب المصرية ، تأليف أدولف جروهمان ، ترجمه إلى العربية وعلق عليه المؤلف ، الجزء الأول (القاهرة ١٩٣٤) .

٣٣ — د تاريخ الإسلام السياسي ، الجزء الأول (القاهرة ١٩٣٥) .

٣٤ — د النظم الإسلامية ، بالاشتراك مع الدكتور على إبراهيم حسن (القاهرة ١٩٣٩)

٣٥ — د مصر الإسلامية من الفتح العربي إلى الفتح العثماني ، بحث مستخرج من د كتاب المجلد في التاريخ المصري ، (القاهرة ١٩٤٢ ص ١٢٧ — ٢٢٩) .

ابن حزم : (+ ٥٤٥٦ = ١٠٦٤ م) : أبو محمد علي بن أحمد

٣٦ — د الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ٣ أجزاء (القاهرة ١٣١٧ هـ)

ابن خرداذبة : أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله

٣٧ — د كتاب المسالك والممالك ، (طبعة دى غويه — لندن ١٨٨٩)

الخضرى : محمد

٣٨ — د تاريخ الدولة العباسية ، (القاهرة ١٩١٦)

الخطيب البغدادي (+ ٤٦٣ هـ) : الحافظ أبو بكر أحمد بن علي

٣٩ — د تاريخ بغداد أو مدينة السلام ، ١٤ جزءاً (القاهرة ١٣٤٩ هـ = ١٩٣١ م)

ابن خلدون : (+ ٨٠٨ هـ = ١٤٠٥ — ١٤٠٦ م) : عبد الرحمن بن محمد

٤٠ — د مقدمة ابن خلدون ، (بيروت ١٨٨٦)

٤١ — د العبر وديوان المبتدا والخبر ، ٧ أجزاء (القاهرة ١٢٨٤ هـ)

ابن خلكان (+ ٦٨١ هـ = ١٢٨١ م) : شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن أبي بكر الشافعي

٤٢ — د وفيات الأعيان ، جزءان (بولاقي ١٢٨٣ هـ) ، (المطبعة الميمنية بمصر ١٣١٠ هـ) ،

ترجمه إلى الانجليزية دى سلان De Slane (باريس ١٨٤٢ — ١٨٤٨)

الخياط : أبو الحسين عبد الرحيم بن محمد بن عثمان المعتزلي

٤٣ — د كتاب الانتصار والرد على ابن الراوندى الملحد ، مع مقدمة وتحقيق وتعليقات

للدكتور نيرج (القاهرة ١٣٤٤ هـ = ١٩٢٥ م).

حاجي خليفة (١٠٦٧ هـ = ١٦٥٧ م) : مصطفى كاتب شلبي

٤٤ — ، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، طبع النسخة العربية وترجمها

إلى الألمانية ج. فلوغل G. Flügel (ليبسك واندن ١٨٣٥ — ١٨٥٨)

دوزي : ر. ب. أ. Dozy : R. P. A.

٤٥ — «Histoire des Musulmans d'Espagne» (Leyden, 1861), trans.

into English by F. G. Stokes «The Moslems in Spain»
(London, 1931).

٤٦ — «Dictionnaire des Noms des Vêtements chez les Arabes»
(Amsterdam, 1845)

٤٧ — «Supplément au Dictionnaires Arabes», 2 vols. (Leyden, 1801)

الدينوري : (٢٨٢ هـ = ٨٩٥ م) : أحمد بن داود أبو حنيفة

٤٨ — ، الأخبار الطوال ، جزءان (لیدن ١٨٨٨)

زكي محمد حسن :

٤٩ — ، الفن الإسلامي في مصر ، الجزء الأول (القاهرة ١٩٣٥)

٥٠ — ، كنوز الفاطميين ، (القاهرة ١٩٣٧)

٥١ — ، الفنون الإسلامية في العصر الإسلامي ، (القاهرة ١٩٤٠)

زيدان : جرجي

٥٢ — ، تاريخ التمدن الإسلامي ، خمسة أجزاء (القاهرة ١٩٠٢ — ١٩٠٦)

لي سترينج : جاي Le Strange : Guy.

٥٣ — «Baghdad During the Abbasid Caliphate» (Oxford, 1924).

السيوطي (٩١١ هـ = ١٦٠٥ م) : عبد الرحمن بن أبي بكر جمال الدين

٥٤ — ، تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة ، (القاهرة ١٣٥١ هـ)

الشابشتي (٣٨٨ هـ = ٩٩٨ م) : أبو الحسن علي بن محمد

٥٥ — ، كتاب الديارات ، مخطوط (Berlin, We. 1100)

الشهرستاني (٥٤٨ هـ = ١١٥٣ م) : أبو الفتح محمد بن عبد الكريم

٥٦ - د الملل والنحل ، ٥ أجزاء (القاهرة ١٣١٧ هـ) .

ابن طباطبغا : محمد بن علي بن طباطبغا المعروف بابن الطقطقي

٥٧ - د الفخرى في الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، (القاهرة ١٩٢٣)

الطبري : (+ ٥٣١٠ = ٩٢٢ م) : أبو جعفر محمد بن جرير

٥٨ - د تاريخ الأمم والملوك (طبعة دى غوبه - ليدن ١٨٨١ م) ، (القاهرة ١٣٢٦ هـ)

طه حسين بك :

٥٩ - د حديث الأربعاء ، (القاهرة ١٩٢٥)

الطوسي : (+ ٥٤٦٠ = ١٠٦٧ - ١٠٦٨ م) : محمد بن الحسن

٦٠ - د فهرست كتب الشيعة ، (كلكتا ١٨٥٥ م)

ابن عبد ربه : (+ ٥٣٤٩ = ٩٤٠ م) : شهاب الدين أحمد

٦١ - د العقد الفريد ، ٣ أجزاء (القاهرة ١٣٤٦ هـ = ١٩٢٨ م)

الغزالي : (+ ٥٠٥ هـ = ١١١١ م) : الإمام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد

٦٢ - د المنقذ من الضلال ، (دمشق ١٣٥٣ هـ = ١٩٣٤ م)

٦٣ - د فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة ، (القاهرة ١٣١٩ هـ = ١٩٠١ م)

فان فلوتن : ج . Van Vloten . J.

٦٤ - «Recherches sur la Domination arabe, le Chiitisme et les croyances Messianiques sous le Khilafat des Omayyades» (Amsterdam, 1894)

ترجمه إلى العربية وعلق عليه الدكتور حسن إبراهيم حسن ، والشيخ محمد زكي

إبراهيم (القاهرة ١٩٣٤)

أبو الفدا : (+ ٧٣٢ هـ = ١٣٣١ م) : إسماعيل بن علي عماد الدين صاحب حمه

٦٥ - د المختصر في أخبار البشر ، ٤ أجزاء (القسطنطينية ١٢٨٦ هـ) ، (القاهرة ١٣١٥ هـ)

فنلي : جورج Finlay : George

٦٦ - «History of the Byzantine Empire (716 — 1507 A. D.)» (London, 1856)

ابن قتيبة : (+ ٢٧٦ هـ = ٨٨٩ م) : أبو محمد عبد الله بن مسلم

- ٦٧ — «المعارف» (١٣٥٣ = ١٩٣٤ م)
- ٦٨ — «عيون الأخبار» أربعة أجزاء (القاهرة ١٣٤٣ — ١٣٤٨ هـ)
- قدامة : (+ ٣٣٧ هـ) . أبو الفرج بن جعفر الكاتب البغدادي
- ٦٩ — «كتاب الخراج» (طبعة دي غوية — لندن ١٨٨٩)
- القفطى : (+ ٥٦٤٦ = ١٢٤٨ م) : جمال الدين على بن يوسف بن إبراهيم بن عبد الوهاب
- ٧٠ — «إخبار العلماء بأخبار الحكماء» (ليبسك ١٣٢٢ هـ = ١٩٠٣)
- القلقشندى : (+ ٨٢١ هـ = ١٤١٨ م) : أبو العباس أحمد
- ٧١ — «صبح الأعشى في صناعة الإنشاء» ٢٤ جزءاً (القاهرة ١٩١٣ — ١٩١٧)
- كريزول : ك. أ. ك. Creswell : K. A. C.
- ٧٢ — «Early Muslim Architecture» 2 vols. (Oxford, 1930 and 1938.)
- كريم : ألفرد فون Kremer : Alfred Von.
- ٨٣ — «Culturgesichte des Orients unter den Chalifen» 2 vols. (Vienna, — 1875),
- trans. by S. Khuda Bukhsh «The Orient under the Caliphs», (Calcutta, 1920).
- الكندي : (+ ٥٣٥٠ = ٩٦١ م) : أبو عمر محمد بن يوسف
- ٧٤ — «كتاب الولاية وكتاب القضاة» (طبعة روفن جست Rhuvon Guest,
- E. G. W. Gibb Memorial Series, (London, 1917)
- لينبول : ستانلي Lane - Poole : Stanley.
- ٧٥ — «The Muhammadan Dynasties» (Paris, 1925)
- ٧٦ — «The Moors in Spain» (London, 1887)
- ٧٧ — «A History of Egypt in the Middle Ages» (Lond., 1924)
- المالوري : (+ ٤٥٠ = ١٠٥٧ م) : أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البغدادي البصري
- ٧٨ — الأحكام السلطانية ، (القاهرة ١٢٩٨ هـ)
- متر : آدم Mez : Adam.
- ٧٩ — «The Renaissance of Islam», trans. into English by S. Khuda Bukhsh and D. S. Margoliouth (London, 1930).

الدور : جميل نخلة

٨٠ - حضارة الإسلام في دار السلام ، (القاهرة ١٣٥١ هـ = ١٩٣٢ م)

ابن المرتضى : (+ ٣٢٥ هـ = ٩٣٦ - ٩٣٧ م) : المهدي لدين الله أحمد بن يحيى

٨١ - باب ذكر المعتزلة ، من كتاب المنية والأمل (طبعة الهند)

المسعودي : (+ ٣٤٦ هـ = ٩٥٦ م) : أبو الحسن علي بن الحسين بن علي

٨٢ - كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر ، جزءان (القاهرة ١٣٤٦) . وترجمه

إلى الفرنسية باربييه دي مينسار Barbier de Meynard

(Paris ١٨٧١ - ١٨٧٧) «Prairies d' Or»

٨٣ - كتاب التنبية والإشراف ، (طبعة دي غوييه - لندن ١٨٩٣)

المقدسي : (+ ٣٨٧ هـ = ٩٩٧ م) شمس الدين أبو عبد الله محمد

٨٤ - أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، طبعة دي غوييه (لندن ١٩٠٦)

المقري : (+ ١٠٤١ هـ = ١٦٣٣ م) : أحمد بن محمد

٨٥ - نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب ، أربعة أجزاء (بولاق ١٢٧٩ هـ = ١٨٦٢ م)

المقريزي : (+ ٨٤٥ هـ = ١٤٤١ م) : تقي الدين أحمد بن علي

٨٦ - المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار ، جزءان (القاهرة ١٢٧٠ هـ)

ميور : وليام تيمبل Muir : William Temple

٨٧ - «The Caliphate, Its Rise, Decline, and Fall (Edinburgh, 1924). -

نظام الملك : (+ ٤٨٥ هـ = ١٠٩٢ م) :

٨٨ - كتاب سياسة نامه ، Siasset Naméh, Traité de Gouvernement,

composé pour Le Sultan Melik - Châh par Le Nizam oul - moulk.

«Texte Persan (ed. by Charles Schefer) 3 vols, (Paris 1891-1897)

ابن النديم : (+ ٣٨٣ هـ = ٩٩٣ م) : محمد بن إسحق

٨٩ - كتاب الفهرست ، جزءان (لايبسك ١٨٧١ م) ، (القاهرة ١٣٤٨ هـ)

النسيبي

٩٠ - كتاب مطالب السؤل في غزوات الرسول ، مكتبة الجامعة بليدن ،

مخطوط رقم ١٩٧٩ .

ابن النعمان : محمد

٩١ — «كتاب الإرشاد» مكتبة الجامعة بليدن ، مخطوط رقم ١٦٤٧ .

النوبختي : (+ ٢٠٢ هـ = ٨١٧ م) أبو محمد الحسن بن موسى

٩٢ — «كتاب فرق الشيعة» (استامبول ١٩٣١)

نيكلسون : أ. ريثولد Nicholson : A. Reynold

٩٣ — «Literary History of the Arabs» (Cambridge, 1930)

هيد : و. Heyd

٩٤ — «Histoire du Commerce du Levant au Moyen — âge» 2 vols. (Leipzig, 1925)

هل : يوسف Hell : Joseph.

٩٥ — «The Arab Civilisation», trans. from German by S. Khuda Bukhsh (Cambridge, 1926)

وستنفلد : ف. فون Wüstenfeld: F. Von.

٩٦ — «Die Geschichtschreiber der Araber und ihre Werke» (Göttingen, 1882)

ياقوت : (+ ٦٢٦ هـ = ١٢٢٩ م) : شهاب الدين أبو عبد الله الحموي الرومي

٩٧ — «معجم البلدان» ١٠ أجزاء (القاهرة ١٣٢٥ هـ = ١٩٠٧ م)

اليعقوبي : (٢٨٢ هـ = ٨٩٥ م) : أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح

٩٨ — «تاريخ اليعقوبي» ، جزءان (طبعة M. Th. Houtsma ، ليدن ١٨٨٣)

٩٩ — «كتاب البلدان» (طبعة دي غوية — ليدن ١٨٩٢)

أبو يوسف : (+ ١٩٢ هـ = ٨٠٧ — ٨٠٨ م) : يعقوب بن إبراهيم

١٠٠ — «كتاب الخراج» ، (بولاق ١٣٠٢ هـ) و (المطبعة السلفية بمصر ١٣٤٦ هـ) .

فهارس الكتاب

١ - الأعلام

إبراهيم بن مخزومة الكندي — أحد رجال
الدولة في عهد السفاح : ٢٤

إبراهيم بن المهدي — بويغ بالخلافة أيام
المسامون : ٦٣، ٦٤، ٦٦، ٦٧، ١٣٤،
١٥٣، ١٥٧، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٩،
١٩٠، ٣٠٠، ٣٠١، ٣٠٢

إبراهيم الموصلي — مغني الرشيد : ٥٦،
٢٩٤ — ٢٩٥، ٢٩٧، ٢٩٨، ٢٩٩،
٣٠٠

إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك : ١٧، ٨٧،
أبقراط الطيب : ٢٥٧، ٢٦٣

الأبلق — أحد المتشيعين للراوندية : ٩٤
أبي بن كعب — أحد القراء المعترف بهم : ٢٤٢
أبي أنى ليلي — القاضي : ١٤٦، ٢٢٢
الأحفش — أحد أئمة النحو — ١٤٦

أحمد بن أبي خالد — أحد رجال الدولة في
عهد المأمون : ٦٤، ٦٧، ٢٠٠، ٢٨٦
أحمد بن إسرائيل — أحد رجال الدولة في
عهد الواثق : ٧٦

أحمد بن حنبل — الامام : ٦٣، ٧٠، ١٤٤،
١٤٥، ٢٤٦، ٢٤٧

أحمد بن الحصب — أحد رجال الدولة في
عهد الواثق : ٧٦

أحمد بن شاعر — المنجم : ٢٥٧
أحمد بن طولون — مؤسس الدولة الطولونية
في مصر ، ١٧٢، ٢٨٠

أحمد بن المدبر : ٢٠١

(١) أسماء الرجال :

(١)

أبان بن عبد الحميد اللاحقي الشاعر : ١٥٨
أبان بن عثمان — أحد أصحاب القرام : ٢٤٢
إبراهيم بن الأغلب — مؤسس دولة الأغلبية
بشمال إفريقيا : ٤٧، ١٢٨، ١٧٦،
١٧٧، ١٧٨، ١٧٩، ١٨٠، ٢٠٤

إبراهيم الإمام — أنظر إبراهيم بن محمد بن
علي العباسي

إبراهيم بن الحصب — أحد رجال الدولة في
عهد الواثق : ٧٦

إبراهيم بن دكوان الحراني — وزير الهادي :
١٩٨

إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم :
١٢٠

إبراهيم بن شكله : أنظر إبراهيم بن المهدي
إبراهيم بن عبد الله بن الحسن العلوي : ٢٧،

٨٧، ٨٨، ١١٠، ١١٢، ١١٣، ١١٤،
١١٥، ١١٦، ١٢١، ١٢٣، ١٢٤،

١٢٥، ١٣٠، ١٣٣، ١٣٧، ١٣٨،
١٤٢، ١٤٥، ١٤٨، ١٨٥، ٢٩٠

إبراهيم بن محمد بن عبد الوهاب بن إبراهيم
الإمام : ٦٣، ١١١

إبراهيم بن محمد بن علي العباسي : ١٥، ١٦،
١٧، ١٨، ١٩، ٧٨، ٧٩، ٨٥، ٩١،
٩٤، ٩٥، ١٤٨

أشيدربامى أو أشيدردما — أحد أعقاب
زرادشت: ٩٢

الإصهبذ — لقب يطلق على والى طبرستان:
١٠٠، ٣٨

الأصمعى الشاعر: ١٥٠، ١٤٦، ١٠٧، ٥٥، ٣٢٤، ٢٥١

الأغلب بن سالم التميمى — والى إفريقية من
قبل المنصور: ١٧٧

أفريدون: ٣١٧
الأفشين القائد التركى: ٩٧، ٧٣، ٧١، ٦٦

٩٨، ١٠٠، ١٠١، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٩، ١٧٣، ١٧٤، ١٩١، ٢٩١

أقليدس: ٢٥٧
إكرركيس — ملك الفرس: ١٩٤

أمرى القيس الشاعر: ٢٥٢
الأمين: ٥١، ٥٤، ٥٧، ٥٨، ٥٩، ٦٠

٦١، ٦٢، ٦٥، ١٥٢، ١٥٧، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٠، ١٦١، ١٦٢، ١٦٣

١٦٤، ١٧١، ١٨٩، ١٩٥، ٢٠٠، ٢٠٢، ٢٥١، ٢٧٥، ٢٩١، ٣٠١

٣٠٢، ٣٠٤، ٣٢١
الأوزاعى — أحد الذين رأوا وجوب طاعة

السلطان فيالميس بمعصية: ١٤٦
إيتاخ — أحد قواد الأتراك: ٧٢، ٢٠٢

أبو أيوب المورىانى — أحد رجال المنصور:
١١٩، ١٩٦

أيوب النبى: ١٩٣

(ب)

بابك الخرمى — زعيم الخرمية: ٧٢، ٧٣، ٩٤، ٩٦، ٩٧، ٩٨، ٩٩، ١٠٠

١٠١، ١٠٤، ١٨٩، ١٩٠، ٢٩١
أبو بجيلة الشاعر: ٢٤

أحمد بن نصر — مناوئته للبأمون فى مسألة
خلق القرآن: ٧٤، ٧٥، ١٤٤

أحمد بن يحيى بن المرتضى — من أئمة الزيدية
الذين يميلون إلى مذهب المعتزلة: ٢٥٠

أحمد بن يوسف الوزير: ٢٠١، ٢٠٠، ٦٧، ٢٩٤

الاحنف الشاعر: ٢٥٢

إدريس بن عبيد الله العلوى — أخو محمد
النفى الزكية: ١٢٣، ١٢٧، ١٢٨، ٢٩٠، ١٣٨، ١٣٠

إدريس بن إدريس بن عبد الله العلوى —
١٨٠، ١٧٩، ١٢٨

إدريس بن معقل العجلي — اتهامه بالدعوة
للعباسيين: ١٥، ١٦

أردشير بن بابك — أحد ملوك الفرس:
٢٩٣ — ٢٩٤

أرسطو: ٢٥٨

أسامة بن زيد — قائد الجيش الذى أرسله
النبي قبل وفاته لغزو أطراف الشام: ١٧٥

إسحاق بن إبراهيم بن مصعب — أحد رجال
الدولة فى عهد المعتصم: ١٠٢، ١٠٣

١٠٤، ١٤٣
إسحاق بن إبراهيم الموصلى المغنى: ٥٦، ٥٩

٢٩٧، ٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٣، ٣٠٤، ٣٠٥

إسحاق بن جعفر الصادق: ١٢٨

الاسكندر الأكبر المقدونى: ٧٧، ٢٥٦

إسماعيل بن جعفر الصادق: ١٢٨، ١٣٩

إسماعيل بن محمد الشاعر — أنظر الحميرى
الشاعر العلوى.
أشناس التركى: ٧١، ٧٣، ٧٥، ١٣٠، ١٧٣، ١٧٤، ١٩١، ٢٢٩، ٢٨٥

بيدبا — الفيلسوف : ٢٥٥

(ت)

أبو تراب — أحد الدعاة : ٩١

الترمذى — أبو عيسى محمد صاحب الجامع : ٢٤٦

أبو تمام الشاعر : ٧٧ ، ١٠١ ، ١٩١ ، ٢٥٣ ، ٢٥٥

توماس الصقلي الثائر — شجعه المأمون في

ثورته ضد ثيوفيلس امبراطور الروم

باسميا الصغرى : ١٨٩

ثيوفيلس — امبراطور الروم : ١٨٩ ، ١٩٠ ، ٢٠٩

(ث)

ثابت بن قرة — المترجم : ٢٥٨

الثعالبي الشاعر : ٢٥٢ ، ٢٥٣

ثمامة بن الوليد — قائد جيش الصائفة في عهد

المهدى العباسي : ١٨٥

ابن ثوبان — صاحب المظالم : ٣٣

أبو ثور من الفقهاء الذين درسوا على الامام

الشافعي : ١٤٦ ، ٢٤٧

(ج)

الجاحظ : ١٠٥ ، ٢٥٠ ، ٢٥٦

جالينوس الطبيب : ٢٥٧

جاويدان — أحد رؤساء الخرمية : ٩٧ ، ٩٩

جديع بن شبيب : انظر الكرماني

ابن جرو الاسدي — من مفسري القرآن : ٢٤٤

ابن جريج — من مفسري القرآن : ٢٤٢ ، ٢٤٣

جيرير بن حازم الأزدي البني أحد رجال

المعتزلة : ١١٠

البحترى الشاعر : ٢٥٣

البخارى : ٢٤١ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦

بختنصر : ٢٧٣

بختيشوع الطبيب : ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥٤

٢٦٢ ، ٣١٠

بدر — غلام عبد الرحمن الداخل بن هشام :

١٨١

برصوما الزامر : ٥٦ ، ٢٩٥

برمك — جد البرامكة : ٤٩ ، ٥٠

بشار بن برد الشاعر : ١٠٩

ابن البطريق — من رجال المأمون : ٢٥٧

بغسا الكبير — أحد قواد الأتراك : ٧٤ ، ١٠٤ ، ١٣٠ ، ١٩١

أبو بكر الأصم — من مفسري المعتزلة : ٢٤٤

أبو بكر الرازي — من مفسري القرآن :

٢٤٥

أبو بكر الصديق : ١ ، ٩٠٧ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣٢ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٤٦ ، ١٥٩ ، ١٧٠ ، ١٧٥ ، ١٩٤

أبو بكر محمد بن زكريا الرازي — الطبيب :

٢٢٩

أبو بكر الهذلي — أحد رجال الدولة في عهد

الصفاح : ٢٤

أبو بكرة — أخو زياد بن أبيه : ٣٩

بكير بن ماهان — داعي العباسيين : ١٥ ، ١٦ ، ٨٥ ، ١٤٨

البلخي — جعفر بن عمر المنجم : ٢٦٢

بطلول بن عبيد الواحد — القيم على بلاد

المغرب من قبل الادارسة : ١٨٠

بومادة — أحد قواد الأفشين : ٩٨

البويطى — من الفقهاء الذين درسوا على

الإمام الشافعي : ٢٤٧

بيدين — ملك الفرنجة : ١٨٢

الحارث — المنجم : ٢٦١
الحارث بن عبدالله الجعدي الشاعر الأموي :

١٠

حبيش بن الحسن المترجم : ٢٥٨
الحجاج بن أرتاه — عالم الهندسة : ٢٦١ ،

٢٧٤

الحجاج بن مطر — من رجال المأمون : ٢٥٧
الحجاج بن يوسف التيمي — أحد شعراء

الرشيدي : ١٨٨

الحجاج بن يوسف الثقفي : ٢٧٧ ، ٢٠٢ ، ٨

حسان بن ثابت الشاعر : ٢٥٩

أبو الحسن الأحمر الشاعر : ٥٩

أبو الحسن الأشعري — الذي انتصر على

المعتزلة : ١٤٥ ، ٢٤٨

الحسن بن سهل الوزير : ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ،

٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ١٥٧ ، ١٦٦ ، ١٦٩ ،

١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٤٢ ، ٢٦١ ،

٢٦٢ ، ٣٢١

الحسن بن شاكر — المترجم : ٢٥٧

الحسن بن علي بن أبي طالب : ٧ ، ٨٤ ، ١١٠ ،

١١١ ، ١١٩ ، ١٢١ ، ١٢٦ ، ١٢٩ ،

١٣١ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٢ ،

الحسن بن محمد النفس الزكية : ١٢٣ ، ١٢٦ ،

الحسين بن الضحاك الشاعر : ٦٠ ، ٢٨٧ ،

الحسن بن وهب — السكاتب : ٢٠١

الحسين بن علي بن أبي طالب : ٢ ، ١١ ،

١٤ ، ٧٩ ، ٨٥ ، ٨٧ ، ١١١ ، ١١٢ ،

١١٩ ، ١٢١ ، ١٢٦ ، ١٣٠ ، ١٣١ ،

١٣٩ ، ١٤٢ ، ١٦٧ ،

الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن الحسن

ابن علي بن أبي طالب — قتيل فخ :

١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٣٠ ، ١٧٩ ،

٢٩٠

جرير الشاعر : ٢٥٢

جستنيان — امبراطور الروم : ٢٥٦

الجعد بن درهم الزنديق : ١٠٥

جعفر بن حنظلة — أحد رجال أبي جعفر

المنصور : ٩١

جعفر الصادق بن محمد الباقر : ٣٥ ، ٨٥ ،

١١٢ ، ١٢٨ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٩ ،

١٤٨

أبو جعفر عمر بن حفص بن قبيصة — والي

إفريقية من قبل المنصور : ١٧٧ ، ١٧٨ ،

جابر بن حيان — عالم الكيمياء : ٢٦١

ابن جامع المغني — اسماعيل أبو القاسم :

٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٣٠٠

جعفر الكردى — أحد ثوار الأكراد

بالموصل : ٧٢

جعفر بن المنصور : ٥٨

أبو جعفر المنصور — انظر المنصور

جعفر بن الهادي : ٤٢ ، ٤٣ ، ١٩٥ ،

جعفر بن يحيى البرمكي : ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ،

٥٤ ، ٨٦ ، ١٢٧ ، ١٤٩ ، ١٥١ ، ١٥٢ ،

١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٦ ، ١٩٦ ، ١٩٩ ،

٣٠٠ ، ٣٠٧ ، ٣٢٣ ،

الجلودي — رسول المأمون إلى المدينة لنقل

علي الرضا إلى مرو بخراسان : ١٦٥

ابن جني — الحسن بن صالح أحد الزيدية : ٦

ابن الجنيد — من الفقهاء الذين درسوا على

الشافعي : ٢٤٧

أبو الجهم — وزير المنصور : ١٩٦

(ح)

أبو حاتم — أحد الثوار بشمال إفريقية :

١٧٧

الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان القائد :

٥٩

حفص بن سليمان : أنظر أبو سلمة الخلال
حماد بن أبي سليمان الأشعري — أستاذ
أبي حنيفة : ٢٤٦

حمزة بن حبيب — أحد مشاهير القراء : ٢٤٢

حمزة — عم النبي : ١٢١

أبو حمزة الخارجي — زعيم الخوارج في
الحجاز وحضر موت : ٤

أبو حميد المروزي — رسول أبي جعفر
إلى أبي مسلم : ٨٩ ، ٩٠

الحيري — السيد شاعر علوي من شعراء

العصر العباسي الأول : ١٣١ ، ١٣٢ ،

١٣٣ ، ١٣٥ ، ٢٥٤

الإمام أبو حنيفة النعمان : ١١٦ ، ١٢٤ ،

١٤٥ ، ١٤٦ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٤٣ ،

٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٧٤

حنين بن اسحق الطيب : ٧٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ،

٢٦٢ ، ٢٦٣

حنين بن عبد الله — أحد أتباع محمد النفس

الزكية : ١٢٢

(خ)

خازم بن خزيمة — قائد المهدي : ٣٨

خاش — أخو الأنشين : ١٠٣

خالد بن برمك — الوزير : ٢٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ،

١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٩ ، ٢٨٠

خالد بن صفوان — أحد رجال السفاح :

٢٥ ، ٢٦

خالد بن يحيى بن معاذ — أحد رجال المأمون :

٦٤

خالد بن يزيد بن مزيد — أحد رجال المأمون

٦٤

خزيمة بن الحسن الشاعر : ٦١

أبو الخطار — والي الأندلس : ١٨٠

خلف بن هشام المقرئ : ٢٤٢ ، ٢٤٤

الخليل — أحد أئمة اللغة : ١٤٦ ، ٢٥١

الخطاط المعتزلي : ١٤٢ ، ٢٥٠

(د)

ابن دأب — من خواص الهادي : ٨١

أبو داود السجستاني صاحب السنن : ٢٤٦

داود بن علي العباسي : ٢٠ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٨١ ،

٨٣ ، ٨٤

داود بن ماسجود — أحد قواد المأمون : ٦٥

دعبل الخزاعي الشاعر العلوي : ١٣١ ، ١٣٣ ،

١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٦٦

أبو دلف — أحد الثائرين على المأمون : ٦٨

دوجانس — الحكيم اليوناني : ٧٧

ابن أبي دؤاد — قاضي القضاة : ٧٤ ، ١٠٢ ،

١٠٤ ، ١٤٤ ، ١٩٩ ، ٢٢٢

أبو دلامة الشاعر : ٣٨ ، ٣٢٤

(ر)

رافع بن ليث بن نصر بن سيار — أحد

الخارجين على الرشيد : ٤٨ ، ٤٩

ابن رباح : إبراهيم : ٧٦

الحسن بن إبراهيم — أحد رجال الدولة في

عهد الواثق : ٧٦

الربيع بن يونس مولى المنصور : ٣٢ ، ٣٣ ،

٣٦ ، ٣٧ ، ١٠٦ ، ١٨٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ،

٢٢٨ ، ٢٨٣

رجاء بن أيوب الحضاري — قائد المعتصم :

٧٢ ، ٧٤

ابن الرومي الشاعر : ٢٥٣
رياح بن عثمان المري — والى المدينة في عهد
المنصور : ١١٣ ، ١١٤

(ز)

الزبير بن العوام : ١١٧ ، ١٢٠ ، ١٢٨
الزجاج — أحد أصحاب صناعة النجوم :
٢٤٠

زرادشت — أحد الأنبياء المجوس : ٩٢ ،
١٠٦

زرزر — المغني : ٣٠٢ — ٣٠٣
أبو زكار — مغني جعفر البرمكي : ١٥٤
زلزل المغني : ٥٦ ، ٢٩٤

زهير بن المسيب — أحد قواد المأمون العباسي :
١٦١ ، ١٦٢

زياد بن أبيه : ٣٩ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣
زياد بن عبيد الله عامل المنصور على المدينة :
١١٣

زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب :
١٣ ، ٧٩ ، ٨٤ ، ١١٠ ، ١٤٢

(س)

سابق بن هرمز — أحد ملوك الفرس : ٢٣
سالم — مولى أبي حذيفة : ٦
ابن سبأ — ناشر مذهب الوصاية القائل بأن
عليًا وصي محمد : ١

السدی — من مفسري القرآن : ٢٤٣
أبو السرايا — أحد الثوار بالكوفة في عهد
المأمون : ٦٦ ، ١٢٩

ابن سريج — الحارث — ثورته على
الأمويين في بلاد ما وراء النهر : ٥ ، ٦ ،
١٤ ، ٢٤٧

السفاح — أبو العباس : ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ،

رزّام — زعيم مذهب الزامية وكانوا كيسانية
في الأصل : ٩٥

الرسول صلى الله عليه وسلم : ١ ، ٢ ، ٣ ، ٦ ،
٧ ، ٩ ، ١١ ، ١٣ ، ١٤ ، ٢٠ ، ٢١ ،
٢٢ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٦٤ ، ٧٤ ،
٧٨ ، ٧٩ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٩٠ ، ١١٠ ،
١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ،
١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٣٧ ،
١٣٨ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٥١ ،
١٥٩ ، ١٧٥ ، ١٨٠ ، ١٩١ ، ١٩٤ ،
٢٤٠ ، ٢٤٣ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٩ ،
٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦٥ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ،
٢٩٠ ، ٣٢٠

الرشيد : ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ،
٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ،
٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ،
٦٧ ، ٦٩ ، ٧٥ ، ٨٣ ، ٨٦ ، ١٠٧ ،
١٠٩ ، ١٢٧ ، ١٣٠ ، ١٣٣ ، ١٣٦ ،
١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٧ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ،
١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ،
١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ،
١٦٤ ، ١٧٠ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ،
١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٩ ،
١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٩ ،
٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٤ ، ٢١١ ،
٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥ ،
٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ،
٢٤٨ ، ٢٥١ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠ ،
٢٦٦ ، ٢٧٥ ، ٢٨٢ ، ٢٨٥ ، ٢٩٠ ،
٢٩٤ — ٣٠٠ ، ٣٠٢ ، ٣٠٤ ، ٣٠٧ ،
٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١٣ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ،
٣٢٢

الرقاشي الشاعر : ١٥٤

سليمان بن المنصور : ٣٠١

سليمان بن هشام بن عبد الملك الأموي : ٨٠، ١٠

سليمان بن يزيد بن عبد الملك الأموي : ٨٧

سليمان بن يقظان — والى برشلونة من قبل

عبد الرحمن الداخل : ١٨٣

سنياذ — أحد الخارجين على المنصور للطلب

بشار أبي مسلم الخراساني : ٩٢، ١٠٤

السندی بن شاهك — من رجال الأمين :

١٦٣

سهل بن سنباط — الذي قبض على بابك

الخرمي وسلبه للافشين : ٩٧، ٩٨

أبو سويد — رسول المنصور مع سفيان بن

زيد إلى ابراهيم بن عبد الله العلوي :

١١٦

سيبويه — أحد أئمة النحو : ١٤٦، ٢٤٠،

٢٥١

ابن سينا الطبيب : ٢٥١

(ش)

شارل مارتل — ملك الفرنجة : ١٨٣

الإمام الشافعي : ١٤٦، ٢٢١، ٢٤٥، ٢٤٧

شبيب — قاتل أبي مسلم الخراساني : ٩١

شرلمان : ٤٦، ١٨٣، ١٨٤

أبو الشغلي الشاعر : ٥٥

الشاخ اليماني — مولى المهدي : ١٧٩

ابن شهاب الزهري : أحد علماء الحديث

٢٤٧

شهاب بن كثير — عالم الحساب : ٢٦١

الثوري — أحد الذين رأوا تحريم المتعة

ووجوب طاعة السلطان فيما ليس بمعصية :

١٤٦

أبو الشيص الشاعر : ٥٨

٢٠، ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٣٥،

٤٩، ٥٠، ٧٨، ٨٠، ٨١، ٨٦، ٨٧،

٨٨، ٨٩، ٩٠، ٩١، ٩٥، ١١١،

١١٢، ١١٤، ١٣٣، ١٣٧، ١٤٨،

١٤٩، ١٥٧، ١٩٥، ١٩٧، ٢٠٤،

٢٢٢، ٢٦٧، ٢٦٩، ٢٨٥، ٢٨٧،

٢٩٣

أبو سفيان : ١١

معاوية بن — ٥، ٧، ٨، ٩، ١٢، ٨١،

٨٢، ٨٤، ١٢١، ١٣٨، ١٨٢، ١٨٤،

١٩١، ٢٠٢، ٢٦٥، ٢٦٨، ٣٢٠،

سفيان بن يزيد — أحد أشياع ابراهيم بن

عبد الله العلوي : ١١٦

السفياني : أنظر على بن عبد الله بن خالد

سلم بن عمرو الحاسر الشاعر : ١٥٩

سلم بن قتيبة — والى الرى في عهد المنصور :

١١٧

سلبه بن خالد — قائد بني تغلب : ٢٠

أبو سلمة الخلال — وزير آل محمد وأحد

مؤسسى الدولة العباسية : ١٣، ١٧، ٢٣،

٢٦، ٢٧، ٥٠، ٨٥، ٨٦، ١٢٤،

١٤٧، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٧،

سليط بن عبد الله بن العباس — الذى ادعى

أبو مسلم انتسابه إليه : ١٥، ٩١،

سليمان بن جعفر — من رجال الأمين : ١٦٣

سليمان بن داود النسي : ٢٧٧، ٣١٦، ٣١٧،

سليمان بن عبد الرحمن الداخل الأموي : ١٨١

سليمان بن عبد الملك الأموي : ٨، ١١،

٨١، ١٨٤،

سليمان بن علي العباسي : ٨٨

سليمان بن كثير — أحد الدعاة العباسيين ومن

مؤسسى الدولة العباسية : ١٥، ١٦، ٢٧،

٩١، ٩٣،

عاصم بن يونس المجلى — اتهامه بالدعوة للعباسيين : ١٥

عامر بن اسماعيل : قاتل مروان بن محمد :

٧٩ ، ٧٨

ابن عائشة : أنظر إبراهيم بن محمد بن

عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام

ابن عباس — أحد علماء القراءات ورواة

الحديث : ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤

العباس — عم النبي : ١١ ، ١٣ ، ١٧ ،

٢٠ ، ٨٠ ، ٨٢ ، ١٢١ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ،

١٦٦ ، ٢٩٠

أبو العباس السفاح : أنظر السفاح

العباس بن المأمون : ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ١٧٣

العباس بن محمد العباسي : الذي أخذ البيعة

للمهدي في مكة ونديم الرشيد وعم أبيه :

٣٧ ، ٥٦ ، ١٠٧ ، ٢٢٨ ، ٣٢٣

عباس بن الوليد الشاعر : ٨

أبو عباد بن يحيى — من كبار رجال الدولة

في عهد المأمون : ٦٧

أبو العتاهية الشاعر : ٤١ ، ٥٥ ، ١٨٨ ، ٢٥٣ ،

٢٥٥

عبد الجبار بن يزيد بن عبد الملك : ٧٨

عبد الحميد الكاتب : ٢٥٥

عبد السلام بن هشام اليشكري — أحد الثوار

في الجزيرة في عهد المهدي : ٤٠

عبد الصمد بن شبيب بن شبة — أحد رجال

محمد بن سليمان وإلى البصرة : ٢٦٧

عبد الصمد بن علي العباسي — وإلى الحجاز

في عهد السفاح : ٨١

عبد الصمد بن عبد الأعلى — مربى الوليد

ابن يزيد بن عبد الملك : ١٠٥

عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك : ٨ ، ٢٥

عبد العزيز بن مروان : ٨

(ص)

صالح بن عبد القدوس الزنديق : ١٠٧ ،

١٠٩ ، ٢٥٠

صالح بن علي العباسي : ١٨ ، ٧٩ ، ١٨٥

صالح بن المنصور — كانت له قطعة باسمه

في بغداد : ٢٢٨

الصدىق — أنظر أبو بكر الصديق

صقر قريش — أنظر عبد الرحمن الداخل

الأموي

الصميل بن حاتم — الثائر الأندلسي : ١٨٠

(ض)

الضحاك بن قيس — زعيم الخوارج في بلاد

العراق : ٤ ، ٩

(ط)

طارق بن زياد : ١٧٥

أبو طالب : ١٢١

طاهر بن الحسين — قائد المأمون : ٦٥ ،

٦٧ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ،

١٦٦ ، ١٧٤ ، ٢٠٠

طاهر بن المظفر بن طاهر الخازن — الشاعر :

٢٨٥

الطبري — محمد بن جرير من مفسري القرآن :

٢٤٣ ، ٢٤٤

طلحة — أحد صحابة الرسول : ١ ، ١٢٠ ،

طولون — أبو احمد بن طولون : ١٧٢

أبو الطيب المتنبي : أنظر المتنبي

(ع)

عاصم السدراي الإباضي — أحد زعماء

الإباضية بشمال إفريقيا : ١٧٧

عبد الله بن يحيى الخارجي — الشاعر بيلادالين
في العصر الأموي ولقب بطالب الحق : ٣

أبو عبيد — أحد أئمة اللغة : ١٤٦

عبيد الله بن زياد والى العراق : ٢ ، ٤ ، ٧٩
أبو عبيد معاوية بن يسار — وزير المهدي :

١٤٨ ، ١٩٧

عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن

عمر بن علي بن أبي طالب — خرج بالين

في عهد المأمون : ١٧١

عبد الرحمن بن اسحاق القاضي في عهد الواثق :

٧٤ ، ١٤٤

عبد الرحمن بن حبيب الفهرى — والى إفريقية :

١٨١ ، ١٨٣

عبد الرحمن الداخل : ٢٣ ، ١٣٨ ، ١٨١ ،

١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٥

عبد الرحمن بن رستم — أحد الثوار بشمال

إفريقية : ١٧٧ ، ١٧٨

عبد الرحمن بن عبد الجبار الأزدي — والى

خراسان الذي ثار في عهد المهدي العباسي :

٣٨

عبد الرحمن بن عبد الله العلوي — داعية العلويين

في الين : ٦٣

أبو عبد الرحمن العطوى الشاعر : ١٥٤

عبد الرحمن بن القاسم — أحد تلاميذ الإمام

مالك : ٢٤٧

عبد الرحمن — أحد صحابة الرسول : ١٢٠

عبد الرحمن بن مسلم — انظر أبو مسلم الخراساني

أبو عبد الرحمن المقرئ : ٢٤٢

عبد المطلب : ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١

عبد الملك بن صالح بن علي بن عبد الله بن

العباس : ٥٣ ، ١٥٢ ، ١٨٦ ، ٢٢٨

عبد الملك بن مروان : ٣ ، ٨ ، ٣٠ ، ٨١ ،

١٨٢ ، ٢١١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٧

عبد الله الأفطح بن جعفر الصادق : ١٢٨

عبد الله بن الحسن العلوي — أبو محمد النفس

الزكية وإبراهيم وإدريس ويحيى : ٢٣ ،

٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ١١٢ ، ١١٤ ، ١٣٦ ،

١٤٨ ، ١٨٥ ، ١٩٧ ، ٢٩٠

عبد الله بن الحكم — أحد تلاميذ الإمام

مالك : ٢٤٧

عبد الله الخرمي — أحد أشياع المذهب الخرمي

الذي نادى به بآبك : ٩٩

عبد الله بن الزبير : ٩ ، ٢

عبد الله بن سهل — منجم المأمون : ١٦٨

عبد الله بن سلام — من مفسري القرآن :

٢٤٢

أبو عبد الله الشيعي — الداعي الفاطمي : ٩٣

عبد الله بن صالح العباسي : ٥٩ ، ٧٩

عبد الله بن طاهر بن الحسين :

٦٢ ، ٦٥ ، ٧١ ، ٧٥ ، ١٠١ ، ١٠٤ ،

١٧٤ ، ١٨٤ ، ٢٢٩

عبد الله بن عباس — انظر ابن عباس

عبد الله أبو العباس المأمون — انظر المأمون

عبد الله بن علي العباسي : ١٧ ، ٢٧ ، ٣٥ ، ٧٨ ،

٨١ ، ٨٢ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ،

٩٣ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ٢٢٢

عبد الله المحض بن الحسن العلوي : انظر

عبد الله بن الحسن العلوي

عبد الله بن محمد النفس الزكية : ١٢٣

عبد الله بن مروان بن محمد : ٤٠

عبد الله بن مسعود — أحد القراء المعترف

٣٣ : ٢٤٢

عبد الله بن الوليد بن المغيرة المخزومي —

زوج أم سلمة قبل السفاح : ٢٤

عبد الله بن وهب — من تلاميذ الإمام مالك :

٢٤٧

عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك —
انظر عبد الرحمن الداخل
عثمان — صاحب القرامطة : ٢٤٢
عثمان بن عفان : ١٢٠، ١٢٠، ٧٠، ٥٠، ٢٠، ١٢٠،
١٨٤، ١٨٢، ١٧١، ١٤٦، ١٣٧، ١٣٢
عثمان بن نهيك — رئيس الحرس في عهد
المنصور : ٩١، ٩٠
عجيف بن عنبسة — أحد القواد العرب في عهد
المعتصم : ١٠٣، ٧١، ١٧٣، ١٩١
عطاء بن أبي رباح — معلم أبي حنيفة : ٢٤٦
عقبة بن نافع الفهري — فاتح إفريقية : ١٧٥
عقيل : ١٢١
أبو عكرمة السراج الداعي العباسي : ١٣
علي بن الجهم الشاعر : ٧٧
علي الرضا العلوي : ٦٣، ٦٦، ٦٧، ٨٦،
١٢٨، ١٤٠، ١٥٧، ١٦٤، ١٦٥،
١٦٦، ١٦٧، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠،
٢٦٢
علي بن سليمان — ابن عم المهدي العباسي : ٣٢٤
علي بن أبي طالب : ١، ٢٠، ٥٠، ٧٠، ٨٠، ١١٠،
١٢، ١٣، ١٤، ٢٣، ٥٠، ٨٤، ٨٥،
٩٤، ١١١، ١١٢، ١١٧، ١١٨، ١١٩،
١٢٠، ١٣١، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٦،
١٣٧، ١٣٩، ١٤٠، ١٤١، ١٤٦،
١٦٦، ١٦٨، ١٧٠، ٢٠٢، ٢٤٠،
٢٥١، ٢٥٤، ٢٦٥، ٢٦٨، ٢٩٢
علي بن عبد الله بن العباس : ١٥، ٩٥
علي بن عبد الله بن خالد بن يزيد بن معاوية :
٥٩
علي بن عيسى بن ماهان — والي خراسان في
عهد الرشيد وقائد الأمين في حربه ضد
المأمون : ٤٨، ٤٩، ٥٤، ٦٨، ١٦١،
علي بن محمد النفس الزكية : ١٢٣
علي بن معاذ الشاعر : ١٥٥

علي الهادي — الامام العاشر : ٢٨٨
علي بن يقطين الزنديق : ١٠٧
عمر بن بكير — من علماء التفسير : ٢٤٢
عمر الأشرف بن علي زين العابدين : ٨٥،
١٤٨، ٨٦
عمر بن الخطاب : ١، ٦، ٧، ١٢، ١٤،
١١٧، ١٢١، ١٣٢، ١٣٧، ١٤٦، ١٥٩،
١٧١، ١٨٢، ١٩٦، ٢١٢، ٢٣٣،
٢٦٥، ٢٦٨
عمر بن سعد — قاتل الحسين بن علي : ٧٩
عمر بن عبد العزيز الأموي : ٤، ٩، ١٣،
٢٦، ١٩٤
عمر بن الفرخان — المترجم : ٢٥٨
عمران بن الواح — من علماء الهندسة :
٢٧٤
عمرو بن عبيد — أحد رجال المنصور :
٢٩، ١١٠
عمرو بن العاص : ٦٦، ٢٠٢
أبو عمرو بن العلاء — أحد أئمة اللغة : ١٤٦
٢٥١
عمرو بن فرج — أحد رجال الدولة في عهد
الوائق : ٧٥
عمرو بن معد يكرب بن الصمصامة العربي :
٤٥، ٧٤
العمري القاضي : ٢٢٣
أبو العلاء بن الجداد الشاعر : ١٠٧
أبو العلاء المعري الشاعر : ٧٧، ٩٥
العلاء بن مغيث اليحصبي — أحد الدعاة
العباسيين بالأندلس : ١٨٢
عيسى بن دأب : أنظر ابن دأب
عيسى بن زيد بن علي — زعيم الزيدية : ١٤٢
عيسى بن علي بن عيسى — أحد قواد الرشيد
والأمين : ٤٩، ١٦٤

أبو الفضل عمرو بن مسعدة — من خواص
جعفر البرمكي : ٣٠٧

الفضل بن مروان — أحد رجال الدولة في
عصر الواثق : ٧٦

الفضل بن يحيى البرمكي : ٤٦ ، ٥١ ، ٥٢ ،
٥٤ ، ٥٥ ، ١٢٧ ، ١٥٠ ، ١٥٨ ، ٢٢٢ ،
٣٠٧

فيثاغورس — معلم العرب في الرياضيات :
٢٦١

فيروز — حفيد أبي مسلم الخراساني : ٩٢
الفيض بن صالح — وزير المهدي : ١٩٨

(ق)

القاسم بن ابراهيم بن اسماعيل — من بيت
الحسن بن علي ، خرج في أيام المأمون :
١٢٩ ، ١٣٠

القاسم بن الرشيد : أنظر المؤتمن
قباذ — أبو كسرى الأول ملك الفرس : ٩٦
قيصة بن أبى صفرة — أخو المهلب بن أبي
صفرة : ١٧٧

ابن قتيبة الكاتب : ٢٥٥
قتيبة بن مسلم — فاتح بلاد ما وراء النهر : ٨
قثم — والى البحرين من قبيل علي بن أبي
طالب : ١٧١

قثم بن عباس — من رجال الدولة في عهد
المنصور : ٢٨٩ — ٢٩٠
ابن قحطبة : الحسن — أحد قواد العرب :

٨٧ ، ١٨٦
حمد — أحد قواد العرب : ٨٧ ، ٨٨ ، ١٢٣
محمد — أحد قواد المنصور : ١١٧
عبد الله بن حميد — أحد قواد الأمين :
١٦٢

عيسى بن علي العباسي : ٣٠٧ ، ٣٠٩ ، ٣٢٣
عيسى بن مريم : ٢٣ ، ٩٤

عيسى بن معقل العجلي الداعي العباسي : ١٦٠ ، ١٥٠
عيسى بن المنسكدر — القاضي بمصر : ٢٢٣

عيسى بن موسى : ١٧ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٣١ ، ٣٧ ،
٤٢ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٩١ ، ١١٧ ، ١٢١ ،
١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٥ ، ١٩٥

عيسى بن يزيد الجلودى — أحد قواد الجيش
في عهد المأمون : ٦٥
أبو عينة المهلبى : ٢٩٨

(غ)

الغزالي : ٢٤٨ ، ٢٤٩
غوث بن سليمان — أحد رجال المنصور :
٢٢٣

(ف)

الفارسي — أحد أصحاب صناعة النحو :
٢٤٠

ابن الفرات — أسد : من أئمة الفقه : ٢٤٧
الفراء — أحد أئمة اللغة : ١٤٦ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ،
٢٤٤ ، ٢٥١

الفرزدق الشاعر : ٢٥٢
الفضل بن الربيع : ٣٣ ، ٥٢ ، ٥٦ ، ٦٧ ،
٦٨ ، ١٥٠ ، ١٥٧ ، ١٦٠ ، ١٦١

١٧١ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٣٢٤
الفضل بن سهل : ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٨٦ ،
١٤٧ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٦٠

١٦١ ، ١٦٦ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٩٩ ،
٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٦١ ، ٢٦٢
الفضل بن صالح بن علي العباسي : ٤٠ ، ٧٩

(ل)

ليو الرابع — أمبراطور الروم: ١٧٦

(م)

ابن ماجه — صاحب السنن: ٢٤٦

المازني — أحد أئمة اللغة: ١٤٦

المازيار أحد الثوار في عهد المعتصم: ٧٣،

١٠٠، ١٠١، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٤،

٢٩١

المأمون: ٤٥، ٤٦، ٤٩، ٥٤، ٥٧، ٥٨،

٥٩، ٦٠، ٦٢، ٦٣، ٦٤، ٦٥، ٦٦،

٦٧، ٦٨، ٦٩، ٧٠، ٨٢، ٨٦، ٩٦،

٩٧، ٩٨، ١٠٠، ١٠٥، ١٢٨، ١٢٩،

١٣٠، ١٣٣، ١٣٤، ١٤٠، ١٤٣،

١٤٤، ١٤٥، ١٤٧، ١٥٢، ١٥٥،

١٥٦، ١٥٧، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٠،

١٦١، ١٦٢، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٦،

١٦٧، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠، ١٧١،

١٧٢، ١٧٤، ١٨٩، ١٩٠، ١٩٣،

١٩٥، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٢،

٢٠٨، ٢١٥، ٢١٨، ٢٢٢، ٢٢٥،

٢٢٨، ٢٢٩، ٢٤١، ٢٤٩، ٢٥٠،

٢٥١، ٢٥٤، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٦١،

٢٦٢، ٢٧٥، ٢٩٢، ٣٠٢، ٣٠٣،

٣٠٤، ٣١٠، ٣١٣، ٣١٤، ٣٢١،

٣٢٢، ٣٢٤،

المأمون الأصغر: أنظر الواثق

الإمام مالك — أحد المجتهدين في الدين

الإسلامي: ١١٦، ١٢٤، ١٤٥، ١٤٦،

٢٢١، ٢٤٥، ٢٤٧،

ماني: ١٠٥

أبو قرة الصفري — أحد الثوار بشمال إفريقيا:

١٧٧

قريش: ٦، ٧، ٩، ٢٦، ١١٧،

القسري: أسد بن عبدالله — والي خراسان:

١٦، ٢٤،

خالد بن عبد الله — والي العراق في عهد

هشام بن عبد الملك: ١٠، ١٥، ١٥٥،

٢٧٨

يزيد بن خالد — أحد زعماء اليمانية: ١٠

محمد بن خالد — والي المدينة في عهد المنصور:

١١٣

ابن قتيبة: ٢٥٢

قسطنطين الرابع — أمبراطور الروم: ١٨٤،

١٨٥

قسطنطين السادس: ١٨٦

قسطنطين السابع: ٤٦

قوهيار أخو المازيار: ١٠٣

(ك)

كثير الطيب: ٣٦

كثير عزة الشاعر العلوي: ١٣١

الكرماني — جديع بن شبيب — زعيم

اليمانية: ١٦

الكسائي — من مفسري القرآن: ٢٤٤،

٢٥١

كسرى — ملك الفرس: ١٧٥، ٢٥٦،

كعب الأحبار اليهودي — من مفسري القرآن:

٢٤٢، ٢٤٣، ٢٤٤،

الكهيت — الشاعر العلوي: ١٣١

الكندي — يعقوب بن اسحق من العلماء

في عصر المأمون: ٢٥٨

المبارك : أنظر إبراهيم بن المهدي

المبرد — من مفسري القرآن : ٢٤٤ ، ٢٥١

المبرقع النجاشي : ٧٢

المنذبي الشاعر : ٧٧

المتوكل العباسي : ١٠٣ ، ١٧٤ ، ٢٧٥

٢٨٦ ، ٢٨٨ ، ٣١١

المنشي بن حارثة الشيباني — القائد العربي :

٢٧٢

محمد بن ابراهيم — القائد العربي ١٩١

محمد بن ابراهيم الامام : ٥١ ، ٥٢

محمد بن ابراهيم بن اسماعيل بن ابراهيم بن

الحسن بن الحسن بن علي : ١٢٩

محمد بن اسحق : ٢٤٣

محمد بن اسماعيل البخاري — انظر البخاري

محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق : ١٣٩

محمد بن الأشعث — والي إفريقية من قبل

المنصورة : ١٧٧

محمد بن جعفر الصادق — خرج في أيام

المأمون : ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٧٠

محمد الجواد : ٧٠

محمد بن حازم الباهلي الشاعر : ٢٢٢

محمد بن الحنفية : ٢ ، ٩٥ ، ١١١ ، ١٣١

١٤١ ، ١٤٢ ، ٢٥٤

محمد بن خالد بن برمك : ١٥٣

محمد الديباج بن جعفر الصادق — أنظر محمد

بن جعفر الصادق

محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم — أنظر

الرسول

محمد الزبائدي — والي تهامة : ٦٣

محمد بن سليمان — من رجال المهدي العباسي :

٣٧ ، ٢٦٧

محمد بن سليمان بن كثير : ٩١

محمد بن شاذان المترجم : ٢٥٧

محمد بن عبد الله بن الحسن العلوي : ٢٧

٨٧ ، ٨٨ ، ١١٠ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤

١٩٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩

١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥

١٣٠ ، ١٣٣ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨

١٤٢ ، ١٤٥ ، ١٤٨ ، ١٨٥ ، ٢٠١

٢٢٢ ، ٢٦١ ، ٢٧٤ ، ٢٧٦ ، ٢٩٠

محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان —

أخو عبد الله بن الحسن بن الحسن لأمه

فاطمة بنت الحسين بن علي : ١٢٤

محمد بن عبد الله بن المنصور : أنظر المهدي

محمد بن عبد الملك الزياد الوزيري : ٧٣ ، ٧٥

١٠٢ ، ١٠٣ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٦٧

محمد بن علوان المروزي — أحد رجال

المنصور : ٩١

محمد بن عبد الله بن العباس : ١١ ، ١٢

١٣ ، ١٥ ، ١٩ ، ٨٤ ، ٩٥ ، ١٣٦

محمد بن علي الرضا : ٧١

محمد بن عيسى — صاحب شرطة الأمين :

١٦٢ ، ١٦٣

محمد بن القاسم — فاتح السند : ٨ ، ١٩٢

محمد بن القاسم العلوي : ٧

محمد بن محمد النفس الزكية : ١٢٣

محمد بن مقاتل العكي — والي إفريقية في عهد

الرشيدي : ١٧٨ ، ١٧٩

محمد المنتظر : ٢٨٨

محمد المهدي : أنظر المهدي

محمد النفس الزكية — أنظر محمد بن عبد الله

ابن الحسن العلوي

محمد بن الواثق : ١٩٦

محمد بن يحيى البرمكي : ٥١ ، ٥٤

المختار بن أبي عبيد الثقفي : ٢

ابن مرجانة — أنظر يزيد بن معاوية

معاوية الثاني بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان :

١٩٦

أبو معاوية الضرير — أحد العلماء في عصر

الرشيدي : ٥٥

معبد — وإلى مكة من قبل علي بن أبي طالب :

١٧١

ابن المعتز الشاعر : ٢٨٨ ، ٢٨٧

المعتصم : ٦٣ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ،

٧٣ ، ٧٤ ، ٧٧ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ،

١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٩ ، ١٣٠ ،

١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٤٤ ، ١٧١ ، ١٧٣ ،

١٧٤ ، ١٨٤ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٣ ،

٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٥ ، ٢٠٩ ، ٢١٨ ،

٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣٤ ، ٢٥٠ ،

٢٥٥ ، ٢٦٢ ، ٢٦٧ ، ٢٧٥ ، ٢٨٠ ،

٢٨٥ — ٢٨٨ ، ٢٨٩ — ٢٩١ ، ٣٠٤ ،

٣١٣ ، ٣١٤

المعتضد العباسي — أحد خلفاء العصر الثاني :

٢٨٨ ، ٢١١

أبو معشر الفلكني — انظر البلخي المنجم

المعلبي بن أيوب — أحد رجال الواثق : ٧٦

معن بن زائدة الشيباني — عم يزيد بن مزيد

الشيباني بطل موقعة الراوندية : ٤٧ ، ٩٤

المفضل الصلي — مؤدب المهدي : ٣٨ ، ٢٥١

مفضل بن فضالة القاضي : ٢٢٣

مقاتل بن سليمان — من مفسري القرآن : ٢٤٣

المقتدر العباسي : ٧٨

ابن المقفع : ٢٥٧ ، ٢٥٩

المقنع الخراساني : ٩٢ ، ٩٥ ، ٩٦

المنتصر — الخليفة العباسي : ١٧٤ ، ٢٧٥ ،

٢٨٨

المنصور : ١٧ ، ١٩ ، ٢٣ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ،

٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ،

المرزبان بن تركش — أحد ملوك السغد :

١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤

مروان بن أبي حفصة الشاعر : ٤٦ ، ٥١ ،

٥٦ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٨٦ ، ٢٥٥

مروان بن الحكم : ٨

مروان — خادم الرشيد : ١٥٩

مروان الجعدي — أنظر مروان بن محمد

مروان بن محمد : ٤ ، ١٠ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ،

٢٢ ، ٢٣ ، ٢٧ ، ٣١ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨١ ،

١٠٥ ، ١٣٥

مزدك — أحد أنبياء المجوس : ١٠٣ ، ١٠٥

مسرور — خادم الرشيد : ١٥٠ ، ١٥٤

المسعودي الزناتي الأباضي — أحد الثوار

بشمال إفريقيا : ١٧٧

مسعود بن مساور — كانت له مظلة فشكا

للهمدي فأمر ببرد ماله : ٤١

ابن مسعود — من مفسري القرآن : ٢٤٣

مسكين المدني — المغني : ٢٩٥

أبو مسلم الخراساني : ١٣ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ،

٢٣ ، ٢٦ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ،

٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ،

٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٩ ، ١٠٤ ، ١١٨ ،

١١٩ ، ١٢٤ ، ١٤٨ ، ١٥٢ ، ١٧٧ ، ٢٢٢ ،

مسلم — أحد رواة الحديث : ٢٤١ ، ٢٤٦

أبو مسلم العقيلي — أحد رجال المنصور : ١١٧

مسلمة بن عبد الملك بن مروان : ٢٤

مسلمة بن عقيل بن أبي طالب : ٧٩

المسيب — أحد رجال المنصور : ٣٣ ، ٣٤

مصعب بن الزبير : ٢

مطهر بن فاطمة بنت أبي مسلم الخراساني :

٩٦ ، ٩٧

مطيع بن إياس الشاعر : ١٠٧

معاذ بن مسلم — أحد قواد المهدي : ٩٦

ابن العباس — قاتل الحسين بن علي المثلث
الحسنات في عهد الهادي : ١٢٧
موسى الكاظم بن جعفر الصادق : ١٢٨، ١٢٩،
١٣٨، ١٣٩، ١٤٠
موسى بن المهدي : ٣٧، ٣٢٠
موسى نبي الله : ١٣٢
أبو موسى السراج الداعي العباسي : ١٦
موسى الهادي : انظر الهادي
موسى بن يحيى البرمكي : ٥١، ٤٨، ٥٤، ١٥٣
المؤمن بن الرشيد : ٥٧، ١٦٠، ١٦٤، ١٩٥
المؤمل بن أميل — من أصدقاء المهدي قبل
توليته الخلافة : ٣٢
ميخائيل الطيب : ٢٦٢
ميسرة الداعي : ١٣

(ن)

نافع بن أبي نعيم — الذي علم القرآن للامام
مالك : ٢٤٧
نافع مولى عبد الله بن عمر : ٢٤٦، ٢٤٧
نجاح بن سلمة — أحد رجال الواثق : ٧٦
النسائي صاحب السنن : ٢٤٦
نصر بن سيار — والي خراسان في أواخر
أيام بني أمية وكان مضرباً : ٥، ١٦،
٣١، ١٤٨
نصر بن شيبث — أحد الثوار في عهد
المأمون : ٦٥
النظام — شيخ المعتزلة : ١١٠، ٢٤٨
نقفور — أمبراطور الروم : ١٨٧، ١٨٩
النري الشاعر : ١٥٨
أبو نواس الشاعر : ٥٠، ٥٨، ٦٠، ١٠٨،
١٦٥، ٢٥٢
ابن نويخت — أبو سهل المنجم : ٢٦١،
٢٧٥

٣٦، ٣٧، ٣٨، ٤١، ٤٩، ٥٠، ٥٤،
٨٣، ٨٤، ٨٦، ٨٧، ٨٨، ٨٩، ٩٠،
٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٤، ٩٥، ٩٩، ١٠٧،
١١٢، ١١٣، ١١٤، ١١٥، ١١٦،
١١٧، ١١٨، ١١٩، ١٢١، ١٢٢،
١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٣٠، ١٣٧،
١٣٨، ١٤٢، ١٤٥، ١٤٨، ١٥٢،
١٥٨، ١٦٨، ١٧٧، ١٧٨، ١٨٢،
١٨٣، ١٨٥، ١٩٢، ١٩٤، ١٩٥،
١٩٦، ١٩٧، ٢٠١، ٢٠٣، ٢٠٤،
٢٠٦، ٢٠٨، ٢١٠، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٦،
٢٢٧، ٢٢٨، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٤٢،
٢٥٧، ٢٦١، ٢٦٢، ٢٦٥، ٢٦٧، ٢٦٨،
٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٣، ٢٨٩، ٢٨٥،
— ٢٩١، ٢٩٤، ٣٠٦، ٣٠٧، ٣٠٨،
٣٠٩، ٣١٠، ٣١٢
منصور بن المهدي : ١٦٦
المهدي : ٢٧، ٢٨، ٣١، ٣٢، ٣٦، ٣٧،
٣٨، ٣٩، ٤٠، ٤١، ٤٣، ٤٤، ٤٦،
٥٠، ٥٨، ٩٥، ٩٦، ١٠٥، ١٠٦،
١٠٧، ١٢١، ١٣٢، ١٣٦، ١٤٧،
١٤٨، ١٤٩، ١٥٢، ١٥٧، ١٥٨، ١٨٣،
١٨٥، ١٨٦، ١٨٧، ١٩٣، ١٩٥،
١٩٧، ١٩٨، ٢٢٨، ٢٤٨، ٢٥١،
٢٥٣، ٢٦١، ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٧٥،
٢٨١، ٢٩٤، ٣٢٠، ٣٢١، ٣٢٤
المهلب بن أبي صفرة — فاتح السند في عهد
معاوية : ١٩١
الموبد — من أهالي السغد : ١٠٢، ١٠٣
موسى بن الأمين : ٦٢، ١٦٠، ١٦١
موسى بن عبد الله بن الحسن العلوي — أخو
محمد النفس الزكية : ١٢٣
موسى بن عيسى بن محمد بن علي بن عبد الله

عبد الله بن سهل — المنجم : ٢٦٢

(٥)

الهادي : ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ،
٥١ ، ٦٢ ، ٧٤ ، ٨١ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ،
١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٣٦ ، ١٤٩ ،
١٥٨ ، ١٧٩ ، ١٨٦ ، ١٩٥ ، ١٩٧ ،
١٩٨ ، ٢٤٨ ، ٢٧٥ ، ٢٩٠ ، ٢٩٤ ،
٣١٠ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣١٥

هارون الرشيد — أنظر الرشيد

هارون بن موسى البصري — أول من حاول

نقد علم القراءات : ٢٤١

هارون — أخو موسى نبي الله : ١٣٢

هارون الواثق بالله بن المعتصم — أنظر
الواثق

هاشم بن عبد مناف — جد العباسيين : ١١٩ ،
١٢٠ ، ٢٦٩

أبو هاشم بن محمد بن الحنفية : ١١ ، ١٢ ،
٩٥ ، ١١١ ، ١٣٦ ، ١٤١ ، ١٤٢

أبن هبيرة — يزيد بن عمر القائد الأموي :

١٧ ، ٢٣ ، ٢٧ ، ٣٦ ، ٩٤ ، ١١٨ ،
١١٩ ، ٢٢٢

أبو الهذيل العلاف المعتزلي : ١٠٩ ، ٢٤٨ ،
٢٥٠

هرثمة بن أعين — أحد قواد الرشيد ، تولى

إمارة شمال إفريقية في عهده : ٤٧ ، ٤٩ ،

٦٦ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ،

١٦٦ ، ١٧٨ ، ١٨٠ ، ٢٠٩

هرقل — أمبراطور الروم : ١٧٥

هشام بن الحكم — أحد معتنقي مذهب الرافضة :
١٤٢

هشام بن سالم — أحد معتنقي مذهب الرافضة :

١٤٢

هشام بن عبد الملك الأموي : ١٠ ، ١٦ ،

٧٩ ، ٨١ ، ١٠٥ ، ١١٠ ، ١٧٦ ، ٣١٦ ،

٣٢٠

هشام بن عروة — من العلماء الذين تلقى عليهم

أبو حنيفة : ٢٤٦

هشام بن عمرو التغلبي — والي السند في عهد

المنصور : ١٩٢

هشام بن محمد الكلبي — أول من كتب من

العرب في التاريخ : ٢٥٩

(و)

الواثق : ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٩٨ ، ١٣٥ ،

١٤٤ ، ١٧٤ ، ١٩٦ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ،

٢٠٢ ، ٢٢٢ ، ٢٥٠ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ،

٢٧٥ ، ٢٨٨ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٧ ،

واصل بن عطاء — زعيم المعتزلة : ١٠٩ ،

١٤١ ، ١٤٢ ، ٢٤٨

أبو الوزير عمر بن مطرف — أحد الكتّاب

في عهد الرشيد : ٢١٣

وزير آل محمد — أنظر أبو سلبية الخلال

ابن الواضح — عمران عالم الحساب : ٢٦١

الوليد بن طريف — أجد الثوار في عهد الرشيد

٤٧

الوليد بن عبد الملك : ٨ ، ٤٠ ، ٨١ ، ٢٥٧ ،

٢٦٥

الوليد الثاني : ٥ ، ٧ ، ٧٩ ، ١٠٥

الوليد بن معاوية بن عبد الملك : ١٨

الوليد بن يزيد بن عبد الملك : أنظر الوليد

الثاني

وهب بن منبه — من مفسري القرآن :

٢٤٣ ، ٢٤٤

(ب) أسماء النساء :

(أ)

أمان — جارية : ٢٩٨

أمينة بنت علي : ٩١

أروى بنت منصور بن عبدالله — أم المهدي : ٣٨

أيربني — أمبراطورة الروم : ١٨٦ ، ٤٦

١٨٧

(ب)

بوران — بنت الحسن بن سهل وزوجة

المأمون : ٦٧ ، ٦٨ ، ١٩٩ ، ٣٢١

(ج)

أم حبيب — بنت المأمون وزوجة علي الرضا

العلوي : ١٦٥

حميدة — أم موسى الكاظم بن جعفر الصادق :

١٢٨

(خ)

الخنزيران — أم الهادي والرشد : ٤١ ، ٤٣ ،

٤٤ ، ٤٦ ، ١٥١ ، ٣١٢

(ر)

ريطة الحارثية — يقال إنها أم السفاح : ٢٦

ريطة — بنت السفاح : ٥٠

(ز)

زبيدة — زوجة الرشيد : ٥٨ ، ٦١ ، ١٥١

١٥٨ ، ٣٠٩ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣١٤

٣٢١

(س)

أم سبله — زوجة السفاح : ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦

سلامة البربرية — أم المنصور : ٢٦

سلامة بنت بشير — من مولدات البصرة

وقيل إنها أم السفاح : ٢٦

السيدة — أم المقتدر : ٣١٤

(ش)

شجاع — أم المتوكل : ٣١٤

شكلة — أم إبراهيم بن المهدي : ١٣٤

شهربانو — ابنة يزيد جرد الثالث آخر ملوك

الفرس وزوجة الحسين بن علي : ١٤ ،

٨٥ ، ١٦٧

(ع)

عائشة أم المؤمنين : ٢٤١

العباسة : أخت الرشيد : ١٤٩ ، ١٥٢

عليه — بنت المهدي : ٣١٢

أم عيسى — أخت صالح بن علي العباسي :

١٨٥ ، ٣١٣

(ف)

الفارعة — أخت الوليد بن طريف الشيباني :

٤٧

فاطمة بنت أبي مسلم الخراساني : ٩٢

فاطمة بنت الرسول عليه السلام : ١٢ ، ١٤ ،

٩٧ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٣٧

(م)

ماردة — أم المعتصم : ٦٩
مراجل — أم المأمون : ٦٢
مرجانة — أم يزيد بن معاوية : ١٢١

(هـ)

هند — أم محمد النفس الزكية : ١١٤
هيلانة — جارية الرشيد : ٥٧

فاطمة بنت عمرو — أم أبي طالب : ١١٩ ،
١٢٠

أم الفضل — بنت المأمون وزوجة محمد الجواد
ابن علي الرضا : ٧٠

(ق)

قراطيس — أم الواثق : ٧٣

(ل)

لبابة — أخت صالح بن علي العباسي : ١٨٥
٣١٣

٢ — الأماكن

(أ)

الأبلة — مدينة عند مصب نهر دجلة : ٢٦١

أنيتا — عاصمة اليونان : ٢٥٦

أذربيجان : ٢٧ ، ٤٧ ، ٥٠ ، ٩٧ ، ٢٠٤

٢١٤ ، ٢١٦ ، ٢٣٢ ، ٢٧٠

أرمينية : ٢٧ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٩٧ ، ٢٠٤ ، ٢١٥

٢١٧ ، ٢٣٢ ، ٢٧٠

الإسكندرية : ١٨٤ ، ٢٢١ ، ٢٣١ ، ٢٣٦

آسيا الصغرى : ٧١ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩

١٩١ ، ٢٣٢

إشبيلية — مدينة بالأندلس : ١٨٢

بلاد أشروسنة — أحد أجزاء بلاد ما وراء

النهرين فرغانة شرقا وسمرقند غربا :

١٠١ ، ١٠٢ ، ١٨٧

أصبهان — محل ميلاد أبي مسلم الخراساني ومن

البلاد الفارسية : ١٥ ، ٩١ ، ١٠٤ ، ٢٢

إفريقية — يطلق عامة على شمال إفريقيا وهي

تونس الحالية : ٣ ، ٤٦ ، ٧٠ ، ٤٧ ، ١٧٥

١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨١

١٨٢ ، ١٨٣ ، ٢٠٤ ، ٢١٥ ، ٢١٧

٢١٨ ، ٢٣٣ ، ٢٣٦ ، ٢٦٠ ، ٢٣٧

أفغانستان : ٢٣٦

إقريطش — جزيرة في البحر الأبيض المتوسط

وهي كريت الحالية : ١٨٤

إكس لاشايل : عاصمة شلمان : ١٨٤

الأنبار — عاصمة الدولة العباسية في عهد

السفاح : ٢٣ ، ٢٦ ، ١٥٤ ، ٢١٨ ، ٢٦٩

٢٨٧

الأندلس : ٢٣ ، ١٣٨ ، ١٧٥ ، ١٨٠ ، ١٨١

١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ٢٣٣ ، ٢٤٧

أنطاكية — ٢٣٣ ، ٢٣٤

أنقرة — من بلاد آسيا الصغرى : ١٨٥ ، ١٩٠

٢١٦، ٢١٤، ٢٠٤، ١٧١، ١٢٩، ١٢٥

٢٣٢، ٢٣٠، ٢٢٩، ٢٢٧، ٢٢٠

٢٦٧، ٢٥١، ٢٥٠، ٢٣٤، ٢٣٣

٢٧٨، ٢٧٤، ٢٧١، ٢٦٩

بغداد — مدينة السلام : ١٩، ٢٣، ٢٣

٤٧، ٤٦، ٤٥، ٤٠، ٣٧، ٣٥، ٣٤

٦٣، ٦٢، ٥٩، ٥٨، ٥٧، ٥١، ٥٠

٧٤، ٧٣، ٧١، ٧٠، ٦٧، ٦٦، ٦٥

١٢٥، ١١٦، ٩٩، ٩٧، ٩٤، ٧٥

١٤٤، ١٤٣، ١٤٠، ١٣٨، ١٢٩

١٦٣، ١٦٢، ١٦١، ١٦٠، ١٥٧، ١٤٥

١٧٣، ١٧٠، ١٦٩، ١٦٧، ١٦٦

٢١٦، ٢٠٩، ٢٠٨، ١٨٦، ١٧٦

٢٣٤، ٢٣٣، ٢٣٢، ٢٣١، ٢٣٠

٢٦٠، ٢٥٩، ٢٥٥، ٢٤٧، ٢٣٦

٢٦٨، ٢٦٧، ٢٦٦، ٢٦٥، ٢٦١

٣٠٩، ٣٠٥، ٢٩٤، ٢٩٣، ٢٨٩

٣٢٢، ٣١٩، ٣١٥، ٣١٠

تأسيس بغداد : ٢٧٠، ٢٨٦

ما قيل في وصف بغداد : ٢٨٤، ٢٨٥

بلخ — مدينة بخراسان : ١٧، ٤٩، ١٢٩

بلرم — مدينة بصقلية : ٢٣٣

البلقاء — المكان الذى قتل فيه سليمان بن يزيد

ابن عبد الملك فى بدء الدولة العباسية :

٧٨

بلنسية — مدينة بالاندلس : ١٨٣

البنجاب — من ولايات الهند : ١٩٣، ٢٣٦

البندقية : ٢٢٩

بوصير — قرية بالقيوم قتل فيها مروان بن

محمد آخر خلفاء بنى أمية : ١٨

البوقان : بالهند : ١٩٢

بيت المقدس : ٢٣٣، ٣١٥

بير : ٢٣٠، ٢٣٣

الاهواز : ٦٨، ١١٦، ١٢٣، ١٢٩، ٢٠٤

٢١٣، ٢١٦، ٢٢٠، ٣٠٨

أوريا : ٢٦٠

إيران : ٩٧، ٢٦٧

(ب)

باب البصرة : من أبواب بغداد ويقع فى الجنوب

الشرقى : ٢٧٧

باب الأنبار — من أبواب بغداد ومن أما كن

لهو الأمين : ٦٠، ١٦٢

باب خراسان — أحد أبواب بغداد : ٢٦٦،

٢٧٧، ٢٧٨، ٣٠٦

باب الشام — من أبواب بغداد : ١٦٣،

٢٧٧

باب الكوفة — من أبواب بغداد بالجنوب

الغربى : ١٦٣، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٧٨

باخرى — بين الكوفة وواسط، قتل فيه

ابراهيم العلوى : ١١٢، ١٢٣

بارما — جنوبى الموصل : ٢٧٠

البحر الميت — بفلسطين : ٢٢٩، ٢٦٥

البحرين — بالقرب من الخليج الفارسى :

١٧١، ٢٤٧، ٢٠٤

بخارى — بأواسط آسيا : ٩٦، ٢٣٢، ٢٣٧

البذندون — المكان الذى مات فيه المأمون

وهو بالشام : ٢٧٥

البردان — بلد بأراضى الروم : ١٨٥

برشلونة — مدينة بالاندلس : ١٨٣

برقة — ٢١٥، ٢١٧، ٢١٨

البرازين — نهر بالعراق : ٢٢٧

بستان موسى — من أما كن لهو الأمين : ٦٠

البسفور : ١٨٦

البصرة : ١٢، ٧١، ٦٥، ٨١، ٨٧، ١٠٦

١١٠، ١١٦، ١١٧، ١٢٣

البيلقان — أحد الأماكن التي انتشرت فيها
تعاليم بابك الخرمي : ٩٧

(ت)

تاهرت — إحدى مدن شمال إفريقيا : ١٧٨
التبت — إحدى هضاب آسيا الوسطى : ١٨٧

٢٣٧

تستر — مدينة مشهورة بصنع الحرير : ٢٣٠
تلسان — مدينة بشمال إفريقيا : ١٧٨
تنيس — مدينة بمصر : ٢٣٠ ، ٢٣١
تهامة — بالحجاز : ٦٣ ، ١٢٩
تونس : ٤٧ ، ١٤٧ ، ١٧٦ ، ١٧٩
تيان شان : — جبال بآسيا الوسطى : ٢٣٧

(ج)

الجاية — إحدى قرى فلسطين : ٧٥
جاسم — قرية من أعمال دمشق : ٧٥
جاوه — جزيرة من جزر الشرق الأقصى :

٢٣٥

جدة — ميناء على البحر الأحمر يفد إليه الحجاج
في موسم الحج : ٢٣٦

جرجان : ٤٢ ، ١٢٧ ، ٢١٤ ، ٢١٦
الجزيرة — ببلاد العراق : ٣ ، ١٠ ، ١٢ ،
٢٧ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٧ ، ٧٥ ، ١٢٣ ، ١٦٣ ،
١٨٥ ، ١٩٠ ، ٢٠٤ ، ٢٠٩ ، ٢١٤ ، ٢١٧ ،

٢٣٧ ، ٢٣٢ ، ٢٧٠

جسر النهروان : ٣٢
جنديسابور — من أعمال خوزستان : ٢٥٦
جوشنج — من بلاد فارس : ١٧
جيجان — إحدى المقاطعات على الحدود
البيزنطية العباسية : ١٨٦

جبلان : ٢١٤ ، ٢١٨

(ح)

الحبشة : ١٧٥ ، ٢٣٦
الحجاز : ٢ ، ٤ ، ٢٧ ، ٥٧ ، ٦٦ ، ٧٤ ، ٨١ ،
٨٧ ، ١١٠ ، ١١٢ ، ١٢١ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ،
١٢٥ ، ١٢٩ ، ١٤٨ ، ١٦١ ، ٢٠٤ ،
٢١٧ ، ٢٣٦ ، ٢٦٥ ، ٢٦٨ ، ٢٩٢

الحدث — بآسيا الصغرى : ١٨٦
الحدیثة — ٤٥
حديثه الجرش : ٤٥
حديثه الموصل : ٤٥
حران — المكان الذي قتل فيه ابراهيم الإمام
العباسي : ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٧٨ ، ٧٩ ،

٨٧ ، ١٨٩ ، ٢٥٦

الحرّة : ٨ ، ١١٣

حضر موت : ٤ ، ١٦ ، ٣٥
حلب : ٨٧ ، ١٠٦ ، ١٨٦
حلوان — مقاطعة ببلاد الفرس : ٤٧ ، ١٦٢ ،
٢١٣ ، ٢١٦ ، ٢٢٠ ، ٢٢٦

حمص — مدينة بالشام : ٢١٥ ، ٢٢١
الحيمة : ١١ ، ١٣ ، ١٧ ، ٢٦ ، ٣٨ ، ١٤٨
الحوف — على مقربة من بليس بمصر : ٤٠
الحيرة : ٧٩ ، ١٥٤ ، ٢٦٩

(خ)

خانقو — ميناء بالصين جنوب شنغاي الحالية :
٢٣٤ ، ٢٣٥

خييص — بلدة بكرمان : ٢١٣
ختلان — إحدى البلاد التي دخلت في طاعة
أبي مسلم الخراساني في بدء دعوته : ١٧
خراسان : ٥ ، ٩ ، ١٠ ، ١٢ ، ١٤ ، ١٥ ،
١٦ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٣٧ ، ٣٨

جبل الديلم : ٧١
دينور : ٢٥٥

(ر)

الران — إحدى البلاد التي انضوت تحت لواء
بابك الخرمي : ٩٧

راوند : ٩٤

الربذة — إحدى ضواحي المدينة المنورة :
١٦٤

ربض حميد — مكان بالقرب من بغداد :
١٦٣

الرّذ — مكان بماسبذان توفي به المهدي :
٢٧٥

الرصافة مدينة في الجهة الشرقية من بغداد
بناها المنصور : ٣٣ ، ٤٠ ، ٨٧ ، ٢٨١ ،
٢٨٢

الرصافة — قصر على مقربة من بغداد بناه
المهدي : ٢٦٦

رضوى — جبل على مقربة من ثغر ينبع
بالحجاز : ١٣١

الركة : ٣٦ ، ٦٥ ، ١٥٤
ركة كلواذى — أحد أماكن لهُو الأمين :

٦٠ ، ١٦٢ ، ٢٣٢

الروسيا : ٢٣٧

الريان : ٢١٦

الري : ٤٦ ، ٤٨ ، ٦٢ ، ١٢٣ ، ١٢٧ ،
١٢٩ ، ١٦١ ، ٢١٤ ، ٢١٦ ، ٣٠٨

(ز)

الزاب — مقاطعة بشمال إفريقية : ١٧٧ ، ١٧٨
زباله — مدينه بالعراق : ٢٦٧

٤٨ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٤ ، ٥٩ ، ٦٢ ،

٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٧١ ، ٧٥ ، ٧٩ ، ٨٢ ،

٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ،

٩٢ ، ٩٥ ، ٩٩ ، ١٠١ ، ١٢١ ، ١٢٣ ،

١٢٤ ، ١٢٩ ، ١٤٨ ، ١٥٢ ، ١٥٨ ،

١٦١ ، ١٦٤ ، ١٦٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠٢ ،

٢١٤ ، ٢١٦ ، ٢٢٠ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠ ،

٢٣٧ ، ٢٧٨ ، ٣٢٢

خرّم : اسم مدينة ببلاد ميديا ١٠٠

خليج بنغالة : ٢٣٤

الخليج الفارسي : ٦٥ ، ١٩٣ ، ٢٢٦ ، ٢٣٣ ،
٢٣٤

خوارزم : ٩١

خوزستان : ٢٠٤ ، ٢٣٠

الخيزرانية — أحد قصور العباسيين كان يلهو
به الأمين العباسي : ٦٠

(د)

دابق — أرض بالشام بها قبر سليمان بن عبد
الملك : ٨١ ، ١٨٥

دلوك — بنواحي حلب : ٨٧

الدماج — نهر بالعراق : ٢٢٧

دماوند : ٢١٦

دمشق : ١٧ ، ١٨ ، ٤٨ ، ٥٩ ، ٧٩ ، ٢٣٢ ،

٢٣٣ ، ٢٦٥ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٣١٥

دمياط : ٢٣٠ ، ٢٣١

الديبل : ثغر بالهند : ١٩٢ ، ٢٣٥

دياربكر — بآسيا الصغرى : ٢٣٢

بلاد الديلم : ٥١ ، ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٥١ ،

١٧٩ ، ٢٢٢ ، ٢٧٤

دير درمايس : ٢٩١

دير الروم : ٢٩١

العقبة : ٢٦ ، ٨٤

شروين — جبال : ١٠٠

شنغاي — ميناء بالصين : ٢٣٥

شهرزور : ٢١٤ ، ٢١٦

(ص)

الصغانيان — إحدى البلاد التي انضوت تحت

لواء العباسيين في بدء دعوة أبي مسلم :

١٧

صفين : ١٤١

صقلية : ٢٠٤ ، ٢٢٣

صور — ميناء على ساحل البحر الأبيض :

٢٢٩ ، ٢٢٣ ، ٢٣٤

الصين : ١٨٧ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٧ ، ٢٦٠

٢٦١ ، ٢٩٢

(ط)

الطالقان — بلدتان بخراسان : ١٧ ، ١٢٩

١٣٠

الطائف : ٨٤ ، ٣١٤

طبرستان : ٣٨ ، ٤٢ ، ٧١ ، ٧٥ ، ١٠٠

١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٢٣ ، ١٢٨ ، ١٢٩

١٧٤ ، ١٨٧ ، ٢١٤ ، ٢١٦

طبنة — بأرض الزاب بأفريقية : ١٧٧

طخارستان : ١٧ ، ١٢٩ ، ١٨٧

طرابلس الغرب : ميناء على ساحل البحر

الأبيض المتوسط بالشام : ٢٣٣

طرسوس — مدينة بآسيا الصغرى : ١٨٨

١٩٠ ، ٢٦١ ، ٣١٥

طسوج — نواحي :

طسوج الأنبار : ٢١٨

زبطرة — مدينة بآسيا الصغرى : ١٩٠

زيد — من مدن تهامة بالحجاز : ٦٣

زغر — مدينة على مقربة من البحر الميت

بفلسطين : ٢٢٩

زكية — مكان بالحجاز : ٢٧

سامرا : ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٩٨

٩٩ ، ١٠١ ، ١٤٤ ، ١٩١ ، ٢٣٠ ، ٢٦٦

٢٦٧ ، ٢٧٥ ، ٢٨٥ ، ٢٨٨ ، ٣٠٧

سجستان : ١٨٧ ، ٢١٤ ، ٢١٦ ، ٢٢٠ ، ٢٣٦

٣١٥

سر من رأى — أنظر سامرا

سرخس — إحدى البلاد التي دخلت في طاعة

أبي مسلم في بدء دعوته للعباسيين : ١٧

سستان : ٢٠٤

سيالو — حصن بيزنطي : ١٨٦

سمرقند : ٤٨ ، ٤٩ ، ٩٦ ، ١٠١

سنا باز — من أعمال طوس حيث دفن على

الرضا العلوي : ١٧٠

سورية : ٤٨ ، ٤٩ ، ٢٠٤ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٦

سوس — مدينة مشهورة بالحرير : ٢٣٠

السويس : ٢٣٦

سيراف — ميناء بالصين : ٢٣٤

سيلان — جزيرة جنوبي الهند : ١٣٤

٢٣٧ ، ٢٦٠

الشام : ٧ ، ٩ ، ١٠ ، ١٢ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٤٠

٤٨ ، ٥٢ ، ٥٤ ، ٥٩ ، ٦٦ ، ٦٩ ، ٧٢

٧٥ ، ٧٩ ، ٨١ ، ٨٤ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩

١١٧ ، ١١٨ ، ١٥٨ ، ١٦٣ ، ١٦٤

١٧٥ ، ١٨٣ ، ١٨٥ ، ١٩٠ ، ٢٠٤

٢٢١ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤

٢٣٧ ، ٢٤٧ ، ٢٦٤ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠

٢٧٤ ، ٢٧٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٢ ، ٣٠٥

الشراة — محل ميلاد المنصور على مقربة من

طسوج فيروز سابور : ٢٢٧

د قطربل : ٢١٨

د كسكرك : ٢٢٣ ، ٢٢٦ ، ٢١٩

د كوني : ٢١٨

د كوز دجله : ٢١٩

د النهر وان الاسفل : ٢١٩

د الأعلى : ٢١٩

د الأوسط : ٢١٩

د هرمز جرد : ٢١٨

طوانة — مدينة بآسيا الصغرى : ١٨٩

طوس : ١٧ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٢٧٥

(ع)

عبادان — على الخليج الفارسي : ٢٢٦

العباسية — مدينة أسسها إبراهيم بن الأغلب

على مقربة من القيروان بشمال إفريقيا :

١٨٠

عدن — ميناء على ساحل البحر عند مدخل

الخليج الفارسي : ٧٤ ، ١١٣ ، ٢٣٦

العذيب — بالقادسية : ٢٢٦

العراق : ٢ ، ٤ ، ٦ ، ١٠ ، ١٣ ، ١٧ ، ٢٧ ،

٣٦ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ٨٤ ، ٨٧ ،

٩٣ ، ٩٤ ، ١١٠ ، ١١٢ ، ١١٦ ، ١٢٣ ،

١٢٤ ، ١٤٢ ، ١٤٨ ، ١٥٨ ، ١٦٤ ،

١٦٦ ، ١٧٨ ، ٢٢١ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠ ،

٢٣٢ ، ٢٤٧ ، ٢٥٦ ، ٢٦٢ ، ٢٦٩ ،

٢٧٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٩

العقبة : ٢٦

عكاه : ٢٣٣

عمان : ٢٠٤ ، ٢٣٤ ، ٣٠٨ ، ٣١٠

عمورية — مدينة بآسيا الصغرى : ٧١ ، ٧٢ ،

٧٣ ، ١٠١ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ٢٥٥ ، ٣١٣

طسوج إيفار يقطين : ٢١٩

د بابل وخطرنية : ٢١٨ ، ٢٢٨

د بادرايا : ٢١٨ ، ٢٢٧ ، ٢٣٢

د باروسما ونهر الملك : ٢١٨

د براز الروذ : ٢١٩

د بكسايا : ٢١٩

د البراس الأعلى والأسفل : ٢١٩

د بزر جسابور : ٢١٩

د البندنيجين : ٢١٩

د نهر بوق : ٢١٩ ، ٢٣٢

د تستر : ٢١٩ ، ٢٣٠

د جازر والمدينة العتيقة : ٢١٩

د جويز : ٢١٨

د الحية والبداة : ٢١٩

د درقيط : ٢١٨

د دستي : ٢١٣ ، ٢١٤

د الدسكركه : ٢١٩

د الديين : ٢١٩

د الراذنين : ٢١٩

د رودمستان : ٢١٩

د روستقباد : ٢١٩

د الرومقان : ٢١٨

د الزواني الثلاثة : ٢١٨

د سلسل ومهروذ : ٢١٩

د سورا وبريسيا : ٢١٩

د نهر سير : ٢١٩

د السيلحين : ٢١٩

د نهر الصلة : ٢١٩

د عيسى : ٢١٨

د عين التمر : ٢١٩

د فرات بادقلى : ٢١٩

د الفلوجة السفلى : ٢١٨

د الفلوجة العليا : ٢١٨

عذاب : ٢٣٧

عيساباذ — المكان الذي توفي به الهادي : ٢٧٥
العيسقان — بلد بين كشمير والملتان بالهند :

١٩٣

(غ)

غزنة — مدينة بأفغانستان : ٢٣٦
غوة دمشق : ٤٥

(ف)

فارس : ١٤ ، ٦٨ ، ٩٣ ، ١١٦ ، ١٢٣ ،
١٢٤ ، ١٦٤ ، ٢٠٤ ، ٢١٣ ، ٢١٦ ،
٢٢٠ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠ ، ٢٣٢ ، ٢٣٥ ،
٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٤٠ ، ٢٥٦ ، ٢٦٤ ،
٣١٠ ، ٣٠٨ ، ٢٦٩

فخ — وادي في طريق مكة : ١٢٦ ، ١٢٧ ،
١٧٩

فرغانة : ١٠١ ، ١٨٧

الفرما : ٥٧ ، ٢٣١ ، ٢٣٦

الفسطاط : ١٨ ، ٦٦ ، ٢٦٦

فلسطين : ١٠ ، ١٨ ، ٧٢ ، ٧٨ ، ١٨٤ ،

١٨٤ ، ٢٠٤ ، ٢١٥ ، ٢١٧ ، ٢٢١ ،

٢٢٣ ، ٢٢٩

فم الصلح — إقليم على قناة كبيرة تعرف بهذا

الاسم تأخذ من دجلة فوق واسط : ٦٨

فيد — على مقربة من المدينة المنورة : ١٢٢

(ق)

القادسية : ٢٢٦ ، ٢٦٧

القاهرة : ٢٦٦

قرطبة : ١٨١ ، ٢٣٣

قرب : مدينة شهيرة بالسجاجيد : ٢٣٠

القسطنطينية : ١٧٥ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ٢٥٧ ،
٢٨٣

قصير عمرة : بيت للصيد شرقي البحر الميت
بفلسطين : ٢٦٥

القلزم : ٢٣٦

قوس : مدينة بفارس : ٢١٤ ، ٢١٦

القيروان : ٤٧ ، ١٧٥ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ،
١٨٢ ، ٢٣٣ ، ٢٤٧ ، ٢٧١

القيس : مدينة بمصر اشتهرت بالثياب
الصوفية : ٢٣٠

القيقان : ١٩٢

(ك)

كابل — عاصمة أفغانستان : ١٨٧ ، ١٩٢ ،
٢٣٦

كانتون — ميناء بالصين : ٢٣٤

كربلاء : ٢ ، ١١٠ ، ١٢٦

الكرخ — بحى السكاظية حيث مشهد موسى

السكاظم : ١٤٠ ، ١٦٢ ، ٢٠٨ ، ٢١٤ ،

٢٨٢ ، ٢٣٢ ، ٢٢٧ ، ٢٢٦ ، ٢١٨ ،

٢٨٩ ، ٢٨٣

كرمان : ٧٥ ، ٢١٣ ، ٢١٦ ، ٢٢٠ ، ٢٣٧ ،

٣١٥ ، ٣٠٨

كروماندل : ٢٣٤

كش : إحدى البلاد التي دخلت في طاعة

أبي مسلم في بدء الدعوة العباسية : ١٧ ، ٩٦ ،

كشمير : إحدى مقاطعات الهند : ١٩٢ ،

١٩٣ ، ٢٣٧

كله : مدينة بالهند في منتصف الطريق بين

عمان والصين : ٢٣٥

الكناسة : ٨٤ ، ١٦٣

مصر : ٢٠١٨ ، ٤٠٥٢ ، ٥٣ ، ٦٩ ، ٧٥ ،

٨٩ ، ١١٧ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٨ ،

١٢٩ ، ١٣٤ ، ١٦٤ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ،

١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨٤ ، ٢٠٤ ، ٢١٧ ،

٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ،

٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٦ ، ٢٤٧ ، ٢٥٦ ، ٢٦٧ ،

٢٧٠ ، ٢٨٦ ، ٢٩٢ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ،

المغرب : ٧ ، ٤٦ ، ٥٠ ، ٧٥ ، ١٢٣ ، ١٢٧ ،

١٢٨ ، ١٣٤ ، ١٣٨ ، ١٦٤ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ،

١٧٦ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ ،

٢٢١ ، ٣١٥ ،

مكران : ٢١٣ ، ٢١٦ ، ٢٢٠ ، ٢٠٨ ،

مكة : ١٢ ، ١٣ ، ١٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٤٠ ،

١١٥ ، ١١٦ ، ١٢٢ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ،

١٢٩ ، ١٤٢ ، ١٤٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٨٢ ،

٢١٥ ، ٢٣٣ ، ٢٣٦ ، ٢٦٥ ، ٢٦٧ ، ٣١٣ ،

ملبار : ٢٣٤ ، ٢٣٥ ،

الملتان — مقاطعة بالهند : ١٩٢ ، ١٩٣ ، ٢٣٥ ،

ملطية — مدينة بآسيا الصغرى : ١٨٥ ،

المهدية — بأرض جيحان على الحدود العباسية

البيزنطية : ١٨٦ ،

مهران — نهر : انظر نهر السند

موريان — قرية من نواحي خوزستان : ١٩٦ ،

الموصل : ٢٧٠ ، ٢٧٤ ،

موقان : ٢١٤ ،

الملايو : ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٦٠ ،

ميديا : ١٠٠ ،

(ن)

نابلس : ٢٢٩ ،

نبارى — أحد أماكن لهُو الأمين : ٦٠ ،

نجد : ٢٤٧ ،

كوزيا : ٢٣٥ ، ٢٦٠ ،

الكوفة : ١١ ، ١٢ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ،

١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٣١ ، ٥٤ ،

٦٦ ، ٧١ ، ٧٩ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ٨٥ ،

٨٩ ، ٩٠ ، ٩٣ ، ١٠٥ ، ١١١ ، ١١٣ ،

١١٤ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١٢٩ ، ١٤٥ ،

١٤٨ ، ٢٠٤ ، ٢١٤ ، ٢١٦ ، ٢٢٠ ،

٢٢٧ ، ٢٣٠ ، ٢٤٦ ، ٢٥١ ، ٢٦٨ ،

٢٦٩ ، ٢٧١ ، ٢٧٤ ، ٢٧٨ ،

(م)

ماسبذان : ٢١٦ ، ٢٢٠ ، ٢٧٥ ،

المباركة — مزرعة كانت في موضع بغداد :

٢٧٠ ،

المحول — إقليم يبعد عن بغداد بفرسخ واحد :

٢٢٧ ،

المدائن : ٩٠ ،

المدينة المنورة : ٧ ، ١٢ ، ٣٧ ، ٤٠ ، ٥٤ ،

٧٤ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ،

١٢٢ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٩ ،

١٣٨ ، ١٤٥ ، ٢١٥ ، ٢٣٦ ، ٢٤٧ ،

٢٦٥ ، ٢٧٦ ،

مرج راهط — مكان حدثت به موقعة بين

المصريين والتمنيين سنة ٥٦٥ هـ : ٩ ، ٧٤ ،

مرعش — بآسيا الصغرى : ١٨٥ ، ١٨٦ ،

١٨٨ ،

مرو — حاضرة خراسان : ٥ ، ١٦ ، ٦٣ ،

٦٦ ، ٩٥ ، ٩٧ ، ١٢٩ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ،

٢٣٧ ، ٢٥٥ ،

مرو الروذ — إحدى البلاد التي دخلت في

حوزة أبي مسلم في بدء دعوته : ١٧ ، ١٢٩ ،

مسكن : ٢١٨ ،

نسا — إحدى مقاطعات فارس : ١٧
نسف — إحدى المقاطعات التي دخلت في
حوزة أبي مسلم في بدء دعوته للعباسيين:

١٧

نصيبين : ٤٧
نهر :

نهر الأردن بفلسطين : ١٨ ، ٧٢ ، ٧٥ ،

٢١٥ ، ٢١٧ ، ٢٢١ ، ٢٣٣ ،

نهر بين بالعراق : ١٦٢

نهر الدجاج : ٢٩٠

نهر دجلة : ٤٧ ، ٦٠ ، ٦٨ ، ١٤٩ ، ١٦٣ ،

١٩٠ ، ٢٠٤ ، ٢١٣ ، ٢١٦ ، ٢٢١ ،

٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٣٢ ، ٢٣٤ ، ٢٦١ ،

٢٦٦ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ،

٢٧٤ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٠٩ ، ٣٢٤ ،

دجيل — نهر بالعراق : ٢٢٧

رفيل — نهر يأخذ مائه من نهر عيسى :

٢٢٧ ، ٢٦٦ ، ٣٠٧ ،

نهر الزاب الأصغر — بالعراق : ١٧

نهر السند — بالهند : ٨ ، ١١٣ ، ١٢٣ ،

١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ٢٠٤ ، ٢١٣ ،

٢١٦ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٧٠ ،

نهر سيحون — بآسيا الوسطى : ٥ ،

١٧٣ ، ٢٣٧ ،

نهر الصراة — يأخذ مائه من نهر عيسى

بالعراق : ٢٢٧ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٧٢ ،

٢٨٣

نهر عيسى : ٢٢٧ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٦٩ ،

٢٨٣

نهر الفرات : ١٧ ، ٢٣ ، ١٨١ ، ١٨٦ ،

٢٠٤ ، ٢١٧ ، ٢٢١ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ،

٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ،

نهر أبي فطرس بفلسطين : ١٨ ، ٧٨ ، ٨١ ،

١٨١ ، ٨٢

نهر القاطول — على خمسة فراسخ من سامرا :

٩٨ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ،

نهر القلائين — نهر بالعراق : ٢٧٧

نهر كرخايا — نهر بالعراق : ١٦٣ ، ٢٧٦ ،

النهر وان : ١٠٧

يسابور : ٨٨ ، ٩٢ ، ١٩٨ ،

(ه)

هراة — أحد الأماكن التي دخلت في طاعة

أبي مسلم في بدء الدعوة العباسية : ١٧

هرقلة — مدينة بآسيا الصغرى : ١٨٧ ، ١٨٩ ،

٢٥٥

همدان : ٣١ ، ٦٢ ، ١٥٨ ، ٢١٤ ، ٢٢٠ ،

الهند : ١٧٥ ، ١٨٧ ، ١٩١ ، ١٩٣ ، ٢٢٩ ،

٢٣٢ ، ٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٦٠ ،

٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٧٠ ، ٢٩٢ ، ٣١٠ ،

الهند الصينية : ٢٣٥

الهوب — أحد أماكن لحو الأمين : ٦٠

(و)

واسط : ١٧ ، ٦٤ ، ٦٨ ، ٧١ ، ٩٤ ، ١١٦ ،

٢٣٢ ، ٢٦٢ ، ٢٧٠ ، ٢٧٤ ، ٢٧٧ ،

(ي)

يثر : ٢٦٨

اليامة : ٧٥ ، ٢٠٤ ، ٣٠٨ ، ٣١٤ ،

الين : ٢ ، ٣ ، ١٦ ، ٤٠ ، ٦٣ ، ٩٤ ، ١٢٣ ،

١٢٩ ، ١٧١ ، ١٧٤ ، ١٨٠ ، ٢٠٤ ،

٢١٥ ، ٢١٧ ، ٢٢٩ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ،

٢٤٥

٣ — الكلمات التي تدل على حوادث تاريخية هامة :

١١١ — ١١٢ ، ١٧١ ، ١٨١ ، ١٨٣ ،

١٨٤ ، ٢١١ ، ٢٢٩ ، ٢٥١ ، ٢٦٥ ،

٢٦٨ ، ٢٨٩ ، ٣١٨

تمثيل العباسيين بالأمويين : ٧٨ : ٨٢

الأنصار : ٧٠ ، ١

أهل الذمة — النصارى واليهود : ٢٩٠ ، ٢٩١ ،

أهل السنة : ١٤٤ — ١٤٧ ، ٢٤٨ — ٢٤٩

مبادئهم : ١٤٥

تدخلهم في الأمور السياسية وأثره : ١٤٥

أبو حنيفة النعمان : ١١٦ ، ١٢٤ ، ١٤٥ ،

١٤٦ ، ٢٢١ — ٢٢٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٦ ،

٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٧٤

أحمد بن حنبل : ٦٣ ، ٧٠ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ،

٢٤٦ ، ٢٤٧

الشافعى : ١٤٦ ، ٢٢١ ، ٢٤٥ ، ٢٤٧

مالك بن أنس : ١١٦ ، ١٢٤ ، ١٤٥ ،

١٤٦ ، ٢٢١ ، ٢٤٥ ، ٢٤٧

(ب)

البرامكة :

نفوذهم : ٤٩ — ٥٤

نسبة البرامكة وأسبابها : ١٤٩ — ١٥٥

قصور البرامكة : ٣٠٧ — ٣٠٨

إتهامهم بالزندقة : ١٠٧ ، ١٥٣

ما قيل في رثائهم : ١٥٤ — ١٥٥

برمك : ٤٩ — ٥٠

جعفر بن يحيى البرمكى : ٥١ — ٥٤ ، ٨٦ ،

١٢٧ ، ١٤٩ ، ١٥١ — ١٥٤ ، ١٥٦ ،

١٩٦ ، ١٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠٧

خالد بن برمك : ٢٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ١٩٦ ،

١٩٧ ، ١٩٩

(١)

الأتراك : ٧١ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ١٠٤ ، ١٠٩ ،

١٧١ — ١٧٤ ، ٢٠٩ ، ٢٢٨ ، ٢٨٥ ،

٢٨٦ — ٢٩٠ ، ٢٩٢

المعتصم والأتراك : ١٧١ ، ١٧٢ ، ٢٨٥ ،

الوائق وزيادة نفوذ الأتراك : ١٧٤

المتوكل والأتراك : ١٧٤

استيلاء العرب من الأتراك : ١٧٣ — ١٧٤

ظهور الحزب التركى : ١٧٤

الادارة : ٦٣ ، ١٢٨ ، ١٣٨ ، ١٧٨ ، ١٨٠ ،

الأعياد : ٣١٥ — ٣١٨

الاحتفال بالعديد : ٣١٥ — ٣١٦

الاحتفال بالنوروز والمهرجان والرام :

٣١٦ — ٣١٨

الأغلبة : ٤٧ ، ٦٣ ، ١٧٤ ، ١٧٦ — ١٧٧ ،

١٧٩ — ١٨٠

الأكراد : ٧٢

الإمارة : ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤

أنواعها :

إمارة الاستكفاء : ٢٠٣

إمارة الاستيلاء : ٢٠٣

الإمارة الخاصة : ٢٠٤

الإمامية :

الاثنا عشرية : ١٤ ، ١٢٩ ، ١٣٩ ،

١٤٠ ، ١٤٣ ، ١٦٤ ، ٢٨٨

الإسماعيلية : ١٤ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ،

الزيدية : ٦ ، ٧ ، ١١٠ ، ١٤٠ ، ١٤٢ ،

١٤٣ ، ٢٥٠

الأمويون : ١ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٧ ، ١١ ، ١٣ ،

٢٣ ، ٢٧ ، ٤٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٧ ،

(ح)

بنو الحارث : ٨٥
الحجاجة : ١٩٦ ، ٢٠٢
أشهر الحجاب :
الفضل بن الربيع : ٣٣ ، ٥٢ ، ٥٦ ،
٦٧ ، ٦٨ ، ١٥٠ ، ١٥٧ ، ١٦٠ ،
١٦١ ، ١٧١ ، ٢٠٠ — ٢٠٢
إيتاخ : ٧٢ ، ٢٠٢
حفلات الزواج : ٣٢٢ — ٣٢٢

(خ)

الخراج : ٢١١ — ٢١٢
طرق جبايته :
المحاسبة : ٢١١
المقاسمة : ٢١١
المقاطعة : ٢١١
الخرمية :
مبادئهم : ٩٩ — ١٠٠
حروبهم : ٩٦
بابك الخرمي : ٧٢ — ٩٤ ، ٩٦ ،
٩٧ — ٢٠٢ ، ٢٠٤ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ،
٢٩١
جاويدان : ٩٧ ، ٩٩
عبد الله الخرمي : ٩٩
المعتصم والخرمية : ٩٧
القضاء عليهم : ٩٧ — ٩٩
الخوارج : ٢ — ٦٠٤ ، ٢٦٠٨ ، ٣٠ ،
١٤٠ ، ١٧٦ ، ٤٢
بعض فرقهم :
الإباضية : ٦ ، ١٧٨

الفضل بن يحيى البرمكي : ٤٦ ، ٥١ ، ٥٢ ،
٥٤ ، ٥٥ ، ١٢٧ ، ١٥٠ ، ١٥٨ ،
٢٢٢ ، ٣٠٧
محمد بن يحيى البرمكي : ٥١ ، ٥٤
موسى بن يحيى : ٤٨ ، ٥١ ، ٥٤ ،
١٥٢
يحيى بن خالد البرمكي : ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٩ —
٥٢ ، ٥٤ ، ٥٧ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ،
١٥٢ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٩ ، ١٨٦ ،
١٩٨ ، ٢٠١ ، ٢١٣ ، ٢٥٩ ، ٣٠٧
البربر : ٤٧ ، ١٧٥ — ١٧٩
البيزنطيون — أنظر الروم

(ت)

التحكيم : ٢
أنواع التسلية : ٣٢٢ — ٣٢٤
التنس : ٣٢٤
لعبة الجريد : ٣٢٣
لعبة الجوكان : ٣٢٣
الرمي بالنشاب : ٣٢٣
الشطرنج : ٣٢٣
الصولجان : ٣٢٣
الصيد : ٣٢٣ ، ٣٢٤
لعبة الكريكييت : ٣٢٤
النرد : ٣٢٣
تغلب : ٢٠
التوابون : ٢

(ث)

الثنوية : ١٠٥ ، ١٠٩

(ج)

الجماعة — الذين رضوا خلافة أبي بكر وعمر :

المهدى والروم : ١٨٥ — ١٨٧
 الرشيد والروم : ١٨٧ — ١٨٩
 الأمين والروم : ١٨٩
 المأمون والروم : ١٨٩ — ١٩٠
 المعتصم والروم : ١٩٠ — ١٩١

(ز)

الزرادشتية : ٩٤ ، ١٠٦
 الزط :
 ثورتهم على المأمون : ٦٥
 ما قيل فيهم من الشعر : ٦٦
 ثورتهم على المعتصم : ٧١
 القضاء عليهم : ٧١
 الزنادقة :
 مبادئهم : ١٠٥ — ١٠٦
 انتشارها في بيوت الوزراء والشعراء :
 ١٠٦ — ١٠٧
 المهدى والزنادقة : ٣٩ — ٤٠ ، ١٠٦
 الهادي والزنادقة : ٤٢ ، ١٠٧
 الرشيد والزنادقة : ١٠٧
 شعراء الزنادقة : ١٠٨ — ١٠٩
 انتشارها في بلاط المعتصم : ١٠٩
 ما قيل في ذمهم : ١٠٧ — ١٠٩
 أبحاثهم في العلم والأدب والسياسة :
 ١٠٩
 جهاد المعتزلة للزنادقة : ١٠٩ — ١١٠

(س)

سياق الخيل : ٣٢٣
 بنو سليم : ٧٤

(د)

الدهاقين : طبقة ملاك الأراضي من الفرس :
 ١٣
 ديوان : ٢٠٤ — ٢٠٥
 ديوان الأحداث والشرطة : ٢٠٥
 د . الأحشام : ٢٠٥
 د . الأكرة : ٢٠٥
 د . البريد : ٢٠٥
 د . الجند : ٢٠٥
 د . الحوامج : ٢٠٥
 د . الخراج : ٢٠٥
 د . الدية : ٢٠٥
 د . الرسائل : ٢٠٥
 د . الزمام : ٢٠٥
 د . العطاء : ٢٠٥ ، ٢٢٩ ، ٢٩١
 د . المنح : ٢٠٥
 د . الموالي : ٢٠٥
 د . النظر في المظالم : ٢٠٥

(ر)

الراوندي :
 مبادئهم : ٩٣ — ٩٤
 القضاء عليهم : ٩٤
 ريعة : ٤٠ ، ٢٩٠
 الرزّامية — كانوا كيسانية في الأصل :
 مبادئهم : ٩٥
 الرقيق : ٢٩٢
 الروم : ١٨٤ ، ٧٣ ، ٧١ ، ٦ — ١٩١ ، ٢٦٢ ، ٢٩٢
 المنصور والروم : ١٨٥

العلويون : ١١، ٧ — ١٤، ٢٧، ٣٢، ٣٧،
 — ٨٤، ٨٢، ٧٠، ٦٦، ٦٣، ٤٢، ٣٩
 ، ٨٧، ١١٠، ١٤٠، ١٤٣، ١٤٧،
 ١٥٧، ١٦٥، ١٦٧ — ١٧١، ٢٩١
 قضاء العباسيين على العلويين :
 المنصور ومحمد وإبراهيم ابني عبد الله
 العلوي : ١١٢ — ١٢١
 عوامل إخفاق ثورة محمد النفس الزكية :
 ١٢١ — ١٢٥
 الهادي والحسين بن علي المثلث الحسنات :
 ١٢٥ — ١٢٧
 ما قيل في رثاء الحسين : ١٢٦
 الرشيد ويحيى وإدريس ابني عبد الله
 العلوي : ١٢٧ — ١٢٨
 الرشيد وموسى الكاظم العلوي : ١٣٨
 — ١٣٩
 المأمون وعلي الرضا العلوي : ١٦٤ —
 ١٧١
 المأمون ومحمد الديباج العلوي : ١٢٩،
 ١٧٠
 المأمون وأبو السرايا العلوي : ١٢٩
 المأمون وعبد الرحمن العلوي : ١٧١
 المأمون والقاسم بن إبراهيم العلوي :
 ١٢٩ — ١٣٠
 المعتصم والقاسم العلوي : ١٣٠
 تشكيل العباسيين بوزرائهم الذين مالوا
 للعلويين :
 قتل أبي سلة الخلال : ١٤٧ — ١٤٨
 عزل يعقوب بن داود وزير المهدي :
 ١٤٨ — ١٤٩
 البرامكة والعلويون : ١٤٩، ٢٥٢
 الفضل بن سهل والعلويون : ٢٥٥ —
 ٢٥٧

السمطية — يقولون بإمامة محمد بن جعفر
 الصادق : ١٢٨

(ش)

الشيعة : ١ — ٦، ٣ — ١١، ٨، ١٤٠، ٨٢،
 ١٥٤، ١٤١، ١٤٠
 تأثر الشيعة بالمعتزلة : ١٤٠ — ١٤٢
 فرق الشيعة :
 الغالية ومنهم السبئية : ٢١، ١٤٢
 الرافضة : ١٤٢
 الزيدية : ٦، ٧، ١١٠، ١٤٠، ١٤٢
 فرق الشيعة وعلاقتها بالمعتزلة : ١٤٢
 ميل يعقوب بن داود وزير المهدي للزيدية :
 ١٤٨
 أشهر شعراء الشيعة : ٢٥٤

(ص)

الصائبة : ٩٣
 صاحب البريد : ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٧
 صاحب الشرطة : ٢٠٦، ٢٠٧
 صاحب المظالم : ٢٢٣ — ٢٢٤
 الصقالبة : ٢٩٢
 الصيد : ٣٢٣

(ط)

الطعام : ٣٠٩ — ٣١٠

(ع)

بنو عامر : ٧٥
 العلوج — أنظر الموالي :

(ك)

الكتابة: ٢٠١

كاتب الرسائل: ٢٠١

د الخراج: ٢٠١

د الجند: ٢٠١

د الشرطة: ٢٠١

د القاضي: ٢٠١

أشهر كتاب الرسائل:

أحمد بن المدير: ٢٠١

أحمد بن يوسف: ٢٠١، ٢٠٠، ٦٧

الحسن بن سهل: ٦٤ — ١٢٩، ٦٨

١٥٧، ١٦٦، ١٦٩، ١٩٩ — ٢٠١

٢٤٢، ٢٦١

الحسن بن وهب: ٢٠١

الفضل بن الربيع: ٣٣، ٥٢، ٥٦

٦٧، ٦٨، ١٥٠، ١٥٧، ١٦٠

١٦١، ١٧١، ٢٠٠، ٢٠١ — ٢٠٢

الفضل بن سهل: ٦٥ — ٨٦، ٦٧

١٤٧، ١٥٥ — ١٥٧، ١٦٠، ١٦١

١٦٦، ١٦٨، ١٦٩، ١٩٩، ٢٠٠

٢٠١، ٢٦١، ٢٦٢

محمد بن عبد الملك الزيات: ٧٣، ٧٥

١٠٢، ١٠٣، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٦٧

يحيى بن خالد البرمكي: ٤٢، ٤٣، ٤٩ —

٥٢، ٥٤، ٥٧، ١٤٩ — ١٥٢، ١٥٠

١٥٥، ١٥٦، ١٥٩، ١٨٦، ١٩٨

٢٠١، ٢١٣، ٢٥٩

كلب: ٩

السكيسانية — أتباع محمد بن الحنفية: ١١

— ١٢

أشهر شعرائهم:

السيد الحميري: ١٣١، ١٣٢، ١٣٣

١٣٥، ٢٥٤

تولية الرشيد أولاده الثلاثة العهد وأثره

في تقوية الحزب العلوي: ١٥٨ —

١٦٠

ميل الفرس للعلويين وأسبابه: ٨٥، ٨٦

الجهاد النظري بين الحزبين العلوي

والعباسي: ١٣٠ — ١٤٠

(ف)

الفاطميون: ٤٧، ٦٣، ١٧٤، ١٨٠، ٢٦٦،

٣٠٧

(ق)

القاضي: ٢٢١ — ٢٢٣

القدرية: أنظر المعتزلة

قصر:

الخميلة: ٦٠، ١٤٩، ١٦٢، ٢٦٦

٢٧٨، ٣٠٦

الخيزرانية: ٦٠

قصر جعفر البرمكي: ٣٠٧، ٣٠٨

قصر الذهب: ٢٧٨، ٣٠٦

الرصافة: ٢٦٦

رقة كلواذي: ٦٠

عيسى: ٢٢٧، ٢٢٦، ٣٠٧

المعلي: ٦٠

قصر محمد بن سليمان بالبصرة: ٢٦٧،

٣٠٨

قصر نباري: ٦٠

القصر الهاروني: ٣٠٧

الهاشمية: ٢٣، ٨٤، ٢٦٩

الهاب: ٦٠

الوضاح: ٢٦٦

قيس: ٩، ٧٣

(م)

المانوية: ٩٣، ٩٤، ١٠٥، ١٠٦ —
مجالس الغناء والطرب:

مراتب الندماء: ٢٩٢ — ٢٩٤

مجلس غناء الرشيد: ٢٩٤ — ٣٠٠

• غناء الأمين: ٣٠١ — ٣٠٢

• غناء المأمون والمعتصم والوائق:

٣٠٢ — ٣٠٥

الحميرة — فرقة من الخرمية أتباع بابك

الخرمي: ١٠٠ — ١٠٤

مبادئهم: ١٠٠ — ١٠٤

زعماؤهم:

الافشين: ١٠٠ — ١٠٤، ٢٩١

المازيار: ١٠٠ — ١٠٤، ٢٩١

محاكمتهم في عهد المعتصم: ١٠٢ —

١٠٤

بنومدرار: ١٧٨

المرجثة: الذين يرجئون الحكم على العصاة:

٤٠١ — ٤٠٦، ١٤٠، ٢٤٨

بنومرة — مركزهم عدن: ٧٤

بنومروان: ٢١، ٢٢

المزدكية: ٩٤

المضرية — عرب الشمال: ٩، ١٦، ٤٠،

٤٨، ٥٩، ١٨٠ — ١٨١، ٢٠٩، ٢١٠،

٢٨٩ — ٢٩٠

المعتزلة:

مبادئهم: ١٤٠

تأثر الشيعة بالمعتزلة: ١٤٠ — ١٤٢

المعتزلة وعلاقتها بفرق الشيعة: ١٤٢

اشتراك المعتزلة في مبايعة محمد النفس

الزكية: ١٤٢

نفوذهم في بلاط الخلفاء: ٢٤٩

المأمون والمعتزلة: ١٤٣ — ١٤٤، ٢٤٩

المعتصم والمعتزلة: ٦٩، ٧٠، ١٤٤

الوائق والمعتزلة: ٧٤، ٧٥، ٧٦، ١٤٤

الفرق بين المعتزلة وأهل السنة: ١٤٥،

٢٤٨، ٢٤٩

المعتزلة وتفسير القرآن: ٢٤١ — ٢٤٢،

٢٤٤

أشهر أئمة المعتزلة:

الخطاط: ١٤٢، ٢٥٠

النظام: ١١٠، ٢٤٨

أبو الهذيل العلاف: ١٠٩، ٢٤٨،

٢٥٠

وأصل بن عطاء: ١٠٩، ١٤١، ١٤٢،

٢٤٨

أثر تعاليمهم في النهضة الثقافية: ٢٤٩ —

٢٥٠

شعراء المعتزلة: ٢٥٤

المغاربة — أهل خوف مصر: ٢٨٦، ٢٩٠،

٢٩٢ —

المقتنية:

مبادئهم: ٩٢، ٩٥

ثورتهم على المهدي: ٩٥

القضاء عليهم: ٩٦

المواكب: ٣١٨ — ٣٢١

موكب الجمعة: ٣١٨

موكب الحج: ٣١٩

الموالي: ٢، ٣، ٦، ١٣، ١٤، ٨٤، ١٤٧،

١٥٧، ١٧١

الملابس: ٣١٠ — ٣١٢

ملابس الرجال:

إزار: ٣١١، ٣١٢

جرموق: ٣١٢

حزام: ٣١١، ٣١٢

نوعا الوزارة :

وزارة التفويض : ١٩٨ ، ١٩٩

و التنفيذ : ١٩٨ — ١٩٩

أشهر وزراء التفويض :

أحمد بن أبي دؤاد : ٧٤ ، ١٠٢ ، ١٠٤ ،

١٤٤ ، ١٩٩ ، ٢٢٢

الحسن بن سهل : ٦٤ — ٦٨ ، ١٢٩ ،

١٥٧ ، ١٦٦ ، ١٦٩ ، ١٩٩ — ٢٠١ ،

٢٤٢ ، ٢٦١ ، ٢٦٢

جعفر البرمكي : ٥١ ، ٥٤ ، ٨٦ ، ١٢٧ ،

١٤٩ ، ١٥١ ، ١٥٤ ، ١٥٦ ، ١٩٦ ،

١٩٩

خالد البرمكي : ٢٨ ، ٤٩ — ٥٠ ، ١٩٦ —

١٩٧ ، ١٩٩ ، ٢٨٠

الفضل بن سهل : ٦٥ — ٦٧ ، ٨٦ ،

١٤٧ ، ١٥٥ — ١٥٧ ، ١٦٠ —

١٦١ ، ١٦٦ ، ١٦٨ — ١٦٩ ، ١٩٩ —

٢٠١ ، ٢٦١ ، ٢٦٢

أشهر وزراء التنفيذ :

أحمد بن أبي خالد : ٦٤ ، ٦٧ ، ٢٠٠ ،

٢٨٦

أحمد بن يوسف : ٦٧ ، ٢٠٠ ، ٢٠١

محمد بن عبد الملك الزيات : ٧٣ ، ٧٥ ،

١٠٢ ، ١٠٣ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٦٧

(ي)

البنية — عرب الجنوب : ٥ ، ٩ — ١٠ ،

١٦ ، ٤٨ ، ٥٩ ، ٧٢ ، ١٨٠ — ١٨١ ،

٢٠٩ — ٢٨٩ ، ٢١٠ — ٢٩٠

دراعة : ٣١١ ، ٣١٢

سيرة : ٣١١

طيلسان : ٣١١

عبادة : ٣١١

عمامة : ٣١١

قباء : ٣١١

قفطان : ٣١١

قيص : ٣١١

كلوة : ٣١١

منطقة : ٣١١

موزاج — جورب : ٣١٢

ملابس النساء :

أساور : ٣١٢

البرنس : ٣١٢

حلي : ٣١٢

الخلاخل : ٣١٢

قيص : ٣١٢

مناطق : ٣١٢

متديل : ٣١٢

ملامة : ٣١٢

نعال : ٣١٢

(ه)

بنو هاشم : ١١ ، ١٣ ، ١٧ ، ٣٧ ، ٥٨ ، ٦٤ ،

٦٦ ، ٧٨ ، ٨٢ ، ١١٢ ، ١١٥ ، ١٥٩ ،

١٧١

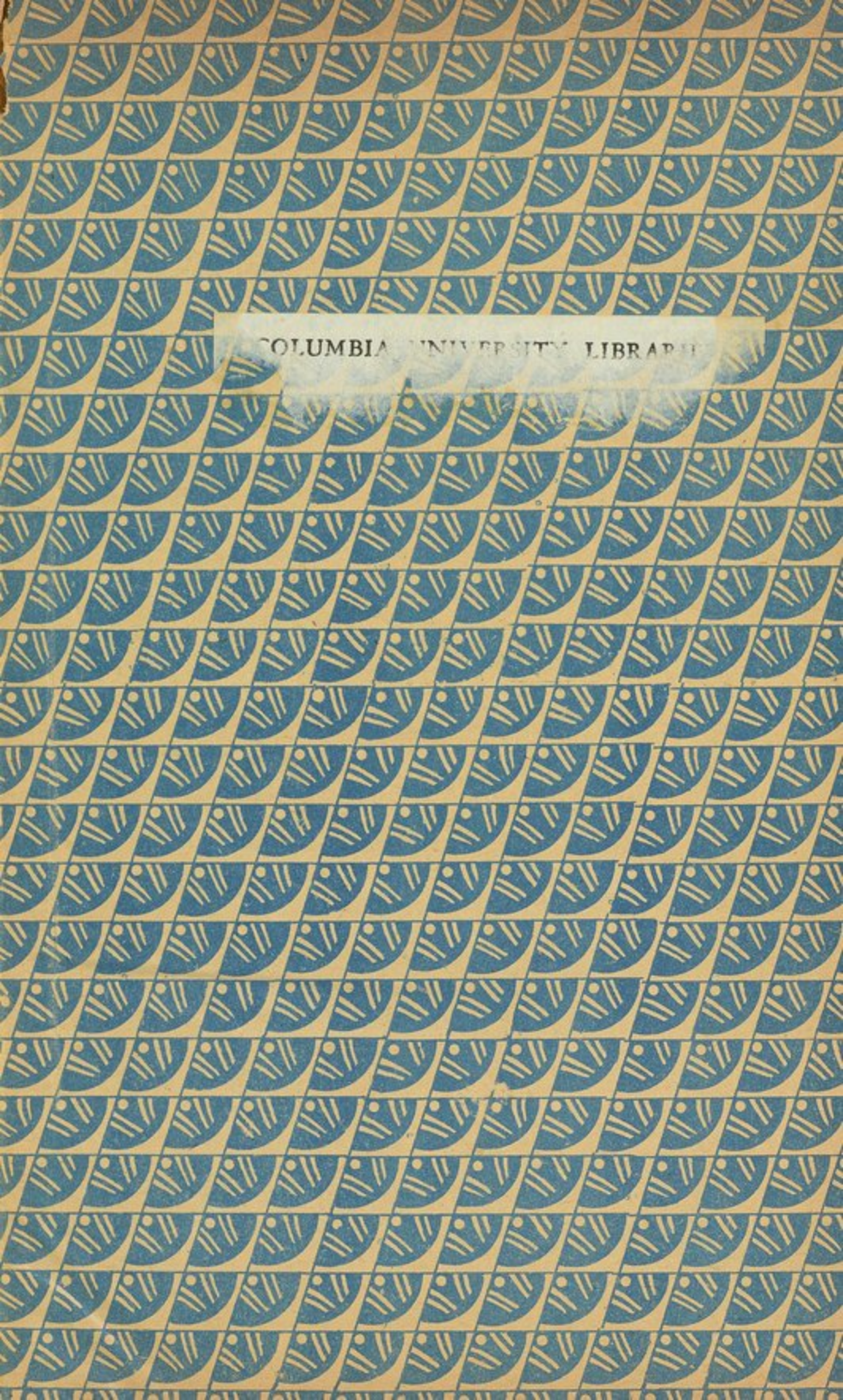
(و)

الوزارة : ١٩٦ — ٢٠١

كتب المؤلف

- ١ - « تاريخ عمرو بن العاص » الطبعة الثانية (القاهرة ١٩٢٦) .
- ٢ - « الفاطميون في مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص » (المطبعة الأميرية ببولاق ١٩٣٢) . وضعه المؤلف بالانجليزية . The Fatimids in Egypt, considered. Chiefly in connection with their Politico — Religious Activities. وترجمه إلى العربية .
- ٣ - « تاريخ العصور الوسطى في الشرق والغرب » للسنة الثانية الثانوية (بالاشتراك مع الأستاذ احمد صادق الطنطاوى المفتش بوزارة المعارف) الطبعة الثانية سنة ١٩٣٣ .
- ٤ - « أوراق البردى العربية بدار الكتب المصرية » تأليف الدكتور أدولف جروهمان Adolfe Grohmann : Arabic Papyri in the Egyptian Library. أستاذ الثقافة الإسلامية بجامعة براغ — ترجمه المؤلف إلى العربية (دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٩٣٤) .
- ٥ - « السيادة العربية والشيعية والإسرائيليات في عهد بنى أمية » تأليف فان فلوتن Van Vloten : Recherches sur la Domination arabe, le Chi' itisme et les croyances messianiques sous le Chilafat des Omayyades. ترجمه المؤلف عن الفرنسية إلى العربية وعاق عليه ، بالاشتراك مع الأستاذ محمد زكى ابراهيم (القاهرة ١٩٣٤) .
- ٦ - « تاريخ الاسلام السياسى ، الجزء الأول ، ويبحث في تاريخ العرب قبل الإسلام ، والبعثة النبوية ، والخلفاء الراشدين ، والدولة الأموية ، والحضارة العربية في عهد الخلفاء الراشدين والأمويين (القاهرة ١٩٣٥) — الطبعة الثانية ستظهر قريباً .
- ٧ - « النظم الإسلامية » بالاشتراك مع الدكتور على ابراهيم حسن ، مدرس التاريخ بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول (القاهرة ١٩٣٩) .
- ٨ - « المجمل في التاريخ المصرى » نشره المؤلف (القاهرة ١٩٤٢) وكتب فيه الباب الذى عنوانه « مصر الإسلامية من الفتح العربى إلى الفتح العثمانى » ص ١٢٧ — ٢٢٩ .
- ٩ - « النظم الإسلامية للسنة التوجيهية » . قررت وزارة المعارف استعمال هذا الكتاب لطلبة السنة التوجيهية ، الطبعة الثالثة (المطبعة الأميرية ببولاق ١٩٤٥) .
- ١٠ - « تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى » الجزء الثانى — العصر العباسى الأول ١٣٢ — ٢٣٢ هـ = ٧٥٠ — ٨٤٧ م (القاهرة ١٩٤٥) .





COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARY

0026817403

893.791

H27
v.2

